د. إبراهيم أحمد الحاردلو

تم التصحيح والمراجعة

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا
فرع الأدب

٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٦٦٥٣

الشكوى في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي

إعداد الطالب
ظافر عبد الله علي الشهري

إشراف الأستاذ الدكتور
إبراهيم أحمد الحاردلو

١٤١٠ - ١٤١١هـ
١٩٨٩ - ١٩٩٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص رسالة دكتوراه

عنوان البحث : الشكوى في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري .
اسم الباحث : ظافر عبدالله علي الشهري .
الدرجة العلمية : درجة الدكتوراه.
تاريخ المناقشة : يوم الأربعاء ٨/٢٧ /١٤١١هـ .

تناولت في هذه الدراسة الشكوى في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، وقد جاءت في أربعة أبواب تسبقها مقدمة وتمهيد ، وتتلوها خاتمة بأهم النتائج ثم الفهارس .

أوضح البحث أن الشكوى قد استقلت بغرض شعري منذ القدم ، ثم أخذت تتسع بتقدم الانسان في ميدان الثقافة والتحضر حيث كثرت مسئولياته واتسعت حاجاته وتعددت مشكلاته العامة والخاصة تبعا لذلك ، ومن هنا فان سبب اغفال بعض النقاد القدامى والدارسين المحدثين لغرض الشكوى في دراساتهم لم يكن دقيقا.

وقف البحث على مميزات كثيرة لهذا الغرض ومن أهمها: تميز شعر الشكوى في جانبه الفني بالصدق اذ اتسمت معانيه بالصراحة بعيدا عن التزويق والمجاملات ، بما يكشفه من خلل على مستوى الفرد والجماعة في محاولة لوضع الحلول المناسبة لمشكلات الانسان والتغلب عليها ، فاكتسب مزية قربه من النفوس لما فيه من عواطف صادقة ، وما يعرضه من قضايا انسانية عامة، تجعله أقرب الى التأثير في النفس.

وقصيدة الشكوى قصيدة مطبوعة يغلب عليها الارتجال ، ولذا جاءت الصور الشعرية في كثير من محاورها تقريرية بعيدة عن الصنعة والتكلف ، لكن ذلك لايعني أن اللون التقريري قد طغى، فقد وجدنا أن الصور الفنية كان لها وجود قوي نافذ التأثير.

كما لاحظ البحث تعدد الموضوعات وثراءها على الرغم من وحدة الغرض الذي يبدع فيه الشعراء ، فترتب على ذلك ثراء النتاج الأدبي في هذا اللون الشعري وتفاوته من الناحية الفنية قوة وضعفا صعودا وهبوطا ، مما أفاض البحث في بيانه من خلال النماذج الشعرية الكثيرة التي حللها ، ووقف طويلا عند قيمها الموضوعية والفنية .

وقد عني البحث برصد كثير من السمات والخصائص الفنية لهذا النمط من الشعر ولعل من أهمها السمات الآتية :

- الابتعاد عن التوعر في الأساليب ، والجنوح الى اللغة السهلة التي تصل المعنى الى ذهن السامع أو القارئ دون الحاجة الى المعاجم اللغوية .
- البعد عن التكلف في الصنعة بمظاهره الكثيرة من التقعر في اللغة ، أو اختيار الأساليب الوعرة ، مما ترتب عليه الوصول بالنفس الى قمة تأثرها .
- الصدق بمعناه الحقيقي والفني ، حيث نجد الشاعر يصدر عن عاطفة متألمة في أغلب الأحيان ، كما نجده يتأبّى على النفاق والكذب ، وهو ما يجعل لشعره قيمة تبقى على مر الزمان.
- ولعل من أهم هذه السمات التي ميزت هذا اللون من الشعر العربي. أن كثيرا من شعراء الشكوى قد وفقوا الى تحقيق ذلك التوازن الدقيق بين القوالب الموسيقية لقصائدهم أو مقطوعاتهم والمعاني والأهداف التي أرادوا التعبير عنها في المقامات والمناسبات المختلفة سواء فيما يتصل بالعصر أو بنوع المخاطب ، ومن هنا وجدناهم يحرصون على الأوزان الطويلة التفاعيل التي تناسب نبرات الحزن والبكاء ، وبخاصة شعراء العصر الجاهلي والقرن الأول الهجري ، بينما مال شعراء القرنين الثاني والثالث الى بعض الأوزان القصيرة التي تتلاءم ومتطلبات الحياة العامة في تلك الفترة ، وقد عمد شعراء الشكوى الى الذلل من القوافي وابتعدوا عما عداها، وكان اختيارهم لأنواع القوافي يجسد حالاتهم النفسية الحزينة .

الباحث	المشرف على الرسالة	عميد الكلية
ظافر عبدالله علي الشهري	د.ابراهيم أحمد الحاردلو	د.محمد بن مريسي الحارثي

شکر و تقدیر

شكر وتقدير

الحمد لله على ما أنعم به ويسره لى من إتمام هذا العمل ، وأشكره على نعمه ، فبالشكر تدوم النعم ((لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ)) سورة ابراهيم : ٧

ثم أتوجه بالشكر الى المسئولين فى جامعة الملك فيصل بالمنطقة الشرقية ، وعلى رأسهم معالى الدكتور محمد سعيد القحطانى مدير الجامعة ، والمسئولين فى عمادتى كليتى التربية والدراسات العليا بالاحساء ٠

كما أتوجه بالشكر لجامعة أم القرى ، ومسئوليها ، وأخص منهم سعادة الدكتور محمد بن مريسى الحارثى عميد كلية اللغة العربية ، وسعادة الدكتور عليان الحازمى عميد الكلية السابق ، وسعادة الدكتور سليمان العائد رئيس قسم الدراسات العليا بالكلية ٠

كما أتقدم بخالص شكرى وعرفانى لأستاذى الجليل سعادة الدكتور عبد الله بن سليمان الجربوع المشرف السابق على هذه الرسالة ، والذى حالت ظروف نقله لجامعة الملك سعود بالرياض دون إتمام هذا العمل على يديه ٠

وأشكر أستاذى الجليل العالم الفاضل سعادة الدكتور ابراهيم أحمد الحاردلو المشرف على هذه الرسالة ، فقد كان خير معين لى بعد الله ، فبتوجيهاته استنرت ، وكان بحق المخلص الذى جعل لى الكثير من وقته ، وعلمه ، وفتح لى قلبه فأسأل الله أن يجزيه خير الجزاء ، وأن يطيل فى عمره ،وأن يمتعه بالصحة ٠

ولا أنسى كافة الأساتذة والزملاء الأفاضل الذين أعانونى بالنصيحة والتوجيه ، والارشاد الى مصدر أو مرجع يتعلق بدراستى هذه .

وكذلك أخص بالشكر عضوى المناقشة الفاضلين على تفضلهما بالموافقة على مناقشة هذا العمل وتقويمه وتزويدى بملاحظاتهما البناءة .

فللجميع من الله المثوبة ، ومنى الاعتراف بالفضل لأهله وشكرهم عليه ، والله نسأل التوفيق والسداد هو مولانا فنعم المولى ، ونعم النصير .

الباحث

المقدّمة

كان الشعر العربى قبل الاسلام وما يزال ديوانا أمينا لقيم الأمة العربية ، ومرآة صافية لسمات شخصيتها ، وهو أداة عميقة الاتصال بوعى الجماعة التاريخى ، فهذا الشعر يمثل إرثا ابداعيًّا فائقا مزدانا بالتجارب والقيم والدلالات ، والعودة إليه دراسة وتحليلا تعد من أهم عوامل ربط الشعر ابداعًا بالبناء الحضارى الذى انبثق عنه ٠

ولقد كان من أهم عوامل الحضارة الإنسانية لهذه الأمة اعتمادها على تراثها، تستقى منه مقومات فكرها لحاضرها ومستقبلها ، وليس بخاف على ذوى البصر والبصيرة ، مايشكله الشعر العربى من أهمية كبرى فى تمييز شخصيتنا الأدبية ، وما يتصل بهذا الجانب من حقائق تاريخية ترقى بهذه الأمة إلى مرتبة تليق بها ، وتمنحها الريادة فى حمل رسالة السماء ، لذا كانت عناية الباحثين من أبناء أمتنا ، ومتذوقى آدابنا الأصيلة بالأدب العربى شعرا ونثرا على مر العصور الأدبية ٠

إنّ فى شعرنا القديم قيما أصيلة لاتزال قادرة على الديمومة ، ولا تزال قادرة على اختراق الماضى إلى الحاضر ، واختراق الحاضر إلى المستقبل ، ودون أن يتم الالتقاء بين الاصيل التراثى ،والابداع الفنى الجديد لن يكتب لهذه القيم أن يستمر عطاؤها،فالمعانى السامية يجب أن ترتبط بالأصالة ارتباط الشجرة بالجذور ٠

وما أظن أحدًا يذهب إلى أن أدبنا القديم قد ضاق بالدراسات سابقا ولاحقا ، وأن جميع جوانبه قد أخذت نصيبها كاملا من عناية الباحثين ، فهناك مناحٍ عدة لايزال ميدان البحث فيها واسعا ، وأحسب أن شعر الشكوى واحد من

هذه الجوانب الّتى تستدعى الدراسة والبحث ، فهو منذ الجاهلية إلى اليوم لم يحظ بعناية الدارسين ، ولم تقم دراسة مستقلة تكشف لنا مافى هذا الغرض الشعرى من جمال فنىّ ، وما يعالجه من قضايا لها مساس بحياة الفرد والجماعة ، وما أكثر من درسوا أغراض الشعر العربى الأخرى ، من مديح وهجاء ، وفخر ورثاء ، ووصف ونسيب إلى غير ذلك من الموضوعات ، لكنهم لم يعطوا غرض الشكوى أهمية ذات شأن ، وأغلب الظن أنهم يرون أن هذا الغرض ماكان ليقوم بنفسه إلاّ نادرا - فى نظرهم - لانعقاده بغيره من الأغراض ، وهذا ما أوحى لى بالموضوع ، فأخذت أقرأ حوله كثيرا ، وبدأت الأسباب تكتمل فى ذهنى لكى أنهض بهذا البحث ، بعد أن كثرت الاعتبارات والدوافع لدى لاختيار هذا الموضوع ، وهى دوافع يمكن اجمالها فى اعتبارين أساسيين .

١ - اعتبار ذاتى محض ، يكمن فى ميلى الشديد إلى هذا النوع من الشعر المؤثر الذى يمس شغاف القلوب ، ويكشف كثيرا من خفايا النفس البشرية ، ويعالج قضايا إنسانية معقدة فى غير مجاملة أو مبالغة ، فيضرب معناه بعيدا فى أعماق النفس ، وهو مايثير لدىَّ متعة أدبية ، ولذة وجدانية ، فأجدنى أرنو إلى سماع وترديد شعر الشكوى ، رغم أن الطابع العام لهذا الغرض هو الحزن والبكاء ، وقد جعلنى ذلك أتتبع هذا الشعر فى مظانه ، فإذا بى أمام كمٍّ هائل من شعر الشكوى الذى يمثل الجوانب الحقيقية للشعراء والمجتمع على السواء .

٢ - اعتبار موضوعى ، وأقصد به خلو دراساتنا الأدبية - فيما أعلم - من بحث موضوعى يعالج شعر الشكوى معالجة أدبية وافية فى إطار من الوحدة والمنهجية والاستقلال ، باستثناء بعض البحوث المكملة ، والمباحث ، والمقالات القصيرة التى جاءت ضمن دراسات أخرى،أو فى دوريات ، وهى مع ذلك قد تعنى بجوانب فى شعر الشكوى وتهمل أخرى .

ولعل من أبرز هذه البحوث المكملة التى تعالج شعرالشكوى بحث أعدته بتول حمدى البستانى ، فقد خصصته لدراسة (الشكوى فى شعر هذيل فى الجاهلية وصدر الاسلام) وهو من حيث التخصص والمنهجية أهم ماكتب فى هذا الجانب ، رغم أنه جزء من متطلبات الحصول على درجة الماجستير فى اللغة العربية وآدابها من كلية الآداب بجامعة الموصل .

أما ما يتعلق بالمباحث التى تعرضت لشعر الشكوى،فتكاد تنحصر فى ماكتبه حسين صبيح العلاق فى دراسته (الشعراء الكتاب فى العراق فى القرن الثالث الهجرى) حيث عرض لموضوع الشكوى فى حدود مايسمح به بحث مطول متعدد الجوانب ، ودرس أحمد جاسم النجدى (الشعر والشعراء فى البصرة فى القرن الثالث الهجرى) فكتب مبحثا صغيرا عن الشكوى ، وفعل ذلك محمد حسين الأعرجى فى دراسته (الشعر فى الكوفة من ١٥٠ - ٣٠٠ هـ) ، وفى دراسة الدكتور أحمد السومحى (أدب اليمن فى القرنين الأول والثانى الهجرى) عقد مبحثا صغيرا عن هذا الموضوع ، كما أن قحطان رشيد التميمى ، كتب بحثا فى مجلة كلية الآداب جامعة بغداد ع ١٣ ، ١٤ م٢ (١٣٩ - ١٥٥ ، ٧١٦ - ٧٢٨) عن (الشكوى فى الشعر الجاهلى وعصر صدر الاسلام) .

وبالنظر الى هذه الأعمال نجد أنها محدودة جدا ، فبقى المجال مفتوحا للاجتهاد ، ونأمل أن يسهم بحثنا هذا فى تقديم صورة متكاملة لشعر الشكوى فى هذه الفترة .

أما منهجى فى هذه الدراسة فقد كان استقرائيا وصفيا تحليليا لاينفصل عن الاطار التاريخى الذى يرصد الشكوى فى الفترة التى حددها عنوان البحث من حيث الأغراض ثم يدرسها دراسة تحليلية ، وفى هذا المنهج تيسر لى استقراء أغلب النصوص الشعرية وتحليلها فى محاولة للكشف عما يكمن فيها من حقائق تتصل بالتاريخ الأدبى لتقويم غرض الشكوى فى الشعر العربى خلال هذه الفترة ، واستجلاء الحقائق التاريخية ، والفنية مستعينا بالدراسات النقدية الحديثة فى التحليل والتقويم ، وما يتعلق بذلك من دراسة الجوانب الفنية فى شعر الشكوى .

وقد حصرت دراستى هذه فى العصر الجاهلى ، وثلاثة قرون بعده ، مع ايمانى أنه من غير المستحسن أن نميز فى الأدب بين عصر وآخر ، ذلك أن الأدب يمثل قيمة انسانية حية لاتعرف فواصل الزمان ، وهوية المكان ، ولكن هذا التقسيم والتحديد أملته طبيعة الدراسة الأدبية التى تلتزم الجانب التاريخى المتعارف عليه فى البحث الأدبى ، اضافة الى أن للباحث قدرة تتفق مع العامل الزمنى المعطى لمثل هذه الدراسات ، ومن هنا كان لابد من تحديد المسافة الزمنية ، وفى نظرى أن هذه الفترة كافية ، لتعدد الشعراء ، وتشعب الموضوع ، وربما تتاح الفرصة فى مقبل الأيام كى أنهض بدراسة الشكوى فى العصور اللاحقة ، فتكتمل حينئذ لهذا الغرض جوانبه الفنية التى يمتاز بها .

وقد عوّلت فى هذه الدراسة على نوعين من المصادر ، النوع الأول المصادر الأدبية ، وقد تمثلت فى مصادر المادة الشعرية للدراسة ، ومن هنا اعتمدت على دواوين الشعراء والمختارات الشعرية بالدرجة الأولى ، والنوع الثانى المصادر التاريخية ، وفى مقدمتها كتب السير والتراجم ، حيث أضاءت لى كثيرا من المسائل الاجتماعية والفكرية فى فترة البحث ، وقد أفدت منها على مستوى المادة الشعرية بدرجة ثانية ، كما رجعت لطائفة من المراجع الأدبية الحديثة ، وأفدت من معطيات علم النفس ، وعلم الاجتماع فى المسائل ذات العلاقة .

وليس هناك عمل مهما كان سهلا لايستدعى جهدا ، ومثابرة وجدا ، لذا كان من أهم الصعوبات التى واجهتنى - كثرة النصوص الشعرية ، وتعدد المصادر ، فقد وجدتنى أمام مجموعة كبيرة من دواوين الشعراء فضلا عن المجاميع الشعرية ، والمصادر الأخرى وكذا كانت هناك صعوبة أخرى تكمن فى أن شعر الشكوى ليس شعر المناسبات السارة ولكنه شعر الأزمات ، وهو شعر الهموم اليومية ، والمعاناة النفسية ، وكثيرا ماتكون المعاناة الانسانية من نصيب الفئات البسيطة المحرومة التى تكون خارج اهتمام المجتمع ، فكان علىّ أن أتتبع مثل هؤلاء الشعراء ، لأنهم أقدر من غيرهم على تصوير واقعهم وتجسيد مشكلات مجتمعاتهم ، وهؤلاء فى الغالب تكون أشعارهم متفرقة فى كثير من مصادر الأدب والتاريخ ، وهو أمر ليس بالسهل لمن أراد الاستقصاء والتثبت .

أما خطة البحث فى صورتها النهائية فقد جاءت على النحو التالى :

مقدمة ، وتمهيد ، وأربعة أبواب ، وخاتمة ثم قائمة المصادر والمراجع ، وأخيرا فهرس الموضوعات .

التمهيد وفيه :

- تعريف الشكوى اللغوى ، ثم مفهومها الفنى عند الباحث .
- الشكوى تعبير ذاتى عن هموم الانسان .
- اتساع الشكوى كلما تقدم الانسان فى ميدان الثقافة والتحضر .
- الشكوى غرض قديم فى الشعر العربى .
- اغفال النقاد القدامى لغرض الشكوى فى دراساتهم .
- بواعث الشكوى ذاتية - اجتماعية - سياسية .

الباب الأول

الشكــوى الذاتيـــة

الفصل الأول : الشكوى الذاتية وبواعثها فى العصر الجاهلى .

الفصل الثانى : الشكوى الذاتية فى القرن الأول الهجرى .

الفصل الثالث : اتساع الشكوى الذاتية فى القرنين الثانى والثالث .

الباب الثانى

الشكــوى الاجتماعيـــة

الفصل الأول : الشكوى الاجتماعية فى العصر الجاهلى .

مدخل فى دراسة الحياة الاجتماعية .

المبحث الأول : الشكوى من الظلــم .

المبحث الثانى : الشكوى من الشيخوخة .

المبحث الثالث : الشكوى من الفقر وسوء الحال .

الفصل الثانى : الشكوى الاجتماعية فى القرن الأول الهجرى
مدخل فى دراسة الحياة الاجتماعية
المبحث الأول : الشكوى من فراق الأقارب .
المبحث الثانى : الشكوى من ظلم الولاة .
المبحث الثالث : الشكوى من السجن .
الفصل الثالث : الشكوى الاجتماعية فى القرنين الثانى والثالث الهجرى
المبحث الأول : الشكوى من أثر الموالى فى الحياة الاجتماعية .
المبحث الثانى : الشكوى من الفقر وسوء الحال .

الباب الثالث
الشكوى السياسية

الفصل الأول : ملامح الشكوى السياسية فى العصر الجاهلى .
الفصل الثانى : الشكوى السياسية فى عصر صدر الاسلام .
الفصل الثالث : الشكوى السياسية فى ظل سياسة بنى أمية .
الفصل الرابع : هموم الشعراء من خلال الاتجاهات السياسية والمذهبية فى العصر العباسى حتى نهاية القرن الثالث

الباب الرابع
البناء الفنى لشعر الشكوى

الفصل الأول : فى اللغة والأسلوب .
الفصل الثانى : فى الصور الشعرية .
الفصل الثالث : فى الموسيقى الشعرية .

خاتمة البحث ونتائجه .

المصادر والمراجع .

فهرس الموضوعات .

وبعد فلا أدعى لنفسى الكمال ، وانما أنا طالب علم ، وحسبى أننى بذلت الغاية لاخراج هذا البحث على وجه مرض ، وفى لفتات العلماء مايسد الخلل ويستر العيب ، ومهما حاول الدارس الالمام بجوانب موضوع من موضوعات أدبنا العربى وتراث أمتنا الحضارى ، فسيظل المجال مفتوحا للاجتهاد والبحث ، ولكننى حاولت بكل ما توافر لى من جهد بشرى ، وما وقع تحت يدى ، وبصرى من مصادر ومراجع أن أتناول موضوعى هذا بدقة واستقصاء ، بقدر ما أسعفنى به الجهد ، مستمدا من الله تعالى العون والقوة ، فعليه أتوكل واليه أنيب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ظافر عبد الله الشهرى
مكة المكرمة
فى ١٤١١/٢/١٦هـ
موافـــق ١٩٩٠/٨/٥ م

تمهید

تدور مادة (شكو) حول دلالات متعددة، بيد أنها لاتبتعد إلا يسيرا عن المعنى الأساس ، فأصل (الشَّكو فَتْح الشَّكْوَة ، وإظهار مافيها ، وهى سقاء صغير ، وكأنه استعارة كقولهم : بثثت له مافى وعائى ، ونفضت له مافى جرابى إذا أظهرت له مافى قلبك)[1] .

وتنصرف دلالة الشّكْوِ والاشْتِكَاء والشَّكْوَى والشّكَاء والشّكَاة الى إلمرض والحزن والتوجع من شئ تنوء به النفس الإنسانية . قال الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّى وَحُزْنِىَ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَالَاتَعْلَمُونَ ﴾[2] .

وقال تعالى :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اللَّهِ ﴾[3]

وفى الحديث :

((شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم - حَرَّ الرَّمْضَاءِ فَمَا أَشْكَانَا))[4] أى أنه لم يجبهم إلى شكواهم ، ولم يأذن لهم فى التخلف عن صلاة الظهر، ولا أخّرهَا عن وقتِهَا .

وقال أمية بن أبى عائذ (ت ٧٥ هـ)[5]

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو الَّذِى نَابَنِى ... لَهُ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ فِى كُلِّ حَالِ
هُوَ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا أَتَى ... مِنَ النَّائِبَاتِ بِعَانٍ وَعَالِ

---

(١) تاج العروس وجمهرة اللغة (شكا) .
(٢) سورة يوسف آية : ٨٦ .
(٣) سورة المجادلة آية : ١ .
(٤) سنن النسائى : ٢٤٧/١ ، واللسان وتهذيب اللغة (شكا) .
(٥) شرح أشعار الهذليين : ٤٩٥/٢ - ٤٩٦ .

وإذا بثّ المحبّ مايكابده من الشوق للحبيب والظاعنين من الأهل والأصحاب، فقد شكا، كقول عنترة العبسى (١) :

وَلَقَدْ حَبَسْتُ بِهَا طَوِيلاً نَاقَتِى ... أَشْكُو إِلَى سُفْعٍ رَوَاكِدَ جُثَّمِ

وقول ذى الرمة (٢) :

وَأَشْكِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبُثُّهُ ... تُكَلِّمُنِى أَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهْ

ومنه قول مليح بن الحكم الهذلى (٣) :

شَكَوْتُ الْعِدَى مِنْ دُونِ لَيْلَى وَأَنَّهُ ... يَزِيدُ هَوَاهَا النَّأْىُ عِنْدِى فَيُضْعِفُ

وَأَلْطَفْتُ مِنْ شَكْوَى الْمُحِبِّ مَقَالَةً ... لِلَيْلَى وَمَا قَالَتْ لَنَا بَعْدُ أَلْطَفُ

وتنصرف دلالة الشكو والشكىّ إلى المرض نفسه، كما فى قول الشاعر (٤) :

أَخٌ إِنْ تَشَكَّى مِنْ أَذَى كُنْتُ طِبَّهُ ... وَإِنْ كَانَ ذَاكَ الشَّكْوُ بِى فَأَخِى طِبِّى

وقال الطرماح بن حكيم (٥) :

أَنَا الطِرِمَّاحُ وَعَمِّى حَاتِمُ ... وَسْمِى شَكِىٌّ وَلِسَانِى عَارِمُ

---

(١) ديوانه : ١٨٧ .

(٢) ديوانه : ٥٢ .

(٣) شرح أشعار الهذليين : ١٠٤٥/٣ .

(٤) تهذيب اللغة : (شكا)

(٥) ديوانه : ٥٨٢ والصحاح للجوهرى (شكا) .

ويقال للبعير اذا اتعبه السير فمد عنقه ، وكثر نحيطه قد شكا ، ومنه قول الراجز (١) :

شَكَا إلَىَّ جَمَلِى طُولَ السّرَى
صَبْراً جُمَيْلُ فَكِلَانَا مُبْتَلَى

وقالت عمرة بنت العجلان ترثى أخاها عمرا ذا الكلب (٢) :

وَخَرْقٍ تَجَاوَزْتَ مَجْهُولَهُ ... بِوَجْنَاءَ حَرْفٍ تَشَكَّى الكَلَالَا

ويقال : شكا فلان اذا تشققت أظفاره قال الأصمعى :

شقأ ناب البعير ، وشكأ اذا طلع فشق اللحم (٣) . وقال صاحب القاموس :

(وأشكأت الشجرة بغصونها أخرجتها) (٤) .

وأما مايتعلق بتحديد مفهوم الشكوى الفنى ، فاننا لم نعثر على حد له متفق عليه فى كثير من كتب المصطلحات التى توافرت لنا قراءتها نحو التعريفات للشريف على بن محمد الجرجانى (ت ٨١٦ هـ) ، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى (ت حوالى ١١٥٨هـ) وبعض المعاجم الحديثة كمعجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب ، والمعجم الأدبى ، ومعجم المصطلحات الأدبية المعاصرة وغيرها . كما أن كتب علم النفس لم تسعفنا بذلك ، غير أنه يمكننا تحديد مفهوم الشكوى

---

(١) تهذيب اللغة (شكا) .

(٢) شرح أشعار الهذليين : ٥٨٥/٢ .

(٣) تهذيب اللغة (شكا) .

(٤) المصدر السابق (شكا) .

من خلال دلالتها فى المعجم،وما تدور حوله من المعانى المتقاربة أولا.ثم فى الشعر ثانيا ، حيث يمكننا أن نحدد للشكوى تعريفا فنيا يناسب السياق الأدبى الذى تفيده هذه المادة فى ضوء الشعر . فنقول :

انّها تعنى التوجع من شئ تنوء به النفس ، كالمرض ، والشيخوخة ، والموت ، والدهر ، والحرب ، والخيانة ، والغدر ، والظلم ، والكذب ، والفقر، والدَّيْن ... وغير ذلك من المظاهر والحالات التى قد تعرض للشخص ، فتكدر عليه صفو حياته ، ويشعر إزاءها بالهموم وشدة اليأس . ويقوم هذا التعريف على أسس شاك ، ومشكوّ إليه ، وموضوع الشكوى ، ثم هدف الشكوى وغايتها .

هذا وتتجلى فيما يبثه صاحب الشكوى إلى الآخرين من المعاناة ، وهى إلى هذا تعكس لنا خوف الشاكى من الاخفاق فى تكوين علاقات متوازنة مع الواقع ، كما أنها تكون بسبب وجود خلل ما فى المجتمع ، وماقد يطرأ على العلاقات الإنسانية الرفيعة من الانحراف فى بعض الأحيان ، وهى وليدة الحرمان ، والظلم الاجتماعى ، والسياسى ، وانعدام حياة العدل ، والمساواة ، والشعور بالحيف ، وعدم الوفاء ، وهى بعد ذلك صَرْخَةُ تَعْبِيرٍ عن العواطف المحرومة ، ومظهر للاضطراب النفسى ، والتشاؤم الذاتى . هذا بالإضافة إلى أن للشكوى رغبات غير معلنة،تكمن فى أنها قد تعمل على تجاوز الواقع السئ ، واعلان رفضه ، والتمرد عليه.لتحقيق الذات ، والعدل ، والمساواة .

وفى ضوء ماسبق يتضح لنا أن الشكوى غرض قديم فى الشعر العربى،فمنذ أن أخذ الانسان يعبر عن ذاته مفصحا عن حاجاته فى الحياة ، ومنذ أن أصبح يحس بوجوده فى مجتمعه مؤمنا بالجماعة ، ومرتبطا بمن حوله من أبناء جنسه ،

يتحدى معهم الصعاب ، ويواجه مشكلات عصره بدأ يشكو ، ويصور للآخرين همومـه ، ومعاناته ، فوقف طويلا يناجي ذاته ، ويبثها ألمه تارة ، وأخرى ينطق باسم مجتمعه مجسدا قضاياه مهما كان حجمها وعمق تأثيرها ٠

ولقد كان الشعراء من أقدر الناس على تصوير تلك المعاناة متى وجدت، ورسم الأبعاد الحقيقية لأوضاعهم الذاتية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والسعى لالتماس الحلول المناسبة ، ولم يقفوا حينئذٍ عند الشكوى.بل خرجوا يطالبون بالتغيير ، وإصلاح مافسد ، فكانت أهمية هذا النوع من الشعر تكمن في ارتباطه بمصلحة الفرد والجماعة فى كثير من محاوره ٠

ومن هنا فإنَّ الشكوى فى جانب كبير منها تعبير ذاتى عن هموم الإنسان الناتجة عما يعرض له من مشكلات الحياة الخاصة والعامة التى تواجهه عندما تشتد ، وتتعقد ، ويفقد السيطرة عليها ، فتحيطه الهموم من كل جهة ، وعند ذلك ينفجر بالشكوى مصورًا للآخرين مشكلته ، والتى قد تتسع دائرتها فتشمل المجتمع بأسره ، وبهذا يأخذ الشاعر مكانته ، ويحدد موقعه المناسب الذى تضعه فيه قدرته على التعبير ، والسعى وراء بريق الأمل الذى يمكن معه تجاوز ذلك الواقع السئ الذى يعيشه ، والسيطرة على أسباب همومه المختلفة ، وكشف قضيته أمام الآخرين ، وأمام نفسه حينما يفصح فى شكواه عما ينتابه من ألم وحرمان ، فيثور سخطا ، ويحترق أسى ومرارة لما هو عليه من اهمال ، وهوان ، ولكل ماقد يعرض له فيما يتصل بحياته الخاصة فى أدق جوانبها ، أو مايعانيه مجتمعه من ظواهر منحرفة مهما كان نوعها ، فالشاعر بمواهبه العقلية ، ومكوناتها الفكرية وجد ليسجل كثيرًا من الوقائع التى تدور فى

محيطه الاجتماعى ، ويعزف على وتر الحياة المشدود أناشيده الذاتية التى يبرهن بها على أن وجوده جزء من مجتمعه لايمكن أن يكون بمعزل عنه ، وأن يتقوقع فى دائرة ضيقة تجعله يعيش لنفسه فقط (١) . فهو ينشد آمال وآلام مَنْ حوله من الناس فضلا عن همومه الخاصة . وهو فى عرضه لتلك المشكلات وشكواه منها لايتخذ وجها واحدًا من وجوه التعبير ، وإنما تأتى شكواه – فى أغلب الحالات – متوافقة مع طبيعة الحدث ، وكبر حجمه ، وعمق تأثيره فى نفسه ، فيكون إمَّا ثائرا متمردا يدعو بصورة مباشرة،أو غير مباشرة إلى تغيير هذا الواقع ، والخروج عليه ، ويبدو هذا واضحا فى كثير من محاور الشكوى السياسية والاجتماعية، فيستطيع بهذا أن يأخذ موقعا ، ويحدد موقفا ، ويبدأ تحركا،لتحقيق طموحه ، ولتأكيد الصلة التى تربط بينه وبين مجتمعه . وإمَّا أن يكون خانعا مستسلما عندما تعوزه القدرة على التغيير ، فلا يتعدى انفعاله التنفيس عن نفسه ، وكبح همومه ، ومكابدته فى رجاء منه لاستدرار عواطف الآخرين (٢) . وفى كلتا الحالتين تمثل الشكوى تأكيد نزوع الشاعر إلى ذاته ، ومعالجة دقائق مشكلته إن استطاع،أو شرحها بما يبدو مستغرقا لأبعادها التى تثير فيه القلق وتدعوه إلى الشكوى والأنين .

لقد كانت الشكوى عند الشاعر الجاهلى بسيطة بساطة الحياة ذاتها ثم بدأت تتسع بواعثها وتزداد كلما تقدم الإنسان فى ميدان الثقافة والتحضر حيث تكثر حاجاته ، ويتضاعف شعوره بمشكلاته مهما كان باعثها ، وستظل الشكوى

---

(١) نظرية الأدب / رينيه ويليك ، ترجمة محى الدين صبحى : ٩٧ – ١١٤ .

(٢) التفسير النفسى للأدب : ٨١ .

غرضا يطرقه الشعراء فى كل زمان ومكان بعيدا عن الكذب والتزويق ، فهى تصدر عن نفس مرهقة تغلى فى ثورتها بما يشجيها ، فتفيض على لسان صاحبها شعرا يقطر أسى ولوعة ، يصور لنا صدق الشاعر فى التعبير عن واقعه ، وآلامه التى لانستطيع أن نحيط بها ، بل ربما نعجز تماما عن تفسير كثير من بواعث الشكوى لدى الانسان ، لكننا من باب الاجتهاد نسعى الى تلمس تلك البواعث من خلال دراسة النصوص الشعرية التى فى متناولنا . مؤمنين بأن هذا الشعر ناتج عن يقظة شعورية حادة فرضها الموقف فرضا ، وأملتها الحادثة على الشاعر املاء .

وعلى الرغم من أن من النقاد العرب القدامى والدارسين المحدثين من اهتم بتقسيم الشعر العربى الى أغراض مثل أبى تمام (ت ٢٣١ هـ) فى كتابه الحماسه حيث جعل أغراض الشعر عشرة (١) بينما جعل قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) أبواب الشعر ستة (٢) وقد تابعه أبوهلال العسكرى (ت ٣٩٥هـ) فقصر الشعر على أبواب خمسة (٣) كما أن ابن رشيق (ت ٤٥٦هـ) قد جعل موضوعات الشعر تسعة (٤) وفى العصر الحديث يطالعنا الدكتور يحيى الجبورى بتقسيم لاغراض الشعر فيجعلها ستة (٥) ومع هذا فلم يدرج أى منهم غرض الشكوى ضمن تقسيمه لاغراض الشعر التى تواضعوا عليها ، وكم يتمنى الدارس لو وجد لهم اشارة من قريب أو بعيد حوله . اذ أن غرض الشكوى - فى رأيى - يمثل بابا واسعا فى الشعر العربى ، ولايقل عن غيره من الاغراض بما يمتاز به من الصدق والواقعية وعمق المعاناة ، ومايشتمل عليه من عناصر عقلية ، ومعان انسانية ، ومايحتويه من مشاهد اجتماعية ، وأخرى سياسية . فضلا عن الجوانب الذاتية للشاعر .

---

(١) ديوان الحماسة، طبعة جامعة الامام : ٣٦/١ .

(٢) نقد الشعر (مكتبة الكليات الازهرية) : ٩١ .

(٣) ديوان المعانى ، مكتبة القدسى : ٩١/١ .

(٤) العمدة - طبعة دار الجيل : ١١٣/٢ - ١٨٠ .

(٥) الشعر الجاهلى خصائصه وفنونه ، مؤسسة الرسالة : ٢٧٩ - ٤١٧ .

وفى اعتقادى أن الشعر المميز فنًّا الذى نلمس فيه حرارة العواطف وصدق التعبير،هو ذلك الشعر الذى يتحدث فيه قائله عن ذاته،فيعبر عن مواقفه، ومشاعره الخاصة التى تركت التجارب آثارها الحادة فى نفسه ، فاستخلص لبابها ، وأخرجه للناس فى دفقات شعرية مؤثرة.فيها المعانى العظيمة ، والتصوير الحى،وذلك عندما يعبر عن قضاياه الذاتية ، وقضايا أمته ، ويبين عما فى نفسه تجاهها ، فى صور صادقة لاتكلف فيها ، وهنا نلمس عمقا ونضجا فى شعر الشكوى قد لا يتوافر فى أغراض الشعر العربى الأخرى التى ترتبط بالمناسبات والتى تباعد بين الشعراء وبين أنفسهم وتفرض عليهم نمطا من القول قد لايحسون بتفاعلهم الذاتى معه . بقدر ماتدفعهم المناسبة إلى المبالغة ، والكذب ، والاهتمام بالتعابير الصارخة والألفاظ الرنانة ، بخلاف غرض الشكوى الذى يتميز بكثير من مقاييس الجمال الفنى - رغم طبيعته المباشرة فى أحيان كثيرة - لما يثيره تركيبه الشعرى من دلالات خاصة تناسب الحالة النفسية التى يكون عليها الشاعر ساعة إنشاده،فيكون قريبا من ذاته أولا ومن الآخرين ثانيا حينما يصور فى شكواه قضايا أمته كما هو الحال فى شعر الشكوى الاجتماعية والسياسية ، حيث يخرج بالشعر الشاكى من دائرة التجربة الذاتية إلى إطار الجماعة مع التزامه بذاتيته التى تبدو فى جميع محاور الشكوى إذ نجد الشاعر الصوت الوحيد الذى يدعو إلى الإصلاح وتغيير الواقع السلبى مما يكسب شعر الشكوى بمختلف أنماطه صفة التأثير والقبول ، لما يحمله هذا الشعر من الصراحة ، وما يتسم به من المباشرة وصدق التعبير ، فهو يمثل لونًا من الشعر قريبًا لما فيه من سمات الأدب الجيد فى أرقى صوره ، ولما يفصح عنه فى التعبير عن مشكلات إنسانية تشمل الجميع ، وهو يصدر عن عاطفة متألمة فى أكثر

الأحيان ، وشعر كهذا غاية قائليه نقل موقفهم وموقف مجتمعهم إلى الآخرين في أعلى درجات الصدق والإجادة، دون محاولة التكلف للصنعة أو السعي وراء تزويق الألفاظ ، وزخرف القول ، يكون وقعه في النفس شديدًا ، وقبوله سريعًا ، لأنه إنما ينظم للإعراب عن الأزمات الشخصية ، والجماعية لا للإلقاء في المحافل وإرضاء المستمعين ، وبذلك تختلف دوافع هذا الغرض عن سواه ، إذ أن دوافعه قد تكبر أو تصغر ، فإذا كبرت فإنَّها تشمل المجتمع بأسره حينما تبرز فيه قضايا اجتماعية أو سياسية تستدعي الوقوف عندها ، ومعالجتها بأي صورة من الصور ، وإذا صغرت تلك الدوافع، فهي تختص بالشاعر ذاته ، وهو في كل الحالات يحاول وضع حدٍّ لهذه الأسباب والسيطرة عليها ، وإظهارها للناس في صورة الأمر المنكر الذي ينبغي إزالته لما يمثله من تجاوز للواقع المشرق في حياة الفرد والجماعة .

وشعر الشكوى من هذا المنطلق يمثل ثورة النفس ، وبداية خروج الإنسان إلى المواجهة الحقيقية مع الجوانب السلبية الخاصة والعامة، وما أكثر مايعرض للمرء في هذه الحياة من عوارض القلق ، وما يقف في وجهه من مظاهر مؤلمة لايملك أمامها - وقد أعيته القدرة على قهرها - إلا رفع الصوت بالشكوى للتخفيف من همومه ، وما يثقل كاهله من مشكلات الحياة ، وتصوير واقعه ذلك الذي يحيطه بسياج من المعاناة النفسية ، فيفصح عن أعمق مايشعر به ، وينطق بكل جرأة ووضوح تجاه مايلفه من حالات الاضطراب ، ومظاهر القلق . وإذا تجاوزنا مشكلات الشاعر الخاصة ، ومصلحته الذاتية إلى ماهو أشمل من ذلك ، وأعم رأيناه يجسد قضايا اجتماعية ، وسياسية ترتبط بالجماعة بوصفه جزءًا منهم يعبر باسمهم عن آلامهم وآمالهم ، وشعر الشكوى بهذه الصورة يظهر لنا الجانب

الحقيقى للإنسان والمجتمع ، فهو يكشف كثيرًا من جوانب الخلل الاجتماعى ، والسياسى. اضافة إلى اظهاره للشخص الشاكى فى صورته العاجزة عن الوقوف بعزم وقوة وثبات أمام ماقد يعرض له من مصائب يشعر بشدة وطأتها عليه ، فيلجأ إلى الشكوى لتكون هتاف النفس الإنسانية ساعة الشدة. مفصحا عما يظهر على هذه النفس من الضعف الذى قد ينتاب الإنسان أمام مشكلة يعجز عن حلها ، فيجد نفسه غير قادرة على الأخذ بنصيبها ، والانتصار على همومها ، ومعاناتها . وعند ذلك يكون للحدث قوة انفعالية فى نفس الشاعر تجعله يجيد فن القول عن مطالبه ، ويوصل معناه إلى الآخرين كأقوى مايكون التأثير الفنى الذى يميز الشعر العربى عن غيره من سائر الفنون .

والشعراء فى شكواهم يعبرون من منطلقات نفسية خاصة جاءت المعانى صورة لها ومستجيبة لنزعات نفوسهم ، فيما تشكو منه استجابة عفوية تنأى بهذا الشعر عن التعمّل ، والانتخاب المقصود لأدوات التعبير ، وصور القول ، ولعل فى هذه الدراسة مايلقى مزيدًا من الضوء على هذه الأسباب والبواعث التى أثارت الشعراء بالشكوى حتى تكتمل الصورة لهذا الغرض الذى أغفله النقاد القدامى ، ولم يوفّه الدارسون المحدثون حقه من العناية والبحث .

الباب الأول

الشّكْوى الذّاتيّة

وَيشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : الشكوى الذاتية وبواعثها في العصر الجاهلي .

الفصل الثاني : الشكوى الذاتية في القرن الأول الهجري .

الفصل الثالث : اتساع الشكوى الذاتية في القرنين الثاني والثالث الهجري .

الفصل الأول

الشكوى الذاتية وبواعثها
في العصر الجاهلي

فى كثير من الاحيان تعد الشكوى حاجة نفسية ملحة ، فعن طريقها يتخفف المرء من أثقال همومه ودفين آلامه بما يطلقه من صيحات التشكى ، وصرخات الالم، وعن طريقها تتجلى ذات الانسان ، فيكشف عن معاناته ، وينفث مافى صدره من الآم لم يعد فى وسعه أن يتحملها وأن يصبر عليها ٠

وفى دراستنا لهذا الباب سنكتفى ببعض الامثلة للشكوى باعتبارها تعبيرا ذاتيا عن خلجات النفوس فيما تفصح به من مشكلات الحياة الخاصة أو العامة عندما تشتد وتتعقد، فيعجز الانسان عن ملاحقتها والتحكم فيما تجره عليه من آلام نفسية واجتماعية وسياسية ، وعندئذ ينزع الى ذاته فى مناجاة بعيدة عن الكذب والمداجاة والمداهنة ، لانها تصدر عن نفس مرهفة تغلى بما يشجيها حتى تفيض على لسان صاحبها شعرا يقطر لوعة وأسى ٠

ولعلنا فى عرضنا لتلك الامثلة نستوضح المعاناة النفسية لدى الشعراء ، أما دراسة هذه المسببات والبواعث لتلك المعاناة من حيث هى ظواهر اجتماعية ، أو سياسية فسيأتى الحديث عنها مفصلا فى ثنايا البحث باذن الله ، ولذلك فقد نتحدث هنا عن الشكوى من الشيخوخة من جانبها الذاتى بينما يأتى الحديث عنها فى الجانب الاجتماعى بتوسع ، اذ هى ظاهرة مشتركة لدى الانسان أين ومتى وجد ، وكظواهر الشكوى من الزمان والفقر والحنين والفراق وتباريح العشق وغيرها كثير فى الشعر العربى ، ناهيك عن الشكوى من السجن فان لها جانبين ذاتى واجتماعى اعتمادا على منشأ المشكلة التى أدت بهذا الشاعر أو ذاك الى دخوله ، وقد يكون لها جانب ثالث يتعلق بالسياسة ، وبهذا نتناول كثيرا من بواعث الشكوى أيا كان كنهها ٠

ولذا فليس من باب التكرار إعادة الحديث عن بعض هذه الأنماط ، وليس من الاختصار المخلّ انتقاء أمثلة تختص بفترة معينة وترك أخرى .

ان الشكوى الذاتية عند الشاعر الجاهلى لم تكن ذات محاور متعددة ، فهى غالبا لاتتعدى دائرة شيخوخته ، وهجر حبيبته ، وغربته وتغير حاله ، لكنها قد تبدو واضحة فى شكواهم من الدهر الذى كبلهم - حسب زعمهم - بهموم لم نجد لها مبررا إلا اعتقادهم الخاطىء بأنه سبب تلك الهموم ، ومصدر هلاكهم ، ومن هنا طغت الشكوى من الدهر عند الجاهليين على غيرها من المحاور الأخرى ، فقد رأينا الشاعر الجاهلي متى نزل به أمر يضيّق عليه ، أو عندما تعوزه الحيلة وتنزل بساحته مصيبة يجزع ، ويعزو ذلك للدهر ويشكو منه [1] ، فهموم الحياة ومايلقاه فى يومه وغده من عنت وشقاء قد يكون نتيجة متوقعة سببها طبيعة أرضه وقسوة حياته الصحراوية [2] ، ومع ذلك فالشاعر لم يعرها اهتماما يذكر وإنما نراه دائما يجأر بالشكوى ويعلن تبرمه من الدهر ، فهو كما يزعم رأس البلاء وأساس المصيبة .

ولئن ارتبطت الشكوى الذاتية فى كثير من الأحيان بالشكوى الاجتماعية فإنّ هناك خيطا رفيعا يفرق بينهما لانعدمه فى النصوص الشعرية التى سندرسها فى هذا الجانب بإذن الله .

---

(١) نجد هذا كثيرا عند عمرو بن قميئة ، والحارث بن حلزة اليشكرى ، ودريد بن الصمة الجشمي ، والأعشى الكبير ، والخنساء ، وغيرهم .

(٢) الزمان والمكان وأثرهما فى حياة الشاعر الجاهلي وشعره / الدكتور صلاح عبد الحافظ ، دار المعارف ١٩٨٢م : ٢١/١ .

إنّ أول مايلقانا من بواعث الشكوى الذاتية عند الشاعر الجاهلي نظرته القاصرة للحياة والموت ، فالله جلت قدرته قد جعل لكل أجل كتاب ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ[1] ﴾ . وقد قدر سبحانه وتعالى عمر كل مخلوق حي منذ ولادته وحتى ساعة وفاته تقديرا محكما ، لكن الشاعر الجاهلي كان يجهل بطبعه وعقيدته هذا التقدير . فأخذ يعزو ما ينوبه من هموم ، وما يقع عليه من آلام ومصائب إلى المنايا التى تأتى بدون قصد ، وتسعى بين الناس على غير هدى ، فهي تمضى كالأعمى أو كالسهم الطائش من أصابته انقضى أجله ، ومن أخطأته عاش إلى أرذل العمر ، يوضح هذه النظرة قول زهير بن أبى سلمى[2] :

رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ   تُمِتْهُ وَمَنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

وبهذا المعتقد الذى يوضحه زهير نجد أن الشاعر الجاهلي يجهل تماما تقدير الله حيث يقول جل شأنه : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ[3] ﴾ . ويقول تعالى :

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ[4] ﴾ ومع هذا فإن الشاعر الجاهلي كان يرى أن للمنايا سلطانا وقدرة ، وأنها يمكن أن تفعل بهم الأفاعيل دون أن يكون هناك موجه لها ، يقول الحارث بن حلزة اليشكرى[5] :

---

(١) سورة الرعد آية : ٣٨ .
(٢) شرح ديوانه ـ طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤م ، ص : ٢٩ .
(٣) سورة الحديد آية : ٢٢ .
(٤) سورة التغابن آية : ١١ .
(٥) ديوانه ـ تحقيق هاشم الطعان ـ مطبعة الارشاد ، بغداد ١٩٦٩م ص : ١١ .

وَكَأَنَّ الْمَنُونَ تَرْدِي بِنَا أَرْ ... عَنَ جَوْنًا يَنْجَابُ عَنْهُ الْعَمَاءُ(١)
مُكْفَهِرًّا عَلَى الْحَوَادِثِ مَاتَرْ ... تُوهُ لِلدَّهْرِ مُؤْيِدٌ صَمَّاءُ(٢)

فهو يرى أن المنون ترمى بهم للمصائب الضخمة، فيقفون أمامها وقفة الجبل الشامخ الذى يذهب فى السماء وتنشق أمام صلادته السحب وهو ثابت لايتأثر بشيء .

والأعشى الكبير واحد من الشعراء الجاهليين الذين تنم همومهم عن حالة نفسية متعبة نتيجة صد محبوبته جهلا منها عندما رأته وقد أضر به ريب المنون ودهر مفند خبل(٣) .

صَدَّتْ هُرَيْرَةُ عَنَّا مَا تُكَلِّمُنَا ... جَهْلاً بِأُمِّ خُلَيْدٍ حَبْلَ مَنْ تَصِلُ
أَأَنْ رَأَتْ رَجُلاً أَعْشَى أَضَرَّ بِهِ ... رَيْبُ الْمَنُونِ وَدَهْرٌ مُفْنِدٌ خَبِلُ

ويتضح لنا من هذا النص الشعرى انكاره عليها صدها عنه ، ألأنه أعشى ؟ وأن فتكات الدهر أو المنون أحدثت به ما أحدثت، الأمر الذى يقلقه ويزيده هما فوق همومه .

---

(١) الْمَنُونُ : المنية ، وقد يريد به الدهر لأنه يذهب بمنة كل شيء ، والمنة : القوة . والأَرْعَنُ : الجبل الذى له حيود وأطراف تخرج من معظمه .
والجَوْنُ : الأسود ، وهو من الأضداد يكون الأبيض ويكون الأسود ، وَيَنْجَابُ : أى ينشق .

(٢) الْمُكْفَهِرُّ : الغليظ المتراكب بعضه على بعض ، والمراد بالحوادث هنا : الدهر . لاَ تَرْتُوهُ : لا تنقصه ، يقال " رتوت الثوب " اذا نقصت منه .
والمُؤْيِدُ : الشديد ، والمراد به هنا : الداهية القوية الشديدة تغلب كل من تعرض لها .
شرح القصائد العشر/ للتبريزى - تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد- مكتبة صبيح ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٤م ص : ٤٤٥ - ٤٤٧ .

(٣) ديوان الأعشى الكبير/ شرح وتعليق الدكتور محمد محمد حسين - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة (٧) ١٩٨٣م ص : ١٠٥ .

وأما الخنساء فى جاهليتها فقد ملأت الدنيا بالشكوى من المنايا،وتبرمت كثيرا من الدهر وأخذت تعزو كل ماعرض لها من حوادث ونكبات إلى المنايا التى تغادى قومها وتطرقهم صباح مساء،فتمزقهم تمزيق الفئوس (١) :

مَا لِلْمَنَايَا تُغَادِيْنَا وَتَطْرُقُنَا ... كَأَنَّنَا أَبَدًا نُحْتَزُّ بِالْفَاسِ
تَغْدُو عَلَيْنَا فَتَأْبَى أَنْ تُزَايِلَنَا ... لِلْخَيْرِ فَالْخَيْرُ مِنَّا رَهْن أَرْمَاسِ

وكما نرى فهى تجزع وتتبرم وتعترض على ماحل بها من مصائب ، فتلقى باللائمة على الدهر الذى فجعها بأخيها قائلة (٢) :

وَفَجَّعَنِي رَيْبُ هَذَا الزَّمَانِ ... بِهِ وَالْمَصَائِبُ قَدْ تُفْجِعُ

وتستمر كعادة شعراء الجاهلية فى الشكوى من الدهر،فهو أساس البلاء فى نظرها فتقول(٣) :

أَرَى الدَّهْرَ يَرْمِي مَا تَطِيْشُ سِهَامُهُ ... وَلَيْسَ لِمَنْ قَدْ غَالَهُ الدَّهْرُ مَرْجِعُ

وتقول أيضا (٤) :

أَرَى الدَّهر أَفْنَى مَعْشَرِي وَبَنِي أَبِي ... فَأَمْسَيْتُ عَبْرَى لاَ يَجِفُّ بُكَائِيَا

إن مبعث هموم الخنساء الأولى من الدهر أنه احتز قومها حزا ورماهم بسهامه ، واستبدَّ بهم ، وليس لمن رزآه الدهر بمصائبه فى نظرها من مجير

---

(١) ديوان الخنساء / دراسة وتحقيق الدكتور ابراهيم عوضين ، مطبعة السعادة ، القاهرة ،الطبعة الاولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ص : ١٤٨ - ١٤٩ .
(٢) المصدر السابق : ٣٩٩ .
(٣) المصدر السابق : ٢٤٢ .
(٤) المصدر السابق : ٤٢٤ .

ولا نصير ، فالدهر يفنى رجال أهلها ويثكل نساءهم ، هكذا ترى وهكذا تجيش في صدرها الهموم،فتنطق بهذه الأبيات الشاكية من همومها التى يصعب التخلص منها ، ولنعد إليها لنجدها تنسب إلى الدهر ما نزل بها من آلام ، فهو يؤذيها بنهشه وتقطيعه ، يفنى رجالها ويملأقلبها حزنا،فيحملها مالا تحتمل بما يصيبها من فقد الأحبة الذين ذهبوا مع الأمس الغابر ، وكأن هذا الدهر نسى أنهم كانوا الحمى إذا ماهوجمت العشيرة ، وكأن الخنساء وحدها تتحمل من الهموم مالا يتحمله غيرها من أبناء عشيرتها،فهي موتورة تبوح فى شكواها بما فى نفسها من حزن عميق وألم دفين [1] :

تَعَرَّقَنِى الدَّهْرُ نَهْشًا وَحَزًّا ... وَأَوْجَعَنِى الدَّهْرُ قَرْعًا وَغَمْزَا

وَأَفْنَى رِجَالِى فَبَادُوا مَعًا ... فَأَصْبَحَ قَلْبِى لَهُمْ مُسْتَفِزًّا

ويحسن بنا أن نورد بعض النماذج الشعرية من الشعر الجاهلي فيما يتصل بالشكوى من الدهر والتحذير منه والخوف من نكباته مادام هذا يتصل بما يقلق الشاعر الجاهلي نفسيا ، وما يلفه من هموم وأوجاع . يقول أبو دؤاد الايادى [2] :

إِنَّمَا النَّاسُ فَاعْلَمَنَّ طَعَامٌ ... خَبَلٌ خَابِلٌ لِرَيْبِ الْمَنُونِ

عَطَفَ الدَّهْرُ بِالْفِدَاءِ وَبِالْمَوْ ... تِ عَلَيْهِمْ يَدُورُ كَالْمَنْجَنُونِ

كُلُّ مَنْ يَنْزِلُ السُّهُولَةَ فَالْحَزْ ... نَ إِلَى غَايَةٍ وَأَهْلِ الْحُصُونِ

---

(١) ديوان الخنساء : ١٩٤ .

(٢) حماسة البحترى / بعناية لويس شيخو - دار الكتاب العربى - ط (٢)١٩٦٧م ، ص : ٨٧ .

(٣) الْمَنْجَنُونُ : هى أداة السانية التى تدور ويستقى عليها الماء . اللسان (منجنون) .

ويقول عدى بن زيد العبادى (١) :

إِنَّ لِلدَّهْرِ صَوْلَةً فَاحْذَرْنَهَا لَاتَبِيْتَنَّ قَدْ أَمِنْتَ الدُّهُورَا
إِنَّمَا الدَّهْرُ لَيِّنٌ وَنَطُوحٌ (٢) يَتْرُكُ الْعَظْمَ وَاهِيًا مَكْسُورَا
فَاسْأَلِ النَّاسَ أَيْنَ آلُ قُبَيْسٍ طَحْطَحَ الدَّهْرُ قَبْلَهُمْ سَابُورَا

ويقول زهير بن أبى سلمى(٣) :

يَامَنْ لِأَقْوَامٍ فُجِعْتُ بِهِمْ كَانُوا مُلُوكَ الْعُرْبِ وَالْعَجَمِ
فَاسْتَأْثَرَ الدَّهْرُ الْغَدَاةَ بِهِمْ وَالدَّهْرُ يَرْمِينِي وَلَا أَرْمِي
يَادَهْرُ قَدْ أَكْثَرْتَ فَجْعَتَنَا بِسَرَاتِنَا وَقَرَعْتَ فِي الْعَظْمِ
وَسَلَبْتَنَا مَا لَسْتَ مُعْقِبَهُ يَادَهْرُ مَا أَنْصَفْتَ فِي الْحُكْمِ

إنّ الإحساس بالدهر بوصفه أصلا للشقاء كما يرى الجاهليون إنما هو جهل منهم لأنه مبنى على نظرة قاصرة من الناحية العقدية إذ أن الجاهلي كان يصدرعن نظرة قاصرة لأمر حياته ،فعزا همومه ومشكلاته للدهر ورأى فيه أصلا ومصدرا لكل مصائب الدنيا كما أن تجربته لم تكن ترتبط بتفسير يكشف الحكمة من وجود الإنسان فى الحياة ، ولم تقم على مصدر يكشف للجاهل معنى الحياة والموت . هذه التجربة قد اقترنت بتذبذب الإنسان وشعوره بالضياع والألم . ومن هنا جاءت هموم الشعراء وانبعثت شكواهم الذاتية،فعاشوا فى جدل مع أنفسهم وخوف من مصيرهم المظلم ، وتأصل الإحساس بالقلق فى نفس الشاعر الجاهلي . وأصبح همه ينحصر فى حصوله على لقمة العيش لو على جسر من الدماء . وتنامى خوفه من الأجل المحتوم لأنه يرى فى الموت حرمانا له من متع الحياة بعد أن رأى فى الدهر أصلا لمشكلاته إذ كل

---

(١) ديوانه . تحقيق محمد جبار المعيبد . وزارة الثقافة والارشاد ، بغداد ١٩٦٥م ص : ٦٤ .

(٢) نَوَاطِحُ الدَّهْرِ : شدائده ويقال أصابه ناطح أى أمر شديد ذو مشقة . اللسان (نطح) .

(٣) ديوانه : ٣٨٥ .

يوم يمضى يزيده تخوفا من دنو الأجل وإحساسا بالموت والفناء ، وقد صور عدى بن زيد هذا الاحساس بقوله (١) :

كَيْفَ يَرْجُو الْمَرْءُ قُوتًا لِلرَّدَى ... وَهْىَ فِى الْأَسْبَابِ رَهْنٌ مُخْتَبَلْ

كُلَّمَا خلفَ يَوْمًا فَمَضَى ... زَادَهُ ذَلِكَ قُرْبًا فِى الْأَجَلْ

فَوْقَ الدَّهْرُ إِلَيْنَا نَبْلَهُ ... عَلَّلاً يَقْصِدُنَا بَعْدَ نَهَلْ

إنّ الموت هو القضية التى لايجهلها أحد ولا يدفعها عن الإنسان علمه بها ، لكن الفراغ الديني لدى الشاعر الجاهلي قد جعله يرى أن امكانية الخلود بعد الموت وارتباط ذلك بالبعث والنشور مسألة مستحيلة (٢) ، وقد بين القرآن الكريم مدى انكارهم للبعث فقال تعالى :

﴿ وَقَالُواْ إِنْ هِىَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (٣)

ويقول عز من قائل فى آية أخرى :

﴿ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوَاْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِيْنٌ ﴾ (٤) ،وغير ذلك من الآيات التى تبين مدى انكارهم للبعث ، فازداد تعلقهم بالدنيا وتضاعف حبهم لها وحرصهم على الحياة .

---

(١) ديوانه : ٩٩ .

(٢) الملل والنحل / للشهرستاني / تحقيق محمد سيد كيلانى ، طبعة الحلبى ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م : ٢/٢٣٥ .

(٣) سورة الأنعام آية : ٢٩ .

(٤) سورة هود الآية : ٧ .

لقد ظل الشعراء الجاهليون فى صراع مع الدهر لكونهم يعيشون بمنأى عن الدين الذى يعصمهم من اليأس ، وجرهم هذا الصراع إلى إحساسهم بالخيبة والاستسلام فى النهاية للقدر المحتوم،والإيمان بأن حياة المرء ماهى إلَّا أيام معدودة يظل فيها خائفا يترقب الموت إذ المنايا تترصدهم فى كل مكان ، يقول عبيد بن الأبرص (١) :

وَلِلْمَرْءِ أَيَّامٌ تُعَدُّ وَقَدْ رَعَتْ ... حِبَالُ الْمَنَايَا لِلْفَتَى كُلَّ مَرْصَدِ
مَنِيَّتُهُ تَجْرِي لِوَقْتٍ وَقَصْرُهُ ... مُلَاقَاتُهَا يَوْمًا عَلَى غَيْرِ مَوْعِدِ
فَمَنْ لَمْ يَمُتْ فِى الْيَوْمِ لَابُدَّ أَنَّهُ ... سَيَعْلَقُهُ حَبْلُ الْمَنِيَّةِ مِنْ غَدِ
فَقُلْ لِلَّذِى يَبْغِى خِلَافَ الَّذِى مَضَى ... تَهَيَّأْ لِأُخْرَى مِثْلِهَا فَكَأَنْ قَدِ

وحين نتتبع شكوى الشاعر الجاهلي نجد أن مصائبه كلها فى نظره مصدرها الدهر ولا شيء غيره ، فهم ينسبون إليه كل مايحل بهم من مكروه،فإن كان غير ذلك عزوه إلى الحظ والفأل ، وما انفك الشعراء الجاهليون يحذرون من الدهر مما يؤكد أنهم كانوا فىالغالب دهريين فى معتقدهم ، وقد بَيَّنَ الله سبحانه وتعالى عقيدتهم تلك فقال تعالى :

﴿ وَقَالُواْ مَاهِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (٢)

وبهذا أنكروا الخالق والبعث والجزاء ، رغم أنه كان فى شبه الجزيرة العربية فى فترة ماقبل الاسلام أديان متعددة ومعتقدات مختلفة وطوائف كثيرة غير الدهريين تبعا لقدرة العرب حينذاك على التفكير الديني وتأثرهم بالأديان السابقة التى لها أصل سماوى أو غير سماوى،فكان فيهم من يدين بالتوحيد

---

(١) ديوانه / تحقيق الدكتور حسين نصار - طبعة الحلبى ط (١) ، ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧م ص : ٥٧ .

(٢) سورة الجاثية الآية : ٢٤ .

أو الوثنية أو اليهودية،كما كان فيهم النصارى والمجوس ، والصابئةوالزنادقة [١].

لقد سيطر خوف الدهر كما نرى على وعي الجاهليين ووجدانهم ، فربطوا به كل مايصيبهم فى الحياة حتى الموت ، وما نزلت بهم ضائقة إلا عزوها للدهر ، جهلا منهم بذلك ،فانتابهم شعور الخوف من المستقبل،وعاشوا فى صراع مع همومهم النفسية ، ولم يشعروا بالاطمئنان والرضا ، وإن كنا لانعمم هذا الحكم على شعراء الجاهلية جميعا،إذ أننا نجد عند بعضهم ومضات إيمانية بما تلتقى فيه الأديان السماوية وهو الإيمان بالله [٢] ، ولعل هذا مرتبط بالحنيفية أو ببعض الأديان والمعتقدات التى عرفت فى الجزيرة العربية قبل الإسلام والتى لها أصول سماوية.كالحنيفية أو النصرانية أو اليهودية [٣] .

ومن هنا فلا يمكننا أن نصف الأمة العربية جميعها فى الجاهلية بأنها أمة جهل وعمى قد عزلت تماما عن العالم وعاشت غارقة فى بداوتها بما فيها من الفوضى والوحشية ، وأنه لا مكان لبلاد العرب فى تاريخ العالم السياسي والثقافي والديني قبل الاسلام،إذ لو لم يكن للأمة العربية آنذاك قدرة على التفكير والإبداع والتأثر والتأثير [٤] لما كانت أهلا لتقبل رسالة السماء وظهور آخر الأنبياء محمد - صلى الله عليه وسلم - من العرب ولما استطاعوا فى فترة وجيزة من تكوين دولة عظيمة ذات كيان عم عدلها أرجاء العالم فى فترة قياسية . وصدق الله العظيم فهو القائل : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [٥].

---

(١) الملل والنحل / للشهرستاني : ٢٠٨/١ - ٢٥٥ .

(٢) ديوان أمية بن أبى الصلت/جمع وتحقيق د. عبد الحفيظ السطلي ، طبعة دمشق ١٩٧٤م ص : ٣٣٦ ،٣٤٠ ،٣٤٣ - ٣٤٤ ، ٣٥٣ ، ٣٦١ ،٣٦٧ - ٣٦٨ - ٣٧٤ ، ٤٤٧ - ٤٤٩ وغيرها .

(٣) الملل والنحل / للشهرستاني : ٢٣٨/٢ - ٢٤٩ .

(٤) حضارة العرب/ غوستاف لوبون ، ترجمة : عادل زعيتر ، مطبعة الحلبي (د . ت) ص : ٨٧ - ٨٩ .

(٥) سورة الأنعام الآية : ١٢٤ .

ولم يكن الدهر لدى الشاعر الجاهلي هو مبعث الشكوى الذاتية فحسب بل هناك بواعث أخرى نحاول الاتيان عليها فى هذا الفصل ان شاء الله ٠

لقد غلب على حياة العرب التنقل وعدم الاستقرار ، وانعكس أثر ذلك على سلوك الشعراء وطباعهم ، فعدم الاستقرار المكاني صاحبه عند كثير منهم فقدان الاستقرار النفسي فظهر أثر ذلك فى أشعارهم ، وظلت حياة كثير من شعرائهم الفحول رحلة متواصلة هربا من ظلم أو سعيا وراء ملك مفقود ، والأخذ بالثأر أو حتى جريا وراء ملذات شخصية ومتع دنيوية ، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد الشعراء طرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، والمنخل اليشكرى ، وعدى بن زيد العبادى ، مات كل منهم مقتولا(١) ، كما هلك عمرو بن قميئة فى رحلته مع امرىء القيس الى قيصر(٢) بينما هرب المتلمس الضبعي فعاش طريدا لا يستطيع

---

(١) الشعر والشعراء/لابن قتيبة ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ط (٢) ١٩٦٧م : ١/١٨٨ ، ١٦٧ ، ٤٠٥ ٠
وخزانة الأدب / للبغدادى ، تحقيق عبد السلام هارون - الهيئة المصرية العامة للكتاب ط (٢) ١٩٧٩م : ١ / ٣٨١ - ٣٨٦ ٠
وتاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى - نجيب البهبيتي ، دار الثقافة - الدار البيضاء (د ٠ ت) ص : ٣٢ ٠

(٢) الشعر والشعراء : ١/٣٧٦ ٠
ينكر بروكلمان هذه الصحبة، كما ينكر رحلة أمرىء القيس ذاتها فيقول :
(وما روى من أنه كان رفيق أمرىء القيس فى رحلته إلى القسطنطينية، فهو من الأساطير كرحلة أمرىء القيس نفسه ٠٠) ٠
تاريخ الأدب العربى ٠ بروكلمان ، ترجمة د٠ عبد الحليم النجار - دار المعارف بمصر الطبعة الرابعة : ١/١١٧ ٠
وأنا أميل إلى رأى بروكلمان هنا، حيث توجد لهذا الشاعر قصيدة فى ديوانه ص : ٤٤ - ٤٧ يشكو فيها من الشيخوخة ويشير إلى أنه قد بلغ تسعين سنة أصبح معها شيخا كبيرا يعجز عن القيام والمشي، فكيف يكون سفره إلى بلاد الروم وهو بهذه الحال ٠ ؟

الوصول إلى قومه يعانى غربته المتمثلة فى البعد عن الأهل والديار (١) . يكتوى بنار الغربة وألم النفي ، وحنين الطريد ، يتوسل إلى قومه آل بكر أن يثأروا من عمرو بن هند،فلا يجيبونه فيعود إلى الشكوى ليكشف عن همومه التى أقضّت مضجعه متعللا بالحديث وبالمنى يقول (٢) :

أَيُّهَا السَّائِلِي فَإِنِّي غَرِيبٌ ... نَازِحٌ عَنْ مَحَلَّتِي وَصَمِيمِي

ويقول أيضا (٣) :

إِنَّ الْعِرَاقَ وَأَهْلَهُ كَانُوا الْهَوَى ... فَإِذَا نَأَى بِي وُدُّهُمْ فَلْيَبْعُدِ

والملتمس الذى عاش غريبا منفيا عن وطنه وقومه وبقي فىغربته حتى نزل به الموت كان من أشد الشعراء همًّا،ولم يستطع أن يتناسى وطنه وقومه حتى ناقته كأنها هى الأخرى شعرت بهمومه فحنت إلى الأهل والديار (٤) :

حَنَّتْ قَلُوصِي بِهَا وَاللَّيْلُ مُطَّرِقٌ ... بَعْدَ الْهُدُوِّ وَشَاقَتْهَا النَّوَاقِيسُ
مَعْقُولَةٌ يَنْظُرُ التَّشْرِيقَ رَاكِبُهَا ... كَأَنَّهَا مِنْ هَوًى لِلرَّمْلِ مَسْلُوسُ (٥)
أَنَّى طَرِبْتِ وَلَمْ تُلْحَيْ عَلَى طَرَبٍ ... وَدُونَ إِلْفِكِ أَمْرَاتٌ أَمَالِيسُ (٦)

---

(١) الشعر والشعراء : ١٧٩/١ - ١٨٤ .
(٢) ديوان المتلمس / تحقيق حسن كامل الصيرفى ، طبعة معهد المخطوطات العربية - القاهرة ١٩٧٠م ص : ٣٢٤ .
(٣) نفس المصدر : ١٣٥ .
(٤) نفس المصدر : ٨٢ .
(٥) المَسْلُوسَ وَالمَأْلُوسُ : الذاهب العقل ، فكأن هذه الناقة قد ذهب عقلها .
(٦) تُلْحَيْ : أى تلاحى . والطَّرَبُ : الفرح . وَإِلْفِكِ : أى من تألفينه . وَالأَمْرَاتُ : الارض التى لا نبت فيها . وَالأَمَالِيسُ : الأرض المستوية .

حَنَّتْ إِلَى نَخْلَةِ الْقُصْوَى فَقُلْتُ لَهَا … بَسْلٌ عَلَيْكِ أَلَا تِلْكَ الدَّهَارِيسُ (١)
شَآمِيَةٌ إِذْ لَا عِرَاقَ لَنَا … قَوْمًا نَوَدُّهُمُ إِذْ قَوْمُنَا شُوسُ (٢)

ويشتد بالمتلمس الحزن من الغربة وتتعالى صيحة الشكوى لديه، فيخلو بنفسه ويبدع في لحظة من لحظات التأمل هذه القصيدة المفعمة بالشكوى الذاتية التي تصور لنا ما يدور في خلجات نفسه ، وما يلفه من الشوق والحنين إلى الأهل والوطن ولم الشمل فنجده يقول (٣) :

تَفَرَّقَ أَهْلِي مِنْ مُقِيمٍ وَظَاعِنٍ … فَلِلَّهِ دَرِّي أَيَّ أَهْلِي أَتْبَعُ
أَقَامَ الَّذِينَ لَا أُبَالِي فِرَاقَهُمْ … وَشَطَّ الَّذِينَ بَيْنَهُمْ أَتَوَقَّعُ
عَلَى كُلِّهِمْ آسَى وَلِلْأَصْلِ زُلْفَةٌ … فَزَحْزِحْ عَنِ الْأَدْنَيْنِ أَنْ يَتَصَدَّعُوا
أَلِكْنِي إِلَى قَوْمِي أَنَّهُمْ … أُنَاسٌ ، فَلُومُوا بَعْدَ ذَلِكَ أَوْ دَعُوا
وَقَدْ كَانَ أَخْوَالِي (٤) كَرِيمًا جِوَارُهُمْ … وَلَكِنَّ أَصْلَ الْعُودِ مِنْ حَيْثُ يُنْزَعُ

لقد كانت الغربة عند هذا الشاعر مبعث همومه، وحرم بسببها العيش وسط قومه الذين يودهم ويتمنى بقاءه معهم ، ولكنهم تفرقوا من مقيم وظاعن ، وهو

---

(١) البَسْلُ : من الاضداد وهو الحرام والحلال يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث . والمراد هنا : حرام عليك / اللسان (بسل) .
والدَّهَارِيسُ : الدواهي المنكرات قيل واحدها دهرس ، وقيل لا واحد لها .
(٢) الأَشْوَسُ : الذى ينظر اليك نظر المبغض .
(٣) ديوانه : ١٥٤ _ ١٦٠ .
(٤) روى الجاحظ فى كتاب الحيوان : (أخواني) .
وروى أبو حيان التوحيدى فى كتاب الصداقة والصديق : (أخوانى) .
وقد اعتمدت هنا على رواية الديوان .
الحيوان / للجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هارون _ طبعة الحلبي ، الطبعة الثانية : ١٣٦/٣ .
الصداقة والصديق / لأبى حيان التوحيدى ، شرح على متولى صلاح المطبعة النموذجية _ مصر (د . ت) ص : ٣٩٣ .

وإن عاش فى جوار أخواله أو اخوانه وقد أحسنوا اليه، فإنّه مع ذلك يحن إلى أهله وربعه الذين يصفيهم الود ، فأصل العود من حيث ينزع ، ومن هنا كانت شكوى المتلمس وكانت همومه .

وإذا كان الهم منشؤه القلق الناتج عن مشكلات الحياة بأفراحها وأتراحها، فإنّ هموم أمرئ القيس قد ارتبطت ارتباطا وثيقا بحالته النفسية ، ففى صباه كانت له هموم، وفى شيخوخته كذلك ، وربما وجد من يقول أى هموم لأمير مثل أمرئ القيس حظه من ملذات الحياة وافر ورغباته مجابة ، يجوب الجزيرة عرضها وطولها وراء نزوات نفسه الشابة ، ولكن أى الناس تصفو مشاربه ، لقد كانت لهذا الشاب النزق هموم ضاق بها صدره وأرقته الليالى ، فظل فى رحلة عبر ليل بهيم حتى نفذ صبره، فانفجر بهذه الشكوى من همومه التى جعلت من الليل وقتا ثقيلا رتيبا وكأنه لا ينتهى :

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ ... عَلَىَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِى (١)
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ ... وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ
أَلاَ أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلاَ انْجَلِى ... بِصُبْحٍ وَمَا الإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ
فَيَالَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ ... بِكُلِّ مُغَارِ الْفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ
كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فِى مَصَامِهَا ... بِأَمْرَاسِ كِتَّانٍ إِلَى صُمِّ جَنْدَلِ

والقارئ لهذا الوصف الجميل لليل هنا يحس بأن هموما كثيرة قد أطبقت على الشاعر ، واللافت للنظر أنه بعد أن أشبع عاطفته الوجدانية فى الغزل انتقل إلى موضوع الوصف والشكوى ، وهذا مغاير تمام المغايرة لما كان يتحدث

---

(١) شرح ديوان امرئ القيس / تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة ص : ١٨ - ١٩ .

عنه، فهو يصف الليل من خلال سبحات نفسه، وما يعانيه من وطأة الهموم ، وقد تصور الليل رهيبا مخيفا تتدافع موجاته المظلمة الموحشة، وكأنها أمواج البحر المتلاطم، وقد أسدل عليه ستوره السوداء، وغمره بأنواع شتى من الهموم كأنما يريد اختبار قدرته على تحملها ، وقد طال عليه الليل ولاح له أنه يوشك أن ينقضى، فتصوره جملا يتهيأ للقيام، فيرجع بظهره وينهض بصدره ويعود بمؤخرته . وأخذ يحثه على أن يذهب وينجلى عن صباح مشرق ، ولكنه يعود فيتذكر أن نفسه مرتبطة بالهموم، فلا تفارقها حتى لو جاء الصباح فلن يكون أفضل من الليل .

ويعاوده الإحساس بطول الليل، فيتخيل أن نجومه شدت بحبال متينة إلى جبل يذبل ، وأن الثريا قد ربطت بأمراس من كتان فى صخور صلبة شديدة، فهى لاتسير فى فلكها، ولا تؤذن بانقضاء الليل الذى توقف بتوقفها .

ولم يكن انتقال الشاعر هنا إلى الشكوى من الهموم ناتجا عن فراغ، فهو إنسان قبل أن يكون أميرا، يعرض له مايعرض لغيره من البشر من هموم الدنيا وأحزانها ، وهو أيضا ذو نفس شفافة يؤثر فيها مايؤثر فى غيرها من مظاهر الجمال الحسى والمعنوى ، فربما كانت شكواه الأولى مرتبطة أيما ارتباط بهذا الجانب، إذ هى هموم غامضة لايفصح عن أسبابها . وأبسط مانقول عنها: أنها هموم فنان يعرض له مايعرض لغيره من الشعراء، فيصوغها فى تصوير مؤثر، لكنه يميل إلى العموم كما نرى، فإذا ماتناقضت الحياة أمامه ، واختلفت عليه ، واخترمت منه كل لحظات السعادة. رأيناه يشكو صراحة مبينا مصدر همومه وآلامه ، وإذا بتلك الأيام السالفة التى قضاها بين رفاقه ينعم فيها بمتع الدنيا ولذة العيش كالحلم كادت تمحى من ذاكرته، وما ذاك إلا أن همومه الجديدة هموم مسئول عن ملك ضائع وثأر لايكاد يكف عن الأخذ به والإسراف فى ذلك(١) .

---

(١) المصدر السابق : ٣٥ - ٣٦ .

كَأَنِّىَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلَذَّةٍ ... وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ
وَلَمْ أَسْبَأِ الزِّقَ الرَّوِىَّ وَلَمْ أَقُلْ ... لِخَيْلِىَ كُرِّى كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ
وَلَمْ أَشْهَدِ الْخَيْلَ الْمُغِيرَةَ بِالضُّحَى ... عَلَى هَيْكَلٍ نَهْدِ الْجُزَارَةِ جَوَّالِ (١)

كل هذه الأشياء المرتبطة بالجانب المشرق فى حياته ما هى إلا ومضات كومضات البرق أو هى كسراب خادع لا يلوى منه الرائى على شىء ، فهو كمن عاش، فى حلم ثم استيقظ على ذكراه ، لكن الذى يدفع امرىء القيس إلى المضى فى تحد الزمن ومصارعة همومه وتحمل المتاعب ذلك الأمل الكبير الذى يسعى له ، فهو طالب مجد ضائع وملك مسلوب إذ لو كان سعيه لمجرد العيش لكفاه قليله واستغنى عن كثيره ، ولذا نجده يبين بوضوح أن سعيه فى الحياة لم يكن لأدنى معيشة لكنه يسعى لما هو أسمى من ذلك وأعظم ، إنه الملك والسؤدد الذى ذهب فى سبيله آباؤه وأجداده فلن يألوا جهدا فى هذا المطلب ولن يقصر فى استعادة ملكه مهما عرض له من المشكلات والأهوال[٢] .

فَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ ... كَفَانِى ، وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ
وَلَكِنَّمَا أَسْعَى لِمَجْدٍ مُؤَثَّلٍ ... وَقَدْ يُدْرِكُ الْمَجْدَ الْمُؤَثَّلَ أَمْثَالِى

ولم تكن همومه ناتجة من فقد الملك فحسب بل إنه قد وجد عناء من بعض أصحابه ، فهو لم يعد يثق فى الناس لأن حوادث الدنيا كشفت له عن طبيعة البشر

---

(١) وَلَمْ أَشْهَدِ الْخَيْلَ : أى أصحاب الخيل ، وقد خص الضحى لأن الإغارة إنما تكون فى وجه الصبح .
الهَيكَلُ : الفرس الطويل المشرف شبهه ببيت النصارى وهو بيت عظيم مرتفع .
ونَهْدُ الجُزَارَة : أى مرتفع القوائم .
والجَوَّالُ : النشيط السريع فى اقباله وادباره .

(٢) المصدر السابق : ٣٩ .

وتقلباتهم ، كما أنه يشكو من غدر رفاقه وخيانتهم له إذ هو فى حاجة إلى صاحب يأنس به فكلما وجد إنسانا وأمل فيه الصحبة خانه ، وكان عليه لا معه ، وليس التالى بأفضل من السابق (١) :

إِذَ قُلْتُ هَـذَا صَاحِبٌ قَدْ رَضِيْتُهُ ... وَقَرَّتْ بِهِ الْعَيْنَانِ بُدِّلْتُ آخَرَا
كَذَلِكَ جَدِّى مَا أُصَاحِبُ صَاحِبًا ... مِنَ النَّاسِ إِلاَّ خَانَنِى وَتَغَيَّرَا

إن فى هذه الشكوى ماينم عن نفس متهالكة خائبة لم تعد تثق فى أحد من الناس ، وأصبحت ترصد البشر على أن أخص مايميزهم الخيانة والغدر، فبينما هو أمير يأمر وينهى ، ويتملقه الناس أصبح وحيدا يخونه الأصحاب ويغدر به الأخلاء حتى أيقن أن حظه فى هذه المرحلة من حياته ضياع فى ضياع وغدر من الأصحاب وعجز عن الوصول إلى الهدف الذى ينشده .

وهو فى قصيدة أخرى يشكو من الخطوب التى توالت عليه، وتركته مثقلا بالهموم والآلام فسلبته السعادة والراحة وتركته رفيق السهاد والأرق :

مَنْ هُنَا لِى مِنْ صَدِيْقٍ فَلْيَعُدْ ... لِيعُدْنِى إِنَّنِى الْيَوْمَ كَمِدْ (٢)
مِنْ خُطُوبٍ تَرَكَتْنِى قَلِقًا ... قَلَقَ الْمِحْوَرِ بِالْكَتِّ الْمَسَدْ (٣)
بَيَّتَتْنِى بِهُمُومٍ شُرَّعٍ ... خَلَسَتْ نَومِى وَأَخَذَتْنِى السُّهُدْ

لقد كانت حياة هذا الشاعر فى بدايتها ونهايتها ضياعا ، وتشردا ، كان فى شبابه أسير شهواته بعيدا عن الأحداث السياسية لكنه كان ينعم بما يريد

---

(١) المصدر السابق : ٦٩ .
(٢) المصدر السابق : ٢١٦ .
(٣) المِحْوَرُ : الحديدة التى تدور عليها البكرة . وَالمَسَدُ : الحبل ، والكَتّ : أى الصوت .

من ملذات الحياة،فلم يعد همه سوى تحقيق أقص مايمكن من متع الحياة،ولئن صح ما روى عنه أنه كان يعاقر الخمر عندما بلغه نعي أبيه فقال : ضيعنى أبى صغيرا وحملنى دمه كبيرا لاصحو اليوم ولا سكر غدا اليوم خمر وغدا أمر(١). فإن هذا يدلنا على ماكان فيه من الضياع وراء نزوات نفسه بل إن أباه يتحمل قدرا كبيرا من مسئولية افساده إذ تركه يتمادى فى ملذات الحياة،ولم يرعه بالتربية (٢) الحسنة ، ليكون ربيب ملك فلما قتل الأب ظن أنه سيصل إلى مبتغاه فأسرف فى الأخذ بثأر أبيه (٣) وظل يسعى لاستعادة الملك ، وطال سعيه حتى مله الأصحاب وغدر به من كان يثق بهم ، فكان ضحية هذا الصراع الذى لم يخرج منه بنتيجة سوى الموت بأرض الروم بعيدا عن الأهل والديار ، لانسب قريب ولا أحد يعوده فى مرضه يخفف من وطأته عليه ، فنجده حينئذ يستسلم للهزيمة فى آخر المطاف ويجزع أشد الجزع لأنه مرض بعيدا عن ديار قومه . حيث مات فى غربته (٤) :

أَلاَ أَبْلِغْ بَنِى حُجْرِ بنِ عَمْرو ... وَأَبْلِغْ ذَلِكَ الْحَىَّ الْحَرِيدَا (٥)
بِأَنِّى قَدْ بَقِيتُ بَقَاءَ نَفْسٍ ... وَلَمْ أُخْلَقْ سِلاَمًا أَوْ حَدِيدَا (٦)
فَلَوْ أَنِّى هَلَكْتُ بِدَارِ قَوْمِى ... لَقُلْتُ المَوتُ حَقٌّ لاَ خُلُودَا
وَلَكِنِّى هَلَكْتُ بِأَرْضِ قَوْمٍ ... بَعِيدًا عَنْ دِيَارِكُمْ بَعِيدَا
أُعَالِجُ مُلْكَ قَيْصَرَ كُلَّ يَوْمٍ ... وَأَجْدِرْ بِالْمَنِيَّةِ أَن تَعُودَا
بِأَرْضِ الرُّومِ لاَ نَسَبٌ قَرِيبٌ ... وَلاَ شَافٍ فَيُسْنِدُ أَوْ يَعُودَا

---

(١) الشعر والشعراء : ١ / ١٠٧ .
(٢) المصدر نفسه : ١٠٧/١ .
(٣) الخزانة للبغدادى : ٣٣٢/١ .
(٤) ديوانه : ٢١٣ - ٢١٤ .
(٥) الحَرِيدُ : الذى ينزل ناحية منفردا .
(٦) السِّلاَمُ : الحجارة والواحد سلمة .

إن هذه الشكوى النفسية الأليمة تفصح عن حسرة وألم دفين فى نفس هذا الشاعر الذى اشتكى فكانت شكواه نابعة من نفس متعبة ومثقلة بهمومها ، وما عرض لها من المصائب ، وكان حريا به أن يكون فى مستوى الأحداث لو أعد لها من ذى قبل ووطن نفسه على تحملها لكنه وحاله تلك أصبح فى مواجهة الحياة من جانبها الجاد فإذا به يعجز عن الوصول إلى مايريد ، وإذا به يئن بالشكوى مما يذكرنا بقول (1) :

شَكَوتُ وَمَا الشَّكْوَى لِمِثْلِي عَادَةٌ ... وَلَكِن تَفِيضُ النَّفْسُ عِنْدَ امْتِلَائِهَا

وتتفاوت مشكلات الحياة من شاعر لآخر ، وتتعدد المشارب وتتنوع أسباب الرضا واليأس ، وتمر بالإنسان لحظات من السعادة ثم تنقشع فإذا به يتقلب فى الهموم ، ولئن اشتكى امروء القيس من الليل وطوله فإن عدى بن زيد العبادى قد تألم من ذلك فتحسر وشكا كثيرا من ثقله وهو يصارع همومه وأحزانه نتيجة ماحل به من ظلم الوشاة الذين أفسدوا مابينه وبين النعمان،فألقى به فى السجن المظلم وكبل بالحديد دونما ذنب يذكر ، فأرسلها زفرات ألم ونبضات حزن عميق تنبيء عن نفس ضعيفة أمام ظلام الحياة الحالك :

طَالَ ذَا اللَّيْلُ عَلَيْنَا وَاعْتَكَرْ ... وَكَأَنِّى نَاذِرُ الصُّبْحِ سَمَرْ (2)

مِنْ نَجِيِّ الْهَمِّ عِنْدِى ثَاوِيًا ... بَيْنَمَا أُعْلِنُ مِنْهُ وَأُسِرّْ

---

(1) العقد الفريد / شرح وضبط أحمد أمين وآخرين - دار الكتاب العربى ،بيروت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م : ٣٦١/٢ .

(2) ديوان عدى بن زيد العبادى : ٥٩ - ٦٠ .
وعدى بن زيد الشاعر المبتكر ، دراسة تحليلية لشخصيته وشعره / محمد على الهاشمي - المكتبة العربية بحلب ط (1) ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م ص : ١١٩ - ١٢١ .

وَكَأَنَّ اللَّيْلَ فِيهِ مِثْلُهُ ... وَلَقَدْ مَا ظُنَّ بِاللَّيْلِ الْقِصَرْ
لَمْ أُغَمِّضْ طُولَهُ حَتَّى انْقَضَى ... أَتَمَنَّى لَوْ أَرَى الصُّبْحَ جَشَرْ
شَئِزٌ جَنْبِي كَأَنِّي مُهْدَأٌ ... جَعَلَ الْقَيْنُ عَلَى الدَّفِّ إِبَرْ (١)
غَيْرَ مَاعِشْقٌ وَلَكِنْ طَارِقٌ ... خَلَسَ النَّوْمَ وَأَجْدَانِي السَّهَرْ
إِذْ أَتَانِي نَبَأٌ مِنْ مُنْعِمٍ ... لَمْ أَخُنْهُ وَالَّذِي أَعْطَى الْخَبَرْ

لم تكن هموم الشاعر هنا وليدة المتعة المفقودة،ولا هموم فنان يعرض له مايعرض لغيره من صغار الأمور فيصورها جساما،إنما هى هموم مبعثها تكالب الأعداء عليه ووشايتهم التى لم يكن لها أصل من الصواب ، فأفسدوا مابينه وبين الملك الذى استمع للوشاية فزج به فى السجن دون أن يتأكد أو يتحرى الحقيقة. ومن هنا لم يكن سهاده وأرقه نتيجة تباريح الهوى ولواعج الشوق ، وإنما هى هموم مظلمة خلست نومه وأسلمته للسهر حتى عاد قتادًا عنده كل مرقد .

لقد كان هذا الشاعر فريسة للهموم والهواجس المرعبات يستبطئ الزمن ويهوله الظلام المتمادى ويحس إحساسا واعيًا بيقظة الأسى المكبوت فأفرغ هذه الأحاسيس فى صور وصيغ لفظية شائعة تصف الليل وتماديه وامتناع النوم عنه وترقبه الفجر .

وإذا كان ليل عدى بن زيد يتضاعف فكأن فيه مثله فإنّ ليل النابغة الذبيانى بطيء الكواكب التى ماكادت تغرب حتى ظنه غير منقض لأن همومه حرمته النوم،فجعل يتابع النجوم ويرقب الفجر فى شوق إليه عله يخفف مما يجيش فى نفسه

---

(١) شَئِزٌ جَنْبِي : أى قلق من الهم . ومُهْدَأٌ : من أهدأت المرأة الصبى اذا جعلت تضرب بيدها عليه رويدا لينام . والدَّفُّ : الجنب .

من الهموم والأحزان فنجده يقول [1] :

كِلِيني لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ ... وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ
تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ ... وَلَيْسَ الَّذِي يَرْعَى النُّجُومَ بِآيِبِ
وَصَدْرٍ أَرَاحَ اللَّيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ ... تَضَاعَفَ فِيهِ الْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

إنَّ مصدر هموم النابغة معروف لذى بصر ، فمبعثها إما خوف من ملك نتيجة وشاية كاذبة كما هو الحال فى هذه الأبيات حيث وشى به إلى النعمان ، وإما تعرض ممدوحه لمرض أسلمه للموت فأشعل صدر الشاعر بالهموم وذلك فى مثل قوله شاكيا [2] :

كَتَمْتُكَ لَيْلاً بِالْجَمُومَيْنِ سَاهِرًا ... وَهَمَّيْنِ هَمًّا مُسْتَكِنًّا وَظَاهِرَا
أَحَادِيثَ نَفْسٍ تَشْتَكِي مَا يُرِيبُهَا ... وَوِرْدَ هُمُومٍ لَنْ يَجِدْنَ مَصَادِرَا
تُكَلِّفُنِي أَنْ يُغْفِلَ الدَّهْرُ هَمَّهَا ... وَهَلْ وَجَدَتْ قَبْلِي عَلَى الدَّهْرِ قَادِرَا
أَلَمْ تَرَ خَيْرَ النَّاسِ أَصْبَحَ نَعْشُهُ ... عَلَى فِتْيَةٍ قَدْ جَاوَزُوا الْحَيَّ سَائِرَا

فهو مشحون بالهموم التى أثقلته من جراء موت هذا الممدوح النديم الذى تربطه به أوثق الروابط الانسانية ٠

إنَّ ليله المؤرق وهمومه المستكنة والظاهرة وأحاديث نفسه الكثيرة المزدحمة بالشكوى لكثرة مايرد عليها ولقلة ماتصدر عنه وتستغيث به ، كل هذا نتاج هموم كثيرة يعجز أمامها كغيره فلا يجد إلا الخضوع والانهزام فيلح بالشكوى

---

(١) ديوان النابغة الذبيانى / تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - دار المعارف بمصر ، ط (٢) ص : ٤٠ ٠
(٢) نفس المصدر : ٦٧ ٠

بعد أن عجز أمام حقائق الوجود[1] .

ونجد هذا الشاعر كأنه والهم صنوان فلا يريد غيره يقول[2] :

تَأَوَّبَنِي بِيَعْمَلَةَ اللَّوَاتِي ... مَنَعْنَ النَّوْمَ إِذْ هَدَأَتْ عُيُونُ

كَأَنَّ الْهَمَّ لَيْسَ يُرِيدُ غَيْرِي ... وَلَوْ أَمْسَى بِهَا شَتَّى هُدُونُ

وَقَالَ الشَّامِتُونَ هَوَى زِيَادٌ ... لِكُلِّ مَنِيَّةٍ سَبَبٌ مُبِينُ

لم يكن ليل أمروء القيس وعدى بن زيد العبادى والنابغة الذبيانى وغيرهم من الشعراء الجاهليين الذين اشتكوا منه ونعتوه بأدق الأوصاف وبينوا ماينتابهم فيه من الهموم والأوجاع يختلف عن ليل أى إنسان على وجه البسيطة ،فالليل هو الليل والزمن هو الزمن ، ولكن هذا الوقت الذى يخلو فيه الشاعر إلى نفسه ، فيعيد ذكرياته ويستعرض أحداث حياته ، وماهو فيه وقتئذ من أمور وأحداث بشيء من التأمل والوحدة يضاعف فى نظر الشاعر من طول الوقت وتراكم لحظات الزمن ، فاذا كان الليل بظلامه مرتبطا بهموم الإنسان التى تشكل الجانب المظلم فى حياته،فان الشكوى من طوله وثقله وهوله ترتبط ارتباطا وثيقا بما يدور فى نفس القائل من تخيلات وهموم تجسد معنويا قضاياه الذاتية الخاصة والمتأصلة فى حياته حتى وكأنه لا يستطيع منها فكاكا ، فالذى يشكو من طول الليل إنما يشكو من هموم داخلية تحرمه لذة النوم الذى لايمكن للانسان أن يستمتع بلحظاته إلا فى هذا الوقت بالذات تحقيقا لقوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ [3]

---

(١) النابغة الذبيانى / الدكتور محمد زكى العشماوى . دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية ١٩٦٨م ص : ٩٩ .

(٢) ديوانه : ٢٢١ .

(٣) سورة النبأ آية : ١٠ - ١١ .

لكن المحزون الذى يعانى من هموم داخلية لا يشعر بلذة النوم ولايتحقق له الارتياح النفسي،فيعيش فى قلق واضطراب .

فامرؤ القيس مثلا ربما كان يقارن بين ليل همومه وليل أفراحه، فيشعر بقصر الثاني وسرعة مرور ساعاته بينما يطول عليه الأول وتتضاعف ساعاته ، وعدى بن زيد العبادى يطول ليله فى السجن ، وتتراكم عليه الهموم وبخاصة عندما يتذكر مكانته السابقة وما كان يحظى به عند أصحاب السلطة فإذا به يقذف فى السجن دون جريرة فيهوى من عليائه ، حتى لو خرج من سجنه فلن تعد له أيام الصفاء والود ولن يحظى بتلك المكانة التى كان يتمتع بها من ذى قبل .

والنابغة الذبيانى يطول ليله وهو يتذكر ممدوحه ونديمه وتارة أخرى تسود الدنيا فى وجهه عندما وشي به أعداؤه الشامتون عند النعمان فقد مكانته وعزه .

إنّ عدى بن زيد من أوائل الشعراء الجاهليين الذين اتخذوا الشكوى من الليل والهم مقدمة لبعض قصائدهم ، بينما جاءت الشكوى من الليل وطوله عند امرئ القيس فى ثنايا شعره لا فى مقدمات قصائده ، أما النابغة الذبيانى فقد افتن بعدهما فى هذه الشكوى حينما وضعها فى مقدمات قصائده فأبدع فى ذلك (١) .

ومن هنا كانت هموم الشعراء الثلاثة وكان تصورهم لليل وجاء وصفهم له كل بما لديه من براعة القول وجميل المعنى ، ومن أجل هذا ألقينا عليهم هنا مزيدا من الضوء لهذه الخصوصية .

---

(١) الشعر فى ظلال المناذرة والغساسنة / الدكتور عمر شرف الدين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م ، ص : ١٠٨ .

إنَّ الشكوى الذاتية تعبير نفسي لدى الشاعر مصدره الهموم الناتجة عما يعرض للنفس البشرية فى الحياة من عوارض تؤثر على سلوك الانسان بحيث تقلقه وتحرمه لذة الحياة ، وليس الزمان للإنسان بصاحب، إذ الأيام دول يتعاقب فيها الفرح والترح والاقبال والادبار والرضا والسخط ، فقد يسر المرء اليوم ويسخط غدا ، وإذا كان الدهر كما رأينا كثير التقلب فى نظر الجاهلى دائم الغدر بالناس فإننا قد نجد لبعض الشعراء هموما ليس للدهر دور فيها إذا تجاوزنا وسلمنا بأن الدهر أصل مشكلات الشاعر الجاهلي ، وذلك أن هناك نصوصا شعرية تبين وتؤكد أن للانسان هموما داخلية قد يجهل هو كنهها وأسبابها فى ظاهر الأمر لكنه يبوح بما فى نفسه من آلام تجاه هذه الهموم ويردها إلى مايعرض له من تقلبات الحياة وما يرتبط بها من هموم تتزامن مع رحلة العمر التى قد تطول وتقصر ٠

وإذا كانت الشكوى من الكبر والشيخوخة تأخذ طابعا اجتماعيا عندما يسأم أهل الكبير وعشيرته منه ، ويرون فيه شخصا خرفا لا فائدة من بقائه فينبذونه ولا يشترك معهم فى أمر ، فإنه يكون لذلك جانب نفسي لأن شكواه حينئذ تتصل اتصالا مباشرا بالزمن الذى يتشكل منه الدهر ٠ وإن كانت تبرز بصورة أكيدة على صعيد البنية الاجتماعية، لكنه يهمنا هنا الجانب النفسي فقط حيث أن للشخص الكبير همومه ومعاناته الذاتية حينما يرى من حوله يشمئزون منه وهو ملقى فى الدار كالمتاع عاجزا عن تحقيق أدنى رغباته ، فيشعر بالاحباط والذلة والعجز المتناهى عن تحقيق مايريد أو جزء منه ، ولذا كثرت الشكوى فى هذا الخصوص عند المعمرين الذين يعرضون شكواهم فى ذلة وانكسار استدرارا للعواطف طلبا للرحمة ، وهم يألمون أشد الألم نفسيا وعضويا ٠

ولقد صور ذو الأصبع العدوانى الحالة النفسية أروع تصوير، كما صور الحالة الجسدية له عندما داهمته الشيخوخة وخانته قواه، فقال يشكو من ذلك(١) :

أَصْبَحْتُ شَيْخًا أَرَى الشَّخْصَيْنِ أَرْبَعَةً ... وَالشَّخْصَ شَخْصَيْنِ لَمَّا مَسَّنِي الْكِبَرُ
مَا لِلْكَوَاعِبِ يَادَهْمَاءُ قَدْ جَعَلَتْ ... تَزْوَرُّ عَنِّي وَتُطْوَى دُونِي الْحُجَرُ (٢)
قَدْ كُنْتُ فَرَّاجَ أَبْوَابٍ مُغَلَّقَةٍ ... ذَبَّ الرِّيَادِ إِذَا مَا خُولِسَ النَّظَرُ
لَا أَسْمَعُ الصَّوتَ حَتَّى أَسْتَدِيرَ لَهُ ... لَيْلًا طَوِيلًا يُنَاغِينِي لَهُ الْقَمَرُ
وَكُنْتُ أَمْشِي عَلَى الرِّجْلَيْنِ مُعْتَدِلاً ... فَصِرْتُ أَمْشِي عَلَى مَا تُنْبِتُ الشَّجَرُ
إِذَا أَقُومُ عَجَنْتُ الْأَرْضَ مُتَّكِئًا ... عَلَى الْبَرَاجِمِ حَتَّى يَذْهَبَ النَّفَرُ

إنها صورة مؤلمة يعرضها الشاعر فى هذه الشكوى حيث أصبح عاجزا ضعيف البصر والسمع وتبغضه الغواني وينفرن عنه بعد أن كان قادرا كثير التجوال والحركة ، عاد لايمشى إلا مستخدما عصاه، ولا ينهض إلا معتمدا على يديه، وهكذا حال المعمرين .

أما الأعشى الكبير فانه يشكو مما اجتمع عليه من ضعف جسمى وهموم داخلية فيقول (٣) :

أَرِقْتُ وَمَا هَذَا السُّهَادُ الْمُؤَرِّقُ ... وَمَا بِيَ مِنْ سُقْمٍ وَمَا بِيَ مَعْشَقُ
وَلَكِنْ أَرَانِي لَا أَزَالُ بِحَادِثٍ ... أُغَادِى بِمَا لَمْ يُمْسِ عِنْدِي وَأُطْرَقُ

---

(١) ديوانه / تحقيق عبد الوهاب العدواني ومحمد الديلمي ، الموصل ١٩٧٣م ص : ٣٣ - ٣٤ .

(٢) الكَوَاعِبُ : جمع كاعب وهى الجارية التى نهد شديها .
تَزْوَرُّ عَنِّي : أى تبتعد عنى وتطوى دونى الحجر أى تأخذ جانب الطريق بعيدا عنه .

(٣) ديوانه : ٢١٧ .

فَإِنْ يُمْسِ عِنْدِى الشَّيْبُ وَالْهَمُّ وَالْعَشَى ... فَقَدْ بِنَّ مِنِّى وَالسَّلَامُ تُغَلَّقُ
بِأَشْجَعَ أَخَّاذٍ عَلَى الدَّهْرِ حُكْمَهُ ... فَمِنْ أَىِّ مَاتَجْنِى الْحَوَادِثُ أَفْرَقُ

لقد قضى ليله ساهرا لا ينام ، ولم يكن أرقه نتيجة مرض أو عشق ولكن الهموم التى اجتمعت عليه كفيلة بتفتيت الصخر،ومع هذا فهى لم تثر فيه شيئا ، فهو شجاع جلد قد علمته النكبات الصبر والتحمل وتتابع عليه من الدهر المصيبة تلو المصيبة ، فتعلم منه واستفاد حتى أنها لم تعد تخيفه النكبات والحوادث .

ونجد الأسود بن يعفر النهشلي يشكو مر الشكوى من سهاده وأرقه وعدم احساسه بالنوم من غير مرض ولا سقم،ولكنه أصبح والهم قرينين يقول(١) :

نَامَ الْخَلِىُّ وَمَا أُحِسُّ رُقَادِى ... وَالْهَمُّ محتَضِر لَدَىَّ وِسَادِى
مِنْ غَيْرِ مَاسَقَمٍ وَلَكِنْ شَفَّنِى ... هَمٌّ أَرَاهُ قَدْ أَصَابَ فُؤَادِى
وَمِنَ الْحَوَادِثِ لَا أَبَا لَكِ أَنَّنِى ... ضُرِبَتْ عَلَىَّ الْأَرْضُ بِالْأَسْدَادِ

فهو يشكو ويتألم لما يعتلج فى نفسه من الهموم عندما أصبحت حياته كلها هموما وأوجاعا،ولم يعد يحس حلاوة النوم ولا لذة الحياة،فقد سدت عليه الأرض وضاقت بما رحبت فضاق صدره وصار فريسة للهموم والقلق .

ومثل هذه الشكوى كثيرة فى الشعر العربي عند المتقدمين والمتأخرين على السواء،وإنما ذكرناها هنا لأنها تعبر عن ذات الشاعر وما يقلقه فى الحياة ، فهى تصور سبحات النفس الانسانية من خلال الألم وما يصاحبه من البوح والأنين.

---

(١) ديوانه / جمع : نورى حمودى القيسي ، بغداد ، وزارة الاعلام ١٩٦٨م. ص : ٢٥ .

وإننا لنجد للحب دورا فى الشكوى الذاتية عند الشعراء الجاهليين ، فقد عرف العربي الحب واكتوى بناره منذ استهواه جمال المرأة ونبض قلبه بحبها ، فهام بها وتعشقها ، وكثيرون هم الشعراء الذين تحدثوا عن المرأة طويلا مظهرين تعلقهم بها وشوقهم إليها وتلهفهم عليها . وقد أحب الشاعر الجاهلي بكل عواطفه وتيمه الهوى، فتحدث فى شعره عن ذلك وما يلقاه المحب أحيانا من الصرم والجفاء والهجر والاعراض ، وما يصنعه به دل المحبوبة وجمالها من الوجد والفتنة .

وقد ازدحمت قصائد الشعراء الجاهليين بالشكوى من الحبيبة المجافية التى تصد فتهز النفس من أعماقها ، وتهجر فيلقى المحب مايلقى من هذا الهجر ، ويكفى أن نأخذ الشاعر قيس بن الحدادية مثالا على ظاهرة شيوع الشكوى من الحب فى الشعر الجاهلى[1] ، فقد عشق هذا الشاعر " نعما " وهام بها وقاس من حبها صنوف العذاب والألم وقال مايمكن أن يقوله الشاعر العاشق من شعر ينبض بالعاطفة المتأججة نحوها ، وقد شكا كثيرا ما يعانيه من ألم الوجد عندما أحب هذه المرأة التى كنى عنها بأم مالك ، ولكن جدب أرضهم حملهم على الرحيل إلى ديار بعيدة نائية، فجزع قيس لذلك أشد جزع وذكر فراقها وشكا منه وأنها لم تمتعه يوم كانت قريبة منه فقال[2] :

أَجِدَّكَ إِنْ نُعْمُ نَأَتْ أَنْتَ جَازِعُ ... قَدِ اقْتَرَبَتْ لَوْ أَنَّ ذَلِكَ نَافِعُ
وَقَدْ جَاوَرَتْنَا فِى شُهُورٍ كَثِيرَةٍ ... فَمَا نَوَّلَتْ وَاللَّهُ رَاءٍ وَسَامِعُ

---

(١) هناك شعراء فى العصر الجاهلي عشقوا وتيمهم الوجد فبكوا كثيرا من ذلك واشتكوا ومنهم على سبيل المثال :
المرقش الأكبر حيث أحب ابنة عمه " أسماء " وكذلك المرقش الأصغر فقد أحب " فاطمة " ابنة المنذر وهناك كثير غيرهم .
المفضليات / تحقيق وشرح أحمد شاكر وعبد السلام هارون - دار المعارف ط (٦) ص : ٢٢٣ - ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٤١ - ٢٥١ .

(٢) الاغانى (طبعة دار الكتب) ، ١٤/١٥٤ - ١٥٥ .

وَحَسْبُكَ مِنْ نَأْيٍ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَمِنْ حَزَنٍ أَنْ زَادَ شَوْقَكَ رَابِعُ

والمتتبع للقصيدة يجد أن الشاعر قد قص كيفية رحيل نعم قصا بديعا أظهر فيه فزعه من فراقها ساعة نودى بالرحيل ، فبكى لذلك وذرفت عيناه الدموع ووجف قلبه وانكمش خوف الفراق ، والفراق ماثل أمام عينيه (١) .

وَمَا رَاعَنِى إِلاَّ الْمُنَادِى أَلاَ اظْعَنُوا وَإِلاَّ الرَّوَاغِى غُدْوَةً وَالْقَعَاقِعُ
بَكَى مِنْ فِرَاقِ الْحَيِّ قَيْسُ بْنُ مُنْقِذٍ وَإِذْ رَاءُ عَيْنَىْ مِثْلِهِ الدَّمْعُ شَائِعُ
كَأَنَّ فُؤَادِى بَيْنَ شِقَّيْنِ مِنْ عَصًا حِذَارِ وُقُوعِ الْبَيْنِ وَالْبَيْنُ وَاقِعُ

ونجده فى قصيدة أخرى يشكو نوى حبيبته وبعد مزارها مشيرا الى همه الذى يعصر قلبه عصرا وما أصابه من الشوق وخيبة الأمل يقول (٢) :

وَبُدِّلْتُ مِنْ جَدْوَاكِ يَا أُمَّ مَالِكٍ طَوَارِقُ هَمٍّ يَحْتَضِرْنَ وِسَادِيَا
فَلاَ مُدْرِكًا حَظًّا لَدَى أُمِّ مَالِكٍ وَلاَ مُسْتَرِيحًا فِى الْحَيَاةِ قَاضِيَا
وَإِنَّ الَّذِى أَمَّلْتُ مِنْ أُمِّ مَالِكٍ أَشَابَ قَذَالِى وَاسْتَهَامَ فُؤَادِيَا
شَكَوْتُ إِلَى الرَّحْمَنِ بُعْدَ مَزَارِهَا وَمَا حَمَّلَتْنِى وَانْقِطَاعَ رَجَائِيَا
وَقَدْ أَيْقَنَتْ نَفْسِى عَشِيَّةَ فَارَقُوا بِأَسْفَلِ وَادِى الدَّوْحِ أَنْ لاَ تَلاَقِيَا

---

(١) المصدر نفسه : ١٤/١٥٦ - ١٥٧ .

(٢) المصدر نفسه : ١٤/ ١٥٨ - ١٥٩ .
شعراء مقلون / للدكتور حاتم صالح الضامن ، مكتبة النهضة العربية الطبعة الاولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م ص : ٣٦ - ٣٧ .

فالهم وانقطاع الرجاء يعصران قلبه بعد أن تأكد له هذا الفراق الأبدى فصرح كما نرى بالشكوى المرة مبينا مايكابده من حبها ، فهو محب نكد الحظ لم يجد عندها مايؤمله المحبوب ، وليس هو بالميت المستريح ، ومن هنا نجد أن هذه الشكوى نابعة من قلب أحرقه الوجد وكوته تباريح الهوى والاشتياق واصطلى بنار البعد والفراق .

وكما رأينا فإن الشكوى الذاتية مردها الهموم والهموم مصدرها القلق الناتج عن مشكلات الحياة وما يعرض للانسان فيها من هموم ومكابدة تنوء بحملها الجبال الراسيات ، وتتشكل هذه الهموم بتشكل مصادرها ، ولقد جعل الخالق سبحانه وتعالى الناس فى هذه الحياة على مشارب متعددة فمنهم الرئيس والمرؤوس والكبير والصغير والغني والفقير ، والأعمى والبصير والأبيض والأسود والعربي والعجمي . فكانت الحياة جهادا ظل الانسان فى رحلة مستمرة مع مشوارها ، ومن هنا فلا يستغرب أن تكون له هموم ومشكلات ترتبط بحياته وبنفسه لايملك أمامها سوى الاستسلام، فيفصح بالشكوى والتضجر حتى غدت الشكوى حينئذ تلبية لداعى النفس المحرومة المهمومة ، وهكذا فالحياة ستبقى لغزا غامضا لايعرفه إلا من أنار الله قلبه بنور الايمان وعندها تطمئن نفسه ويرضى بما قسم الله له وما قدره عليه .

﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَاكَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ (١) .

---

(١) سورة التوبة الآية : ٥١ .

الفصل الثانى

الشكوى الذاتية فى القرن الأول الهجرى

ذكرنا في الفصل السابق أن الشكوى في كثير من الأحيان تعد حاجة نفسية ملحة، يتخفف المرء عن طريقها من أثقال همومه ودفين آلامه بما يطلقه من صيحات التشكي وصرخات الألم . وقد رأينا أن أهم باعث للشكوى الذاتية عند شعراء الجاهلية تصورهم المحدود للحياة والموت ، فاتهموا الدهر بما ينوبهم من هموم وأحزان ، وما ينزل بهم من المصائب والنكبات ، ولهذا كثرت الشكوى من الزمن وتقلباته وما يسببه للانسان - كما يزعمون - من مصائب وأمراض تثقل كواهلهم ، وينوؤن بهمومها وأحزانها المظلمة (1)، فكانوا في تلك البيئة ضائعين من النواحي النفسية في خضم تلك الأحداث والمآسي التي يتعرضون لها بسبب فراغهم الديني(٢). إذ لم يكن لهم دين حق يعصمهم من الزلل ويكسبهم طمأنينة في الحياة الدنيا التي أصبحت عالمهم وهي البدء والمنتهى لهم . بنهايتها تنتهي المسرات ويذهب كل شيء سدى .

ولقد وقر في أذهان الشعراء الجاهليين أن أمورهم في الحياة موكلة للدهر، فهو الذي يسعدهم ويشقيهم، كما أن له القدرة على افنائهم ومن هنا جاء ذمهم له ، وكانت فلسفتهم للموت حتى غدت حياتهم قلقا مستمرا من جراء تفكيرهم بالمصير المجهول ، وتضاءلت عندهم قيمة الانسان وأصبح مصيره رهنا بثلاثة أمور (الهرم أو القتل أو الموت) أما جسمه فللبلى أو لأكل الضباع

---

(١) الانسان والزمان في الشعر الجاهلي / د . حسني عبد الجليل يوسف - مكتبة النهضة المصرية (د . ت) ص : ١١ .

(٢) ظاهرة الشكوى في شعر هذيل (رسالة ماجستير) مخطوط في كلية الآداب ، جامعة الموصل - العراق ١٤٠٧ هـ اعداد بتول حمدي البستاني : ٨٩ .

كما يرى المنخل الهذلي(١) :

هَلْ أُلْحِقُ الطَّعْنَةَ بِالضَّرْبَةِ الـ ... خَذْبَاءِ بِالْمُطَّرِدِ الْمِقْصَلِ (٢)
مِمَّا أُقَضِّى وَمَحَارُ الْفَتَى ... لِلضَّبْعِ وَالشَّيْبَةِ وَالْمَقْتَلِ (٣)
لاتَقِهِ الْمَوْتَ وَقِيَّاتُهُ ... خُطَّ لَهُ ذَلِكَ فِى الْمَحْبَلِ (٤)

لقد كان الموت بالنسبة للجاهليين نهاية لحياتهم وأفراحهم،وهو العدم الذى لاحياة بعده ، وقد ظل هاجسا عميقا فى وعيهم . ونستطيع القول:أن احساس الشعراء الجاهليين بالموت وعجزهم عن ادراك كنهه أدى إلى شعورهم المستمر بالقلق والخوف من المآل المجهول ، وقد غدا الموت الهاجس الأكبر فى تلك البيئة فأصبح من هذه الناحية معادلا للفجيعة،وهنا تكمن المأساة التى تهيج الهموم فى صدر الشاعر ، وكل هذا نتيجة لقلقهم المستمر وخوفهم من الدهر وتبرمهم منه ، وكأنه القوة المهيمنة التى لايقف فى وجهها قوة . ولهذا ربطوا قضية الموت بالزمن(٥) . حتى إذا جاء الاسلام وأخرج الله البشرية من دياجير الظلام الى

(١) شرح أشعار الهذليين /تحقيق عبد الستار فراج ومحمود شاكر ، مطبعة المدنى القاهرة : ١٢٦١/٣ .
(٢) الخَذْبَاءُ: أخذها من الأخذب وهو الأهوج المتساقط . والمِقْصَل : القاطع .
(٣) مَحَارُ الفَتَى : أى مصيره .
(٤) المَحْبِل : بالكسر يراد به الكتاب حيث تحبله المنية . وبالفتح (المَحْبَل) أراد حين حملت به أمه .
(٥) على سبيل المثال نرى مراجعة الكتب التالية :
- الزمان والمكان وأثرهما فى حياة الشاعر الجاهلى وشعره : ٣/١ - ٩٢.
- الحياة والموت فى الشعر الجاهلى / للدكتور مصطفى عبد اللطيف - وزارة الاعلام - دار الحرية بغداد سلسلة دراسات : ١٢٣ .
- الزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام / للدكتور عبد الاله الصائغ منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، العراق ١٩٨٢م ص : ١٥٠ - ١٧٦ .
- الانسان والزمان فى الشعر الجاهلي : ٧٦ - ١٢٥ .
دراسات فى الادب العربى والتاريخ / محمد عبدالغنىحسن - الدارالقومية للطباعة والنشر بغداد (د . ت) ص ٢٠٧ .

نور الحق أصبحت شكوى الشاعر موجهة إلى الله سبحانه وتعالى،يتوكل عليه ويفوض إليه أمره ، وفى ضوء هذا فإن ما يشعر به من مشكلات وآلام أخف وطأة مما كان يشعر به الشاعر الجاهلي الذى كان يشكو دون سند يستند إليه،أو مجيب يجيب دعواه،حيث لم تكن تحركه قوة دينية تشرق من خلالها نفسه،وتتوطن على تقبل القضاء والقدر بروح ايمانية صافية ، ومن هنا اختلفت الرؤية عند الشاعر المسلم فتضاءلت أمامه تلك التصورات المخيفة للزمن ، وأيقن أن الدنيا سبيل للآخرة وأن حوادثها لا تهز كيانه متى اعتصم بحبل الله ، وعندئذ اتجه فى شكواه مما يعرض له فى حياته من حوادث غير سارة إلى الله سبحانه ، فهو الذى يبصر ماحل بالانسان من مصائب وهو الذى بيده كشف الضر والبلوى .

فهذا أمية بن أبى عائذ (ت ٧٥ هـ) تقلقه الهموم فيضعف أمامها ويبوح بشكوى يتوجه فيها الى الله أن يعينه على تحملها فيقول (١) :

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو الَّذِى نَابَنِى ... لَهُ الحَمْدُ وَالشُّكْرُ فِى كُلِّ حَالِ
هُوَ المُسْتَعَانُ عَلَى مَا أَتَى ... مِنَ النَّائِبَاتِ بِعَانٍ وَعَالِ
وَإِظْلَالَ هَذَا الزَّمَانِ الَّذِى ... تَقَلَّبَ بِالنَّاسِ حَالاً لِحَالِ
وَجَهْدَ بَلَاءٍ إِذَا مَا أَتَى ... تَطَاوَلَ أَيَّامُهُ وَاللَّيَالِى
حَوَادِثُ خَطْبٍ تَوَارَثْنَنِى ... أَشَبْنَ المَفَارِقَ فَالجِسْمُ بَالِى

وما زال الشعراء المسلمون دائما يتوجهون فى شكواهم إلى الله أن يعينهم على

---

(١) شرح أشعار الهذليين : ٢/٤٩٥ - ٤٩٦ .

تحمل مصائب الدنيا وهموم الحياة أيا كان مصدرها كما فى قول الشاعر(١) :

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو لاَ إِلَى النَّاسِ إِنَّنِي ... وَلَيْلَى كِلاَنَا مُوجَعٌ مَاتَ وَافِدُهْ

وكما فى قول شاعر الخوارج عبيدة بن هلال اليشكرى (ت ٧٧ هـ)(٢) :

وَمَا زَالَتِ الأَقْدَارُ حَتَّى قَذَفْنَنِي ... بِقُومِسَ بَيْنَ الفَرَّجَانِ وَصُولُ(٣)

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو لاَ إِلَى النَّاسِ أَشْتَكِي ... بِقُومِسَ إِذْ فِيهَا الشُّرَاةُ حُلُولُ(٤)

---

(١) هذا البيت / للشاعر مسعود بن عقبة بن مسعود بن حارثة وهو أخ لذى الرمة قال قصيدة منها هذا البيت فى رثاء أخيه ذى الرمة . وليلى التى يذكرها هنا هى ابنة أخيه .

ديوان ذى الرمة طبعة المكتب الاسلامى ط (٢) ١٣٨٤هـ ص (و) من المقدمة .

(٢) ديوان الخوارج / جمع وتحقيق د . نايف معروف - دار المسيرة . بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م ص : ٩٩ .

(٣) قُومِس : بالضم ثم سكون وكسر الميم، تعريب كومس وهى كورة كبيرة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع وهى من ذيل جبال طبرستان وأكبر مايكون فى ولاية ملكها وقصبتها المشهورة دافعان وهى بين الرى ونيسابور ومن مدنها المشهورة بسطام ، وبيار . (معجم البلدان مادة قومس) .

الفرَّجان : ضبطه ياقوت باسكان الراء . وقال ان هذا الاسم كان يطلق على خراسان وسجستان . (معجم البلدان مادة الفرجان) .

(٤) الشُّرَاة : اسم من أسماء الخوارج سموا بذلك لانهم يقولون أنهم شروا أنفسهم لله بالجهاد .

الحور العين / لأبى سعيد نشوان الحميرى / تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجى بمصر، الطبعة الأولى ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٧ م ص : ٢٠٠ .

وحقيقة الأمر أن النفوس قد صفت فى ظل الاسلام ، فتغيرت نظرة الشاعر للزمن ، ولم يعد يجزع من الموت حيث رأى فيه قدرا محتما ينزله الله تعالى فى الوقت الذى يشاؤه سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾ (١) .

وما الخنساء إلا مثال حقيقي يصور لنا الناحيتين معا ، فقد ملأت الدنيا بكاء على أخويها عندما قتلا فى الجاهلية ، فلما أسلمت علمت حتمية القضاء والقدر ، وأن هذه الحياة ماهى إلا سبيل للآخرة الباقية، مما جعلها تدفع أبناءها الأربعة إلى الجهاد لينالوا شرف الشهادة فى سبيل الله، ولا نرى حافزا لها إلى هذه التضحية النادرة غير قوة الإيمان الذى غير نظرتها للحياة الدنيا فتغلبت على عاطفة الأمومة عندما قتل أبناؤها جميعا ولم تسقط لها دمعة بل حمدت الله أن أكرمهم بالشهادة (٢) ، وقد تضاءلت لديها تلك التصورات المخيفة للزمن فتجاهلت تماما قضية الدهر والمنايا التى طالما جزعت وبكت منها كثيرا فى الجاهلية .

ومع هذا فنحن لا ننكر أن الشكوى من الدهر لا يمكن أن نحدها بزمن دون آخر فهي موجودة كلما وجد من يشكو من الهموم فى أى زمان ومكان مما يخرجها عن خصوصيتها إلى نطاق إنسانى واسع شأنها ; شأن غيرها من مظاهر الشكوى الأخرى ، كالشكوى من الشيب ورحيل الشباب وآلام الشيخوخة ، والفقر، والفراق، والغربة والعشق وغيرها .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٤٥ .

(٢) الاصابة وبهامشه الاستيعاب / تحقيق طه محمد الزيني - مكتبة الكليات الأزهرية ط (١) ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م : ٢٢٨/١٢ .
وديوان الخنساء : ٦٩ .
ومطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية / الدكتور عبد الحليم حفنى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م ص : ٢٠٩ .

ولعل هذا مرتبط بتقليد شعراء القرون الثلاثة الأول لأسلافهم فى الجاهلية حتى غدت هذه التقاليد الأدبية من الموروثات اللغوية بالرغم من تغير الفكر والاتجاه . لكنها ربما أخذت طابعا آخر حيث لم يعد الشعراء فى كثير من الأحيان يتصورون الدهر القوة المدبرة المتمكنة من فعل الأشياء ، وإن بقيت بعض الرواسب المتعلقة بهذه القضية ، ولذلك فإن الصور الشعرية قد تختلف تبعا لقاموس الشاعر اللغوى وما اكتسبه من معطيات الثقافة الجديدة التى استجدت على الحياة بعد الاسلام .

إن بعض الشعراء فى القرن الأول الهجرى لم يستطع التخلص من عقدة الدهر فى شكواه، فهذا أبو ذؤيب (ت ٢٧ هـ) يتضور ألما وحزنا بعد أن فقد أبناءه وهو فى أمس الحاجة إليهم فينطق بقصيدته العينية التى تعبر عن نفس ملأى بالحزن والأسى ، والتى ينفث من خلالها همومه قائلا (١) :

أَمِنَ المَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ ... وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ (٢)

الى أن يقول :

أَوْدَى بَنِيَّ وَأَعْقَبُونِى حَسْرَةً ... بَعْدَ الرُّقَادِ وَعَبْرَةً لَا تُقْلِعُ

فَالعَيْنُ بَعْدَهُمُ كَأَنَّ حِدَاقَهَا ... سُمِلَتْ بِشَوكٍ فَهْيَ عُورٌ تَدْمَعُ

ويستمر فى التأكيد على أن الدهر الذى رماه بهذه المصيبة لا يبقى على حدثانه أحد من الأحياء :

---

(١) شرح أشعار الهذليين : ١/١ - ٤٠ .

(٢) لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ : أى ليس براجع عما يكره الشخص الى مايحب .

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ

وَالدَّهْرُ لَايَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ ... جَوْنُ السَّرَاةِ لَهُ جَدَائِدُ أَرْبَعُ (١)

وَالدَّهْرُ لَايَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ ... شَبَبٌ أَفَزَّتْهُ الكِلَابُ مُرَوَّعُ (٢)

ولولا أننا نعرف أن أبا ذؤيب عاش فى صدر الاسلام حيث صفاء العقيدة لقلنا أن هذه القصيدة يمكن أن تنسب لشاعر جاهلي ٠

وأغلب الظن أن قرب أبى ذؤيب من عصر الجاهلية جعل ذاكرته تختزن مثل هذه العبارات التى لاتخرج من قريب أو بعيد عن أسلوب الجاهليين ٠

ويتحدث عن صراعه مع نفسه فى مغالبته الحزن والبكاء فيقول :

وَلَقَدْ أَرَى أَنَّ البُكَاءَ سَفَاهَةٌ ... وَلَسَوفَ يُولَعُ بِالْبُكَى مَنْ يُفْجَعُ

ويبين كيف استسلم فى النهاية لسلطان المنية مع حرصه على أن يبذل كل ما يستطيع للحيلولة دون وفاتهم فنجده يقول :

وَلَقَدْ حَرِصْتُ بِأَنْ أُدَافِعَ عَنْهُمُ ... فَإِذَا المَنِيَّةُ أَقْبَلَتْ لَا تُدْفَعُ

وَإِذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

---

(١) الجَوْنُ هنا : يريد به حمار الوحش ٠ والسَّرَاةُ : أعلى الظهر ٠ والجَدَائِدُ : أتن حمار الوحش ٠ والجَدَّاءُ : التى لا أذن لها ٠ والجدود من الآتن : التى خف لبنها ٠

وقد اعتبر الشاعر فى حدثان الدهر بحمار الوحش لما ذكروا من أنه يعمر أكثر من مائتى سنة ٠

حياة الحيوان الكبرى / للدميرى - مطبعة الحلبى ، الطبعة الخامسة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م : ٣٦١/١ ٠

(٢) الشَّبَبُ : الثور المسن ٠ أَفَزَّتْهُ : استخفته وطردته ٠

ومع أن هذه القصيدة تدخل فى باب الرثاء إلا أنها تصور لنا الجانب النفسي الحزين لأبى ذؤيب من خلال شكواه الرقيقة التى تبدو فى ثنايا القصيدة ، رغم أنه أنشأ هذه القصيدة ليعبر بها عن جلده واحتماله حتى لايقع تحت ألسنة الشامتين ، فحاول أن يحشد كل مايجول فى نفسه من مشاعر الحرص على التجلد[(١)] . لكنه مع هذا كله لم يستطع أن يتغلب على خوفه من ذلك الشبح المخيف الذى أقلق الشعراء فى الجاهلية ولا زال والمتمثل فى الدهر .

إن الشكوى الذاتية تترجم عن أفئدة مكلومة، فنحس زفرات حارة تنطلق من صدور مجروحة تلك هى أنات الشكوى مما ينتاب النفس الانسانية من هموم وأوجاع أملتها ظروف الحياة وماقد يتعرض له الانسان فى يومه وغده من متاعب ومشكلات .

وحينما نبحث فى بواعث الشكوى الذاتية لدى شعراء القرن الأول الهجرى نجدها أوضح ماتكون عند شعراء الغزل العذرى العفيف الذين اكتووا بلهيب الحب فظهروا على الساحة بأدب راق يمس شغاف القلوب بأسلوبه العذب السلسال .

ويغلب على الظن أن هموم أولئك الشعراء فى جزء كبير منها صادقة فإن ماوصل إلينا من أشعارهم ينم عن عاطفة قوية ليس للظفر بمتع الحس نصيب فيها وإنما هى محبة صادقة يسعى المحب من خلالها إلى استدامة عاطفة الحب فى ذاتها نحو محبوبته ، بالرغم من تعذر الصلة المشروعة لدى أغلبهم[(٢)] . فلم تخب عواطفهم أو تنقطع ، ومن هنا فإن الدارس يجد عندهم من رهافة الحس وصدق

---

(١) مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية : ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية / للدكتور محمد غنيمى هلال دار نهضة مصر للطبع والنشر الطبعة الثانية دون تاريخ، ص : ١٧ - ١٨ .

التجربة وبوح النفس ما يشبع فضوله (١) ، ولعل هذا ماحدا بنا إلى دراسة الشكوى الذاتية عندهم •

لقد كانت المرأة منذ القدم هى الملهم الأول للشعراء والمعين الذى يستقون منه الحب حلوه ومره (٢) ، وقد جاء الاسلام فزاد فى مكانتها وأعلى قدرها ، وجعلها ندا للرجل فى كثير من الحقوق ، وأنزلها فى المجتمع منزلا كريما ، وصانها من الابتذال والتبرج فأصبح الوصال اليها مقيدا بحدود الشرع• وأصبح التكافؤ فى الدين والنسب شرطا أساسيا للزواج مما قصر ببعض الشعراء عن الاستمتاع بمحبوبته من طريق مشروع • فأخذ يتغزل ويشكو لينفس عما يعتمل فى نفسه من تباريح الهوى ولواعج الحرمان • ولا نريد أن نتحدث كثيرا عن غرض الغزل فى هذه الفترة ونخوض فى اتجاهاته ومناحيه • وإنما نبحث فيما يعنينا وهو الشكوى الذاتية لدى هؤلاء الشعراء حيث استأثرت المرأة بكثير من مناجاتهم النفسية ، وكانت سببا بصدها وإعراضها فى كثير من الهموم والأحزان التى اشتكى منها الشعراء إذ أن همومهم فى جانب كبير منها ناتجة عن صد الحبيبة واعراضها وعدم إنصافها لهم فى المودة • وإخلالها بعهودها ووعودها •

والحق أن شعراء الغزل العذرى فى القرن الأول الهجرى قد تناسوا مايحكم الفتاة فى المجتمع المسلم من أحكام كانت صدى للبيئتين

---

(١) نظرية الشعر فى النقد العربى القديم / الدكتور عبد الفتاح عثمان ، مكتبة الشباب (د • ت) ص : ٢٨١ - ٢٨٢ •

(٢) الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية : ٢١ •

الاسلامية والبدوية (1)، فهي تختلف عن البيئة الحضرية التى قد تمنح الفتاة شيئا من التخلص من بعض العادات القبلية . لكن شعراء البادية لم يتوفر لهم ماتوفر لزميلهم شاعر الحاضرة حيث بقيت التقاليد الاجتماعية المحافظة قوية لم تتأثر .

ولاشك أن عامل الدين قد فرض على الفتاة المسلمة واجبات ونظم علاقتها بالرجل الأجنبى ولا يمكن لها أن تخل بشيء من هذه الواجبات فليس للمرأة مطلقا أن تخرج فى وجه الرجل الأجنبى مهما كانت بينهما من علائق الحب ، وفى هذا بطبيعة الحال صون لها وحفظ لعرضها يترتب عليه احترام لشرف أهلها وقبل هذا كله امتثال لأمر الله سبحانه وتعالى . لكن هؤلاء الشعراء العاشقين - ان صدقوا فى عشقهم - لم ينظروا لهذه الامور كما تنظر الفتاة بل رأوا فيها صدا واعراضا من المحبوبة عنهم فزادهم ذلك هما وقلقا واشتكوا وتذمروا كما هو الحال عند كثير عزة (ت ١٠٥ هـ) حيث يقول شاكيا من صدها واعراضها (1) :

---

(١) اشتهرت المرأة فى المجتمع البدوى بالعفاف وصيانة العرض وحسن السمعة والعفة ، والحفاظ على شرفها وشرف وليها بين قومه ، وقد كان هذا السلوك واضحا محددا فى البيئة البدوية منذ الجاهلية فى عصورها الأولى وقد أثنى الشنفرى على الزوجة التى تحرص على هذه القيم فى احدى قصائده المشهورة .
شرح المفضليات / للتبريزى / تحقيق على محمد البجاوى - دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م : ٣٨١/١ - ٣٨٤ .
فلما جاء الاسلام شدد على هذه القيم وأكدها وحدد علاقة المرأة بالرجل .

(٢) ديوانه / تحقيق الدكتور احسان عباس - دار الثقافة بيروت ١٣٩١ هـ/١٩٧١م ص : ٩٧ - ١٠٠ .

كَأَنِّى أُنَـادِى صَخْـرَةً حِيـنَ أَعْرَضَـتْ ... مِـنَ الصُّـمِّ لَوْ تَمْشِى بِهَا العُصْمُ زَلَّـتِ (١)

وَوَاللَّهِ مَـا قَـارَبْـتُ إِلاَّ تَبَاعَـدَتْ ... بِصَرْمٍ وَلاَ أَكْثَـرْتُ إِلاَّ أَقَلَّـتِ

وَكُنَّـا سَلَكْنَـا فِى صَعُودٍ مِـنَ الْهَـوَى ... فَلَمَّـا تَوَافَيْنَـا ثَبَتُّ وَزَلَّـتِ

وَكُنَّـا عَقَدْنَـا عُقْدَةَ الوَصْلِ بَيْنَنَـا ... فَلَمَّـا تَوَاثَقْنَـا شَـدَدْتُ وَحَلَّـتِ

فهو يشكو من صدها وإعراضها إذ أنه فى كل حال من أحواله يقرب ، ولكنها تقابل قربه بالصرم والبعد ، فكلما قرب بعدت وكلما أكثر من التودد لها أكثرت من البعد والصرم وهى فى كل الحالات لاتفى بشيء من عهودها ووعودها .

وإننا لنجد مجنون ليلى (ت ٦٨ هـ) يشتد فى شكواه من اخلاف محبوبته لوعدها فيلومها لوما شديدا حيث جعلت منه مثار سخرية ولوم عند الناس يسخرون منه ويهزءون بجنونه بينما نجت هى من كل لوم فيعدد ما يعرض له من ويلات نتيجة حبه لها ، وما كان أغناه عن هذه الآلام لو كان يملك أمر قلبه ولكن أنى له ذلك فهو مغلوب على أمره (٢) .

وَأَنْتِ الَّتِـى كَلَّفْتِنِـى دَلَـجَ السُّـرَى ... وَجَـوْنُ الْقَطَـا بِالْجَلْهَتَيْـنِ جُثُـومُ (٣)

وَأَنْتِ الَّتِـى قَطَّعْـتِ قَلْبِـى حَـزَازَةً ... ورقرقت دَمْـعَ العَيْنِ فَهْـىَ سُجُـومُ

---

(١) الصُّمُّ : جمع صماء وهى الصخرة الصلبة .
العُصْمُ : جمع أعصم وعصماء ، وهو من الوعول مافى ذراعيه بياض والعصم تحسن السير والقفز على الصخور لكن هذه الصخرة التى يصفها الشاعر شديدة الملاسة تزل عليها العصم .

(٢) ديوان مجنون ليلى / جمع وتحقيق عبد الستار فراج - مكتبة مصر (د . ت) ص : ١٩٢ .

(٣) الدَّلَجُ : السير بالليل . وَالجَلْهَتَانِ : موضع . وجُثُومُ : قعود .

وَأَنْتِ الَّتِى أَغْضَبْتُ قَومِى فَكُلُّهُمْ بَعِيدُ الرِّضَى دَانِى الصُّدُودِ كَظِيمُ
وَأَنْتِ الَّتِى أَخْلَفْتِنِى مَا وَعَدْتِنِى وَأَشْمَتِّ بِى مَنْ كَانَ فِيكِ يَلُومُ
وَأَبْرَزْتِنِى لِلنَّاسِ ثُمَّ تَرَكْتِنِى لَهُمْ غَرَضًا أُرْمَى وَأَنْتِ سَلِيمُ

وهو يبكى لمجرد أن تثار شجونه حينما يجد فى مظاهر الحزن التى تهيج العاطفة لذة ويخال نفسه أخا كل ذى شكوى من الطير (1) كقوله شاكيا من اللوعة والاشتياق ومفصحا عما يعتمل فى نفسه من ألم وحرقة وقد هيجه سجع الحمام فاستطال يبكى ويشكو من همومه :

(2)

أَلَا يَاحَمَامَ الْأَيْكِ أَجْرَيْتَ أَدْمُعِى وَقَدْ سَاحَ فَوقَ الوَجْنَتَينِ غَزِيرُهَا
وَأَضْرَمْتَ نِيرَانًا بِقَلْبِى وَإِنَّنِى أُكَابِدُ أَهْوَالاً طَوِيلاً قَصِيرُهَا
أَتَنْدُبُ إِلْفًا قَدْ أَذَابَكَ بُعْدُهُ وَتُذْرِى دُمُوعًا قَدْ يَسِيلُ غَزِيرُهَا
لَقَدْ هِجْتَ مِنِّى عِنْدَ نَوحِكَ سَاكِنًا وَأَضْرَمْتَ نَارًا فِى الفُؤَادِ سَعِيرُهَا

ولقد وقف المجتمع فى وجه هؤلاء الشعراء ولم يمكنهم من تحقيق مايصبون إليه (3) فلج بهم الهوى وغرقوا فى بحره المائج وبكوا كثيرا واشتكوا أكثر لما وضعه المجتمع فى طريقهم من عقبات وموانع شديدة . الصرامة ضاعفت من همومهم وأحزانهم ، ولم يكن لدى هؤلاء الشعراء سلاح أقوى من الشعر ينفثون من خلاله أحزانهم ومعاناتهم فأفصحوا فى شكواهم تلك عما يعانونه من الوجد وشقاء الحرمان وغلبة الهوى (4) .

---

(1) الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية : ٨٤ .
(2) ديوانه : ٢٤٧ .
(3) اتجاهات الشعر فى العصر الأموى / الدكتور صلاح الدين الهادى . مكتبة الخانجى القاهرة ـ الطبعة الاولى ١٤٠٧ هـ ص : ١٤٦ .
(4) المرجع نفسه : ٤٤٦ .

ومن هنا كانت شكواهم تكشف عن تلك المتاعب المعنوية، وما يلفهم من حزن وألم ، وتصور ضعفهم المتناهى أمام الحرمان وعدم الوصال ، ونحن نجد جميل بن معمر (ت ٨٢ هـ) يبين فى شكواه أن بيد محبوبته مفتاح شقائه وسعادته ويتوسل اليها أن تجود له بالوصال فى أسلوب ينم عن ضعف لما ينوء به من الوجد واللوعة ، فهى ضنينة بوصلها مما أسقم جسمه وأثار شفقة العدو والصديق عليه حتى الحمام يكاد يبكى لبكائه ويهيم لهيامه ، وكلما ازداد بعدا عنها وحرمانا منها زاد وجده بها وشوقه إليها . يقول :

وَأَنْتِ الّتِى إِنْ شِئْتِ كَدَّرْتِ عِيْشَتِى ... وَإِنْ شِئْتِ بَعْدَ اللّهِ أَنْعَمْتِ بَالِيَا (١)
وَأَنْتِ الّتِى مَامِنْ صَدِيقٍ وَلاَ عِدًى ... يَرَى نِضْوَ مَا أَبْقَيْتِ إِلاَّ رَثَى لِيَا
وَمَا زِلْتُمُ يَابَثْنَ حَتَّى لَوَ أَنَّنِى ... مِنَ الشَّوْقِ أَسْتَبْكِى الحَمَامَ بَكَى لِيَا
وَمَا زَادَنِى النَّأْىُ المُفَرِّقُ بَعْدَكُمْ ... سُلُوًّا وَلاَ طُولُ التَّلاَقِى تَقَالِيَا

ومما يدل على قسوة الحرمان وشدة اليأس من نوال هذه المحبوبة ، واستبداد الهوى به أنه يتمنى لو كانت به علة تفقده بصره وسمعه شريطة أن تكون بثينة هى التى تقوده حتى ينعم بقربها (٢) .

أَلاَ لَيْتَنِى أَعْمَى أَصَمٌّ تَقُودُنِى ... بُثَيْنَةُ لاَ يَخْفَى عَلَىَّ كَلاَمُهَا

ويحاول أن يسلو عنها ويخلص مما هو فيه من تباريح الهوى وألم العشق لكنه ما أن يشاور قلبه حتى يتمرد عليه ويخرج عن طوع عقله وإرادته ويحيل الأمل

---

(١) ديوان جميل / جمع وتحقيق الدكتور حسين نصار - دار مصر للطباعة (د . ت) ص : ٢٢٠ .

(٢) المصدر نفسه : ١٩٣ .

فى السلو والنسيان إلى سراب ، فلا يجد طريقا للخلاص حيث غلب الحب على قواه الفكرية وسيطر على إرادته ، ومهما جاهد فى الأمر فجهده عبث لا تطاوعه فيه نفسه ، هنا يقدم لنا صورة من نزوعه إلى التعزى وقد يئس من قلب بثينة بعد أن انعدم التفاهم بين قلبه وعقله نتيجة لما ابتلى به من الحب وغلبة الهوى مما أفقده معهما السلو والصبر ، فيقول فى مناجاة ذاتية تنم عن ضعف نفسه وتهالكها :

أَلاَ مَنْ لِقَلْبٍ لاَ يَمَلُّ فَيَذْهَلُ ... أَفِقْ فَالتَّعَزِّى عَنْ بُثَيْنَةَ أَجْمَلُ (١)
سَلاَ كُلُّ ذِى وِدٍّ عَلِمْتُ مَكَانَهُ ... وَأَنْتَ بِهَا حَتَّى المَمَاتِ مُوَكَّلُ
فَيَا قَلْبُ دَعْ ذِكْرَى بُثَيْنَةَ إِنَّهَا ... وَإِنْ كُنْتَ تَهْوَاهَا تَضِنُّ وَتَبْخَلُ
وَقَدْ أَيْأَسَتْ مِنْ نَيْلِهَا وَتَجَهَّمَتْ ... وَلَلْيَأْسُ إِنْ لَمْ يُقْدَرِ النَّيْلُ أَمْثَلُ
وَكَيْفَ تُرَجَّى وَصْلَهَا بَعْدُ بُعْدِهَا ... وَقَدْ جُذَّ حَبْلُ الوَصْلِ مِمَّنْ تُؤَمِّلُ
وَإِنَّ الَّتِى أَحْبَبْتَ قَدْ حِيلَ دُونَهَا ... فَكُنْ حَازِمًا وَالْحَازِمُ المُتَحَوِّلُ
هَبِيْنِى بَرِيْئًا نِلْتِهِ بِظُلاَمَةٍ ... عَفَاهَا لَكُمْ أَوْ مُذْنِبًا يَتَنَصَّلُ

ونجد أبا صخر الهذلى (ت ٨٠ هـ) يصف حبه ولوعته تجاه الحبيبة التى حرم منها ، ونلمس روحه الذائب من شدة الوجد تتصارع فى داخله مختلف المشاعر وهو يعانى من الحرمان وقسوة الهجر، فيشكو من هذا الوضع ويتمنى أن يستمر حبه لها حتى يلقاها يوم الحشر وهو لا زال على عشقه المكين(٢) :

---

(١) ديوانه : ١٥٩ - ١٦٠ .
(٢) شرح أشعار الهذليين : ٢/٩٥٧ - ٩٥٨ .

أَمَا وَالَّذِى أَبْكَى وَأَضْحَكَ وَالَّذِى | أَمَاتَ وَأَحْيَا وَالَّذِى أَمْرُهُ الأَمْرُ
لَقَدْ تَرَكْتَنِى أَحْسِدُ الوَحْشَ أن أرى | أَلِيفَيْنِ مِنْهَا لَا يَرُوعُهُمَا الذُّعْرُ
فَيَاهَجْرَ لَيْلَى قَدْ بَلَغْتَ بِى الْمَدَى | وَزِدْتَ عَلَى مَالَمْ يَكُنْ بَلَغَ الْهَجْرُ
وَيَاحُبَّهَا زِدْنِى جَوًى كُلَّ لَيْلَةٍ | وَيَا سَلْوَةَ الأَيَّامِ مَوْعِدُكَ الْحَشْرُ

ونختتم حديثنا عن الشكوى الذاتية لدى هؤلاء الشعراء العشاق بتلك الأبيات الشاكية التى تصور نفس الشاعر الهذلى عبد الله بن مسلم (ت ١٠٠هـ) وقد بدت متهالكة من الشوق بعد أن أضناه الوجد من صدود الحبيبة عنه فأرقه ومنعه النوم وبقي يصارع همومه تلك مستعينا بمن حوله مستجديا حبيبته أن تجود له بشيء من ريقها أو ثيابها لترد عليه روحه . كل هذا فى أسلوب متهالك يبين حالته المتعبة ومشاعره الذائبة فى هوى هذه الحبيبة (١) .

تَعَالَوْا أَعِينُونِى عَلَى اللَّيْلِ إِنَّهُ | عَلَى كُلِّ عَيْنٍ لَا تَنَامُ طَوِيلُ (٢)
وَلَا تَخْذُلُونِى فِى الْبُكَاءِ فَإِنَّنِى | لَكُمْ عِنْدَ طُولِ الجَهْدِ غَيْرُ خَذُولِ
تَعَالَوْا إِلَى نَفْسٍ تَسَاقَطُ مِنْ هَوًى | مُبَتَّلَةٍ رَيَّا الْعِظَامِ كَسُولِ (٣)
أَتَتْرُكُ نَفْسٌ فِى هُذَيْلٍ مَرِيضَةٌ | مُحَاذِرَةٌ قَتْلًا بِغَيْرِ قَتِيلِ
فَوَيْحِى وَعَوْلِى فَرِّجُوا بَعْضَ كُرْبَتِى | وَإِلَّا فَإِنِّى مَيِّتٌ بِغَلِيلِ
فَإِنْ كَانَ هَذَا الشَّوْقُ لَابُدَّ لَازِمًا | وَلَيْسَ لَكُمْ فِيهِ الْغَدَاةَ حَوِيلُ (٤)

---

(١) شرح أشعار الهذليين : ٩٠٩/٢ .
(٢) هذا البيت والبيت السادس فيهما أقواء ، وهو من عيوب الشعر .
(٣) مُبَتَّلَة : أى منقطعة .
(٤) حَوِيلُ : أى ما احتال فيه .

فَقُولاَ لَهَا قَوْلاً رَفِيقاً لَعَلَّهَا ستَرْحَمُنِى مِنْ زَفْرَةٍ وَعَوِيلِ
بِرِيْقَتِهَا أَوْ رِيحِ ثَوْبٍ أَشَمُّهُ فَيَعْرِفَ رُوحِى رِيحَ رُوحِ خَلِيلِى

إن الشكوى لدى شعراء الغزل العذرى متشابهة فكلهم مكتو بنار الحرمان وكلهم راض عن صاحبته قانع منها بأقل مايمكن أو بلا شيء ، وكلهم ثابت على عشقه مهما تعرض له من صنوف الهجر والحرمان والصدود واخلاف الوعود ونقض العهود .

والحق أن هذه التجارب النفسية التى تنثال بها السنة الشعراء فى شكواهم من ألم الوجد وعنفوان الحب قد احتوت التجربة لديهم من جوانبها كلها فى عمقها وشدتها وجوهرها الانساني فأصبحوا قادرين على التأثير والايحاء ، ولذلك فانهم فى شعرهم الشاكي هذا متشابهون لكنهم يتفاوتون فيه من حيث الصور والمشاعر والانفعال المتوهج بالألم ، الأمر الذى قد يجعل الباحث أمام أساليب واحدة تتشابه وتتداخل فيها المعانى والتجارب الذاتية بينما تختلف الصور الفنية من شاعر لآخر ، ولذلك رأينا أن نكتفى بهذه الأمثلة لعدم تباين أنماط الشكوى الذاتية عندهم ، وحسبنا أن نعرف أن الشكوى من هجر الحبيب وما يترتب عليه من هموم فيها دلالة نفسية يحيطها الأسى والألم ، وقد ازدحمت قصائد هؤلاء الشعراء بالشكوى من الحبيبة المجافية التى تصد فتهز النفس من أعماقها وتهجر فيلقى الشاعر المحب مايلقى من هذا الهجر فينعكس كل مايعانيه ويكابده فى شعره ، على أنه لايمكن اعتبار كل مانجد عند هؤلاء الشعراء من شكوى فى هذا المجال نابع من قلوب عاشقة وأنفس متيمة فقد يقول الشاعر فى أحيان كثيرة ذلك من باب التقليد حتى أصبح هذا الغزل المشوب عادة بالشكوى من التقاليد الأدبية

السائدة كما نقرأ في مقدمات القصائد والتي لايدل غزل الشاعر فيها على حب صادق وعواطف مشبوبة مخلصة، بقدر ماهو مسلك أدبي تعارف عليه الشعراء لادخل له بعواطف الشاعر أيا كان ، وما أقوى هذه التقاليد الأدبية وأرسخها ٠

ولكن الذى يفصح عن شكوى صادقة هو مايحصل عادة من صد الحبيبة عن محبوبها وفراقها له أو وقوف أهلها حائلا بينهما نتيجة أوضاع اجتماعية معينة ، وهذا واضح من تاريخ أصحاب الغزل العذرى الذين صرحوا بالشكوى والبكاء مما يعانونه من الوجد والحزن ٠

ولذلك رأيت أن أقتصر على الأمثلة السابقة فى هذا المجال لكون شعراء الغزل العفيف فى البادية يمثلون العشق الصادق الصافى صفاء البادية وصدق أهلها ضاربا صفحا عن الشكوى الذاتية عند شعراء الغزل الحضرى الذى تبدو الصورة فيه مادية بحتة ووراءها لذة حسية كما هو الحال عند عمر بن أبى ربيعة (ت ٩٣هـ) ومن لف لفة ممن عرفوا بهذا الاتجاه الذى يرفضه الدين ويأباه الذوق الأدبى الرفيع ٠

وستظل هموم الشاعر فى مختلف العصور فى جانب كبير منها ناتجة عن ذهاب الشباب وحلول المشيب مع اختلاف واضح فى صور الشعراء وإن اتفقت المعانى إلى حد كبير ، ولذا فإن من أهم بواعث الشكوى الذاتية فى القرن الأول الشيخوخة إذ هى ظاهرة مشتركة لها جوانب نفسية وأخرى اجتماعية ، فالشاعر أينما وجد يرى فى الشيب تحولا فى نمط حياته ، فيبكى الشباب الغارب ، ويستاء من هذا الشيب الدانى، ولاشك أن بكاء الشباب الذاهب والاستياء من الشيب القادم ظاهرة إنسانية تتصل بالنفس فى أدق خصائصها فضلا عن الجانب الاجتماعى الذى سنعرض له فى مكان آخر من هذا البحث ان شاء الله ٠

إن الشكوى من الشيخوخة تعبير عن عواطف الشعراء فلا عجب أن نجد الشاعر وقد أضناه الكبر يتألم ويشكو ، وشعراء القرن الأول كغيرهم قد هالهم منظر الشيب ورأوا فيه نذير ضعف وقلة حيلة، فاشتكوا وتذمروا وبكوا ، ونعوا شبابهم الغارب بشعر ذاتي مؤثر تقطر كلماته حزنا وتنبض أسى حين ولى عنهم الشباب وتركهم يقفون على أطلاله الدارسة متحسرين باكين معددين جوانبه المحمودة وسماته التي جعلته قريبا من النفس الانسانية وإليها حبيبا ، وإننا لنجد الحارث ابن خالد المخزومي (ت ٩٩ هـ) يبكي بلوعة شبابه المولى قائلا [(١)] :

رَحَلَ الشَّبَابُ وَلَيْتَهُ لَمْ يَرْحَلِ ... وَغَدَا لِطَيَّةِ جَاهِلٍ مُتَجَمِّلِ [(٢)]

وَلَّى بِلاَ ذَمٍّ وَغَادَرَ بَعْدَهُ ... شَيْبًا أَقَامَ مَكَانَهُ فِي المَنْزِلِ

لَيْتَ الشَّبَابَ ثَوَى لَدَيْنَا حِقْبَةً ... قَبْلَ المَشِيبِ وَلَيْتَهُ لَمْ يَعْجَلِ [(٣)]

فَقَضَيْتُ مِنْ لَذَّاتِهِ وَنَعِيمِهِ ... كَالعَهْدِ إِذْ هُوَ فِي الزَّمَانِ الأَوَّلِ

إنّ الشاعر كما نرى قلق من رحيل شبابه الذي بدل به مشيبا تسوء العين رؤيته ، وهو يتمنى لو ثوى الشباب لديه زمنا حتى يتمكن من التمتع بما تهوى النفس في ظلاله حيث أن الشيب قد حال بينه وبين مايريد تحقيقه من متع

---

(١) شعر الحارث بن خالد المخزومي / تحقيق الدكتور يحيى الجبوري - مطبعة النعمان النجف ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م ، ص : ٨٥ - ٨٦ .

(٢) الطَّيَّةُ : المنتأى والقصد والنية التي تنتوى .
والمُتَجَمِّلُ : المتصبر على الفراق لم يظهر الجزع . والمُتَحَمِّلُ : الراحل .

(٣) ثَوَى : أقام في المكان ومكث .

الحياة وبخاصة إذا علمنا أن هذا الشاعر كان منافسا لعمر بن أبى ربيعة فى غزله علمنا كذلك سر تحسره وشكواه من رحيل شبابه . ومن هنا ندرك أبعاد هذه اللوعة حيث حيل بينه وبين صبواته التى عرف بها فى مكة خلال النصف الثانى من القرن الأول الهجرى [1] .

وتتراكم هموم الشاعر حينما يلتفت إلى ذاته فإذا به مكبل بقيود الشيخوخة يعانى أوجاعها وأسقامها الحسية والمعنوية فلا يملك سوى اطلاق صيحات التشكى يبوح من خلالها بهمومه ويبث معاناته كما يتضح من قول مسكين الدارمي (ت ٨٩ هـ) فى معرض شكواه من الشيب وتحسره على شبابه الراحل[2] :

سَلَبَ الشَّبَابُ رِدَاءَهُ عَنِّي وَأَتْبَعَهُ إِزَارَه
وَلَقَدْ يَحِلُّ عَلَيَّ حُلَّتَهُ فَيُعْجِبُنِي فَخَارَه
وَلَقَدْ لَبِسْتُ جَدِيدَهُ حِينًا فَلَا يُبْعِدْ مَزَارَه
فَانْظُرْ إِلَى شَعَرِي تَبَيَّنْ كَيْفَ قَدْ فَعَلَتْ دِيَارَه

فالشاعر يندب شبابه المنصرم وقد جرد من الجمال والنضرة بحلول المشيب محل الشباب فبدا شعره أبيض . وملك عليه الحزن قلبه . فجاءت عباراته ذوب نفسه وفيض حسه الحزين ، ولذا حشد فى هذه الأبيات مشاعره المحترقة لفقد شبابه من خلال عباراته الموحية التى تكمن فى هذا الكم من الأفعال المرتبطة بالزمن .

---

(١) الشباب والشيب فى الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي / للدكتور عبد الرحمن محمد هيبة . الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الاسكندرية ١٦٦/١ .

(٢) ديوان مسكين الدرامى / جمع وتحقيق خليل ابراهيم العطية ، وعبد الله الجبورى ، بغداد دار البصرى ص : ٣٦ - ٣٧ .

أما الاحوص الانصارى (ت ١٠٥ هـ) فانه يذرف الدموع الغزار على الشباب الذى رحل ، وتمتلئ نفسه بمشاعر القلق والاسى فى غمرة ذهاب الشباب ودنو المشيب فيفصح عن أساه فى شكوى مؤلمة قائلا :(١)

نَزَلَ المَشِيبُ فَمَا لَهُ تَحْوِيلُ ... وَمَضَى الشَّبَابُ فَمَا إِلَيْهِ سَبِيلُ
وَلَقَدْ أَرَانِي وَالشَّبَابُ يَقُودُنِي ... وَرِدَاؤُهُ حَسَنٌ عَلَيَّ جَمِيلُ
وَعَلَيَّ مِنْ وَرَقِ الشَّبَابِ وَظِلِّهِ ... غُصْنٌ تَفَرَّعَ فِي الغُصُونِ ظَلِيلُ
بَشَرٌ يَكُونُ مِنَ الحَرِيرِ وَلِمَّةٌ ... مِثْلُ الجَنَاحِ وَعَارِضٌ مَصْقُولُ
فَاليَوْمَ وَدَّعَنِي الشَّبَابُ كَأَنَّنِي ... سَيْفٌ تَقَادَمَ عَهْدُهُ مَفْلُولُ

ونحن نلمس من خلال هذه الشكوى أشجان الشاعر اذ أن عباراته توحى بحسرته الشديدة وما يلفه من الهلع وعمق الاحساس بالخطب واليأس من عودة الشباب ثانية ٠ ومن هنا ندرك مأساته فى خضم هذا الشعور النفسى بذهاب الشباب ودنو الشيب ٠ وهو شعور قد يشترك فيه كل من فقد الشباب وتقمص المشيب فى كل زمان ومكان (٢).

اننا حينما نتحدث عن الشكوى من دنو الشيب ورحيل الشباب من جانبها النفس لدى شعراء القرن الاول فقد اكتفينا كما هو واضح ببعض الامثلة الموضحة فحسب ٠(٣)

---

(١) شعر الاحوص الانصارى / جمع وتحقيق عادل سليمان جمال - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٠ هـ ص : ١٧٥ ٠

(٢) اللطائف والظرائف / لابى نصر المقدسي - المطبعة الميمنية بمصر ١٣٢٤ هـ ص : ١٠٩ ٠

(٣) ومن أراد التوسع فليراجع - الشباب والشيب فى الشعر العربى حتى نهاية العصر العباسى / للدكتور عبدالرحمن هيبة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الاسكندرية ٠

لأن هذه الأمثلة تبيّن الى حد كبير حسرات الشعراء من دنو الشيب ورحيل الشباب ، وتذكرهم بتلك المرحلة العطرة من مراحل حياتهم ٠

ولاشك أن غروب الشباب يرتبط فى وعي الشاعر بأمور نفسية انطوت عليها جوانحه تجاه هذه الفترة العزيزة على النفس التى ولت وأخذت تحل محلها أمور أخرى ربما بدت بغيضة إلى النفس ، فلا غرابة إذا أن تضطرم نفسه بالأسى والحزن حينما يودع الشباب ويستقبل المشيب الذى يرتبط عادة بكثرة الأسقام والأوجاع ، وإعراض الغوانى ونشوز الزوجات ، وسأم الأهل والأصحاب ، وتنكر العشيرة وغير ذلك وهى صور اجتماعية تتكرر فى كل زمان ومكان فتتكرر معها الشكوى منها ٠ ولهذا سيأتى الحديث عنها بإذن الله خلال دراستنا للشكوى الاجتماعية (١) ، أما هنا فسنكتفى بهذه الأمثلة لتشابه صور الشكوى من الشيخوخة عند الشعراء على وجه العموم ٠

ويعد السجن من بواعث الشكوى عند شعراء القرن الأول حيث تعرض كثير منهم الى دخوله فكان من أقوى البواعث لشعر الشكوى ،فالمسجون يخيم عليه القلق

---

(١) ستتحدث عن هذه الظاهرة كذلك أثناء دراسة الشكوى الاجتماعية فى العصر الجاهلي ونتركها فيما بعد حتى لانقع فى دائرة التكرار وان كانت طبيعة هذا البحث تفرض علينا تكرار الحديث عن بعض بواعث الشكوى المشتركة فذلك من أجل البحث عن الجديد فى الصور الشعرية ، وان اتفق الموضوع ولعل هذا يشفع للبحث وجود بعض ملامح التكرار لظواهر معينة تفرضها الدراسة ٠

وتتدافع فى أعماقه الهموم ويستشرف إلى الحرية . وسنتناول هنا الجانب الوجداني لشعر الشكوى من السجن لارتباط ذلك بذات الشاعر ودواخله . ولأن الشكوى الذاتية عند الشعراء الذين تجرعوا مرارته تعبر تعبيرا صادقا عن المعاناة النفسية لديهم . إذ الباعث الأساسى لقصائد الشكوى من السجن هو الهموم والآلام التى يعانيها السجين وهى تشترك جميعا فى المنشأ النفسي والانفعال الوجدانى ، ولعل هذا ماحدا بنا إلى دراسة شعر السجن من جانبه الذاتى ، على أننا سنترك للجانب الاجتماعى حديثا أكثر عمقا للمشكلة التى حدت بهذا الشاعر أو ذاك إلى دخول السجن . وإنما يعنينا هنا تلك الزفرات الحرى التى تصدر عن ذات الشاعر وتصور أعماق نفسه ويكفى أن نأخذ الشاعر يزيد بن مفرغ الحميرى (ت ٦٩ هـ) مثالا للشكوى الذاتية من السجن فى هذه الفترة ، فقد دخله تحت ظلم آل زياد وبطشهم فتدفقت عليه الهموم وعاش يعانى من الظلم خلف القضبان غريبا يتعرض لأقسى العقوبات ويهان بين الناس ويشهر به فى المجتمع (١). فما كان منه إلا أن رجع إلى ذاته ليغنى لنفسه أعذب الكلام الذى يقطر ألما وحسرة يصور من خلاله سبحات نفسه وينشد ألحان همومه .

إنّ من أجمل مانجد لهذا الشاعر من شعر الشكوى قصيدته اللامية (٢) المطولة التى أنشدها تحت وطأة الظلم حينما يئس من حلفائه ، وأنصاره الذين تركوه يتجرع كؤوس التعذيب من آل زياد ولم تحركهم تلك الصيحات الشاكية التى أرسلها . وهذه القصيدة تشع منها بوارق الحزن حينما يخوض فى غرض الشكوى

---

(١) الأغانى : ١٨/٢٥٨ - ٢٥٩ ، ٢٦٦ - ٢٧٠ (طبعة دار الكتب) .

(٢) ديوانه / جمع وتحقيق الدكتور عبد القدوس أبو صالح ، مؤسسة الرسالة ط (٢) ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م ص : ١٨٥ - ١٩٣ .

والأنين من وضعه المؤلم مع أننا لانجد فيها ذكر السجن كثيرا لكنه يقسم بالله ما أتى أمرا دنيا مما يدل على أنه يريد أن يقول انه لم يأت بأمر يستوجب سجنه والتنكيل به كما أننا نجده يسترجع آهاته الماضية لينتقل إلى غرض الشكوى والأنين من وضعه المؤلم ٠

وحقا أن السجن وما تجرعه فى محنته قد أنطقه بهذه الرائعة التى تنأى عن رتابة التأملات المملة [(١)]، وتنضح عباراتها بالحزن والأسى الأمر الذى جعله يبوح بما فى نفسه قائلا [(٢)] :

أَيْنَ مِنِّى السَّلَامُ مِنْ بَعْدِ نَأْيٍ   فَارْجِعِى لِى تَحِيَّتِى وَسُؤَالِى
أَيْنَ مِنِّى نَجَائِبِى وَجِيَادِى   وَغَزَالِى سَقَى الإِلَهُ غَزَالِى
أَيْنَ لَا أَيْنَ جُنَّتِى وَسِلَاحِى   وَمَطَايَا سَيَّرْتُهَا لِارْتِحَالِى
هَدَمَ الدَّهْرُ عَرْشَنَا فَتَدَاعَى   فَبَلِيْنَا إِذْ كُلُّ شَيْءٍ بَالِ
إِذْ دَعَانَا زَوَالُهُ فَأَجَبْنَا   كُلُّ دُنْيَا وَنِعْمَةٍ لِزَوَالِ
أَمْ قَضَيْنَا حَاجَاتِنَا فَإِلَى الْمَوْ   تِ مَصِيرُ الْمُلُوكِ وَالأَقْيَالِ
لَا وَصَوْمِى لِرَبِّنَا وَزَكَاتِى   وَصَلَاتِى أَدْعُو بِهَا وَابْتِهَالِى
مَا أَتَيْتُ الغَدَاةَ أَمْرًا دَنِيًّا   وَلَدَى اللَّهِ كَابِرُ الأَعْمَالِ

ويسترسل فى تعداد صنوف الأذى الذى تعرض له فى أسلوب شكائي مؤثر، فيقول فى نفس القصيدة [(٣)] :

---

(١) يزيد بن مفرغ الحميرى : حياته وشعره ، د٠ عبد القدوس أبو صالح مؤسسة الرسالة ١٣٩٥ هـ : ص ١١٦ ٠
(٢) ديوانه : ١٨٥ - ١٨٦ ٠
(٣) نفس المصدر : ١٨٧ - ١٨٨ ٠

أَيُّهَا الْمَالِكُ الْمُرَهَّبُ بِالْقَتْـ ... ـلِ بَلَغْتَ النَّكَالَ كُلَّ النَّكَالِ
فَاخْشَ نَارًا تَشْوِى الْوُجُوهَ وَيَوْمًا ... يَقْذِفُ النَّاسَ بِالدَّوَاهِى الثِّقَالِ
قَدْ تَعَدَّيْتَ فِى الْقِصَاصِ وَأَدْرَكْـ ... ـتَ ذُحُولاً لِمَعْشَرٍ أَقْتَالِ
وَكَسَرْتَ السِّنَّ الصَّحِيْحَةَ مِنِّى ... لَا تُذِلَّنْ فمنكر إِذْ لَا لِى
وَقَرَنْتُمْ مَعَ الْخَنَازِيرِ هِرًّا ... وَيَمِيْنِى مَغْلُولَةٌ وَشِمَالِى
وَكِلَابًا يَنْهَشْنَنِي مِنْ وَرَائِى ... عَجِبَ النَّاسُ مَالَهُنَّ وَمَالِى
وَأَطَلْتُمْ مَعَ الْعُقُوبَةِ سَجْنِى ... فَكَمِ السَّجْنُ أَوْ مَتَى إِرْسَالِى

ويتلو ابن مفرغ الزفرات ويرسل صيحات الشكوى إلى حلفائه يستغيث بهم ويذكرهم بواجبهم ويدعوهم إلى أن يقصدوا الخليفة ليطالبوه بالانتصاف له فيقول(١) :

قُلْ لِقَوْمِى لَدَى الأَبَاطِحِ مِنْ آ ... لِ لُؤَىِّ بْنِ غَالِبٍ ذِى الْجُودِ
سَامَنِى بَعْدَكُم دَعِىُّ زِيَادٍ ... خُطَّةَ الْغَادِرِ اللَّئِيمِ الزَّهِيدِ
فَارْحَلُوا فِى حَلِيفِكُمْ وَأَخِيكُمْ ... نَحْوَ غَوْثِ الْمُسْتَصْرِخِينَ يَزِيدِ
فَاطْلُبُوا النِّصْفَ مِنْ دَعِىِّ زِيَادٍ ... وَسَلُونِى بِمَا ادَّعَيْتُ شُهُودِى

ولعل من أجمل قصائد الشكوى من السجن التى تصور الجانب النفسي الحزين لهذا الشاعر تلك التى يشير فيها الى بيع غلامه " برد " وجاريته

---

(١) ديوانه : ١١١ .

" الأراكة " إذ باعهما عليه عباد بن زياد • ولهما عنده حظوة ومكانة فازدادهما الى همومه وقال يشكو(١) :

شَرَيْتُ بُرْدًا وَلَو مُلِّكْتُ صَفْقَتَهُ ... لَمَا تَطَلَّبْتُ فِى بَيْعٍ لَهُ رَشَدَا

يَابُرْدُ مَامَسَّنَا دَهْرٌ أَضَرَّ بِنَا ... مِنْ قَبْلِ هَذَا وَلَا بِعْنَا لَهُ وَلَدَا

أَمَّا الأَرَاكُ فَكَانَتْ مِنْ مَحَارِمِنَا ... عَيْشًا لَذِيذًا وَكَانَتْ جَنَّةً رَغَدَا

كَانَتْ لَنَا جَنَّةً كُنَّا نَعِيشُ بِهَا ... نَغْنَى بِهَا إِنْ خَشِيْنَا الأَزْلَ وَالنَّكَدَا(٢)

لَوْلَا الدَّعِىّ وَلَوْلَا مَاتَعَرَّضَ لِى ... مِنَ الْحَوَادِثِ مَافَارَقْتُهَا أَبَدَا

يَالَيْتَنِى قَبْلَ مَا نَابَ الزَّمَانُ بِهِ ... أَهْلِى لَقِيتُ عَلَى عُدْوَانِهِ الأَسَدَا(٣)

قَدْ خَانَنَا زَمَنٌ لَمْ نَخْشَ عثرتَهُ ... مَنْ يَأْمَنِ الْيَوْمَ أَمْ مَنْ ذَا يَعِيشُ غَدَا(٤)

وكما نلاحظ فقد لحى باللائمة على الدهر ، ورأى فيه عدوا مسلطا عليه وهذه عادة جرت منذ عصر الجاهلية ولم يستطع الشعراء فى القرون الثلاثة الأول التخلص من ذلك فى غمرة القلق وتزاحم الهموم •

ولم يكن هذا الشاعر الوحيد الذى اشتكى من السجن والتعذيب فان هناك شعراء كثر دخلوه واكتووا بلظاه فقالوا أرق الكلام الذى يصور دواخل أنفسهم الحزينة وهم يعيشون خلف الأبواب المغلقة ، وليس من التزيد أن نشير الى شكوى

---

(١) نفس المصدر : ٩٦ •
(٢) الأَزْلُ : الداهية ، والنَّكَدُ : الشدة والعسر •
(٣) نَابَ : أصاب ونزل ، والنائبة : المصيبة •
(٤) عَثْرَتُهُ : زلته •

جحدر بن معاوية العكلي (ت ١٠٠هـ) وكان لصا مبرا فأخذه الحجاج وسجنه[1] ، وإن كانت لنا وقفة مع هذا الشاعر فى مكان آخر من هذا البحث إلا أن تصويره البارع لحالته النفسية وهو بعيد عن أهله قد تملكه خوف الحجاج ، فأرسل شجونه التى يتوق فيها إلى الحرية وينشد الخلاص من هول السجن جعلنا نأتى بما يتعلق منها بغرضنا يقول[2] :

تَأَوَّبَنِى فَبِتُّ لَهَا كَنِيعًا ... هُمُومٌ مَا تُفَارِقُنِى حَوَانِى[3]
هِىَ الْعُوَّادُ لَا عُوَّادُ قَوْمِى ... أَطَلْنَ عِيَادَتِى فِى ذَا الْمَكَانِ
فَيَا أَخَوَىَّ مِنْ كَعْبِ بْنِ عَمْرو ... أَقِلَّا اللَّوْمَ إِنْ لَمْ تَنْفَعَانِى
إِذَا جَاوَزْتُمَا سَعَفَاتِ حَجْرٍ[4] ... وَأَوْدِيَةَ الْيَمَامَةَ فَانْعَيَانِى
وَقُولَا جَحْدَرٌ أَمْسَى رَهِينًا ... يُحَاذِرُ وَقْعَ مَصْقُولٍ يَمَانِى
يُحَاذِرُ صَوْلَةَ الْحَجَّاجِ ظُلْمًا ... وَمَا الْحَجَّاجُ ظَلَّامٌ لِجَانِى

لقد حشد فى هذه القصيدة مايمكن من عبارات الوجل بعد أن غمرته الهموم وأيقن أنه لا محالة واقع فى قبضة الحجاج هذا الرجل الذى تملك خوفه القلوب ، ولم ينس أن يشير إلى حبه الدفين لبلده ، ومرابع صباه ، ويؤكد على رفقته أن ينعياه وأن يشيعا خبره، فهو موقن لا محالة بالمصير المظلم الذى ينتظره .

---

(١) الأمالى / لأبى على القالي ، دار الكتاب العربى بيروت (د . ت) ٢٨١/١ .
(٢) المصدر السابق : ٢٨١/١ - ٢٨٢ .
(٣) كنيعا : الكنيع المنقبض المتشنج (اللسان مادة : كنع) .
(٤) حجر : هى مدينة اليمامة وأم قراها وكان بها مقر الوالي ، وكانت بمنزلة البصرة والكوفة . معجم البلدان (مادة حجر) .

ولاشك أن المسجون ينوء بحشد هائل من المشاعر ، والاحساسات المضطربة يلفه ضنك ، وبؤس لما فى السجن من مهانة تمحق الكرامة ، وتجعل الأعز ذليلا وتفقد المرء قدره الانسانى[1]، فالمسجون يستشرف دائما إلى الحرية التى ينشدها كل إنسان ، ومن هنا يأتى الجانب النفسي فى الشكوى من السجن حيث يصور الشاعر خلالها مايدور فى ذهنه من أفكار ، وما يلفه من هموم ، وما يخطر بباله من أمنيات ، وهو حبيس جرمه مكبل بالأغلال والأثقال ، وتزداد معاناته عندما يعلم أنه مظلوم ، وأن دخوله السجن كان لأسباب ليس له دخل فيها ، كما رأينا عند يزيد ابن مفرغ الحميرى فى شعره الذى عرضنا له .

وقد يخلو الانسان بنفسه فى لحظة تأمل فيشعر بأنه مكبل بالذنوب والخطايا وعندئذ تمتلىء نفسه بالهموم فتفيض بالشكوى وتتوق إلى الانابة وتشعر بالندم . وحينئذ لايكون للواعج الشوق،أو ذهاب الشباب ودنو المشيب،أو ظلمات السجن نصيب فى إذكاء هذه الهموم . وإنما ذلك ناتج عن اعتقاده بأنه قد اقترف كثيرا من الذنوب والخطايا ، وأن عليه أن يحاسب نفسه ويتجرد من صبوات الشباب وهنات الصبا فيزدجر عن التمادى فى الغواية . وهذه الظاهرة جديدة فى الشعر العربي خلال القرن الأول وقد وجدنا الفرزدق (ت ١١٠ هـ) بما عرف عنه من صلادة يضعف أمام ذنوبه وتتضاءل نفسه الشامخة عند الخوف من الله وعقابه،فيقول شاكيا ونادما على مافرط [2] :

لَقَدْ خَابَ مِنْ أَوْلَادِ دَارِمَ مَنْ مَشَى ... إِلَى النَّارِ مَشْدُودَ الْخَنَاقِ أَزْرَقَا
إِذَا جَاءَنِي يَومَ الْقِيَامَةِ قَائِدٌ ... عَنِيفٌ وَسَوَّاقٌ يَسُوقُ الْفَرَزْدَقَا

(١) اللطائف والظرائف / للمقدسى : ١٢٠ .
(٢) ديوان الفرزدق / دار صادر بيروت ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠م ، ٣٩/٢ .

أَخَافُ وَرَاءَ الْقَبْرِ إِنْ لَمْ يُعَافِنِى   أَشَدَّ مِنَ الْقَبْرِ الْتِهَابًا وَأَضْيَقَا
إِذَا شَرِبُوا فِيهَا الصَّدِيدَ رَأَيْتَهُمْ   يَذُوبُونَ مِنْ حَرِّ الصَّدِيدِ تَمَزُّقَا

وهذه الظاهرة تكثر عند شعراء الخوارج فى القرن الأول الهجرى حيث يشكون من خوف الذنوب ، ومن تقصيرهم فى الجهاد والعبادة وينعون على أنفسهم ذلك كما يقول مالك بن المزموم :

أَلَمْ يَأْنِ لِى يَاقَلْبُ أَنْ أَتْرُكَ الصِّبَا   وَأَنْ أَزْجُرَ النَّفْسَ اللَّجُوجَ عَنِ الْهَوَى
وَمَا عُذْرُ مَنْ يَعْمَى وَقَدْ شَابَ رَأْسُهُ   وَيُبْصِرُ أَبْوَابَ الضَّلَالَةِ وَالْهُدَى
وَلَو قُسِمَ الذَّنْبُ الَّذِى قَدْ أَصَبْتُهُ   عَلَى النَّاسِ خَافَ النَّاسُ كُلُّهُمُ الرَّدَى
وَإِنْ جَنَّ لَيْلٌ كَانَ بِاللَّيْلِ نَائِمًا   وَأَصْبَحَ بَطَّالَ الْعَشِيَّاتِ وَالضُّحَى (١)

فهو يشكو من كثرة ذنوبه وخطاياه ، ويزجر قلبه ويحثه على ترك الغواية لأن ذنوبه كثيرة تنوء بحملها البشرية،فهلا ترك التمادى فيها وعاد إلى الله، فقد كفاه ما أصاب منها وما هو مكبل به من الهموم الناتجة عن كثرة الذنوب ٠

إن للشكوى الذاتية فى هذه الفترة بواعث كثيرة ظل يعانى منها الشعراء كثيرا فأقلقتهم وخلست نومهم ، وهى بواعث مرتبطة برحلة الحياة ، فالهموم دائما قد تنتج من تعرض الانسان فى حياته لأحداث مقلقة ومن هنا يلجأ

---

(١) شعر الخوارج / جمع وتقديم د٠احسان عباس دار الثقافة ، بيروت الطبعة الثانية ص : ١٧٤ ٠

وديوان الخوارج / جمع وتحقيق د ٠ نايف معروف : ١٨٦ ٠

إلى الشكوى مما تنوء به النفس من مظاهر الألم كالمرض والفقر والشيخوخة ، والحرب ، والموت ، والدهر ، والخيانة ، والغدر ، والكذب ، والوشاية ، والدَّين ، والحسد ، والملق ، وغيرها من المظاهر . فتتجلى حينئذ الشكوى الذاتية من خلال مايعانيه من جراء هذه الهموم الناتجة أصلا عن معضلات الحياة ومشكلاتها .

ولعلنا فى الفصل التالى نلقى مزيدا من الضوء على تلك البواعث التى زادت اتساعا باتساع مرافق الحياة وتعقدت بتعقد مناحيها واتجاهاتها .

الفصل الثالث

اتساع الشكوى الذاتية في القرنين الثاني والثالث

ظلت الشكوى الذاتية فى القرنين الثانى والثالث امتدادا لما كان سائدا فى العصر الجاهلي ، والقرن الأول الهجرى ، ولكنها زادت اتساعا باتساع مجالات الحياة وصعوبتها وتعقد الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى كثير من جوانبها ٠

ولقد تأثر الشعراء بتلك التحولات فى نمط الحياة فاشتكوا من فساد الناس وتغير أحولهم ، ومن الزمان وتقلباته كما اشتكوا من الطبيعة وقسوتها ، وضجر بعضهم من الدنيا ورأى فيها عدوا له قد تورده موارد الردى ، واتسعت دائرة الشكوى مما شاع فى المجتمع من أخلاق متردية تتمثل فى السعاية ، والوشاية ، والزلفى ، والملق ، والحسد[1] واشتكوا كذلك من الحب وتباريحه وما يلقاه المحب من الصد والهجران [2] وآلمهم الفراق ،وحنوا إلى أوطانهم،وبكوا كثيرا من الفقر وسوء الحال وكذلك

---

(١) الشعراء الكتاب فى العراق فى القرن الثالث الهجرى / حسين العلاق ، مكتبة التربية بغداد ط (١) ١٩٧٥م ص : ٩١ - ١٣٤ ٠

(٢) ديوان الحسين بن مطير الأسدى (ت ١٧٠ هـ) جمع وتحقيق د٠ محسن غياض ، جامعة بغداد دار الحرية للطباعة ١٣٩١ هـ ص : ٤٣ ، ٤٤ ، ٨٥ ٠

ديوان العباس بن الأحنف (ت ١٩٢ هـ) تحقيق د٠ عاتكة الخزرجى مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ١٩٥٤ م ص : ٨٤ ، ٨٦ ، ١٦٦ ، ١٩٥ ، ٢٥٥ ، ٢٦١ - ٢٦٢ وغيرها من دواوين الشعراء فى هذه الفترة ٠

من المرض والشيخوخة (١) ، وفقد الأحبة وغير هذا مما يتعلق بحياة الناس ويقلقهم فى أغلب حالاتهم ، وهذه أمور ربما عرضنا لبعضها من قبل كما قد يأتى الحديث عن بعضها الآخر فى موضعه ان شاء الله . على أننا سنتحدث هنا فى ما يمكن أن نعتبره جديدا من أنماط الشكوى وما هو أكثر عمقا فى نفسية شعراء هذه الفترة لتأصيل مايتعلق بذات الشاعر تعلقا مباشرا . وهو ماتهدف اليه دراسة هذا الباب .

إنّ الشكوى الذاتية فى القرنين الثانى والثالث قد ملكت على الشعراء أنفسهم فقد استقامت بعمومها غرضا مستقلا عند كثير من الشعراء حيث قضت عوامل التطور والتجديد التى طرأت فى هذه الحقبة بنشوء أغراض جديدة كالشعر التعليمي وشعر المجون فإنها قضت كذلك بالشكوى غرضا جديدا يستقطب هموم العصر أناسه وأدباءه (٢) ، وليس معنى هذا أننا ننفى وجود الشكوى كغرض مستقل فى الشعر

---

(١) ديوان منصور النمرى (ت ١٩٠ هـ) جمع وتحقيق الطيب العشاش مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٠١ هـ ص : ٩٥ - ١٠٣ .
أشعار الامير عبد الله بن المعتز / تحقيق الدكتور محمد بديع شريف دار المعارف بمصر (د . ت) ٣٧٦/٢ - ٤٢٤ .
ديوان الخريمى / تحقيق على جواد الطاهر ومحمد المعيبد . دار الكتاب الجديد بيروت ط (١) ١٩٧١م ص : ١١ .
ديوان ابن الرومي / طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب : ١٢٤٥/٣ حيث يشكو من فقره وسوء حاله .
ديوان الباهلي محمد بن حازم / أعده محمد خير البقاعى - دار قتيبة للطباعة والنشر . دمشق ١٤٠١هـ وله أشعار حسان فى الشكوى من الشيب ورحيل الشباب ص : ٨٧ .

(٢) الشعراء الكتاب فى العراق فى القرن الثالث الهجرى : ٩١.
واتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى . للدكتور محمد مصطفى هدارة ، المكتب الاسلامى - الطبعة الاولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ص : ٢١٣ - ٢٣٣ ، ٣٨٠ - ٣٩٣ .

العربي منذ عرف اذ هي قديمة فيه ٠ حيث أن الشاعر أينما كان وحيثما وجد يعرض فى الشكوى واقعة وآلامه عندما ينفجر غضبا لما قد يكون عليه من اهمال وهوان(١) وما يشعر به من هموم ومكابدة ، فأصبحت الشكوى من هذا المنطلق تؤلف مظهرا حزينا يفلسف فيه الشاعر واقعه ويمنح ذاته آفاقا أوسع يتنفس من خلالها بما يصدره من صيحات الشكوى،علة يخلص من آلامه وهمومه ومعاناته ، ولهذا غلب على شعر الشكوى طابع الصدق وشاعت فيه حرارة العاطفة وهما شرطان من شروط الأدب الجيد(٢) ولعلنا فى هذا الفصل نأتى على أهم بواعث الشكوى الذاتية التى زادت اتساعا وتعددا ٠

إن من بواعث الشكوى الذاتية فى القرنين الثانى والثالث الفراق ٠ وهو من المواقف التى تستثير العاطفة وتستدر الدموع،كما أنها توقظ العبرات وتوقد الأحاسيس ، ولقد اكتوى كثير من الشعراء بألم الفراق،فعبروا عن ذلك تعبيرا نفسيا صادقا يهز المشاعر بعد أن اعتملت فى أنفسهم الآلام فصوروا ذلك تصويرا ممزوجا برؤية المواقف الواقعية المؤلمة ٠

إن الشكوى من الفراق ليست وليدة القرنين الثانى والثالث بل هى ظاهرة قديمة فى الشعر العربي ، وهى مستمرة طالما نبض قلب الانسان بالحب وهفا إلى أبناء جنسه ووطنه ٠ فآلمه فراقهم ، والبعد عنهم تحت أى ظرف من الظروف ومهما كان نوع هذا الفراق ٠ وقد وجدنا من شعراء القرن الثانى جعفر بن علبة

---

(١) الشعر العربى فى العراق وبلاد العجم / للدكتور على جواد الطاهر دار الرائد العربى بيروت ط (١) ١٩٨٥م ص : ١٤٢ ٠

(٢) يزيد بن مفرغ الحميرى ـ حياته شعره / جمع وتقديم الدكتور داود سلوم ، مطبعة الايمان بغداد ١٩٦٨م ص : ٣٣ ٠

الحارثي (ت ١٤٥ هـ) يؤلمه الفراق فيصور الموقف تصويرا ينم عن انسجام تام بين الاحساس الداخلي وبين التصوير الشعري الذى ينبض بالعاطفة المتأججة كقوله (١) :

أَشَارَتْ لَنَا بِالْكَفِّ وَهِيَ حَزِينَةٌ ... تُودِّعُنَا إِذْ لَمْ يُودِّعْ سَلَامُهَا
وَمَا أَنْسَ مِنَ الْأَشْيَاءِ لَا أَنْسَ قَوْلَهَا ... وَقَدْ زَلَّ عَنْ غُرِّ الثَّنَايَا لِثَامُهَا
أَمَا مِنْ فِرَاقِ الْيَوْمِ بُدٌّ وَلَا النَّوَى ... بِمُجْتَمِعٍ إِلَّا لِشَحْطِ لِمَامُهَا
فَلَوْ كُنْتُ أَبْكِي مِنْ فِرَاقٍ صَبَابَةً ... لَأَذْرَيْتُ عَيْنِي دَمْعَةً لَا أَلُومُهَا
وَلَكِنَّ لِي عَيْنًا كَتُومًا بِمَائِهَا ... جُمُودًا بِمَاءِ النَّاظِرِينَ انْسِجَامُهَا

ويترتب على الفراق غربة الشاعر عن وطنه أو من يحب ، فيشتد حنينه وتأخذه الرغبة فى العودة واللقاء إلى من يهوى سواء أكان إنسانا أم وطنا ، ولقد اتسعت دائرة الغربة فى القرنين الثانى والثالث نظرا لاتساع الحياة وتعدد سبل المعيشة ،فلج الشعراء بالشكوى منها وحنوا كثيرا إلى أوطانهم ، وكانت غربتهم تلك مصدرا لهمومهم المتلاحقة ،كما هو الحال للشاعر عمرو بن زيد الغالبي (ت ١٤٢ هـ) حيث اضطر إلى الاغتراب عن دياره ومفارقة الأهل فأخذ يشكو الغربة ويحن إلى وطنه وقومه الذين فارقهم يقول(٢) :

فَأَصْبَحْتُ قَدْ وَدَّعْتُ قَوْمِي وَمَعْشَرِي ... وَحَالَفْتُ هَمًّا مَا أَزَالُ أُصَاوِلُهْ

---

(١) أمالى اليزيدى / مكتبة المتنبي القاهرة (د . ت) ص : ١١٠ .

(٢) الاكليل / للهمداني ، طبعة دار الحرية بغداد ١٩٧٧ م : ٤١٥/١ .

رَهِينَةُ ذُل بَيْنَ تَرجٍ (١) وَمَكَّة ... كَذَلِكَ مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ قَبَائِلُه
فَوَاللَّهِ مَا خَلَيْتُ دَارِي وَمَعْشَرِي ... بِطَوعٍ وَرَبُّ الْبَغْى وَالْعَرْشِ خَاذِلُه

وكما حدث لابن دريد (ت ٣٢١ هـ) أثر هروبه من البصرة بعد ثورة الزنج وكان لذلك أثره القوى فى نفسه فقال(٢) :

وَقَدْ أَلِفْتُ زَهْرَ النُّجُومِ رِعَايَتِى ... فَإِنْ غِبْتُ عَنْهَا فَهْىَ عَنِّى تُسَائِلُ
يُقَابِلُ بِالتَّسْلِيمِ مِنْهُنَّ طَالِعٌ ... وَيُومِىءُ بِالتَّوْدِيعِ مِنْهُنَّ آفِلُ

لقد أصبح ابن دريد أليفا للنجوم لكثرة أسفاره ، وما هذه الألفة إلا لهروبه واتخاذه من الليل وقتا ملائما لهذا،فهو خائف مترقب لا أليف له سوى هذه النجوم التى يجد فيها بعض العوض عمن فارقهم من أصدقاء وخلان ، ويطول هربه وترحاله فيحن الى وطنه ويشكو من غربته وفراق أهله وأحبابه فراقا طال أمده ، ولقد أثاره ذات مرة وهو فى غربته منظر حمامتين متقاربتين على شجرة فأخذ يبكى ويحن قائلا(٣) :

أَقُولُ لِوَرقَاوَيْنِ فِى فَرْعِ نَخْلَةٍ ... وَقَدْ طَفَّلَ الْأَمْسَاءُ أَوْ جَنَّحَ الْعَصْرُ
وَقَدْ بَسَطَتْ هَاتَا لِتِلْكَ جَنَاحَهَا ... وَمَالَ عَلَى هَاتِيكَ مِنْ هَذِهِ النَّحْرُ

---

(١) ترج : بالفتح ثم بالسكون وجيم جبل بالحجاز كثير الأسد وقيل ترج وبيشة قريتان متقاربتان بين مكة واليمن فى واد. وقيل ترج : واد الى جنب تبالة على طريق اليمن وهناك أصيب بشر بن أبى خازم الشاعر الجاهلي فى بعض غزواته . معجم البلدان (مادة ترج) .

(٢) ديوان شعر الامام أبى بكر بن دريد الأزدى / اعتنى بجمعه وتحقيقه السيد محمد بدر الدين العلوى / لجنة التأليف والترجمة والنشر / القاهرة ١٣٦٥هـ-١٩٤٦م ص : ١٠٠ .

(٣) ديوان شعر الامام أبى بكر بن دريد الأزدى : ٦٦ .

لِيَهْنكُمَا أَنْ لَمْ تراعَا بِفرْقَةٍ وَمَا دَبَّ فِى تَشْتيْتِ شَمْلِكُمَا الدَّهْرُ
فَلَمْ أَرَ مِثْلِى قَطَّعَ الشَّوقُ قَلْبَهُ عَلَى أَنَّهُ يَحْكِى قَسَاوَتَهُ الصَّخْرُ

ولا نريد التوسع فى الحديث عن الشكوى من الغربة هنا لوجود دراسات متخصصة فى الحنين إلى الوطن فى الشعر العربي قديما وحديثا (١) ٠

وقد يكون من بواعث الشكوى الذاتية فى القرنين الثانى والثالث والتى كانت مصدرا لكثير من الهموم والقلق لدى الشعراء ما طغى على حياة الناس وما أفرزته عوامل التطور من فساد فى القيم والأخلاق ، وهى وإن كانت أمورا اجتماعية فإن الألم النفسي الذى يشعر به الشاعر تجاه هذه المتغيرات يجعله ينفجر غضبا وهما حينما يرى فساد الناس وتنكر الأصدقاء والأخوان له وإتيانهم بالسيء من القول والعمل ، وقد عبر الشاعر العتابي (ت ٢٠٨ هـ) عن معاناته فى شكوى يعاتب فيها بعض أصدقائه قائلا (٢) :

قَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ تَكُونَ نَصِيرِى وَعَلَى الَّذِى يَبْغِى عَلَىَّ ظَهِيرِى
وَطَفِقْتُ آمُلُ أَنْ يرجَّى سَيْبُهُ حَتَّى رَأَيْتُ تَعَلُّقِى بِغُرُورِ
فَحفَرْتُ قَبْرَكَ ثُمَّ قُلْتُ دَفَنْتُهُ وَنَفَضْتُ كَفِّى مِنْ ثَرَى المَقْبُورِ

---

(١) من هذه الدراسات على سبيل المثال :
ماكتبه الجاحظ فى رسائله / تحقيق عبد السلام هارون - مكتبة الخانجى بالقاهرة الطبعة الاولى ١٣٩٩ هـ : ٢/٢٣٢ ٠
الغربة فى الشعر الجاهلي / تأليف عبد الرزاق الخشروم - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٨٢م ٠
الحنين الى الوطن فى الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموى ، محمد ابراهيم حور ، دار نهضة مصر للطبع والنشر (د ٠ ت) ٠
ماكتبه عبده بدوى / عن الغربة المكانية فى الشعر العربى ٠ مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس عشر العدد الأول ص : ١٣ - ٤٠ ٠

(٢) العتابى حياته وماتبقى من شعرة / الدكتور ناصر حلاوى ، دار الطباعة الحديثة ، البصرة ص : ٣٣ ٠

لقد وجد هذا الشاعر فى بعض أصدقائه بعد أن خبرهم صورة ممسوخة فعبر عن خيبة أمله من خلال الشكوى عندما فقد الأمل فى رجاء سيب هذا الصديق وحينئذ علم أنه لم يكن فى رجائه إلا ذلك المتعلق بغرور الوهم .

وقريب من هذه الشكوى مانجده عند الشاعر دعبل الخزاعى (ت ٢٢٠ هـ) حيث يشكو مر الشكوى من فساد الناس وتغير أخلاقهم ، فمنهم من يظهر لك الود وتخاله من أخلص الناس اليك فإذا حدا بك الزمن إلى الاستعانة به وأجبرتك الحاجة إليه وجدته بعكس ماكنت تتوقع يقول :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُحِبُّكَ حُبًّا ... ظَاهِرِ الوُدِّ لَيْسَ بِالتَّقْصِيرِ (١)
وَإِذَا مَا خَبَرْتَهُ شَهِدَ الطَّرْ ... فُ عَلَى حُبِّهِ بِمَا فِى الضَّمِيرِ
وَإِذَا مَا بَحَثْتَهُ قُلْتَ هَذَا ... ثِقَةٌ لِى وَرَأْسُ مَالٍ كَبِيرِ
فَإِذَا مَا سَأَلْتَهُ رُبْعَ فِلْسٍ ... أَلْحَقَ الوُدَّ بِاللَّطِيفِ الخَبِيرِ

أما العتبى (ت ٢٢٨ هـ) فهو يشكو من تصرفات بعض أصدقائه، وقد خاب ظنه فيهم فازداد استياؤه حيث يقول(٢) :

لِى صَدِيقٌ يَرَى حُقُوقِى عَلَيْهِ ... نَافِلَاتٍ وَحَقَّهُ الدَّهْرَ فَرْضَا
لَوْ قَطَعْتُ البِلَادَ طُولاً إِلَيْهِ ... ثُمَّ مِنْ بَعْدِ طُولِهَا سِرْتُ عَرْضَا
لَرَأَى مَافَعَلْتُ غَيْرَ كَثِيرٍ ... وَاشْتَهَى أَنْ يَزِيدَ فِى الأَرْضِ أَرْضَا

---

(١) شعر دعبل بن على الخزاعى / صنعه د. عبد الكريم الأشتر - الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ دمشق ص : ١٥٣ .

(٢) العقد الفريد : ٢٣٨/٢ .

وإننا لنجد ابراهيم الصولى (ت ٢٤٧ هـ) يشكو من بعض خلصائه الذين تنكروا له وتركوه وحيدا فى محنته فيقول(١) :

أَخٌ بَيْنِي وَبَيْنَ الدَّهْرِ صَاحِبُ أَيِّنَا غَلَبَا
صَدِيقِي مَا اسْتَقَامَ فَإِنْ نَبَا دَهْرٌ عَلَيَّ نَبَا
وَثَبْتُ عَلَى الزَّمَانِ بِهِ فَعَادَ بِهِ وَقَدْ وَثَبَا
وَلَوْ عَادَ الزَّمَانُ لَنَا لَعَادَ بِهِ أَخًا حَدِبَا

ويزداد ألمه من فساد هؤلاء الأصدقاء الذين كانوا اخوانا بالأمس فيقول :

يَاصَدِيقِي بِالْأَمْسِ صِرْتَ عَدُوًّا سُؤْتَنِي ظَالِمًا وَلَمْ تَرْسُوًّا(٢)
صِرْتَ تُغْرِي بِيَ الْهُمُومَ وَقَدْ كُنْتَ لِقَلْبِي مِنَ الْهُمُومِ سُلُوًّا
أَيُّ وَاشٍ وَشَى وَأَيُّ عَدُوٍّ دَبَّ حَتَّى نَبَوْتَ عَنِّي نُبُوًّا
كُلَّمَا ازْدَدْتُ صِحَّةً لَكَ فِي الْوُدِّ تَزَيَّدْتَ نَبْوَةً وَعُتُوًّا

وهو يشكو كذلك من فساد هذا الصديق فيقول(٣) :

وَكُنْتَ أَخِي بِإِخَاءِ الزَّمَانِ فَلَمَّا نَبَا صِرْتَ حَرْبًا عَوَانَا
وَكُنْتُ أَذُمُّ إِلَيْكَ الزَّمَانَ فَقَدْ صِرْتُ فِيكَ أَذُمُّ الزَّمَانَا
وَكُنْتُ أُعِدُّكَ لِلنَّائِبَاتِ فَهَا أَنَا أَطْلُبُ مِنْكَ الأَمَانَا

---

(١) ديوانه فى الطرائف الأدبية / اعداد عبد العزيز الميمني ، دار الكتب العلمية ، بيروت (د٠ ت) ص : ١٥٥ ٠

(٢) نفس المصدر : ١٦٧ ٠

(٣) نفس المصدر : ١٦٦ - ١٦٧ ٠

وأما محمد بن حازم الباهلي (ت ٢١٥ هـ) فإنه يبدى تشاؤما وقلقا حيث يشكو من فساد الناس فى زمانه فيقول(١) :

قَدْ بَلَوتُ النَّاسَ طُرًّا ... لَمْ أَجِدْ فِى النَّاسِ حُرَّا
صَارَ حُلْوُ النَّاسِ فِى الْعَيْـ ... ـنِ إِذَا مَاذِيقَ مُرَّا

ويقول أيضا(٢) :

وَإِنَّ مِنَ الاخْوَانِ اخْوَانِ كشره ... وَاخْوَانِ حَيَّاكَ الإِلَهِ وَمَرْحَبَا
وَاخْوَانِ كَيفَ الحَالُ وَالأَهْلُ كُلُّه ... وذلك لَايَسْوَى نَقِيرًا مُتَرَّبَا
جَوَاد إِذَا اسْتَغْنَيْتَ عَنْهُ بِمَالِهِ ... يَقُولُ إِلَىَّ القَرْضَ وَالقَرْضَ فَاطْلُبَا
فَإِنْ أَنْتَ حَاوَلْتَ الَّذِى خَلْفَ ظَهْرِهِ ... وَجَدْتَ الثُّرَيَّا مِنْهُ فِى البُعْدِ أَقْرَبَا

ولاشك أن الشكوى من فساد الناس والأصدقاء والاخوان إنما هى ناتجة عن أوضاع اجتماعية كانت نتيجة لتلك المتغيرات المستجدة فى الحياة ولذلك فإن صدى هذه الشكوى ومنبعها نفسي عند من فقد الأمل فى صديقه أو من حوله، فأصيب بالاحباط النفسي الكبير الذى نلمح صداه فى مثل هذه الشكوى عند هؤلاء الشعراء وعند غيرهم ممن لم نعرض لهم(٣) .

---

(١) ديوان الباهلي (محمد بن حازم الباهلي) صنعه محمد خير البقاعي ، دار قتيبة للطباعة والنشر دمشق ١٤٠١ هـ - ص : ٥٥ .

(٢) نفس المصدر : ٣١ .

(٣) ديوان ابن دريد الأزدى : ٩٩ - ١٠٠ ، له قصيدة فى الشكوى من فساد الناس وتغير أخلاقهم لم نعرض لها هنا . ونكتفى بالاحالة .

إنّ من بواعث الشكوى الذاتية ، عند شعراء القرنين الثانى والثالث ما كان من أمر الزمان وتقلباته ، وإن كنا لا ننكر أن الشكوى من الزمان موجودة فى كل عصر وبيئة ، وعلى كل لسان من الشعراء وغير الشعراء، ففى كل عصر وفى كل مجتمع يوجد من يشكو من الزمان لأنه أصابه فى حادث معين أو مناسبة خاصة بما يكره ، وقد اختلفت صور الشعراء فيما يتعلق بشكواهم من الزمان عما كان فى الجاهلية ، ولذلك رأينا أن نتحدث عن الشكوى من الزمان هنا لكون شعراء هذه الحقبة لم يعتقد أغلبهم بأن للدهر القدرة على فنائهم ولكنه فى نظرهم أصبح خليلا صفيا للأخس من الناس بينما قل حظ الشريف وسدت فى وجهه الطرق إلى المجد والشهرة ، ومن هنا فإن الشعراء فى هذه الفترة قد اتخذوا من الزمان منطلقا للتعبير عن آلامهم وأشجانهم بينما تتوارى خلف هذا المصطلح أسباب أخرى سياسية واجتماعية كانت المحرك الخفي للشكوى من الزمان •

ونرى لهذا الزمان صولة أقوى عند واحد من كبار الشعراء فى هذه الفترة وهو البحترى (ت ٢٨٤ هـ) حيث نحس أن سخطه على الزمان لايرتبط بحادث معين ولا بالنظر إلى حقبة بذاتها إذ يبدو سخطه ثابتا سواء وجدت مناسبة أم لم توجد ولذا قلما نجده راضيا عن الزمان أو مادحا له،فهو دائم الشكوى منه،وكأنه أصل لشقائه وبؤسه ، ومصدر لهمومه وأحزانه •

وأحسب أن معاصرة البحترى لسيطرة الأتراك على سياسة الدولة وتدخلهم فى شؤون الحكم واستبدادهم بالأمور قد جعله يتشاءم من الزمان الذى عز فيه هؤلاء الغوغاء ، فهو عربي يؤلمه ذلك حتى غدت شكواه من هذه الناحية شكوى غيرية على مصالح العرب ، ومجدهم الذى بات فى خطر من هؤلاء الأعاجم ، وسنرى

فى دراستنا للشكوى الاجتماعية كيف ضجر العرب من سيطرة الموالي على الحياة الاجتماعية والسياسية وشكواهم من ذلك بإذن الله (١) .

إنّ وجود عبارات الشكوى من الزمان عند البحترى لايمكن اغفالها ، فهو من الشعراء الذين عرفوا على نطاق كبير فى الأدب العربي منذ القرن الثالث الهجري وحتى اليوم ، وهذا مايدفعنا إلى التساؤل ، ما الذى أذكى هذا السخط على الزمان فى نفسه ؟ والواقع أن شكواه المستمرة من الزمان وسخطه عليه ليست نابعة من فلسفة معينة بقدر ماهى صدى لنفسيته المثقلة بأحداث كثيرة غير سارة (٢) . مما أفقده الثقة فى تغير الحال حتى لكأنه فى شكواه قد يئس من كثرة النصح للزمان ولم ينتصح ، وكيف يستقيم أمره والناس فى ذاتهم قد فسدوا بفساده ؟ ومن هنا جاءت همومه وقلقه كما نرى فى قوله (٣) :

مَنْ قَائِلٌ لِلزَّمَانِ مَا أَرَبُهُ ... فِى خُلُقٍ مِنْهُ قَدْ خَلاَ عَجَبُهْ

يُعْطَى امْرِوءٌ حَظَّهُ بِلاَ سَبَبٍ ... وَيُحْرَمُ الحَظَّ مُحْصَدٌ سَبَبُهْ

نَجْهَلُ نَفْعَ الدُّنْيَا فَنَدْفَعُهُ ... وَقَدْ نَرَى ضَرَّهَا فَنَجْتَلِبُهْ

يَسُرُّكَ الشَّىءُ قَدْ يَسُوؤكَمْ ... نَوَّهَ يَومًا بِخَامِلٍ لَقَبُهْ

رَأَيْتَ خَيْرَ الأَيَّامِ قَلَّ فَعِنْ ... دَ اللّهِ أُخْرَى الأَيَّامِ أَحْتَسِبُهْ

وَاستُؤْنِفَ الظُّلْمُ فِى الصَّدِيقِ فَهَلْ ... حُرٌّ يَبِيعُ الأَنْصَافَ أَوْ يَهَبُهْ

---

(١) هذا الأمر مبسوط فى المبحث الاول من الفصل الثالث فى الباب الثانى من هذا البحث ، بما لايدعنا نستطرد فيه هنا .

(٢) مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية : ٢٧٣ .

(٣) ديوان البحترى/ تحقيق حسن كامل الصيرفى طبعة دار المعارف بمصر ط (٢) : ٢٧٧/١ - ٢٧٨ .

والبحترى فى قصيدته السينية المشهورة يصل بالشكوى من الزمان ذروتها فقد قالها وهو فى حالة نفسية سيئة حين صرع راعيه وحاميه الخليفة المتوكل فرحل إلى مكان يجد فيه العزاء وهو ايوان كسرى الذى عاكسته الأيام وخانه الزمان يقول(١) :

صُنْتُ نَفْسِى عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسِى ... وَتَرفَّعْتُ عَنْ جَدا كُلِّ جِبْسِ (٢)
وَتَماسَكْتُ حِينَ زَعْزَعَنِى الدَّهْـ ... ـرُ الْتِمَاسًا مِنْهُ لِتَعْسِي وَنَكْسِي (٣)
بُلَغٌ مِنْ صَبَابَةِ الْعَيْشِ عِنْدِى ... طَفَّفَتْهَا الأَيَّامُ تَطْفِيفَ بَخْسِ (٤)
وَبَعِيدُ مَابَيْنَ وَارِدِ رِفْهٍ ... عَلَلٍ شُرْبُهُ وَوَارِدِ خِمْسِ (٥)
وَكَأَنَّ الزَّمَانَ أَصْبَحَ مَحْمُو ... لاً هَوَاهُ مَعَ الأَخَسِّ الأَخَسِّ

إنه يصور صراعه النفسي بين احتماله لوضعه المؤلم وبين كيانه الأدبى الكبير الذى ربما فقده إن هو نزل إلى التسول بشعره واستجداء الغير ولكنه

---

(١) ديوانه : ١١٥٢/٢ .

(٢) الجَدَا : المراد به هنا العطاء .
والجِبْسُ : الجبان واللئيم والفاسق والثقيل الروح .

(٣) النَّكْسُ : انقلاب الرجل على رأسه أو سقوطه كلما نهض .

(٤) البُلَغُ : جمع بلغة وهى ما يتبلغ به فى العيش ولا يفضل منه شيء .
والصَّبَابَةُ : البقية من الماء . والتَّطْفِيفُ : النقص فى الوزن والتقدير .

(٥) الرِّفْهُ : طيب العيش ولينه . ويقال : رفهت الابل أى وردت الماء متى شاءت .
العَلَلُ : ورود الماء ثانية بعد الورود الاول الذى يسمى النهل .
والخِمْسُ : من أظمأ الابل وهى أن ترعى ثلاثة أيام وترد فى اليوم الرابع .

تماسك وصمد فى مواجهة أحداث الزمان وأهواله ، فالزمان دائم التقلب ، بل إنه فى رأى البحترى منحاز يميل عن هوى ورغبة إلى الجانب الخسيس فأفقده الثقة فيه وحمله هموما لاحصر لها .

يقول شاكيا من هذه الهموم وهذه المعاناة التى جعلته يرحل ميمما وجهه شطر الايوان يتأسى به(١) :

حَضَرَتْ رَحْلِيَ الهُمُومُ فَوَجَّهْـ ـتُ إلى أَبْيَضِ المَدَائِنِ عَنْسِى(٢)
أَتَسَلَّى عَنِ الحُظُوظِ وَآسَى لِمَحَلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرْسِ(٣)
أَذْكَرَتْنِيهِمُ الخُطُوبُ التَّوَالِى وَلَقَدْ تُذْكِرُ الخُطُوبُ وَتُنْسِى

والبحترى حينما يصف الحال التى وصل إليها الإيوان فإنما يريد أن يضع نفسه فى موضع المقارنة والند لهذا المكان الذى كان موئلا للحضارة ومركزا للقوة، فعدا عليه الزمن وعاكسته الأيام حيث تحول من أحسن حال إلى أخسه ، وكذلك البحترى نبا عنه أبناء جلدته وتغيرت حاله فما أشبهه بهذا الإيوان .

إن المتأمل فى هذه القصيدة يجد فى بعض أبياتها صدى واضحا لنفسية الشاعر المثقلة بالهموم ، ولعل فى سوء حالته المعيشية التى يفصح عنها فى شكواه تلك ما يلقى ظلالا على الوضع النفسي له من خلال تفكيره فى الخروج من

---

(١) ديوانه : ١١٥٤/٢ .
(٢) العَنْسُ : الناقة القوية .
(٣) دَرْسِ : أى مندرس وهو ما عفا أثره .

هذه المحنة النفسية ، ولذلك فقد كان البحترى عند إنشاد هذه القصيدة فى قمة الضيق بعد أن ساءت العلاقة بينه وبين الخليفة المتوكل (ت ٢٤٧ هـ) .

والبحترى وهو شاعر عربي الأصل ومن ألصق الشعراء بالخلفاء العباسيين تحز فى نفسه تلك التحولات السياسية فى حياة العرب بعد أن استطاعت الشعوب الأعجمية التى شعرت باذلال العرب لمجدها العريق أن تستعيد شيئا من كيانها وأن تتسلط بنفوذها على قصور الخلافة تولى من تشاء وتعزل من تشاء وتقتل من تشاء(١) ، فلا يستغرب أن تملأ هذه الأحداث نفسه بالكآبة والحزن، فيلح باللائمة على الزمان ويشكو من هذا الوضع الشاذ ويتحسر على المجد الغابر بين تلك القصور التى كانت آهلة بالعز والقوة(٢) :

أَتُرَى الزَّمَانُ يُعِيدُ لِي أَيَّامِي ... بَيْنَ تِلْكَ القُصُورِ وَالآطَامِ(٣)
إِذْ لاَ الوِصَالُ بِخُلْسَةٍ فِيْهِمْ وَلاَ ... فَرْطُ اللِّقَاءِ لَدَيْهِمُ بِلِمَامِ(٤)

وليس البحترى هو الشاعر الوحيد الذى اشتكى من الزمان وضجر منه فى القرنين الثانى والثالث فإننا نجد كذلك ابراهيم الصولى يشكو من الزمان وأهله فيقول(٥) :

---

(١) تاريخ الطبرى / تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم / دار المعارف بمصر الطبعة الرابعة : ٢٢٧/٩ ، ٣٦٢ - ٣٦٣ ، ٣٨٩ - ٣٩٠ .
(٢) ديوانه : ٢٠١٥/٣ .
(٣) الآطَامُ : جمع الأطم وهو حصن مبني بحجارة . وقيل هو كل بيت مربع مسطح .
(٤) اللِّمَامُ : اللقاء اليسير يقال : يزورنا لماما أى فى الأحايين .
(٥) ديوانه : ١٦١ .

بَلَوتُ الزَّمَانَ وَأَهْلَ الزَّمَانِ فَكُلّ بِذَمٍّ وَلُوْمٍ حَقِيقْ
فَأَوْحَشَنِي مِنْ صَدِيقِي الزَّمَانُ وَآنَسَنِي بِالْعَدُوِّ الصَّدِيقْ

إن الشكوى من الزمان فى القرنين الثانى والثالث جاءت أثرا من آثار حياة البؤس والفاقة والارتماء فى أحضان مشكلات الحياة أيا كان مصدرها ، والتى آل اليها عدد من الشعراء نتيجة لتلك المتغيرات السياسية والاجتماعية التى طرأت على أنماط الحياة ، وقد أصابت بعض الشعراء بمحن عدة ، وطوحت بطموحاتهم ومجدهم . ومن هنا أرادوا التعبير عن آلامهم وأشجانهم ليفصحوا بالشكوى من الزمان عن سخطهم على بواعثها وأسبابها [1] ، فضجروا من الزمان متجاهلين مصدر القلق الحقيقى لأسباب ربما تكون سياسية أو اجتماعية أو ذاتية ، فكنوا عن قلقهم وأسبابه بالزمان والدهر والدنيا [2] ، ولم يفرقوا فى شكواهم بين هذه الألفاظ إذ المقصود التعبير عن خبايا نفوسهم وما يختلجها من هموم ومكابدة ، ولايمكن فصل الشكوى من الدنيا عن الشكوى من الزمان وإن ظهرت الشكوى من الدنيا عند الشعراء الزهاد بصورة أوضح ولكن المدلول واحد ، فليس ثمة فاصل معنوى بين الزمان والدهر والوقت [3] .

ويعد أبو العتاهية (ت ٢١٠ هـ) من أكثر الشعراء شكوى من الدنيا والزمان على حد سواء فيقول [4] :

---

(١) الشعراء الكتاب فى العراق فى القرن الثالث الهجرى : ١١٧ .
(٢) الأدب فى ظل بنى بويه / للدكتور محمد الزهيرى - مطبعة الأمانة مصر ١٩٤٩م ص : ٢٤٣ .
(٣) الزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام : ٦٢ .
(٤) ديوانه/طبعة دار صادر ، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م ص : ٤٦ - ٤٧ ، ٩٩ ، 185 . وغيرها .

أَيَـا دُنْيَـاىَ مَالِـى لَا أَرَانِـى ... أَسُومُكِ مَنْـزِلاً إِلاَّ نَبَـا بِـى
أَلاَ وَأَرَاكَ تَبْـذُلُ يَازَمَانِـى ... لِـى الدُّنْيَـا وَتُسْـرِعُ بِاسْتِلَابِـى
وَإِنَّـكَ يَازَمَـانُ لَـذُو صُـرُوفٍ ... وَإِنَّـكَ يَازَمَـانُ لَـذُو انْقِـلَابِ
فَمَـالِـى لَسْتُ أَحْلِـبُ مِنْـكَ شَطْـرًا ... فَأَحْمَـدُ مِنْـكَ عَاقِبَـةَ الْحِـلَابِ
وَمَالِـى لَا أُلِـحُّ عَلَيْـكَ إِلاَّ ... بَعَثْـتَ الْهَـمَّ لِـى مِنْ كُلِّ بَـابِ

وقد أكثر الشعراء الشكوى من الدنيا ووصفوها بأدق الأوصاف ، فيشبهونها بالمتاع الزائل تارة ، وتارة أخرى بالحياة ذاتها كما نجد فى قول ابن بسام على بن محمد بن نصير (ت ٢٠٣ هـ) (١) الذى زامن تلك الحقبة التى ساد فيها الأتراك وما أحدثوه من مظاهر الطغيان والفساد عندئذ ضاقت نفسه وطرحته الهموم فقال شاكيا من الدنيا (٢) :

أُفٍّ مِنَ الدُّنْيَا وَأَيَّامِهَـا ... فَإِنَّهَـا لِلْحُـزْنِ مَخْلُوقَـةْ
هُمُومُهَـا لَا تَنْقَضِـى سَاعَـةً ... عَنْ مَلِكٍ فِيهَـا وَلَا سُوقَـةْ

ويعد العجز والمرض وما يصاحب ذلك من الآلام الجسمية والنفسية من بواعث الشكوى الذاتية فى هذه الفترة وغيرها مما يجعل الانسان يضيق بحالته متى أصيب بشيء من ذلك ، وعندئذ ينفد صبره فينفجر شاكيا طالبا العفو والمغفرة ونادما

---

(١) بعض أخبار هذا الشاعر فى أمالي الزجاجي/ تحقيق عبد السلام هارون، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ ص : ١٧٢٠

(٢) المنتحل / لأبى منصور الثعالبي - الاسكندرية المطبعة التجارية ١٣١٩ هـ ص : ١٦٤ ٠

وأحسن ماسمعت / لنفس المؤلف - مطبعة الجمهور ط (١) ، ١٣٢٤ هـ ص : ٨٧٠

على مافرط من عمره كما نجد عند أبى نواس (ت ١٩٨ هـ) وقد اشتد به المرض فقال بعد أن سأله عواده عن حاله (١) :

شَاعَ فِيَّ الْفَنَاءُ سُفْلاً وَعُلْوَا | وَأَرَانِي أَمُوتُ عُضْوًا فَعُضْوَا
لَيْسَ مِنْ سَاعَةٍ مَضَتْ بِيَ إِلاَّ | نَقَصَتْنِي بِمَرِّهَا بِيَ جُزْوَا
ذَهَبَتْ جِدَّتِي بِطَاعَةِ نَفْسِي | وَتَذَكَّرْتُ طَاعَةَ اللَّهِ نِضْوَا
قَدْ أَسَأْنَا كُلَّ الإِسَاءَةِ فَاللَّـ | ـهُمَّ صَفْحًا عَنَّا وَغَفْرًا وَعَفْوَا

أما الخريمي (ت ٢١٤ هـ) فقد زاد حزنه واشتد به الأسى من العمى الذى حد من حركته ، فهو كالغريب بين أصدقائه لايتكلم ولايتحدث مما جعله ينوء بكثير من الهموم وتحتشد فى صدره مشاعر القلق والحزن(٢) .

كَفَى حَزَنًا أَلاَّ أَزُورَ أَحِبَّتِي | مِنَ الْقُرْبِ إِلاَّ بِالتَّكَلُّفِ وَالْجَهْدِ
وَإِنِّى إِذَا حُيِّيتُ نَاجَيْتُ قَائِدِي | لِيَعْدِلَنِي قَبْلَ الإِجَابَةِ فِى الرَّدِّ
إِذَا مَا أَفَاضُوا فِى الْحَدِيثِ تَقَاصَرَتْ | بِيَ النَّفْسُ حَتَّى مَا أُحِيرُ وَمَا أُبْدِي
كَأَنِّى غَرِيبٌ بَيْنَهُمْ لَسْتُ مِنْهُمُ | فَإِنْ لَمْ يَحُولُوا عَنْ وَفَاءٍ وَلاَ عَهْدِ
أُقَاسِي خُطُوبًا لاَ يَقُومُ بِثِقْلِهَا | مِنَ النَّاسِ إِلاَّ كُلُّ ذِى مِرَّةٍ جَلْدِ

ويشتد أساه على فقد بصره فيشير إلى أن السمع لايغني عن البصر وأنه لايمكن أن يكون هناك مايعدل البصر مهما كان عظيما فيقول (٣) :

---

(١) المصون فى الأدب / لأبى أحمد الحسن عبدالله العسكرى ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجى القاهرة ط (٢) ، ص : ١٧٢ .

(٢) ديوان الخريمى : ص ٢٣ .

(٣) المصدر السابق : ٦١ .

أَصْغِي إِلَى قَائِدِي لِيُخْبِرَنِي ... إِذَا الْتَقَيْنَا عَمَّنْ يُحَيِّينِي
أُرِيدُ أَنْ أَعْدِلَ السَّلَامَ وَأَنْ ... أَفْصِلَ بَيْنَ الشَّرِيفِ وَالدُّونِ
أَسْمَعُ مَالَا أَرَى فَأَكْرَهُ أَنْ ... أُخْطِئَ ، وَالسَّمْعُ غَيْرُ مَأْمُونِ
لِلَّهِ عَيْنِي الَّتِي فُجِعْتُ بِهَا ... لَوْ أَنَّ دَهْرًا بِهَا يُوَاتِينِي
لَوْ كُنْتُ خُيِّرْتُ مَا أَخَذْتُ بِهَا ... تَعْمِيرَ نُوحٍ فِي مُلْكِ " قَارُونِ "
حَقٌّ أَخِلَّائِي أَنْ يَعُودُونِي ... وَأَنْ يُعَزُّوا عَنِّي وَيَبْكُونِي

وقد بكى أبو الشيص (ت ١٩٦ هـ) على عينيه حينما بدأ يفقد بصره فقال (١) :

يَانَفْسُ بَكِّي بِأَدْمُعٍ هُتُنِ ... وَوَاكِفٍ كَالْجُمَانِ فِي سَنَنِ
عَلَى دَلِيلِي وَقَائِدِي وَيَدِي ... وَنُورِ وَجْهِي وَسَائِسِ الْبَدَنِ
أَبْكِي عَلَيْهَا بِهَا مَخَافَةَ أَنْ ... يَقْرُنَنِي وَالظَّلَامَ فِي قَرَنِ

ولاشك أن الشكوى من العمى ليست ظاهرة طارئة فى القرنين الثانى ، والثالث ، فهى من الأمور المشتركة بين الشعراء فى مختلف العصور ، وإنما أتينا بها هنا ،كسبب من أسباب الشكوى الذاتية لأنها إنما ظهرت بصورة أكبر عند شعراء القرنين الثانى والثالث ، ولما يحمله فاقد البصر داخل نفسه من هموم ،

---

(١) ديوانه وأخباره / اعداد عبد الله الجبورى - المكتب الاسلامى ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ص : ١١١ .

وما يشعر به ازاء حرمانه من أهم نعم الله على الانسان فى بدنه ، مع أنها قد لاتختلف عند الشعراء متى وجدت ، مع تفننهم فى الصور الشعرية كما قلنا ، كما أننا نجد من الشعراء من اشتكى من ضعف سمعه ، وألم فى بعض أطرافه ، وعجزه التام عن الحركة ، وغير ذلك من مظاهر العجز والألم التى يصاب بها الانسان فى هذه الحياة (١) .

وقد تكون هموم الشاعر فى جانب كبير منها ناتجة عن الدَّين الذى يسبب للإنسان قلقا نفسيا وبخاصة عندما تدعوه الحاجة ويعجز عن قضاء دينه ، فقد يصل السخاء والجود ببعض الشعراء إلى بذل جميع أموالهم وفجأة يجدون أنفسهم مثقلين بالديون فيضطرون إلى السفر وترك الوطن طلبا للرزق وسعيا لقضاء ديونهم ، وعندئذ تجتمع عليهم الهموم من جانبين الغربة والدَّين ، وكان يحي بن طالب الحنفى(٢) من هؤلاء الشعراء الذين قاسوا من ذلك فقد كان باليمامة موطنه وهو من أجواد العرب وفصحائهم لكنه خرج إلى خراسان هاربا من الدَّين فلما وصل إلى قومس حن إلى وطنه حنينا شديدا واشتكى من هذا الدَّين الذى أخرجه من دياره فقال (٣) :

---

(١) ربيع الأبرار ونصوص الاخبار / للامام محمود بن عمر الزمخشرى ، تحقيق الدكتور سليم النعيمي ، مطبعة العاني بغداد : ١٢٦/٤ .

(٢) يحيى بن طالب الحنفي أحد بنى ذهل بن الدؤل بن حنيفة كان مولى لقريش وكان شيخا دينا يقرئ أهل اليمامة ، وكان عظيم التجارة سخيا من شعراء الدولة العباسية توفى فى خلافة هارون الرشيد سنة ١٨٠ هـ .

رسائل الجاحظ : ٤٠٢/٢ - ٤٠٣ .

ومعجم البلدان (مادة قرقرى) .

الأعلام للزركلي ، دار العلم للملايين بيروت الطبعة الخامسة ١٩٨٠م :١٥١/٨- ١٥٢ .

(٣) رسائل الجاحظ : ٤٠٢/٢ - ٤٠٣ .

أَلاَ هَلْ إِلَى شَمِّ الخُزامَى وَنظْرَةٍ إِلَى قَرْقَرى (١) قَبْلَ المَمَاتِ سَبِيلُ
فَأَشْرَبُ مِنْ مَاءِ الحُجَيْلاَءِ (٢) شَرْبَةً يُدَاوَى بِهَا قَبْلَ المَمَاتِ عَلِيلُ
فَيَا أَثْلاتِ القَاعِ قَدْ مَلَّ صُحْبَتِي مَسِيرِي فَهَلْ فِي ظِلِّكُنَّ مَقِيلُ
أُرِيدُ انْحِدَارًا نَحْوَهَا فَيَرُدُّنِي وَيَمْنَعُنِي دَيْنٌ عَلَيَّ ثَقِيلُ
أُحَدِّثُ نَفْسِي عَنْكِ إِذْ لَسْتُ رَاجِعًا إِلَيْكِ فَحُزْنِي فِي الفُؤَادِ دَخِيلُ

وأما بشار بن برد (ت ١٦٧ هـ) فهو يشكو من فقره حيث أصبح غير قادر على توفير مطالب أطفاله من الزاد والكساء عندما كثرت عليه الديون ، وظل الدائن يداهمه ليلا ونهارا بصك دينه، بينما يتهرب منه محاولا الافلات من رؤيته التى تخيفه وتدخل على قلبه الرعب والاضطراب وهو لايستطيع الوفاء بالدين فيقول (٣) :

بَلْ غَالَ نَوْمِي بَائِعٌ مُسْعُورُ
يَمْشِي بِرِقٍّ (٤) بَطْنُهُ مَسْطُورُ
يَهُولُنِي لِقَاؤُهُ المَحْذُورُ
وَأنَا مِنْ رُؤْيَتِهِ مَذْعُورُ
يَرُوعُنِي وَلَيْسَ لِي مُجِيرُ
فَهَلْ لِمَا بِي مِنْ أَذًى تَغْيِيرُ

---

(١) قَرْقَرَى : أرض باليمامة فيها قرى وزوع ونخيل كثيرة ومن قراها الهزيمة وقرما والجواء، والأطواء، وتوضح ، وعلى قرقرى يمر قاصد اليمامة من البصرة • معجم البلدان (مادة قرقرى) •
(٢) الحُجَيْلاَء : اسم بئر باليمامة •
(٣) ديوان بشار/ تحقيق محمد الطاهر بن عاشور/الشركة التونسية والشركة الوطنية للنشر والتوزيع / الجزائر ١٩٧٦م : ٣/١٧٣ - ١٧٤ •
(٤) الرق: القطعة من جلد يكتب فيها • وأراد هنا صك الدين الذى عليه •

ونجد أبا دلامة الأسدى (ت ١٦١ هـ) فى معرض مديحه لأحد الأمراء يشكو مر الشكوى من الدين ويتألم من غريمه الذى يلزم داره ولا يفارقه رغم اعساره وعدم استطاعته اعطاء هذا الدائن حقه (١) :

إِذَا جِئْتَ الأَمِيرَ فَقُلْ سَلَامٌ ... عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ الرَّحِيمِ
وَأَمَّا بَعْدُ ذَاكَ فَلِي غَرِيمٌ ... مِنَ الأَعْرَابِ قُبِّحَ مِنْ غَرِيمِ
لَزُوم مَا عَلِمْتُ لِبَابِ دَارِي ... لَزُوم الكَلْبِ أَصْحَابَ الرَّقِيمِ
لَهُ مائَةٌ عَلَيَّ وَنِصْفُ أُخْرَى ... وَنِصْفُ النِّصْفِ فِي صَكٍّ قَدِيمِ
دَرَاهِم مَا انْتَفَعْتُ بِهَا وَلَكِنْ ... وَصَلْتُ بِهَا شُيُوخَ بَنِي تَمِيمِ
أَتَوْنِي بِالْعَشِيرَةِ يَسْأَلُونِي ... وَلَمْ أَكُ فِي الْعَشِيرَةِ بِاللَّئِيمِ

وقد خلط هذه الشكوى بالسخرية وروح الدعابة التى عرف بها ، وهى سمة من سمات الأدب فى العصر العباسي حيث شاعت ظاهرة التظرف والمزح فى الأدب العربي فى هذه الحقبة .

وفى القرنين الثانى والثالث نجد الشعراء قد لجوا بالشكوى من قسوة الطبيعة وتحديها لهم بما فيها من مظاهر مؤلمة فوصفوها وصفا دقيقا فى أشعارهم وشكوا منها ومن هوامها ودوابها .

ومع أن ظاهرة الشكوى من الطبيعة ليست شائعة فى الشعر العربي ولا عرفت من أغراضه فى السابق ولعل بساطة الحياة وسهولتها حينذاك قد جعل الشاعر يستسهل

---

(١) ديوان أبى دلامة الأسدى / اعداد الدكتور رشدي على حسن ، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ص : ٨٢ .

كل أمر يواجهه ، فلم يعر الطبيعة اهتماما ولم تؤلمه مظاهرها ، فلما كان فى القرنين الثانى والثالث وتغيرت سبل العيش وتعقدت الأمور وسكن الناس فى المدن بمختلف طبقاتهم وجد منهم من قصر حظه عن ملاحقة وسائل المعيشة التى تتطلبها حياة المدينة من المسكن والمأكل والمشرب وعندئذ أخذ يشكو من الطبيعة ومظاهرها فى هذه الحقبة •

وهم وإن عمدوا إلى وصف حيوانها وظواهرها الجوية شأن شعراء الحقب السابقة فانهم قد صوروا ماكان يثور فى أنفسهم ازاءها من مشاعر فجمعوا حينئذ الى شعر الوصف والصورة شعر الموقف والعاطفة •

لقد اشتكوا من الريح ، والمطر ، والحر ، والبرد ، كما اشتكوا مما يقلقهم فى البيوت من حيوان وزواحف ، وحشرات ، وما يحوم فى سمائها من بق ، وقرقس وهوام (١) •

وهذه الشكوى لاتصدر عادة إلا من الطبقة الفقيرة المعدمة التى باتت عرضة لمثل هذه الظواهر المقلقة فى المجتمع •

وحينما نبحث فى الشكوى من الطبيعة نجد ديك الجن الحمصى (ت ٢٣٥ هـ) يشكو من بيته الذى انهمر عليه بالماء والهوام فحرمه لذة النوم وبات ليلته أرقا مهموما يقول(٢) :

---

(١) الحيوان للجاحظ : ٥/٣٨٥ - ٤٠٩ •
والشعراء الكتاب فى العراق فى القرن الثالث الهجرى : ١٢٤ •

(٢) ديوان ديك الجن / تحقيق أحمد مطلوب وعبد الله الجبورى دار الثقافة بيروت ١٩٨١م ص : ١٦٣ •

لا بِتُّ اخْوَانِي وَلا بِتّمُ ... بِلَيْلَةٍ بِتُّ بِهَا البَارِحَةْ
لَمْ يَبْقَ لِي فِى مَنْزِلِى بِقْعَةٌ ... إِلاّ وَفِيهَا لُجَّةٍ سَايِحَةْ

ويئن أبو على البصير (ت ٢٥٨ هـ) بالشكوى من الغيث الذى عم خيره الناس لكنه كان سببا فى خراب منزله فيقول[1] :

مَنْ تَكُنْ هَذِهِ السَّمَاءُ عَلَيْهِ ... نِعْمَةً أَوْ يَكُنْ بِهَا مَسْرُورَا
فَلَقَدْ أَصْبَحَتْ عَلَيْنَا عَذَابًا ... وَلَقِينَا مِنهَا أَذىً وَشُرُورَا
صَيَّرَتْ مَنْزِلِى خَرَابًا وَمِنْ عَا ... دَاتِهَا أَنْ تُخْرِبَ المَعْمُورَا
أَيُّهَا الغَيْثُ كُنْتَ بُؤسًا وَفَقْرًا ... لِى وَلِلنَّاسِ حِنْطَةً وَشَعِيرَا

ويبدو أن الضرر الذى لحقه كان مزعجا ، فقد هدم المطر داره فأخذ يكشف عن عمق مأساته وحزنه ازاء الطبيعة التى لاترحم فيصف ليلة بات فيها سهرانا يصارع همومه قائلا[2] :

وَلَيْلَةٍ عَارِضٍ لاَ نَومَ فِيهَا ... أَرِقْتُ بِهَا إِلَى الصُّبْحِ الفَتِيقِ
حَمَانِى النَّومَ فِيْهَا سَقْفُ بَيْتٍ ... كَأَنَّ سَمَاءَهُ عَيْنُ المَشُوقِ
تَوَاصَلَتِ السَّحَائِبُ وَهْوَ بَيْتٌ ... وَصَدَّتْ وَهْوَ قَارِعَةُ الطَّرِيقِ
تَفِيضُ عُيُونُ جِيرَتِنَا عَلَيْنَا ... إِذَا نَظَرُوا إِلَى الغَيْمِ الرَّقِيقِ

---

(١) أشعار أبى على البصير / مجلة المورد م ١ ع ٣ - ٤ ، ١٩٧٢م ص ١٦٠ قطعة ٢٧ .

(٢) أشعار أبى على البصير : ص : ١٦٤ قطعة ٤٠ .

وهو فى هذه الشكوى الساخرة يريد أن يعبر عن أبعاد مأساته وعمقها ولذا حشد فى هذه الأبيات مايمكن من الصيغ الفنية ، كالمبالغة ، والمقابلة والطباق ، ليبرر الموقف الذاتي فى شكواه ٠

ولقد اشتكى أبو الشيص وهو فى بغداد من البراغيث الذين حرموه لذة النوم فبات فى أسوأ حال يقول (١) :

تَطَاوَلَ فِى بَغْدَادَ لَيْلِي وَمَنْ يَبِتْ ... بِبَغْدَادَ يَلْبَثْ لَيْلُهُ غَيرَ رَاقِدِ
بِلَادٌ إِذَا زَالَ النَّهَارُ تَقَافَزَتْ ... بَرَاغِيثُهَا مَابَيْنَ مَثْنَى وَوَاحِدِ
دَيَازِجَةٌ (٢) شُهْبُ البُطُونِ كَأَنَّهَا ... بِغَالُ بَرِيدٍ أُرْسِلَتْ فِى المَذَاوِدِ

ومثل هذه الشكوى نجدها عند القاسم بن يوسف (ت ٢٢٠ هـ) (٣) فهو يشكو من تلك الحشرات المقلقات التى حرمته النوم قائلا (٤) :

قَدْ مُنِينَا بِهَنَاتٍ ... هُنَّ مِنْ شَرِّ الهَنَاتْ
نَافِرَاتٍ آمِرَاتٍ ... قَلِقَاتٍ مُقْلِقَاتْ
سَافِكَاتٍ لِدِمَاءِ النَّا ... سِ مِنْهَا شَارِبَاتْ

---

(١) ديوانه : ٥٦ ٠
(٢) الدَّيْزَجُ : فارسية معرب ديزه ٠
(٣) أخباره وأشعاره فى المصادر التالية :
الأوراق - أبو بكر الصولي / تحقيق هيورث دن / قسم أخبار الشعراء ، نسخة مصورة عن طبعة القاهرة ٠ مطبعة الصاوى ١٩٣٤م ٠ ص : ١٦٣ - ١٦٤ ٠
معجم الشعراء / للمرزباني : مكتبة القدسي : الطبعة الأولى ص : ٣٣٥ ٠
الفهرست / لابن النديم : دار المعرفة بيروت ١٣٩٨هـ ص : ١٧٨ ٠
(٤) الأوراق : قسم أخبار الشعراء : ١٧١ ٠

مَعَنَا فِى الْفُرْشِ وَفِى الْـ ـقُمْصِ عَلَيْنَا وَاثِبَاتْ

بَيْنَ مُحْتَكٍّ وَفَالٍ ثَوْبَهُ فِى الْغَالِيَاتْ

وَجَوَارٍ مُحْرِكَاتٍ لِمَتَاعٍ نَافِضَاتْ

بَاسِطَاتٍ بَاحِثَاتٍ صَائِدَاتٍ قَاتِلَاتْ

تَخْضُبُ الأُصْبُعَ وَالثَّـ ـوْبَ دِمَاءً دَامِيَاتْ

ثُمَّ لَا يُخْرِجُهُ الْغُسْـ ـلُ بِمَاءِ الرَّاحِضَاتْ

لقد وفق الشاعر فى هذه الشكوى إلى رسم صورة واقعية دقيقة متحركة لتلك الحشرات التى أقلقته فجاءت صياغة هذه الأبيات أشبه باللوحة الناطقة حين جمع بين مجزوء الرمل ذى التفعيلة المتحركة وروى التاء المردوف بالألف اللينة والتنسيق فى الكلمات فمنح هذه المقطوعة نبض الحركة التى تكاد تتساوق وحركة بعض هذه الحشرات كالبراغيث .

إن الشكوى الذاتية تعبير نفسي لدى الإنسان ، والشاعر بمواهبه العقلية وبمكوناته الفكرية يستطيع أن يجسد أحلامه وأحلام مجتمعه ويشخص آلامه وآلام أمته ، ويعزف على وتر الحياة المشدود أغانيه الذاتية فنحس فى قوله حرارة العاطفة ودفء المشاعر وتدفقها لأنه يتحدث عن نفسه فيترجم مواقفه الذاتية ومشاعره الخاصة التى تركت التجارب آثارها الحادة فى نفسه (1) حينما يتعرض لكثير من المواقف التى تهز كيانه وتسقطه من عليائه فإذا به يتجرع همومه ويصارع مشاعره الثكلى ، وليس لديه سلاح أقوى من الصبر والتجلد ، فإذا ما خانه هذا السلاح

---

(1) أدب اليمن فى القرنين الأول والثانى الهجرى د. أحمد السومحى المطبعة العربية جدة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م : ١٨٤/١ .

لجأ إلى الشكوى والبوح للتخفيف من أثقال همومه ووطأة آلامه ٠

ولاشك أن الشكوى الذاتية سواء فى هذه الفترة التى نحن بصدد دراستها أم فى غيرها من الفترات لايمكن حصر أسبابها وبواعثها ، إذ الشكوى ظاهرة نفسية انسانية يختص الشاعر بمعرفة بواعثها وتحليل كنهها لمعرفته الخاصة بالسبب الذى استثاره فشكا ٠

أما نحن فقد يصعب علينا تفسير تلك البواعث من جميع جوانبها إذ أن الشاعر يشكو ويتبرم حينا من الحياة وحينا من الألم الجسمي والنفسي ، وحينا من الفراق ، واللقاء ، والحب ، والكره ، وحينا آخر من المجتمع ومافيه من ظواهر اجتماعية قد يكون لها مردود معين يؤثر على نفسه فيقلقه ٠ وقد يشتكى من أصحاب السلطة وغيرهم من الناس بحسب مواقعهم ومسئولياتهم ٠

ولذا فإن الشكوى تترجم عن خواطر النفس الانسانية فنحس زفرات حارة تشكل تلك الأنات الشاكية التى تنطلق من أفئدة مجروحة مما ينتاب الانسان من هموم وأوجاع أملتها ظروف الحياة ، وما يتعرض له فى يومه وغده على تراب أرضه وبين أفراد مجتمعه أو فى غربته ، وترحاله ، أو فى سجنه وما إلى ذلك ٠

وتلك النبرات الحزينة الشجية إنما هى صور ذاتية تعبر عن تجارب شعورية ناضجة فى صيحات شعرية مؤثرة فيها من المعانى العظيمة والتصوير الحيّ مايمكن هذا الشعر من أن يمس شغاف القلوب لما فيه من اخلاص ولوعة وألم ، ولأنه صادر عن مأساة شخصية ومعاناة انسانية، فهو حينئذ أقرب فى تصوير هذه المأساة

وتعميق هذه المعاناة فى قلوب الآخرين ليعيشوا مع صاحب القضية بوعى وإدراك •

وقد تحدثنا فى هذا الباب عن الشكوى الذاتية بما يشبه الخواطر العامة لتأصيل الشكوى من الناحية الذاتية فلعل فى دراستها من جوانبها الاجتماعية والسياسية مايلقى مزيدا من الضوء على كثير من الجوانب الانسانية فى شعر الشكوى بعمومه خلال هذه الفترة التى تيسرت لنا دراستها فى هذا البحث •

الباب الثاني

الشكوى الاجتماعية

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : الشكوى الاجتماعية في العصر الجاهلي .

الفصل الثاني : الشكوى الاجتماعية في القرن الأول الهجري .

الفصل الثالث : الشكوى الاجتماعية في القرنين الثاني والثالث الهجري .

الفصل الأول

الشكوى الاجتماعية فى العصر الجاهلى

ويشتمل على ما يلى :

* مدخل لدراسة الحياة الاجتماعية

المبحث الأول : الشكوى من الظلم .

المبحث الثانى : الشكوى من الشيخوخة .

المبحث الثالث : الشكوى من الفقر وسوء الحال .

مدخل فى دراسة الحياة الاجتماعية :

قبل الحديث عن الشكوى الاجتماعية فى العصر الجاهلي يحسن بنا أن نتحدث قليلا عن الحياة الاجتماعية لعرب الجاهلية،لما ترتب على تلك الحياة من محاور الشكوى الاجتماعية التى نحن بصدد دراستها فى هذا الباب .

لقد ارتبط الجاهليون ارتباطا وثيقا ببيئتهم ، وقد أثرت فيهم تلك البيئة سلبا وإيجابا ، ففيها توثقت صلتهم ببعضهم ، وتعاملوا مع حياة الصحراء القاسية (١) ، فحاولوا تسخيرها لتيسير لقمة العيش ، وقد كان لخشونة الحياة الجاهلية وشظفها دور فى طبع العربي الجاهلي بطابع القوة والغلظة فى كثير من الأحيان ، فكانت القوة من أبرز صفات البيئة الجاهلية يحترم صاحبها ، وتصان حرماته ، ويعظم فى أعين الناس ، وأصبح الضعف جريرة كبرى يعير بها الرجل ، ويذوق من جرائها الذل والهوان . فإذا أضفنا الى صفة القوة الغنى والوفرة ، والصراحة فى النسب كان حظ من تتوافر له هذه المقومات فى المجتمع الجاهلي عظيما،وعرضه وافرًا لايكلم .

وقد تشكلت حينئذ حياة الانسان الجاهلي تبعا لحياته الاجتماعية ، وما تخضع له هذه الحياة من فوارق مادية ومعنوية لها خطرها فى البناء الاجتماعي

---

(١) الزمان والمكان وأثرهما فى حياة الشاعر الجاهلي وشعره : ٨٨/١ - ٩٢ .

الجاهلي الذى لم تكن له حكومة منظمة تأخذ بزمام الأمور[١]، فتردع الظالم وتنصر المظلوم ، بل كان المجتمع الجاهلي قبليا غير مستقر ، إذا استثنينا مجتمع المناذرة ، والغساسنة ، ومجتمع مكة ، والمدينة [٢] . حيث وجدت هناك ضوابط حفظت للانسان عندئذ بعض حقوقه .

وقد عاش عرب الجاهلية فى جزيرتهم حياة متنقلة مرتبطة أيما ارتباط بالماء والكلأ، وما يترتب على ذلك من صفة الظعن والرحلة ، وتحقيق الأمن للقبيلة التى بقي حكمها بما فيه من حيف وجور فى أحيان كثيرة مسيطرا على المجتمع الجاهلي الذى تتوزع قبائله فى أجزاء متعددة من الجزيرة العربية .

وتبعا لتفاوت الحياة المعيشية بين عرب الجاهلية من الفقر والغنى والشرف والوضاعة والقوة والضعف امتازوا بجمعهم الأضداد ، كالنهب والكرم والقسوة والنبل ، وغير ذلك من الصفات التى تدعو إلى المقت والاعجاب فى آن واحد[٣] ، وقد تكونت القبيلة فى العصر الجاهلي من العرب الصرحاء ، والموالى ، والخلعاء ، والعبيد ، وكان لكل من هذه الفئات حقوق وعليها واجبات يشترك الجميع فى بعضها

---

(١) مقدمة ابن خلدون/ تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافي ، دار نهضة مصر للطبع والنشر . ط (٢) : ٥١٦/٢ .
الشعر وأيام العرب فى العصر الجاهلي / د. عفيف عبد الرحمن - دار الاندلس بيروت ط (١) ص : ١٧ - ١٨ .
تاريخ النقائض فى الشعر العربي/ أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ط (٣) ١٩٦٦م ص : ٣٧ .
فى تاريخ الأدب الجاهلي / د. على الجندى ، دار المعارف بمصر ط (٢) ١٩٨٥م ص : ٦٧ .

(٢) الشعر وأيام العرب : ١٧ .

(٣) حضارة العرب : ٧٢ .

ويختص الصرحاء عن غيرهم ببعضها الآخر ، وقد أحدث هذا التمايز بين أفراد القبيلة كثيرا من الأحقاد ، وبنى عليه العديد من النظم الاجتماعية وسنت القوانين القبلية التى لاتخلو من الاجحاف والظلم، والتى كان منها أن دية الحليف نصف دية الصريح[١] ، كما أنه لايحق للحليف أن يجير لأن هذا من حق الصرحاء وحدهم ، ولم يسلم السود من احتقار المجتمع ، ناهيك عن الرقيق الذين يباعون ويشترون فى الأسواق كما تباع السلع والمواشى[٢]، ولم يكن المخلوعون من نظام القبيلة بأحسن حال من هؤلاء فقد تخلت عنهم قبائلهم فعاشوا حياة التشرد والتصعلك[٣] .

وفى تلك البيئة لم يكن للفرد من فئة ينصرونه إلاّ قبيلته وعليه أن يحافظ على علاقته الطيبة مع أفرادها ، ومن هنا جاء حب العربي لنفسه وعشيرته، مما جعله يبالغ فى فهم معنى الشرف ، وأصبحت العصبية القبلية والأثرة الواضحة فى حياتهم من أبرز الصفات المميزة لهم ، فأوجدت فيهم الحمية الجاهلية التى تحدث عنها القرآن الكريم فحرمها وشدد فى النهي عن كل ما يثيرها قال تعالى :

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِيْنَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ[٤] ﴾ وقد ربط سبحانه وتعالى كل ماحدث فى الأرض من الظلم والاستعباد بالجهل المرتبط بالجاهلية فقال تعالى :

﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾[٥]

---

(١) الأغانى : ١٩/٣ (طبعة دار الكتب) .

(٢) السيرة النبوية / لابن هشام ، وبهامشه الروض الأنف / للسهيلى تقديم طه عبد الرؤف سعد مكتبة شقرون ، القاهرة : ٢٤٩/١ .

(٣) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلي / الدكتور يوسف خليف ، دار المعارف بمصر ط (٣) ١٩٧٨م ، ص : ٥٧ - ٥٨ .

(٤) سورة الفتح آية : ٢٦.

(٥) سورة آل عمران آية : ١٥٤ .

وأخبر عز وجل عن حال الأمم السابقة ، وما حدث فيها من تفريط ، وربط ذلك بالجهل الذى أعمى قلوبهم عن معرفة الحق ، فموسى - عليه السلام - يصف قومه بالجهل عندما طلبوا منه أن يجعل لهم إلها قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَامُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾(١) .

وقد جر الجهل ، والافراط قوم لوط - عليه السلام - إلى الارتماء فى دروب الفاحشة فكانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ(٢) ﴾ لكن مثل هذا السلوك البشع لم يكن يوجد عند عرب الجاهلية ، وإنما كانت توجد بينهم نعرات ممقوتة يركزون من خلالها على التفاخر والتفاضل بالأحساب والأنساب (٣) ، الأمر الذى أحدث جهلا بقيمة الانسان ، وحرمة نفسه ، وجعل العربي الجاهلي يتهور ويثور لأتفه الأسباب ، يزهق الأرواح دونما رادع أو خوف وبخاصة إذا كان الأمر يتعلق بأمن قبيلته وعرضها : (٤)

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ ... فِى النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا

---

(١) سورة الأعراف آية : ١٣٨ .

(٢) سورة النمل آية : ٥٥ .

(٣) النقائض : ١٤٠/١ .

(٤) حماسة أبى تمام / تحقيق الدكتور عبد الله عسيلان . طبعة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م : ٥٨/١ .

ونظرا لقسوة الحياة وشح الموارد المعيشية ، وصعوبة الحصول على الرزق وانعدام اليقين وحب المخاطرة فى المجتمع الجاهلي ، إضافة إلى غلوهم الشاذ فى المحافظة على الشرف ، فقد تأصلت عند بعضهم عادة شاذة تكمن فى وأد البنات وقتل الأولاد خشية العار والفقر[1] ، وقد منع القرآن الكريم هذه الظاهرة وحرمها فقال تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾[2] .

وقال تعالى :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[3] .

وفى هذه البيئة الشحيحة كان لابد للانسان أن يتعامل معها ، وأن يرضخ لقيمها الاجتماعية التى قد تعرضه لمظاهر شتى من الهموم الناتجة عما يعانيه من ظلم اجتماعى نتيجة لما يطرأ على بنية المجتمع من تفكك الأسر بعد قتل الأولاد، ووأد البنات ، وسبي النساء فى الحروب التى قد تثار لأتفه الأسباب التى تحركها النعرات الجاهلية المرتبطة بالجهل ، والسعي الى السيطرة وحب الذات .

---

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلي / الدكتور أحمد الحوفي ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ط (٥) ، ١٩٧٢م ص : ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٢) سورة الاسراء الآية : ٣١ .

(٣) سورة النحل الآيات : ٥٧ - ٥٩ .

وليس معنى هذا أننا ننكر ما للعرب فى الجاهلية من سجايا نبيلة ظلوا يحتفظون بها فى صحرائهم المجدبة ، من ضمنها إكرام الضيف والإجارة، وإطلاق الأسرى والأنفة والشجاعة والوفاء والعفة والإباء والحلم وحسن الخلق [١] ، بل إنهم كما يرى ابن رشيق ، أفضل الأمم وحكمتهم أشرف الحكم [٢]، وقد زادهم الله شرفا وفضلا ، فأرسل أشرف رسله وخاتم أنبيائه منهم ، ولكننا ونحن نبحث فى دواعى الشكوى الاجتماعية لابد من التركيز على الجانب السلبي لحياة الجاهليين لأنه ربما أثار حفيظة الشعراء أكثر من غيره فاشتكوا ، وذلك أن الجهل قد آل بهم إلى هضم حقوق طبقة معينة من أفراد المجتمع كانوا فى العرف القبلى مسخرين فقط للخدمة لايشتركون فى رأى أو مشورة ٠

أما لأنهم عبيد فكانت العبودية بالنسبة لهم مرضا اجتماعيا يصعب التخلص منه ، أو لأنهم صعاليك خلعتهم القبيلة لأسباب مادية ومعنوية تتعلق بالحياة ذاتها ، أو لأنهم شاخوا فأصبحت تصرفاتهم تخريفا ، وكانوا كلا على مجتمعم ، فلم تعد لهم قيمة حتى ولو كانوا فى قوتهم من الفرسان وأصحاب الرأى ، وإن كان وجود مثل هذه الظاهرة يعد شاذا إلى حد كبير [٣] ٠

---

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلي : ٣٠٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥٦ ، ٣٦١ ٠
الجانب الخلقى فى الشعر الجاهلي / الدكتور زهدى صبرى الخواجا ، دار الناصر للنشر والتوزيع ، الرياض ط (١) ١٤٠٤ هـ ص : ٢٠٧ - ٣٥٠ ٠

(٢) العمدة / لابن رشيق - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ط (٥) ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م : ١٩/١ ٠

(٣) ديوان دريد بن الصمة الجشمي : ٦٦ ٠

ونتيجة للجهل أيضا انتشرت بعض الخرافات والبدع فى حياتهم ، كالكهانة والعرافة وزجر الطير والضرب بالحصى والخط فى الرمل والاستقسام بالأزلام والميسر، (١) وكانوا يعتقدون اعتقادات باطلة ، فينفون من يشاؤون من القبيلة بحكم أنه ملحق أو هجين (٢) ، وعندئذ تسقط حقوقه وتصبح القبيلة فى حل منه فلا تصون له عهدا ، ولا تحفظ عليه نفسه ، ولا تطالب بدمه إن سفك ، فالمخلوع أصبح طريدا ليس أمامه إلا الالتجاء إلى الصحراء ، والانضمام إلى جماعات الخلعاء الصعاليك ، وليس بالضرورة أن يكون الخليع صعلوكا ، فقد يلجأ لقبيلة أخرى فيتحالف معها ويتعهد لها فى القيام بما يمليه عليه نظام الحلف الذى كفل له حق الجوار (٣) .

---

(١) العمدة : ٢٥٩/٢ - ٢٦٤ .
نهاية الأرب فى فنون الأدب / للنويرى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م : ١٢٨/٣ - ١٤٩ .
فى تاريخ الأدب الجاهلي : ٧٠ - ٧٤ .
العصر الجاهلي / الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ط (٣) ، ١٩٧٦ م ص : ٧٠ - ٧١ .

(٢) الملحق : الدعي الملصق ، واستلحقه أى ادعاه واللحق : الدعي الموصل بغير أبيه .
والهجين : العربي ابن لأمه لأنه معيب ، وقيل هو ابن الأمة الراعية مالم تحصن ، فاذا حصنت فليس الولد بهجين .

(٣) الشعر وأيام العرب فى العصر الجاهلي : ٣٤ .
الحليف : المحالف يقال حالف فلان فلانا فهو حليفه ، وبينهما حلف لأنهما تحالفا بالايمان أن يكون أمرهما واحدا بالوفاء فلما لزم ذلك عندهم فى الاحلاف التى فى العشائر والقبائل صار كل شئ لزم شيئا فلم يفارقه فهو حليفه حتى يقال فلان حليف الجود ، وفلان حليف الاكثار وفلان حليف الاقلال .
اللسان (مادة حلف) .

ونظرا لصعوبة حياة الجاهلي ، وما يتعرض له من هموم ومشكلات أخذ يتبرم من الدهر ، ويعزو إليه كل مايناله من قسوة الحياة ومصائبها انطلاقا من معتقد جاهلي تأصل فى نفوسهم كما رأينا من قبل ، ومع إيمانهم بالموت ، فإنهم يرونه العدم الذى لا حياة بعده . ومن هنا جاء انكارهم لمسألة البعث .

ومن الطبيعى أن يلجأ الشاعر الجاهلي إلى الشكوى ليخفف من آلامه ، ومعاناته فى تلك البيئة القاسية وما يعترضه من مشكلات الحياة ، إذ أن إنسان العصر الجاهلي قد وجد نفسه فى أحيان عدة وحيد همومه لا يشاركه المجتمع فيها ولا يكف عنه أذاه وتهكمه، فربما كانت همومه كلها ناتجة حينذاك عن معاملة المجتمع له .

وهكذا فإنّ العرب فى الجاهلية ، وبخاصة أهل البادية لم يعرفوا الاستقرار إلا فى القليل النادر ، نظرا لارتباطهم بالرحلة والظعن سعيا وراء مساقط المياه ومنابت الكلأ .

ولعل فى دراستنا لمحاور الشكوى الاجتماعية فى هذا العصر مايلقى ظلالا على تلك البيئة الجاهلية وما فيها من متغيرات اجتماعية .

المبحـــث الأول

الشكوى من الظلم فى المجتمع الجاهلي

قد لا نبالغ إذا قلنا أن حياة الجاهلي لم تكن مستقرة فى كثير من جوانبها، بل كان يسودها بعض المنغصات التى تكدر صفوها وتجعلها نكدة ، فقد ساد المجتمع الجاهلي نوع من علاقات القطيعة والجفاء بين أفراده ، تلك سمة الحياة الانسانية خصام ووفاق واختلاف فى الآراء وطمع فى كل ماتهفو إليه النفس الانسانية من ملذات والسعى لإدراك المنى حتى لو أدى ذلك إلى المزيد من الظلم والعقوق وقطع الأرحام .

ومن هنا كثرت الشكوى وصرخات الألم من الظلم عند الشاعر الجاهلي سواء أكان مصدر هذا الظلم من القريب أم البعيد ، وكان سببا فى القطيعة ، وتفكك الروابط الأسرية والاجتماعية ، وهذا شأن الانسان فى هذه الحياة إذ يكون ظالما أو مظلوما إلاّ من رحم الله .

ولقد نسب القرآن الكريم الظلم إلى الانسان وخصه به فى قوله تعالى :
﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾(1) وقوله تعالى :
إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا(2) ﴾ .

---

(١) سورة ابراهيم الآية : ٣٤ .

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٧٢ .

ولم يكن هناك ظلم للنفس الانسانية أكبر من الشرك بالله ، وهو سلوك ساد المجتمع الجاهلي ، وامتد فى الماضى البعيد ، فهذا لقمان الحكيم يحذر ابنه من مغبة الشرك بالله ﴿ يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

ويكفى أن القرآن الكريم والسنة النبوية قد تحدثا عن الظلم بشتى صوره فى كثير من المواضع فربطا ذلك بالجهل ، وعدم الإيمان بالله ، وملائكته وكتبه ورسله ، وكذلك العناد الجاهلي ، والطيش ،وسرعة التهور ، والانفعال وهى صفات جبل عليها بعض عرب الجاهلية حتى عدوا الظلم من مفاخرهم التى يتطاولون بها فى فخرهم كقول عمرو بن كلثوم (٢) :

لَنَا الدُّنْيَا وَمَنْ أَمْسَى عَلَيْهَا ... وَنَبْطِشُ حِينَ نَبْطِشُ قَادِرِينَا
بُغَاةً ظَالِمِينَ وَمَا ظُلِمْنَا ... وَلَكِنَّا سَنَبْدَأُ ظَالِمِينَا

ولعل فى هذا دلالة على ماكان سائدا فى المجتمع الجاهلي من مظاهر الظلم وقهر الانسان لنفسه ولأخيه الانسان .

وإذا كان ثمة من تعليل لهذا الخلق - أعنى اتصاف الجاهليين بالظلم فى أغلب الاحيان وحبهم له - فإن الضعيف فى العصر الجاهلي مركب ذلول للقوى يعيش على أشلائه سواء أكان هذا الضعيف فردا أم جماعة ، ومن هنا كانت الحياة

---

(١) سورة لقمان الآية : ١٣ .

(٢) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات / لابن الأنبارى ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ، ط (٤) ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م ص : ٤٢٧ .

فى نظرهم للأقوى ، والموت والهوان للضعيف أينما كان كما فى قول النابغة الذبيانى (١) :

تَعْدُو الذِّئَابُ عَلَى مَنْ لَا كِلَابَ لَهُ ... وَتَتَّقِي مَرْبَضَ الْمُسْتَأْسِدِ الْحَامِ

وقول زهير بن أبى سلمى(٢) :

وَمَنْ لَا يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ ... يُهَدَّمْ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمِ

ورغم هذا التصريح الواضح فانه لايمكننا تعميم هذا الخلق على عرب الجاهلية جميعا ، فبالاضافة الى وجود كثير من المتهورين الطائشين الذين لايتعدى مفهوم الحياة عندهم القوة والظلم على مستوى الأفراد والقبائل نجد بجانبهم من هو قريب من الحلم والأناة منضبط النفس لايغضب الا لدواعى الغضب الحقيقية ، وماعدا ذلك فالحلم أظهر على طباعه ، اذ الحماقة من طباع اللئام يقول عنترة بن شداد العبسى(٣) :

وَلِلْحِلْمِ أَوْقَاتٌ وَلِلْجَهْلِ مِثْلُهَا ... وَلَكِنَّ أَوْقَاتِي إِلَى الْحِلْمِ أَقْرَبُ
يَرَوْنَ احْتِمَالِي عِفَّةً فَيُرِيبُهُمْ ... تَوَفُّرُ حِلْمِي أَنَّنِي لَسْتُ أَغْضَبُ
تَجَافَيْتُ عَنْ طَبْعِ اللِّئَامِ لِأَنَّنِي ... أَرَى الْبُخْلَ يُشْنَا وَالْمَكَارِمَ تُطْلَبُ

---

(١) ديوانه : ٨٤ .

(٢) شرح ديوانه : ٣٠ .

(٣) ديوانه / تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى ، مكتبة القاهرة ، مطبعة أولى ١٩٦٩ م ص : ١٠٠ .

وكما فى قول النابغة الجعدى (١):

وَلاَ خَيْرَ فِى حِلْمٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ ... بَوَادِرُ تَحْمِى صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا

وَلاَ خَيْرَ فِى جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ ... حَلِيمٌ إِذَا مَا أَوْرَدَ الأَمْرَ أَصْدَرَا

فَفِى الْحِلْمِ خَيْرٌ مِنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ ... وَفِى الْجَهْلِ أَحْيَانًا إِذَا مَا تَعَذَّرَا

وان من صفات العرب فى الجاهلية التى تبينها أشعارهم ، حب السلام ، والشجاعة ، والكرم ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، ومساعدة الفقراء ، وحسن المعاشرة ، والصدق ، والأمانة والوفاء(٢) ، ولذلك فانه لايمكن أن يعمم على مجتمع العرب فى الجاهلية الاخلال الاجتماعى فى كل الأحوال ، لأن البناء القبلي حينذاك يجعل أفراد القبيلة أشبه بالأسرة الواحدة يحمى بعضهم بعضا ويفنى فى سبيل نصرته ، ومع هذا فان ذلك النظام لم يمنع وقوع الظلم على بعض أفراده بل ربما كان سببا فى كثير من مظاهر الظلم ، والاستعباد ، وأكل حقوق الناس بالباطل، فقد يغتصب القوى منهم حق الضعيف حتى ولو كان من ذوى رحمه ، وما قصة طرفة ابن العبد مع أعمامه الا مثال واحد من أمثلة كثيرة على نوع من أنواع الظلم فى العصر الجاهلي . فقد مات أبوه وهو صغير فاكتوى بنار اليتم ، وأبى أعمامه أن يقسموا له فى مال أبيه بل اغتصبوه مما حدا به أن يلهج بالشكوى متسائلا عن مصير هذا المال وشاكيا من هذا الظلم الذى وقع عليه (٣) :

---

(١) شعره / طبع المكتب الاسلامي بدمشق ط (١) ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م ص : ٦٩ .

(٢) الجانب الخلقي فى الشعر الجاهلي : ٢٠٨ - ٣٦٠ .

(٣) ديوانه / تحقيق لطفى الصقال ودرية الخطيب ، مجمع اللغة العربية - دمشق ١٩٧٥م ص : ١٠٧ - ١٠٨ .

مَـا تَنْظُـرُونَ بِحَـقِّ وَرْدَةَ فِيكُـمُ ... صَغُـرَ البَنُـونُ وَرَهْـطُ وَرْدَةَ غُيَّـبُ
قَـدْ يَبْعَثُ الأَمْـرَ العَظِيـمَ صَغِيرُهُ ... حَتَّـى تَظَلَّ لَـهُ الدِّمَـاءُ تَصَبَّـبُ
وَالظُّلْـمُ فَـرَّقَ بَيْنَ حَيَّـىْ وَائِـلٍ ... بَكْرٌ تُسَاقِيهَـا المَنَايَـا تَغْلِـبُ
قَـدْ يُـورِدُ الظُّلْـمُ المُبَيِّنُ آجِنـًـا ... مِلْحًـا ، يُخَالَـطُ بِـالذُّعَافِ ، وَيُقْشَـبُ
أَدُّوا الحُقُـوقَ تَفِـرْ لَكُـمْ أَعْرَاضُكُـمْ ... إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا يُحَـرَّبُ يَغْضَـبُ

ولم يقف ظلم أقاربه له على اقتسام مال أبيه وحرمانه منه بل نجد ابن عمه الذى كان يؤمل فيه الخير يتجافى عنه ويبعد كلما حاول أن يدنو منه وكأن مالكا هذا يتهرب وقت الحاجة اليه فيقول (١) :

فَمَالِـى أَرَانِـى وَابْـنَ عَمِّى مَالِكـًـا ... مَتَى أَدْنُ مِنْـهُ يَنْـأَى عَنِّى وَيُبْعُـدِ
يَلُـومُ وَمَا أَدْرِى عَلَامَ يَلُومُنِـى ... كَمَـا لَامَنِـى فِى الحَىِّ قُرطُ بنُ أَعْبُـدِ (٢)
وَأَيْأَسَنِـى مِـنْ كُـلِّ خَيْـرٍ طَلَبْتُـهُ ... كَأَنَّـا وَضَعْنَـاهُ عَلَـى رِمْـسِ مُلحَـدِ (٣)
عَلَى غَيْـرِ شَـيءٍ قُلْتُـهُ غَيْـرَ أَنَّنِـى ... نَشَـدْتُ فَلَـمْ أُغْفِـلْ حَمُولَـةَ مَعْبَـدِ
وَظُلْـمُ ذَوِى القُرْبَـى أَشَدُّ مَضَاضَـةً ... عَلَـى النَّفْسِ مِنْ وَقْعِ الحُسَام المُهَنَّـدِ

وقد تحول هذا الظلم الى ماهو أكبر وأشمل عندما تخاذل عنه أصحابه ساعة

---

(١) ديوانه : ٣٧ .
(٢) قُرْطُ بنُ أَعْبُدِ : رجل منهم ، وقوله : عَلَامَ يَلُومُنِى ، معناه على أى شيء يلومنى.
(٣) الرَّمْسُ : القبر ،واللَّحْدُ : مايشق فى جانب القبر .
(٤) مَعْبَد : هو أخو طرفة .

الشدة ، ولم يتحركوا لنجدته بل أسلموه للأعداء مما سبب له ألما وحسرة وخيبة أمل في كل من حوله (١) :

أَسْلَمَنِي قَوْمِي وَلَمْ يَغْضَبُوا ... لِسَوْءَةٍ حَلَّتْ بِهِمْ فَادِحَهْ
كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ خَالَلْتُهُ ... لَاتَرَكَ اللَّهُ لَهُ وَاضِحَهْ
كُلُّهُمْ أَرْوَغُ مِنْ ثَعْلَبٍ ... مَاأَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَهْ

ولقد ضج بعض الشعراء الجاهليين من ظلم أقاربهم لهم فتظلموا مرة ، وعاتبوا أخرى ، وهددوا ثالثة ، وتسامحوا في المرة الرابعة . لأن هذا القريب المشكو منه قد يكون أخا ، أو ابن عم ، أو زوجا ، أو ابنا ، أو قوما ، أو غير ذلك كما هو الشأن عند طرفه ، وكما حدث كذلك للحارث بن وعلة الذهلي(٢) ، الذى يشكو من عدوان قومه ، وظلمهم ، وتحاملهم عليه ، وهي شكوى تفيض بالألم ، والحزن العميق ، وقد اشتهر بهذه القصيدة التى تبين أن قومه يسيئون اليه ، ولكنه لايرد عليهم لأنهم أولو رحمه يصيبه مايصيبهم ، ويوهنه مايوهنهم ، فان رماهم ونكل بهم كان كالذى يظلم نفسه ويجدع أنفه ، فكان خيرا له أن يعفو ويتسامح أمام قوم قتلوا أخاه وفجعوه به ، ومع هذا فانه يتحمل ويصبر لأنه يدرك أن مسالمة الأقارب وتحمل هفواتهم خير من حربهم ، ومعاداتهم مهما بدر منهم من هنات وهفوات :

---

(١) ديوانه : ١١٨ .

(٢) هو الحارث بن وعلة بن المجالد بن الزمان بن مالك بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة من الشعراء المشهورين في الجاهلية ، وقد اشتهر بهذه القصيدة .
معجم الشعراء : ١٩٧ .

قَوْمِي هُمُ قَتَلُوا أُمَيْمَ أَخِي   فَإِذَا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي (١)

فَلَئِنْ عَفَوْتُ لَأَعْفُوَنْ جَلَلاً   وَلَئِنْ سَطُوتُ لَأَوْهِنَنْ عَظْمِي

لَا تَأْمَنَنْ قَوْمًا ظَلَمْتَهُمُ   وَبَدَأْتَهُمْ بِالشَّتْمِ وَالرَّغْمِ

أَنْ يَأْبُرُوا نَخْلاً لِغَيْرِهِمُ   وَالقَوْلُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْمِي

وَزَعَمْتُمُ أَنْ لَا حُلُومَ لَنَا   إِنَّ الْعَصَا قُرِعَتْ لِذِي الْحِلْمِ

وَوَطِئْتَنَا وَطْئًا عَلَى حَنَقٍ   وَطْءَ الْمُقَيَّدِ نَابِتَ الهَرْمِ (٢)

وَتَرَكْتَنَا لَحْمًا عَلَى وَضَمٍ   لَوْ كُنْتَ تَسْتَبْقِي مِنَ اللَّحْمِ (٣)

وهو يذكرنا بشكوى الحارث بن حلزة اليشكرى البكرى من اخوانه وأبناء عمومته الأراقم الذين يضمرون له ولرهطه أشد العداء مع أنهم اخوة لكنهم فى وقت الغضب لايفرقون بين المذنب والبرىء فقد أجمعوا أمرهم بليل للحرب فصور هذا الموقف بهذه الأبيات الشاكية يقول :

وَأَتَانَا عَنِ الْأَرَاقِمِ أَنْبَا   ءٌ وَخَطْبٌ نُعْنَى بِهِ وَنُسَاءُ (٤)

إِنَّ إِخْوَانَنَا الْأَرَاقِمَ يَغْلُو   نَ عَلَيْنَا فِي قِيلِهِمْ إِحْفَاءُ

يَخْلِطُونَ البَرِيءَ مِنَّا بِذِي الذَّنْبِ   وَلَا يَنْفَعُ الخَلِيَّ الخَلَاءُ

زَعَمُوا أَنَّ كُلَّ مَنْ ضَرَبَ العِيرَ   مَوَالٍ لَنَا وَأَنَّا الوَلَاءُ

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ بِلَيْلٍ فَلَمَّا   أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ

---

(١) حماسة أبى تمام/ تحقيق العسيلان : ١١٨/١ - ١١٩ .

(٢) الْهَرْمُ بالتسكين : ضرب من الحمض فيه ملوحة وهو أذله وأشده انبساطا على الأرض واحدته هرمة .

(٣) الوَضَمُ : كل شىء يوضع عليه اللحم من خشب أو بارية يوقى به من الأرض .وجمعه أوضام .

اللسان (هرم - وضم) .

(٤) ديوانه : ١٠ .

أما معن بن أوس المزني فانه يشكو من ظلم قريبه الذى تمادى فى شتمه وجافاه وتمنى له الحرمان والعدم وانقلاب الزمان ، بينما يقف الشاعر موقفا عاقلا فيه حلم وأناة وصبر على الأذى ولا يرد على الشتيمة بمثلها ، اذ لايريد لخصمه الذلة والهوان ، بل يحاول جاهدا أن يصل ما انقطع بينهما وأن يرأب ماتصدع ، وتتجلى فى هذه الشكوى مقدرة الشاعر على التحمل فى سبيل اصلاح الأمور ، والمحافظة على صلة الرحم ، فقد تناول هذا المعنى تناولا لطيفا قائلا (١) :

وَذِى رَحِمٍ قَلَّمْتُ أَظْفَارَ ضِغْنِهِ ... بِحِلْمِى عَنْهُ وَهْوَ لَيْسَ لَهُ حِلْمُ
صَبَرْتُ عَلَى مَاكَانَ بَيْنِى وَبَيْنَهُ ... وَمَا تَشْتَوِى حَرْبُ الأَقَارِبُ وَالسِّلْمُ
يُحَاوِلُ رَغْمِى لَايُحَاوِلُ غَيْرَهُ ... وَكَالمَوتِ عِنْدِى أَنْ يَحُلَّ بِهِ الرَّغْمُ
وَيَشْتُمُ عِرْضِى فِى المُغَيَّبِ جَاهِدًا ... وَلَيْسَ لَهُ عِنْدِى هَوَانٌ وَلَا شَتْمُ
إِذَا سُمْتُهُ وَصْلَ القَرَابَةِ سَامَنِى ... قَطِيعَتَهَا تِلْكَ السَّفَاهَةُ وَالإِثْمُ
وَإِنْ أَدْعُهُ لِلنَّصْفِ يَأْبَ وَيَعْصِنِى ... وَيَدْعُو لِحُكْمٍ جَائِرٍ غَيْرُهُ الحُكْمُ
وَيَسْعَى إِذَا أَبْنِى لِيَهْدِمَ صَالِحِى ... وَلَيْسَ الَّذِى يَبْنِى كَمَنْ هَمُّهُ الهَدْمُ
يَوَدُّ لَو أَنِّى مُعْدِمٌ ذُو خَصَاصَةٍ ... وَأَكْرَهُ جُهْدِى أَنْ يُخَالِطَهُ العُدْمُ
وَيَعْتَدُّ غُنْمًا فِى الحَوَادِثِ نَكْبَتِى ... وَمَا إِنْ لَهُ فِيهَا سَنَاءٌ وَلَا غُنْمُ

ومثل هذا ماحدث للمتلمس الضبعي ، فقد شكا من ظلم أخواله وانتقاصهم له لكنه مع هذا يتحمل ويصبر (٢) :

---

(١) أمالى القالي : ١٠٢/٢ .

(٢) ديوانه : ص ٢٩ - ٣٣ .

وَلَــو غَيْــر أَخْوالِــى أَرادُوا نَقِيصَتِــى جَعَلْــتُ لَهُــمْ فَــوقَ الْعَرَانِينَ مَيْسَمَـــا
وَمَا كُنْتُ إِلاَّ مِثْــلَ قَاطِــعِ كَفِّـــهِ بِكَــفٍّ لَهُ أُخْرَى فَأَصْبَــحَ أَجْذَمَـــا
فَلَمَّـــا اسْتَقَــادَ الكَفَّ بِالْكَفِّ لَمْ يَجِــدْ لَــهُ دَرَكًــا فِــى أَنْ تَبِينَــا فَأَحْجَمَـــا
يَــدَاهُ أَصَابَــتْ هَــذِهِ حَتْــفَ هَــذِهِ فَلَــمْ تَجِــدِ الأُخْرَى عَلَيْهَا مُقَدَّمَـــا

لقد فشا الظلم فى المجتمع الجاهلي ، وامتد الى الاطفال الأبرياء الذين يولدون على الفطرة ، فكان وأد البنات ، وقتل الاولاد سبة فى جبين التاريخ الذى يغطى هذه الفترة وظلما مابعده ظلم ، اذ لم يكن للموءودة ذنب يستوجب قتلها فى مهدها ، وانما كان هذا السلوك الشاذ لأسباب لاتقرها شريعة ولا يستسيغها عقل ، كالغيرة المفرطة على المرأة ، ومخافة العار اذا سبيت أو أن يكون فيها عيب خلقى كالقبح ونحوه من الصفات العارضة التى لادخل لها فيها[1]، وكانت خشية الفقر من أهم العوامل التى ساقتهم الى هذه الجناية البشعة ، وقد ترتب على هذا السلوك المنحرف كراهيتهم للبنات المولودات حتى أن منهم من كان يهجر زوجته اذا أنجبت له بنتا . كما حدث لامرأة أبى حمزة الضبي حينما هجرها زوجها لمولودتها فقالت تشكو[2] :

مَالِأَبِــى حَمْــــزَةَ لَا يَأْتِينَـــا يَظَــلُّ فِــى الْبَيْــتِ الَّذِى يَلِيْنَـــا
غَضْبَــانَ أَلاَّ نَلِــدَ الْبَنِيْنَـــا تَاللَّـــهِ مَا ذَلِكَ فِــى أَيْدِيْنَـــا

(١) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب / للألوسى ـ عنى بشرحه محمد بهجة الأثرى مطبعة الرحمانية بمصر ط (٢) ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤م : ٤٢/٣ ـ ٤٣ .

(٢) البيان والتبيين / تحقيق عبد السلام هارون ـ مكتبة الخانجى القاهرة ط (٥) ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م : ١٨٦/١ .

وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا   وَنَحْنُ كَالأَرْضِ لِزَارِعِينَا
نُنْبِتُ مَاقَدْ زَرَعُوهُ فِينَا

ورغم هذا فان وأد البنات لم يكن عاما فى المجتمع الجاهلي كما قلنا من قبل فقد كان يقدم عليه قلة من الناس نزعت من قلوبهم الرحمة ، وبالغوا كثيرا فى المحافظة على العرض ، ولكنه لا ينبغى أن تصل هذه المحافظة الى قتل المولودة فى مهدها .

ومقابل هذا وجدنا ظاهرة العقوق لدى بعض الأبناء لآبائهم ، وأمهاتهم فى العصر الجاهلي . ولعل هذا من نتاج قسوة الحياة الجاهلية فقد نزعت الرحمة من قلوب بعض الأبناء ، وخبت عواطفهم نحو آبائهم وأمهاتهم ، بعد أن تقدمت بهؤلاء الآباء السن ، وأتت عليهم السنون .

ولاشك أن العقوق من المآسي الخلقية التى يندى لها الجبين لأنه مظهر اجتماعى سيء يتجاهل من خلاله الأبناء أيادى آبائهم عليهم التى لاتحصى عددا . وهو أقسى ماينكب به الآباء فى حياتهم حينما ينكر الأبناء ماقدموه لهم فى مراحل أعمارهم الأولى حتى استوى عودهم وقوي ، ومن هنا فان مسألة العقوق بقدر ماهى مؤلمة للآباء ، فانها أشد ماتكون عندما يصبح هؤلاء الآباء شيوخا أضنتهم رحلة الحياة فيكون العقوق حينئذ سهاما مصوبة الى قلوبهم المكلومة .

وقد وجدنا فى الشعر الجاهلى مايصور مشاعر الشعراء الشيوخ نحو أبنائهم

العققة • ومن هؤلاء الشعراء أمية بن أبى الصلت حيث يشكو من عقوق ابنه له (١) :

غَذَوْتُكَ مَوْلُودًا وَعُلْتُكَ يَافِعًا ... تُعَلُّ بِمَا أُدْنِى عَلَيْكَ وَتَنْهَلُ (٢)

إِذَا لَيْلَةٌ نَابَتْكَ بِالشَّكْوِ لَمْ أَبِتْ ... لِشَكْوَاكَ إِلاَّ سَاهِرًا أَتَمَلْمَلُ (٣)

كَأَنِّى أَنَا المَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِى ... طُرِقْتَ بِهِ دُونِى وَعَيْنِىَ تَهْمِلُ

تَخَافُ الرَّدَى نَفْسِى عَلَيكَ وَإِنَّهَا ... لَتَعْلَمُ أَنَّ المَوْتَ حَتْمٌ مُؤَجَّلُ (٤)

فَلَمَّا بَلَغْتَ السِّنَّ وَالْغَايَةَ الَّتِى ... إِلَيْهَا مَدَى مَاكُنْتُ فِيكَ أُؤَمِّلُ

جَعَلْتَ جَزَائِى مِنْكَ جَبْهًا وَغِلْظَةً ... كَأَنَّكَ أَنْتَ المُنْعِمُ المُتَفَضِّلُ

فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَرْعَ حَقَّ أُبُوَّتِى ... فَعَلْتَ كَمَا الجَارُ المُجَاوِرُ يَفْعَلُ

زَعَمْتَ بِأَنِّى قَدْ كَبِرْتُ وَعِبْتَنِى ... وَلَمْ يَمْضِ لِى فِى السِّنِّ سِتُّونَ كُمَّلُ

وقد شكا فرعان بن الأعرف(٥) من عقوق ابنه منازل الذى لم يرع شيبه فخاطبه فى انكسار شديد مصورا ضعفه ومتوسلا الى الله أن يقتص له منه فى أسلوب مؤثر نجد فيه حرارة العاطفة وتدفقها ، فهى صادرة عن معاناة شديدة يعيشها هذا

---

(١) ديوانه : ٤٣٠ •
وقد ذكر أبو عبيدة فى كتاب العققة والبررة بعض هذه الأبيات فنسبها ليحي ابن سعيد أبى عمران الأعمى ، مولى آل طلحة بن عبيد الله مع اختلاف بعض الأبيات وهى ضمن قصيدة طويلة تتكون من (٣٤) بيتا •
نوادر المخطوطات / تحقيق عبد السلام هارون ـ طبعة الحلبى ط (٢) ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣م : ٣٥٣/٢ •

(٢) اليَافِعُ : الشاب ، تَعَلُّ : من العلل وهو الشربة الثانية ، والنَّهَلُ : أول الشرب •

(٣) نَابَتْكَ : أصابتك ، وتَمَلْمَلَ الرَّجُلُ : أى تقلب ان كان نائما فعلى فراشه وان كان جالسا فهو يتوكأ مرة على هذا الشق ومرة على ذاك ، ومرة يجثو على ركبته •

(٤) الحَتْمُ : القضاء ، والمُؤَجَّلُ : الذى حدد أجله •

(٥) شاعر مخضرم وكان قد عقه ولده منازل فى الجاهلية فدعا عليه فقبلت دعوته • حماسة أبى تمام : ١٦٥/٢ •

الأب يقـول(١) :

جَـزَتْ رَحِـمٌ بَيْنِـى وَبَيْـنَ مُنَـازِلٍ ... جَـزَاءً كَمَـا يَسْتَنْـزِلُ الدَّيْنَ طَالِبُـهْ
لَرَبَّيْتُـهُ حَتَّـى إِذَا آضَ شَيْظَمًـا ... يَكَادُ يُسَاوِى غَـارِبَ الفَحْلِ غَارِبُـهْ
فَلَمَّـا رَآنِـى أُبْصِرُ الشَّخْصَ أَشْخُصًـا ... قَرِيبًـا وَذَا الشَّخْصِ الْبَعِيدِ أُقَارِبُـهْ
تَغَمَّدَ حَقِّـى ظَالِمًـا وَلَـوى يَـدِى ... لَـوَى يَـدَهُ اللَّـهُ الَّـذِى هُوَ غَالِبُـهْ
وَكَـانَ لَـهُ عِنْدِى إِذَا جَاعَ أَوْ بَكَـى ... عَلَـى الـزَّادِ أَحْلَـى زَادِنَا وَأَطَايِبُـهْ
وَرَبَّيْتُـهُ حَتَّـى إِذَا مَا تَرَكْتُـهُ ... أَخَـا القَـومِ وَاسْتَغْنَـى عَنِ المَسْحِ شَارِبُـهْ
أَأَنْ أَرْعَشَتْ كَفَّا أَبِيـكَ وَأَصْبَحَـتْ ... يَدَاكَ يَدِى لَيْثٍ فَإِنَّـكَ ضَارِبُـهْ
وَجَمَّعْتَهَـا دُهْمًـا جِـلَادًا كَأَنَّهَـا ... أَشَـاءُ نَخِيـلٍ لَـمْ تُقَطَّـعْ جَوَانِبُـهْ
فَأَخْرَجْتَنِـى مِنْهَـا سَلِيبًـا كَأَنَّنِـى ... حُسَـامٌ يَمَـانٍ فَارَقَتْـهُ مَضَارِبُـهْ

وهذه امرأة من بني هزان يقال لها أم ثواب ، تشكو من عقوق ابنها وانشغاله عنها بزوجته ، وظلمه لها بهذا العقوق على كبر سنها فتقول(٢) :

رَبَّيْتُـهُ وَهْـوَ مِثْـلُ الفَـرْخِ أَعْظَمُـهُ ... أُمُّ الطَّعَـامِ تَـرَى فِي جِلْـدِهِ زَغَبَـا(٣)
حَتَّـى إِذَا آضَ كَالْفُحَّـالِ شَذَّبَـهُ ... أَبَّـارُهُ وَنَفَى عَنْ مَتْنِـهِ الكَرَبَـا(٤)

---

(١) المصدر نفسه : ٢/١٦٥ - ١٦٦ .
(٢) الكامل / لأبى العباس المبرد ، تحقيق محمد أحمد الدالى .
مؤسسة الرسالة - الطبعة الاولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م : ٣١٢/١ .
نوادر المخطوطات : ٣٦٣/٢ - ٣٦٤ .
حماسة أبى تمام : ٣٦٥/١ .
(٣) أَعْظَمُهُ أُمُّ الطَّعَامِ : تريد أعظم شيء فيه معدته .
(٤) الفُحَّالُ : فحل النخل ، والأَبَّارُ : الملقح للنخل ، والفحال لا يؤبر ولكن لما كان يؤبر به النخل أضاف الابار الى ضميره على عادتهم فى اضافة الشيء الى غيره .

أَنْشَا يُمَزِّقُ أَثْوَابِي يُؤَدِّبُنِي ... أَبَعْدَ شَيْبِيَ عِندِي تَبتَغِي الأَدَبَا
إِنِّي لأَبْصِرُ فِي تَرْجِيلِ لِمَّتِهِ ... وَخَطِّ لِحْيَتِهِ فِي وَجْهِهِ عَجَبَا (١)
قَالَتْ لَهُ عِرْسُهُ يَومًا لِتُسْمِعَنِي ... مَهْلاً فَإِنَّ لَنَا فِي أُمِّنَا أَرَبَا
وَلَوْ رَأَتْنِي فِي نَارٍ مُسَعَّرَةٍ ... مِن الجَحِيمِ لَزَادَتْ فَوقَهَا حَطَبَا

وما أعدل الاسلام فقد أكد على طاعة الوالدين وعطف حقهما فى الطاعة على حق الله سبحانه وتعالى فى العبادة فقال تعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ، وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ (٢) .

ويبدو أن هناك قلة من الشعراء السود فى العصر الجاهلي قد تعرضوا لنوع من الظلم والاضطهاد وسوء المعاملة ، وفى نظرنا أن موقف المجتمع تجاه من اتصفوا بالسواد فى ذلك العصر لم يصل الى ما رآه الدكتور عبده بدوى عندما قال : (نستطيع القول بأن الاحساس باللون كان حادا عند الشعراء السود قبل الاسلام ذلك أنهم كانوا طبقة مهانة ، ومطحونة ولأنهم كانوا يذادون بالعنف مرة وباللين مرة أخرى عن أن يكونوا داخل نسيج المجتمع الحي • وهكذا عاشوا على هامش المجتمع طبقة فقيرة مهانة ومدموغة فى الوقت نفسه بالسواد)(٣) .

---

(١) الترجيل : غسل الشعر ومشطه •
(٢) سورة لقمان الآيات : ١٤ - ١٥ •
(٣) الشعراء السود وخصائصهم فى الشعر العربى / الدكتور عبده بدوى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨م ص : ٢٨١ - ٢٨٢ •

والذى نراه أن احساسهم باللون وضيقهم به قد يكون واضحا عند بعضهم ، لكن معاملة المجتمع لهم لم تكن فى كثير من الأحيان بهذه الصورة المعتمة التى رآها الباحث • ذلك أن العرب يعلمون أن منهم الأبيض والأسود ومع ذلك فقد عاشوا جميعا تحت مظلة القبيلة وفى حمايتها كأسرة واحدة •(١)

وأكبر الظن أن نفور العرب من سواد اللون كان مرتبطا فى أذهانهم بعدم صحة النسب ، وهذا شيء عميق فى نفوسهم ، وليس اللون وحده ، خاصة اذا علمنا أن أغلب الشعراء السود الذين وجدناهم يشكون قد تسرب اليهم هذا اللون عن طريق أمهاتهم الاماء ، ولم يعترف بهم آباؤهم العرب ، فكان هذا مغمزا فى نسبهم ، ومن هنا جاءت معاملة المجتمع السيئة لهم فى بعض الأحيان اضافة الى أن هؤلاء الشعراء السود الذين وجدناهم يشكون لايمثلون كل السود فى العصر الجاهلي فلا يقوم ضجرهم وشكواهم دليلا على أن جميع من اتصفوا بالسواد فى العصر الجاهلي قد تعرضوا للظلم والمعاملة السيئة •

على أن الذى يعنينا هنا هو الجانب الشاكي فى أشعارهم باعتبارهم قد ضاقوا بألوانهم تلك حيث حرموا من بعض الأشياء فى المجتمع ، ولعلنا نتلمس هذه الأمور التى حرموا منها خلال أشعارهم الشاكية لنتبين الى أى حد وقع عليهم الظلم الذى حرمهم من بعض الحقوق •

---

(١) مهما حدث للشعراء السود فى العصر الجاهلي فانه لم يصل الى مايحدث الآن وفى القرن العشرين من اضطهاد وقتل للسود فى افريقيا وغيرها حيث ظهرت التفرقة العنصرية بأقوى مايمكن لهؤلاء السود الذين يلاقون الاهانة بجميع أشكالها وهذا لم يحدث فى المجتمع العربي الجاهلي •

لقد ضاق عنترة العبسي من ظلم قومه له فأخذ يشكو ويتضجر من هذا الوضع الاجتماعى فى قوله (١) :

أُذَكِّرُ قَومِي ظُلْمَهُمْ لِي وَبَغْيَهُمْ ... وَقِلَّةَ إِنْصَافِي عَلَى القُرْبِ وَالبُعْدِ
بَنَيْتُ لَهُمْ بِالسَّيْفِ مَجْدًا مُشَيَّدًا ... فَلَمَّا تَنَاهَى مَجْدُهُمْ هَدَمُوا مَجْدِي
يَعِيبُونَ لَونِي بِالسَّوَادِ وَإِنَّمَا ... فِعَالُهُمْ بِالخُبْثِ أَسْوَدُ مِنْ جِلْدِي

فلولا أنه ذكر فى هذه الشكوى مايدل على لونه الأسود لقلنا أن مثل ذلك يمكن أن يصدر عن أى شاعر من السود أو غيرهم ·

ومما يؤكد ما قلنا من أن قصور نسبهم جاء عن طريق أمهاتهم شكوى عنترة نفسه من ذلك عندما قال (٢) :

وَتُوعِدُنِي الأَيَّامُ وَعْدًا تَغُرُّنِي ... وَأَعْلَمُ حَقًّا أَنَّهُ وَعْدُ كَاذِبِ
خَدَمْتُ أُنَاسًا وَاتَّخَذْتُ أَقَارِبًا ... لِعَوْنِي وَلَكِنْ أَصْبَحُوا كَالعَقَارِبِ
يُنَادُونَنِي فِي السِّلْمِ يَا ابْنَ زَبِيبَةٍ ... وَعِنْدَ صِدَامِ الخَيْلِ يَا ابْنَ الأَطَايِبِ

وهذا الشاعر الشجاع ربما كانت شكواه نابعة من شعوره الحاد بأنه لم يحظ بمكانته الاجتماعية المرموقة بين قومه مع أنه فارسهم الأول ، فكان يريد أن تتناسب مكانته الاجتماعية مع شجاعته والدفاع عن قبيلته ، ومن هنا شك فى ود الناس يقول (٣) :

---

(١) ديوانه : ١٦٠ ·
(٢) ديوانه : ١١٣ ·
(٣) ديوانه : ١٥٥ ·

لِأَيِّ حَبِيبٍ يَحْسُنِ الرَّأْيُ وَالْوُدُّ ... وَأَكْثَرُ هذا النَّاسِ لَيْسَ لَهُمْ عَهْدُ

أُرِيدُ مِنَ الأَيَّامِ مَالاَ يضيرُهَا ... فَهَلْ دَافِعٌ عَنِّى نَوَائِبَهَا الجَهْدُ

وَمَا هذِهِ الدُّنْيَا لَنَا بِمَطِيَّةٍ ... وَلَيسَ لخلْقٍ مِنْ مُدَارَاتِهَا بُدُّ

وَكُلُّ قَرِيبٍ لِى بعيدُ مَوَدَّةٍ ... وَكُلُّ صَدِيقٍ بَيْنَ أَضْلُعِهِ حِقْدُ

واذا كانت الشكوى عند عنترة تشكل سلوك البطل العفيف الذى حرم من تقدير المجتمع له فشك فى ود الناس من حوله ، مع أن لديه من القيم الأخلاقية مايجعله ينأى بنفسه عن مواطن الريبة ، فان شكوى سحيم عبد بني الحسحاس تبدو متهالكة الى حد كبير ، بل ان سبب شكواه لا يزقى الى أن نعده مظهرا من مظاهر ظلم المجتمع له، فقد كبرت عليه نظرة نساء الحي له عندما وسموه بالعبودية ، وهزئن منه فى انشاده الشعر ، واعراضهن عنه لسواده يقول (١) :

أَشَارَتْ بِمِدْرَاهَا وَقَالَتْ لِتِرْبِهَا (٢) ... أَعَبْدُ بَنِى الحَسْحَاسِ يُزْجِى القَوَافِيَا

رَأَتْ قَتَبًا رَثًّا وَسَحْقَ عَبَاءَةٍ ... وَأَسْوَدَ مِمَّا يَمْلِكُ النَّاسُ عَارِيَا

يُرَجِّلْنَ أَقْوَامًا وَيَتْرُكْنَ لِمَّتِى ... وَذَاكَ هَوَانٌ ظَاهِرٌ قَدْ بَدَا لِيَا

فَلَوْ كُنْتُ وَرْدًا لَوْنُهُ لَعَشِقْنَنِى ... وَلَكِنَّ رَبِّى شَانَنِى بِسَوَادِيَا

فَمَا ضَرَّنِى أَنْ كَانَت أُمِّى وَلِيدَةً ... تَصُرُّ وَتَبْرِى بِاللِّقَاحِ التَّوَالِيَا

---

(١) ديوان سحيم عبد بنى الحسحاس / تحقيق عبد العزيز الميمني نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠م ص : ٢٥ .

(٢) المِدْرَى : الذى تدرى به شعرها .

فهل ينهض مثل هذه الشكوى دليلا على ظلم المجتمع الجاهلي للسود حيث تدور حول موقف النساء منه ، فهن يحتقرنه لتعرضه لهن ، والمرأة العربية بطبعها ذات شرف لايمكن أن تخدشه ، فهى ترفض أن يتعرض لها أشراف قومها ، أو أن ينالوا منها فضلا عن عبد أسود يقصر به نسبه عن نسبهن ، يقول (١) :

أَتَيْتُ نِسَاءَ الحَارِثِيِّيْنَ غُدْوَةً بِوَجْهٍ بَرَاهُ اللَّهُ غَيْرَ جَمِيلِ
فَشَبَّهْنَنِى كَلْبًا وَلَسْتُ بِفَوقِهِ وَلاَ دُونِهِ إِنْ كَانَ غَيرَ قَلِيلِ

نعم قد يتعرض بعض هؤلاء الشعراء السود للضرب والاهانة من سيدة عندما يكون رقيقا ، إذ أن الاسود الرقيق يختلف عن الآخر الحر الطليق ، ونجد من هؤلاء الشعراء السود الرقيق الذين تعرضوا للضرب والاهانة من أسيادهم " فلحس " حيث يقول (٢) :

وَلَوْلاَ عُرَيْقٌ فِيَّ مِنْ حَبَشِيَّةٍ يَرُدُّ إِبَاقِى بَعْدَ حَوْلٍ مُجَرَّمِ
وَبَعْدَ السُّرَى فِى كُلِّ طَخْيَاءِ حِنْدِسٍ وَبَعْدَ طُلُوعِى مَخْرِمًا بَعْدَ مَخْرَمِ (٣)
عَلِمْتَ بِأَنِّى خَيْرُ عَبْدٍ لِنَفْسِهِ وَأَنَّكَ عِنْدِى مَغْنَمٌ أَىَّ مَغْنَمِ
أَيَضْرِبُنِى فَرْدًا وَلَوْ كَانَ مُفْرَدًا تَبَيَّنَ أَنَّ اللَّيْثَ غَيْرُ مُقَلَّمِ

---

(١) ديوانه : ٦٩ .

(٢) الحماسة البصرية / تحقيق الدكتور عادل جمال سليمان ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية . مصر ١٩٧٨م : ١٨٩/١ ، ولم أعثر لهذا الشاعر على ترجمة .

(٣) الطَّخْيَاءُ : الليلة المظلمة ، والحِنْدِس : المظلم .

وتختلف أسباب الظلم فى العصر الجاهلي من شخص لآخر ، فإذا كان الصعاليك مثلا قد اشتكوا من الفقر والجوع ، فإنهم كذلك قد تعرضوا لنوع من الظلم فى مجتمعهم ، ونحن نوافق الدكتور يوسف خليف فى قوله : (والمتأمل فى أخبار الصعاليك ، وأشعارهم يلفت نظره شعور حاد بالفقر وإحساس مرير بوقعه على نفوسهم وشكوى صارخة من هوان منزلتهم الاجتماعية ، وعدم تقدير المجتمع لهم ، وعجزهم عن الأخذ بنصيبهم فى الحياة كما يأخذ سائر أفراد المجتمع ، أو الوقوف معهم على قدم المساواة فى معترك الحياة . لا لأنهم أنفسهم عاجزون ، وإنما لأن مجتمعهم ظلمهم ، وحرمهم من تلك العدالة الاجتماعية التى يطمع إليها كل فرد فى مجتمعه وجردهم من كل الوسائل المشروعة التى يواجهون بها الحياة كما يواجهها غيرهم ممن توافرت لهم هذه الوسائل[1]) .

لكننا نضيف هنا أن الصعاليك ربما كانوا السبب المباشر وراء هذه المعاملة السيئة ، بخروجهم على المجتمع وحربه ، والعبث بأعرافه ونظمه فجروا على أنفسهم هذا الظلم ، وقد كان بامكانهم أن يتعاملوا مع مجتمعهم بأفضل مايكون التعامل،فيفرضوا على الناس حينئذ احترامهم ، فليسوا وحدهم الفقراء فى المجتمع ، ولكنهم ألفوا هذا السلوك المنحرف من السلب والاغارة، وقطع الطريق ، فشكلوا جماعات من الشذاذ اتحدت فى الهدف والغاية . وهو مايتكرر فى كل زمان ومكان . وعندئذ أصبح على المجتمع واجبا فى مقاومتهم ، وحربهم حيث رأى فيهم خروجا على تقاليده وعاداته ،وابتزازا للأموال وهتكا للأعراض .

---

(١) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلي : ٣٢ - ٣٣ .

ولاشك أن فى موقف المجتمع هذا من الظلم مافيه،فلم يحاول اصلاحهم بدلا من حربهم ، وانتقاصهم فى شتى المجالات ٠

فعروة بن الورد مثلا من أجواد العرب ٠ لكن قومه عيروه وسفهوه ظلما وبهتانا حيث عيروه بأمه التى لم تكن من عبس ، كما عيروه بفقره ، وعيروه بغناه ٠ وهكذا متى مايشا رهط امرىء يتعير (١) :

هُمْ عَيَّرونِى أَنَّ أُمِّى غَرِيبَةٌ وَهَلْ فِى كَرِيمٍ مَاجِدٌ مَايُعَيَّرُ
وَقَدْ عَيَّرونِى المَالَ حِينَ جَمَعْتُهُ وَقَدْ عَيَّرونِى الفَقْرَ إِذْ أَنَا مُقْتِرُ
وَعَيَّرنِى قَومِى شَبَابِى وَلِمَّتِى مَتَى مَايَشَا رَهْطُ امْرِئٍ يَتَعَيَّرُ

وتحدثنا بعض مصادر الأدب عما وصل إليه هؤلاء الصعاليك فى مجتمعهم نتيجة ثورتهم عليه حيث ضعفت مكانتهم الاجتماعية ، وتنكر لهم المجتمع فأصبح وجودهم فيه لا قيمة له(٢) حتى وصل الأمر ببعضهم أن يستبدل بقومه حيوانات الصحراء هربا من ظلمهم وجورهم يقول الشنفرى(٣) :

أَقِيمُوا بَنِى أُمِّى صُدُورَ مَطِيِّكُمْ فَإِنِّى إِلَى قَومٍ سِوَاكُمْ لَأَمْيَلُ

---

(١) ديوان عروة بن الورد / تحقيق عبد المعين الملوحي ، وزارة الثقافة والارشاد القومى ، دمشق : ٧٨ - ٧٩ ٠

(٢) الأغانى : ٨/١٣ (بولاق) ٠
شرح المفضليات / لابن الأنبارى : ١٩٧ - ١٩٨ ٠

(٣) مختارات شعراء العرب / لابن الشجرى ، تحقيق على محمد البجاوى دارالنهضة مصر ١٩٧٥م : ٧٢ ٠

وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سِيدٌ عَمَلَّسٌ ... وَأَرْقَطُ زَهْلُولٌ وَعَرْفَاءُ جَيْأَلُ (١)
هُمُ الأَهْلُ لَا مُسْتَودَعُ السِّرِ ذَائِعٌ ... لَدَيهِمْ وَلَا الجَانِي بِمَا جَرَّ يُخْذَلُ

وهكذا تتعدد مظاهر الظلم فى العصر الجاهلي تبعا لتعدد مصادره ، وأسبابه ، وما جبل عليه عرب الجاهلية من القسوة حتى عدوا الظلم من مفاخرهم كما رأينا ، ومن أجل هذا جاءت صيحات الشكوى من الظلم الصادر أحيانا من القريب أو المجتمع كتأصل بعض العادات الممقوتة فيه من وأد البنات ، وقتل الأولاد ، لأسباب لايقرها عقل ولا دين ، وقد يكون المظلوم أبا أو أمًّا عقهم أبناؤهم كما مر معنا فى الأمثلة المتقدمة التى تعبر عن مدى التمزق العائلي والقبلى فى المجتمع الجاهلي فى بعض الأحيان .

ولقد تجلت فى شعر الشكوى من الظلم العاطفة المتأججة المتألمة ، والشعور الحزين الذى يفصح عنه الشاعر فى شكواه حين يرى نفسه مظلوما من قريب له أو مجتمعه بعمومه ، أو نديمه ، أو حليفه ، كذلك الشعور بالانتقام كما هو الحال عند الصعاليك الذين ثاروا فى وجه المجتمع .

وفى هذا اللون من الشكوى وخصوصا الشكوى من ظلم القريب قد يمتزج الألم بالعتاب ، والتظلم بالوعيد والتهديد ، والتشكى بالفخر . ولقد ظهر

---

(١) السِّيدُ : الذئب ، والعَمَلَّسُ : الذئب القوى . أَرْقَطُ زَهلُول : أى حية أَرْقَطُ ، وَالزَّهْلُولُ : الأملس . والعَرْفَاءُ : عظيمة العرف الضبع الطويلة . وَجَيْأَلُ : اسم للضبع .

واضحا فى الشكوى من ظلم القريب السماحة ، والإيثار ، والرقة ، والشعور المتزن ، والاحساس تجاه القريب الظالم • وتلك نزعة إنسانية ينبغى تسجيلها بصدق للشاعر الجاهلي الذى لم يكن دائما صلدا،فقد وجدناه يضعف أمام عواطفه الذاتية التى تربطه بمن حوله من خلال صلات القربى والرحم،وإن كان لايسلم مجتمع من المجتمعات من مظاهر الظلم ، والتفكك ، وتلك سنة الحياة ، وتقلبات الزمن ، ونزعات النفس البشرية •

المبحث الثانى

الشكوى من الشيخوخة فى العصر الجاهلي

إنّ قضية الشيب أو الشيخوخة من القضايا التى تبرم منها الشعراء وغير الشعراء كثيرا،إذ صرخوا بالشكوى من الكبر الذى ارتبط فى أذهانهم بالضعف والعجز وعدم القدرة على تحقيق الذات ، فالشيخوخة فى نظر الانسان مقترنة بالانتهاء ، وهى نذير له بالموت الذى لا مفر منه ، وقد سئل أحد الشيوخ عن الذى بقي منه فأجاب قائلا :

(يَسْبقُنِى مَنْ بَيْن يَدَىَّ ، وَيلْحَقُنِي مَنْ خَلْفِي ، وَأَنْسَى الحَدِيثَ ، وَأَذْكُرُ القَدِيمَ ، وَأَنْعَسُ فِى المَلأ وَأَسْهَرُ فِى الخَلاَء ، وَإِذَا قُمْتُ قَرُبَتِ الأَرْضُ مِنِّى وَإِذَا قعدت تَبَاعَدتْ عَنِّى (١)) .

ولم تكن قضية الشيخوخة هاجس الشاعر الجاهلي وحده،بل هاجس الانسان فى كل زمان ومكان . إذ الخوف من الشيخوخة إنما هو فى جوهره تعبير عن احساس المرء بعدم استطاعته أن يحيا حياة منتجة ، وأن جيلا يزحف ليحل محله ، فهو والحالة هذه أخشى ما يخشاه أن يصبح كلا على أهله وذويه ، ومجتمعه ، سيما وأن البيئة الجاهلية بقسوتها قد يتعثر فيها من لم تمكنه قواه من السير فى ركابها ، فإذا به مجردا من كل معانى الترابط الأسرى ، والاجتماعى ، يجتر ذكرياته الماضية وينعى شبابه الغارب .

---

(١) البيان والتبيين : ٩٠/٢ .
بهجة المجالس وأنس المجالس / لابن عبد البر القرطبي ، تحقيق محمد مرسى الخولى ، دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢م : ٢٢٧/٢ .

ومن هنا انطلقت الشكوى من الشيخوخة فى العصر الجاهلي من نفوس غارقة فى همومها ، عاشت كل حياتها فى رحلة خاسرة لم يتحقق فيها مايجعل الانسان يرضى عنها،إذ هى رحلة كان هدفها اشباع غرائز النفس البشرية ، فإذا ماعجز الشخص عن تحقيق بعض رغباته،أو كلها نتيجة كبره.فإنه بذلك قد خسر كل شئ ، وأصبح نهبا للذكريات البعيدة يسأمه أهله وعشيرته ، ويتمنون له الموت ، ويمل هو عيشه كما يوضح هذا الشاعر الجاهلي امروء القيس بن حمام فى قوله (١) :

إنَّ الكَبِيرَ إِذَا طَالَتْ زَمَانَتُهُ ... فَإِنَّمَا حَمْلُهُ جِنَازَةٌ عَارُ (٢)

وَمَنْ يَعِشْ زَمَنًا فِى أَهْلِهِ خَرِفًا ... كَلاًّ عَلَيْهِمْ إِذَا حَلّوا وَإِنْ سَارُوا

يَذُمُّ مَرَارَةَ عَيْشٍ كَانَ أَوَّلُهُ ... حُلْوًا ، وَلِلدَّهْرِ إِحْلَاءٌ وَإِمْرَارُ

ويقول المستوغر بن ربيعة (٣) مصورا حال الشخص بعد أن يشيخ فيتغير سلوكه ، وتظهر عليه أمارات الطفولة مرة أخرى (٤) :

إِذَا مَا الْمَرْءُ صَمَّ فَلَمْ يُكَلَّمْ ... وَأَوْدَى سَمْعُهُ إِلاَّ نَدَايَا

وَلَاعَبَ فِى الْعَشِيِّ بَنِى بَنِيهِ ... كَفِعْلِ الْهِرِّ يَحْتَرِشُ الْعَظَايَا

---

(١) المعمرون والوصايا / لأبى حاتم السجستاني ، تحقيق عبد المنعم عامر ، طبعة الجلبى ١٩٦١م ص : ٧٢ .

(٢) إِذَا طَالَتْ زَمَانَتُهُ : أى عاهته . والزَّمَانَةُ : جنس للبلايا التى يصاب بها الانسان ، اللسان (زمن) .

(٣) عمرو بن ربيعة بن كعب بن سعد زيد مناة بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر،وسمى المستوغر لقوله :

يَنُشُّ الْمَاءُ فِى الرَّبَلَاتِ مِنْهَا * نَشِيشَ الرَّضْفِ فِى اللَّبَنِ الْوَغِيرِ

وهو من الشعراء الجاهليين القدماء وقد عمر طويلا .

أمالى المرتضى : ٢٣٤/١ .

(٤) المصدر نفسه : ٢٣٥/١ .

يُلاعِبُهُمْ وَوَدُّوا لَوْ سَقَوهُ ... مِنَ الذِّيفَانِ مُتْرَعَةً مِلَايَا
فَلَا ذَاقَ النَّعِيمَ وَلَا شَرَابًا ... وَلَا يُشْفَى مِنَ الْمَرَضِ الشَّفَايَا

إنَّ الموت أهون للفتى من أن يرى هرما يقاد كما تقاد المطية ، ولقد صور الشاعر الجاهلي زهير بن جناب الكلبي هذا الشعور بقوله (١) :

وَالمَوتُ خَيرٌ لِلْفَتَى فَلْيَهْلَكَنْ وَبِهِ بَقِيَّةْ
مِنْ أَنْ يُرَى هَرِمًا يُقَادُ كَمَا تُقَادُ بِهِ المَطِيَّةْ

وقضية الكبر والشيخوخة بما انطوت عليه من الضعف الذى قد يصل بالانسان إلى حد التخريف ، وفقدان الحواس ليست من فعل الدهر كما يخيل للشعراء الجاهليين ، ولكنها مرحلة من العمر، بل هى المرحلة الأخيرة من مراحل عمر الانسان لمن شاء الله أن يعمره طويلا فى هذه الحياة .

وقد صور القرآن الكريم هذا الوضع تصويرا غاية فى الدقة والبيان فى قول الله تبارك وتعالى :

﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ (٢) .

وقد نبه سبحانه وتعالى على تنقل الانسان فى أطوار الخلق حالا بعد حال حتى وصل إلى مرحلة الضعف الأخيرة ، حيث بدأ يكتهل ثم يشيخ ، ثم يهرم ، وهو

---

(١) حماسة البحترى : ١٠٢ .
(٢) سورة الروم الآية : ٥٤ .

الضعف بعد القوة . إذ تضعف الهمة ، وتشيب اللمة ، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة . ويحدثنا القرآن الكريم عن نداء (زكريا) عليه السلام، وشكواه من الضعف ، والشيب فى أسلوب بليغ مؤثر يظهر عجز الانسان وقلة حيلته أمام تناهى العمر وضعفه فى هذه المرحلة (١) فيقول تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٢) ﴾ .

ولقد اشتكى الشعراء الجاهليون كثيرا من ظهور الشيب ، وساءهم قدومه، لأنهم يرون فيه بداية لمرحلة الضعف ، وعلامة ظاهرة لتغير غير محمود فى حياتهم ، فقد ارتبط فى أذهانهم بأمور عدة، كلها بغيض اليهم ، لأنه يقطع عليهم طريق الاستمتاع بالحياة كما يستمتع بها الشباب ، ويفرض قيودا فى السلوك ووقارا قد يكون الواحد منهم من أزهد الناس فيه ، إضافة إلى أن الشيب يرتبط فى وعى الانسان بقرب الأجل، إذ يرى فيه نذير المنية ، وتناقص الزمن بعد أن فنى العمر ، ورحل الشباب، يتضح هذا من قول أحد الشعراء وهو ربيعة بن مقروم (٣) :

وَلَقَدْ أَصَبْتُ مِنَ المَعِيشَةِ لِيْنَهَا ... وَأَصَابَنِى مِنْهُ الزَّمَانُ بِكَلْكَلِ (٤)

فَإِذَا وَذَاكَ كَأَنَّهُ مَالَمْ يَكُنْ ... إِلاَّ تَذَكُّرَهُ لِمَنْ لَمْ يَجْهَلِ

---

(١) المثل السائر / لابن الأثير - تقديم الدكتور أحمد الحوفى والدكتور بدوى طبانة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر - الطبعة الثانية : ١٣٢/٢ - ١٣٣ .
الشباب والشيب فى الشعر العربى حتى نهاية العصر العباسي : ٨١٥/٢ .

(٢) سورة مريم الآية : ٤ .

(٣) شاعر جاهلي ، وأخباره فى الأغانى : ٩٧/٢٢ - ١٠٥ (دار الكتب) .

(٤) الأغانى : ١٠٤/٢٢ .

وَلَقَدْ أَتَتْ مِئَةٌ عَلَيَّ أَعُدُّهَا حَوْلاً فَحَوْلاً لا بَلاَهَا مُبْتَلِ

فَإِذَا الشَّبَابُ كَمِبْذَلٍ أَنْضَيْتُهُ وَالدَّهْرُ يُبْلِي كُلَّ جِدَّةِ مِبْذَلِ (١)

لقد عاش الشاعر الحياة بعسرها ، ويسرها ، وقسوتها ، وخشونتها ، ولكن ذلك كله قد مضى ، وكأنه لم يكن، فلم يبق منه غير الذكريات حيث مرت عليه مائة عام ، فإذا الشباب كأنه ثوب أبلاه ، يقول سلامة بن جندل في هذا المعنى (٢) :

أَوْدَى الشَّبَابُ حَمِيدًا ذُو التَّعَاجِيبِ أَوْدَى وَذَلِكَ شَأْوٌ غَيْرُ مَطْلُوبِ

وَلَّى حَثِيثًا وَهَذَا الشَّيْبُ يَطْلُبُهُ لَوْ كَانَ يُدْرِكُهُ رَكْضُ الْيَعَاقِيبِ

أَوْدَى الشَّبَابُ الَّذِي مَجْدٌ عَوَاقِبُهُ فِيهِ نَلَذُّ وَلاَ لَذَّاتِ لِلشَّيْبِ

وهذه الأنات تبين ما انطوت عليه نفسه من حزن ملأ جوانحها، حيث غاب الشباب مخلفا وراءه الذكر الحميد ، وحل محله الشيب الغشوم بسوءاته وعلله، مبددا شمل الملذات ، وقاطعا حبال الأنس (٣) :

وقد نجد بعض الشعراء يتذمر كثيرا من سوء منظر الشيب ، وينكره ، فهو يرى فيه لونا منكرا حل محل الشباب الذى ذهب لأن الشيب مرتبط فى ذهنه بأمور يكرهها عندما يذهب بشاشة الجسم ، ويحد من انطلاق النفس فى متع الحياة ، وفوق

---

(١) المِبْذَلُ : الثوب يلبس فى المهنة .

(٢) ديوانه / تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة ، المكتبة العربية ، حلب ، الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨م ص : ٩٠ - ٩٣ .

(٣) الشباب والشيب فى الشعر العربي : ٥٥/١ .

هذا يجعل الانسان كالغريب فى المجتمع ، بل انه يبلى الجدة ، وينهك القوة . وقد وجدنا أبا كبير الهذلي ينكر شعره الأبيض ، وابتعاد الأصحاب عنه فأصبح كالمقذر بينهم فضلا عن ضعف جسمه وبصره . فيقول (١) :

أَزُهَيْرُ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَقْصَرِ ... أَمْ لَاسَبِيلَ إِلَى الشَّبَابِ المُدْبِرِ
فَقَدَ الشَّبَابَ أَبُوكِ إِلَّا ذِكْرَهُ ... فَاعْجَبْ لِذَلِكِ فِعْلَ دَهْرٍ وَاهْكَرِ (٢)
أَزُهَيْرُ وَيْحَكِ مَالِرَأْسِي كُلَّمَا ... فَقَدَ الشَّبَابَ أَتَى بِلَوْنٍ مُنْكَرِ (٣)
ذَهَبَتْ بَشَاشَتُهُ وَأَصْبَحَ وَاضِحًا ... حَرِقَ المَفَارِقِ كَالْبَرَاءِ الأَعْفَرِ (٤)
وَنَضَيْتُ مِمَّا تَعْلَمِينَ فَأَصْبَحَتْ ... نَفْسِي إِلَى إِخْوَانِهَا كَالْمُقْذِرِ (٥)
فَإِذَا دَعَانِي الدَّاعِيَانِ تَأَيَّدَا ... وَإِذَا أُحَاوِلُ شَوْكَتِي لَمْ أُبْصِرِ (٦)
يَالَهْفَ نَفْسِي كَانَ جِدَّةُ خَالِدٍ ... وَبَيَاضُ وَجْهِكِ لِلتُّرَابِ الأَعْفَرِ

---

(١) شرح أشعار الهذليين : ٣/١٠٨٠ - ١٠٨٢ .
ديوان الهذليين : ٢/١٠٠ - ١٠١ .

(٢) الـهَكِرُ : أشد العجب .

(٣) أَتَى بِلَوْنٍ مُنْكَرِ : أى لون أنكره وهو يريد بياضا بعد سواد .

(٤) البَشَاشَةُ : اللذة ، والحرق : الذى يبدو وكأنه قد أصابته نار أو ريح فاحترق . والبَرَاءُ : هو براية القسى ، والأَعْفَرُ : الابيض الذى تعلوه حمرة .

(٥) نَضَيْتُ : أى سلخت ، والمُقْذِر : الأمر الذى يستقذره الناس .

(٦) تَأَيَّدَا : تشددا . يريد أنه لايسمع الصوت فقد ضعف سمعه .
وَإِذَا أُحَاوِلُ شَوْكَتِي : يعنى شوكة تدخل رجله أو فى بعض جسده .

وترتبط بظهور الشيب ، وغروب الشباب فى نظر الشاعر الجاهلي قضية أخرى تتمثل فى عزوف الغواني ، وإعراضهن عنه ، فالذى كانت له مرابع جميلة منهم ارتبطت فى ذهنه بأعذب الذكريات يجد نفسه غير قادر على وصالهن فقد آزوررن عنه ، وقلينه بصدودهن نتيجة شيبه وعلقن بآخر لا زال يرفل فى حلل الشباب النضرة . وهذا شأن الغانيات كما يرى علقمة ابن عبدة(١) :

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنَّنِي ... بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ
إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ ... فَلَيْسَ لَهُ فِي وِدهن نَصِيبُ
يُرِدْنَ ثَرَاءَ الْمَالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ ... وَشَرْخُ الشَّبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيبُ

ويقول امروء القيس (٢) :

أَرَاهُنَّ لَايُحْبِبْنَ مَنْ قَلَّ مَالُهُ ... وَلَامَنْ رَأَيْنَ الشَّيْبَ فِيهِ وَقَوَّسَا

ويتفق مع هذه الرؤية قول إحدى بنات حرثان ذى الأصبح العدوانى،وهى تتمنى زوج المستقبل الذى تأنس إليه (٣) :

أَلَا لَيتَ زَوْجِي مِنْ أُنَاسٍ ذَوِي غِنًى ... حَدِيثُ الشَّبَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ وَالْعِطْرِ

وقد شكا الأعشى من أعراض الغواني عنه عندما أدركه الشيب بعد أن أيقن أنهن لايواصلن من فقد الشباب ، ولكنهن يصلن الأمرد الناعم الوجه ، الغض الاهاب ،

---

(١) ديوان علقمة الفحل / تحقيق لطفى الصقال،ودرية الخطيب ، دار الكتاب العربى حلب : ٣٥ - ٣٦ .
(٢) ديوان امرئ القيس : ٢٣٧ .
(٣) الأغانى : ٩٤/٣ .

فهو يتحسر على الشباب الذاهب ويتمنى أن يعود ناشئا مثله يوم كانت لمته سوداء، يختال فى تيه وفى عبث لاينقطع ، ولكن هيهات هيهات ، وفى معرض شكواه يستعيد شيئا من ذكرياته الماتعة التى كان يشبع من خلالها رغباته ، وما عرف عنه من حبه للشراب والنساء(١) ، يقول(٢) :

وَأَرَى الغَوَانِي حِينَ شِبْتُ هَجَرْنَنِي ... أَنْ لاَ أَكُونَ لَهُنَّ مِثْلِي أَمْرَدَا
إِنَّ الغَوَانِي لاَيُوَاصِلْنَ امْرَءًا ... فَقَدَ الشَّبَابَ وَقَدْ يَصِلْنَ الأَمْرَدَا
بَلْ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَعُودَنْ نَاشِئًا ... مِثْلِي زُمَيْنَ أَحُلُّ بُرْقَةَ أَنْقَدَا (٣)
إِذْ لِمَّتِي سَوْدَاءُ أَتْبَعُ ظِلَّهَا ... دَدَنًا قُعُودَ غَوَايَةٍ أَجْرِي دَدَا (٤)

وبمثل هذا نجد النمر بن تولب يشكو من اعراض الغوانى عنه حين رحل شبابه،فقد نفرن منه فهو،مهموم يعتب عليهن فيصف النافرات منه وأمثاله بالجهل قائلا (٥) :

وَبُدِّلَ رَأْسِي الشَّيْبَ بَعْدَ سَوَادِهِ ... فَأَصْبَحْتُ ذَا شُغْلٍ وَأَقْصَرَ بَاطِلِي
وَأَصْبَحْتُ قَدْ أَعْرَضْنَ عَنِّي وَسُؤْنَنِي ... وَأَخْلَفْنَنِي عَهْدَ الخَلِيلِ المُمَاطِلِ
أَلاَ إِنَّ شَيْبَ الرَّأْسِ لَيْسَ بِآفَةٍ ... تَضِيرُكَ إِلاَّ فِي النِّسَاءِ الجَوَاهِلِ

---

(١) الشعر والشعراء : ٢٥٧/١ .
(٢) ديوانه : ٣٢٧
(٣) بُرْقَةَ أَنْقَدَا : اسم موضع .
(٤) الدَّدَنُ : اللهو واللعب . قُعُود غَوَايَةٍ : أطلق المصدر وأراد اسم الفاعل أى قاعدا فى الغواية .
(٥) شعره / جمعة نورى حمودى القيسي ، بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٦٩م ص : ٩٦.

ولكن هذا الحكم فيه جور من نفس الشاعر، فهو القائل قبل هذه الأبيات من نفس القصيدة :

لَعَمْرِى لَقَدْ أَنْكَرْتُ نَفْسِى وَرَابَنِى ... خَلَائِقُ مِنْهَا لَمْ تَكُنْ مِنْ شَمَائِلِى

فإذا كان هو قد أنكر نفسه فى مشيبه، ورابه ذلك أفلا يعذر الغوانى أن أنكرنه ومن هو على شاكلته ٠

وهناك شعراء كثر اشتكوا من الشيب حيث رأوا فيه نفورا للغوانى، وابتعادا منهن عن هؤلاء الشيوخ(١) ٠

وليست قضية اعراض الغوانى ونفورهن مشكلة المشاكل للشاعر الجاهلى، فقد تكون له بقية من قوة ومنعه ، ولكن الأهم منها اعراض الزوجات ومعاملتهن لأزواجهن بالعنف والقوة ، ونشوزهن عليهم نتيجة كبرهم ، فقد تذمر الشعراء الجاهليون كثيرا فى كبرهم من زوجاتهم اللواتى هزئن بهم وقسون عليهم ، ولم يراعين حق العشرة الحسنة ، وحقوق الزوج إذ يكون فى هذه المرحلة فى حاجة إلى الرعاية ، يقول الشاعر زهير بن جناب بن هبل(٢) يشكو ضعفه وقلة حيلته، ونشوز زوجته ، ومعاملتها القاسية له ، وقد سمعها تتكلم بما لاينبغى للمرأة أن تتكلم به عند

---

(١) كان هدف هذه الدراسة تتبع هذه الظاهرة - أعنى ظاهرة الشكوى فى الشعر العربى حتى نهاية القرن الثالث ٠ ولذلك فانه لايمكننا الاتيان على كل ما قاله الشعراء فى الشكوى من الشيخوخة ٠ وغيرها من الظواهر الانسانية التى توجد فى كل زمان ومكان ، وانما كان قصدنا اختيار بعض النماذج الشعرية التى تدعم هذه الدراسة ما أمكن وليس الاستقصاء ٠

(٢) شاعر جاهلي كان على عهد كليب وائل ، وكان فصيحا وجيها عند الملوك ، وكان ذا رأى سديد لم تجتمع قضاعة الا عليه ٠

أمالى المرتضى : ٢٤٠/١، والاغانى : ١٤/١٩ ، ٢٣ (دار الكتب) ٠

زوجها فنهاها فقالت له : (اسكت عنى والاَّ ضربتك بهذا العمود فوالله ماكنت أراك تسمع شيئا ولا تعقله (١)) .

أَلاَ لَقَوْمٍ لاَ أَرَى النَّجْمَ طَالِعاً ... وَلاَ الشَّمْسَ إلاَّ حَاجَتِي بِيَمِيْنِي
مُعَزِّبَتِي عِنْدَ الْقَفَا بِعَمُودِهَا ... يَكُونُ نَكِيْرِي أَنْ أَقُولَ ذَرِيْنِي (٢)
أَمِيْنًا عَلَى سِرِّ النِّسَاءِ وَرُبَّمَا ... أَكُونُ عَلَى الأَسْرَارِ غَيْرَ أَمِينِ
فَلَلْمَوتُ خَيْرٌ مِنْ حِدَاجٍ مُوَطَّأٍ ... مَعَ الظَّعْنِ لاَ تَأْتِي المَحَلَّ لِحِينِ (٣)

وعندما شاخ عبيد بن الأبرص ، وتغير لونه ، وعلا الشيب رأسه غضبت امرأته وازورت عنه ، فاغتم وتألم.لأنها تريد مفارقته بعد أن كبر وأعسر، وبخل مواليه بمواساته ، فهو يتلهف على مافاته من شبابه ، ويتذكر سواد لمته حينما كان فتى قويا يظعن بابله الناجيات ، ويتشوق إلى ذلك العهد الذى أحبه وارتضاه . ولكنه ذهب وتولى . وهو إذ يحاول أن يقنع نفسه بالحال التى هو فيها يدرك أن كل شئ إلى زوال ، فليتحمل ، وليصبر ، ففى الصبر ملاذ واحتيال لمن يريد التأسى ، والنسيان ، يقول فى معرض شكواه :

تِلْكَ عِرْسِي غَضْبَى تُرِيدُ زِيَالِي ... أَلِبَيْنٍ تُرِيدُ أَمْ لِدَلاَلِ (٤)
إِنْ يَكُنْ طِبُّكِ الفِرَاقَ فَلاَ أَحْفِلُ أَنْ تَعْطِفِي صُدُورَ الجِمَالِ (٥)

---

(١) أمالى المرتضى : ٢٤٠/١ .
(٢) مُعَزِّبَتِي : يعنى امرأته ، يقال معزبة الرجل وطلته وحنته كل ذلك امرأته اللسان (عزب) .
(٣) الحِدْجُ : مركب من مراكب النساء ، كالمحفة ، وجمعه أحداج وحدوج ، والحداجة لغة فيه ، الجمع الحدائج .
(٤) ديوانه : ١٠٦ - ١٠٧ .
(٥) الطِّبُّ : العادة ، أَحْفِلُ : أبالى .

أَوْ يَكُنْ طِبُّكِ الدَّلَالَ فَلَوْ فِي ... سَالِفِ الدَّهْرِ وَاللَّيَالِي الخَوَالِي

زَعَمَتْ أَنَّنِي كَبِرْتُ وَأَنِّي ... قَلَّ مَالِي وَضَنَّ عَنِّي المَوَالِي (١)

وَصَحَا بَاطِلِي وَأَصْبَحْتُ شَيْخًا ... لَا يُوَاتِي أَمْثَالَهَا أَمْثَالِي

أَنْ رَأَتْنِي تَغَيَّرَ اللَّوْنُ مِنِّي ... وَعَلَا الشَّيْبُ مَفْرِقِي وَقَذَالِي

دَرْدَرَّ الشَّبَابِ وَالشَّعَرِ الأَسْوَدِ وَالرَّاتِكَاتِ تَحْتَ الرِّحَالِ (٢)

ذَاكَ عَيْشٌ رَضِيتُهُ وَتَوَلَّى ... كُلُّ عَيْشٍ مَصِيرُهُ لِهَبَالِ (٣)

صَبِّرِ النَّفْسَ عِنْدَ كُلِّ مُلِمٍّ ... إِنَّ فِي الصَّبْرِ حِيلَةَ المُحْتَالِ

ويقول الشاعر الجاهلي عباد بن شداد (٤) شاكيا من زوجته التى هزأت به بعد أن رث جسده، واحدودب ظهره (٥) :

يَا بُؤْسَ لِلشَّيْخِ عَبَادِ بْنِ شَدَّادِ ... أَضْحَى رَهِينَةَ بَيْتٍ بَيْنَ أَعْوَادِ

وَتَهْزَأُ العِرْسُ مِنِّي إِنْ رَأَتْ جَسَدِي ... أَحْدَبَ لَمْ تَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ أَجْلَادِ (٦)

فَإِنْ تَرَيْنِي ضَعِيفًا قَاصِرًا عُنُقِي ... فَقَدْ أُكَعْكِعُ عَنِّي عَدْوَةَ العَادِي (٧)

وَقَدْ أَفِيءُ بِأَثْوَابِ الرَّئِيسِ وَقَدْ ... أَعْدُو عَلَى سَلْهَبٍ لِلْوَحْشِ صَيَّادِ (٨)

---

(١) ضَنَّ : بخل ، والمَوَالِي : جمع مولى ، وهو الصديق ، والجار ، والقريب .

(٢) دَرْدَرَّه : كثر خيره . وفى هذا تلهف على مافاته من شبابه .

(٣) تَوَلَّى : ذهب ، الهَبَالُ : الهلاك .

(٤) من شعراء تميم فى الجاهلية .

(٥) شعر بني تميم فى العصر الجاهلى / جمع وتحقيق الدكتور / عبد الحميد محمود المعينى ، منشورات نادى القصيم الأدبى ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م : ٢٤٣ .

(٦) أَجْلَادَ : جمع جلد ، بقايا جسمه . العِرْسُ : امرأته .

(٧) أُكَعْكِعُ : أبعد وأصد .

(٨) السَّلْهَبُ : الفرس الطويلة .

إنّ الشيخوخة قد تؤدى بالشخص الى عدم استطاعته المشي،فيستعين بالعصا يتوكأ عليها ، ويتلمس بها طريقه،فيكون استعمالها فى هذه الحالة نذير ضعف ووهن ، وبذلك يكون موضع شماتة الأعداء كما يسأمه أهله . وقد شكا عروة بن الورد من مآله هذا مبررا صعلكته فقال :

أَلَيْسَ وَرَائِى أَنْ أَدِبَّ عَلَى العَصَا ... فَيَشْمَتَ أعدائِى وَيَسْأَمُنِى أَهْلِى (١)

رَهِينَةُ قَعْرِ البَيْتِ كُلَّ عَشِيَّةٍ ... يُطِيفُ بِى الوِلْدَانُ أَحْدَبَ كَالرَّأْلِ

وفى هذه الشكوى صورة شعرية جميلة ومعبرة من خلال وصفه للمشية فى عجز البيت الثانى ، حيث شبه نفسه بعد أن يبلغ به الكبر مبلغه بالرأل.وهو ولد النعام لأن مشيه يكون ارتعاشا،وكذلك الكبير الهرم .

ولزوم العصا قد جاء فى القرآن الكريم لأسباب فى مقدمتها اعتماد الانسان عليها فى المشي،يتوكأ عليها ، وكذلك لمنافع أخرى(٢) كما يبين ذلك ما جاء فى قصة موسى عليه السلام - فى قوله تعالى :

﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِى وَلِي فِيْهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ(٣) ﴾

وفى الشعر الجاهلي جاء استعمال العصا ، كعلامة من علامات العجز، والكبر، فلقد نجد الشاعر الهرم يتوكأ على العصا،فتعاونه على السير ، وتكون له دعامة ،

---

(١) ديوانه : ٥٤ .
(٢) البيان والتبيين : ٣/٥ - ١٢٤ .
(٣) سورة طه الآية : ١٨ .

يقول ذو الاصبع العدوانى فى مخاطبته ابنته التى رابها كبره وعجزه فتألمت وبكت حينما رأته يمشي على العصا (١) :

جَزِعَتْ أُمَامَةُ إنْ مَشَيْتُ عَلَى العَصَا ... وَتَذَكَّرتْ إذْ نَحْنُ م الفِتْيَانِ
لاتَعْجَبِنَّ أُمَامُ إنْ حَدَثٌ عَدَا ... فَالدَّهْرُ غَيَّرَنَا مَعَ الأزْمَانِ

ولم تكن العصا وحدها من علامات الكبر المتناهى ، فقد يكون معها علامات أخر كضعف السمع والبصر ، وعندئذ نجد من الشعراء من اشتكى من كثرة توكئه على العصا حتى آلمته أظفاره ، وضعف بصره فلم يستطع أن يبصر به الشخص حتى يدنو منه كما يقول حميد بن ثور الهلالى :

لَيْسَ الشَّبَابُ عَلَيكَ الدَّهْرَ مُرْتَجَعَا ... حَتَّى تَعُودَ كَثِيبًا أُمَّ صَبَّارِ (٢)
مَالِى قَدْ أَصْبَحْتُ آلاً قَدْ تَنَقَّضَنِى ... بَعْضُ النَّوَاكِثِ حَبْلاً بَعْدَ إمْرَارِ (٣)
مِن بَعْدِمَا كُنْتُ فِيهَا نَاشِئًا غَمِرًا ... كَأنَّنِى خَارِجٌ مِنْ بَيْتِ عَطَّارِ (٤)
لَقَدْ رَكِبْتُ العَصَا حَتَّى قَد اوْجَعَنِى ... مِمَّا رَكِبْتُ العَصَا ظَهْرِى وَأظْفَارِى
لاَ أُبْصِرُ الشَّخْصَ إلاَّ أنْ أُقَارِبَهُ ... مُعْشَوْشِيًا بَصَرِى مِنْ بَعْدِ ابْصَارِ

---

(١) ديوانه : ٣٥ .

(٢) ديوانه : ٩٤ .
وأُمُّ صَبَّار هنا : الحرة وهى أرض ذات حجارة نخرة سود كأنها أحرقت بالنار .
والكَثِيبُ : التل من الرمل .

(٣) الآلُ : السراب يريد أنه أصبح لكبر سنه كالسراب .
والنَّواكِثُ : المراد بها صروف الدهر وعوادى الزمن .

(٤) الغَمِرُ : الحدث الذى لم يجرب الأمور . وقوله " خَارِجٌ مِنْ بيت عَطَّارِ " كناية عن أخذه بقسط وافر من اللهو والمرح .

والشاعر الجاهلي حينما امتد به العمر ، وأنهكته الشيخوخة،فانحنى ظهره ، وذهب بصره ، وتوكأ على عصاه،سرعان ما تذكر أيام الفتوة ، والشباب عندما كان معتدل القامة حديد البصر حاملا قوسه ، ورمحه ، ومتوشحا سيفه، فيقارن بين الصورتين ، ويظهر جزعه وشكواه من واقعه المؤلم الذى يعيشه فى هذه المرحلة بعد أن وهن عظمه وبدله الله بعد قوة ضعفا،كما نرى من قول عوف بن سبيع بن عميرة (١):

أَلاَ هَلْ لِمَنْ أَجْرَى ثَمَانِينَ حِجَّةً ... إلَى مِائَةٍ عَيْشٍ وَقَد بَلَغَ المَدَى
وَمَا زَالَتِ الأَيَّامُ ترمى صِفَاتَهُ ... وَتَغْتَالُهُ حَتَّى تَضعْضَعَ وَانْحَنَى
وَصَارَ كَفَرْخِ النَّسْرِ يَهْتَزُّ جِيدُهُ ... يَرَى دُونَ شَخْصِ المَرْءِ شَخْصًا إذَا رَأَى
وَبُدِّلَ مِنْ طَرْفٍ جَوَادٍ حَشِيَّةً ... وَمِنْ قَوسِهِ وَالرُّمْحِ وَالصَّارِمِ العَصَا

إنَّ الشكوى من الشيخوخة عند الشعراء الجاهليين تصور لنا مدى المعاناة التى يشعرون بها، فدائما نجدهم يصورون حالهم وما أصبحوا فيه من علامات الضعف الجسمي والنفسي معا فى أسلوب شكائي مؤثر كما يقول ساعدة بن جؤية (٢) :

يَالَيْتَ شِعْرِى أَلاَ مَنْجَى مِنَ الْهَرَمِ ... أَمْ هَلْ عَلَى الْعَيْشِ بَعْدَ الشَّيْبِ مِن نَدَمِ
وَالشَّيْبُ دَاءٌ نَجِيسٌ لاَ دَوَاءَ لَهُ ... لِلْمَرْءِ كَانَ صَحِيحًا صَائِبَ القُحَمِ (٣)

---

(١) المعمرون والوصايا : ١٧ .
(٢) شرح أشعار الهذليين : ١١٢٢/٣ .
(٣) النَّجِيسُ ، والنَّاجِسُ : الذى لايكاد يبرأ من الادواء .
صَائِبُ القُحَمِ : أى اذا اقتحم قحمة لم يطش ،والمراد بالقحم هنا : الاقتحام .

وَسْنَانُ لَيْسَ بِقَاضٍ نَومَةً أَبَدًا ... لَوْلاَ غَدَاةُ يَسِيرُ النَّاسُ لَمْ يَقُمِ (١)
فِي مَنْكِبَيْهِ وَفِي الأَصْلاَبِ وَاهِنَةٌ ... وَفِي مَفَاصِلِهِ غَمْزٌ مِنَ العَسَمِ (٢)
إنْ تَأْتِهِ فِي نَهَارِ الصَّيْفِ لاَ تَرَهُ ... إلاَّ يُجَمِّعُ مَا يَصْلَى مِنَ الجُحَمِ
حَتَّى يُقَالَ وَرَاءَ البَيْتِ مُنْتَبَذًا ... قُمْ لاَ أَبَالَكَ سَارَ النَّاسُ فَاحْتَزِمِ
فَقَام تُرْعَدُ كَفَّاهُ بِمِحْجَنِهِ ... قَدْ عَادَ رَهْبًا رَذِيًّا طَائِشُ القَدَمِ (٣)

هذه الأبيات تبين لنا ما ينوء به هذا المحدودب الظهر من العلل والأوجاع، إذا سار استند على عصاه يدب بها على الارض وئيدا ترتعد كفاه ، وتطيش قدماه قد نبذه قومه خلف البيوت وحيدا كأنه من سقط المتاع لايذكرونه إلاّ حينما يهمون بالرحيل ، فيعنفونه بجلوسه ويأمرونه بالمسير . هكذا يعامل وكأن لم يكن فى يوم من الأيام ذا حزم وريادة .

إنّ المجتمع الجاهلي قد نظر فى بعض الأحيان للكبير الهرم نظرة قاسية فيها اجحاف وظلم ، وعدم انصاف وكانت هذه النظرة من الأمور التى ضجر منها الشعراء كثيرا ، ذلك أن الشخص فى مجتمع الجاهلية متى شاخ تخلى عنه قومه وعشيرته وأبعدوه عن كل محفل لهم لايشركونه فى رأى ، بل ليتهم مع هذا يقومون بشؤونه ولكنه يترك بعيدا عن كل مايتعلق بالحياة الاجتماعية ، وما يرتبط بأمور الأسرة والقبيلة ، ولو كان من الفرسان المعدودين أصحاب الرأى والحكمة . يقول

---

(١) وَسْنَانُ : أى مسترخ كأنه نائم من الضعف ولين بنائم .
(٢) وَاهِنَةٌ : وجع يأخذ فى المنكبين والعنق . والعَسَمُ : اليبس ، يريدأن مفاصله قد يبست .
(٣) الرَّهْبُ : الرقيق الضعيف . والرَّذِيّ : المعيي المطروح . طَائِش القَدَمِ : أى اذا مشى طاشت قدمه لاتقصد من الضعف .

دريد بن الصمة الجشمي يشكو من هذا الوضع الذى آل اليه (١) .

أَصْبَحْتُ أَقْذِفُ أَهْدَافَ المَنُونِ كَمَا ... يَرْمِي الدَّرِيئَةَ أَدْنَى فَوقَهُ الوَتَرِ (٢)
فِي مَنْصِفٍ مِنْ مَدَى تِسعِينَ مِنْ مِئَةٍ ... كَرَمْيَةِ الكَاعِبِ العَذْرَاءِ بِالْحَجَرِ
فِي مَنْزِلٍ نَازِحٍ ، الْحَيِّ مُنْتَبَذٍ ... كَمُرْبَطِ العَيْرِ لاَ أُدْعَى إِلَى خَبَرِ
كَأَنَّنِي خَرَبٌ جُزَّتْ قَوادِمَهُ ... أَوْ جُثَّةٌ مِنْ بُغَاثٍ فِي يَدَى هَصِرِ (٣)
يُمْضُونَ أَمْرَهُمُ دُونِي وَمَا فَقَدُوا ... مِنِّي عَزِيمَةَ أَمْرٍ مَا خَلاَ كِبَرِي

ويمضى فى هذه الشكوى،فيصف حاله ويبين مابه من الآلام فيقول :

وَنَوْمَةٍ لَسْتُ أَقْضِيهَا وَإِنْ مُتِعَتْ ... وَمَا مَضَى قَبْلُ مِنْ شَأْوِي وَمِنْ عُمُرِي
وَإِنَّنِي رَابَنِي قَيْدٌ حُبِسْتُ بِهِ ... وَقَدْ أَكُونُ وَمَا يُمْشَى عَلَى أَثَرِي (٤)
إِنَّ السِّنِينَ إِذَا قَارَبْنَ مِنْ مِئَةٍ ... لَوَيْنَ مِرَّةَ أَحْوَالِي عَلَى مِرَرِ (٥)

إنّ شعور هؤلاء الشيوخ بالعجز وشكواهم من الشيخوخة قد نتج عن فلسفة المجتمع الذى يعيشون فيه حيث يشعرون باهماله لهم ، وعدم رعايته فضلا عن الظروف الاجتماعية القاسية التى كان يعيشها انسان العصر الجاهلي (٦) .

---

(١) ديوانه : ٦٦ .
(٢) الدَّرِيئَةُ : الحلقة التى يتعلم الرامي الطعن ، والرمي عليها .
(٣) خَرَبٌ : الخرب ذكر الحبارى . جُزَّتْ : قصت ، وَهَصِرِ : الحيوان المفترس .
(٤) وَقَدْ أَكُونُ وَمَا يُمْشَى عَلَى أَثَرِي:كناية عن نشاطه وشجاعته ابان شبابه .
(٥) المِرَّةُ : طاقة الحبل .
(٦) شعر بنى تميم فى العصر الجاهلى : ٢٤٠ .

وحينما نتأمل شعر الشكوى من الكبر والشيخوخة فى العصر الجاهلي نجد بعض الشعراء يصور لحظات موته ، وحاله عندما يقوم أهله وعشيرته بتجهيزه ، يقول الممزق العبدى(١) :

هَلْ لِلْفَتَى مِنْ بَنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ وَاقِ ... أَمْ هَلْ لَهُ مِنْ حِمَامِ المَوتِ مِنْ رَاقِ(٢)

قَدْ رجلونى و ما رُجِّلْتُ مِنْ شَعَثٍ ... وَأَلْبَسُونِى ثِيَابًا غَيرَ أَخْلَاقِ(٣)

وَرَفَّعُونِى وَقَالُوا أَيُّمَا رَجُلٍ ... وَأَدْرَجُونِى كَأَنِّى طَيُّ مِخْرَاقِ(٤)

وَأَرْسَلُوا فِتْيَةً مِنْ خَيْرِهِمْ حَسَبًا ... لِيُسْنِدُوا فِى ضَرِيحِ التُّرْبِ أَطْبَاقِى

هَوِّنْ عَلَيكَ وَلَا تَولَعْ بِإِشْفَاقِ ... فَإِنَّمَا مَالُنَا لِلْوَارِثِ البَاقِى

كَأَنَّنِى قَدْ رَمَانِى الدَّهْرُ عَنْ عُرُضٍ ... بِنَافِذَاتٍ بِلَا رِيشٍ وَأَفْوَاقِ

وقد يستعيد الشاعر الهرم الصورة المشرقة فى حياته عندما كان يرفل فى حلل الشباب النضرة ، وهو فارس قومه وجوادهم ، فإذا به يؤول إلى هذه الحال كما يتضح من قول مرداس بن صبيح(٥) :

أَعَاذِلَتِى دَعِى عَذْلِى فَإِنِّى ... أَتَتْنِى عَنْ حجُورٍ مندَيَاتِ(٦)

قَوَافِى قَدْ أَتَتْنِى مِنْ بَعِيدٍ ... فَمَا أَدْرِى أَزُورٌ أَمْ ثَبَاتِ

---

(١) المفضليات : ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٢) بَنَاتُ الدَّهْر : أحداثه ومصائبه . الحِمَامُ بالكسر : الدنو ، حم الشئ دنا والحمام : قضاء الموت وقدره .

(٣) التَّرْجِيلُ : تسريح الشعر . والأَخْلاقُ : الثياب الممزقة البالية .

(٤) طَيّ مِخْرَاقٍ : عنى بذلك العمامة التى يلعب بها الصبيان ثم يضرب بها بعضهم بعضا .

(٥) ذكره السجستانى من ضمن المعمرين طويلا .

(٦) المعمرون والوصايا : ٤٤ .

فَإِنْ تَـكُ كِذْبَـةٌ مِـنْ قَـومِ سُـوءٍ   فَمَا إِنْ تَزْدَهِينِـي المُعْـذِرَاتُ
فَإِنِّـي قَـدْ كَبُـرْتُ وَرَقَّ عَظْمِـي   وَأَسْلَمَنِـي لَـدَى الدَّهْـرِ الهَنَـاتُ
مَـرَازِىءُ قَـدْ تَنُـوبُ وَطُـول عُمْـرٍ   تَـؤُوبُ لَهَـا الهُمُـومُ الطَّارِقَـاتُ
أَدِبُّ عَلَـى العَصَـا لَمْ يَبْـقَ إِلاَّ   لِسَـانٌ صَـارِمٌ عَضْـب حتَـاتُ

ولقد شكا عمرو بن قميئة مما آلت إليه حاله بعد أن تقدمت به السن وأصبح شيخا أحدبا ضعيفا لا يستطيع أن ينهض من مكانه الذى هو فيه إلاَّ زحفا ، فلقد أتت عليه من السنين تسعون حجة سلبت منه كل معانى القوة حتى أصبح عاجزا عن كل شىء (١) :

كَأَنِّـي وَقَـدْ جَـاوَزْتُ تِسْعِينَ حِجَّـةً   خَلَعْتُ بِهَـا يَوْمًا عِـذَارَ لِجَامِـي
عَلَـى الرَّاحَتَيـنِ مَـرَّةً وَعَلَى العَصَـا   أَنُـوءُ ثَلاَثًـا بَعْدَهُـنَّ قِيَامِـي
رَمَتْنِـي بَنَـاتُ الدَّهْـرِ مِنْ حَيْـثُ لاَ أَرَى   فَكَيْـفَ بِمَـنْ يُرْمَـى وَلَيْـسَ بِـرَامِ
فَلَـو أَنَّهَا نَبْـلٌ إِذًا لاَ تَّقَيْتُهَـا   وَلَكِنَّنِـي أُرْمَـى بِغَيْـرِ سِهَـامِ
إِذَا مَا رَآنِـي النَّـاسُ قَالُـوا أَلَمْ تَكُنْ   حَدِيثًـا جَدِيـدَ البَزِّ غَيرَ كَهَـامِ (٢)
وَأَفْنَـى وَمَا أُفْنِـى مِنَ الدَّهرِ لَيْلَـةٍ   وَلَـنْ يغن مَا أَفْنَيْـتُ سِلْكَ نِظَـامِ
وَأَهْلَكَنِـي تَأْمِيـلُ يَـومٍ وَلَيْلَـةٍ   وَتَأْمِيـلُ عَـامٍ بَعْـدَ ذَاكَ وَعَـامِ

---

(١) ديوان عمرو بن قميئة ، تحقيق حسن كامل الصيرفى ، معهد المخطوطات العربية ١٣٨٥ هـ ص : ٤٤ - ٤٧ (وهذا الشعر يلقى ظلالا من الشك على صحة رحلته مع امرىء القيس كما قلنا سابقا) .

(٢) البَزّ : السلاح . والبز : نوع من الثياب ، وجاء فى اللسان : " والبز والبزة : السلاح يدخل فيه الدرع والمغفر والسيف . الكَهَامُ : يقال : السيف الكهام أى الكليل الذى لايقطع والرجل الكهام أى الثقيل المسن الذى لاغناء عنده .

ويقول قشير بن عطى العبيدى مصورا ماينوء به من هموم وأحزان بعد أن أفقده الكبر القوة ، وأقعده عن كل شىء حتى مطيته لم يعد يستطيع ردها والسير مع قومه لحل قضية أو ابرام أمر فضلا عن عدم استطاعته رؤية النبات الزاهى ، والأشجار المورقة ، والأزهار المشرقة ، ولم تعد لديه القدرة على التمتع بملاذ الحياة الحسية والمعنوية يقول :

كَفَى حَزَنًا أَنْ لاَ أَرُدَّ مَطِيَّتِى ... لِرَحْلِى وَلاَ أَغْدُو مَعَ القَوْمِ فِى وَفْدِ (١)

وَإِنْ أَمْرَعَتْ قريَانُ نَجْدٍ وَنَوَّرَتْ ... مِنَ البَقْلِ لَمْ أَنْظُرْ بِعَيْنِى فِى نَجْدِ (٢)

وَأَنْ أَسْأَلَ الأَوْغَادَ مَاكَانَ شَأْنُهُمْ ... وَلاَ أَشْهَد الشُّورَى لِغَىٍّ وَلاَ رُشْدِ

وَقَدْ كُنْتُ أُعْطِى السَّيفَ فِى الرَّوْعِ حَقَّهُ ... حَيَاءً إِذَا جَرَّدتُ سَيْفِى مِنَ الغِمْدِ

إنّ المتأمل فى شعر الشكوى من الشيخوخة فى العصر الجاهلي يجد مشاعر خاصة يلفها الحنين إلى أيام الشباب والفتوة تارة ، وتارة أخرى يلفها الحزن نتيجة اعراض الغواني ، أو نشوز الزوجات ، كما نجد شعورا عميقا بالضعف ، وتصويرا للحالة التى وصل إليها الشاعر فى كبره بعد أن خانته قواه ، وداهمته الشيخوخة ، فأصبح منبوذا من أحبابه ، وأصحابه ، ومجتمعه ، يتمنون موته بين الحين والآخر ، وقد يحس القارىء لشعر هؤلاء المعمرين معاناتهم وحاجتهم إلى من يرعى شؤونهم ويلاطفهم ، فإنّ الشخص منهم قد يتأثر من أبسط الأشياء ، فيعتب على من حوله من الناس حينما يرى منهم تجافيا عنه أو يخيل إليه ذلك ، فيستعيد الصورة المشرقة فى حياته عندما كان يرفل فى حلل الشباب النضرة .

---

(١) شعراء بنى قشير فى الجاهلية والاسلام حتى آخر العصر الأموى ، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور عبد العزيز الفيصل ، طبعة الحلبى ١٣٩٨ هـ : ١٤٢/٢ .

(٢) القَرَى : مجرى الماء فى الروض وجمعه قَرْيَان ، والنَّور : الزهر ، ونورت : كثر زهرها . اللسان (قرأ ، نور) .

وأمام هذه العلامات الدالة على الكبر من ظهور الشيب ، وضعف الجسم وانحناء في الظهر ، وارتعاش في الاطراف يفقد الانسان قوته، فيستسلم للأمر الواقع ، ويجاهر بتلك التغيرات التى أخذت طريقها إلى جسمه ، وإلى نفسه على السواء ، ويجأر بالشكوى منها ٠

ولاشك أن في الشيخوخة ضعفا في الكيان الانساني كله، فهي انحدار إلى الطفولة بكل أطوارها ، وقد يصاحبها انحدار نفسي ناشيء من ضعف الارادة حتى ليهفو الشيخ أحيانا كما يهفو الطفل الصغير ولا يجد من ارادته عاصما ٠

والشيخوخة قضية حتمية لايستطيع مخلوق تجنبها، فسرعان ما يؤول الشباب الى كهولة وعجز ، إذ الشباب ثوب معار سرعان مايعرى منه المرء كما يعرى من الورق القضيب ، ومشيب يحيل السواد الذى يصحب الشباب إلى بياض ثم تأتى مرحلة الكبر والهرم الذى لا مفر منه ٠ وصدق الله العظيم القائل : ﴿ وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَانَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾(١)

---

(١) سورة الحج الآية : ٥ ٠

المبحث الثالث

الشكوى من الفقر وسوء الحال فى العصر الجاهلي

كانت المراعى فى العصر الجاهلي من أعظم الموارد الطبيعية عند العرب ، فقد كانت حياتهم الاقتصادية تقوم عليها ، إذ أن ثرواتهم تنحصر فى قطعان الابل ، والضأن والمعز ، ولهذا كان المطر غيثا وحياء لأنه ينبت الكلأ الذى تحيا به الأرض والناس وتقوم عليه حياة الماشية ، فكان العرب يستبشرون بنزوله لأنه يؤذن بحياة الأرض ، وزوال القحط ، والجفاف . وقد صور القرآن ذلك فقال تعالى :

﴿ اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِى الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١) .

وكنتيجة طبيعية لشح الموارد ، وقلة مصادر الرزق فى البيئة الجاهلية ، ولاختلال التركيبة الاجتماعية وفقدان الأمن ، أصبح الغزو وسيلة للعيش ، ومصدرا من مصادر الغنى تقوم به فئة على حساب مجموعة أخرى من الناس . أو قافلة منعزلة ، فينهبون أموالها ويسلبون مابحوزتها قسرا وعنوة . كما أن القبيلة نفسها تغير أحيانا على قبيلة أخرى فتزيحها عن مراعيها أو تستولى على موارد مياهها ، ومن هنا نما فى نفس العربى حب المخاطرة ، وانعدام الاستقرار ، فكان محاربا قويا قادرا على حماية مواشيه ، ومراعيه ، وعيون مياهه ، ولهذا اعتز

---

(١) سورة الروم الآيات : ٤٨ - ٥٠ .

العرب بالقوة لأنهم عاشوا فى مجتمع أبرز شرائعه السيف وشدة البأس ٠

إنَّ الفروق المادية الكبيرة التى ميزت الحياة الاجتماعية فى العصر الجاهلي مع شح موارد البيئة الطبيعية وندرتها،جعلت السلب ، والاغارة عنوان الحياة اليومية ، وأصبحت فى نظر البعض وسائل مشروعة مادامت تحقق الغنى وتوصل إلى المنزلة الاجتماعية التى ترفع صاحبها بين أفراد مجتمعه ، وتهىء له السمعة التى تكسبه الثناء وحسن السيرة بين الناس ٠

يقول عروة بن الورد (١) :

ذَرِينِى أُطَوِّفْ فِى الْبِلَادِ لَعَلَّنِى ... أُخَلِّيكِ أَوْ أُغْنِيكِ عَنْ سُوءِ مَحْضَرِى

فَإِنْ فَازَ سَهْمٌ لِلْمَنِيَّةِ لَمْ أَكُنْ ... جَزُوعًا وَهَلْ عَنْ ذَاكَ مِنْ مُتَأَخَّرِ

وَإِنْ فَازَ سَهْمِى كَفَّكُمْ عَنْ مَقَاعِدٍ ... لَكُمْ خَلْفَ أَدْبَارِ الْبُيُوتِ وَمَنْظَرِ

تَقُولُ لَكَ الْوَيْلَاتُ هَلْ أَنْتَ تَارِكٌ ... ضُبُوءًا بِرَجْلٍ تَارَةً وَبِمَنْسَرِ (٢)

وَمُسْتَثْبِتٌ فِى مَالِكَ الْعَامَ أَنَّنِى ... أَرَاكَ عَلَى أَقْتَادِ صَرْمَاءَ مُذْكِرِ (٣)

فَجُوعٌ لِأَهْلِ الصَّالِحِينَ مَزَلَّةٌ ... مَخُوفٌ رَدَاهَا أَنْ تُصِيبَكَ فَاحْذَرِ (٤)

أَبَى الْخَفْضَ مَنْ يَغْشَاكِ مِنْ ذِى قَرَابَةٍ ... وَمِنْ كُلِّ سَوْدَاءِ الْمَعَاصِمِ تَعْتَرِى (٥)

---

(١) ديوانه : ٦٧ - ٧٠ ٠

(٢) ضُبُوءًا : الضبوء اللصوق بالأرض - يقال ضبأ يضبأ ضبوءا وضباء اذا استتر ليختل الصيد ٠

(٣) الصَّرْمَاءُ : المفازة التى لا ماء فيها ، وناقة صرماء قليلة اللبن ٠

(٤) فَجُوعٌ : أى صرماء داهية تفجع بالصالحين أى ذوى المعروف ٠
مَزَلَّةٌ : تزل بأهلها ٠ مَخُوفٌ رَدَاهَا : أى يخاف الهلاك من قبلها ٠

(٥) أَبَى الْخَفْضَ : أى أبى هذا الذى تريدين من خفض العيش ٠

ويقول أيضا فى هذا المعنى (١) :

دَعِيْنِى أُطَوِّفْ فِى الْبِلَادِ لَعَلَّنِى ... أُفِيدُ غِنىً فِيْهِ لِذِى الْحَقِّ مَحْمَلُ (٢)

أَلَيْسَ عَرِيْباً أَنْ تُلِمَّ مُلِمَّةٌ ... وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْحُقُوقِ مُعَوَّلُ

فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَمْلِكْ دِفَاعاً بِحَادِثٍ ... تُلِمُّ بِهِ الأَيَّامُ فَالْمَوتُ أَجْمَلُ

إنّ سطوة المال وسلطانه على نفوس البعض منهم جعلهم يعدونه أساسا للحياة حتى أصبح الفقير فى المجتمع خلوا من كل معانى التقدير، حيث باتت النظرة للشخص مقيدة بما لديه من الثراء ، فإن خلا من هذا فهو ضائع لاقيمة له مهما بلغ به النسب ، وامتد فى العشيرة ، والفقير فى نظرهم شر الناس ، تزدريه زوجه ويذله الصغير من أبناء قومه ويحقرونه ، على حين يقابل الغنى بكل مظاهر الحفاوة والتكريم ، فمهما يفعل يقبل منه ، وإنْ عظم ذنبه وساء رأيه، فله رب غفور يغفر الذنوب جميعا . يقول عروة أيضا فى هذا الجانب (٣) :

دَعِيْنِى لِلْغِنَى أَسْعَى فَإِنِّى ... رَأَيْتُ النَّاسَ شَرُّهُمُ الفَقِيرُ

وَأَبْعَدُهُمْ وَأَهْوَنُهُمْ عَلَيْهِمْ ... وَإِنْ أَمْسَى لَهُ حَسَبٌ وَخِيرُ (٤)

وَيُقْصِيهِ النَّدِىُّ وَتَزْدَرِيهِ ... حَلِيلَتُهُ وَيَنْهَرُهُ الصَّغِيرُ

وَيُلْفَى ذُو الغِنَى وَلَهُ جَلَالٌ ... يَكَادُ فُؤَادُ صَاحِبِهِ يَطِيرُ

قَلِيلٌ ذَنْبُهُ وَالذَّنْبُ جَمٌّ ... وَلَكِنْ لِلْغَنِى رَبٌّ غَفُورُ

---

(١) ديوانه : ١٣١ .

(٢) فِيهِ لِذِى الْحَقِّ مَحْمَلُ : ما ينفع صاحب الحق ويحمله .

(٣) ديوانه : ٩١ - ٩٢ .

(٤) وخير : أى شرف وكرم .

وقريب من هذا قول الشاعر الجاهلي أوس بن حجر حينما حدد نظرة قومه للغنى والفقير فقال (١) :

بَنِى أُمِّ ذِى الْمَالِ الْكَثِيرِ يَرَوْنَهُ ... وَإِنْ كَانَ عَبْدًا سَيِّدَ الأَمْرِ جَحْفَلاَ
وَهُمْ لِمُقِلِّ الْمَالِ أَوْلاَدُ عَلَّةٍ ... وَإِنْ كَانَ محضا فِى الْعَشِيرَةِ مُخْوِلاَ

ومن هنا سيطر حب المال على نفوس بعضهم ، فتكالبوا على جمعه بشتى الوسائل والطرق ، وقد أكثر الشعراء الحديث عن مأساة الفقير فى المجتمع الجاهلي وعبروا بصور مختلفة عن أوضاعه ، ومصادر شكواه ، ولقد كانت هذه المكانة المهزوزة للفقير فى مجتمعه سببا فى حرصهم على المال حتى لو قطع الرجل بذلك كل صلات الرحم والقربى فى سبيل جمع المال ، والحصول عليه . يقول أحيحة بن الجلاح(٢) :

اسْتَغْنِ عَنْ كُلِّ ذِى قُرْبَى وَذِى رَحِمٍ ... إِنَّ الْغَنِىَّ مَنِ اسْتَغْنَى عَنِ النَّاسِ (٣)

ونجده فى أبيات أخرى يحث على جمع المال لأنه فى رأيه لايخذل صاحبه ، وهو عنده أغلى من صلات الرحم والقربى يقول (٤) :

اسْتَغْنِ أَوْ مُتْ وَلاَ يَغْرُرْكَ ذُو نَشَبٍ (٥) ... مِنِ ابْنِ عَمٍّ وَلاَ عَمٍّ وَلاَ خَالِ
يَلْوُونَ مَالَهُمُ عَنْ حَقِّ أَقْرَبِهِمْ ... وَعَنْ عَشِيرَتِهِمْ وَالْحَقِّ لِلْوَالِى (٦)

---

(١) ديوان أوس بن حجر / تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ، دار صادر بيروت ط (٣) ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م ص : ٩١ .

(٢) أحيحة بن الجلاح بن الحريش بن جحجبي بن كفلة بن عوف بن عمرو بن مالك بن الأوس كان من سادات قومه الأوس فى الجاهلية . وقيل انه اشتهر بالبخل الشديد. خزانة الأدب : ٣٥٧/٣ - ٣٥٩ .

(٣) ديوانه /دراسة وجمع وتحقيق الدكتور حسن باجودة - مطبوعات نادى الطائف الادبى ١٣٩٩ هـ ص : ٢٦ .

(٤) المصدر نفسه : ص ٧٨ - ٧٩ .

(٥) ذُو نَشَبٍ : أى ذو مال .

(٦) الوَالِى : المتحكم فى الشيء المتسلط عليه .

فَاجْمَعْ وَلَاتَحْقِرَنْ شَيْئًا تُجَمِّعُهُ ... وَلَاتُضيعنه يومًا عَلَى حَالِ

إِنِّي أُقِيمُ عَلَى الزَّوْرَاءِ(١) أَعْمُرُهَا ... إِنَّ الْكَرِيمَ عَلَى الْأَخْوَانِ ذُو الْمَالِ

كُلُّ النِّدَاءِ إِذَا نَادَيْتُ يَخْذُلُنِي ... إِلَّا نِدَائِي إِذَا نَادَيْتُ يَامَالِي

وتتضاعف حسرة الفقير ، وألمه حينما يرى نفورا من أقاربه ، بل إنَّ من أصعب الأمور على نفسه عندما تطلب زوجته الطلاق لفقره مع أنه من خيار قومه ، وقد شكا زيد بن عمرو بن نفيل(٢) من زوجتيه فقد طلبتا منه الطلاق لما به من الفقر والحاجة فقال(٣) :

تِلْكَ عِرْسَايَ تَنْطِقَانِ عَلَى عَمْـ ... ـدٍ لِيَ الْيَوْمَ قَوْلَ زورٍ وَهَتْرِ(٤)

سَالَتَانِي الطَّلَاقَ أَنْ رَأَتَامَا ... لِي قَلِيلًا قَدْ جِئْتُمَانِي بِنُكْرِ

فَلَعَلِّي أَنْ يَكْثُرَ الْمَالُ عِنْدِي ... وَيُعَرَّى مِنَ الْمَغَارِمِ ظَهْرِي

وَتَرَى أَعْبُدٌ لَنَا وَأَوَاقٍ ... وَمَنَاصِيفُ مِنْ خَوَادِمَ عَشْرِ

وَيْ كَأَنْ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحْبَـ ... ـبْ وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعِشْ عَيْشَ ضُرِّ(٥)

وَيُجَنَّبْ سِرَّ النَّجِيِّ وَلَكِنْ ... أَخَا الْمَالِ مُحْضَرٌ كُلَّ سِرِّ

---

(١) الزَّوْرَاءُ : أرض كانت لأحيحة ، وسميت ببئر كانت فيها ٠ والزوراء: البئر البعيدة العقر ٠

(٢) هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى ٠ والد سعيد بن زيد أحد العشرة ، وابن عم عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - حيث يجتمع معه فى نفيل٠ قال عنه النبى - صلى الله عليه وسلم - : " يبعث أمة وحده " كان يتعبد فى الجاهلية ويطلب دين ابراهيم الخليل - عليه السلام - ٠
الاشتقاق لابن دريد / تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجى القاهرة ١٣٧٨هـ ص : ١٣٤ - ١٣٥ ٠
أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير / تحقيق محمد ابراهيم البنا وآخرين/ طبعة الشعب : ٢٩٥/٢ ٠
الاصابة فى تمييز الصحابة / لابن حجر العسقلانى ، وبهامشه الاستيعاب لابن عبد البر ٠ تحقيق الدكتور طه محمد الزيني ، مكتبة الكليات الازهرية ، الطبعة الاولى ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠م : ٦١/٤ رقم الترجمة (٢٩١٧)٠

(٣) البيان والتبيين: ٢٣٥/١،عيون الاخبار: ٢٤٢/١،خزانة الأدب ٤١٠/٦ ٠

(٤) الهِتْرُ : بالكسر : الكذب والخطأ فى الكلام ٠

(٥) النَّشَبُ ، بالتحريك : المال الاصيل من الناطق والصامت ٠

أما ذو الخرق الطهوى [١] فإنَّهُ يشكو من زوجته التى تمنت فراقه عندما افتقر وكان عليها أن تتذرع بالصبر ، وأن تتحمل معه شدائد الحياة ، يقول [٢] :

مَا بَالُ أُمِّ حُبَيْشٍ لَا تُكَلِّمُنَا ... لَمَّا افْتَقَرْنَا وَقَدْ نُثْرِى فَنَتَّفِقُ

تُقَطِّعُ الطَّرْفَ دُونِى وَهْىَ عَابِسَةٌ ... كَمَا تَشَاوَسَ فِيكَ الثَّائِرُ الحَنِقُ

لَمَّا رَأَتْ إِبْلِى جَاءَتْ حَمُولَتُهَا ... غَرْثَى عِجَافًا عَلَيْهَا الرِّيشُ وَالْخِرَقُ [٣]

قَالَتْ أَلَا تَبْتَغِى مَالًا تَعِيشُ بِهِ ... مِمَّا تلَاقِى وَشَرُّ الْعِيْشَةِ الرَّمَقُ [٤]

فيئى إِلَيْكِ فَإِنَّا مَعْشَرٌ صُبُرٌ ... فِى الْجَدْبِ لَا خِفَّةٌ فِيْنَا وَلَا مَلَقُ [٥]

لقد جنى المجتمع الجاهلي على الفقراء عندما أهملوا وجردوا من كل معانى الشرف ، ولم يشعرهم أحد بقيمتهم الانسانية فى مجتمعهم ، وبخاصة طائفة الصعاليك الذين شكلت عندهم هذه المعاملة شعورا حادا بالانتقام من الأغنياء ، فكونوا جماعات اتحدت فى الهدف والغاية . ليصلوا إلى الثراء الذى ينشدونه ، وبأى شكل من الاشكال . وإن كانوا ليسوا وحدهم الذين عانوا من الفقر فى المجتمع ، واكتووا بناره ، فقد نجد من الشعراء الفقراء من لم يفصحوا فى أشعارهم عن فقرهم ، أو يتذمروا منه أنفة وتعاليا بأنفسهم من الارتماء فى ذل السؤال

---

(١) ذو الخرق : لقب لثلاثة شعراء كلهم من بنى طهية أحدهم قائل هذا الشعر وهو خليفة بن حمل بن عامر بن حميرى ، وكان من فرسانهم . خزانة الأدب : ٤٢/١ .

(٢) الأصمعيات / تحقيق احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون .
طبعة دار المعارف ط (٥) ص : ١٢٤ . وخزانة الأدب : ٤٣/١ .

(٣) العُجَافُ : الهزلى التى لا لحم عليها ولاشحم .

(٤) الرَّمَقُ : القليل من العيش الذى يمسك الرمق وهو بقية الحياة .

(٥) فئى اليك : أى ارجعى الى نفسك .

كما يوضح ذلك الشاعر عنترة العبسي بقوله (١) :

وَأَيْسَرُ مِنْ كَفِّى إِذَا مَا مَدَدتُّهَا لِنَيْلِ عَطَاءٍ مَدُّ عُنْقِى لِذَابِحِ

وقوله أيضا (٢) :

وَلَقَدْ أَبِيتُ عَلَى الطَّوَى وَأَظَلُّهُ حَتَّى أَنَالَ بِهِ كَرِيمَ المَأْكَلِ

وقد امتدح القرآن الكريم هذا الصنف من الفقراء المتعففين من المسلمين فقال تعالى :

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ (٣) .

فإذا ماحدث أن أعرض الشاعر الفقير عن السؤال ، فإن ذلك يرجع إلى الأنفة العربية التى تمنعه من الشكوى والسؤال . لكن الصعاليك تمردوا على المجتمع وقيمه، وأصبح هدفهم السعى وراء الغنى ، واغتصاب الأموال .

وهذه المعانى التى يتحدث عنها الشعراء الفقراء فيما يتعلق بمكانة الفقير فى المجتمع الجاهلي من خلال نظرة المجتمع له، إنما هى سياط تنصب على الفقراء ، تجول فى نفوسهم جميعا ، وقد عبروا عنها فى أشعارهم بمثل قول مالك ابن حريم (٤) الذى يرى أن المال يرفع الخسة ويجعل الذميم محمودا بينما

---

(١) ديوانه : ٤٠ .
(٢) نفس المصدر : ١٢٤ .
(٣) سورة البقرة الآية : ٢٧٣ .
(٤) مالك بن حريم بن دالان الهمدانى . شاعر جاهلي فحل وهو شاعر همدان وفارسها وصاحب مغازيها .
شعر همدان وأخبارها فى الجاهلية والاسلام / جمع وتحقيق ودراسة الدكتور حسن عيسى أبو ياسين ، دار العلوم ، الرياض ط (١) ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م ص ٢٨٩ .

الفقر مذلة لصاحبه بين الناس (١) :

أُنْبِئْتُ وَالأَيَّامُ ذَاتُ تَجَارِبٍ وَتُبْدِى لَكَ الأَيَّامُ مَالَسْتَ تَعْلَمُ
بِأَنَّ ثَرَاءَ المَالِ يَرْفَعُ رَبَّهُ وَيُثْنَى عَلَيْهِ الحَمْدَ وَهوَ مُذَمَّمُ
وَأَنَّ قَلِيلَ المَالِ لِلْمَرْءِ مُفْسِدٌ يَحِزُّ كَمَا حَزَّ القَطِيعُ المُحَرَّمُ
يَرَى دَرَجَاتِ المَجْدِ لاَ يَسْتَطِيعُهَا وَيَجْلِسُ وَسْطَ القَوْمِ لاَيَتَكَلَّمُ

وقد صور مالك بن الحارث الهذلى (٢) العلاقة بين الاغنياء والفقراء فى مجتمعه فقال (٣) :

رَأَيْتُ مَعَاشِرًا يُثْنَى عَلَيْهِمْ إِذَا شَبِعُوا وَأَوْجُهُهُمْ قِبَاحُ
يَظَلُّ المُصْرِمُونَ لَهُمْ سُجُودًا وَلَوْ لَمْ يُسْقَ عِنْدَهُمْ ضَيَاحُ (٤)

ولاشك أنها علاقة نفعية لاتخضع إلى حد كبير إلاَّ للمال ، وقد عكست هذه النصوص الشعرية التى أوردناها ذلك التفاضل الاجتماعى بين الأغنياء والفقراء فى المجتمع الجاهلي ، فصاحب المال الكثير محمود حتى لو كان غير أهل للحمد ، أما الفقير فحظه الحرمان من المجد ، وليس له من سبيل إلى الحديث وسط القوم مهما كان نسبه (٥) .

---

(١) نفس المصدر : ٣٠٠ .
(٢) التعريف به فى الشعر والشعراء: ٦٦٦/٢ والاصابة : ٥/١٠ وغيرها .
(٣) ديوان الهذليين .القسم الثالث : ٨٢ .
(٤) المُصْرِمُونَ : أصحاب المال القليل . الضَّيَاحُ : بفتح الضاد وتخفيف الياء اللبن الرقيق الكثير الماء .
(٥) شعراء صدر الاسلام وتمثلهم للقيم الاجتماعية / للدكتورة وفاء فهمى السنديونى دار العلوم ، الرياض ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م ص: ٢٥١ .

لقد أدى الفقر بكثير من الشعراء الى تشردهم فى الأرض سعيا وراء الغنيمة ، وبذلك كانوا عرضة للجوع والمسغبة ، تقطعت بهم السبل لا أحد يدرى أين وجهتهم [١] :

وَسَائِلَةٍ أَيْنَ الرَّحِيلُ وَسَائِلٍ ... وَمَنْ يَسْأَلُ الصُّعْلُوكَ أَيْنَ مَذَاهِبُهْ
مَذَاهِبُهُ أَنَّ الفِجَاجَ عَرِيْضَةٌ ... إِذَا ضَنَّ عَنْهُ بِالْفِعَالِ أَقَارِبُهْ

ولسنا هنا بصدد الحديث عن الصعاليك فى العصر الجاهلي كمنهج ، لأن الذى يعنينا من آمرهم شعرهم الشاكي ، وأسباب هذه الشكوى ، ولعمرى أن شكوى الصعاليك مؤثرة لصدقهم فى معاناتهم ، فلقد كانوا عرضة للجوع الذى كان من أقوى الدوافع التى آلت بهم الى سلوك التشرد ، والاغارة ، وهو سلوك منحرف خلعتهم قبائلهم بسببه، فخرجوا مشردين عن الأحياء على مافى ذلك من التذمر والتألم [٢] ، فكثرت شكواهم من الفقر والجوع والتشرد ، ومع هذا فإننا قد نجدهم يمزجون شكواهم تلك بشىء من الفخر الذاتى ، فقد وجدنا الشنفرى يصور جوعه ، وتصبره عليه ، وهو يظل يبحث عن القوت القليل كما يبحث الذئب عن فريسته ، وليس الجوع وحسب الذى يعانيه بل ان الهموم والآلام كانت تحالفه وتعاوده معاودة الحمى الشديدة ، وهو يحاول ردها فلا يستطيع يقول [٣] :

أُدِيمُ مِطَالَ الجُوعِ حَتَّى أُمِيْتَهُ ... وَأَضْرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحًا فَأُذْهَلُ [٤]
وأستف تُرْبَ الأَرْضِ كَيْ لاَيَرَى لَهُ ... عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ امْرُوءٌ مُتَطَوِّلُ [٥]

---

(١) ديوان عروة بن الورد : ٢٩ ٠
(٢) الشعر الجاهلي / بطرس البستانى ٠ دار المعلم بطرس البستانى ١٩٦٥م ص ٨٧٠
(٣) مختارات ابن الشجرى : ٨٣ ٠
(٤) المِطَالُ : مأخوذ من المماطلة وهى امتداد المدة ٠ وذهل عن الشيء : نسيه وغفل عنه ٠والصَّفْحُ : الاعراض ٠
(٥) الطَّوْلُ : المن ٠

وَلَـوْلاَ اجْتِنَـابُ الـذَّأْمِ لَـمْ يَبْقَ مَشْرَبٌ ... يُعَـاشُ بِـهِ إِلاَّ لَـدَيَّ وَمَأْكَـلُ [١]

وَلَكِـنَّ نَفْسًـا حُـرَّةً لاَ تُقِيـمُ بِـى ... عَلَـى الضَّيْـمِ إِلاَّ رَيْثَمَـا أَتَحَـوَّلُ

وَأَطْـوِى عَلَى الخُمْصِ الحَوَايَا كَمَا انْطَوَتْ ... خُيُوطَـةُ مَـارِىٍّ تُغَـارُ وَتُفْتَـلُ [٢]

وَأَغْـدُو عَلَـى القُوتِ الزَّهِيدِ كَمَا غَـدَا ... أَزَلُّ تَهَـادَاهُ التَّنَـائِفُ أَطْحَـلُ [٣]

وَإِلْـفُ هُمُـومٍ مَا تَـزَالُ تعـوده ... عِيَـادًا كَحُمَّـى الرِّبْـعِ أَوْهِيَ أَثْقَـلُ

إِذَا وَرَدَتْ أَصْدَرْتُهَـا ثُـمَّ انَّهَـا ... تَثُـوبُ فَتَأْتِـى مِنْ تُحَيتٍ وَمِـنْ عَـلُ

لقد كتب الشقاء نتيجة للفقر وما ارتبط به من الجوع والمسغبة على كثير من هؤلاء الصعاليك ، ونجد أبا خراش الهذلي فى جاهليته كان من الصعاليك الذين اكتووا بنار الجوع وتجرعوا مراراته كثيرا ، فلقد قست عليه الحياة فلم يجد ما يأكل إلاّ بمشقة بالغة ، وليس من عجب أن يشكو من ذلك قائلا [٤] :

وَإِنِّى لَأَثْـوِى الجُـوعَ حَتَّى يملنـى ... فَيَذْهَـب وَلَـمْ يُدْنِـسْ ثِيَابِى وَلاَ جِرْمِـى

وقد يكون خلف تصبره على الجوع عزة قعساء تمنعه من سؤال الناس وتكففهم ، وهو يشكو من زوجته التى سئمت منه نتيجة فقره ، وتعلقت بآخر من الموسرين يقول [٥] :

---

(١) الذَّأْمُ : العيب .

(٢) الخُمْصُ - بالضم : ضمور البطن وبالفتح : الجوع . والحَوَايَا : جمع حويه ، وهى الأمعاء . والخُيُوطَةُ : السلوك ، وهى الخيوط ومارى : اسم رجل .

(٣) الأَزَلُّ : هو الذئب . والتَّنَائِفُ جمع تنوفه وهى المفازة . والأَطْحَلُ : هو الذى لونه بين الغبرة والبياض .

(٤) شرح أشعار الهذليين : ٣/١١٩٩ .

(٥) ديوان الهذليين القسم الثانى : ١٢٥ - ١٢٩ .

لَقَدْ عَلِمَتْ أُمُّ الأُدَيْبِرِ أَنَّنِى ... أَقُولُ لَهَا هَدِّى وَلاَ تَذْخَرِى لَحْمِى (١)
فَإِنَّ غَدًا إِنْ لاَنَجِدْ بَعْضَ زَادِنَا ... نَفِىءُ لَكِ زَادًا أَوْ نُعَدِّكِ بِالأَزْمِ (٢)
رَأَتْ رَجُلاً قَدْ لَوَّحَتْهُ مَخَامِصٌ ... وَطَافَتْ بِرَنَّانِ المَعَدَّيْنِ ذِى شَحْمِ
غَذِىٌّ لِقَاحٍ لاَ يَزَالُ كَأَنَّهُ ... حَمِيتٌ بِدَبْغٍ عَظْمُهُ غَيْرُ ذِى حَجْمِ
تَقُولُ فَلَوْلاَ أَنْتَ أُنْكِحْتُ سَيِّدًا ... أُزَفُّ إِلَيْهِ أَوْ حُمِلْتُ عَلَى قَرْمِ

إنّ المتتبع لشعر هؤلاء الصعاليك الشاكى،وما يفصحون عنه من الجوع والفقر يجدهم يسعون دائما للحصول على المال ، يسدون به رمقهم وخاصة أهلهم ، وأن الواحد منهم قد تأخذه غيبة فى الصحراء فيذكر أولاده وأهله وعندئذ يتقطع قلبه حسرة عليهم ويشكو فقرهم وبؤسهم مصورا حالتهم ورجاءهم ، وهم بالعراء لايملكون شيئا، يرزحون فى فقر شديد لا يعطف عليهم أحد ، ولكنهم مع ذلك ينظرون إلى من عسى أن يأتيهم بشىء يسد بعض حاجتهم يقول الأعلم الهذلي (٣) :

وَذَكَرْتُ أَهْلِى بِالْعَرَا ... ءِ وَحَاجَةَ الشُّعْثِ التَّوَالِبْ (٤)
المُصْرِمِينَ مِنَ التِّلا ... دِ اللاَّمِحِينَ إِلَى الأَقَارِبْ
وَبِجَانِبَىْ نَعْمَانَ قُلْـ ... ـتُ أَلَنْ تُبَلِّغَنِى مَآرِبْ (٥)

---

(١) أُمّ الأُدَيْبِرِ : زوجته . قوله : هَدِّى : أى اقسمى هديتك وما عندك ولا تذخرى .

(٢) الأَزْمُ : يعنى امساك الفم عن الطعام .

(١) شرح أشعار الهذليين : ١/ ٣١٥ .

(٤) العَرَاءُ : الصحراء التى لانبت فيها . والشُّعْثُ : ولده .
والتَّوَالِبُ : الجحاش أى أنهم ملقون بالعراء ليس دونهم حجاب شبههم فى صغرهم بجحاش الحمير .

(٥) مَآرِب : حوائج واحدتها مأربه .

لقد عاش هؤلاء الصعاليك حياة اقتصادية مزرية ، يعانون مرارة الفقر بعد أن تمردوا على مجتمعهم فنبذهم فكان الفقر عقدة العقد فى حياتهم ، تحدثوا عنه فى شعرهم مظهرين تمردهم وشكواهم المريرة من هذا الوضع الاقتصادى الهابط فى مجتمع توزعت فيه الثروة توزيعا غير عادل فتذمروا من فقرهم وهوانهم ، وسوء حالهم ، وضربوا فى الأرض سعيا وراء الغنى فى محاولة لتجاوز واقع البؤس والحرمان وحتى لايكونوا من شرار الناس كما بين ذلك زعيمهم عروة بن الورد . الذى أحس بالفردية الاجتماعية وتخلخل المجتمع بنظامه القبلى ، كما أحس بالتفاوت بين أفراد المجتمع فى الثروة ، والجنس ، واللون ، وشعر بالظلم الذى يتعرض له الفقراء ، والمستضعفين ، فحمل لواء الدعوة إلى التمرد والثورة على الفقر ، ولذلك رأيناه يتوجه باللوم للفقراء يرضون بفتات الأغنياء بينما يثنى على الصعلوك الفقير الذى يشق طريقه فى الحياة عزيزا غازيا ، فالسعى من أجل العزة أفضل من الخنوع والفقر، وإلاّ فالموت فى سبيل العزة والكرامة خير من العيش فى ظل الذل والمهانة (١) :

إِذَا ٱلْمَرْءُ لَمْ يَبْعَثْ سَوامًا وَلَمْ يُرِحْ ... عَلَيْهِ وَلَمْ تَعْطِفْ عَلَيْهِ أَقَارِبُهْ
فَلَلْمَوتِ خَيْرٌ لِلْفَتَى مِنْ حَيَاتِهِ ... فَقِيرًا وَمِنْ مَولًى تَدِبُّ عَقَارِبُهْ

وهو يحمل على الصعلوك الكسول،فيصفه بأرذل الصفات بينما يثنى على الآخر الثائر الغازى الذى يكسب رزقه بقوة سيفه وسطوة يده فيقول (٢) :

---

(١) ديوان عروة بن الورد : ٢٩ .

(٢) المصدر نفسه : ٧٠ ـ ٧٣ .

لَحَى اللَّـهُ صُعْلُوكًا إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ ... مَضَى فِى الْمِشَاشِ آلِفًا كُلَّ مَجْزَرِ (١)
يَعُدُّ الْغِنَى مِنْ نَفْسِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ ... أَصَابَ قِرَاهَا مِنْ صَدِيقٍ مُيَسَّرِ
يَنَامُ عِشَاءً ثُمَّ يُصْبِحُ طَاوِيًا ... يَحُتُّ الْحَصَى عَنْ جَنْبِهِ الْمُتَعَفِّرِ (٢)
قَلِيلُ التِمَاسِ الزَّادِ إِلاَّ لِنَفْسِهِ ... إِذَا هُوَ أَمْسَى كَالْعَرِيشِ الْمُجَوَّرِ (٣)
يُعِينُ نِسَاءَ الْحَيِّ مَا يَسْتَعِنَّهُ ... وَيُمْسِى طَلِيحًا كَالْبَعِيرِ الْمُحَسَّرِ (٤)
وَلَكِنَّ صُعْلُوكًا صَحِيفَةُ وَجْهِهِ ... كَضَوءِ شِهَابِ الْقَابِسِ الْمُتَنَوِّرِ (٥)
مُطِلاًّ عَلَى أَعْدَائِهِ يَزْجُرُونَهُ ... بِسَاحَتِهِمْ زَجْرَ الْمَنِيحِ الْمُشَهَّرِ (٦)
إِذَا بَعُدُوا لَا يَأْمَنُونَ اقْتِرَابَهُ ... تَشَوُّفَ أَهْلِ الْغَائِبِ الْمُتَنَظَّرِ
فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَ الْمَنِيَّةَ يَلْقَهَا ... حَمِيدًا وَإِنْ يَسْتَغْنِ يَوْمًا فَأَجْدَرِ

إنها صورتان مختلفتان للصعلوك المثال ، وآخر الخامل الكسول ، فإما أن يكون خاملا يتكفف الناس ، وإما أن يكون ثائرا عزيزا يكسب رزقه بقوته وبأسه وذاك فى نظر عروة الافضل وهو الشجاع دائما .

---

(١) الرواية المشهورة : مَصَافِى المشاش : أى مختار المشاش . والمشاش رأس العظم اللين. ومضى فى المشاش : هنا أى مضى له مؤثرا للأكل . والمجزر : الموضع الذى يجزر فيه الابل . فهو الدهر فى موضع مأكل . والصعلوك الذى أراده هنا هو الرجل الخامل . الذى رضى بوضعه فى تكفف الناس واستجدائهم .

(٢) يَحُتُّ الحَصَى : أراد أنه لايبرح الحى . فهو مقيم فيه .

(٣) العَرِيشُ : ما يشبه الخيمة .

(٤) يُمْسِى طَلِيحًا : يريد أنه أعياه السفر . وحسر من العمل فكأنه بعير محسر. أى ضعيف .

(٥) ولَكِنَّ صُعْلُوكًا : يريد ، ولكن صعلوكا هكذا وجهه لالحاه الله . فهو الفاضل الذى يعيش من غزواته وما يكسب .

(٦) مُطِلاًّ : مشرفا على أعدائه لأنه يغزوهم دائما فهو مشرف ومطل عليهم . يَزْجُرُونَهُ : يصيحون به . المَنِيحُ : سهم من سهام الميسر لانصيب له . اللسان (منح) والافصاح فى فقه اللغة : ١٣١٥/٢ .

لقد كانت الشكوى من الفقر مدوية عند هؤلاء الصعاليك فهذا صخر الغي يشكو من فقره وضيق ذات يده فيقول (١) :

إِنِّي بِدَهْمَاءَ قَلَّ مَا أَجِدُ   عَاوَدَنِي مِنْ حِبَابِهَا زُؤُدُ

ومثل هذه الشكوى نجدها عند عمرو بن براق فى قوله أيضا (٢) :

وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلَ مَنْ جُلُّ مَالِهِ   حُسَامٌ كَلَوْنِ المِلْحِ أَبْيَضُ صَارِمُ

وفى إشارته هنا إلى السيف دليل على غزوه المستمر ، فسيفه جل ماله وهو مايعتمد عليه لعيشه .

أما طرفة بن العبد فانه ليس من هؤلاء الصعاليك لكن الفقر قد مضه فتجلت الحقيقة المرة عنده فى خلو يده من المال بعد أن حرم الولد فعبر عن هذا الوضع الذى يعيشه بمرارة قاسية ، فلو شاء الله وهبه الولد فكان كقيس بن خالد ، ولو شاء وهبه المال فكان كعمرو بن مرثد (٣) ، ولأقبل كرام الناس وساداتهم يعودونه ويخطبون وده ، ويأتى تعبيره عن هذه الحقيقة فى أسلوب شكائى متألم من كبوة الحظ ، وعثرة الأيام لابنون لديه ولا مال (٤) :

---

(١) ديوان الهذليين القسم الثانى : ٥٧ .

(٢) أمالى القالى : ١٢٢/٢ .

(٣) قيس بن خالد بن عبد الله ذى الجدين من بنى شيبان له كثير من البنين ، وعمرو بن مرثد ابن عم طرفة كان ذا مال وفير وعيال وحفدة . وقد أثرت فيه هذه الشكوى لما سمعها فاستدعى طرفة وأغدق عليه المال .

شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات : ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٤) ديوانه : ٥١ .

فَلَو شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بن خَالِدٍ وَلَو شَاء رَبِّي كُنْتُ عَمْرَو بنَ مَرْثَدِ
فَأَصْبَحْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَعَادَنِي بَنُونَ كِرَامٌ سَادَةٌ لِمُسَوَّدِ

والسليك بن السلكة (١) يشكو من عجزه عن مساعدة خالاته اللواتى يمتهن من قبل الأغنياء لكن ماله يعجز عن مساعدتهن ، وليته يكفيه ، وهو لايقصد خالاته فى النسب وإنما يقصد النساء الإماء اللواتى يشاركنه فى اللون والفقر يقول(٢) :

أشاب الرَّأْسَ أَنِّى كُلَّ يَوْمٍ أَرَى لِى خَالَةً وَسْطَ الرِّحَالِ
يَشُقُّ عَلَىَّ أَنْ يَلْقَيْنَ ضَيْمًا وَيَعْجِزُ عَنْ تَخَلُّصِهِنَّ مَالِى

إنَّ من الامور التى تنتج عن الفقر شدة الجوع الذى يتعرض له الفقراء ، وما ينشأ عن ذلك من ضعف وهزال ونحول الأجسام ، وقد اشتكى الشعراء الفقراء من هذه المظاهر المؤلمة ، ومنهم تأبط شرا،فهو يشكو من قلة زاده ، وضعف حسمه ، ونتوء عظامه حتى التصقت أمعاؤه (٣) :

قَلِيلُ ادِّخَارِ الزَّادِ إلاَّ تَعِلَّةً وَقَدْ نَشَزَ الشُّرْسُوفُ وَالْتَصَقَ المَعَى (٤)
يَبِيتُ بِمَغْنَى الوَحْشِ حَتَّى أَلِفْنَهُ وَيُصْبِحُ لَايَحْمِى لَهَا الدَّهْرَ مَرْتَعَا (٥)

---

(١) هو السليك بن عمرو بن يثربى من بنى كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، وهو من أغربة العرب ، وصعاليكهم ، وعدائيهم كما أنه من الشجعان الذين يرهبهم الفرسان فى الجاهلية حيث عاش فى تلك الفترة .
الشعروالشعراء : ٣٦٥/١ - ٣٦٨ .

(٢) شعر بنى تميم فى العصر الجاهلى : ٥٦ .

(٣) ديوان تأبط شرا وأخباره / جمع وتحقيق وشرح على ذو الفقار شاكر .دار الغرب الاسلامى - الطبعة الاولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ص : ١١٥ .

(٤) التَّعِلَّةُ والتَّحِلَّةُ : القليل الذى يتعلل به ويسد به الرمق من الزاد.
والشُّرْسُوفُ : واحد الشراسيف وهى أطراف أضلاع الصدرالتى تشرف على البطن . ونشوزها من شدة ضمور البطن والجسم والتصق المعى : أى التصقت الأمعاء كناية عن انطواء البطن وضمورها .

(٥) مَغْنَى الوَحْشِ : أى منازل الوحش ومرابعها. ولايحمى لها مرتعا : أى لايحمى من أجلها مرعى ولايشغل نفسه بصيدها. وقد أنست اليه الوحوش ،وألفته لطول عهدها به معها فى القفار .

ونحن إذ نأتى إلى نهاية هذا المبحث نود أن نقول : بأن الفقر مجمع العيوب وهو كنز البلاء [(١)] ، وقد استعاذ الرسول - صلى الله عليه وسلم - من شر فتنة الفقر فقال : (أعوذ بك من شر فتنة الفقر) [(٢)] وقال : (إنى أعوذ بك من الكفر والفقر) [(٣)] وقال بعضهم : (ماضرب العباد بسوط أوجع من الفقر) [(٤)] فلا غرابة إذا أن نجد صيحات الشكوى من الفقر عند الشعراء فى العصر الجاهلى بل وفى سائر العصور اللاحقة ، فقد وجدناهم تارة يشكون من الفقر المدقع وأنه لايوجد عند بعضهم غير سلاحه يعتمد عليه ، وأحيانا أخرى نجدهم يشكون من الجوع الناتج عن الفقر، وأحيانا نجدهم كذلك يشتكون من نحول الأجسام، والضعف المتناهى ، ويصورون فى شكواهم تلك حالتهم وما يعانونه من ذل وهوان ، بل نجدهم كذلك لاينسون أن يفتخروا بشجاعتهم ، وسرعة عدوهم ، ومرافقتهم لحيوانات الصحراء .

وخلاصة القول أن المجتمع الجاهلى لم يكن متماثلا فى توزيع الثروة فلم يكن هناك ما يؤخذ من الأغنياء فيرد على الفقراء كما حدث فى الاسلام من أمر الزكاة ، لكن الأموال تركزت حينذاك عند بعض الناس فى مناطق معينة قد يكون منها مكة والمدينة ، وبعض مناطق اليمن ، والطائف ، والحيرة ، بينما ظل عرب البادية يحسون بضراوة الجوع ووطأة الفقر ، وشدة المعاناة نتيجة لتعرض باديتهم للجدب وعدم نزول الأمطار بشكل مستمر ، ومن هنا فإن أغلب الفقراء كانوا من عرب البادية الذين قاموا بزعزعة الأمن ونشر الفوضى فى محاولة منهم لمشاركة الأغنياء فى ثرائهم ، والتخلص من شبح الفقر،والجوع . وإن كان بعضهم قد أخذ ظاهرة

---

(١) التمثيل والمحاضرة / للثعالبى . تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو . مطبعة الحلبى القاهرة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١م ص : ٣٩٥ .

(٢) مسند الامام احمد : ٥٧/٦ (طبعة المكتب الاسلامى) .

(٣) المصدر نفسه : ٣٦/٥ .

(٤) اللطائف والظرائف للمقدسى : ٣٩ .

الصعلكة عن رغبة وقناعة لا يستطيع منها فكاكا كما عبر عن ذلك الأحيمر السعدى (١) عندما حاول التوبة فى آخر حياته فكان يغالب نفسه مغالبة شديدة حينما تمر به القوافل التى ماكانت لاتنجو منه قبل ذلك فنجده يشكو صبره عن سلبها ويحن لتلك الأيام السالفة (٢) :

أَشكُو إِلَى اللَّهِ صَبْرِى عَنْ زَوَامِلِهِمْ ... وَمَا أُلَاقِى إِذَا مَرَّتْ مِنَ الحَزَنِ
لَكِنْ لَيَالِىَ نَلْقَاهُمْ فَنَسْلُبُهُمْ ... سُقْيًا لِذَاكَ زَمَانًا كَانَ مِنْ زَمَنِ

وربما كان ذلك محاولة منهم لمجاراة الأغنياء فى الكرم ، والبذل ، فالعربى بطبعه كريم سخى ، أو أن جودهم المفرط كان سببا فى إتلاف مافى أيديهم فهم كرماء لايحبون البخل (٣) :

وَقَدْ عَلِمَتْ سُلَيْمَى أَنَّ رَأْيِى ... وَرَأْىَ البُخْلِ مُخْتَلِفٌ شَتِيتُ
وَأَنِّى لَايُرِيْنِى البُخْلَ رَأْىٌ ... سَوَاءٌ إِنْ عَطِشْتُ وَإِنْ رَوِيتُ

ولعل هذا أيضا من الأسباب التى أدت بعروة وغيره إلى الجود فأتلفت أموالهم وعندئذ اتجهوا الى حياة الصعلكة ٠

---

(١) التعريف به كاملا فى أشعار اللصوص وأخبارهم / جمع وتحقيق عبد المعين الملوحى ، منشورات دار أسامة - دمشق ط (١) ص : ٩٩ - ١١٣ ٠

(٢) المصدر نفسه : ١١٣ ٠

(٣) ديوان عروة بن الورد : ٣٥ ٠

الفصل الثاني

الشكوى الاجتماعية في القرن الأول الهجري

ويشتمل على ما يلي :

★ مدخل في دراسة الحياة الاجتماعية

المبحث الأول : الشكوى من فراق الأبناء والأقارب.

المبحث الثاني : الشكوى من ظلم الولاة.

المبحث الثالث : الشكوى من السجن.

مدخل فى دراسة الحياة الاجتماعية :

تحدثنا فى الفصل الأول من هذا الباب عن الشكوى الاجتماعية فى العصر الجاهلي ، وحصرناها فى الشكوى من الظلم بأشكاله المختلفة ، كما تحدثنا عن الشكوى من الفقر والشيخوخة ، وربطنا ذلك فى جانب كبير منه بالبيئة الجاهلية التى أثرت فى نفس الشاعر وتوجهاته الفنية . وفى هذا الفصل سنعرض - بحول الله - للشكوى الاجتماعية فى القرن الأول الهجرى ، وسنتلمس أسبابها ودوافعها بعد عرض موجز للحياة الاجتماعية فى هذه الفترة .

إنّ مظاهر الاختلاف بين وضع الجاهليين الاجتماعى ، وما طرأ بعد ظهور الاسلام تبدو جلية فى أكثر مظاهر الحياة . بل إن الباحث يلمس اختلاف الحياة الاجتماعية فى عصر صدر الاسلام عنها فى بداية الخلافة الأموية . كما أنها تختلف فى خلافة معاوية بن أبى سفيان عنها فى خلافة ابنه يزيد . والحياة الاجتماعية فى خلافه عبد الملك بن مروان ، والوليد بن عبد الملك ، وسليمان بن عبد الملك تختلف عنها فى خلافة عمر بن عبد العزيز . وهكذا حتى نصل إلى نهاية الدولة الأموية ، وما بعدها (١) .

لقد تغيرت الأحوال الاجتماعية فى القرن الأول الهجرى ، واستجدت ظروف على الحياة بعد أن اتسعت رقعة المجتمع المسلم ، واختلط العرب بغيرهم من الأجناس الأخرى ، وما صاحب قيام الدولة الأموية من فتن وحروب واضطرابات داخلية .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦/٤٩٧ .

إنّ الباحث فى الأحوال الاجتماعية إبان ظهور الاسلام يدرك تماما مدى التغير الذى طرأ على بنية المجتمع المسلم (١) . فقد نشأت أمور فى حياة الناس وتلاشت أخرى أمام صفاء الاسلام ، وعدالته ، ومنهجه فى تهذيب النفوس ، وصياغتها بما يتفق وفطرة الله التى فطر الناس عليها ، فقد أخرج الاسلام الانسان من دياجير الشرك ، وظلمات الجهل ، وهداه إلى نور الحق ، والعدل ، وكفل له العيش الكريم فى ظل نظام اجتماعى أوجده ، وحث عليه ، ودعا إلى تعميمه ، وانتشاره . فكانت الزكاة أحد أركان الاسلام الخمسة فرضت على أغنياء المسلمين حق معلوم فى أموالهم لفقرائهم قصد منها تطهير النفوس المؤمنة وتزكيتها وزيادة المال ونماؤه (٢) . وإذا كان الجور والظلم ، والتعامل بالربا وبخس الناس أشياءهم فى الموازين والمكاييل من أبرز مظاهر الحياة الاجتماعية فى العصر الجاهلي فإن الاسلام عندما جاء أنكر هذه الآفات الاجتماعية ، وشدد العقوبة على مرتكبيها ، وجاءت تعاليمه صافية نقية صفاء عقيدته . لذا اختفت ظاهرة الشكوى من الفقر فى شعر القرن الأول الهجرى إلا عند بعض الشعراء الذين احترفوا مهنة السؤال منذ جاهليتهم . وبخاصة فى صدر الاسلام لانتشار العدل والمساواة بين الناس إذ حرّم الاسلام الظلم، وشدد فى هذا التحريم بنص الكتاب والسنة . قال تعالى :

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ (٣)

---

(١) الصاحبى / لأبى الحسن بن فارس . تحقيق السيد احمد صقر طبعة الحلبى ١٩٧٧ م ص : ٧٨ .

(٢) قال الله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ التوبة : ١٠٣ .

(٣) سورة الشعراء آية : ٢٢٧ .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ لَا فْتَدَوْا بِهِ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ النَّارِ الَّتِى كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ (٢) .

وفى الحديث يقول المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فيما يرويه عن ربه : ﴿ يَا عِبَادِى إِنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا ﴾ (٣)

وانطلاقا من هذه التعاليم السامية قضى الاسلام على الفوارق الاجتماعية المتمثلة فى الجنس ، واللون ، وجعل الأفضلية للمسلم مهما نزل به نسبه أو أغرق فى السواد لونه (٤) ، وعندئذ رسم الرسول الكريم ، وخلفاؤه الراشدون الطريقة المثلى فى الحكم فأخذوا أنفسهم بالذى أمر به القرآن الكريم لايحيدون عنه ، وتجردوا عن الهوى ، والأثرة والمحاباة ، وكان خوفهم من أن يظلموا أشد من رغبتهم فى أن يحكموا .

ويعد عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - فاتحة هذا القرن عهد بناء الجماعة المسلمة على أسس من وحي السماء فصغرت الدنيا بما فيها فى أعين الناس وطوعوا أنفسهم للحياة الاجتماعية الجديدة يكيفونها على حب الله وحب الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومتى تحقق هذا الحب كان فيه مايغنى عن ملذات الحياة .

---

(١) سورة الزمر آية : ٤٧ .

(٢) سورة سبأ آية : ٤٢ .

(٣) مسند الامام أحمد : ٥/١٦٠ .

(٤) وهذا تكريم للانسان انطلاقا من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ الاسراء آية : ٧٠ .

ولم يشهد التاريخ الانسانى فى عصوره القديمة والحديثة حقبة من الزمن عم فيها العدل ، ونعم الناس بحياة اجتماعية أعطت كل إنسان حقه ، وكفلت له الحرية فى إدارة شؤونه مثل ماحدث فى بداية القرن الأول الهجرى حتى نهاية الخلافة الراشدة ، فقد كان المسلمون فى عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - يتلقفون تشريعاتهم الدينية ، ونظمهم الاجتماعية والسياسية منه مباشرة، وهو لاينطق عن الهوى ٠

وما أن لحق - صلى الله عليه وسلم - بربه حتى اختل أمر المسلمين ، وماجت الجزيرة بنوع من الردة ، وكادت الفتنة أن تحصل لولا أن السلف الصالح من الرعيل الأول صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تداركوا الأمر - بتوفيق الله - فقام أبو بكر - رضى الله عنه - بالمهمة خير قيام ، وأعاد الأمور إلى نصابها، ووجه الجيوش المسلمة لاعلاء كلمة الله ونشر دينه ٠

وهكذا ساس الخلفاء الراشدون الرعية سياسة عادلة ، وحرصوا أشد الحرص على السير بالأمة وشؤونها سيرا سليما نزيها خلص المجتمع من الأمراض الاجتماعية التى تنخر جسد الأمة كالفساد الإدارى ، وما يترتب عليه من ضياع لحقوق الناس ٠ وبقدر ما انصرف الخلفاء الراشدون للفتوح الاسلامية والجهاد، فإنَّهم مع ذلك قد أولوا المصالح الاجتماعية عناية فائقة ، وكم قرأنا عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وهو يتفقد أحوال الناس ليل نهار ، يحمل الدقيق والزيت على ظهره لإطعام الفقراء فى المدينة (١) ، أو يجرى فى شدة الهاجرة خلف إبل الصدقة حرصا منه على رعاية أموال المسلمين (٢) ، وكان يريد أن يقيم فى كل مصر من أمصار المسلمين

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢٠٥/٤ - ٢٠٦ ٠

(٢) نفس المصدر : ٢٠١/٤ ٠

التى كثرت فى عهده فترة من الزمن يتفقدها،ويتلمس حاجات الناس ومطالبهم (١).

ولئن وجدنا صيحة الشكوى بوجه عام خافتة فى بداية القرن الأول الهجرى لدى الشعراء،فإنّ مرد ذلك النهج السوى ، والحرص الشديد الذى اتخذه الخلفاء الراشدون فى المحافظة على مصالح الأمة ، ونشر العدل فى الرعية ، ومعرفة الناس التامة بما لهم من حقوق ، وما عليهم من واجبات إضافة إلى أنهم لازالوا يعيشون وهج العصر النبوى الذى عم فيه العدل،ولم يتفاضل الناس إلاّ بقدر ما لديهم من رصيد فى أعمال الخير .

ولكن ما أن مضى النصف الأول من القرن الأول ، وانتهى زمن الخلفاء الراشدين بمقتل على بن أبى طالب - رضى الله عنه - (٤٠ هـ) وقبل ذلك فتنة مقتل على - رضى الله عنه - (٣٥هـ) حتى كان هذا القرن مسرحا لتفاعل المؤثرات ، والعوامل التى ظهرت آثارها واضحة لذى بصر فى المجتمع المسلم عند القرنين الثانى والثالث الهجرى (٢) فيما بعد . فقد أخذت الحياة الاجتماعية تتغير تبعا لتغير نظام الحكم ، وما صاحبه من متغيرات سياسية واتساع رقعة الدولة الاسلامية ، وانشغال المسلمين بكثير من الفتن فيما بينهم ، ولعل اقبال بعض الخلفاء الأمويين على الدنيا خلال هذه الفترة ، وأخذهم بأسباب اللهو والمجون (٣) - إن صح ذلك - من الأسباب التى فرضت كثيرا من الأمور الاجتماعية التى ظهرت فى حينها غريبة على المجتمع المسلم ثم صارت أمرا واقعا تقبله الناس

---

(١) نفس المصدر : ٢٠١/٤ - ٢٠٢ .
(٢) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى : ٥٦ .
(٣) العقد الفريد : ٣٤٨/٦ .
مروج الذهب ومعادن الجوهر / للمسعودى ، شرح محمد محى الدين عبدالحميد ، دار المعرفة بيروت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م : ٧٧/٣ .
تاريخ ابن خلدون ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٨١م : ٣١٢/١ .

ونتج عنه الكثير من الانحرافات الاجتماعية .

وليس ثمة من شك فى أن انشغال الخلفاء بالصراعات السياسية قد استأثر بالكثير من وقتهم ، وأبعدهم عن ترتيب الوضع الاجتماعى وتحسينه، وأصبح الناس يأتون بكثير من التجاوزات فى القول ، والعمل ، وربما كان الخليفة عبد الملك بن مروان محقا فى قوله : (ألا تنصفونا يامعشر الرعية تريدون منا سيرة أبى بكر وعمر ، ولم تسيروا فى أنفسكم ولا فينا بسيرة رعية أبى بكر وعمر، أسأل الله أن يعين كلا على كل) (١) .

وإذا صحت هذه المقولة فإنها تعنى فى نظر أقوى خلفاء بنى أمية أشياء كثيرة . تعنى أن الخلفاء الأمويين ليسوا فى عدل أبى بكر وعمر، وأنهم أخذوا يسوسون الناس سياسة تحكمها عوامل ترتبط بالمحافظة على الحكم وبقائه فى بيت معين . وتعنى أن الناس أيضا قد ظهر فيهم ميل إلى حب الدنيا ، وربما ضعف الوازع الدينى لديهم فأسرفوا فى ذلك .

وعندئذ أصبح اختيار الولاة خاضعا لصفات تتعلق بالسياسة والعصبية أكثر مما تتعلق بالدين والحفاظ على مصالح الأمة (٢) .

ومن هنا تشكلت حياة الناس ففقدوا كثيرا من القيم الاجتماعية بعد أن اختلط العرب بغيرهم من الأجناس الأخرى فى المناطق المفتوحة حيث تلاشت تحفظات

---

(١) البيان والتبيين : ٢٦٥/١ .

(٢) التظلم من الحكام فى أدب العصر الاسلامى والأموى / الدكتور باقر عبدالغنى ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد السادس ١٩٦٣م ص : ١٢٨ .

الخلفاء الراشدين وحرصهم على الهوية العربية [١] فكان لذلك آثره الواضح فى قيام مجتمعات جديدة فى الأقاليم المفتوحة تعد فى كيانها خليطا من العرب وغيرهم من الأجناس الأخرى •

وما يكاد هذا القرن يوشك على الانتهاء حتى ظهرت ملامح المجتمع الجديد فى وضعها الجديد ، وتشكلت حياة الناس فى ألوان عديدة من النظم الاجتماعية الجديدة التى فرضتها طبيعة العصر ، وألوان أخرى من العادات الاجتماعية تتعلق بالملبس والمأكل ، والأعياد ، وغير ذلك [٢] استجدت كلها على المجتمع المسلم نتيجة لتدفق الأموال فى أيدى الناس ، وكثرة خراج الدولة الاسلامية ، فعاشوا فى رغد من العيش ، وخلدوا إلى الترف ، وكانت مدن الحجاز مكة والمدينة - بقدر مكانتهما الدينية - تعج فى جنباتها بدور الغناء إذ كثر المغنون والمغنيات نتيجة لما سبق ، ولكثرة الاسترقاق من الأمم التى غلبها الاسلام ، وربما كان من هؤلاء الرقيق والإماء من كان يجيد فن الغناء [٣] ، ولم يكن هذا مقصورا على الحجاز

---

(١) تاريخ الطبرى : ٤٤/٤ وفيه أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - حدد للمسلمين عندما نزلوا الكوفة طريقة بناء الدور مراعاة للسنة ، وحفاظا على الهوية العربية حتى فى المبانى وعدم تقليد الأعاجم فى بنيانهم وأسلوب حياتهم •

(٢) تاريخ الطبرى : ٣٨١/٥ ، والحضارة العربية الاسلامية / الدكتور على الخربوطلى مكتبة الخانجى ١٩٧٥م ص : ٩٦ •
والشعر الأموى فى خراسان والبلاد الايرانية / الدكتور الهادى حمودة الغزى ، الدار التونسية للنشر ١٩٧٦م ص : ٣٧ - ٣٩ •

(٣) اتجاهات الشعر فى العصر الأموى : ٦٠ •
وتاريخ العرب مطول / فيليب حتى ، دار الكشاف بيروت ١٩٥٠م : ٢٩٩/٢ •

وحده بل ربما ساد أغلب مدن الخلافة الأموية وأقاليمها فى الشام والعراق ومصر، ولم يخل من هذه المظاهر إلا البادية حيث ظل أهلها مع اسلامهم يعيشون الشظف والحرمان ، فبقيت الحياة البدوية التى تحكمها ظروفها الخاصة ، بينما ظهرت العصبية القبلية حية ، وانطلقت من كل قيد بعد أن كان مضيقا عليها فى عصر صدر الاسلام حيث العهد النبوى والخلافة الراشدة ، وقد ظهرت دواعى هذه العصبية واضحة فى سوق المربد والكناسة [١] حيث أصبح للشعراء المجال واسعا فى إذكاء جذوتها تحت سمع وبصر السلطة ، فكانت حياة الناس عندئذ فى هاتين المدينتين وغيرهما من الأمصار الاسلامية شبيهة بحياتهم فى الجاهلية ، وكأنهم تناسوا قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - (إنَّ الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها...) [٢].

ولم تكن هذه العصبية مقصورة على القبائل العربية فيما بينها،بل وصل الأمر بالخلفاء الأمويين إلى التعصب المعلن لبعض القبائل ضد بعض ، وللعرب على غيرهم من الموالى حيث غدا هذا الاتجاه سائدا يميز حكم الأمويين طيلة فترتهم، وكان من الطبيعى نظير هذا أن يقبل هؤلاء الموالى فى المجتمع المسلم الجديد على الدروس العلمية ، والفنون ، والآداب ، حيث لم يكن لهم مجال فى الحياة السياسية ، إضافة إلى كونهم أبناء ثقافة عريقة [٣]. وما كادوا يقتربون من العرب فى ميدان الحياة الفكرية حتى فرضوا كثيرا من مؤثراتهم الاجتماعية ، وأخذوا يتطاولون للوصول إلى الزعامة السياسية كما سنرى فيما بعد .

---

(١) معجم البلدان (مربد) .

(٢) رواه أبو داود فى كتاب الأدب ٣٤٠/٥ والترمذى فى كتاب المناقب باب فضل الشام واليمن : ٧٣٤/٥ - ٧٣٥ .

(٣) الحياة الاجتماعية فىالعراق (رسالة ماجستير) اعداد مليحة رحمه الله، مركز البحث العلمى بجامعة أم القرى برقم ٨٨ رسائل . ص : ١٤ .

وقد امتزجوا بالزواج هم والعنصر الفاتح،فتهجن الدم العربى ، وكاد يضيع بين هذا الخليط من الأجناس البشرية • ولقد كان لهذا الاختلاط طابعه المميز الذى أثر فى الحياة الاجتماعية خلال القرن الأول الهجرى ، وهو محصلة من محصلات الفتح الاسلامى الذى أشرع باب التسامح على مصراعيه ، فاختلط الفاتحون بغيرهم من الأقوام الذين دخلوا فى دين الله ، أو الذين بقوا على ماكان عليه آباؤهم نظير دفع الجزية •

لقد عاش العرب مع سكان البلاد المفتوحة الأصليين ، وظهر أثر اختلاطهم بسكان تلك البلاد على حياتهم الاجتماعية ، فقد اكتسبوا شيئا من عاداتهم ، وتقاليدهم ، ونظم معيشتهم ، وشكلوا معا جنسا واحدا شارك فى فتح كثير من المناطق (١) ، لكن العرب شعروا فيما بعد بخطر هذا الاختلاط ، وأدركوا أبعاده عندما بدأت بذور الشعوبية تأخذ وضعها المريب فى المجتمع ، وتعمل على تقويض أركان الدولة المسلمة مهماتقمصت من دعاوى الاصلاح أو حاول أصحابها إخفاءها وعدم البوح بها •

ومع هذا فقد ظهرت هذه النزعة صريحة ، وأعلنها شعراء الموالى فى القرن الأول،كقول اسماعيل بن يسار النسائى فى فخره بالعجم على العرب (٢) :

---

(١) فتوح البلدان : ٥٠٣/٣ •

(٢) الأغانى : ٤١١/٤ - ٤١٣ (دار الكتب) •
وله قصيدة أخرى تدور حول هذا المعنى فى نفس المصدر : ٤٢٣/٤ ومن شعراء الشعوبية فى هذا القرن اسماعيل بن يسار واخوانه / محمد وابراهيم وهم من عنصر فارسى • والحيقطان الشاعر ، وهو من سلالة حبشية ، وابن رباح، وهو من أصل زنجي ، وقد عاشوا جميعا فى آخر القرن الأول وبداية الثانى •

رُبَّ خَالٍ مُتَوَّجٍ لِى وَعَمٍّ ... مَاجِدٍ مُجْتَدًى كَرِيمِ النِّصَابِ
إِنَّمَا سُمِّىَ الفَوَارِسُ بِالْفُرْ ... سِ مُضَاهَاةَ رِفْعَةِ الأَنْسَابِ
فَاتْرُكِى الْفَخْرَ يَا أُمَامُ عَلَيْنَا ... وَاتْرُكِى الْجَوْرَ وَانْطِقِى بِالصَّوَابِ
وَاسْأَلِى إِنْ جَهِلْتِ عَنَّا وَعَنْكُمْ ... كَيْفَ كُنَّا فِى سَالِفِ الأَحْقَابِ
إِذْ نُرَبِّى بَنَاتِنَا وَتَدُسُّو ... نَ سَفَاهًا بَنَاتِكُمْ فِى التُّرَابِ

وقد أحس العرب بهذا الاتجاه المشبوه،وشكوا وتألموا منه،لأنهم يرون فيه نذير انقسام خطير فى صفوف المسلمين . بل انهم يرون فى الشعوبية إعادة المجوس ترتيب وضعهم الاجتماعى والسياسى،للانقضاض على العرب المسلمين متى سنحت لهم الفرصة .

ونتيجة لما سبق،فإن المجتمع المسلم فى القرن الأول الهجرى لاسيما فى نصفه الثانى قد طرأ عليه تحول كبير ، وظهرت بوادر هذا التحول فى تركيبة المجتمع،فأخذت الحياة تتعقد لتأثرها بحضارات مختلفة ، فقد ضعف الوازع الدينى ، وبعد العرب قليلا عن صفاء الاسلام ونقائه ، وانكبوا على الملذات ، ورغبوا فى الدنيا ، وحطامها . وهذا لايعنى بأى حال من الأحوال انقطاع المسلمين عن عقيدتهم وتحللهم من دينهم،فإن هناك العلماء الفضلاء ، والنساك ، والزهاد الذين وجدوا فى هذا القرن (١) ، فكان تيار الزهد يسير جنبا إلى جنب مع تيار البعد عن الدين ، ويقف على قدميه مع ما استجد من مذاهب فكرية فى القرن الأول الهجرى وما تلاه .

ولا نريد أن نمعن كثيرا فى دراسة هذه الناحية،فهى تمهيد لأثر هذه الحياة على الشعر . ولعل فى النصوص الشعرية التى أشارت إلى بعض مظاهر الشكوى

---

(١) البيان والتبيين : ٣٦٢/١ - ٣٦٦ .

الاجتماعية فى القرن الأول مايجلو الحقيقة ، فالشعراء وهم أقدر من غيرهم على تصوير حياة المجتمع كان لهم دور مهم خلال الحكم الأموى وما تلاه فى الكشف عن كثير من التحولات التى طرأت على المجتمع فى تلك الأثناء .

وحينما نبحث فى الشكوى الاجتماعية فىالقرن الأول الهجرى فإنه يحسن بنا دراستها فى بداية هذه الفترة لتحول العرب كما رأينا قبلا إلى حياة اجتماعية جديدة . فلعل هذه البداية تفضى بنا إلى دراسة الجديد فىالشكوى الاجتماعية فى القرن الأول . وما نود الاشارة إليه فى البداية أن هناك بواعث مشتركة للشكوى الاجتماعية بين العصر الجاهلي والقرون الثلاثة الأول التى نحن بصدد دراسة الشكوى عند شعرائها (١) ولذلك فان البحث قد لايجد جديدا فى تلك الأنماط المشتركة وعليه فاننا سنضعها جانبا بحثا عن الملامح الجديدة للشكوى الاجتماعية فى القرن الأول الهجرى .

---

(١) تحدثنا عن هذه الناحية فى الفصل الأول من الباب الأول من هذا البحث . بما لايدع لنا مجالا للحديث عنها هنا .

المبحث الأول

الشكوى من فراق الأبناء والأقارب فى القرن الأول

إنّ أول مانجده فيما يتصل بالشكوى من جانبها الاجتماعى فى بداية القرن الأول الهجرى ، ماكان صدى لتلك الفتوحات الاسلامية المباركة وما ترتب عليها من قيم اجتماعية جديدة ، فقد سار الجيش المسلم من الجزيرة يفتح الآفاق ، وينشر الاسلام فى ربوع الدنيا ، وكان من الطبيعى أن تتفرق أسر وقبائل تلبية لداع الجهاد المقدس ، فيذهب مع الجيش المسلم من يذهب ، ويبقى من لاتمكنه أحواله الاجتماعية من المسير مع الجيش،أو من لاتعينه قواه على المشاركة فى شرف الفتح والنصر ، ومن استقرائنا لنصوص الشعر،فقد وجدنا جل من بقى كان من الآباء والأمهات والشيوخ والزوجات (١) .

ومن سنة الله فى خلقه أن يتشوق هؤلاء العجزة إلى أقاربهم المغتربين، وأن تزدحم نفوسهم ، وقلوبهم بالألم ، وأن يكابدوا من الحنين والشوق إلى رؤية هؤلاء الأقارب ما الله به عليم . فانبروا يشكون مايعانونه من الحزن والألم .

---

(١) من هؤلاء الزوجات اللواتى رزئن بفقد أزواجهن بعد فراقهن زوجة عمرو بن معد يكرب الزبيدى،فقد مات فى الجهاد،فرثته بأبيات تقطر ألما وشكوى لفراقه .

شاعرات العرب / جمع وتحقيق عبد البديع صقر ، المكتب الاسلامى ط (١) ١٣٨٧ هـ : ٣٩ .

وكذلك المرأة التى سمعها عمر بن الخطاب - رض الله عنه-وقد أغلقت عليها بابها وهى تشكو فراق زوجها الذى ذهب مع الجيش المسلم ، وقد رق عمر لهذه الشكوى ووجه الى المرأة كسوة ونفقة ، وكتب أن يقدم عليها زوجها .

مصارع العشاق / لأبى محمد جعفر بن احمد القارئ ، طبعة دار صادر بيروت (د . ت) : ١٤٦/٢ .

وكان من هؤلاء الشعراء المخبل السعدى (ت ٢٣ هـ) فقد ذهب ابنه شيبان مع الجيش وتركه شيخا كبيرا ، فجاء إلى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يشكو فراق هذا الابن ويطلب من أمير المؤمنين ضمنا أن يرده . يقول (١) :

أَيُهْلِكُنِى شَيْبَانُ فِى كُلِّ لَيْلَةٍ ... لِقَلْبِى مِنْ خَوفِ الفِراقِ وَجِيبُ (٢)

أَشَيْبَانُ مَا أَدْرَاكَ أَنَّ كُلَّ لَيْلَةٍ ... غَبَقْتُكَ فِيهَا وَالْغَبُوقُ حَبِيبُ

غَبَقْتُكَ عُظْمَاهَا سَنَامًا أَوِ انْبَرَى ... بِرِزْقِكَ بَرَّاقُ الْمُتُونِ أَرِيبُ (٣)

أَشَيْبَانُ إِنْ تَأْبَى الجُيُوشِ بِحَدِّهِمْ (٤) ... يقَاسُونَ أَيَّامًا لَهُنَّ خُطُوبُ

وَلاَهَمَّ إِلاَّ البَزُّ أَوْ كُلُّ سَابِحٍ ... عَلَيْهِ فَتَى شَاكِى السِّلاَحِ نَجِيبُ

يَذُودُونَ جُنْدَ الهُرْمُزَانِ كَأَنَّمَا ... يَذُودُونَ أَوْرَادَ الكِلاَبِ تَلُوبُ (٦)

فَإِنْ يَكُ غُصْنِى أَصْبَحَ اليَوم ذَاوِيًا ... وَغُصْنُكَ مِنْ مَاءِ الشَّبَابِ رَطِيبُ

وَإِنِّى حَنَتْ ظَهْرِى خُطُوبٌ تَتَابَعَتْ ... فَمَشْيِى ضَعِيفٌ فِى الرِّجَالِ دَبِيبُ

إِذَا قَالَ صَحْبِى يَارَبِيعُ أَلاَ تَرَى ... أَرَى الشَّخْصَ كَالشَّخْصَيْنِ وَهوَ قَرِيبُ

وَيُخْبِرُنِى شَيْبَانُ أَنْ لاَيَعُقُّنِى ... تَعُقُّ إِذَا فَارَقْتَنِى وَتَحُوبُ (٧)

فَلاَ تُدْخِلَنَّ الدَّهْرَ قَبْرَكَ حَوْبَةً ... يَقُومُ بِهَا يَوْمًا عَلَيْكَ حَسِيبُ

---

(١) الأغانى : ١٩٠/١٣ - ١٩١ .
والاصابة وبهامشه الاستيعاب : ١٠٩/٥ .
(٢) الوَجِيبُ : وجب القلب يجب وجبا ووجيبا ووجبانا : أى خفق واضطرب .
(٣) عُظْمَاهَا : تفضيل من العظم . وبَرَّاقُ المُتَون : عنى به السيف ، والأَرِيبُ : العاقل.
(٤) حَدّهُمْ : سيفهم .
(٥) البَزّ : السلاح . والسَّابِحُ : الفرس يسبح فى جريه .
(٦) تَلُوبُ : تحوم .
(٧) تَحُوبُ : أى تأثم . والحوبة : الذنب .

لقد وضحت معاناة هذا الشاعر حينما ذكر ابنه بما كان يقدمه له وهو طفل صغير ثم خلص إلى تصوير حاله ، وقد كبر ورق عظمه ، وضعف بصره ، وأخذ يذكره أن فراقه له وهو فى هذه الحال ، حتى ولو كان للمشاركة فى شرف الجهاد، فانه عقوق منه لأبيه سيحاسبه الله عليه فى قبره .

ونجد مثل هذه الشكوى عند أبى خراش الهذلى، فقد ذهب ابنه خراش للغزو مع المسلمين ، فقدم أبو خراش إلى المدينة، وجلس بين يدى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وشكا إليه شوقه وحاجته إلى ابنه، وأنه رجل قد انقرض أهله ، وقتل اخوته ولم يبق له ناصر ولا معين بعد الله غير هذا الابن ، وقد تجلت فى شكواه تلك عاطفة حزينة دافقة وتصوير لحاله، فى روح اسلامية ظاهرة على معانيه ، حيث يرى أن البر أن يقوم خراش برعايته ، وليس فى أن يهاجر غازيا لينال شرف الشهادة ويدع وراءه شيخا ضعيفا فى حاجة الى رعاية وعناية . يقول[1] :

أَلاَ مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّى خِرَاشًا ... وَقَدْ يَأْتِيكَ بِالنَّبَإِ البَعِيدُ
وَقَدْ يَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لاَ ... تُجَهِّزُ بِالْحِذَاءِ وَلاَ تَزِيدُ
يُنَادِيهِ لِيَغْبِقَهُ كُلَيْبٌ[2] ... وَلاَ يَأْتِى لَقَدْ سَفِهَ الوَلِيدُ
فَرَدَّ إِنَاءَهُ لاَشَىْءَ فِيهِ ... كَأَنَّ دُمُوعَ عَيْنَيْهِ الفَرِيدُ

---

(١) شرح أشعار الهذليين : ١٢٤٢/٣ - ١٢٤٣ .
(٢) "كُلَيْبٌ ": وردت فى شرح أشعار الهذليين . يناديه " كُلَيْبٌ " عبد أبى خراش .
" لِيَغْبِقَه " ليسقيه اللبن فى قبل الليل . " الوَلِيدُ " ابن أبى خراش .
ووردت فى الأغانى " كَلِيبٌ " بمعنى الظامى ، وعلق المحقق بقوله أى ينادى أبو خراش الظامى خراشا ليسقيه اللبن مساء! فلا مجيب وهذا سفه وعقوق منه .
وأنا أرجح رواية الأغانى .
الأغانى : ٢٢٦/٢١ (دار الكتب) .

وَأَصْبَحَ دُونَ غَابِقِهِ وَأَمْسَى ... جِبَالٌ مِنْ حِرَارِ الشَّأْمِ سُودُ
أَلَا فَاعْلَمْ خِرَاشُ بِأَنَّ خَيْرَ الْـ ... ـمُهَاجِرِ بَعْدَ هِجْرَتِهِ زَهِيدُ
فَإِنَّكَ وَابْتِغَاءَ الْبِرِّ بَعْدِي ... كَمَخْضُوبِ اللَّبَانِ وَلَا يَصِيدُ

ومن أجمل ماقيل فى الشكوى من هذه الظاهرة قول أمية بن الأسكر (ت ٢٠ هـ) يشكو إلى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فراق ابنيه كلاب وأخيه ، ويصف حاله بعد أن وهن عظمه ، وتقدمت به السن،فهو فى حاجة اليهما بجانبه فيقول (١) :

يَا أُمَّ هَيْثَمَ مَاذَا قُلْتُ أَبْلَانِي ... رَيْبُ الْمَنُونِ وَهَذَانِ الْجَدِيدَانِ
إِمَّا تَرَىْ حَجَرِي قَدْ رَكَّ جَانِبُهُ ... فَقَدْ يَسُرُّكِ صُلْبًا غَيْرَ كَذَّانِ (٢)
إِمَّا تَرَيْنِي لَا أَمْضِي إِلَى سَفَرٍ ... إِلَّا مَعِي وَاحِدٌ مِنْكُمْ أَوِ اثْنَانِ
وَلَسْتُ أَهْدِي بِلَادًا كُنْتُ أَسْكُنُهَا ... قَدْ كُنْتُ أَهْدِي بِهَا نَفْسِي وَصُحْبَانِي

ثم نجده يتوجه بالخطاب إلى ابنيه قائلا (٣) :

يَا ابْنَيْ أُمَيَّةَ إِنِّي عَنْكُمَا غَانِي ... وَمَا الْغِنَى غَيْرَ أَنِّي مُرْعِشٌ فَانِي
يَا ابْنَيْ أُمَيَّةَ إِنْ لَاتَشْهَدَا كِبَرِي ... فَإِنَّ نَأْيَكُمَا وَالثُّكْلَ مِثْلَانِ
إِذْ يَحْمِلُ الْفَرَسُ الْأَحْوَى ثَلَاثَتَنَا ... وَإِذْ فِرَاقُكُمَا وَالْمَوْتُ سِيَّانِ
أَصْبَحْتُ هُزْءًا لِرَاعِي الضَّأْنِ أَعْجَبُهُ ... مَاذَا يُرِيبُكَ مِنِّي رَاعِيَ الضَّانِ

---

(١) ذيل الأمالى : ١٠٨ .
(٢) الكَذَّانُ : الرخو .
(٣) ذيل الأمالى : ١٠٨ .

انْعِقْ بِضَأْنِكَ فِى نَجْمٍ تُحَفِّرُهُ ... مِنَ الأَبَاطِحِ وَاحْبِسْهَا بِجَمْدَانِ (١)
إِنْ تَرْعَ ضَأْنًا فَإِنِّى قَدْ رَعَيْتُهُمُ ... بِيضَ الوُجُوهِ بَنِى عَمِّى وَإِخْوَانِى

وقال فى قصيدة أخرى يشكو هذا الفراق ، ويصور حاله وحال زوجه أم كلاب وما هما فيه من الحاجة إلى عودة كلاب وأخيه (٢) .

لِمَنْ شَيْخَانِ قَدْ نَشَدَا كِلَابًا ... كِتَابَ اللَّهِ إِنْ رَقَبَ الكِتَابَا
تُنَفِّضُ مَهْدَهُ شَفَقًا عَلَيْهِ ... وَتَجْنُبُهُ أَبَا عِرْنَا الصِّعَابَا
إِذَا هَتَفَتْ حَمَامَةُ بَطْنِ وَادٍ ... عَلَى بَيْضَاتِهَا دَعَوَا كِلَابَا
تَرَكْتَ أَبَاكَ مُرْعِشَةً يَدَاهُ ... وَأُمَّكَ مَا تَسِيغُ لَهَا شَرَابَا
أُنَادِيهِ وَوَلَّانِى قَفَاهُ ... فَلَا وَأَبِى كِلَابٍ مَا أَصَابَا
فَإِنَّ مُهَاجِرَيْنِ تَكَنَّفَاهُ ... لِيَتْرُكَ شَيْخَهُ خَطِئَا وَخَابَا
وَإِنَّ أَبَاكَ حَيْثُ عَلِمْتُمَاهُ ... يُطَارِدُ أَيْنُقًا شُسُبًا طِرَابَا (٣)
إِذَا بَلَغَ الرَّسِيمَ فَكَانَ شَدًّا ... يَخِرُّ فَخَالَطَ الذَّقْنُ التُّرَابَا (٤)

ولما نفد صبره ، وضاق صدره من هذا الفراق الأليم أتى عمر بن الخطاب - رض الله عنه - وهو فى مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحوله المهاجرين ، والأنصار فوقف بين يديه وأنشأ يقول (٥) :

---

(١) جَمْدَانُ : جبل بين ينبع والعيص على ليلة من المدينة ، وقيل واد من أعراض المدينة . معجم البلدان (جمد) .
(٢) ذيل الأمالى : ١٠٩ .
(٣) شُسُبٌ : جمع شاسب وهو الخفيف اليابس من الضمر .
(٤) الرَّسِيمُ : من سير الابل فوق الذميل ، والرسيم ضرب من السير سريع مؤثر فى الارض . اللسان (رسم) .
(٥) خزانة الأدب : ١٩/٦ - ٢١ .

أَعَاذِلَ قَدْ عَذَلْتِ بِغَيرِ عِلْمٍ — وَمَا تَدْرِينَ عَاذِلَ مَا أُلاقِي

فَإِمَّا كُنْتِ عَاذِلَتِي فَرُدِّي — كِلَابًا إِذْ تَوَجَّهَ لِلْعِرَاقِ

وَلَمْ أَقْضِ اللُّبَانَةَ مِنْ كِلَابٍ — غَدَاةَ غَدًا وَآذَنَ بِالفِرَاقِ

فَتَى الفِتْيَانِ فِي عُسْرٍ وَيُسْرٍ — شَدِيدُ الرُّكْنِ فِي يَومِ التَّلَاقِي

فَلَا وَأَبِيكَ مَا بَالَيْتَ وَجْدِي — وَلَا شَغَفِي عَلَيكَ وَلَا اشْتِيَاقِي

وَإِبْقَائِي عَلَيْكَ إِذَا شَتَوْنَا — وَضَمَّكَ تَحْتَ نَحْرِي وَاعْتِنَاقِي

فَلَو فَلَقَ الفُؤَادَ شَدِيدُ وَجْدٍ — لَهَمَّ سَوَادُ قَلْبِي بِانْفِلَاقِ

سَأَسْتَعْدِي عَلَى الفَارُوقِ رَبًّا — لَهُ دَفَعَ الحَجِيجُ إِلَى بِسَاقِ

وَأَدْعُو اللَّهَ مُجْتَهِدًا عَلَيهِ — بِبَطْنِ الأَخْشَبَيْنِ إِلَى دُفَاقِ

إِنِ الفَارُوقُ لَمْ يَرْدُدْ كِلَابًا — إِلَى شَيْخَيْنِ هَامُهُمَا زَوَاقِي (١)

وعندما سمع عمر بن الخطاب هذه الشكوى بكى بكاءا شديدا وتأثر بها تأثرا كبيرا ورق لهذا الشيخ الذى بات وحيدا هو وزوجته بعد كبر وشيخوخة وكتب - رضى الله عنه - بأن يقبل كلاب إلى أبيه ، وألاّ يغزو من كان له أب شيخ إلاّ بعد أن يأذن له (٢) .

أما سلمة بن يزيد الجعفي (٣) ، فقد حاول أن يثنى إبنه عن الهجرة فلم يفلح فأخذ يتوسل إليه ويناشده مذكرا إياه بحقوق الأب على الابن ، وقد استخدم

---

(١) الهَامُ : جمع هامة ، وهى طائر تزعم العرب أنه يصوت عند موت الميت ، والمعنى قرب أجلهما وآن أن ترفو عليهما الهام .

(٢) الأغانى : ٢٢٧/٢١ (دار الكتب) .
وخزانة الأدب : ٢١/٦ .

(٣) هو سلمة بن يزيد بن مشجعة بن المجمع بن مالك بن كعب بن سعد بن عوف بن حريم بن جعفى ، ذكره ابن حجر . وقال : انه صحابى نزل الكوفة . أسد الغابة ٤٣٦/٢ .
الاصابة وبهامشه الاستيعاب : ٢٣٧/٤ .

ألفاظا معبرة تدل على خوفه الشديد من فجيعة الفراق . فقال (١) :

يُخَوِّفُنَا بِهِجْرَتِهِ فتانا ... كَمَا تَخْشَى المُفَرَّكَةُ الطَّلَاقَا
يُفَجِّعُنَا بِأَمْرٍ كُلَّ يَوْمٍ ... كَمَا تَخْشَى المُقَيَّدَةُ الأَبَاقَا (٢)
أَرَاهُ لَا يَزَالُ لَهُ قَرِينٌ ... يُوَاعِدُهُ غُدُوًّا وَانْطِلَاقَا
وَكَانَ كَأَنَّهُ سَومٌ مَرِيضٌ (٣) ... فَلَمَّا أَنْ أَذِنْتُ لَهُ أَفَاقَا
أَحِينَ رَأَيْتَ أَنْ كَبِرَتْ بَنَاتِي ... وَشَابَ الرَّأْسُ أَزْمَعْتَ الفِرَاقَا
فَقِدْنِي الآنَ مِنْكَ وَقِدْكَ مِنِّي ... إِذَا جَاوَزْتَ لِلدَّوْمِ العِرَاقَا (٤)
وَحَالَتْ بَيْنَنَا أَجْبَالُ طَيٍّ ... وَكَانَ الدَّهْرُ همًا واشْتِيَاقَا
تُخَبِّرُنِي بِأَنَّ الرُّومَ ضَأْنٌ ... تَمَيَّزُهَا وَتَرْتَتِقُ ارْتِتَاقَا
فَيَومًا قَدْ حَنَيْتُ عَلَيكَ ظَهْرِي ... إِلَى الأَحْشَاءِ ضَمًّا وَاعْتِنَاقَا
وَيَومًا قَدْ حَوَيْتُ عَلَيكَ نَهْبِي ... أُخَيِّرُكَ المَتَالِي وَاللَّحَاقَا (٥)
وَيَومًا قَدْ سَعَيْتُ عَلَيكَ حَتَّى ... أَكَلَّ القَومُ وَالقُلُصُ العِتَاقَا (٦)

وكما نلاحظ ، فقد استخدم ألفاظا معبرة مثل لفظ يخوفنا ، يفجعنا إلى غير ذلك من تكرار بعض الألفاظ كلفظ يوم فى الأبيات الثلاثة الأخيرة .

---

(١) أمالى ابن الشجرى / لهبة الله بن على العلوى الحسينى - مطبعة الفجالة القاهرة (د . ت) : ١٨/٢ .

(٢) الأَبَاقُ : الهروب .

(٣) سَومٌ مَرِيضٌ : أى شديد المرض .

(٤) قَدْنِي مِنْكَ

(٥) المَتَالِي : الابل التى لم تنتج ، واللَّحَاقُ : الابل الصغيرة التى تلحق بأمهاتها .

(٦) القُلُصُ : الابل ، والعِتَاقُ : الابل النجيبة .

ومثل هذا شكوى يزيد بن مالك بن عبد الله الجعفى (١) من فراق ابنيه عزيز ، وسبرة عند هجرتهما حيث يقول (٢) :

وَسَبْرَةُ كَانَ النَّفْسُ لَو أَنَّ حَاجَةً تُرَدُّ وَلَكِنْ كَانَ أَمْرًا وَأَنْفَرَا (٣)
وَكَانَ عَزِيزٌ خُلَّتِى فَرَأَيْتُهُ تَوَلَّى فَلَمْ يُقْبِلْ عَلَىَّ وَأَدْبَرَا

إنَّ فى شعر الشكوى من فراق الأقارب من الجوانب النفسية مافيه،حيث كانت هذه الشكوى دموع ألم وتنهيدة حسرة ، وفجيعة آباءفارقهم أبناؤهم،أو زوجات فارقن أزواجهن ، أو أخوة فارقوا اخوانهم .

وهكذا يظل هذا الموضوع يحمل الكثير من الجوانب الانسانية التى تحكم علاقات الانسان بغيره مهما كانت وشائج القربى .

---

(١) هو يزيد بن مالك بن عبد الله بن مسلمة بن عمرو الجعفي، وفد على النبي - صلى الله عليه وسلم - مع ابنيه عزيز وسبرة . وأسلموا فحسن اسلامهم .
الاصابة وبهامشه الاستيعاب : ١٥٩/١١ .

(٢) نفس المصدر : ١٥٩/١١ .
وأدب اليمن فى القرنين الاول والثانى الهجريين : ١٨٨/١ .

(٣) أَنفَرَا : أى أمرا مقضيا ، يريد : أن الاسلام أوجب هذه النفرة وهى الهجرة .

المبحث الثانى

الشكوى من ظلم الولاة فى القرن الأول

لن نتحدث هنا عن الشكوى من ظلم القبيلة أو القريب ، وما فى دائرتهما ، فهذه أمور لاجديد فيها عما كان فى العصر الجاهلي - إن وجدت - لكننا سنتحدث عنها من جانب آخر وهو جانب الولاة الذين وكل إليهم رعاية مصالح الأمة والقيام على شؤونها ، فلقد كان من أهم أسباب الشكوى من الظلم فى القرن الأول الهجرى ذلك التصرف المتشدد من بعض الولاة فى النصف الثانى من القرن الأول ، وما بدر منهم من حيف وجور ، وظلم للرعية بعيدا عن سمع الخليفة وبصره ، إن لم يكن ذلك عن تغاض ، وإغماض طرف .

لقد كان الخلفاء الراشدون من الحزم ، والصرامة آخذين بنصيب وافر نتيجة الخوف من الله ، وحرصا منهم على أن لايظلم أحد من الرعية، فكانوا يراقبون الولاة والعمال فى الأمصار - على الرغم من ثقتهم بهم - وكانوا يستطلعون أخبارهم بسؤال القادمين ، أو باستدعائهم لمناقشة الكثير من أمور المسلمين(١) ، وقبل هذا فإنهم يدققون فى اختيار الولاة ، ويربطون ذلك بمدى صلاح واستقامة الشخص وخوفه من الله ، وعدم طلبه الامارة(٢). وكان الولاة حينئذ يعرفون حرص الخليفة على مصالح الأمة وعدم تهاونه فى ذلك (٣) .

---

(١) مروج الذهب : ٣١٤/٢ - ٣١٥ .

(٢) العقد الفريد : ٢١/١ .

(٣) وقد كان أغلب الولاة فى عهد الخلفاء الراشدين من فضلاء الصحابة الذين تربوا فى حجر النبوة .

ومع يقظتهم الشديدة فى تتبع واستطلاع سيرة ولاتهم ، وبخاصة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقد اتسعت فى عهده الأقاليم المفتوحة ، إلاّ أنه لم يكن فى مقدوره الإلمام بكل مايجرى فى البلاد الاسلامية جميعها ، إذ تنوعت ، وتباعدت الأمصار المفتوحة ، وأفاء الله على المسلمين كثيرا من الأموال التى غنموها (١)، وهذا حرك فى نفوس بعض العمال غريزة حب المال ، والثراء ، فاستصفوا لأنفسهم شيئا من ذلك ،وتنعموا بقدر من ملاذ الحياة - وإن كان هذا لايمنعه الدين متى كان عن طريق مشروع ليس فيه ضرر على مصالح المسلمين - لكن زهد الخلفاء الراشدين ، وأخذهم أنفسهم وعمالهم بأسباب التقشف (٢) جعل الناس ينكرون على أى عامل يميل إلى النعيم الدنيوى ويسرف فى ذلك ، ولذا انبرى الشعراء بالشكوى ليبينوا لولى الأمر شطط بعض عماله ، صادرين فى شكواهم عن عاطفة بعيدة عن الدوافع السياسية والقبلية ، همهم أن يتدارك أولو الأمر ماأفسده عمالهم ، أو أفسدوه هم - إن وجد - فهم مسئولون عن تصرفات عمالهم ، ونوابهم .

وأول شكوى نجدها من ظلم العمال ، وثرائهم المفرط الذى أنكره المجتمع ماكان فى خلافة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - حيث شكا أبو المختار يزيد بن الصعق (٣) من العمال الذين اغتنوا على حساب غيرهم ، ورفع شكواه تلك إلى الخليفة

---

(١) نهاية الأرب : ٢٢٧/١٩ - ٢٢٩ .
(٢) مروج الذهب : ٣١٤/٢ .
(٣) هو يزيد بن قيس بن يزيد بن الصعق كنيته أبو المختار ، ذكر المرزبانى أنه نظم هذه القصيدة يشكو فيها الى عمر بن الخطاب عماله ، وقد عده الدكتور السامرائى من الشعراء الذين ضاعوا من معجم الشعراء للمرزبانى .
الاصابة وبهامشه الاستيعاب : ٣٨٧/١٠ - ٣٨٨ .
من الضائع من معجم الشعراء للمرزبانى . للدكتور ابراهيم السامرائى،مؤسسة الرسالة ط (١) ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م ص : ١٣٨ .

قائــــلا (١) :

ابْلِغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيــنَ رِسَالَــةً ... فَأَنْتَ أَمِينُ اللَّهِ فِي النَّهْيِ وَالأَمْــرِ

وَأَنْتَ أَمِينُ اللَّهِ فِينَا وَمَـنْ يَكُـنْ ... أَمِينًا لِرَبِّ الْعَرْشِ يَسْلَمْ لَـهُ صَـدْرِي

فَلَا تَدَعَنْ أَهْلَ الرَّسَاتِيـقِ وَالْقُـرَى ... يُسِيغُونَ مَالَ اللَّهِ فِي الأُدْمِ وَالْوَفْـرِ (٢)

فَأَرْسِلْ إِلَـى الحَجَّاجِ فَاعْرِفْ حِسَابَـهُ ... وَأَرْسِلْ إِلَى جَزْءٍ وَأَرْسِـلْ إِلَـى بِشْـرِ (٣)

فَقَاسِمْهُمُ أَهْلِـي فِدَاؤُكَ إِنَّهُـــمْ ... سَيَرْضَونَ إِنْ قَاسَمْتَهُمْ مِنْـكَ بِالشَّطْـرِ

نَؤُوبُ إِذَا آبُـوا وَنَغْزُو إِذَا غَـزَوا ... فَأَنَّـى لَهُـمْ وَفْـرٌ وَلَسْنَـا أُولِي وَفْـرِ

إِذَا التَّاجِـرُ الدَّارِيُّ جَـاءَ بِفَـأْرَةٍ ... مِـنَ الْمِسْكِ رَاحَتْ فِي مَفَارِقِهِمْ تَجْرِي

وكانت هذه الشكوى أول صيحة وصلت الخليفة نتيجة تصرف بعض العمال فـى الأمصار . فالشاعر هنا يسأل على سبيل الانكار عن مصدر هذه الثروة، فهم جميعا فى الإقامة والغزو ، ولكن هذا العامل اغتنى وغيره من الرعية بقى على حال فقره .

وقد استجاب عمر - رضى الله عنه - لهذه الشكوى فقاسم عماله أموالهم حتى أخذ نعلا وترك أخرى (٤) حرصا منه على أموال المسلمين، وأن لايظلم أحد من الرعية ، وليس من عجب فى هذا فهو - رضى الله عنه - حريص على معرفة أمور الولاة ، وسيرتهم فى الرعية حرصه على الاستماع الى شكوى الناس ، ورفع ماقد يلحق بهم من

---

(١) المصدر السابق : ١٣٩ .
(٢) الرُّسْتَاقُ : واحد فارسى معرب والجمع الرساتيق وهى السواد .
اللسان (مادة رستق) .
(٣) الحَجَّاجُ : الذى ذكره الشاعر هو : ابن عتيك الثقفى وكان على الفرات وجزء ابن معاوية كان على سرق وهو ابن عم الأحنف .
وبِشْرُ : هو بشر بن المحتفز كان على جند يسابور .
(٤) فتوح البلدان : ٢/٤٧٣ - ٤٧٤ .

ظلم ، أو توضيح ماقد تبدو على الرعية غامضا من تصرفات بعض العمال ، وأولى السلطة .

ورغم هذا، فإن الباحث فى الشكوى من ظلم الولاة فى النصف الأول من القرن الأول يمكنه القول : إن مثل هذا الأمر يعد نادرا فى عهد الخلفاء الراشدين قياسا بما حدث فى عهد بنى أمية . بل إن ما أشرنا إليه هنا من وجود ضئيل لذلك قد يكون شاذا ، والشاذ لا حكم له ، ذلك أن الخلفاء الراشدين هم الرعيل الأول من صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أشربوا تعاليم الاسلام من مصدرها الحقيقى ، فكانوا خير منفذ لشرع الله، حفظوا للناس أموالهم ، وأعراضهم ، وقد قل من ولاتهم من شذ عن هذا النهج فقلت لذلك الشكوى من جميع أشكال الظلم فى هذه الحقبة الزمنية المضيئة .

ولكن ما إن دالت دولة الخلفاء الراشدين ، وقام على أعقابها الحكم الأموى حتى ابتلى المسلمون فى وحدتهم ، فكان ذلك الصراع الدامى الذى حصل بينهم وجعلهم شيعا وأحزابا ، وقد بذل الأمويون كثيرا فى سبيل وحدة الأمة وسقطت من أجل ذلك هامات ، وسلت سيوف حتى استقام لهم الأمر ، وكان المال من الوسائل التى استخدمت فى ذلك(1)، فقد صرف كثير منه فى وجوه إن لم تكن محرمة فانها مما لم

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ، جورجى زيدان : ٦٦/١ .
ولقد عرف بنو أمية بفضل خبرتهم التجارية القديمة أثر المال فى استمالة الرجال وكسب الأنصار والأعوان ، فأغدقوه على رؤوس القبائل ، والزعماء الذين يخشون بأسهم وعلى الطامعين فى الحكم ، ومن يرون لأنفسهم حقا فيه ، فأخفت صوت المعارضين فى أغلب الأحيان ، وقد استمال عبد الملك بن مروان رؤوس قبائل العراق فى حكم ابن الزبير فلما نشب القتال بينه وبين مصعب بن الزبير انحاز إليه أكثرهم وخذلوا مصعبا ، وأسلموه للقتل .
العصبية القبلية وأثرها فى الشعر الأموى . للدكتور احسان النص ، دار الفكر ط (٢) ١٩٧٣م ص : ٢٤٦ - ٢٤٧ .

يتعارف عليه الناس فى عهد الخلفاء الراشدين الذى شهد فيه أفراد المجتمع عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - يقوم فى يوم شديد الحرارة يعد ابل الصدقة ، ويكتب ألوانها ، وأسنانها ، ويعيد ماند منها (١) حرصا منه على حفظها ، وصيانتها لخدمة المسلمين ، وبذلها فى وجوه الخير . فإذا بعبد الملك بن مروان يكافىء جريرا الشاعر بمائة منها ، وثمانية من الرعاء وجامة من ذهب تكون محلبا لأنه امتدحه بقصيدة واحدة أعجبه منها بيت واحد كذلك (٢) .

وأغلب الظن أن عبد الملك لم يجزل لجرير هذه المكافأة إلا انطلاقا من سياسة بنى أمية الرامية إلى اجتذاب الشعراء إلى بلاطهم ، وإذا كانوا قد أطلقوا أيديهم فى المال يصرفونه كيف شاءوا فإن هذا لايبيح لهم أن يطلقوا أيدهم هم وعمالهم فى رقاب الناس ، فيأخذوا البرىء بالمذنب والمطيع بالعاصى ، فالناس يقرأون فى قوله تعالى :

﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ (٣) .

فإذا زياد بن أبى سفيان (ت ٥٣ هـ) والى البصرة لمعاوية يصرح بها علنا ، ويقرر أنه سيأخذ الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى (٤) .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢٠١/٤ .

(٢) وهى قصيدته الحائية المشهورة ومطلعها :

أَتَصْحُو أَمْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحِ ... عَشِيَّةَ هَمَّ صَحْبُكَ بِالرَّوَاحِ

والبيت الذى أثار عجب عبد الملك وطرب له هو قوله :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا ... وَأَنْدَى العَالَمِينَ بطُونَ رَاحِ

ديوان جرير / تحقيق الدكتور نعمان طه . طبعة دار المعارف ١٩٦٩م : ٨٧/١ .
الأغانى : ٦٦/٨ - ٦٧ .

(٣) سورة النجم آية : ٣٨ - ٣٩ .

(٤) جمهرة خطب العرب : جمع أحمد زكى صفوت ،مطبعة الحلبى ط(٢) ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م : ٢٧٢/٢ .

على هذا قامت فلسفة الحكم الأموى ، فقد أطلقوا يد زياد فى رقاب الناس ثم للحجاج من بعده ، وكذلك ليزيد بن المهلب (ت ١٠٢ هـ) وخالد بن عبد عبد الله القسرى (ت ١٢٦ هـ) وغيرهم .

وإذا كان اتساع الدولة الاسلامية ، وتعدد الجنسيات التى اعتنقت الاسلام ، أو عاشت على دينها تحت راية المسلمين ، وإذا كان المجتمع قد أصبح مليئا بالأشرار الذين تنبغى معاملتهم بالقوة ،إذا كان كل هذا يحتم على ولى الأمر أن يكون حازما يأخذ الأمور بالشدة ، والعنف ، فليس معناه أن يطلق بنو أمية لولاتهم العنان كى يعملوا ماشاءوا دون محاسبة لهم على تصرفاتهم ، ومع هذا فإنه لايمكن لأى باحث أن يغفل فضل الأمويين فى اتساع رقعة الاسلام . إذ أن الدولة الاسلامية فى عهدهم قد شهدت أعظم الفتوحات ، وبلغت شأوا كبيرا فى نشر دين الله لم يشهده التاريخ من قبل ولا من بعد [١] ، وهذا فى نظرى كفيل بإبعاد ما يثار حولهم من شبهات مغرضة [٢]. لذلك كله، فإنه ليس من عجب كثرة الشكوى من ولاة هذا العصر، وتعدد صورها بتعدد المظالم والهفوات التى ارتكبها الولاة ، فتعالت صيحات الاصلاح والإنصاف ، ونهض الشعراء يعبرون عما يلاقيه الناس من أذى ، فتارة يشكون من بعيد ، وتارة أخرى يحملون الشكوى إلى الخلفاء لا يدفعهم لذلك سياسة أو عصبية ، وإنما يحدوهم الأمل فى إصلاح مافسد، ليتدارك ولاة الأمر ما أفسده نوابهم فى غيبة من محاسبتهم لهم .

---

(١) الدولة الأموية فى الشرق بين عوامل البناء ومعاول الفناء/للدكتور محمد الطيب النجار ، دار العلوم للطباعة، القاهرة ط (٢) ١٣٩٧ هـ ص : ١١٩.

(٢) اشتهر الأمويون بتعصبهم ضد الموالى ، وبخاصة الفرس الذين كانوا من المعاول الهدامة التى أطاحت بملك بنى أمية . وكانوا فى أغلب الظن ممن شوه تاريخ الأمويين إذ أن كثيرا من الكتاب والعلماء والرواة فى العصر العباسى كانوا من أصل فارسى، وتاريخ الأمويين لم يكتب كما نعلم إلا فى العصر العباسى .

وينبغى للباحث أن يشير إلى أن الشكوى من ولاة الأمور ، وعمالهم التى وجدت فى القرن الأول الهجرى تمثل مقدار الحرية التى كان يتمتع بها الناس ، فالشعراء لايخشون من الشكوى ضد كل من يستغل منصبه ويسىء استعماله،فيظلم الناس ويقصر فى أداء حقوقهم ، بل يرفعونها شكوى صارخة مطالبين بالإصلاح ، والمساواة وتأدية الحقوق لأصحابها .

وقد انبرى عبد الله بن همام السلولى (ت ١٠٠ هـ) يشكو لمعاوية بن أبى سفيان ظلم والى الكوفة،ويرسم له صورة للوضع الاجتماعى المتردى فى سواد العراق من جراء تصرف هذا الوالى وغيره من العمال فقال (١) :

أَلاَ أَبْلِغْ مُعَاوِيَةَ بن صَخْرٍ ... فَقَدْ خَرِبَ السَّوَادُ فَلاَ سَوَادَا
أَرَى العُمَّالَ أَقْسَاءً عَلَيْنَا ... بِعَاجِلِ نَفْعِهِمْ ظَلَمُوا العِبَادَا
فَهَلْ لَكَ أَنْ تَدَارَكَ مَالَدَيْنَا ... وَتَدْفَعَ عَنْ رَعِيَّتِكَ الفَسَادَا
وَتَعْزِلَ تَابِعًا أَبَدًا هَوَاهُ ... يُخَرِّبُ مِنْ بَلاَدَتِهِ البِلاَدَا
إِذَا مَاقُلْتُ أَقْصَرَ عَنْ هَوَاهُ ... تَمَادَى فِى ضَلاَلَتِهِ وَزَادَا

وقد تكون الشكوى موجهة للوالى مباشرة ، وليس للخليفة ، عندما يجد الشاعر من هذا الوالى تقصيرا فى تنفيذ بعض الأوامر ، فتكون الشكوى بمثابة المساءلة ، والمحاسبة له ، مثال ذلك ماقاله عبد الله بن همام السلولى فى شكواه من النعمان بن بشير (ت ٦٥ هـ) والى الكوفة لمعاوية فقد رأى أنه تهاون فى تنفيذ ما أمر به الخليفة من زيادة أعطياتهم فقال(٢) :

---

(١) الادارة الاسلامية / محمد كرد على . مطبعة مصر : ٦٩ .
(٢) الكامل فى اللغة والأدب : ٨٣٧/٢ .

زِيَادَتَنَا نعمَان لَا تَحْرِمَنَّنَا ... خِفِ اللّهَ فِينَا وَالكِتَابَ الَّذِى تَتْلُو
فَإِنَّكَ قَدْ حُمِّلتَ فِينَا أَمَانَةً ... بِمَا عَجِزَتْ عَنْهُ الصَّلَاخِمَةُ البُزْلُ (١)
وَقَبلكَ كَانُوا عَلَينَا أَئِمَّةً ... يَهُمُّهُمُ تَقْوِيمُنَا وَهُمُ عُصْلُ
إِذَا نَصَبُوا لِلقَوْلِ قَالُوا فَأَحْسَنُوا ... وَلَكِنَّ حُسْنَ القَولِ خَالَفَهُ الفِعْلُ
وَذَمُّوا لَنَا الدُّنْيَا وَهُمْ يَرضَعُونَهَا ... أَفَاوِيقَ حَتَّى مَايَدُرُّ لَهَا ثُعْلُ (٢)

لقد كان هذا الشاعر فى حلم العهد السابق - عهد الخلفاء الراشدين - الذى كان يتهيب فيه المسئول حمل الأمانة فيحافظ على حقوق الرعية ، وحين أفاق وجد هذا العهد الجديد الذى يعد فى تعامله مع الناس أفضل كذلك من العهد الذى جاء بعده كما أشار إلى ذلك معاوية بن أبى سفيان بقوله : (معروف زماننا هذا منكر زمان قد مضى ، ومنكر زماننا هذا معروف زمان لم يأت) (٣) .

وكما تذمر الشعراء من عمال الأمويين أعلنوها صرخة مدوية ضد بعض عمال الزبيريين الذين حكموا فترة من الزمن فى القرن الأول ، ولم يكن بعض عمالهم بأرحم

---

(١) الصَّلَاخِمَةُ : أى الشداد الصلاب المانعة .

(٢) أَفَاوِيقُ : جمع أفواق وهو اللبن الذى يجتمع بين الحلبتين .
والثُّعْلُ : خلف زائد صغير فى أخلاف الناقة ، وضرع الشاة لايدر من اللبن شيئا .
ينبغى لنا أن نأخذ مثل هذه الشكوى بشيء من الحذر فان النعمان بن بشير الأنصارى من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم - مشهود له بالورع والتقوى فلايمكن أن تكون له رغبة فى احتياز بعض الأموال ، ومنع أصحابها منها ، ولكنه يريد أن يسير فى ذلك سيرة الخلفاء الراشدين فى صرف أموال المسلمين فى أوجهها الصحيحة .
الاصابة وبهامشه الاستيعاب : ١٠/١٥٨ - ١٥٩ .

(٣) نثر الدر / لأبى سعيد الآبى ، تحقيق محمد على قرنة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣م : ١٤/٣ .

من عمال بنى أمية ، فهذا الحارث بن عبد الله الملقب بالقباع[1] ولى لعبد الله ابن الزبير (ت ٧٣ هـ) البصرة فلم يحسن السيرة ، ولم يكن همه إلاّ التمتع بالملذات ، من زواج ، ومأكل ، إضافة إلى عدم قدرته على أحكام الأمر ، وتدبيره ، والقطع برأى ، والثبات عليه ، عندئذ انبرى الأسود الدؤلى (ت ٦٩ هـ) يشكو إلى ابن الزبير ظلم هذا الوالى وضعفه[2] :

أَمِيرَ المُؤمِنِينَ جُزِيتَ خَيْرًا ... أَرِحْنَا مِنْ قبَاعِ بن المُغِيرَه
بَلَونَاهُ وَلُمْنَاهُ فَأَعْيَا ... عَلَيْنَا مَايُمِرُّ لَنَا مَرِيرَه
عَلَى أَنَّ الفَتَى نَكِحٌ أَكُولٌ ... وَمِشْهَابٌ مَذَاهِبُهُ كَثِيرَه[3]

ورغم طرافة هذه الشكوى فإنها تبين أن الناس لا يتقبلون مثل هذا الوالى الضعيف الشخصية الذى لا هم له إلا اشباع غرائزه الحسية .

---

(١) هو الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة القرشى المخزومى ، أمه حبشية نصرانية ، كان يلقب بالقباع ، ويبدو أنه غير حازم فى امارته .
المحبر / لابن حبيب ، بعناية ايلزه ليختن شتيتر ، دار الآفاق الجديدة بيروت (د . ت) ص : ٣٠٦ - ٣٠٧ والطبرى : ٢١٤/١٠ .

(٢) ديوان أبى الأسود الدؤلى / تحقيق الشيخ حسن آل ياسين ، مطبعة المعارف بغداد ١٣٨٤ هـ ط(٢) ص : ١٠٨ - ١٠٩ .

(٤) مِشْهَابٌ : المسهب والمسهب : الذى لاتنتهى نفسه عن شىء طمعا وشرها .

وكان مصعب بن الزبير (١) واليا لأخيه على العراق ، فتزوج من عائشة بنت طلحة ،وسكينة بنت الحسين ، وأمهر كل واحدة منهما ألف درهم ، فضج الناس من هذا التصرف ، ورأوا فى هذه المغالاةتصرفا لايليق من أمثالهم،عند ذلك قال أنس بن زنيم الليثي (٢) يشكو لعبد الله بن الزبير (٣) :

أَبلِغْ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ رِسَالَةً ... مِن نَاصِحٍ لَكَ لَايُرِيدُ خِدَاعَا
بُضْعُ الفَتَاة بِألْفِ أَلْفٍ كَامِلٍ ... وَتَبِيتُ قَادَاةُ الجُيُوشِ جِيَاعَا
لَوْ لِأَبِي حَفْصٍ أَقُولُ مَقَالَتِي ... وَأَبُثُّ مَا أَبْثَثْتُكُمْ لَا رْتَاعَا

وهو يقارن هنا بين عدل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وموقف ابن الزبير من العمال ، وليس هذا موقف أنس من زنيم وحده، بل هو موقف أكثر الناس فى تلك الحقبة حتى عبر عنها أبو حرة (٤) مولى خزاعة بقوله (٥) :

---

(١) مصعب بن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدى القرشي ، أحد الولاة الأبطال فى صدر الاسلام نشأ بين يدى أخيه عبد الله بن الزبير ، وكان عضده الأقوى فى تثبيت ولايته بالحجاز والعراق ، وتولى البصرة لأخيه سنة ٦٧هـ وكان أحب أمراء العراق الى أهل العراق ، قتل سنة ٧١ هـ وحمل رأسه الى عبد الملك بن مروان بالشام .
سير أعلام النبلاء / للذهبي ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وغيره ، مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ : ١٤٠/٤ - ١٤٥ .
الأعلام / للزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ط (٥) ١٩٨٠م : ٢٤٧/٧ .

(٢) أنس بن زنيم بن عمرو بن عبد الله ، نشأ فى الجاهلية ، وعاش حتى أدرك عبيد الله بن زياد أمير العراق وتوفى سنة ٦٠ هـ .
خزانة الأدب : ٤٧٣/٦ ،والأعلام : ٢٤/٢ .

(٣) المعارف / لابن قتيبة ، تحقيق الدكتور ثروت عكاشة ،دار المعارف ط (٤):٢٣٣.

(٤) لم أجد له تعريفا .

(٥) أنساب الأشراف / للبلاذرى ، مكتبة المثنى بغداد : ١٨٩/٥ - ١٩٠ .

لَمْ نَرَ مِنْ سِيرَةِ الفَارُوقِ عِنْدَكُمُ   غَيْرَ الإِزَارِ وَغَيْرَ الدِّرَّةِ الخَلَقُ

على أن أبلغ شكوى وصلت إلى ابن الزبير تصور استبداد عماله بالرعية وتبين ما حل بالناس من ظلم وافتئات على أيدى هؤلاء العمال ما قاله عبد الله بن همام السلولى لعبد الله بن الزبير (١) :

يَا ابْنَ الزُّبَيْرِ أَمِيرَ المُؤمِنِينَ أَلَمْ   يَبْلُغْكَ مَا فَعَلَ العُمَّالُ بِالْعَمَلِ
بَاعُوا التُّجَّارَ طَعَامَ النَّاسِ وَاقْتَسَمُوا   صُلْبَ الخَرَاجِ شِحَاحًا قِسْمَةَ النَّفَلِ
وَقَدَّمُوا لَكَ شَيْخًا كَاذِبًا خَذِلاً   مَهْمَا يَقُلْ لَكَ شَيْخٌ كَاذِبٌ يَقُلِ (٢)
وَفِيكَ طَالِبُ حَقٍّ ذُو مُرَانِيَةٍ   جَلْدُ القُوَى لَيْسَ بِالْوَانِي وَلاَ الوَكَلِ
أُشْدُدْ يَدَيكَ بِزَيدٍ إِنْ ظَفِرْتَ بِهِ   وَاشْفِ الأَرَامِلَ مِنْ دُحْرُوجَةِ الجُعَلِ (٣)
إِنَّا مُنِينَا بِضَبٍّ مِنْ بَنِي خَلَفٍ (٤)   يَرَى الخِيَانَةَ شُرْبَ المَاءِ بِالْعَسَلِ
خُذِ العُصَيْفِيرَ فَانْتِفْ رِيشَ نَاهِضِهِ   حَتَّى يَنُوءَ بِشَرٍّ بَعْدَ مُقْتَبَلِ (٥)
وَمَا أَمَانَةُ عَتَّابٍ بِسَالِمَةٍ (٦)   لاَ غَمْزَ فِيهَا وَلَكِنْ جَمَّةُ السُّبُلِ
وَقَيْسُ كِنْدَةَ قَدْ طَالَتْ إِمَارَتُهُ (٧)   بِسُرَّةِ الأَرْضِ بَيْنَ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ

---

(١) أنساب الأشراف : ٥/١٩١ - ١٩٤ .

(٢) يقصد بالشيخ مرثد بن شراحيل ، كان أمينا على التجار فى بيع الطعام أنساب الأشراف : ٥/١٩١ .

(٣) دُحْرُوجَةُ الجعَلِ : هو عامر بن مسعود الذى ولى الكوفة لابن الزبير ثم عزله . وزَيد : هو مولى لعتاب بن ورقاء ، وكان خازنا لدحروجة الجعل هذا .

(٤) يقصد به دحروجة الجعل السابق ذكره .

(٥) العُصَيفِيرُ : هو عبد الله بن أبى عصيفير والى المدائن لابن الزبير .

(٦) هو عتاب بن ورقاء الراحى الجواد المشهور .

(٧) يريد قيس بن يزيد بن عمرو بن شراحيل الكندى .

وَخُذْ حُجَيرًا فَأَتْبِعْهُ مُحَاسَبَةً ... وَمَنْ عَذَرْتَ فَلَا تَعْذِرْ بَنِي قَفَلِ (١)
مَا رَابَنِي مِنْهُمُ إِلَّا ارْتِفَاعُهُمُ ... إِلَى الخَبِيصِ عَنِ الصَّحْنَاةِ وَالبَصَلِ (٢)

ويستمر فى هذه الشكوى التى يغلظ فيها القول ضد أغلب عمال ابن الزبير فيقول فى نفس القصيدة :

وَمَا غُلَامٌ عَلَى أَرْضٍ مُسَالِمَةٍ ... كَمَنْ غَزَا دَسْتَبَيَ غَيْرَ مُجْتَعِلِ (٣)
يُجْبَى إِلَيْهِ خَرَاجُ الأَرْضِ مُتَّكِئًا ... مُسْتَهْزِئًا بِغِنَاءِ القَيْنَةِ الفُضُلِ
وَالوَالِبِيُّ الَّذِي مِهْرَانُ أَمَّرَهُ ... فَزَالَ مِهْرَانُ مَذْمُومًا وَلَمْ يَزَلِ (٤)
وَدُونَكَ ابْنَ أَبِي عُشٍّ وَصَاحِبَهُ (٥) ... قَبْلَ السَّبِيعِ فَقَدْ أَجْرَى عَلَى مَهَلِ
لَا تَجْعَلَنْ مَالَ بَيْتِ المَالِ مَأْكَلَةً ... لِكُلِّ أَزْرَقَ مِنْ هَمْدَانَ مُكْتَحِلِ
وَمُنْقِذُ بْنُ طَرِيفٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ ... أُنْبِئْتُ عَامِلَهُمْ قَدْ رَاحَ ذَا ثِقَلِ (٦)
وَمَا أُخَيْنِسُ جُعْفِيٌّ يُمَانِعُهُ ... مِنَ المَتَاعِ قِيَامُ اللَّيْلِ بِالطُّوَلِ (٧)
وَمَا فُرَاتٌ وَإِنْ قِيلَ امْرُؤٌ وَرِعٌ ... إِنْ نَالَ شَيْئًا بِذَاكَ الخَائِفِ الوَجِلِ (٨)

---

(١) يقصد : حجير بن حجار بن الحر وكان على الزوابى ، والراذنات ، وبنو قفل من تيم الله بن ثعلبة وقيل انه يسمى حجير بن جعيل الجمحي وكان على صدقات بكر .
(٢) الصَّحْنَاةُ : طعام يتخذ من صغار السمك .
(٣) دَسْتَبَيَ : كورة كبيرة فى فارس بين الرى وهمذان : معجم البلدان (دستبى) .
(٤) الوَالِبِيّ : هو سعيد بن حرملة بن الكاهل الوالبي ، ومهران مولى لزياد ، وهو الذى جعل الوالبي فى عداد العمال .
(٥) كان ابن أبى عش هذا واليا على الدينور ، وصاحبه عبد الرحمن بن سعيد ابن قيس الهمدانى .
(٦) يريد بِعَامِلِهِمْ : نعيم بن دجاجة ، وكان على أسفل الفرات .
(٧) هو زحر بن قيس ، وقيل هو محمد بن أبى سبرة وكان على جوخا من أرض العراق .
(٨) يقصد فرات بن زحر وقد قتله المختار يوم السبيع .

وَالحَارِثِيُّ سَيَرْضَى أَنْ تُقَاسِمَهُ ... إِذَا تَجَاوَزْتَ عَنْ أَعْمَالِهِ الأُوَلِ (١)

وَادْعُ الأَقَارِعَ فَاقْرَعْهُم بِدَاهِيَةٍ ... وَاحْمِلْ خِيَانَةَ مَسْعُودٍ عَلَى جَمَلِ (٢)

كَانُوا أَتَونَا رِجَالاً لَا رِكَابَ لَهُمْ ... فَأَصْبَحُوا اليَومَ أَهْلَ الخَيلِ وَالإِبِلِ

لَنْ يَعْتِبُوكَ وَلَمَّا يَعْلُ هَامَهُمُ ... ضَرْبُ السِّيَاطِ وَشَدٌّ بَعْدُ فِى الحُجُلِ

إِنَّ السِّيَاطَ إِذَا عَضَّتْ غَوَارِبَهُمْ ... أَبْدَوا ذَخَائِرَ مِنْ مَالٍ وَمِنْ حُلَلِ

والشاعر كما نرى قد اتهم أكثر عمال ابن الزبير بالخيانة وحيازة الاموال لصالحهم . ولاشك أن الباحث يلمس هذا التحامل واضحا ، إذ ليس من المعقول أن يكون هؤلاء العمال بهذه الصورة السيئة ويقرهم ابن الزبير على أعمالهم ، وإنما يتضح لنا مما ذكره البلاذرى (ت ٢٧٩ هـ) أن ابن همام كانت بينه وبين عامر بن مسعود (٣) بغضاء ، وكان أهل الكوفة قد اجتمعوا عليه بعد موت يزيد بن معاوية ، وخروج ابن زياد إلى الشام ، وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير فأقره ، ولذلك فإن جميع العمال الذين تناولهم الشاعر فى هذه الشكوى بالنقد والتجريح ، واتهمهم باختلاس أموال الدولة قد عينهم عامر بن مسعود ، فلعل الشاعر لحاجة فى نفسه أراد تشويه صورة هذا الوالى من خلال الطعن فيه وفى الأشخاص الذين ولاهم بعض المناطق .

---

(١) الحَارِثِىّ : هو السرى بن وقاص وكان على نهاوند .

(٢) مسعود هذا من بنى أسد .

(٣) عامر بن كعب بن أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن مجمع بن عمرو بن هصيص ابن كعب . أنساب الأشراف : ١٩١/٥ - ١٩٤ .

ولايشك أحد فى أن عبد الله بن الزبير ، وهو مشهود له بالصلاح والتقوى كان يريد أن يترسم سيرة الخلفاء الراشدين فى حكمه ، وهو ابن عمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وابن حواريه (١) لايمكن بأى حال من الأحوال أن يهمل مصالح المسلمين ويسمح لأى عامل أن يعبث بها مهما كان .

ويتضاعف ظلم العمال والسعاة فى عهد عبد الملك بن مروان ومن أتى بعده من خلفاء بنى أمية باستثناء فترة الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز ، فقد أعطى بنو أمية عمالهم امتيازات مطلقة فيما يتعلق بالقضاء على الخصوم واخماد الفتن ، وجباية الأموال للدولة .

ولقد أصبح شراء العمال ، واختلاسهم الأموال ، وتشددهم فى جمعها فى اليسر والعسر ، وبالطرق المشروعة ، وغير المشروعة مرضا استشرى فى المجتمع الأموى (٢) ، عرفه الناس ، وتواضعوا عليه ، وبخاصة عندما خضع اختيار هؤلاء العمال لاعتبارات سياسية ، وعصبية بعيدا عن الاستقامة والحرص على العدل ، ونظرا لأن هذا السلوك المتشدد ، من العمال ، والسعاة لم يقف عند حد تحصيل الصدقات ، والخراج من العرب والموالى ولا عندما يفرض من الضرائب الاضافية . بل تعدى ذلك الى استئثارهم بأموال أخرى كانوا يستخلصونها لأنفسهم حتى اشتهر بين الناس أنه

---

(١) الطبرى : ٥/٥٢٤ ، ٥٢٩ ، ٥٦٠ ، ٥٧٧ ، أنساب الأشراف : ٥/١٩٠ ، سير أعلام النبلاء : ٢/٣٦٧ ، الاصابة وبهامشه الاستيعاب : ٦/٨٣ - ٨٨ ، أسد الغابة فى معرفة الصحابة : ٢/٢٤٢ - ٢٤٥ .

(٢) الشعراء الصعاليك فى العصر الأموى ، للدكتور حسين عطوان ، دار المعارف بمصر ١٩٧٠م ص : ٣٣ - ٣٤ .

من تولى امارة أو كورة فهى نصيبه من الدنيا ، يوضح هذا ماقاله أبو الأسود الدؤلى ينصح على سبيل التهكم والاستهزاء حارثة بن بدر الغدانى (1) حين ولى سرق من أعمال العراق فقال (2) :

أَحَارِ بن بَدْرٍ قَدْ وليتَ ولايَةً ... فكُنْ جُرَذاً فِيْهَا يَخُونُ وَيَسْرِقُ (3)

وَبَاهِ تَمِيمًا بِالغِنَى إنَّ لِلْغِنَى ... لِسَانًا بِهِ المَرْءُ الهَيُوبَةُ يَنْطِقُ

وَلاَ تَحْقِرَنْ يَاحَار شَيْئًا أَصَبْتَهُ ... فَحَظُّكَ مِن مُلكِ العِرَاقِين سُرَّقُ

فَإِنَّ جَمِيعَ النَّاسِ إمَّا مُكَذِّبٌ ... يَقُولُ بِمَا يَهْوَى وَإِمَّا مُصَدِّقُ

يَقُولُونَ أَقْوَالاً وَلاَ يَعْلَمُونَهَا ... فَإِنْ قِيلَ هَاتُوا حَقِّقُوا لَمْ يُحَقِّقُوا

ويظهر أن أهل البادية كانوا أشد تضررا من جور العمال وظلمهم ، فقد أخذوا أموالهم ، ومثلوا بهم مع أنهم ليسوا أصحاب حرث ، وليس لديهم غير سوائمهم ولكن هؤلاء العمال لم يراعوا أحوالهم ، وما نزل بهم من قحط السنين ، والضيق فى ذات اليد الذى يوجب العطف عليهم ، وعدم التشدد فى جباية الزكاة ، فهؤلاء الأعراب لا ينكرونها اذ هم مسلمون ، ولكنهم يرون فى جبايتها بهذه الصورة ضريبة

---

(1) حارثة بن بدر بن حسين التميمى الغداني : تابعي من أهل البصرة ، وقيل أدرك النبى - صلى الله عليه وسلم - له أخبار فى الفتوح . توفى سنة ٦٤ هـ .
الاعلام : ١٥٨/٢ .

(2) ديوان أبى الأسود الدؤلى : ١١٨ - ١١٩ .
وقد نسبت هذه المقطوعة فى الحيوان : ١١٦/٣ ، ٢٥٥/٥ ، لأنس بن أبى اياس .
ونسبت فى الكامل للمبرد : ٤١١/١ ، والعقد الفريد : ٣٤١/٦ ، وأمالى المرتضى : ٣٨٤/١ - ٣٨٥ لأنس بن أبى أنيس .
ونسبت فى الشعر والشعراء : ٧٣٧/٢ - ٧٣٨ ، وجمهرة أنساب العرب : ١٨٤ - ١٨٥ لأنس بن أبى أناس بن زنيم . وفى خزانة الأدب : ١٢١/٣ لأنس بن زنيم .

(1) سُرَّقُ : بضم أوله وفتح ثانيه وتشديده لفظة عجمية، وهى احدى كور الأهواز. معجم البلدان (سرق) .

تفرض عليهم لهؤلاء العمال ، وليست للضعفاء والمساكين(١) .

ونتبين من النصوص الشعرية بالاضافة إلى مبالغة الشعراء فى الشكوى انحراف عمال الصدقات فى هذه الفترة حتى غدت الشكوى من ظلم العمال ، والسعاة أخص مايميز الحياة الاجتماعية فى النصف الثانى من القرن الأول ، وربما امتدت هذه الشكوى لتشمل عصر بنى أمية بكامله .

ولعلنا فى إتياننا على هذه النصوص أو بعضها نرى تلك الحقائق المؤلمة كما صورها الشعراء فى شكواهم لولاة الأمر ، فالراعى النميرى (ت ٩٧ هـ) يبين للخليفة عبد الملك بن مروان فى شكواه أنه وقومه يتعرضون لظلم هد كيانهم ، وشتت سوامهم ، وقد نابتهم نوائب أفقرت أبناءهم علما أنهم عرب حنفاء يسجدون لله ، ويرون فى أموالهم حق الصدقة ، وهم على الاسلام لما يحيدوا عنه ، فلم هذه المظالم وهذا الافتئات من السعاة ؟! ويطلب من الخليفة أن ينقذهم مما هم فيه فيقول شاكيا من تصرف العمال المجحف بقومه (٢) :

أَبْلِغْ أَمِيرَ الْمُؤمِنِينَ رِسَالَةً ... شَكْوَى إِلَيْكَ مُطِلَّةً وَعَوِيلاَ

مِنْ نَازِحٍ كَثُرَتْ إِلَيْكَ هُمُومُهُ ... لَوْ يَسْتَطِيعُ إِلَى اللِّقَاءِ سَبِيلاَ

---

(١) يبين هذا شكوى عكرشة بنت الأطرش لمعاوية بن أبى سفيان من ظلم العمال فى جباية الصدقة .
العقد الفريد : ١١١/٢ .
صبح الأعشى فى صناعة الانشاء / للقلقشندى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر والترجمة : ٢٥٣/١ .

(٢) ديوان الراعى النميرى / جمع وتحقيق راينهرت فايبرت ، دار النشر فرانتس بيروت ١٤٠١ هـ : ٢٢٦ - ٢٣٠ .

أَوَلِى أَمْرِاللَّهِ إِنَّ عَشِيرَتِى ... أَمْسَى سَوَامُهُمُ عِزِينَ فُلُولاَ (١)

قَطَعُوا اليَمَامَةَ يطْرُدُونَ كَأَنَّهُمْ ... قَوْمٌ أَصَابُوا ظَالِمِينَ قَتِيلاَ

أَوَلِى أَمْرِ اللَّهِ إِنَّا مَعْشَرٌ ... حُنَفَاءُ نَسْجُدُ بُكْرَةً وَأَصِيلاَ

عَرَبٌ نَرَى لِلَّهِ فِى أَمْوَالِنَا ... حَقَّ الزَّكَاةِ مُنَزل تَنْزِيلاَ

قَومٌ عَلَى الإِسْلَامِ لَمَّا يَمْنَعُوا ... مَاعُونَهُمْ وَيُضَيِّعُوا التَّهْلِيلاَ

فَادْفَعْ مَظَالِمَ عَيَّلَتْ أَبْنَاءَنَا ... عَنَّا وَأَنْقِذْ شِلْوَنَا المَأْكُولاَ (٢)

ويستطرد فى بيان مايقوم به هؤلاء السعاة الجبّارون،فيرسم لعبد الملك ابن مروان صورة واضحة عن تجاوزات هؤلاء العمال ، والسعاة ، وما يقومون به من تكليف الناس فى البادية فوق طاقتهم حتى لقد وصل بهم الأمر إلى استعمال السياط فى ضرب الناس لقسرهم بالقوة على دفع بعض سوائمهم التى تخرج من حيز الزكاة المفروضة إلى هؤلاء العمال مما أدى بهم إلى أن يرزحوا تحت وطأة الفقر ، والمسغبة ويستغيث بالخليفة أن يخلصهم من هذا البلاء الذى صبه عليهم العمال والسعاة صبا فيقول (٣) :

إِنَّ السُّعَاةَ عَصَوكَ حِينَ بَعَثْتَهُمْ ... وَأَتَوا دَوَاعِى لَو عَلِمْتَ وَغُولاَ (٤)

إِنَّ الَّذِينَ أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعْدِلُوا ... لَمْ يَفْعَلُوا مِمَّا أَمَرْتَ فَتِيلاَ

---

(١) عِزِينَ فُلُولاَ : أشتاتا متفرقة .
(٢) عَيَّلَتْ أَبْنَاءَنَا : أى جعلتهم فقراء .
(٣) ديوانه : ٢٣٦ - ٢٤٢ .
(٤) دَوَاعِي وَغُولاَ : أى دواهى مهلكة للناس .

أَخَذُوا العَرِيفَ فَقَطَّعُوا حَيْزُومَهُ ... بِالأَصْبَحِيَّةِ قَائِمًا مَغْلُولاَ (١)

حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكُوا لِعِظَامِهِ ... لَحْمًا وَلاَ لِفُؤَادِهِ مَعْقُولاَ

نَسِيَ الأَمَانَةَ مِنْ مَخَافَةِ لُقَّحٍ ... شُمُسٍ تَرَكْنَ بِضَبْعِهِ مَجْزُولاَ (٢)

كَتَبَ الدُّهَيْمُ وَمَا تَجَمَّعَ حَوْلَهَا ... ظُلْمًا فَجَاءَ بِعِدْلِهَا مَعْدُولاَ (٣)

وَغَدَوْا بِصَكِّهِمُ وَأَحْدَبَ أَسْأَرَتْ ... مِنْهُ السِّيَاطُ يَرَاعَةً إِجْفِيلاَ (٤)

مِنْ عَامِلٍ مِنْهُمْ إِذَا غَيَّبْتَهُ ... غَالَى يُرِيدُ خِيَانَةً وَغُلُولاَ

خَرِبَ الأَمَانَةِ لَوْ أَحَطْتَ بِفِعْلِهِ ... لَتَرَكْتَ مِنْهُ طَابِقًا مَفْصُولاَ

كُتُبًا تَرَكْنَ غَنِيَّنَا ذَا خَلَّةٍ ... بَعْدَ الغِنَى، وَفَقِيرَنَا مَهْزُولاَ (٥)

أَخَذُوا حَمُولَتَهُ فَأَصْبَحَ قَاعِدًا ... لاَ يَسْتَطِيعُ عَنِ الدِّيَارِ حَوِيلاَ (٦)

يَدْعُو أَمِيرَ المُؤمِنِينَ وَدُونَهُ ... خَرْقٌ تَجُرُّ بِهِ الرِّيَاحُ ذُيُولاَ (٧)

---

(١) العَرِيفُ : هو شيخ القبيلة ، والأَصْبَحِيَّةُ : السياط التى يعاقب بها السلطان .

(٢) اللُّقَّحُ : المراد بها هنا السياط .

(٣) الدُّهَيمُ : مثل تضربه العرب للشر والداهية . اللسان (مادة دهم) .

(٤) الصَّكُّ : الصحيفة الخاصة بالصدقات . والأَحْدَبُ : يعنى الشيخ وهو العريف . أَسْأَرَتْ : أى أبقت . واليَرَاعَةُ : الجبان .

(٥) الخَلَّةُ : الحاجة والفقر .

(٦) الحَمُولَةُ : الابل التى تحمل ، والحمولة : كل ما احتمل عليه الحى من بعير أو حمار أو غير ذلك . وحويلا : أى التحول الى غيره والمعنى أنه لايستطيع التحول عن مكانه الى مكان آخر فهو لازم دياره لعدم وجود راحلة لديه .

(٧) خَرْقٌ : الخرق الأرض البعيدة مستوية كانت أو غير مستوية ، وسميت بذلك لانخراق الريح فيها .

ويظل الراعى النميرى لسان قبيلته الناطق عند الخليفة قياما بواجبه تجاه هذه القبيلة، يرفع مظلمته ، ويبين أن هذا الوضع هو الصورة الحقيقية لما تتعرض له قبائل البادية من قبل من أمرهم الخليفة بالعدل فى الناس لكنهم شطوا وظلموا ، فضاعفوا الزكاة حتى على الفقراء الذين لهم حق فيها فقد أخذوها منهم، ولم يتركوا لهم قليلا ولا كثيرا ، وبهذه النفس الثائرة الشاكية أخذ يبين لعبد الملك ظلم عماله قائلا [1] :

أَزْرَى بِأَمْوَالِنَا قَومٌ أَمَرْتَهُمُ ... بِالْعَدْلِ فِينَا فَمَا أَبْقَوا وَمَا قَصَدُوا
نُعْطِى الزَّكَاةَ فَمَا يَرْضَى خَطِيبُهُمُ ... حَتَّى تُضَاعِفَ أَضْعَافًا لَهَا عُدَدُ
أَمَّا الفَقِيرُ الَّذِى كَانَتْ حَلُوبَتُهُ ... وَفْقَ العِيَالِ فَلَمْ يُتْرَكْ لَهُ سَبَدُ [2]
وَاخْتَلَّ ذُو المَالِ وَالمُثْرُونَ قَدْ بَقِيَتْ ... عَلَى التَّلَاتِلِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ عُقَدُ [3]

ويرى بعض الباحثين القدامى أن عبد الملك بن مروان قد استجاب لهذا الشاعر فى شكواه ، فأعاد لقومه صدقات عامهم ذلك[4] ، لكن هذه الاستجابة - وإن حدثت فعلا - فإنها لم تحل مشكلة أهل البادية عموما مع عمال الزكاة الذين نغصوا حياة هؤلاء الأعراب ، وفرضوا عليهم فوق مايحتملون كما تبين لنا هذه النصوص الشعرية ، وأغلب الظن أن هذه الصيحات ناتجة عن مبالغة هؤلاء السعاة فى أخذ هذه

---

(١) ديوانه : ٦٤ .
(٢) سَبَدٌ: السبد الوبر وقيل الشعر . والمعنى هنا أنه لم يترك له قليلا ولاكثيرا.
(٣) التَّلَاتِلُ: المراد بها الشدائد ، اللسان (تلل) .
(٤) الأغانى : ١٧٢/٢٠ (بولاق) .

الصدقات ، فأثقلوا بذلك كاهل الناس ، ولذا فقد يكون لهذه الشكوى التى رفعها الشعراء من هذه الناحية وجه من الحقيقة ٠

وكان عبد الملك بن مروان قد ولى يحي بن الحكم بن أبى العاص (١) المدينة سنة ٧٥ هـ فشدد على المسلمين فى جباية أموال الزكاة ، وبعث فى البادية سعاة غلاظا كلفوا الناس فوق ما يحتملون عند ذلك انطلق الشاعر عمرو بن أحمر الباهلى (٢) يشكو ويخاطب هذا الوالى مستنصرا اياه ضد سعاته الذين كلفوهم فوق طاقتهم فقال :

يَايَحْيَ يَا ابْنَ إِمَامِ النَّاسِ أَهْلَكَنَا ... ضَرْبُ الجُلُودِ وَعُسْرُ المَالِ وَالحَسَرُ (٣)
إِنْ تَنْبُ يَا ابْنَ أَبِى العَاصِ بِحَاجَتِنَا ... فَمَا لِحَاجَتِنَا وِرْدٌ وَلَا صَدَرُ (٤)
مَا تَرْضَ نَرْضَ وَإِنْ كَلَّفْتَنَا شَطَطًا ... وَمَا كَرِهْتَ فَكُرْهٌ عِنْدَنَا قَذَرُ
نَحْنُ الَّذِيْنَ إِذَا مَاشِئْتَ أَسْمَعَنَا ... دَاعٍ فَجِئْنَا لِأَيِّ الأَمْرِ نَأْتَمِرُ
إِنِّى أَعُوذُ بِمَا عَاذَ النَّبِيُّ بِهِ ... وَبِالخَلِيفَةِ أَنْ لَا تُقْبَلُ العُذُرُ

---

(١) هو يحيى بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ٠
المحبر : ٦٨ ، وجمهرة أنساب العرب / لابن حزم : ٨٧ ٠

(٢) هو عمرو بن أحمر بن العمرد بن عامر بن عبد شمس ٠ الباهلي، شاعر فصيح كان يتقدم شعراء أهل زمانه، وهو شاعر مخضرم أدرك أيام عبد الملك بن مروان وله مدائح فى عمر وعثمان وعلى - رضى الله عنهم - قيل أنه هجا يزيد بن معاوية، فطلبه يزيد ففر منه ٠ عده ابن سلام فى الطبقة الثالثة من الاسلاميين ٠ توفى نحو ٦٥ هـ ٠
معجم الشعراء : ٣٧ ، وطبقات فحول الشعراء - تحقيق محمود شاكر ٥٨٠/٢ ، والأغانى (دار الكتب) : ٢٣٤/٨ ٠
وخزانة الأدب : ٢٥/٦ - ٢٥٧ وغير ذلك من مصادر الأدب ٠

(٣) شعر عمرو بن أحمد الباهلى / جمع وتحقيق الدكتور حسين عطوان مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق (د ٠ ت) : ٩٥ - ١٠٨ ٠

(٤) فَمَا لِحَاجَتِنَا وِرْدٌ وَلَا صَدَرٌ : أى كفيتنا كل مسعى ٠ والوِرْدُ : الاشراف على الماء ٠

مِنْ مُتْرَفِيكُمْ وَأَصْحَابٍ لَنَا مَعَهُمْ ... لَا يَعْدِلُونَ وَلَا نَأْبَى فَنَنْتَصِرُ (١)
فَإِنْ تُقِرَّ عَلَيْنَا جَوْرَ مَظْلَمَةٍ ... لَمْ تَبْنِ بَيْتًا عَلَى أَمْثَالِهَا مُضَرُ (٢)
لَا تَنْسَ يَوْمَ أَبِي الدَّرْدَاءِ مَشْهَدَنَا ... وَقَبْلَ ذَلِكَ أَيَّامٌ لَنَا أُخَرُ
هَلْ فِي الثَّمَانِي مِنَ التِّسْعِينَ مَظْلَمَةٍ ... وَرَبُّهَا لِكِتَابِ اللَّهِ مُسْتَطِرُ (٣)
يَكْسُونَهُمْ أَصْبَحِيَّاتٍ مُحَدْرَجَةً ... إِنَّ الشُّيُوخَ إِذَا مَا أُوجِعُوا ضَجِرُوا (٤)
حَتَّى يَطِيبُوا لَهُمْ نَفْسًا عَلَانِيَةً ... عَنِ القِلَاصِ الَّتِي مِنْ دُونِهَا مَكَرُوا (٥)
لَسْنَا بِأَجْسَادِ عَادٍ فِي طَبَائِعِنَا ... لَا نَأْلَمُ الشَّرَّ حَتَّى يَأْلَمَ الحَجَرُ
وَلَا نَصَارَى عَلَيْنَا جِزْيَةٌ نُسُكٌ ... وَلَا يَهُودَ طَغَامًا دِينُهُمْ هَدَرُ
إِنْ نَحْنُ إِلَّا أُنَاسٌ أَهْلُ سَائِمَةٍ ... مَا إِنْ لَنَا دُونَهَا حَرْثٌ وَلَا غُرَرُ (٦)
مَلُّوا البِلَادَ وَمَلَّتْهُمْ وَأَحْرَقَهُمْ ... ظُلْمُ السُّعَاةِ وَبَادَ المَاءُ وَالشَّجَرُ
إِنْ لَا تُدَارِكْهُمُ تُصْبِحْ مَنَازِلُهُمْ ... قَفْرًا تَبِيضُ عَلَى أَرْجَائِهَا الحُمَرُ
أَدْرِكْ نِسَاءً وَشِيبًا لَا قَرَارَ لَهُمْ ... إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ فِيمَا قَدْ لَقُوا غِيَرُ

---

(١) لَا نَأْبَى : أى لا نأبى جورهم وسفاهتهم . فَنَنْتَصِرُ : أى ننتصر على باطلهم ومنكرهم .

(٢) المَظْلَمَةُ : مايظلمه الشخص . لَمْ تَبْنِ بَيْتًا عَلَى أَمْثَالِهَا مُضَرُ : يريد فان مضر لم تقم على الضيم .

(٣) المَظْلَمَةُ ، والظلامة ، والظليمة : ماتطلبه عند الظالم وهو اسم ماأخذ منك ، وربها : صاحبها .

(٤) أَصْبَحِيَّاتٌ : المراد بها السياط ، ومُحَدْرَجَةٌ : أى مفتولة محكمة .

(٥) القِلَاصُ : جمع قلوص وهى الفتية من الابل .

(٦) الحَرْثُ : الزرع أو الكسب ، وغُرَرُ : أى عبيد واحدها غرة .

إنَّ العِيَابَ الَّتِي يُخْفُونَ مُشْرَجَةٌ   فِيهَا البَيَانُ وَيُلْوَى دُونَكَ الخَبَرُ (١)
فَابْعَثْ إلَيْهِمْ فَحَاسِبْهُمْ مُحَاسَبَةً   لَا تَخْفَ عَيْنٌ عَلَى عَيْنٍ وَلَا أَثَرُ
سَائِلْهُمُ حَيْثُ يُبْدِي اللَّهُ عَوْرَتَهُمْ   هَلْ فِي صُدُورِهم مِنْ ظُلْمِنَا وَحَرُ (٢)

لقد قسا هؤلاء السعاة على القبيلة،فلم يرحموا شيخا كبيرا من ضرب السياط ضربا عنيفا كأن ضحاياهم حجارة أو حديد ، وكأنهم بقايا عاد وثمود ، أو كأنهم من أهل الذمة . لقد كان هؤلاء السعاة ينهبون مال الأعراب ، ويختلسون مال الدولة بمساعدة بعض شيوخ القبائل الذين آثروا دنياهم على مصالح قبائلهم ، ويبدو من هذه الشكوى وغيرها كما سنرى أن سعاة الزكاة قد أجحفوا فى جمعها ، وأهانوا قبائل العرب فى سبيل ذلك .

وليت الأمر يقف عند هذا الحد لكن بعضهم يمتنع عن أخذ الشاة ،والبعير ويجبر المزكي على دفعها دراهم كما يوضح هذا الفرزدق (ت ١١٠ هـ) فى هذه الشكوى المؤثرة حيث يقول للخليفة الوليد بن عبد الملك شاكيا له ظلم هؤلاء السعاة للناس (٣) :

أَمِيرَ المُؤمِنِينَ وَأَنْتَ تُشْفِي   بِعَدْلِ يَدَيْكَ أَدْوَاءَ الصُّدُورِ
فَكَيْفَ بِعَامِلٍ يَسْعَى عَلَيْنَا   يُكَلِّفُنَا الدَّرَاهِمَ فِي البُدُورِ (٤)

---

(١) العِيَابُ : جمع عيبة ، وهى وعاء من أديم يكون فيها المتاع . وكنى بها هنا عن الصدور . اللسان (عيب) .
(٢) يُبْدِي اللَّهُ عَوْرَتَهُمْ : أى يظهر ما ارتكبوه ، وَحَرُ : أى حقد .
(٣) ديوان الفرزدق - دار صادر : ١/٢٨٥ - ٢٨٦ .
(٤) يُكَلِّفُنَا الدَّرَاهِمَ فِي البُدُورِ : يريد أنه يكلفهم جمع الدراهم وأداءها فى مطالع الأهلة .

وَأَنَّى بِالدَّرَاهِمِ وَهْيَ مِنَّا ... كَرَافِعِ رَاحَتَيْهِ إِلَى العَبُورِ (١)

إِذَا سُقْنَا الفَرَائِضَ لَمْ يُرِدْهَا ... وَصَدَّ عَنِ الشُّوَيْهَةِ وَالبَعِيرِ (٢)

إِذَا وَضَعَ السِّيَاطَ لَنَا نَهَارًا ... أَخَذْنَا بِالرِّبَا سَرَقَ الحَرِيرِ (٣)

فَأَدْخَلَنَا جَهَنَّمَ مَا أَخَذْنَا ... مِنَ الإِرْبَاءِ مِنْ دُونِ الظُّهُورِ

فَلَوْ سَمِعَ الخَلِيفَةُ صَوْتَ دَاعٍ ... يُنَادِي اللَّهَ هَلْ لِي مِنْ مُجِيرِ

وَأَصْوَاتَ النِّسَاءِ مُقَرَّنَاتٍ ... وَصِبْيَانٍ لَهُنَّ عَلَى الحُجُورِ

إِذًا لأَجَابَهُنَّ لِسَانُ دَاعٍ ... لِدِينِ اللَّهِ مِغْضَابٍ نَصُورِ

أَمِينِ اللَّهِ يَصْدَعُ حِينَ يَقْضِي ... بِدِينِ مُحَمَّدٍ وَبِهِ أُمُورِ

وفى هذه الشكوى يعرض الفرزدق لما حل بالناس من الظلم والقهر فى أسلوب مؤثر يوضح من خلاله ما يفعله السعاة من ظلم للرعية،حيث يكلفونهم أمورا يصعب معها التحقيق إلا بالخروج عن الدين وارتكاب المحرمات ، فلم يعد هؤلاء السعاة يقبلون السائمة المفروضة على أهل البادية شرعا ، فى زكاة مواشيهم ، وإنما يأخذون مقابلها نقدا ، وهذا المطلب صعب على الناس لخلو أيديهم من النقود ، فهم أهل بادية ليس معهم ولا لهم سوى هذه السوائم .

والذى يزيد من قوة هذه الشكوى ، وتأثيرها توضيح الشاعر لصرخات الاستغاثة من الرجال والنساء ، وتصويره القوى للنساء المقرنات ، وأطفالهن

---

(١) العَبُورُ : كوكب يطلع فى الجوزاء .

(٢) الفَرَائِضُ : مايفرضه عليهم من صدقات ، يريد ان هذا الساعى لايرضى بالشاة والبعير وانما يريد مالا عينا.

(٣) سَرَقُ الحَرِيرِ : شقاق الحرير وقيل هو أجوده .

على حجورهن يئنون من الجوع والمسغبة ، والسعاة لا يرحمونهم ، ولا تأخذهم بهم رأفة .

وبقدر ما اشتكى الناس من ظلم جباة الزكاة ، وتشددهم فى ذلك استكى الجند المرابطون فى الامصار الاسلامية من قادتهم الذين كانوا يحبسون أعطياتهم فلا يصرفونها فى حينها مع توافرها لديهم،وحيث أن المحاربين عادة يعيشون بعيدا عن مقر الخليفة،فقد كانوا يتوجهون بشكواهم إلى الوالى المسئول عن هذا القائد، يقول شاعر من تميم يشكو للحجاج تأخر قائدهم فى صرف أعطياتهم ، ويطالبه بحقوق وأرزاق الجند ويعرض ببخل أمراء الجيش الذين يكدسون الأموال حتى تفسد دون أن يعطوا المحاربين منها شيئا مع أنهم فى أمس الحاجة لذلك (١) :

وَلَو عَلِمَ ابنُ يُوسفَ مَا نُلَاقِى ... مِنَ الآفَاتِ وَالْكُرَبِ الشِّدَادِ
لَفَاضَتْ عَيْنُهُ جَزَعًا عَلَيْنَا ... وَأَصْلَحَ مَا اسْتَطَاعَ مِنَ الفَسَادِ
أَلَا قُلْ لِلْأَمِيرِ جُزِيتَ خَيْرًا ... أَرِحْنَا مِنْ مُغِيرَةَ وَالرُّقَادِ (٢)
فَمَا رَزَقَا الجُنُودَ بِهَا قَفِيزًا ... وَقَدْ سَاسَتْ مَطَامِيرُ الحَصَادِ (٣)

---

(١) الكامل فى اللغة والأدب : ٣/١٣٣٢ .

(٢) المُغِيرَةُ الذى يشكو منه الشاعر هو المغيرة بن المهلب ، ويبدو أنه هو الذى تأخر فى صرف أعطيات الجند وحبسها عنده .
والرُّقَاد : هو مساعد المغيرة هذا على مايظهر .

(٣) قَفِيزٌ : مكيال . سَاسَ الطعام اذا وقع فيه السوس .
مَطَامِيرُ : جمع مطمورة ، وهى الحفيرة تحت الأرض تخبأ فيها الحبوب .

وقد رفع الفرزدق شكوى بليغة يبين فيها للخليفة سليمان بن عبد الملك تصرف بعض الولاة الخاطىء عندما يجمرون الجند فى المناطق البعيدة بغير عطاء، وقد رأى الشاعر فى هذا ظلما وإجحافا وقتلا للروح المعنوية لدى الجيش المسلم، فانبرى يشكو من هذا الوضع المؤلم قائلا [1] :

وَيُجَمِّرُونَ بِغَيْرِ أُعْطِيَةٍ ... فِى البَرِّ مَنْ بَعَثُوا وَفِى البَحْرِ [2]
وَيُكَلِّفُونَ أَبَا عِرًا ذَهَبَتْ ... جِيَفًا بَلِينَ تَقَادُمَ العَصْرِ [3]
حَتَّى غَبَطْنَا كُلَّ مُحْتَمَلٍ ... يُمْشَى بِأَعْظُمِهِ إلَى القَبْرِ
وَتَمَنَّتِ الأَحْيَاءُ أَنَّهُمُ ... تَحْتَ التُّرَابِ وَجِىءَ بِالحَشْرِ
مَاقُلْتُ إلاَّ الحَقَّ تَعْرِفُهُ ... فِى القَولِ مُرْتَجَلاً وَفِى الشِّعْرِ
مَا أَصْبَحَتْ أَرْضُ العِرَاقِ بِهَا ... وَرَقٌ لِمُخْتَبِطٍ وَلاَ قِشْرِ

وينبغى أن لا نأخذ مثل هذه الشكوى على ظاهرها، فإنه عندما تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة قدمت وفود أهل العراق ، وأخذوا يشتمون الحجاج ، فربما كان الفرزدق فى هذه القصيدة يصدر عن هذه العاطفة العامة فهو الذى مدح الحجاج فى حياته ورثاه بعد موته ثم شتمه عند سليمان [4]. ، إضافة إلى أن علاقة الشاعر بسليمان وطيدة إذ لم يتورط كغيره من الشعراء فى مجاراة الوليد بن

---

(١) ديوانه : ٢٦٣/١ .
(٢) التَّجْمِيرُ : هو حبس الجيوش فى المغازى ، وعدم السماح لهم فى القفل الى أهلهم .
(٣) يريد أنهم كانوا يأخذون الصدقة على اعتبار ماكان عند الناس قديما مع أن أباعرهم ماتت وبليت .
(٤) ديوانه : ٢٥١/١ ، ٧٦/٢ ، ١٣٧ .

عبد الملك والحجاج فى تأييد عبد العزيز بن الوليد لولاية العهد وخلع سليمان (١) .

ورغم هذا فإنّ هذه الشكوى تبين لنا وضعا قد يكون قائما فى العراق ، فهو يصف حال الناس ، وما كانوا يعانون من مظالم ، وبؤس . ولذلك فإنه لايمكننا التسليم بكل دقائق هذه الصورة الشاكية ، كما أنه لايمكننا رفضها ، فليس المجتمع سليما من المظالم ، لكنه لم يصل بهم الأمر إلى أن يغبط الأحياء الموتى ، وأن أرض العراق باتت بيداء سملق ، لا ورق فيها ولا قشر . كما يصوره الشاعر . ومع هذا فانه لايمكن للباحث أن يهمل مثل هذه الصيحات ، فلابد أن لها وجها من الصحة . وبخاصة حينما تكون الشكوى موجهة الى الخليفة .

وأغلب الظن أن عهد بنى أمية لم يسلم من التجاوزات فى معاملة الناس، مما سبب كثيرا من الظلم للرعية واصطفاء الولاة ونوابهم ، وسعاتهم للأموال التى يحتازونها باسم الدولة بعيدا عن سمع الخليفة وبصره . حتى كان عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - فى نهاية القرن الأول فاستطاع أن يعيد المظالم إلى أهلها (٢) ، وأن يعمل على اشاعة العدل ، ومحاربة الفساد ، وشدد بالوصية فى ذلك على عماله ادراكا منه لواجبه نحو الأمة ، وفوق ذلك كله خوفه الشديد من الله سبحانه وتعالى . فاجتهد كثيرا فى اصلاح مافسد من أمر الحكم قبله ، وما كتابه - رضى الله عنه - لعامله بالكوفة . عبد الحميد بن

---

(١) الفرزدق / دراسة الدكتور شاكر الفحام : ١٧٣ .

(٢) تاريخ الخلفاء / للسيوطى ، دار نهضة مصر ١٩٧٥م ص : ٣٦٣ - ٣٩٣ .

عبد الرحمن [١] إلا دليل على صلاحه وعدله ، وفساد العمال وشططهم من قبل حيث يقول :

(.. أمَّا بَعْد فإنَّ أهْلَ الكُوفَة قد أصَابَهُم بَلاءٌ، وَشِدَّةٌ ، وَجُورٌ في أحكَامِ اللَّهِ ، وَسُنَنٌ خَبِيثَة استَنَّهَا عَليْهِم عُمَّالُ السّوء ، وَإنَّ قوَام الدِّين العَدلُ ، والإحسَانُ فَلا يَكونَن شَيء أهمَّ إليكَ مِن نَفْسِك أنْ توطنهَا لِطَاعَةِ اللَّهِ فَإنَّهُ لا قَليلٌ مِنَ الإثْم وَلاَ تحمل خَرَابًا عَلَى عَامِرٍ ، وَلاَ عَامِرًا عَلَى خَرَابٍ ، وَانظرْ الخَرَابَ فَإنْ أطَاقَ شَيئًا فَخُذْ مِنهُ مَا أطَاق ، وَأصلحهُ حَتَّى يَعمر ، وَلاَ يُؤخَذُ مِن العَامِرِ إلاَّ وَظِيفَة الخَرَاج فِي رِفْقٍ وَتَسْكِينٍ لأهْلِ الأرْضِ ..) [٢] وكان يقول :

(الوَليد بِالشَّامِ ، والحَجَّاج بالعِرَاق ، وَأخوهُ محمد بن يوسف بِاليَمَنِ ، وعثمَان بن حيَّان بالحِجَازِ ، وقرة بن شُريكٍ بِمِصْرَ . امتَلأتِ الأرْضُ واللَّهِ جَورًا [٣]) .

وكما أن نهج عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لم يحل دون وقوع بعض التجاوزات من عماله ، فكذلك نهج عمر بن عبد العزيزمع عدله لم يحل دون وقوع المظالم ، فقد اتسعت رقعة الدولة ، وتباعدت أمصارها ، وكثر عمالها ، والقائمون على خدمتها ، وربما حصل تهاون وتغاض عن محاسبة العمال ، ومراقبتهم قبل خلافة عمر بن عبد العزيز فأمنوا العقوبة ، وضعف الوازع الدينى الذى كان قويا فى

---

(١) عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب . الإمام الثقة الأمير العادل أبو عمر العدوى الخطابي المدنى الأعرج ، ولى امرة الكوفة لعمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - وتوفى سنة ١١٠ هـ .

سير أعلام النبلاء : ١٤٩/٥ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٥٦٩/٦ .

(٣) الكامل فى اللغة والأدب : ٦٣٦/٢ .

والأشخاص الذين عددهم هنا هم بعض عمال الوليد بن عبد الملك وقد استهروا بالشدة فى زمانهم .

توجيهه وسيطرته على النفوس فى عهد الراشدين ، ولذلك وجدنا فى عهد هذا الخليفة العادل صيحة الشكوى مطالبة بالاصلاح ، وتقويم الظالمين من أصحاب السلطة، فقد تنادى الشعراء بهذه الصيحة فى شعر صريح شديد فى تعريفه وتعنيفه وتجريحه . كما يقول كعب الأشقرى(١) فى شكواه لعمر بن عبد العزيز فساد بعض العمال البعيدين عن نظره (٢) :

إِنْ كُنْتَ تَحْفَظُ مَا يَلِيكَ فَإِنَّمَا ... عُمَّالُ أَرْضِكَ فِى البِلَادِ ذِئَابُ

لَنْ يَسْتَجِيبُوا لِلَّذِى تَدْعُو لَهُ ... حَتَّى تُجَلَّدَ بِالسُّيُوفِ رِقَابُ

بِأَكُفِّ مُنْصَلِتِينَ أَهْلِ بَصَائِرٍ ... فِى وَقْعِهِنَّ مَزَاجِرٌ وَعِقَابُ

هَلَّا قُرَيْشٌ ذُكِّرَتْ بِثُغُورِهَا ... حَزْمٌ وَأَحْلَامٌ هُنَاكَ رِغَابُ

لَوْلَا قُرَيْشٌ نَصْرُهَا وَدِفَاعُهَا ... أُلْفِيتُ مُنْقَطِعًا بِىَ الأَسْبَابُ

وكان - رحمه الله - يخطب ذات يوم على المنبر فقام إليه شاعر يشكو فساد العمال الذين وكل إليهم رعاية مصالح الأمة فقال(٣) :

إِنَّ الَّذِينَ بَعَثْتَ فِى أَقْطَارِهَا ... نَبَذُوا كِتَابَكَ وَاسْتُحِلَّ المَحْرَمُ

طُلْسُ الثِّيَابِ عَلَى مَنَابِرِ أَرْضِنَا ... كُلٌّ يَجُورُ وَكُلُّهُمْ يَتَظَلَّمُ

وَأَرَدْتَ أَنْ يَلِىَ الأَمَانَةَ مِنْهُمُ ... عَدْلٌ وَهَيْهَاتَ الأَمِينُ المُسْلِمُ

---

(١) هو كعب بن معدان الأشقرى . شاعر فارس خطيب ، من أصحاب المهلب وهو من الأشاقر من قبائل الأزد . ولعله توفى فى خلافة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٠ هـ . معجم الشعراء : ٣٤٦ .

(٢) البيان والتبيين : ٣/٣٥٨ - ٣٥٩ .

(٣) المصدر نفسه : ٣/٣٥٩ .

ونلاحظ فى هذا الشعر الشاكى أنه قاس فى لهجته عنيف فى هجومه مؤلم فى تجريحه، على خلاف ما عرضنا له من الشعر الذى عالج المواضيع ذاتها فى صدر الدولة الأموية ، فقد كان هناك معتدلا فى اللهجة ، ومتحفظا فى النقد ، ومتزنا فى عرض الشكوى ، أما هنا فإنه قاس فى لفظه ومعناه ٠

وأغلب الظن أن سياسة عمر بن عبد العزيز الشديدة فى محاسبة المفسدين كانت سببا فى ذلك ٠ إذ أصبحت الشكوى بتشجيع من الخليفة نفسه ، وعندئذ كانت بمثابة الرقابة الصارمة على هؤلاء المفسدين ٠ أما قبل عهد عمر بن عبد العزيز فإن الشاعر يشكو ، ويخشى أن لايستجيب الخليفة لشكواه، فيكون عرضة لسخط الوالى ٠ لكنه هنا يشكو وهو مطمئن أن الخليفة سَيَعْدِل ، ويستجيب له ٠

وربما تجاوز العمال كثيرا فى الإهمال ، وضعف لديهم الخوف من الله، فتمادوا فى الظلم ، وتخلوا عن حمل الأمانة ، ومحاسبة أنفسهم، فكانت صيحة الشكوى صدى لتلك الحالات الشاذة فى المجتمع المسلم ٠

ومن خلال دراستنا للشكوى الاجتماعية فى القرن الأول تبين لنا أنه كلما اقتربت الدولة الأموية من نهايتها زادت صيحة الشكوى من ظلم الولاة ، وفسادهم نتيجة لفقدان الدولة سيطرتها على ممثليها المنتشرين فى الأقاليم المتباعدة ، وانفلات الأمر من أيدى بنى أمية حتى انتهت خلافتهم ٠

وفى نهاية هذا المبحث نستطيع تسجيل بعض الملاحظات التى تراءت لنا من خلال دراستنا للشكوى من ظلم الولاة فى القرن الأول الهجرى،فقد بان لنا أن صيحات الشكوى من ظلم الولاة ، والعمال ، والسعاة لم تأت من فراغ،فلابد أن هناك ما أثار حفيظة الشعراء ، واستفزهم،فرفعوا الشكوى وعبروا عن شعور المجتمع بأسره ، وإذا كان عصر صدر الاسلام قد اتسم بالعدل ، والانصاف ، ومحاسبة العمال ونوابهم ، فإن النصف الثانى من القرن الأول لم يسلم من الانحراف ،والظلم مما دعا الشعراء إلى الشكوى ، والتظلم ورفع صوت المجتمع للخليفة ٠

أما الملاحظة الثانية ، فإنه يتحتم على الباحث أن لايأخذ كل ماكتب عن بنى أمية فى المصادر التاريخية والأدبية على أنها مسلمات لا خلاف عليها لاينبغى مناقشتها وعرضها على محك النقد الدقيق المنصف ، فالتاريخ لكونه سجلا لحياة الأمم الاجتماعية ، والسياسية ، والدينية ، فقد سجل على بنى أمية كثيرا مما يجعل الباحث يقف وقفات طويلة تجاه ذلك لئلا يكون تاريخ حكام المسلمين ، وقادتهم فى عصور الاسلام الزاهرة عرضة للتجريح ، والتشويه والمغالطات ،وإذا كان قد تجرأ فى زمن بنى أمية بعض الولاة الذين أؤتمنوا على مصالح الناس ، فأساؤا ذلك ، وخانوا ضميرهم وأمتهم،وكلفوا الرعية الكثير نتيجة لعدم استقامة هؤلاء الولاة والسعاة ، فهذا لايعنى أن ولاة الأمر من الخلفاء كانوا فى بروج مشيدة لا يسمعون صيحات الشكوى ، وصرخات الاستغاثة ٠ ولكن طبيعة العصر وتعدد مشارب الناس ، ووقوع أعباء كبيرة على كاهل الدولة المسلمة فى سبيل نشر الاسلام وتجهيز الجيوش فى ذلك ربما دفع الخلفاء إلى التغاضى عن مايفعله السعاة من التشديد فى جمع الزكاة ، الأمر الذى لم يألفه عرب البادية بما فطروا عليه من حب للماشية ، إذ هى عماد حياتهم ، وعليها يعيشون ٠

ونضيف سببا آخر لهذه القوة والصرامة فى معاملة الناس كنتيجة للدراسة التاريخية . وهو أن الفترة التى كانت بين نهاية الحكم السفيانى ، وبداية حكم عبد الملك بن مروان كانت فترة اهتزاز فى سيطرة الدولة على الأمر ، وتوطيد الحكم الأموى فى العالم الاسلامى ، وهو ما يتطلب الشدة والحزم للعمل على توحيد المسلمين تحت إدارة واحدة بعد فترة من الصراع المضني مع كثير من الأحزاب المتباينة فى الفكر والعقيدة .

وهناك سبب ثالث يتعلق بالأعراب أنفسهم فإنه لايؤمن جانبهم فى أداء زكاة أموالهم،فربما امتنعوا عن ذلك متى ما رأوا فى السلطة ضعفا ، أو تهاونا فى جبايتها . وقد حدث أن امتنعوا عن دفع الزكاة بعد وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما عمت الردة معظم أجزاء الجزيرة العربية . ثم تكرر هذا من قبائل طى ، وأسد فى نهاية الحكم الأموى عندما ضعفت الخلافة الأموية (١) .

---

(١) يوضح هذا ماقاله : قوال بن عبيد الطائى . عندما أخذ يتوعد ساعى الزكاة بقوله :

قُولاَ لِهَذَا المَرْءِ ذُو جَاءَ سَاعِيًا
هَلُمَّ فَإِنَّ المَشْرِ فِىَّ الفَرَائِضُ

أَظُنُّكَ دُونَ المَالِ ذُو جِئْتَ تَبْتَغِى
سَتَلْقَاكَ بِيضٌ لِلنُّفُوسِ قَوَابِضُ

الحماسة لابى تمام : ٣٢٢/١ .
خزانة الادب : ٢٨/٥ ـ ٢٩ .
شعر طى وأخبارها فى الجاهلية والاسلام / جمع وتحقيق الدكتور وفاء فهمى السنديونى . دار العلم الرياض ، ١٤٠٣ هـ / ٦٨٩/٢ .

ونود أن نشير إلى أن بعض الشعراء فى شكواهم قد بالغوا كثيراً فى الوصف . وهى مبالغة جائزة فى الشعر إذ أن الشاعر لا يقف فى وصفه عند الحقائق المجردة ولذلك ضخموا الأمر ، وهولوه ، إذ ليس من المعقول ،ولا من الانصاف أن يتهم عمال بنى أمية ، ومعهم عمال ابن الزبير بالخيانة ، والظلم ، وعدم العدل ، واحتياز الأموال إلى غير ذلك مما ذكره الشعراء .

المبحث الثالث

الشكوى من السجن فى القرن الأول الهجرى

يعد السجن مظهرا من مظاهر السلطة ، بل هو ضرورة اقتضتها سياسة الدولة ليكون مصدرا من مصادر حفظ الأمن ، وتأديب المتمردين على الأعراف الاجتماعية ، والنظم السياسية ومن فى حكمهم ، وقد ورد ذكر السجن فى القرآن الكريم دليلا على سلطة الحكم (١) .

وبالنظر إلى الوضع عند عرب الجاهلية تبين لنا أن السجن لم يخضع لتنظيم معين ، لارتباط ذلك بحياتهم التى لم ترعها حكومة ، وإنما كان السجن عندهم عبارة عن خيمة (٢) يوضع فيها الأسير حتى تفتديه قبيلته ، أو يمثل به ، أو يطلق ، وأحيانا كان يوضع الأسير فى حفرة عميقة بحيث لايستطيع الخروج من قعرها (٣) ، وربما جمع الأسرى فى حظيرة كما تجمع الأغنام ، أو دفع بهم الى أشخاص اتخذوا من تعذيب الأسرى ثم قتلهم وسيلة للكسب (٤) .

---

(١) سورة يوسف الآيات : ٢٥ ، ٣٢ - ٣٣ ، ٣٥ - ٣٦ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ١٠٠ .

(٢) الأسر والسجن فى شعر العرب تاريخ ودراسة / للدكتور أحمد مختار البرزة ، مؤسسة علوم القرآن ط (١) ١٤٠٥ هـ ص : ٣٢ .

(٣) وقد أشار إلى هذا عوف بن عطية التيمي فى الجاهلية بقوله يعير لقيط بن زرارة بتركه أخاه معبدا يموت فى الأسر :

هَلاَّ كَرَرْتَ عَلَى أُخَيِّكَ مَعْبَدٍ ∴ وَالعَامِرِيّ يَقُودُهُ بِصَفَادِ
لَكِنْ تَرَكْتَهُ فِى عَمِيقٍ قَعْرُهَا ∴ زجرًا لِخَامِعَةٍ وَطَيرِ عَوَادى

الأغانى : ٢٣/١٠ . ومعجم الشعراء : ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٤) المصدر نفسه : ١٩/١٠ .

هذا هو وضع السجون عند عرب الجاهلية ، عدا ماكان عليه الحال عند المناذرة ، والغساسنة ، الذين استطاعوا أن يحكموا أطرافا من الجزيرة العربية ، فقد أقاموا سجونا اتخذوها من البنيان الحصين والقلاع ، كسجن (الثوية) (١) الذى أقامه النعمان بن المنذر ، وكان أشبه بالسجن السياسى والحربى ، وفيه سجن الشاعران المنخل اليشكرى ، وعدى بن زيد العبادى ثم قتلا (٢) . وتدل بعض النصوص على أنه كان للغساسنة سجن (بالبلقاء) هيأوه للحبس والتعذيب ، والاعدام (٣) .

أما فى عصر صدر الاسلام فلم يطرأ اعداد ، أو تخصيص أماكن معينة للسجن، حيث كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يضع الأسرى فى البيوت أو فى المسجد (٤) وكان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قد سجن الحطيئة فى حفرة فى

---

(١) معجم البلدان (ثوية) وكان هناك حصن فى البحرين مخصص للسجن ، والتعذيب ، وقد حبس فيه الشاعر طرفة بن العبد ثم قتل . ولعل هذا الحصن هو المسمى (بالمشقر) الذى حبس فيه جمع كبير من فرسان بنى تميم ، وضربت أعناق أكثرهم .
تاريخ الطبرى : ١٦٩/٢ - ١٧١ ، والنقائض : ١٤٩/١ .

(٢) الشعر والشعراء : ٤٠٤/١ - ٤٠٥ ، وديوان عدى بن زيد العبادى / القصائد : ١ - ٩ ، ١١ ، ١٧ .

(٣) وقد ذكر أبو أذينة مايشير الى هذا السجن ، محرضا المنذر بن الأسود على قتل أسرى الغساسنين فقال :

وَاذْكُرْ لِمَنْجَاهمُ مَثْوَى أَبِى كَرَبٍ ... وَحَبْسَ آل عَدِىّ عِنْدَهُ حِقَبَا
أَمْسَتْ تضَرِبُ بِالْبَلْقَاءِ هَامَتَهُ ... وَنَحْنُ نَسْتَعْمِلُ اللَّذَات وَالطَّرَبَا

الحماسة البصرية . طبعة حيدر آباد : ٨٧/١ ، ونهاية الأرب : ٣٢٠/١٥ .

(٤) وضع سهيل بن عمرو فى حجرة من حجر النبى - صلى الله عليه وسلم - كما وضع بنو قريظة فى دار بنت الحارث امرأة من الأنصار .
السيرة / لابن هشام ، وبهامشه الروض الأنف / للسهيلى : ٢٧٠/٣ .
وأحكام السجن ومعاملة السجناء فى الاسلام / الدكتور حسن أبو غدة ، مكتبة المنار الكويت ط (١) : ٢٧٩ .
والأسر والسجن فى شعر العرب : ٣٣ .

المدينـــة (١) .

ومن هنا يمكننا القول : أنه لم يكن هناك سجن جامع قبل الخليفة الثانى ، وإن كان - رضى الله عنه - فيما تذكر بعض الروايات قد اشترى دارا خصصها للحبس فى مكة (٢) ، بينما لم يؤثر عنه أنه اتخذ سجنا فى المدينة ، وإنما كان يحبس فى الآبار كما رأينا . وليس من المستبعد أن بعض الدور قد اتخذت لهذا الغرض إذ أصبح السجن من المؤسسات اللازمة فى سياسة الرعية .

ويبدو أن عثمان بن عفان - رضى الله عنه - قد اتخذ سجنا فى المدينة فإن المصادر تذكر أن الشاعر ضابيء بن الحارث البرجمى مات فى سجن عثمان (٣) .

ولما كان عهد على بن أبى طالب - رضى الله عنه - وكثر الشغب والعصيان اعتنى بالسجن ، فكان أول من بنى سجنا فى الاسلام حيث بناه فى

---

(١) وقد أشار الى ذلك فى استعطافه عمر بن الخطاب بقوله :

أَلقَيْتَ كَاسِبَهُمْ فِى قَعْرِ مُظْلِمَةٍ
فَاغْفِرْ عَلَيكَ سَلامُ اللّهِ يَاعُمَرُ

ديوان الحطيئة / تحقيق الدكتور نعمان طه ، مكتبة الخانجى ط (١) ١٤٠٧ هـ : ١٩٢ .

الأوائل / لأبى هلال العسكرى ، تحقيق وليد قصاب ، دار العلوم ط (٢)١٤٠٠هـ / ٢٣٨/١ .

(٢) التراتيب الادارية / عبد الحى الكتانى ، طبعة بيروت (د . ت) : ٢٩٨/١ .
والأسر والسجن فى شعر العرب : ١٠٠ - ١٠١ .
والخطط للمقريزى ، طبعة مصر ١٢٧٠ هـ : ١٨٧/٢ .

(٣) أنساب الأشراف : ٨٤/٥ - ٨٥ وخزانة الأدب : ٣٢٦/٩ .

الكوفة [1] ، ثم توسع الأمويون فى إنشاء السجون لما نجم فى زمنهم من الخلاف ، وظهور الأحزاب السياسية المناوئة لهم ، وما ترتب على ذلك من الخصومات والانقسامات [2] .

ولم يطرأ تعديل أو زيادة فى بناء السجون فى العصر العباسى ، إذ بقيت على ماكانت عليه فى عهد بنى أمية .

ولا يعنينا بعد هذا العرض أن نسترسل فى الحديث عن السجون ، وأماكنها ، ووسائل التعذيب فيها ، فليس هذا من مهمة البحث ، بقدر ماكانت هذه العجالة توطئة لدراسة الشكوى من السجن لدى الشعراء الذين سجنوا فى تلك الفترة .

ومع أنه لم يكن لدينا أثر من آثار الأقدمين جمع شتات شعر السجن ، إلاّ أن هذا لم يكن دليلا على عدم درايتهم بهذا اللون من المؤلفات فيما يتصل منها

---

(١) المخصص / لابن سيده ، طبعه بولاق : ٩٣/١٢ .
والأسر والسجن فى شعر العرب : ١٠٢ .

(٢) قال ياقوت : " قيل انه أحصى فى محبس الحجاج ثلاثة وثلاثون ألف انسان لم يحبسوا فى دم ولا تبعة ، ولا دين . وأحصى من قتله صبرا فبلغوا مائة وعشرين ألفا " معجم البلدان (واسط) .

وذكر غيره من المؤرخين أن الحجاج توفى وفى محبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة .
التنبيه والاشراف / للمسعودى ،دار التراث ، بيروت ١٩٦٨م : ٢٧٥ والحقيقة أن هذا العدد مبالغ فيه ، فكم كان سكان العراق فى ذلك الوقت حتى يبلغ السجناء هذا العدد الهائل . ثم أين السجن أو السجون التى يمكن أنتستوعب مثل هذا العدد الكبير؟ وأغلب الظن أن هذا من زيادات المؤرخين فيما بعد ليشوهوا صورة الحجاج ، ومن ثم يشككوا فى عدالة بني أمية بوجه عام .

بالأخبار ، أو ذكر الأماكن ، والبلدان (1) .

وما يهمنا من شعر السجن هو الجانب الشاكى الذى يصور معاناة الشعراء، وما يلاقونه فى سجنهم من تعذيب وإرهاب ، فإن السجن بقدر مافيه من كبت للحريات ، وإهانة ، وصغار ، فإنه قد يؤجج العواطف ، ويرهف الحس ، ويثير الشجون ،وبخاصة عندما يكون السجين مظلوما .

وقد عبر الشعراء فى شكواهم من السجن بصور وصفية مؤثرة ، فأخذوا يصفون ليله الموحش الكئيب ، والأرق الذى يغشى السجين فى آيامه الأولى ، وتقلب صاحبه فى مضجعه ، وكثرة آهاته ، وحسراته ، ومحاولة التصبر ، والتماس العزاء فى محنتهم تلك ، حيث طوح السجن بمجدهم وطموحاتهم ، كما أخذوا يصورون من خلال الوصف الدقيق السجن ، وحجراته المظلمة ، وجدرانه العالية ، وأبوابه المغلقة ، وقيوده الثقيلة ، وحرسه الغلاظ الشداد ، الذين لايسمع إلا وقع أقدامهم جيئة وذهابا ، وهم يرقبون السجناء كما ترقب الذئاب فريستها .

---

(1) لقد كان اهتمام القدماء منصبا على الموضوعات المستقلة ، فأفردوا لذلك كتبا تتحدث عن موضوعات معينة ، أو تتحدث عن أشخاص اشتهروا بظاهرة محددة ، ومن ذلك على سبيل المثال :

- أشعار النساء / للمرزباني ، تحقيق الدكتور سامى مكى العانى ، دار الرسالة - بغداد ١٩٧٦م .
- أشعار اولاد الخلفاء / للصولى (المقدمة من كتاب الأوراق) .
- العققة والبررة / لأبى عبيدة (نوادر المخطوطات : ٣٥٢/٢) .
- أسماء المغتالين من الأشراف فى الجاهلية والاسلام ، وأسماء من قتل من الشعراء (نوادر المخطوطات : ١١٢/٢) .
- لصوص العرب (معجم الأدباء: ١٦٢/١٩) لم يصل الينا وأغلب الظن أنه مفقود .

كما وصفوا ليل السجن ، واشتكوا من طوله ، وتراكم ساعاته ، وما يلاقونه داخل سجنهم من صنوف العذاب [١]، وستتضح الصورة أكثر عندما نتناول الشكوى من السجن عند الشعراء فى القرن الأول الهجرى [٢] ، فإن النصوص الشعرية التى بين أيدينا تلقى الضوء على أحوال هؤلاء الشعراء ، وقد زج بهم فى السجون لأسباب اجتماعية ، وأخرى سياسية ، ودينية ، فأنشأوا أدبا راقيا مؤثرا فى النفوس ·

لقد أشرقت شمس الاسلام ، وعم نوره أرجاء الجزيرة العربية ، ثم مالبث أن أشرقت له الدنيا بأسرها ، فاختفت ظواهر عديدة كان يموج بها المجتمع الجاهلى وهذبت أخرى لتتمشى مع تعاليم الاسلام ، وقيمه [٣]، ولم يكن الدين ليحجر على العقل ابداعه · بل زوده بطاقة هائلة من الألفاظ والمعانى تتفق مع هذا المنهج الجديد ، غير أنه وضع حدودا للانسان فى تصرفاته متى تجاوزها استحق العقوبة بحسب اغراقه فى الرذيلة ، وتماديه فى الخطأ ·

وتبدو الشكوى من السجن واضحة عند الشعراء الذين دخلوه لقاء مااقترفت أيديهم من خطأ فى حق أنفسهم أو مجتمعهم ، وكان من تلك الأخطاء مايتعلق بالحدود

---

(١) الأسر والسجن فى شعر العرب : ٥٠٨ - ٥٢٢ ·

(٢) قصرنا الحديث على الشكوى من السجن فى هذه الفترة لأنها اتسمت فى نصفها الثانى (بنو أمية) بكثير من القلاقل والفتن ، جعلت الخلفاء الأمويين وولايتهم يتصفون بالحزم ، والصرامة مع خصومهم ، فتوسعوا فى بناء السجون نظرا لاتساع الدولة ، وسيطرتها على زمام الأمور · ثم لما رأينا من مبالغات المؤرخين فى كثرة عدد السجناء فى زمنهم وهى مبالغات بقدر مافيها من التزيد، فإنه لابد أن يكون لها وجه من الحقيقة ·

(٣) الصاحبي / لابن فارس : ٧٨ ·

الشرعية كقتل العمد ، وغيره مما يستلزم إقامة حد شرعى مهما كان (١) ، أو مايتعلق بالآداب العامة ، حيث تجاوز بعض الشعراء حدود الخلق الحسن ، وكان من هذه الظواهر الاجتماعية تصريح بعض الشعراء بالغزل الماجن ، الذى يهتك الفضيلة ، ويتعدى حدود العفة ، فينال من شرف المرأة المسلمة ، وكرامة أوليائها ، أو هجاء المسلمين ببذىء القول . والقدح فى أنسابهم ، وأعراضهم (٢)، إضافة إلى ما كان من أمر اللصوص الذين ظهروا فى هذه الفترة فأقلقوا السلطة ، وأرعبوا الناس فيما يقومون به من قطع الطرق ، والسلب ، والنهب ، كل هذه الظواهر ، وغيرها كانت أسبابا مباشرة فى دخول كثير من الشعراء السجن ، وإن كانت قد استجدت عليها أمور أخر فى القرنين الثانى والثالث تتعلق بالدين والسياسة ، والآداب العامة .

---

(١) يكفى أن نأخذ على سبيل المثال هدبة بن الخشرم العذرى (ت ٥٠ هـ) فيما يختص بمن سجن فى قضية قتل العمد ، كما نأخذ أبا محجن الثقفى (ت ٣٠ هـ) الذى سجن لشربه الخمر فى عهد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - .

(٢) كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قد تنبه لهذه الظواهر فتوعد الشعراء بالجلد ، والحبس ان هم تعرضوا للنساء فى أشعارهم فأقلعوا عن ذلك ، كما أنه سجن الحطيئة لهجائه المسلمين ، وهدد النجاشي الحارثى (ت ٤٠ هـ)عندما شكاه بنو العجلان بقطع لسانه ان عاد للهجاء مرة أخرى ،وكان عثمان - رضى الله عنه - قد سجن ضابىء بن الحارث البرجمى (ت ٣٠ هـ) لهجائه الناس ، وقد نهى الشعراء ، وهددهم حتى خافوا منه . يقول الشماخ بن ضرار مبينا خوفه من عثمان إن بدر منه هجاء لأحد :

لَولاَ ابن عفَّان والسُّلطَان مُرتقبٌ ∴ أُوردتَ فجًّا من اللَّعبَاءِ جلمُودِ

- فهو يتهدد الربيع بن علباء بالهجاء لولا الخليفة .
- الشعر والشعراء : ٣٣١/١ .
- ديوان حميد بن ثور : ٣٨ - ٤١ .
- ديوان الحطيئة : ١٩٢ .
- ديوان الشماخ بن ضرار الذبيانى / تحقيق صلاح الدين الهادى ، دار المعارف ١٩٧٧ م ص ١٢٢ .
- الأغانى : ٣٥٦/٤ ، ١٠٣/٨ .
- خزانة الأدب : ٣٢٦/٩ .

ومن خلال ماوصل إلينا من شعر القرن الأول الهجرى ، نلاحظ قلة شعر الشكوى فى عصر صدر الاسلام ، وذلك لسبب نقاوة المجتمع ، وصفاء أهله ، ونزاهتهم، وعفافهم، كذلك كانوا يعيشون وهج الدين الجديد الذى حد كثيرا من انزلاق النفوس فى مهاوى الرذيلة . فقد حفظ الاسلام للناس دماءهم ، وأموالهم ، وأعراضهم ، وشدد على ذلك ، فكان المسلم فى الصدر الأول متى اقترف ذنبا أقام من نفسه قاضيا على نفسه فيسارع بالذهاب إلى ولي الأمر يطلب منه إقامة الحد الشرعي عليه فى الدنيا علّ إقراره ، وندمه ، وتوبته تدرأ عنه العقوبة فى الآخرة (١) .

ولقد كان الخلفاء الراشدون من الحزم ، والعدل بحيث لم يتركوا لانسان حقا يضيع أو مظلمة إلا ردوها إليه ، ودفعوا عنه الظلم ، وأخذوا على أيدى العابثين والمارقين ، ورعوا المجتمع حق الرعاية ، وصرفوا أمور الناس بما يتفق وعقيدة الاسلام ، فكان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - من أشد الناس غيرة على حدود الله ، وحرمات المسلمين (٢) . وكان ينهى الشعراء عن الغزل بالنساء المسلمات ،

---

(١) إن من الأدلة على نقاوة المجتمع ، وطهارة النفوس فى هذه الفترة قصة الصحابى الجليل ماعز بن مالك الاسلمى عندما جاء إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - يطلب منه أن يقيم عليه حد الزنا ، وفى هذا دليل على محاسبة الناس لأنفسهم مخافة الله قبل أن يحاسبهم السلطان فى هذه الحقبة الزمنية المضيئة .

الاصابة وبهامشه الاستيعاب : ٢٣٣/٩ .

(٢) الأوائل / لأبى هلال العسكرى : ٢٣٣/١ .

وتوعدهم أن فعلوا شيئا من ذلك بالجلد والسجن مما دعا بعضهم إلى اتخاذ الرمز وسيلة للتغنى بمحبوبته [1]. حتى أنه - رضى الله عنه - قد سجن الحطيئة ، وكاد يقطع لسانه لتعرضه لهجاء المسلمين ، فكان عمر - رضى الله عنه - أول من عاقب شعراء الغزل ، والهجاء ، وأول من ضاعف عقوبة شارب الخمر من أربعين جلدة إلى ثمانين حرصا منه على حماية المجتمع من تجاوزات العابثين بقيمه ، ومثله [2] .

ومع هذا فإن لكل قاعدة شواذا ، وليس من الممكن أن يسلم أى مجتمع من المجتمعات مهما كانت قوة السلطة فيه ، والتزام الناس من وجود منحرفين وجناة . ومن هنا كانت مسئولية الحاكم فى تتبع هؤلاء ، والأخذ على أيدى كل من يسيئون إلى أنفسهم ، وإلى مجتمعهم ، فكانت السجون فى النصف الثانى من القرن الأول مكتظة بالناس الذين قادتهم أعمالهم إلى هذه الأماكن على تفاوت فى تلك الجرائم التى اقترفوها .

---

(١) وقد دفع هذا حميد بن ثور الهلالى إلى اللجوء إلى الرمز ليعبر من خلاله عن عواطفه نحو محبوبته فهو يرمز لها " بالسرحة " فيقول من قصيدة له :

وَهَلْ أَنَا إِنْ عَلَّلْتُ نَفْسِى بِسَرْحَةٍ
مِنَ السَّرْحِ مَسْدُودٌ عَلَىَّ طَرِيقُ
حَمَى ظِلَّهَا شَكْسُ الْخَلِيقَةِ خَائِفٌ
عَلَيْهَا غَرَامَ الطَّائِفِينَ شَفِيقُ

- ديوان حميد بن ثور : ٤٠ .
- الأغانى : ٣٥٦/٤ (دار الكتب) .

(٢) الأوائل / لأبى هلال العسكرى : ٢٣٠/١ - ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ .

وكان من أوجب الواجبات على الخليفة ، وأولى الأمر إقامة حدود الله ، وتأديب المنحرفين والفاسدين ، وكان من أكبر الجرائم وأشنعها التى يعاقب عليها بالسجن ثم القود جريمة قتل العمد ، فقد دخل الشاعر هدبة بن الخشرم العذرى السجن قاتلا لابن عمه ، فأنطقه ذلك بشعر ظهرت فيه عاطفته المتأججة بعد أن أمر معاوية بن أبى سفيان بقتله حدا[1] ، فقال مايمكن أن يقوله السجين، أو يفكر فيه ، أو يتمناه ، أو يشعر به .

وقضية هذا الشاعر هى قضية اجتماعية يمكن أن تحدث فى المجتمع فى أى زمان ومكان ، ولذلك رأينا دراسة شكوى هدبة هنا من جانبها الاجتماعى رغم أنه يحكى فى شكواه مايدور فى ذهنه ، وما يختلج فى نفسه من آلام كان منشؤها اجتماعيا كما رأينا .

فها هو يشكو من جزع ابن عمه أبى نمير الذى دخل معه السجن فلم يصبر، ولم يتحمل هول الموقف ، كما يشكو من السجن ، فهو دار بلوى وهوان ، ويتمنى أن تزول كربته ، وأن يأتيه الفرج بعد الشدة ليأمن من الخوف ،وينفك من هذا السجن ، فيأتى أهله الذين اشتاق لهم كثيرا ، وتمنى لو أن الرياح تخبرهم عن حاله وتأتيه بخبرهم فى سجنه . وفى هذا دليل على قوة الرابط الاجتماعى الذى يربطه بأهله الذين اشتاق لهم كثيرا فليس هناك أفضل ولا أبهج من العيش فى ظل الأسرة المترابطة التى تنعم بالحب والاحترام بين أفرادها يقول :[2]

---

(١) القصة مفصلة فى الأغانى : ٢١/٢٥٤ - ٢٧٤ .

(٢) شعر هدبة بن الخشرم العذرى / تحقيق الدكتور يحيى الجبورى ، دار القلم الكويت ط (٢) ١٤٠٦ هـ ص : ٥٩ - ٦٠ .

يُؤَرِّقُنِي اكْتِئَابُ أَبِي نُمَيْرٍ ... فَقَلْبِي مِنْ كَآبَتِهِ كَئِيبُ
فقلت لَهُ هَدَاكَ اللَّهُ مَهْلاً ... وَخَيْرُ القَوْلِ ذُو اللُّبِّ المُصِيبُ
عَسَى الكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيْتُ فِيهِ ... يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ
فَيَأْمَنَ خَائِفٌ وَيُفَكَّ عَانٍ ... وَيَأْتِي أَهْلَهُ النَّائِي الغَرِيبُ
أَلَا لَيْتَ الرِّيَاحَ مُسَخَّرَاتٍ ... بِحَاجَتِنَا تُبَاكِرُ أَوْ تَؤُوبُ
فَتُخْبِرَنَا الشَّمَالُ إِذَا أَتَتْنَا ... وَتُخْبِرُ أَهْلَنَا عَنَّا الجَنُوبُ
فَإِنَّا قَدْ حَلَلْنَا دَارَ بَلْوَى ... فَتُخْطِئُنَا المَنَايَا أَوْ تُصِيبُ
فَإِنْ يَكُ صَدْرُ هَذَا اليَوْمِ وَلَّى ... فَإِنَّ غَدًا لِنَاظِرِهِ قَرِيبُ

لقد ذاق هدبة مرارة السجن ، وسبر أغواره فتحدث عنه ، وعن كل مايتعلق به بعد أن ترك على نفسه ظلا من الضيق ، والكآبة ، واليأس لاسيما وأنه يعيش لحظة النهاية ، فقد أدرك أنه مقتول يرى الموت على حقيقته ، ويتمثله رهيبا بشعا حيث يسلمه إلى الوحدة فى قبره الضيق وقد تركه الأصحاب فى قبره مرهونا بما قدمت يداه ان خيرا فخير وان شرا فشر ، فأخذ يطلق خواطره الحزينة فى صور شجية تأسى لفراق الحياة وطيباتها ، وهو يغتم للاحتباس فى جوف القبر فيبوح بحسراته فى شكوى مريرة وبكاء مكتوم(١) .

أَلَا عَلِّلَانِي قَبْلَ نَوحِ النَّوَائِحِ ... وَقَبْلَ اطِّلَاعِ النَّفْسِ بَيْنَ الجَوَانِحِ
وَقَبْلَ غَدٍ يَالَهْفَ نَفْسِي عَلَى غَدٍ ... إِذَا رَاحَ أَصْحَابِي وَلَسْتُ بِرَائِحِ
إِذَا رَاحَ أَصْحَابِي بِفَيْضِ دُمُوعِهِمْ ... وَغُودِرْتُ فِي لَحْدٍ عَلَيَّ صَفَائِحِي

---

(١) المصدر السابق : ٨٩ .

ثم يسلم أمره لله معترفا بأن الأمر له وحده ، فهو مؤمن به فقير إلى رحمته ، كما أنه يكره أن يظلم أحدا مالم يصب هو بالظلم ، وهو يشير من طرف خفى أنه ما أقدم على قتل ابن عمه الا عندما تجاوز فى ظلمه واهانته.فوجد نفسه مرغما لدفع الظلم عنه (١) .

أَذَا الْعَرْشِ إِنِّى مُسْلِمٌ بِكَ عَائِذٌ مِنَ النَّارِ ذُوبَثٍّ إِلَيْكَ فَقِيرُ
بَغِيضٌ إِلَىَّ الظُّلْمُ مَالَم أُصَبْ بِهِ مِن الظُّلْمِ مَشْعُوفُ الفُؤَادِ نَفِيرُ (٢)
وَإِنِّى وَإِنْ قَالُوا أَمِيرٌ وَتَابِعٌ وَحُرَّاسُ أَبْوَابٍ لَهُنَّ صَرِيرُ
لأَعْلَمُ أَنَّ الأَمْرَ أَمْرُكَ إِنْ تُدِنْ فَرَبٌّ وَإِنْ تَغْفِرْ فَأَنْتَ غَفُورُ

وهكذا أثر الاسلام فى نفس هذا الشاعر . وغيره من شعراء عصره ، فلقد وجدنا أبا محجن الثقفي (ت ٣٠ هـ) الشاعر العابث الذى اشتهر بشربه للخمر ، والتعرض للنساء فى المدينة (٣) ، يشكو مر الشكوى من قيوده وهو مسجون عند سعد بن أبى وقاص فى العراق ، والمسلمون يخوضون معركة القادسية بعد أن هرب من المدينة خوفا من عمر بن الخطاب يقول (٤) :

كَفَى حَزَنًا أَنْ تَرْدِى الخَيْلُ بِالقَنَا وَأُتْرَكَ مَشْدُودًا عَلَىَّ وِثَاقِيَا
إِذَا قُمْتُ عَنَّانِى الحَدِيدُ وَغُلِّقَتْ مَصَارِيعُ مِنْ دُونِى تُصِمُّ المُنَادِيَا

---

(١) المصدر السابق : ٩١ .
(٢) مَشْعُوفُ الفُؤَادِ : محروق الفؤاد من الظلم ، شعفه الحب : أحرق قلبه وأمرضه ، والمشعوف : المجنون ، ومن أصيب بحب أو ذعر أو جنون .
(٣) الأغانى : ٢/١٩ (الدار) .
(٤) نفس المصدر : ٥/١٩ .

وَقَدْ كُنْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَإِخْوَةٍ ... فَقَدْ تَرَكُونِي وَاحِدًا لَا أَخَا لِيَا
وَقَدْ شَفَّ جِسْمِي أَنَّنِي كُلَّ شَارِقٍ ... أُعَالِجُ كَبْلًا مُصْمَتًا قَدْ بَرَانِيَا
فَلِلَّهِ دَرِّي يَوْمَ أُتْرَكُ مُوثَقًا ... وَتَذْهَلُ عَنِّي أُسْرَتِي وَرِجَالِيَا
حَبِيسًا عَنِ الحَرْبِ العَوَانِ وَقَدْ بَدَتْ ... وَإِعْمَالُ غَيْرِي يَوْمَ ذَاكَ العَوَالِيَا
وَلِلَّهِ عَهْدٌ لَا أَخِيسُ بِعَهْدِهِ ... لَئِنْ فُرِجَتْ أَلَّا أَزُورَ الحَوَانِيَا

ولقد أضر الحبس بأبى محجن ضررا بليغا ، فاشتكى منه ، ولكن هذه الشكوى والمعركة قائمة إنما هى شكوى البطل الأسير حقا ، فقد طالما حده عمر ابن الخطاب فى المدينة وسجنه لشرب الخمر ، ولكنه كان لا يشكو حينذاك ، أما والخيل تصطك سنابكها ، والحرب قائمة ، وهو أسير مقيد مغلق عليه الباب فإنّ هذا ما أثار شكواه ، بدليل أنه احتال حتى خرج للقتال مع المسلمين ، فلما نصرهم الله عاد بنفس البطل حتى وضع رجليه فى القيد فعفا عنه سعد بن أبى وقاص ، فأقسم هو أن لايعود للخمر مرة أخرى (١) .

وتبدو الشكوى من السجن فى القرن الأول ، وبخاصة فى عقده الثانى واضحة عند الشعراء الصعاليك أكثر من غيرهم ، فقد أصبحوا هدفا للسلطة تطاردهم ، وتنزل بهم أقسى العقوبات ، وبنظرة موجزة إلى ظاهرة الصعلكة فى القرن الأول نجدها تكاد تختفى فى عصر صدر الاسلام ، إذ قل الصعاليك ، وتضاءل نشاطهم ، حيث أصبحت هذه الظاهرة فى نظر الاسلام جريمة منكرة يبغضها المجتمع ، وتحاربها السلطة ، وينكرها الدين ، ويعاقب عليها أشد العقاب ، عندئذ اختفت الصعلكة لأمرين :

---

(١) نفس المصدر : ١٩/٨ .

الأول:من ناحية الصعاليك ذاتهم ، فقد تشربوا تعاليم الاسلام ، وصفت له أنفسهم عندما سوى بين الناس . وأعطى كلا حقه ، ووفر عليه حظه من الحياة الكريمة دون مراعاة لأصله . وقبيلته ،ولونه ، فتاب أغلبهم ، وأقلعوا عن هذا العمل ، وانضموا إلى الجيش المسلم لينالوا شرف المشاركة فى الفتوح الاسلامية مستغلين شجاعتهم لنيل الشهادة فى سبيل الله (١) .

---

(١) يقول يزيد بن الصقيل العقيلى (ت ٣٠ هـ) وكان من اللصوص فتاب وأخذ يدعو رفاقه لذلك :

أَلاَ قُل لِأَرْبَابِ المَخَائِضِ أَهْمِلُوا ... فَقَدْ تَابَ مِمَّا تَعْلَمُونَ يَزِيدُ
وَإِنَّ امْرأً يَنجُو مِن النَّارِ بَعْدَمَا ... تَزَوَّدَ مِنْ أَعْمَالِهَا لَسَعِيدُ

الكامل فى اللغة والأدب : ١٣٥/١ .

أما مالك بن الريب التميمى فقد انتقل من حال الصعلكة الى التوبة،وخرج من بلده الى بلد ناء يجاهد فيه الكفر فيقول :

أَلَم تَرَنِي بِعْتُ الضَّلَالَةَ بِالهُدَى ... وَأَصْبَحْتُ فِى جَيْشِ ابنِ عَفانَ غَازِيًا
وَأَصْبَحتُ فى أَرْضِ الأَعَادِىَ بَعْدَمَا ... أَرَانِى عَنْ أَرْضِ الأَعَادِىَ قَاصِيًا

جمهرة أشعار العرب : ٧٦٠/٢ .

ويرى أبو خراش الهذلي أن الاسلام قد قيده وحد من سلوك الصعلكة فيقول :

فَلَيْسَ كَعَهْدِ الدَّارِ يَا أمَ مَالِكٍ ... وَلَكِنْ أَحَاطَتْ بِالرِّقَابِ السَّلَاسِلُ
وَعَادَ الفَتَى كَالْكَهْلِ لَيْسَ بِقَائِلٍ ... سُوى الحَقِّ شَيْئًا فَاسْتَرَاحَ العَوَاذِلُ

شرح أشعار الهذليين : ١٢٢٣/٣ .

ويعلن عبيد بن أيوب العنبرى فى شعره عن توبته بعد أن تشرد فى القفار وخالط الوحش من جراء صعلكته فيقول بصدق خالص :

يَارَبِّ عَفْوَكَ عَنْ ذِى تَوبَةٍ وَجِلٍ
كَأَنَّهُ مِنْ حِذَارِ النَّاسِ مَجْنُونُ

قَدْ كَانَ قَدَّمَ أَعْمَالاً مُقَارِبَةً
أَيَّامَ لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ وَلاَ دِينُ

البيان والتبيين : ٦٢/٤ - ٦٣ .

الشعراء الصعاليك فى العصر الأموى / د . حسين عطوان : ١٣٥ - ١٣٨ .

والأمر الثانى : جانب السلطة ، فقد أصبحت للمسلمين حكومة تلم شتاتهم ، وتقوم معوجهم ، تسير وفق منهج سليم ، وظل الأمر كذلك حتى شاعت الفتن ، والخلافات فى الدولة منذ خلافة على بن أبى طالب - رضى الله عنه - عندئذ أخذ الصعاليك يظهرون من جديد فى المجتمع ، ويتحللون من الدين فبدأ سلطانه يضعف فى نفوسهم ، وقل التائبون ، فى حين أخذت أعدادهم فى التزايد، حتى إذا كان العصر الأموى اختلت الحياة ، ولم تكن البنية الاجتماعية سليمة متماسكة فقد اشتط بعض الولاة ، والعمال فى معاملة الناس ، وتعددت مصادر الظلم ، ونشطت العصبية القبلية فنشطت معها حركة الصعلكة ، وأصبحت المواجهة بين الصعاليك من جهة وبين السلطة والمجتمع من جهة ثانية أمرا واقعا ، جردت الدولة كل وسائلها لمطاردة هؤلاء ، والأخذ على أيديهم والزج بهم فى السجون ، ومن هنا ظهرت صيحات الشكوى من السجن عند هؤلاء ، إذ أصبح هاجسهم الوحيد الذى يلاحقهم ، فاشتكوا ، وتذمروا ، ووصفوا ذلك بكل دقة وبيان ، فقد ظفرت الدولة بأغلبهم ، وأودعتهم السجن ونال كل منهم جزاءه، إما بالحبس لمدة معلومة ، وإما بالقتل كل حسب ذنبه (١)

وأجمل مافى شكوى الصعاليك من السجن تصويرهم له تصويرا يصلح لأن يكون وثائق تاريخية لهذه السجون ، وما بداخلها ، وأماكنها . ويأتى من هؤلاء الشعراء الذين وصفوا ذلك وصفا دقيقا ، جَحْدَرُبن مالك العكلى(٢) حيث يشكو من

---

(١) الشعراء الصعاليك فى العصر الأموى : ١٢٠ - ١٢١ .

(٢) هو جحدر بن مالك ، وقيل بن معاوية العكلي ، وتجمع المصادر على أنه كان لصا فاتكا ، وتمثل حياته حياة الشعراء اللصوص تمثيلا صادقا، فهى سلسلة من المغامرات ،والصعاب ،ودخول السجون (دوار) و (ديماس) و (كوفان) توفى سنة ١٠٠ هـ .
الحيوان : ٤٣٣/٥ ، والخزانة : ٤٦٣/٧ - ٤٦٤ .
وأشعار اللصوص وأخبارهم / جمع وتحقيق عبد المعين ملوحي دار طلاس دمشق ط (١) ١٩٨٨م ٧٢/٢ - ١٠٤ .

سجن الحجاج له بالكوفة ، فيصور كرهه له ، وما فيه من السجناء الذين سيقوا إليه يلاقون فيه أعتى صنوف العذاب حتى لكأن النار التى يعذب الله بها الكفرة قد استمدت لهيبها من هذا السجن فهو أبشع بيت خلقه الله . يقول [1] :

يَارَب أَبْغَضُ بَيْتٍ أَنْتَ خَالِقُهُ ... بَيْتٌ بِكُوفَانَ مِنْهُ أُشْعِلَتْ سَقَرُ
مَثْوَى تَجَمَّعَ فِيهِ النَّاسُ كُلُّهُمُ ... شَتَّى الأُمُورِ فَلاَ وِردٌ وَلاَ صَدَرُ
دَارٌ عَلَيْهَا عفَاءُ الدَّهْرِ مُوحِشَةٌ ... مِنْ كُلِّ إِنْسٍ وَفِيهَا البَدْوُ وَالحَضَرُ

وسرعان ما عاد هذا الشاعر إلى الله بعد أن تجرع مرارة السجن ، يتضرع إليه سبحانه أن ينقذه مما هو فيه من الشدة والشقاء ، ويستعرض فى شكواه التالية حال السجناء ، فقد كانت مساكنهم عديدة ثم ضمهم سجن واحد قاس شديد لايزورهم فيه أحد ، وقد وثقت أرجلهم بأغلال شداد يقول :

إِنِّى دَعَوتُكَ يَا إِلَهِ محمَّدٍ ... دَعْوَى فَأَوَّلُهَا لِى اسْتِغْفَارُ [2]
لِتُجِيرنِى مِنْ شَرِّ مَا أَنَا خَائِفٌ ... رَبَّ البَرِيَّةِ لَيْسَ مِثْلَكَ جَارُ
تَقْضِى وَلاَ يُقْضَى عَلَيْكَ وَإِنَّمَا ... رَبِّى بِعِلْمِكَ تَنْزِلُ الأَقْدَارُ
كَانَتْ مَنَازِلُنَا الَّتِى كُنَّا بِهَا ... شَتَّى وَأَلَّفَ بَيْنَنَا دَوَّارُ [3]

---

(١) أشعار اللصوص وأخبارهم : ٨٤/٢ .
(٢) أشعار اللصوص وأخبارهم : ٨٥/٢ .
(٣) دَوَّارُ : بفتح أوله ، وتشديد ثانيه سجن باليمامة حبس فيه جحدر اللص على زمن الحجاج . ودوار : بضم أوله وتشديد ثانيه اسم واد وقيل جبل .
معجم البلدان (دوار) .

سِجْنٌ يُلاقِى أَهْلُهُ مِنْ خَوفِهِ ... أَزَلاً ، وَيُمْنَعُ مِنْهُمُ الزُّوارُ[1]

يَغْشَوْنَ مِقْطَرَةً كَأَنَّ عَمُودَهَا ... عُنُقٌ يُعَرِّقُ لَحْمَهَا الجَزَّارُ[2]

وهو فى موضع آخر يشكو من الأرق الذى حرم عينيه لذة النوم ، فكأن بهما مس عوار ، أو كأنهما كحلتا بفلفلة قد بريت قشرتها ، ولعله حن إلى حياة الحرية عندما كان يتلصص فى بر وأمصار ، فإذا به فى السجن تحرسه الحراس ، وهو فى نظره لم يقترف ذنبا يستحق عليه هذا العقاب وهذا الذل ، فلا ينبغى له أن يبقى أبد الدهر يرسف فى قيوده داخل السجن يظل طول النهار يدور فى مساحة ضيقة ، ثم ينقلب فى الليل إلى حديد ثقيل قد كبل به لا يستطيع منه فكاكا فنجده يقول :

إِنِّى أَرِقْتُ لِبَرْقٍ ضَافَنِى سَارِ ... كَأَنَّ فِى العَيْنِ مِنْهُ مَسَّ عُوَّارِ[3]

أَوْحَرَّ فِلْفِلَةٍ كَانَتْ بِهَا قُذِيَتْ ... لَمَّا بَرَى قِشْرَهَا عَنْ حَرِّهَا البَارِى

إِنَّ الهُمُومَ إِذَا عَادَتْكَ وَارِدَةً ... إِنْ لَمْ تُفَرِّجْ لَهَا وِردًا بِإِصْدَارِ

كَانَتْ عَلَيْكَ سِقَامًا تَسْتَكِينُ لَهُ ... وَأَنْصَبَتْكَ لِحَاجَاتٍ وَإِذْكَارِ

فَصِرْتُ فِى السِّجْنِ وَالحُرَّاسُ تَحْرُسُنِى ... بَعْدَ التَّلَصُّصِ فِى بَرٍّ وَأَمْصَارِ

---

(١) الأَزَلُ : الشدة .

(٢) المِقْطَرَةُ : بكسر الميم خشبة فيها خروق على قدر سعة أرجل المحبوسين .

(٣) أشعار اللصوص وأخبارهم : ٢/٨٨ ـ ٩٠ .

أَشْكُو إِلَى الخَيْرِ إِبْرَاهِيمَ مَظْلَمَتِي ... فِي غَيْرِ جُرْمٍ وَإِخْرَاجِي مِنَ الدَّارِ (١)

الدَّهْرَ أَرْسُفُ فِي كَبْلٍ أُعَالِجُهُ ... وَحَلْقَةٍ قَارَبُوا فِيهَا بِمِسْمَارِ

أَدُورُ فِيهِ نَهَارِي ثُمَّ مُنْقَلَبِي ... بِاللَّيْلِ أَدْهَمُ مَزْرُورٌ بِأَزْوَارِ

كَأَنَّهُ بَيْنَ إِسْتَارَيْنِ قَدَّهُمَا ... سَرَاةُ أَوْرَقَ مَطْلِيٌّ مِنَ القَارِ (٢)

وكثيرا ما اشتكى هؤلاء السجناء من حرس السجن ، ووصفوهم بأدق الأوصاف مما يدل على شدة أولئك الحراس الذين أوكلوا بحراسة السجون ، والقيام على أحوال نزلائها من السجناء . يقول القتال الكلابي (٣) :

وَكَالِئُ بَابِ السِّجْنِ لَيْسَ بِمُنْتَهٍ ... وَكَانَ فِرَارِي مِنْهُ لَيْسَ بِمُؤْتَلِي (٤)

إِذَا قُلْتُ رَفِّهْنِي مِنَ السِّجْنِ سَاعَةً ... تَدَارَكْ بِهَا نُعْمَى عَلَيَّ وَأَفْضِلِ

---

(١) يكرر جحدر أنه مظلوم ،ويستنجد بابراهيم بن عربى لانقاذه من سجنه الرهيب ومن القيود القاسية فى الليل والنهار . وابن عربى هذا هو والى اليمامة ، زمن الحجاج ، وكان جحدر مسجونا عنده .

(٢) الإسْتَارُ بالكسر فى العدد أربعة وفى الزنة أربعة مثاقيل ونصف ، فالقيدان إذاً ثقيلان مضاعفان ومدهونان علاوة على ذلك بالزفت والقطران .

(٣) اختلف فى اسمه فقيل عبد الله ، أو عبيد الله ، أو عبيد ، أو عباده ، أو عباد بن مجيب أو محبب بن المضرحى . وأمه كلابية اسمها عمرة كان يفتخر بها فى شعره وقد غلب عليه لقب القتال لتمرده وفتكه ، وهو يكنى بأبى المسيب وكما اختلف فى اسمه اختلف أيضا فى فترة حياته ، ومماته ، ولكنه توفى حوالى سنة ٧٢ هـ .

سمط اللآلى : ١٢/١ - ١٣ .

ألقاب الشعراء : ٣١٢ . وأسماء المغتالين : ٢٠٣ (نوادر المخطوطات) .

مقدمة ديوانه / تحقيق الدكتور احسان عباس . دار الثقافة بيروت ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م . ص ١٢ - ١٥ .

(٤) ديوانه : ٧٥ - ٧٦ .

يَشُدُّ وَثَاقِي عَابِسًا وَيَتُلُّنِي ... إِلَى حَلَقَاتٍ فِي عَمُودٍ مُرَمَّلِ

أَقُولُ لَهُ وَالسَّيْفُ يَعْصِبُ رَأْسَهُ ... أَنَا ابْنُ أَبِي أَسْمَاءَ غَيرَ التَّنَحُّلِ

لقد اشتكى من عنف هذا الحارس الذى لم تأخذه به رأفة فيفك قيده ، ويخرجه من سجنه لينعم بالحرية ولو لحظة من الزمن لكنه زاد فى التضييق عليه محكما قيده بعنف على رجليه ، وقد صور فى هذه الشكوى تلك السلسلة التى أوثق بها بقوة ، والتى ربطت بعمود ملطخ بالدم مما يدل على أنه يتعرض لمعاملة قاسية ، وتعذيب من هذا السجان وغيره ٠

وتبدو الشكوى من السجان واضحة عند عطارد بن قران (١) ، حيث سجن مرارا ، فأخذ يشكو من ذلك السجان المتغطرس الذى يقوده إلى السجن فى حال تكبر لا تأخذه به رأفة يقول (٢) :

يَقُودُنِي الأَخْشَنُ الحَدَّادُ مُؤْتَزِرًا ... يَمْشِي العِرَضْنَةَ مُخْتَالاً بِتَقْيِيدِي (٣)

إِنِّي وَأَخْشَنُ فِي حَجْرٍ لَمُخْتَلِفَا ... حَالٍ ، وَمَا نَاعِم حَالاً كَمَجْهُودِ

---

(١) عطارد بن قران ، وضبطت القاف من أبيه فى بعض المصادر بالفتحة ، وهو أحد بنى صدى بن مالك ، قيل أنه كان يهاجى جريرا ٠

البيان والتبيين : ٣٦٢/٢ - ٣٦٣ ٠

معجم الشعراء : ٣٠٠ ٠

(٢) أشعار اللصوص وأخبارهم / القسم الأول - دار أسامة - دمشق ، ١٩٨٤م ص : ١١٦٠

(٣) الأَخْشَنُ : اسم السجان ٠ العِرَضْنَةُ : مشية فيها بغي وتكبر ٠

ويخلص فى قصيدة أخرى إلى وصف قيوده ، وقيود أصحابه فى السجن ويشكو ويبكى من هذه القيود فيقول [(١)] :

لَيْسَتْ كَلَيْلَةِ دَوَّارٍ يُؤرقنى ... فِيهَا تَأَوُّهُ عَانٍ مِنْ بَنِى السِّيدِ

وَنَحْنُ مِنْ عُصْبَةٍ عَضَّ الحَدِيدُ بِهِمْ ... مِنْ مُشْتَكٍ كَبْلَهُ فِيهِمْ وَمَصْفُودِ

ونجد لصا آخر هو غيلان بن الربيع [(٢)] يشكو من العذاب الذى يتعرض له وما يلقاه من الضيق وهو فى السجن لايملك من وسائل الترفيه عن النفس سوى ذكرياته الماضية يوم كان حرا طليقا ، ينعم بلذة الحياة مهما صغرت يقول [(٣)] :

إلَى اللَّهِ أَشْكُو مَحْبَسِى فِى مُخَيَّسٍ ... وَقُرْبَ سَجَا يَا رَبِّ حِينَ أَقِيلُ [(٤)]

وَإِنِّى إِذَا مَا اللَّيْلُ أَرْخَى سُدُولَهُ ... بِمُنْعَرِجِ الخلِّ الخَفِىِّ ذَلِيلُ

وتتضاعف الشكوى عند السهمرى بن بشر العكلي [(٥)] ، فهو يشكو من السجن الذى ضم بين جدرانه أخلاطا من البشر الذين تباينت جرائمهم ، وقد قيدوا بالاغلال

---

(١) معجم البلدان (دوار) .

(٢) لم يعرف الا أنه شاعر لص ورد اسمه فى معجم البلدان كما أورد له بعض شعره . معجم البلدان (سجا) .

(٣) أشعار اللصوص وأخبارهم : ٢٤/٢ .

(٤) سَجَا : ماء اختلفوا فى موضعه . المُخَيَّسُ : السجن . أَقِيلُ : أنام فى الظهيرة .

(٥) هو السهمرى بن بشر بن أويس بن مالك بن الحارث بن أقيش العكلي . كان من اللصوص قطاع الطرق ، وقد سجن ثم هرب من السجن ، وأعيد فيه حيث قتل فى سجنه بالمدينة فى خلافة عبد الملك بن مروان .
مختار الأغانى/ لابن منظور ، طبعة الحلبى ١٩٦٥م ٢٨٥/٤ - ٢٩١ 1
أشعار اللصوص وأخبارهم : ٤٠/١ - ٤٦ .

وأغلقت عليهم الأبواب ، فتغيرت وجوههم بينما نحلت أجسامهم وامتلأت قلوبهم خوفا ، وتوجسا حتى أنهم إذا فتح الباب من قبل الحارس اشتد بهم الفزع ، فتخور قواهم ، وتنهار أعصابهم،ثم يعود لينحى باللائمة على عشيرته الذين أهملوه ، وتخلوا عنه لا يزورونه ، ولا يواسونه فى محنته ، وهو يود والحالة هذه لو أنه لا ينتسب إلى هذه العشيرة فيقول (١) :

لَقَدْ جَمَعَ الحَدَّادُ بَيْنَ عِصَابَةٍ ... تَسَاءَلُ فِى الأَسْجَانِ : مَاذَا ذُنُوبُهَا
مُقَرَّنَةُ الأَقْدَامِ فِى السِّجْنِ تَشْتَكِى ... ظَنَابِيبَ قَدْ أَمْسَتْ مُبِيْنًا عُلُوبُهَا (٢)
بِمَنْزِلَةٍ أَمَّا اللَّئِيمُ فَآمِنٌ ... بِهَا وَكِرَامُ النَّاسِ بَادٍ شُحُوبُهَا
إِذَا حَرَسِىٌّ قَعْقَعَ البَابَ أَرْعَدَتْ ... فَرَائِصُ أَقْوَامٍ ، وَطَارَتْ قُلُوبُهَا
نَرَى البَابَ لَانَسْطِيعُ شَيْئًا وَرَاءَهُ ... كَأَنَّا قُنِىٌّ أَسْلَمَتْهَا كُعُوبُهَا
أَلَا لَيْتَنِى مِنْ غَيْرِ عُكْلٍ قَبِيلَتِى ... وَلَمْ أَدْرِ مَا شُبَّانُ عُكْلٍ وَشِيْبُهَا
قَبِيلَةٌ لَا يَقْرَعُ البَابَ وَفْدُهَا ... بِخَيْرٍ وَلَا يَأْتِى السَّدَادَ خَطِيبُهَا
فَإِنْ تَكُ عُكْلٍ سَرَّهَا مَا أَصَابَنِى ... فَقَدْ كُنْتُ مَصْبُوبًا عَلَى مَنْ يُرِيبُهَا

لقد كثر الصعاليك فى النصف الثانى من القرن الأول ، وأصبحوا مطلبا ملحا للدولة ، تتعقبهم وتأخذ على أيديهم ، فساحوا فى الصحارى المقفرة ،والجبال

---

(١) المصدر السابق : ٤٨/١ - ٤٩ .

(٢) الظَّنَابِيبُ : جمع ظنبوب حرف العظم اليابس من الساق .
والعُلُوبُ : جمع علب : أثر الضرب ، والجمع علوب .

الشاهقة ، والأودية السحيقة هربا من مطاردة السلطة لهم ، وصارت حياتهم في الغالب خوفا وتشردا ، كما يظهر لنا من تصوير عبيد بن أيوب العنبري (١) الذي يشكو من خوفه الشديد أن يقع في يد أعدائه سواء أكانت الدولة أم المجتمع فيقول(٢) :

لَقَدْ خِفْتُ حَتَّى لَوْ تَمُرُّ حَمَامَةٌ ... لَقُلْتُ عَدُوٌّ أَوْ طَلِيعَةُ مَعْشَرِ
فَإِنْ قِيلَ أَمْنٌ قُلْتُ هَذِي خَدِيعَةٌ ... وَإِنْ قِيلَ خَوفٌ قُلْتُ حَقًّا فَشَمِّرِ
وَخِفْتُ خَلِيلِي ذَا الصَّفَاءِ وَرَابَنِي ... وَقِيلَ فُلَانٌ أَوْ فُلَانَةُ فَاحْذَرِ
فَلِلَّهِ دَرُّ الغُولِ أَيُّ رَفِيقَةٍ ... لِصَاحِبِ قَفْرٍ خَائِفٍ مُتَقَتِّرِ
أَرَنَّتْ بِلَحْنٍ بَعْدَ لَحْنٍ وَأَوْقَدَتْ ... حَوَالَيَّ نِيرَانًا تَلُوحُ وَتُزْهِرُ
وَأَصْبَحْتُ كَالوَحْشِيِّ يَتْبَعُ مَا خَلَا ... وَيَتْرُكُ مَأْنُوسَ البِلَادِ المُدَعْثَرِ

إن الشكوى من السجن ،وإن كانت تأخذ طابعا سياسيا ، وآخر ذاتيا ، فإنها تأخذ طابعا اجتماعيا كذلك ، وهو ما جعلنا ندرسها من هذا الجانب

---

(١) عبيد بن أيوب بن ضرار من بني العنبر ، وهم من بني تميم • عاش عيشة متشردة طويلة يجول في الأرض ، ولم يكد يخالط الانس ، وقد اتخذ من الذئاب والسباع ، والغيلان ، والسعال أصدقاء ، له أصفاهم المودة ورفقوا به فلم يؤذوه •
ولم يحدد تاريخ وفاته ، ولكنه عاش في القرن الأول الهجري فيما يبدو من سيرته •
الشعر والشعراء : ٧٨٤/٢ •
أشعار اللصوص وأخبارهم : ١١٦/٢ - ١٢٤ •

(٢) الحيوان : ١٦٥/٦ •

اعتمادا على أصل منشأ الظواهر التى تعرضنا لها فى دراستنا هذه . وذلك أن الصعلكة ظاهرة اجتماعية ، وجدت منذ العصر الجاهلى ، لها أسبابها العامة والخاصة ، وأعظم هذه الأسباب الفقر ، والجوع ، والخلع . وكل هذه أمور اجتماعية تنجم عن التفاوت الكبير فى توزيع الثروة ، وما يحصل فى بعض الأحيان من الأخطاء الاجتماعية فى حق بعض الأفراد . إضافة إلى استعداد الأنفس للثورة والجريمة ، والحصول على الأموال ، والاستمتاع بحياة اللهو عند بعض الصعاليك .

كما أننا لانستطيع أن نوجه شعر الصعاليك وجهة سياسية خالصة ، إذ أننا لم نجد لأى من هؤلاء الصعاليك فكرة سياسية - ان أمكن القول - يقول بها فى الأمويين ، أو يدعو بها إلى نفسه . ولذلك فإنهم فى خروجهم على السلطة كانوا طالبين للعدل الاجتماعى ، والمساواة فى توزيع الثروة لاطلبا لاقرار وضع سياسى معين ،وهم مع ذلك يعترفون بشرعية السلطة لكنهم يرفضون مايرونه من ظلم اجتماعى . وهذا ماحدا بنا إلى دراسة الشكوى من السجن عند هؤلاء الصعاليك وغيرهم من الجانب الاجتماعى .

وقد رأينا فى عصر صدر الاسلام عندما عم العدل فى الناس ، وأخذ كل حقه ، وحفظت أموال المسلمين ، فلم تنفق إلا فى الوجوه الصحيحة أن كادت ظاهرة الصعلكة تختفى ، وتاب كثير من الصعاليك . وعندما تغيرت الأحوال فى النصف الثانى من القرن الأول ، واستبد الأمويون ونوابهم بالأموال ينفقونها فى طرق

يرى البعض أن الاسلام لم يشرع لها وجها (١) عاد ظهور الصعاليك متزامنا كذلك مع بزوغ العصبية القبلية ، وتعسف بعض الولاة . عندئذ خرج كثير من هؤلاء الصعاليك على الدولة ، وأعلنوا تمردهم وتحديهم للسلطة (٢) .

وما تنبغى الإشارة إليه أن السجن فى حد ذاته قد أنطق هؤلاء الشعراء بجميل القول ، فعبروا تعبيرا صادقا عن المعاناة التى يعانون منها . فقد تظهر هذه المعاناة واضحة عند الشعراء الذين حكم عليهم بالموت كما رأينا عند هدبة ابن الخشرم ، والسمهرى بن بشر العكلي ، وجحدر بن مالك العكلي ، ودراج بن زرعة الضبابي ، فقد ظهر جزعهم ، وخوفهم من الموت كما يظهر لنا فى قول دراج (٣) :

وَلَمَّا دَخَلْتُ السِّجْنَ أَيْقَنْتُ أَنَّهُ ... هُوَ الْبَيْنُ لاَبَيْنَ النَّوَى ثُمَّ يَجْمَعُ

وَمَا السَّوطُ أَبْكَانِى وَلاَ السِّجْنُ شَفَّنِى ... وَلَكِنَّنِى مِنْ رَهْبَةِ المَوْتِ أَجْزَعُ

---

(١) كان الأمر يتطلب ذلك فان المال من أهم الوسائل التى استخدمها بنو أمية فى توحيد الأمة المسلمة ، واعداد الجيوش الفاتحة . وهذا فى نظرى ماتقتضيه ظروف الدولة ومصلحة الأمة . وهو مايشفع لبنى أمية ويرد على من يسىء الظن فيهم .

(٢) من هؤلاء الصعاليك الذين أعلنوا تحديهم للسلطة . عبيد بن الحر الجعفى وعبد الله بن سبرة الحرشي . ومالك بن الريب التميمى وغيرهم .

- أشعار اللصوص وأخبارهم : ١٦٧/٢ - ١٨٢ ، ٢٤٧ - ٢٥٤ .
- شعر الصعاليك منهجه وخصائصه / للدكتور عبد الحليم حفنى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م ص : ٣١٣ - ٣١٤ .

(٣) النقائض : ٩٣١/٢ .

إنّ الصدق هو الطابع الأول لشعر السجن ، حيث يعبر الشاعر من منطلق معاناة انسانية حقيقية . ولذا كانت الشكوى فى هذا الجانب معبرة أصدق تعبير عن مظاهر القلق ، والخوف ، والاضطراب النفسي عند المسجون سواء أكان صعلوكا أم كانت جريرته ظاهرة أخرى غير ظاهرة الصعلكة كما رأينا فيما تقدم لنا من أمثلة .

الفَصْلُ الثّالِث

الشكوى الاجتماعية فى القرنين الثانى وَالثالث الهجرى

ويشتمل على المبحثين التاليين :

المبحث الأول : الشكوى من أثر الموالى فى الحياة الاجتماعية .

المبحث الثانى : الشكوى من الفقر وسوء الحال .

المبحث الأول

الشكـــوى من أثر الموالى فى الحياة الاجتماعية

عندما تحدثنا عن الحياة الاجتماعية فى القرن الأول الهجرى تبين لنا أن الموالى كان لهم دور فى تغيير وجه المجتمع العربى ، وظهر هذا التغيير واضحا فى القرنين الثانى والثالث الهجريين .

ولئن خبت مكانة الموالى فى المجتمع خلال القرن الأول الهجرى ، وبالتحديد زمن بنى أمية ، فإنّ ذلك يعود إلى سياسة الدولة الأموية حيث اعتمد الأمويون على العرب فى كل شؤون الحياة ، بينما نحوا الموالى جانبا ، ولم يشعروهم فى يوم من الأيام بمشاركتهم فى الحياة السياسية ، والاجتماعية ، وإنما اعتبروهم من عامة الناس فى المجتمع . وقد وصف الجاحظ دولة بنى أمية فقال بأنها عربية أعرابية وفى أجناد شامية بينما وصف دولة بنى العباس بأنها عجمية خراسانية (١) .

ومن هذه الرؤية تتضح سياسة بنى أمية تجاه الموالى ، إذ لم يأمن الأمويون جانبهم قط باستثناء عمر بن عبد العزيز (٢) - رضى الله عنه - وقد أشار معاوية بن أبى سفيان إلى تخوفه من كثرة الموالى فقال :

---

(١) البيان والتبيين : ٣٦٦/٣ .
وجوامع السيرة لابن حزم / تحقيق الدكتور احسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسد ، دار المعارف بمصر (د . ت) ص : ٣٦٥ - ٣٦٦ ، ومقدمة ابن خلدون : ٥٦٧/٢ - ٥٦٨ .

(٢) تاريخ الدولة العربية /فلهوزن ترجمة الدكتور محمد أبو ريدة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٦٨م ص : ٢٩٨ - ٣٠٠ .

(إنّى رأيتُ هذه الحَمْرَاء قد كثُرت ، وأراها قد طغت على السَّلَف ، وكأنّى أنظر إلى وَثْبَةٍ منهم على العَرَبِ والسّلطَانِ . فَقَدْ رَأَيْتُ أنْ أقْتل شَطْرًا ، وأدع شَطْرًا لإقَامَةِ السُّوقِ وعِمَارَةِ الطَّرِيقِ) (١) .

ومن هنا يمكننا القول : إنَّ الحياة الاجتماعية فى القرنين الثانى ، والثالث قد أصبحت زاخرة بكثير من المستجدات التى طرأت على بنية المجتمع الاسلامى ، وهى امتداد طبيعى لما كان سائدا فى النصف الثانى من القرن الأول ، إذ تأثرت الأحوال الاجتماعية حينذاك بعوامل لها شأنها فى تشكيل وجه المجتمع الجديد ، هذه العوامل تتلخص فى تغير وضع الجماعة المسلمة من العرب والموالى ، وامتزاج الحضارات المختلفة ، وتأثيرها فى حياة الناس من حيث مستوى المعيشة . والخروج على التقاليد ، والتحلل من الالتزام بأساليب العيش القديمة (٢) .

ولقد نمت هذه العوامل ، وطرأت عليها تحولات كبرى فى هذه الفترة شملت مضامين الحياة الاجتماعية بأسرها . وهذه التحولات نتيجة طبيعية لما صاحب ضعف الخلافة الأموية فى آخر عهدها من ظهور عناصر من الموالى التقت جميعها آثر قيام الدولة العباسية ، وأخذت تتنافس على السيادة ، والرزق ، فكان لذلك أثر بالغ فى الحياة الاجتماعية خلال القرنين الثانى والثالث الهجرى . وقد تبوأ هؤلاء

---

(١) العقد الفريد : ٣/ ٤١٣ .

(٢) موقف الشعر من الفن والحياة فى العصر العباسى / الدكتور محمد زكى العشماوى ، دار النهضة العربية بيروت ١٩٨١م ص : ٥٢ .

الموالى وضعهم فى المجتمع العربى المسلم ، وكان لهم حينئذ أثر كبير فى الأحوال الاجتماعية وفى النتاج الحضارى الذى وافق العصر ، فقد امتزجت الحضارة العربية بغيرها من الحضارات الانسانية ، وبخاصة الفارسية ، فكان أن وجدت حياة جديدة تتسم بالترف ، والثراء ، ومحاولة اعادة تشكيل النظم الاجتماعية ، والسياسية للدولة الاسلامية على مثال النظم ، والقيم الساسانية التى كانت تمثل فى نظر هؤلاء الموالى ذروة الكمال للثقافة الانسانية (١) .

وقد تعزز أثر الموالى منذ أخذ العباسيون يعتمدون عليهم فظهرت ملامح التغير فى المجتمع المسلم واضحة لذى بصر تبعا لتغير مركزهم عما كان عليه فى القرن الأول أثناء خلافة بنى أمية . ومن حين بدأ العرب يختلطون بهم فى الأمصار المفتوحة ، ويصهرون إليهم ، ومنذ مطلع القرن الثانى بات الأمر يتحول لصالح الموالى فى كثير من أمور الحياة الاجتماعية وقد اتضحت سمات هذا التحول بقيام الدولة العباسية (١٣٢هـ) إذ كان الموالى عدتها وعتادها (٢) ، وأصبح فى أيديهم كثير من مقاليد الأمور ، ووجدوا الطريق ممهدا كى يجهروا بعواطفهم ، وعاداتهم وعقائدهم القديمة وينقلونها إلى الحياة الاسلامية حتى يغيروا لونها العربى فصار لونا جديدا غريبا على العرب ، وبخاصة فى المجتمع العراقى الذى أصبح مركزا

---

(١) دراسات فى حضارة الاسلام / تأليف هاملتون جب ، ترجمة الدكتور احسان عباس وآخرين ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثانية ١٩٧٤م ص : ٨٨ .

(٢) حياة الشعر فى الكوفة إلى نهاية القرن الثانى للهجرة / للدكتور يوسف خليف ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر القاهرة ، ١٣٨٨ هـ ص : ١٦٩ .

للخلافة ، وملتقى لتيارات شتى من فارسية ، وهيلينية ، وهندية ، وسريانية ، وغيرها[١] ، ومن هنا أخذت النزعة الشعوبية تظهر على ساحة المجتمع حركة مناهضة للعنصر العربى يعلنها شعراء الموالى صريحة مدوية فى أسلوب من الفخر بالعنصر الفارسي ومجده القديم[٢] .

ونتيجة لهذا تغيرت بنية المجتمع حيث سيطر الموالى تقريبا على معظم مظاهر الحياة الاجتماعية ، والسياسية[٣] ، وإن بقى العرب أقوى إذ كان الخلفاء عربا ، والمجتمع عربيا يتكلم ، ويكتب بلغة العرب ، ويدين بالدين الاسلامى ، فكان المجتمع حينذاك عربى اللسان والقلب حتى وإن اكتسى بألوان جديدة من وسائل العيش ، والتفكير ، ولم يزل الأعاجم بحاجة إلى الانتماء للعرب ، ويرون فى ذلك شرفا لهم[٤] ، ولكنهم مع هذا عملوا على تجديد الحياة الاجتماعية ليغيروا الوجه العربى عما كان عليه فى القرن الأول إلى وجه جديد فارسى ، وقد ساعدهم على ذلك كثرتهم الطاغية فى القرنين الثانى ، والثالث ،وتعصبهم لما هو أعجمى ، وسيطرتهم على كثير من أمور الحياة الاجتماعية ، والسياسية ، ونبوغ كثير منهم فى فروع المعرفة المختلفة .

---

(١) ضحى الاسلام / أحمد أمين ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ط (١) ١٣٥١ هـ : ١٦٤/١ - ٢٨٩ .
وأبو العتاهية حياته وشعره / للدكتور محمد الدش ، دار الكتاب العربى القاهرة ١٣٨٨ هـ ص : ٤٠ - ٤١ .

(٢) الحياة الأدبية فى البصرة الى نهاية القرن الثانى الهجرى / للدكتور أحمد كمال زكى دار المعارف ١٩٧١م ص : ١٠٨ - ١٢٨ .

(٣) حياة الشعر فى الكوفة : ١٧٣ .

(٤) الحضارة الاسلامية / فون كريمر ، ترجمة مصطفى طه بدر . مطبعة دارالفكر العربى ١٩٤٧ م ص : ٢ .

وليس من شأن البحث أن يسترسل فى دراسة الحياة الاجتماعية فى هذه الفترة، فقد اتضحت ملامحها ، وربما أفضنا فى هذا من قبل ، ولكن الذى يعنينا هو دراسة الشكوى الاجتماعية من جوانبها المختلفة،فلعل الشعراء العرب قد ضجروا من هؤلاء الموالى ، وهم يرونهم يسيطرون على نشاط المجتمع ، ويتحول الأمر لصالحهم باستمرار حتى صاروا الأكثر حظا لدى الخلفاء والقادة (١) .

وحقيقة الأمر أن الموالى وقد واتتهم الفرصة ، وتمكنوا من قلوب وبلاط الخلفاء ، ومنحوا كثيرا من الثقة لم يكونوا لينسوا أن العرب المسلمين هم الذين هدوا كبرياءهم ، كما لم ينسوا موقف الأمويين منهم ، ولذلك سرعان ماعملوا على تغيير ملامح المجتمع العربى المسلم فى محاولة منهم لترسيخ مبادئهم ، وأخلاقهم لأنهم يدركون تماما نظرة العرب للموالى بوجه عام من حيث العصبية الجنسية التى لايعدم الباحث وجودها فى العصر الأموى .

ولقد صح ما تنبأ به معاوية بن أبى سفيان ، فإن الجيوش العباسية التى قضت على الأ مويين كانت فى جملتها من الموالى الذين أراقوا دماء المسلمين ،

---

(١) سنجد أن الشكوى من أثر الموالى فى الحياة السياسية أظهر عند الشعراء العرب من الشكوى الاجتماعية . ولذلك قد نجد بعض المقطوعات الشعرية تأخذ جانبين اجتماعى ، وسياسى ، وبخاصة مايتعلق بالشكوى من سيطرة الموالى على قصور الخلفاء ، وتدخلهم فى سياسة الدولة . ولما كان هؤلاء الموالى، وبالتحديد الأتراك انما جلبوا للخدمة الاجتماعية ، وليس للسياسة جاز لنا دراسة هذه المقطوعات من هذا المنطلق . وسيأتى بحث الشكوى السياسية فى موضع آخر من هذه الدراسة. ولعله يكشف لنا المزيد من أثر هؤلاء الموالى واستحواذهم على الأمور .

حيث تذكر المصادر أن أبا مسلم الخراسانى قتل من العرب المسلمين أكثر من ستمائة ألف [1]، ولايمكن أن نجد لهذا تفسيرا إلا أن نعزوه إلى حقد هؤلاء الأعاجم على العرب الذين نشروا الاسلام ، وأقاموا دولته . كما أننا بالمقابل لا ننكر أن العرب قد بالغوا فى نظرتهم إلى أنفسهم والى غيرهم من الأجناس الأخرى انطلاقا من عادات اجتماعية راسخة مبنية على الأصالة فى الأنساب . حتى إذا جاء الاسلام أضاف لهم ميزة عظيمة شرفتهم على أمم الأرض قاطبة عندما بعث الله نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - منهم ، فكادت تنتهى مظاهر العصبية القبلية فى صدر الاسلام ليحل محلها الانتماء الحقيقى للدين ، وعند ذلك خرج العرب الفاتحون من جزيرتهم يحملون للبشرية وسائل خلاصها من الذل ، والاستعباد بنشر الاسلام فى أرجاء الأرض ، وشكلوا فى البلاد المفتوحة نسبا كبيرة من السكان . وعندما أحرزوا كثيرا من الانتصارات الحربية فى فتوحاتهم لفارس ، والشام ، ومصر ، استشعروا قوتهم ، وتفوقهم على الشعوب التى خضعت لهم ، وأصابوا كثيرا من الانتعاش المادى ،والثراء، وامتزجوا مع الموالى الذين توسعت أعدادهم تدريجيا بشكل مستمر عند دخول سكان المدن خاصة فى الاسلام ، واتخاذهم اللغة العربية مع لغاتهم السابقة فى بعض الأحيان . وقد عاش الموالى مع العرب بصورة طبيعية دون احتقار انطلاقا من قواعد

---

(١) سير أعلام النبلاء : ٥١/٦ ، ٥٣ ، ٥٧ .
الشعوبية وأثرها الاجتماعى والسياسى فى الحياة الاسلامية فى العصر العباسى الأول / الدكتورة زاهية قدورة ، دار الكتاب اللبناني بيروت ط (١)١٩٧٢م ص : ٧٧ - ٨٠ .
الدولة العباسية قيامها وسقوطها / حسن خليفة ، المكتبة الحديثة القاهرة ط (١) ١٩٣١م ص : ٣٤ - ٣٧ .

الاسلام التى تجعل التمايز بين الناس على أساس التقوى لا على أساس الأصل ، والحسب [١] .

ولا ننكر أن بعض العرب قد مارس نوعا من التعالى، فشكل ذلك إضافة إلى ماسبق شعورا من البغضاء ، وتراكم الأحقاد لدى الموالى بوجه عام . ولقد كان للسياسة التى اتبعها بنو أمية دور فى اذكاء هذا التعالى حيث تعصبوا لكل ما هو عربى [٢] . ومن هذا المنطلق رأى العرب أن العروبة شرف لايطوله الموالى الذين لم يظهر فيهم الاسلام ، وشعروا بأفضليتهم على غيرهم ، رغم أن هذا الشعور متى وجد فانه يناقض المبادىء السامية التى يدعو اليها الدين الاسلامى ، لأنه مبنى على مفاهيم اجتماعية قد يكون محورها العصبية الجنسية [٣] .

وقد فسر الموالى هذا بأنه امتهان لهم إذ لم يحقق العرب فى نظرهم العدالة الاجتماعية التى يدعو إليها الاسلام ، فأخذوا يطعنون فى عدالة العرب المسلمين [٤] بعد أن رأى الموالى أن العرب فى القرن الأول ، وبالتحديد فى

---

(١) حياة الشعر فى الكوفة : ١٦٩ .

(٢) البيان والتبيين : ٣٦٦/٣ .

(٣) دولة بنى العباس / شاكر مصطفى ، وكالة المطبوعات ، الكويت ط (١) ١٩٧٣م : ٢٤/١ .

(٤) العقد الفريد : ٤٠٣/٣ - ٤٠٨ .

خلافة بنى أمية قد خامرهم شعور بأن العربى المسلم خلق ليسود ، وخلق غيره ليخدم (١) ، وأنهم أهل السايسة والحرب بينما الموالى أصحاب المهن اليدوية كالصناعة والزراعة والتجارة ، والحياكة وغير ذلك (٢) .

ويبدو أن شعور العرب بأفضليتهم كان متأصلا فى نفوسهم منذ القدم ، وحتى فى عصر صدر الاسلام لم يستطع الشاعر العربى أن يخفى عجبه ، واستياءه عندما قدم عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - صهيبا (ت ٣٨ هـ) ليؤم الناس فقال أحدهم شاكيا ، ومتعجبا (٣) :

هَـذَا صُهَيْـبٌ أَمَّ كُـلَّ مُهَاجِـرٍ ... وَعَـلَا جَمِيعَ قَبَائِـلَ الأَنْصَـارِ
لَـمْ يَـرْضَ مِنْهُـم وَاحِـدًا لِصَلَاتِنَـا ... وَهُـمُ الهُدَاةُ وَقَـادَةُ الأَخْيَـارِ
هَذَا وَلَـو كَـانَ المُتَـرَّمُ سَالِـمٌ ... حَيًّـا لَنَـال خِلَافَـةِ الأَمْصَـارِ
مَا بَـالُ هَـذِى العُجْـم تَحْيَا دُونَنَا ... إِنَّ الغَـوِيَّ لَفِـى عَمًـى وَخَسَـارِ

وكان نوح بن دراج (ت ١٨٢ هـ) قد تولى قضاء الكوفة وهو من موالى النبط، فضج أحد الشعراء العرب قائلا (٤) :

---

(١) العصر العباسى الأول / عبد العزيز الدورى ، نشر دار المعلمين العالية - بغداد ١٩٤٥م ص : ٦ .

(٢) فى الشعر العباسى الرؤية والفن / الدكتور عز الدين اسماعيل ، دارالمعارف ١٩٨٠م ص ٧٠ .

(٣) العقد الفريد : ٤٠٧/٣ ، وسير أعلام النبلاء : ١٧/٢ - ٢٦ .

(٥) الكامل للمبرد : ٦٢٣/٢ .

يَا أَيُّهَا النَّاس قَدْ قَامَتْ قِيَامَتُكُمْ   إِذْ صَارَ قَاضِيكُمْ نُوحُ بن دَرَّاجِ
لَوْ كَانَ حَيًّا لَهُ الحَجَّاجُ مَا سَلِمَتْ   كَفَّاهُ نَاجِيَةً مِن نَقْشِ حَجَّاجِ

وآغلب الظن آن هؤلاء الموالى قد حرموا فى بعض الأحيان من بعض الحقوق الاجتماعية فى عصر بنى أمية . فقد روت مصادر الأدب شيئا من ذلك[1]، ونحن نرى أنه على افتراض حصول هذا فإنه لم يصل إلى درجة الفخر الشعوبى الذى أفصح عنه شعراء الموالى حينما بدأت شوكتهم فى المجتمع الاسلامى تشتد ، فلم يتغن الشعراء العرب فى أشعارهم بأنهم أفضل من الموالى مثلما تغنى اسماعيل بن يسار (ت ١٣٠هـ) وبشار بن برد ، وأبو نواس ، وغيرهم من الشعوبيين الذين زعموا آن الفرس أفضل من العرب[2]. وذلك أن الشعراء العرب يؤمنون بالمساواة الاسلامية[3] وإنما كانوا

---

(١) عيون الأخبار : ٦١/١ ، والعقد الفريد : ٤١٣/٣ - ٤١٧ . والطبقات الكبرى لابن سعد طبعة ليدن : ١٧٥/٦ .
ومحاضرات الأدباء ،ومحاورات الشعراء والبلغاء / للراغب الأصفهانى مطبعة دار مكتبة الحياة . بيروت ١٩٦١م : ٢١٨/١. وشعر الصراع السياسى فى القرن الثانى الهجرى / للدكتور ابراهيم الخواجه الكويت ط(١) ١٩٨٤ص :٩٧.
وحياة الشعر فى الكوفة : ١٦٩ - ١٧٠ .

(٢) ديوان شعر الموالى فى العصر الأموى/ جمع وتحقيق محمود المقداد (رسالة ماجستير برقم٦٢٥ قسم المخطوطات ،المكتبة المركزية جامعة أم القرى).
وديوان بشار : ٣٨٩/١ - ٣٩١ ، ٢١٢/٢ - ٢١٣ ، ٢٠٨/٣ .
وديوان أبى نواس : ١٢ ، ٤٦ ، ١٢٧ ، ١٩٤ ، ٥٥٧ .

(٣) ولأن العرب ماكانوا بحاجة إلى الفخر على العجم ، فتميزهم على العجم كان أمرا لايحتاج إلى دليل عندهم قبل الاسلام ، وبعده ، وإنما كان فخرهم محصورا بينهم كأن يفخر شاعر على آخر مثله أو قبيلة على أخرى وهكذا فيكون فخر الند للند .

دائمايعتزون بأنسابهم ، ويرون أنهم خير من غيرهم ، وقد فضلهم الله تعالى بأن بعث منهم رسوله - صلى الله عليه وسلم - فجعلهم بايمانهم به واتباعه خير أمة أخرجت للناس ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١).

وقد حث الرسول المصطفى - صلى الله عليه وسلم - على تخير الأنساب فقال : " تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ فَإِنَّ العِرْقَ دَسَّاسٌ " (٢).

وقد أدرك عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - العلاقة بين العروبة والاسلام ، فقرر أن العرب مادة الاسلام ، وعمل على عزل العرب المسلمين عن الأقوام الأخرى خشية عليهم من تأثير الديانات ، والآراء المناهضة للاسلام ، ولئلا يصطبغ المجتمع بالصبغة الأعجمية ، فكان دائما يوصى (لاَتَجْلِبُوا عَلَيْنَا مِن العلُوجِ أَحَداً (٣))ويوصى كذلك بالعرب خيرا (وَلَا تجلدُوا العَرَبَ فَتذلوهَا ، ولَاَ تجَمّرُوهَا فَتَفْتنُوهَا ، وَلَا تَغْفلُوا عَنْهَا فَتَحرمُوهَا) (٤).

وهكذا كان موقف الخلفاء الراشدين بعد الرسول - صلى الله عليه وسلم - (٥) ولذلك رأى بعض العرب أنهم بفضل إسلامهم ، وحملهم رسالة الدعوة إلى الله ،

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١١٠ .
(٢) سنن ابن ماجة (باب النكاح) .
(٣) طبقات ابن سعد : ٢٥٣/٣ .
(٤) تاريخ الطبرى : ٢٠٤/٤ ، ٢٢٧ .
(٥) الشعوبية حركة مضادة للاسلام والأمة العربية / للدكتور عبد الله سلوم السامرائى . طبعة بغداد ١٩٨٤م : ١٥٥ - ١٥٦ .

والجهاد فى سبيله ثم عروبتهم ، وتسلسل أنسابهم ، ومعرفتها أفضل من غيرهم ٠ وربما كان هذا الشعور سائدا فى البادية أكثر لتمسك أهلها بأصالتهم ، وعاداتهم، وتقاليدهم ، واعتزازهم بنسبهم العربى الصريح ، فقد وجدنا أحد شعراء الأعراب يشكو مما ابتلى به من العدم والحرمان ، مع مايبصره من ثراء غيره واستمتاعهم بنعيم الحياة مع أن العرب فى نظره أفضل الأجناس فنجده يقول (١) :

أَيَارَبَّ رَبَّ النَّاسِ وَالمَنِّ وَالهُدَى أَمَا لِى فِى هَذَا الأَنَامِ قَسِيمُ
أَمَا تَسْتَحِى مِنِّى وَقَدْ قُمْتُ عَارِيًا أُنَاجِيكَ يَارَبِّى وَأَنْتَ كَرِيمُ
أَتَرْزُقُ أَبْنَاءَ العُلُوجِ وَقَدْ عَصَوا وَتَتْرُكُ قَرْمًا مِنْ قُرُومِ تَمِيمُ (٢)

إنَّهُ ليتعجب فى هذه الشكوى على سليقته البدوية الجافية وما ترسب فى ذهنه عن فضل العرب من أسباغ الله نعمه على أبناء الكفار من الأعاجم ، بينما ضيق عليه رغم أنه عريق الأصل مؤمن بالله - تعالى الله عن هذه الشكوى - ٠

وعلى هذا فإنه لايستغرب أن يقف العرب منزعجين أمام تغلب الموالى على الحياة الاجتماعية ، والسياسية فى القرنين الثانى والثالث وتغير مركزهم بعد أن كانوا مهيضي الجناح ٠

---

(١) المحاسن والمساوئ / للبيهقى ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم مكتبة نهضة مصر (د ٠ ت) : ٤١٨/٢ ٠

(٢) القَرْمُ : الفحل أو مالم يمسه حبل ، والمراد به هنا السيد ٠

ولعل البحث فى الشكوى يكشف لنا بصورة واضحة تأثير الموالى فى الوضع الاجتماعى ، وما أحدثوه من تغيرات فى جوانب الحياة المختلفة ، فقد سيطروا على كثير من النواحى الاجتماعية مما جعل العرب ينظرون الى ذلك بغرابة وسأم . إذ كان من هؤلاء الموالى فى العصر العباسى الوجهاء المقربون ، والقادة ، والوزراء، واستأثروا بكثير من موارد الدولة الاسلامية (١) . ولقد كان لكثرة هؤلاء الموالى الطاغية ، واختلاطهم بالعرب دور فى فساد كثير من أمور الحياة الاجتماعية فى نظر العرب الذين وقفوا على حافة خطر محدق من هذا الاختلاط ، يهدد كيانهم الاجتماعى ، والسياسى ، فهذا الشاعر الرياشي يشكو من كثرة الموالى فى المجتمع العربى المسلم فيقول (٢) :

إِنَّ أَوْلَادَ السَّرَارِى كَثُرُوا يَارَبِّ فِينَا
رَبِّ أَدْخِلْنِى بِلَادًا لَا أَرَى فِيهَا هَجِينَا

وقد انبرى بعض الشعراء يشكون من الأعاجم الذين ملئ بهم المجتمع فأفسدوا البيان العربى ، والقيم الحميدة ، ونشروا مظاهر اللهو والمجون من

---

(١) الشعوبية حركة مضادة للاسلام والأمة العربية : ١٠٨ - ١١٧ .

(٢) الكامل للمبرد : ٦٥٠/٢ .

والفاضل / للمبرد . تحقيق عبد العزيز الميمني طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٥م : ١٠٦ .

وشرح أبيات مغني اللبيب / لعبد القادر البغدادى . تحقيق عبد العزيز رباح ، وأحمد يوسف دقاق . دار المأمون للتراث . دمشق ١٩٧٣ م - ٢٢١/٢ .

المعازف ، والغناء . يقول محمد بن مناذر (ت ١٩٨ هـ) [١] :

يَاطَالِبَ الأَشْعَارِ وَالنَّحْوِ ... هَذَا زَمَانٌ فَاسِدُ الحَشْوِ [٢]
نَهَارُهُ أَوْحَشُ مِنْ لَيْلِهِ ... وَنَشْوُهُ أَخْبَثُ مِنَ النَّشْوِ
فَدَعْ طِلاَبَ النَّحْوِ لاَ تَبْغِهِ ... وَلاَ تَقُلْ شِعْرًا وَلاَ تَرْوِ
فَمَا يَجُوزُ اليَوْمَ إِلاَّ امْرُؤٌ ... مُسْتَحْكَمُ العَزْفِ أَوِالشَّدْوِ
أَوْ طِرْمِذَانٌ قَوْلُهُ كَاذِبٌ ... لاَ يَفْعَلُ الخَيْرَ وَلاَ يَنْوِى [٣]

فالشاعر كما نرى مع أنه مولى[٤]، ولكنه يشكو من تأثير الموالى الأعاجم فى الحياة وما أحدثوه فى العربية من فساد ، وقد كسدت فى نظره تجارة الشعر وروايته بينما عمت مظاهر المعازف ، والغناء وراجت تجارتها فى المجتمع .

ونجد أبا محمد اليزيدى (ت ٢٠٢ هـ) يشكو مر الشكوى من بعض العلماء الموالى الذين أفسدوا اللغة ، وضيعوا النحو على رأيه ، فهم بين أغتم لايحسن الكلام ، ووضيع ذى لكنة دنىء الأصل والنسب ، قد أحدثوا فى النحو قياسا فاسدا لا يرتضيه القياس الصحيح ، ولا يغنى شيئا ، وسيظلون فى هذا العلم لايتجاوزن أبجدياته مهما امتد بهم العمر[٥] . يقول فى شكواه منددا ببعض

---

(١) العقد الفريد : ٣٤٢/٢ .
(٢) الحَشْو : صغار الابل والمراد هنا فضل الكلام .
(٣) الطِّرْمِذَانُ : هو من يفتخر بالباطل ويتمدح بما ليس فيه .
(٤) الأغانى : ١٦٩/١٨ (دار الكتب) .
(٥) العربية دارسات فى اللغة واللهجات والأساليب / يوهانفك - ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجى القاهرة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م ص : ٦٩ .

الرواة الكوفيين (١) :

يَاطَالِبَ النَّحْوِ أَلاَ فَابْكِهِ ... بَعْدَ أَبِي عَمْرٍو وَحَمَّادِ (٢)
يَاضَيْعَةَ النَّحْوِ بِهِ مُغْرِبٌ ... عَنْقَاءُ أَوْ دَتْ ذَاتُ إِصْعَادِ
أَفْسَدَهُ قَوْمٌ وَأَزْرَوا بِهِ ... مِنْ بَيْنِ أَغْتَامٍ وَأَوْغَادِ (٣)
ذَوِى مِرَاءٍ وَذَوِى لُكْنَةٍ ... لِئَامُ آبَاءٍ وَأَجْدَادِ
فَهُمْ مِنَ النَّحْوِ وَلَوْ عُمِّرُوا ... أَعْمَارَ عَادٍ فِى أَبِى جَادِ

ونحن لانأخذ هذه الشكوى على ظاهرها لأنها صادرة عن عالم بصرى يلوم بعض العلماء الكوفيين ، فربما كان فيها نوع من التعصب لمدرسة البصرة النحوية ، لكنها تبين فى نفس الوقت أن العلماء الموالى لم يكن نظراؤهم ممن هم عرب بالاصل، أو بالولاء القديم للعرب يرضون عن قياساتهم ، ويرون أنهم أفسدوا اللغة والنحو ٠

ولعل فيما رواه الجاحظ ما يؤيد هذا حيث يذكر : أن الشعبى مر بناس من الموالى يتذاكرون النحو فقال لهم : (لَئِن أَصلحتمُوهُ أنكم لأَوَّلُ مَنْ أَفْسَدَهُ) (٤) ٠

---

(١) تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم / للتنوخي ، تحقيق الدكتور عبد الفتاح الحلو : ١١٨ - ١١٩ ، طبعة جامعة الامام١٤٠١ هـ

(٢) يعنى أبا عمرو بن العلاء ، وحماد بن سلمة بن دينار الربعى البصرى البزار ٠

(٣) الأَغْتَمُ : من لايفصح شيئا ٠ والأَوْغَادُ : هم الحمقى الضعفاء الدنيؤون ٠

(٤) البيان والتبيين : ٦٩/٢ ٠

إن من مظاهر أثر الموالى فى الحياة الاجتماعية ما نتج عن سيطرة الأعاجم والجهلاء على مقادير الأمور ، فأصبح غيرهم فى متاهات الحياة ، وقد تمتع هؤلاء الأعاجم بالغنى ، والحياة الناعمة الميسرة ، أما أصحاب الأنساب ، والعلماء فأشقياء فى حياتهم وقد ضجر أبو هفان[1] من هذا الوضع فقال يشكو[2] :

إِذَا مَاشِئْتَ أَنْ تَحْظَى ... وَأَنْ تَلْبَسَ قُوهِيَّا[3]
وَأَنْ تُصْبِحَ ذَا مَالٍ ... فَكُنْ عِلْجًا نَبِيطِيَّا
وَأَنْ سَرَّكَ أَنْ تَشْقَى ... وَأَنْ تُصْبِحَ مَقْلِيَّا
فَكُنْ ذَا نَسَبٍ ضَخْمٍ ... وَكُنْ مَعْ ذَاكَ نَحْوِيَّا

ولايخفى أن النسب الرفيع والعلم الوفير يمثلان رمزا لما هو جيد وحسن فى الحياة ، والإتيان بهما فى شعر الشكوى تعبير عن فساد الأوضاع وذهاب ماهو حسن منها .

لقد استغل الموالى عطف الخلافة العباسية عليهم ، فتمكنوا من بسط نفوذهم فى البلاط ، وفى أرجاء الدولة الاسلامية ، وأصبحوا يتمتعون بقدر كبير من النفوذ الاجتماعى ، والسياسى ، فى حين تراجع العرب إلى المكان الثانى بعد أن كانوا أصحاب الصدارة ، والنفوذ فى الدولة الأموية .

---

(١) أبو هفان عبد الله بن أحمد، كان شاعرا عالما راوية من أهل البصرة ، سكن بغداد توفى سنة ٢٥٧ هـ .
تاريخ بغداد : ٩/٣٧٠ .
(٢) بهجة المجالس : ١/٧٠ .
(٣) القُوهِيّ : الثوب الأبيض .

لقد كان قيام الدولة العباسية حدثا سياسيا فى تاريخ العالم الاسلامى ، كما كان انقلابا اجتماعيا فى حياة المجتمع(١) خطا بالموالى إلى مكانة عالية استطاعوا من خلالها التأثير فى نواحى الحياة الاجتماعية ، والسياسية ، وقد سجل التاريخ لأسرة البرامكة الفارسية ما وصلوا إليه من نفوذ ، وسيطرة على مرافق الدولة من النواحى السياسية ، والاجتماعية ، والمالية . فامتلكوا الضياع ، والقصور ، وحازوا الأموال ، وفرقوها فيمن شاءوا ، لاسيما وأن الخراج أيام الرشيد قد بلغ درجة لم يبلغها فى عهد أى خليفة من الخلفاء من حيث الكثرة والتنوع(٢).

وقد كان للبرامكة مطلق التصرف فى ذلك قبل نكبتهم ، حيث أسخط هذا الوضع العرب وهم يرون هؤلاء الموالى يتصرفون فى كل شؤون الدولة ، ويحظون بتلك المكانة العالية عند الرشيد . حتى أن الشعراء العرب لم يجرؤ أحد منهم على مخاطبة الخليفة فى أمر البرامكة ، فاضطر بعضهم إلى رفع رقعة شكوى دون أن يذكر اسمه يبين فيها خطر البرامكة المتزايد على الخلافة بعد أن نما وضعهم الاجتماعى ، والسياسى ، وتمكنوا من حيازة الأموال ، واتخذوا القصور والضياع ، وزاحموا الخليفة فى مظاهر العيش ، واستمالوا الناس بما يغدقونه عليهم من الهبات والعطايا ، الأمر الذى قد يضعف هيبة الخليفة . يقول هذا الشاعر : (٣)

---

(١) حياة الشعر فى الكوفة : ١٧٣ .

(٢) الوزراء والكتاب / لأبى محمد الجهشيارى ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين . مطبعة الحلبى ط (٢) ١٤٠١ هـ / ١٩٨٠ م ص : ٢٨١ - ٢٨٨ .

(٣) وفيات الأعيان / لابن خلكان ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار صادر بيروت ٠٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م : ٣٣٥/١ - ٣٣٦ .

قُلْ لِأَمِينِ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ ... وَمَنْ إِلَيْهِ الحَلُّ وَالعَقْدُ
هَذَا ابنُ يَحْيَى قَدْ غَدَا مَالِكًا ... مِثْلُكَ مَابَيْنَكُمَا حَدُّ
أَمْرُكَ مَرْدُودٌ إِلَى أَمْرِهِ ... وَأَمْرُهُ لَيْسَ لَهُ رَدُّ
وَقَدْ بَنَى الدَّارَ الَّتِي مَابَنَى الْ ... فُرْسُ لَهَا مِثْلاً وَلاَ الْهِنْدُ
الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ حَصْبَاؤُهَا ... وَتُرْبُهَا العَنْبَرُ وَالنَّدُّ
وَنَحْنُ نَخْشَى أَنَّهُ وَارِثٌ ... مُلْكَكَ إِنْ غَيَّبَكَ اللَّحْدُ
وَلَنْ يُبَاهِي العَبْدُ أَرْبَابَهُ ... إِلاَّ إِذَا بَطِرَ العَبْدُ

وهذه الشكوى تبين إلى حد كبير ماوصل إليه البرامكة فى الدولة من نفوذ واسع،فقد أصبح فى يد جعفر بن يحى البرمكى كل الأمور ، وكاد يشاطر الخليفة فى الحكم ، ووصل به الأمر أن ينفذ أمره ويحجب أمر الخليفة،فضلا عن امتلاكه لتلك الدار التى لم ير مثلها عند الأمم القديمة ، وتزيينها بكل ماهو ثمين من الأثاث(١)، وجعل حصباءها الدر والياقوت، وتربها العنبر والند ، ومن هنا باهوا أمير المؤمنين بضياعهم وقصورهم ، واحتازوا الأموال بطرا ، وفرقوها فيمن شاءوا دون حساب ، وزاد من جرأتهم على الخليفة أن استخفوا بأمره حينما طلب مالا من خزينة الدولة لينفقه فى بعض الشئون الخاصة ، فلم يعطوه إلا القليل الذى جادت به أنفسهم دون ماطلب (٢) ، ولذا فإن الشاعر يعبر عن قلق العرب من خشية انتقال الخلافة إلى البرامكة ، متى توفى الخليفة وغيب فى الثرى • وفى هذا دليل على تعاظم مكانة الموالى الاجتماعية ، والسياسية ، واتساع نفوذهم فى الدولة الاسلامية فى القرنين الثانى والثالث •

---

(١) الوزراء والكتاب : ١٨٩ • والطبرى : ٨/ ٢٩١ •
(٢) الوزراء والكتاب : ٢٤٩ - ٢٥٠ •

وإننا لنجد بغداد فى فتنة الأمين والمأمون كما صورها الشعراء ، خرابا يبابا لم يبق فيها مظهر من مظاهر الحياة إلا وامتدت إليه يد التخريب والهدم، فقد عاث فيها السفلة ، والغوغاء فسادا فى فتنة هوجاء عصفت بالناس ، وقد صور أحد شعراء بغداد ماحل بها،فقال يشكو من الخراب والدمار الذى لحق بالناس وبالممتلكات أثر هذه الفوضى (١) :

بَكَيتُ دَماً عَلَى بغداد لَمَّا ... فَقَدتُ غَضَارَةَ العَيْش الأنِيقِ
تبدلنَا هموما مِن سُرورٍ ... وَمِنْ سِعَةٍ تبدلْنَا بِضِيقِ
أَصَابَتْنَا مِنَ الحُسَّادِ عَينٌ ... فَأَفْنَتْ أَهْلَهَا بِالمَنجَنِيقِ
وَقومٌ أُحْرِقُوا بِالنَّارِ قَسْرًا ... وَنَائِحَةٍ تَنُوحُ عَلَى غَرِيقِ
وَصَائحةٍ تُنَادِى وَاصَبَاحًا ... وَبَاكِيَةٍ لِفقْدَان الشَّقِيقِ
وَحَوَرَاءِ المدَامِعِ ذَات دَلٍّ ... مضمخة المَجَاسِدِ بِالخُلوقِ
تَفِرُّ مِن الحَرِيقِ إلَى انْتِهَابٍ ... وَوَالِدُهَا يَفِرُّ إِلَى الحَرِيقِ
وَسَالِبَةِ الغَزَالَةِ مُقْلَتَيْهَا ... مُضَاحِكِهَا كَلألاءِ البُرُوقِ
حَيَارَى هَكَذَا ومفكرَات ... عَلَيهِنَّ القَلائِد فِى الحلُوقِ
يُنَادِين الشَّفِيقَ وَلا شَفِيق ... وَقَد فُقِد الشَّفِيق مِن الشَّفِيقِ
وَمُغْتَرِبٍ قَرِيب الدَّار مُلْقًى ... بِلاَ رَأْسٍ بِقَارِعَةِ الطَّرِيقِ
تَوسَّط مِن قِتَالهم جَمِيعًا ... لمَا يَدرُون مِن أَىّ الفَرِيقِ
فَمَا وَلد يقيمُ عَلَى أَبِيه ... وَقَد فَرّ الصَّدِيقُ عَن الصّدِيقِ
وَمهمَا أَنْسَ مِن شَىءٍ تَولَّى ... فَإنِّى ذَاكِر دَارِ الرَّقِيقِ

(١) الكامل فى التاريخ / لابن الأثير . مراجعة الدكتور محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية - بيروت ط (١) ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م : ٣٩٥/٥ .

وقد صور عمرو بن عبد الملك الوراق العنزى (ت ٢٠٠ هـ) سوء الأحوال وما سببه هؤلاء السفلة ، والغوغاء فى بغداد بعد أن ذهب الصالحون من القوم ،وبقى هؤلاء العلوج . فقال يشكو (١) :

أَيُّ دَهْرٍ نَحْنُ فِيهِ ... مَاتَ فِيهِ الكُبَرَاءُ
هَذِهِ السِّفْلَةُ والغَو ... غَاءُ فِينَا أُمَنَاءُ
مَالَنَا شَيءٌ مِن الأَشْ ... يَاءُ إلاَّ مَايَشَاءُ
ضَجَّتِ الأَرْضُ وَقَدْ ضَجَّ ... تْ إِلَى اللَّهِ السَّمَاءُ
رُفِعَ الدِّينُ وَقَدْ هَانَتْ ... عَلَى اللَّهِ الدِّمَاءُ

ولقد أدرك الخليفة المعتصم خطر الفرس فى المجتمع ، واتساع شأنهم فى الدولة ، فأراد أن يتخذ غيرهم لعل ذلك يقلص من نشاطهم المتزايد،ويبعد عن الدولة خطرهم القادم ، فأخذ فى تقريب العنصر التركى ، وجعل منهم وزراءه وقواده ، لكن أمرهم لم يلبث أن استفحل ، وأساءوا إلى عامة الناس فى بغداد (٢) وقد عبر الشعراء العرب عن تضجرهم من مزاحمة الموالى الأتراك لهم بالمناكب ، ومشاطرتهم فى كثير من أمور الحياة الاجتماعية ، وقد بين الشاعر طارق بن أثال الطائى (٣) شعور العرب تجاه هؤلاء الموالى ، فقال يشكو من مكانتهم المتنامية فى المجتمع ، وما يسببونه من ضيق للناس عندما تحولت العادات الاجتماعية لصالحهم ، وامتلكوا الأموال التى

---

(١) تاريخ الطبرى : ٤٧٥/٨ .
(٢) نفس المصدر : ٢٦٢/٩ .
وصلات بين العرب والفرس والترك / الدكتور حسين مجيب المصرى . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧١م ص : ٢٨٨ .
(٣) لم أجد له تعريفا .

خولتهم منزلة عالية عند الملوك ، فقال فى معرض شكواه [1] :

مَـا إنْ يـزال ببغْـدادٍ يُزاحِمُنَـا عَلَـى البَرَاذِيـنِ أشْبَـاهُ البَرَاذِينِ
أعْطَاهُمُ اللَّـهُ أمْـوَالاً وَمَنْزِلَـةً مِـنَ المُلُـوكِ بِلاَ عَقْلٍ وَلاَ دِيـنِ
مَاشِئْتَ مِنْ بَغْلَـةٍ سَفْـوَاءَ نَاجِيَـةٍ وَمِـنْ أثَـاثٍ وَقَـولٍ غَيْـرِ مَـوزُونِ

وقال شاعر آخر يشكو من امتلاك الموالى لأماكن التجارة وسيطرتهم على أسواق العراق [2] :

تَأمَّلْتُ أسْـوَاقَ العِرَاقِ فَلَمْ أجِـدْ دَكَاكِينَهَـا إلاَّ عَلَيْهَـا المَوَالِيَا
جُلُوسًا عَلَيهَا يَنْفِضُـونَ لِحَاهُـمُ كَمَا نَفَضَتْ عُجْفُ البِغَـالِ المَخَالِيَا

وبقدر مايفصح الشاعر فى هذه الشكوى عن ألمه وحسرته من هؤلاء الموالى الذين امتلكوا السوق ، وسيطروا على وسائل التجارة ، فإنها تميل إلى الهجاء كما نرى ، ولكنها تنبض بالصدق ، والحرارة ، والاجادة . وهى تنبىء عن وضع اجتماعى نتج عن تملك هؤلاء الموالى أزمة الأمور .

إن بعض الظواهر قد تكون سياسية فى مبعثها وغايتها لكن آثارها تكون اجتماعية لأن أثرها الاجتماعى كان أوضح وأظهر من الأثر السياسى ، ومن تلك الظواهر الشعوبية ، وما كان لوزراء الفرس فيها من أثر ومن توجيه ، وبخاصة أسرة

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٢٧ .

(٢) رسائل الجاحظ ٢/٢٥١ .

البرامكة [١]،ومن هنا جاءت دراستنا لها من جوانبها الاجتماعية لكونها أخص وأوضح، وأما النواحى السياسية فسيأتى الحديث عنها فى موضع آخر من هذا البحث ان شاء الله [٢] .

وباستعراضنا لأثر الموالى فى الحياة الاجتماعية فى القرنين الثانى والثالث تبينت لنا النزعة الشعوبية التى أعلنها شعراؤهم فى فخرهم بالعجم على العرب ، وذلك إنما هو نتيجة لحقد قديم دفين فى نفوسهم ضد العرب المسلمين الذين استطاعوا بتوفيق الله هدم امبراطورياتهم القديمة ، وإقامة دولة الاسلام [٣] .

وقد تبيّنا قوة أثر الموالى الاجتماعى ، تبعا لقوة نفوذهم السياسى فى الدولة ، فأحدثوا فى المجتمع تحولات كبرى فى جميع شؤون الحياة ، ولئن وجدنا أغلب الشعراء العرب قد أحجموا عن الشكوى من أثر الموالى فى حياتهم الاجتماعية ، ولم يبوحوا بذلك رغم اتساع نفوذ الموالى الاجتماعى والسياسى وشعوبيتهم المعلنة ، فإن هذا فى تقديرى يعود إلى أن العرب بطبعهم يأنفون الشكوى تحت أى ظرف من الظروف ، وقد يرون فى الشكوى من الموالى ، وتأثيرهم فى المجتمع مذلة للعنصر العربى ، فأحجموا عن ذلك على مضض . ولأن الموالى أنفسهم من جانب آخر كانوا متمكنين لدى السلطة ، فقد سيطروا على معظم مراكز الدولة القيادية ، وأصبحت فى أيديهم مقاليد الأمر والنهى ، والخفض ، والرفع ، يستطيعون من خلال ذلك سجن ،

---

(١) الشعر فى بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجرى - دراسة فى الحياة الأدبية فى العصر العباسى / للدكتور أحمد عبد الستار الجوارى . طبعة وزارة المعارف العراقية ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦م ص : ١١٦ .

(٢) الباب الثالث من هذا البحث .

(٣) معالم الشعر وأعلامه فى العصر العباسى الأول / للدكتور محمد نبيه حجاب دار المعارف بمصر ط (٢) ١٩٧٣م ص : ٨ .

وقتل من يرون ، فأحجم الشعراء العرب ، وامتنعوا عن اظهار الجزع ، والتشكى ، ونقد مايوجب نقده فى المجتمع من مظاهر الفساد ، وبالمقابل ، فإن أصحاب البيوتات ، والمراكز القيادية فى الدولة كانوا من الموالى ، وقد رزقوا كثيرا من الأموال،فكانوا يغدقونها على الشعراء ، وأصحاب الحاجات بغير حساب ، وما البرامكة إلا مثال حى من أمثلة وجهاء المجتمع الذين يقصدهم الشعراء ، وغير الشعراء ، فيلبون مطالبهم ، ويقطعون ألسنتهم بالمال وربما بالسيف ، وما دام الشاعر همه الوحيد الحصول على الأموال إن هو سخر شعره للتكسب والمديح ، فذلك مطلب لا يحيد عنه فى الحياة أنى وجده .

ومع هذا فقد وجدنا كثيرا من الشواهد الشعرية التى تدعم ماقلناه عن تأثير الموالى فى المجتمع المسلم ، ولكنا آثرنا الاختصار لتشابه المعنى فى جميع النصوص ، وإن كانت هذه النصوص لاتصور تصويرا كاملا تلك الهزة العنيفة التى أحدثها الموالى فى المجتمع منذ بدأ الأمر يتحول لصالحهم ، وقد أدى هذا التأثير إلى تغير وجه المجتمع العربى وسيطرة الموالى على أزمة الأمور ، وتشتيت العرب المسلمين ، حتى أنهوا فى آخر الأمر خلافة بنى العباس التى دامت أكثر من خمسمائة عام ، فكانت تلك ضربة موجهة للاسلام أولا ثم للعرب ثانيا ، وتلك الأيام نداولها بين الناس .

المبحث الثانى

الشكوى من الفقر وسوء الحال فى القرنين الثانى والثالث

من خلال دراسة الشكوى الاجتماعية فى العصر الجاهلي اتضح لنا أن الفروق المادية التى تميزت بها حياة الجاهليين مع شح الموارد الطبيعية وندرتها ، قد نتج عنها وجود طبقة فقيرة تسعى لتوفير لقمة العيش فى مجتمع شحيح سيطر على الناس فيه حب المال ، فتكالبوا على جمعه بشتى الوسائل والطرق ٠

وقد رأينا فيما سبق أن الشعراء قد أكثروا الحديث عن موقف المجتمع من الفقير ، كما تحدثوا عن مأساته ، وما يحس به من الهوان ، والذلة مما يحول بينه وبين مايطمح اليه من الشعور بالمساواة فى مجتمع تتحقق فيه الذات عن طريق المال ، والقوة ، والنسب ، فيحظى صاحبها بالاحترام والتبجيل ٠

ومن هنا نشأت ظاهرة الصعلكة فى الحياة العربية (١) - كما رأينا - ولانريد أن نتحدث عن التطور التاريخى لهذه الظاهرة من الجاهلية حتى نهاية القرن الثالث لما فى ذلك من التكرار ، والتزيد ، لكننا نسعى إلى دراسة المحاور الجديدة فى أنماط الشكوى الاجتماعية خلال هذه الفترة ، حتى وإن اتفقت بعض الظواهر المسببة لها ٠

---

(١) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلي : ١٤٥ - ١٤٦ ٠

إن الوضع الاجتماعى فى القرنين الثانى ، والثالث قد اختلف أيما اختلاف ، حيث طرأ تحول كبير على نمط الحياة الاجتماعية أدى إلى صعوبة الحياة ، وتعقد وسائل العيش لطائفة من الناس ، شكلوا طبقة عريضة من الفقراء فى المجتمع العباسى ، عاشوا حياة يائسة شديدة المرارة والحرمان ، ينظرون إلى غيرهم من سادات المجتمع وعلية القوم ، فيرونهم سادرين فى لهوهم ، غارقين فى نعيم العيش دون غيرهم ، فكان هذا سببا من الأسباب التى أدت إلى نشوء التمايز الطبقى ، والاضطراب السياسى والانقسام القومي والدينى(١) . وهى سمات يلمسها الباحث فى المجتمع العباسى فى هذه الفترة ، وقد أفرزت كثيرا من الفقراء لكنهم فى الغالب لم يقطعوا طريقا ، ولم يسفكوا دما ، وإنما اكتفوا بتكفف الناس ، واللجوء إلى الشكوى تارة ، وأخرى إلى المديح باعتباره الفن الكفيل بتحقيق مطالبهم فى الحياة(٢) . وقد يعمدون إلى الهجاء فيصبون نقمتهم على من أعطاهم الله بسطة فى المال من رؤساء القوم ، وأغنياء المجتمع فلم يحركهم داعى العطف على هؤلاء الفقراء البائسين (٣) .

---

(١) اتجاهات الهجاء فى القرن الثالث الهجرى/ قحطان رشيد التميمى ، دار المسيرة : ٩٤ - ١٠٨ .

(٢) نظرية الشعر فى النقد الأدبى القديم / الدكتور عبد الفتاح عثمان مكتبة الشباب : ٢٦٤ .

(٣) ومن ذلك على سبيل المثال :

هجاء أبى عطاء السندى لبعض الخلفاء العباسيين بعد أن امتدحهم، فلم يلتفتوا اليه ، وهجاء أبى الشمقمق لكثير من أعيان المجتمع ، وأغنيائه عندما ضاق ذرعا بهم ويئس من عطائهم ، وقد تولى أهل بغداد بنقد شديد حين سئم الحياة فيها نتيجة سوء حاله . وهى ظاهرة طبيعية وجدت فى الشعر العربى منذ عصوره المتقدمة، فالحطيئة مثلا مدح الزبرقان ثم هجاه. كما أن كثيرا من الشعراء مدحوا عبد الله بن الزبير، فلما يئسوا من نواله هجوه.

- الكامل فى اللغة والأدب : ٨٩٢/٢ - ٨٩٤ . - الشعر والشعراء: ٨٦٩/٢ .
- ديوان الحطيئة: ٤٤ - ٥٢ . - ديوان عبد الله بن الزبير الأسدى/ جمع وتحقيق الدكتور يحي الجبورى، طبعة وزارة الاعلام، العراق ١٩٧٤م ص : ١٤٧.
- أدب السياسة فى العصر الأموى/ الدكتور أحمد الحوفى، دار القلم. بيروت ١٣٨٤هـ ص : ٢٥٢ .

ولايمكننا أن نطلق عليهم وصف الصعلكة إلا من الجانب اللغوى فقط ، وذلك لارتباطها فى المفهوم الأدبى بالتشرد واللجوء إلى القوة فى الحصول على الأموال كما هو الحال عند صعاليك العصر الجاهلي ، والقرن الأول الهجرى(١)، وهذا فى الغالب لم يحدث من فقراء القرنين الثانى والثالث ، لكن تولد عندهم نوع من التظلم الاجتماعى أعربوا عنه فى شعرهم الشاكي من سوء أحوالهم وما يعانونه من الفقر والمسغبة .

وحينما نبحث فى أسباب فقرهم ، وتردى أحوالهم يمكننا من خلال ماتقدم فى دراسة الحياة الاجتماعية أن نحدد أسبابا نعتقد بأن لها علاقة بما وقعوا فيه من الفقر وسوء الحال ، وهذه الأسباب تؤيدها النصوص الشعرية والدراسة التاريخية .

ولعل منها تغير مركز بعضهم الاجتماعى عما كانوا عليه زمن الأمويين . فقد وجدنا بعض الشعراء من مخضرمى الدولتين الأموية ، والعباسية يشتكى من سوء حاله ، وأغلب الظن أن مناصرة هؤلاء الشعراء للأمويين كان وراء ترديهم فى هوة الفقر ، فقد اضمحلت مكانتهم فى بداية الدولة العباسية التى قامت على تصفية كل الآثار المتبقية من حكم بنى أمية ، حيث كان الانتقام الشديد الذى لم يقتصر على الأحياء منهم بل وصل إلى نبش قبور الموتى ومحو آثارها(٢) فى مقدمة الأمور التى شغلت بال السفاح أول خلفاء بنى العباس . وقد وافق فتكه بالأمويين وأتباعهم من العرب هوى فى أنفس قواده من الفرس ، وبخاصة أبو مسلم الخراسانى ،

---

(١) شعر الصعاليك منهجه وخصائصه : ١٩ .

(٢) الكامل فى التاريخ : ٧٨/٥ .

فأعملوا السيف فى العرب بحجة مناصرتهم لبني أمية ، ومن هنا كانت بداية حكم العباسيين الصارم فى القضاء على خصومهم ، وبشتى الصور والأساليب . وإن كانت جماعات من الشعراء المؤيدين لبنى أمية قد يممت وجهها نحو العباسيين لتنعم بأفياء السلطة العباسية الجديدة ، لكن شدة القهر الذى واجهه الحزب الأموى أكد انتماء هؤلاء الشعراء لأمويتهم (١) . ولذا فلا يستبعد أن يهمل الخلفاء العباسيون أولئك الشعراء الذين كان لهم قدم سبق فى الاشادة بالأمويين فلا يلتفتون إليهم على الأقل فى بداية الدولة ، وإن سمحوا لهم بالدخول عليهم ، وحضور مجالسهم . وهذا فى واقع الأمر تصرف قد يكون مؤقتا ، إذ مايلبث الشاعر أن يجد له مكانة ، ويحظى شعره بالقبول لدى الخلفاء العباسيين فيأخذ مكانه بعد أن تغاضى عنه أولو الأمر من منطلقات سياسية تسعى لتوظيف الشعر لخدمة السلطة ، والحط من قدر أعدائها . وفى هذه الفترة التى يمكث فيها الشاعر بعيدا عن عطاء الخلفاء ورضاهم عنه يمر بضائقة تؤدى به إلى الفقر ، فيلح بالشكوى . ثم تتوارى هذه الضائقة فإذا به منعم أثير .

وقد حدث هذا الأمر للشاعرين أبى نخيلة (ت ١٤٧ هـ) ، والعمانى (ت ١٧٠ هـ) إذ افتقرا لتجافى الخلفاء العباسيين عنهما لأمويتهما ، فقد جاء

---

(١) ومن هؤلاء الشعراء على سبيل المثال أبو عطاء السندى ، ومروان بن أبى حفصة ، وأبو العباس الأعمى ، وعبد الله بن عمر العبلى وغيرهم .

- شعر الصراع السياسى فى القرن الثانى الهجرى : ١٥٩ - ١٦٥ .
- مروان بن أبى حفصة وشعره / الدكتور قحطان التميمى ، مطبعة النعمان ١٩٧٢م ص : ٦٨ .

أبو نخيلة إلى السفاح لانشاده فرفض ، ونهره قائلا (لَاحَاجَةَ لَنَا فِى شِعْرِكَ إِنَّمَا تُنْشِدنَا فَضلَاتَ بَنِي مَرْوَان)(١) وورد أنه وقف على باب أبى جعفر المنصور ، واستأذن فلم يؤذن له بينما أخذت الخراسانية تدخل وتخرج وهم يرون شيخا أعرابيا جلفا فيعبثون به فأخذ يرتجز قائلا (٢) :

أَصْبَحْتُ لَايَمْلِكُ بَعْضٌ بَعْضِى ... أَشْكُو العُرُوقَ الآبِضَاتِ أَبْضَا
كَمَا تَشَكَّى الأَرْحَبِىُّ الغَرْضَا ... كَأَنَّمَا كَانَ شَبَابِى قَرْضَا

فقيل له : كيف ترى ما أنت فيه فى هذه الدولة فقال (٣) :

أَكْثَرُ خَلْقِ اللَّهِ مَن لَايُدْرَى ... مِنْ أَىِّ خَلْقِ اللَّهِ حِينَ يُلْقَى
وَحُلَّةٌ تُنْشَرُ ثُمَّ تُطْوَى ... وَطَيْلَسَانٌ يُشْتَرَى فَيُغْلَى
لِعَبْدِ عَبْدٍ أَوْلِمَوْلَى مَوْلَى ... يَاوَيْحَ بَيْتِ المَالِ مَاذَا يَلْقَى

ورغم هذا فانه قد حظى بمكانة عند العباسيين ، ونال عطاءهم ، وسخر بعض شعره فى مدحهم (٤) ، وهذا يدعونا إلى القول بأن مثل هذه الشكوى مؤقتة سرعان ما تنتهى بانتهاء أسبابها •

---

(١) الأغانى : ٣٩٩/٢٠ •

(٢) المصدر نفسه : ٤١٢/٢٠ • وقد وردت هذه الأبيات منسوبة للنمر بن تولب فى الأغانى : ٢٨٤/٢٢ ولم أجدها فى شعره المجموع •

(٣) الأغانى : ٤١٢/٢٠ •

(٤) المصدر نفسه : ٤٠٠/٢٠ •

أما العمانى فقد نزل بغداد ، وعانى ألوانا من الضياع ، والجوع نتيجة فقره ، وبقى على حال بؤسه حتى اتصل بالمهدى ، والرشيد (١) ، وفى فترة محنته خلف لنا أشعارا شاكية صور فيها معاناته ، وبين تفاوت الحظوظ بين الناس يقول (٢) :

لايَسْتَوِى مُنَعَّمٌ بُنْدَارُ (٣) ... لَهُ قِيَانٌ وَلَهُ حِمَارُ
مُقَصَّصٌ قَصَّهُ البِيطَارُ ... يُطِيفُ فِى السوقِ بِهِ التُّجَارُ
وَعَرَبِىٌّ بُرْدُهُ أَطْمَارُ ... يَظَلُّ فِى الطُّرْقِ لَهُ عِثَارُ
قَدْ نَصَلَتْ مِنْ رِجْلِهِ الأَظْفَارُ ... يَأْوِى إِلَى خُصٍّ لَهُ أُوَارُ (٤)
أَحْدَبَ قَدْ مَالَ بِهِ الجِدَارُ ... لَا دِرْهَمٌ فِيهِ وَلَا دِينَارُ
يَأْكُلُ هَزْلَى الفَأْرِ فِيهِ الفَارُ ... فِى بَلْدَةٍ عَالٍ بِهَا الغُبَارُ

وقد ظل أبو عطاء السندى (ت ١٨٠ هـ) منبوذا من قبل العباسيين لكونه من شعراء بنى أمية ، وشيعتهم ، ومداحهم ، وكان هواه معهم (٥) ، ولما أدرك دولة بنى العباس لم تكن له فيها نباهة ، فأهملوه لمواقفه تلك . وقد جاء إلى أبى جعفر المنصور ومدحه فلم يلتفت اليه ، فعاوده المديح لكن المنصور

---

(١) فن الزجر فى العصر العباسى / الدكتوره رجاء السيد ، منشأة المعارف الاسكندرية ط (١) ص : ١٤٤ .

(٢) طبقات ابن المعتز / تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف ط (٤) ص : ١١٢ - ١١٣ .

(٣) البُنْدَارُ : الذى يخزن البضائع للغلاء .

(٤) الأُوَارُ : الحر ، والعطش ، والدخان .

(٥) الأغانى : ٣٢٩/١٧ .

أغلظ عليه ، وذكره بقصيدته فى رثاء نصر بن سيار (ت ١٣١ هـ) أحد ولاة بنى أمية ومنها قوله (١) :

فَاضَتْ دمُوعِى عَلَى نَصْرٍ وَمَا ظَلَمَتْ ... عَيْنٌ تفِيضُ عَلَى نَصْرِ بن سَيَّارِ

يَانَصْر مَنْ لِلِقَاءِ الحَرْبِ إنْ لقحت ... يَانَصْر بَعدكَ أوْ لِلضَّيْفِ وَالجَارِ

ثم أقسم أن لا يعطيه شيئا أبدا ، فخرج من عنده وهجاه ،ثم تولى بنى العباس بالهجاء بعد أن يئس من عطائهم ، وأمضه الفقر الشديد (٢) :

ونجد من الشعراء الذين ثبتوا على مواقفهم المؤيدة لبنى أمية رغم الاضطراب السياسى ، وتغير الاتجاهات والميول أبو العباس الأعمى (ت ١٤٠هـ) فقد التزم بموقفه من بنى أمية ، وما فتىء يمدحهم ، ويشيد بهم بعد زوال ملكهم (٣) ، وكذلك الشاعر عبد الله بن عمر العبلى (ت ١٤٥ هـ) الذى لم ينس الأمويين فى عهد بنى العباس رغم غضب المنصور عليه وطرده من مجلسه (٤) .

على أن ميول الشعراء الأموية ليست السبب الوحيد فى افتقار بعضهم فى هذه الفترة ، فقد تتوارى خلف ذلك أسباب أخرى بعضها يتعلق بالسياسة ، وبعضها الآخر يتعلق بالدين (٥) . ولعل ماشاع بين الناس من أمر الشعوبية

---

(١) الأغانى : ٣٣٢/١٧ .
(٢) المصد نفسه : ٣٣٢/١٧ .
(٣) العامل السياسى فى أدب العصر العباسى الأول / أحمد الشايب ، مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٥٠م ص : ٤ ، ٥ ، ١٥ .
(٤) الأغانى ٢٩٤/١١ - ٢٩٥ .
(٥) حيث قتل كثير من الشعراء الذين حامت حولهم شبهة الزندقة .

والزندقة ، وما نما فى العصر العباسى من المذاهب الفكرية المنحرفة كانت وراء تجافى الخلفاء ، واعراضهم بل ، وبطشهم بكثير من الشعراء ، وغير الشعراء بسبب زندقتهم (١) ، لكن هؤلاء الشعراء من أكثر أفراد المجتمع اتهاما ، فأصبحوا هدفا للسلطة ، وعرضة للسجن والاعدام كما حدث لبشار بن برد، وصالح بن عبد القدوس الأزدى (ت ١٦٠ هـ) حيث كان لذلك صلة بشعوبيتهما ، وزندقتهما (٢) .
ويبدو أن بشارا قد افتقر كثيرا وتغير حاله ، فغدا يريق ماء وجهه للناس علّه يظفر منهم بشىء رحمة به وبأولاده من عسر الزمان ، وأهواله ، وقد انكشفت حقيقة زندقته فضيق عليه حتى اكتوى بنار الفقر ، وساءت حاله ، وفى آخر الأمر أودع السجن لينال الكثير من العذاب والتنكيل (٣) .

ومع أنه من الشعراء الكبار الذين ذاعت شهرتهم فى العصر العباسى ، وكان بامكانه الحصول على بغيته من الأموال عن طريق شعره يزجيه فى مديح العظماء من رجال عصره دون أن يلهث بالسؤال ، والشكوى لو كان عاش بعيدا عن الصراعات المذهبية ، والنزعات العرقية ، لكنه انزلق فى وحل الزندقة فى وقت كان عقابها الاعدام فازداد بعدا عن عطاء القوم ، وازداد فقرا ، وسوء حال . إضافة إلى

---

(١) تاريخ الطبرى : ١٦٥/٨ .
وأدب المعتزلة حتى نهاية القرن الرابع الهجرى / الدكتور عبد الحليم بلبع ، دار نهضة مصر ط (٣) ١٩٧٩م ص : ٩٦ - ٩٩ .

(٢) الزندقة والزنادقة / عاطف شكرى أبو عوض ، دار الفكر ، عمان ، ص : ١٧٧ - ١٧٩ . وفن الرجز فى العصر العباسى : ١٤٦ .

(٣) ديوان بشار : ٩٢/٤ - ٩٣ . والأغانى ١٤٥/٣ ، الزندقة والزنادقة : ١٧٧ .

ذلك الشعور النفسى الأليم الذى يلفه فقد أصبح يضرب به المثل فى قبح الخلقة (١) وحدة المزاج.ومهما يكن من أمر هذا الشاعر فإنه افتقر فى آخر حياته فأصبح مديحه شكوى كما نرى فى قصيدته التى يمدح فيها يزيد بن حاتم المهلبى (ت ١٧٠ هـ) حيث ختمها بشكوى مؤلمة من الزمن وبكاء ً على حاله ، وما آل إليه من فقر مدقع ، وعسر شديد ،فأخذ يستجير بالممدوح ويرجوه أن يتصدق عليه بما يقيم أوده ،وأطفاله فهو فقير معدم ، غير قادر على توفير أقل مطالبهم من الزاد ، والكساء، وكثرت ديونه فأقلقه الدائن الذى يعاوده ليلا ، ونهارا بينما يتهرب منه ، وهو يحاول الافلات من رؤيته التى تسبب له خوفا ، واضطرابا يقول (٢) :

وَصِبْيَةٌ أَكْبَرُهُــمْ صَغِيــرُ ... إِلَيْكَ مِنْ خَوفِ البَلَايَا مُورُ (٣)
أَمَا تَرَى فَأَنْتَ بِى بَصِيرُ ... طَالِبَ خَيْرٍ خَطْوُهُ قَصِيرُ
قَدْ سَاقَهُ القَحْطُ وَدَهْرٌ بُورُ ... بَلْ غَالَ نَومِى بَائِعٌ مَسْعُورُ (٤)
يَمْشِى بِرَقٍّ بَطْنُهُ مَسْطُورُ ... يَهُولُنِى لِقَاؤُهُ المَحْذُورُ
وَأَنَا مِنْ رُؤْيَتِهِ مَذْعُورُ ... يَرُوعُنِى وَلَيْسَ لِى مُجِيرُ
فَهَلْ لِمَا بِى مِنْ أَذًى تَغْيِيرُ ... أَنْتَ الَّذِى يَغْنَى بِهِ الفَقِيرُ

---

(١) ثمار القلوب / لأبى منصور النيسابورى ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ١٩٦٥م : ص ٢٢٤ .

(٢) ديوانه : ١٧٢/٣ - ١٧٤ .

(٣) البَلَايَا مُورُ : أى مصائب مسرعة تتردد وتضطرب لكثرتها فهى تذهب وتجئ .

(٤) البُورُ : بضم الباء مالا خير فيه .

أما صالح بن عبد القدوس ، فقد كان موافقا لبشار فى العقيدة ، وإن قصر عنه فى الشعر ، لكنه شاع عنه أنه كان يلقى دروسا فى فضائل مذهب الثنوية الفارسى ، وقد أمر المهدى بصلبه لاتهامه بالزندقة (١) .

وتتضح لنا أسباب أخرى غير ماتقدم تكمن فى الثورات التى وقعت فى القرنين الثانى والثالث ، والتى كان لها دور فى ضعف الدولة العباسية ، واثقال كاهلها بأعباء النفقات فى كثير من الأحيان ، فانتشرت الفوضى ، وتعطلت أسباب الرزق ، وقلت وسائل المعيشة ، مما أدى إلى التضييق على الناس ، بحيث تعذر عليهم طلب الرزق ، فانقطعت بهم السبل ، ورسفوا فى فقر وضيق ، وبخاصة أبناء الطبقات الدنيا فى المجتمع ، إذ صعبت عليهم الحياة والسيطرة على أسباب تفكك المعيشة ، وغلائها . وقد كان أبو العتاهية صادقا فى تصوير حال المجتمع المتردى من جراء الأوضاع السيئة التى يعيشها الناس عندما رفع شكوى إلى أحد الخلفاء فى عصره يبين له حالة المجتمع ، وما انتشر فيه من مظاهر غلاء الأسعار ، وقلة الأعمال ، وانتشار البطالة شارحا له بؤس اليتامى، والأرامل ، ومصورا جوعهم وعريهم يقول (٢) :

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّى الأَمَا ... مَ نَصَائِحًا مُتَوَالِيَهْ
إِنِّى أَرَى الأَسْعَارَ أَسْـ ... ـعَارَ الرَّعِيَّةِ غَالِيَهْ
وَأَرَى غُمُومَ الدَّهْرِ رَا ... ئِحَةً تَمُرُّ وَغَادِيَهْ

---

(١) تاريخ الأدب العربى / بروكلمان : ١٧/٢ .
الزندقة والزنادقة : ١٨١ .

(٢) ديوانه : ٤٨٧ .
وأبو العتاهية أشعاره وأخباره / الدكتور شكرى فيصل ـ مطبعة جامعة دمشق ١٣٨٤هـ ـ١٩٦٥م ص : ٤٣٩ ـ ٤٤٠ .

وَأَرَى الْيَتَامَى وَالأَرَا ... مِلَ فِى الْبُيُوتِ الْخَالِيَهْ
مِنْ بَيْنِ رَاجٍ لَمْ يَزَلْ ... يَسْمُو إِلَيْكَ وَرَاجِيَهْ
يَشْكُونَ مَجْهَدَةً بِأَصْـ ... ـوَاتٍ ضِعَافٍ عَالِيَهْ
يَرْجُونَ رِفْدَكَ كَيْ يَرَوْا ... مِمَّا لَقُوهُ الْعَافِيَهْ
مَنْ يُرْتَجَى لِلنَّاسِ غَيـ ... ـرَكَ لِلْعُيُونِ الْبَاكِيَهْ
مِنْ مُصْبِيَاتٍ جُوَّعٍ ... تُمْسِى وَتُصْبِحُ طَاوِيَهْ
مَنْ يُرْتَجَى لِدِفَاعِ كَرْ ... بِ مُلِمَّةٍ هِىَ مَاهِيَهْ
مَنْ لِلْبُطُونِ الْجَائِعَا ... تِ وَلِلْجُسُومِ الْعَارِيَهْ
مَنْ لِارْتِيَاعِ الْمُسْلِمِيـ ... ـنَ إِذَا سَمِعْنَا الْوَاعِيَهْ
يَا ابْنَ الْخَلَائِفِ لَافُقِدْ ... تَ وَلَا عَدِمْتَ الْعَافِيَهْ
إِنَّ الأُصُولَ الطَّيِّبَا ... تِ لَهَا فُرُوعٌ زَاكِيَهْ
أَلْقَيْتُ أَخْبَارًا إِلَيْـ ... ـكَ مِنَ الرَّعِيَّةِ شَافِيَهْ

لقد جعل أبو العتاهية من شخصه متحدثا باسم هؤلاء البائسين فى مجتمعه ، فأنزل نفسه منزلة الذائد عن حقوق الضعفاء ، الواصف لعيشهم الشقى ، وبؤسهم المرير (١) إذ بين مافيه من شقاء ، وانحراف ربما نشأت عنه طبقة فقيرة ساهمت كثرة من الأمور الطارئة فى وجودها ، فكانت شكوى أولئك الشعراء موضحة للجانب البائس فى حياة المجتمع العباسى فى القرنين الثانى والثالث ، وهذه شجاعة أدبية من أبى العتاهية فى صدقه مع الخلفاء ، واتخاذ هذا الموقف الايجابى ، وتبصيرهم

---

(١) أبو العتاهية شاعر الزهد والحكمة / الدكتور محمود فرج العقدة دار العلوم - الرياض ط (١) ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م : ١٤٧/١ .

بأوضاع الرعية وماهم فيه من بؤس وهوان ، وكساد فى جميع المجالات [١] .

وقد نجيز لأنفسنا القول : أنه كان من الجائز فى دائرة نظام الحكم العباسى الذى تنقصه فى بعض جوانبه العدالة الاجتماعية ، والمساواة بين الناس فى ظل ظروف سياسية جديدة أن يوجد فى المجتمع طبقة عريضة رسفت فى البؤس ،والعوز وشظف الحياة [٢] تقطع عمرها فى السعى خلف الأغنياء الذين توارثوا الغنى ، والمراكز السياسية والادارية . فكان حظ هؤلاء الفقراء البؤس ، والحرمان ، والألم ، والقنوط ، وخاصة من عاش منهم فى الأقاليم البعيدة عن مركز الخلافة . فقد تمنع أعطياتهم تارة ، وأخرى يحرمون من حقوقهم فى بيت مال المسلمين ، لاسيما من لم يكن مرضيا عنه لدى السلطة الحاكمة . ولعل هذا يؤكد ماقلناه من أن ميول الشاعر الأموية كانت سببا فى حرمانه ، وعوزه فى العصر العباسى . وهذه الطبقة المحرومة كان منها الشاكى من الاستغلال ، والآخر الذى يغلف شكواه بسؤال الناس وتكففهم ، وغيرهم المظلوم الذى غصبه السلطان ، وأعوانه حقه ، وتصرف الحاكمون فى أمواله [٣] ، حتى لقد أطلق على هذه الطبقة أحط الأوصاف فقد وصفوا بالجهل فى الأمور الدينية ، وفى النواحى الثقافية بينما أطلق عليهم المؤرخون عدة تسميات منها السفلة ، والغوغاء ، والسقاط ، والجماهير ، والدهماء ، والأوباش ، الى غير ذلك من النعوت [٤] .

---

(١) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى : ٣٢٨ .

(٢) اتجاهات الهجاء فى القرن الثالث الهجرى : ٩٣ .

(٣) الشعر فى بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجرى : ٣٨ - ٣٩ .

(٤) الحالة الاجتماعية فى العراق فى القرنين الثالث والرابع : ٥٢ .

ويعد أبو الشمقمق (ت ١٩٠ هـ) شاعر الفقر غير منازع فى هذه الفترة ، فقد أكثر الحديث عن الفقر فى شعره ، وكان متبرما بالناس ، وقد لزم بيته فى أطمار بالية (١) لايسمح لأحد بالدخول عليه ، وقد صور حاله تلك فى هذه الشكوى حيث يقول (٢) :

أَنَـا فِـى حَـالٍ تَعَالَـى اللَّـ	ـهُ رَبِّـى أَىَّ حَـالِ
لَيْسَ لِـى شَـىْءٌ إِذَا قِيـلَ	لِمَـنْ ذَا ؟ قُلْـتُ ذَا لِى
وَلَقَدْ أَفْلَسْـتُ حَتَّـى	حَـلَّ أَكْلِـى لِعِيَالِـى
وَلَقَـدْ أُهْزِلْـتُ حَتَّـى	مَحَتِ الشَّمْـسُ خَيَالِـى
مَـنْ رَأَى شَيْئًـا مُحَـالاً	فَأَنَـا عَيْـنُ المحَـالِ
لَـوْ أَرَى فِى النَّـاسِ حُـرًّا	لَـمْ أَكُـنْ فِى ذَا المِثَـالِ

ولقد قدر لأبى الشمقمق أن تكون حياته اخفاقا متصلا رغم سعية للتخفيف من بؤسه ، وإقلاله ، فها هو يندب حظه السىء ، ويصور فضله فىالحياة فى أبيات قليلة العدد قوية التعبير عن نفسه ، وأحاسيسه ونصيبه من دنياه فيقول (٣) :

لَـوْ رَكِبْـتُ البِحَـارَ صَارَتْ فِجَاجاً	لاَ تَـرَى فِى مُتُونِهَـا أَمْوَاجَـا
فَلَو أَنِّـى وَضَعْـتُ يَاقُوتَـةً حَمْـ	ـرَاءَ فِى رَاحَتِى لَصَـارَتْ زُجَاجَـا
وَلَـوَ أَنِّـى وَرَدْتُ عَذْبـًا فُرَاتـًا	عَـادَ لاَشَكَّ فِيـهِ مِلْحًـا أُجَاجَـا

---

(١) العقد الفريد : ٢١٦/٦ ٠

(٢) شعراء عباسيون / غوستاف فون غرنباوم ، ترجمة الدكتور محمد يوسف نجم ، ومراجعة الدكتور احسان عباس ص : ١٤٦ ٠

(٣) العقد الفريد : ٢١٦/٦ وشعراء عباسيون : ١٣٢ ٠

فَإِلَى اللَّـهِ أَشْتَكِى وَإِلَى الْفَضْـ ... ـلِ فَقَدْ أَصْبَحَتْ بُزَاتِى دَجَاجَا (١)

ويلح فى شكواه من الفقر ، والاعسار إذ ليس له بيت يأويه ، وليست له ثياب ، فاخرة ، ولا عبيد ، ودواب ، ولا مال . فهو يصف حاله وواقعه المعاشى ، ومستواه المادى فى أسلوب مرح ، وصور معبرة يختمها بتسلية نفسه ، وترويضها على المتاعب (٢) .

بَرَزْتُ مِنَ الْمَنَازِلِ وَالقِبَابِ ... فَلَمْ يَعْسُرْ عَلَى أَحَدٍ حِجَابِى
فَمَنْزِلِىَ الْفَضَاءُ وَسَقْفُ بَيْتِى ... سَمَاءُ اللَّهِ أَوْ قِطَعُ السَّحَابِ
فَأَنْتَ إِذَا أَرَدْتَ دَخَلْتَ بَيْتِى ... عَلَىَّ مُسَلِّمًا مِنْ غَيرِ بَابِ
لِأَنِّى لَمْ أَجِدْ مِصْرَاعَ بَابٍ ... يَكُونُ مِنَ السَّحَابِ إِلَى التُّرَابِ
وَلَا انْشَقَّ الثَّرَى عَنْ عُودِ تَخْتٍ ... أُؤَمِّلُ أَنْ أَشُدَّ بِهِ ثِيَابِى
وَلَا خِفْتُ الإِبَاقَ عَلَى عَبِيدِى ... وَلَا خِفْتُ الهَلَاكَ عَلَى دَوَابِى
وَلَا حَاسَبْتُ يَومًا قَهْرَمَانِى ... مُحَاسَبَةً فَأَغْلَظُ فِى حِسَابِى
وَفِى ذَا رَاحَةٌ وَفَرَاغُ بَالٍ ... فَدَأْبُ الدَّهْرِ ذَا أَبَدًا وَدَأْبِى

ويسخر أبو الشمقمق من حالته البائسة فى معرض شكواه ، وما وصلت إليه من ترد فى هوة الفقر السحيقة ، يتضح هذا فى قوله :

---

(١) البزاة : نوع من الصقور التى تصيد ، واحدها بازى . ويجمع على بواز وبزاة / اللسان (بزا) .

(٢) العقد الفريد : ٢١٦/٦ .

وَلَقَدْ قُلْتُ حِينَ أَجْحَرَنِي البَـرْ ... دُ كَمَا تُجْحِرُ الكِلَابُ ثُعَالَـهْ[1]

فِي بُيَيْتٍ مِن الغَضَارَةِ قَفْرٍ ... لَيْسَ فِيهِ إِلَّا النَّوَى وَالنُّخَالَهْ[2]

عَطَّلَتْهُ الجِرْذَانُ مِن قِلَّةِ الخُبْـ ... ـزِ وَطَارَ الذُّبابُ نَحْوَ زُبَالَهْ[3]

هَارِبَاتٍ مِنْهُ إِلَى كُلِّ خِصْبٍ ... حِينَ لَمْ يَرْتَجِينَ مِنْهُ بِلَالَهْ

وَأَقَامَ السِّنَّوْرُ فِيهِ بِشَرٍّ ... يَسْأَلُ اللَّهَ ذَا العُلَا وَالجَلَالَهْ

أَنْ يَرَى فَأْرَةً فَلَمْ يَرَ شَيْئًا ... نَاكِسًا رَأْسَهُ لِطُولِ المَلَالَهْ

وله فى هذا المعنى قصيدة أخرى من نفس الوزن يسخر فيها من حاله ، ويشكو بؤسه ، واقلاله ، ويصور بيته الخالى من كل شيء[4] :

وَلَقَدْ قُلْتُ حِينَ أَقْفَرَ بَيْتِي ... مِنْ جِرَابِ الدَّقِيقِ وَالْفَخَّارَهْ

وَلَقَدْ كَانَ آهِلاً غَيْرَ قَفْرٍ ... مُخْصِبًا خَيْرُهُ كَثِيرَ العِمَارَهْ

فَأَرَى الفَأْرَ قَدْ تَجَنَّبْنَ بَيْتِي ... عَائِذَاتٍ مِنْهُ بِدَارِ الإِمَارَهْ

وَدَعَا بِالرَّحِيلِ ذِبَّانُ بَيْتِي ... بَيْنَ مَقْصُوصَةٍ إِلَى طَيَّارَهْ

وَأَقَامَ السِّنَّوْرُ فِي البَيْتِ حَوْلاً ... مَا يَرَى فِي جَوَانِبِ البَيْتِ فَارَهْ

يُنْغِضُ الرَّأْسَ مِنْهُ مِن شِدَّةِ الجُو ... عِ وَعَيْشٍ فِيهِ أَذًى وَمَرَارَهْ[5]

---

(١) الحيوان : ٥/٢٦٦ .

(٢) الغَضَارَةُ بالفتح : الطين الحر ، وقيل الطين اللازب الأخضر .

(٣) زُبَالَةُ : موضع بعد القاع من الكوفة / معجم البلدان (زبالة) .

(٤) الحيوان : ٥/٢٦٤ - ٢٦٦ .

(٥) أَنْغَضَ رَأْسَهُ : حركه الى فوق والى أسفل .

قُلْتُ لَمَّا رَأَيْتُهُ نَاكِسَ الرَّأْ ... سِ كَئِيبًا فِى الجَوْفِ مِنْهُ حَرَارَةْ
وَيْكَ صَبْرًا فَأَنْتَ مِن خَيرِ سَنَّو ... رٍ رَأَتْهُ عَيْنَاىَ قَطُّ بِحَارَةْ
قَالَ لَا صَبْرَ لِى وَكَيْفَ مُقَامِى ... بِبيُوتٍ قَفْرٍ كَجَوْفِ الحِمَارَةْ
قُلْتُ سِرْ رَاشِدًا إِلَى بَيْتِ جَارٍ ... مُخْصِبٍ رَحْلُهُ عَظِيمِ التِّجَارَةْ
وَإِذَا العَنْكَبُوتُ تَغْزِلُ فِى دَ ... نٍّ وَحُبٍّ وَالكُوزِ وَالْقَرْقَارَةْ (١)
وَأَصَابَ الجُحَامُ كَلْبِى فَأَضْحَى ... بَيْنَ كَلْبٍ وَكَلْبَةٍ عَيَّارَةْ (٢)

ولم يكن لأبى الشمقمق راحلة تحمله فى تنقلاته فنجده يئن ، ويشكو من ذلك قائلا (٣) :

أَتُرَانِى مِنَ الدَّهْرِ يَومًا ... لِى فِيهِ مَطِيَّةٌ غَيْرُ رِجْلِى
كُلَّمَا كُنْتُ فِى جَمِيعٍ فَقَالُوا ... قَرِّبُوا لِلرَّحِيلِ قَرَّبْتُ نَعْلِى
حَيْثُمَا كُنْتُ لَا أَخَافُ رَحِيلًا ... مَنْ رَآنِى فَقَدْ رَآنِى وَرَحْلِى

ولم يكتف أبو الشمقمق بتصوير حاله البائسة بل جعل من أبنائه منطلقا لشكواه ، فأخذ يصور حالتهم ، وحرمانهم ،وهم يئنون من الجوع ، والفاقة ، وقد دنا العيد ، وليست لهم بقية من طعام يسدون به رمقهم ، فلم يكن لهم إلا تلك

---

(١) الدَّنُّ : الراقود العظيم ، وهو كهيئة الحب الا أنه أطول .
والحُبّ بالضم : الجره الضخمة ، والقَرْقَارَةُ : اناء سميت بذلك لقرقرتها.

(٢) الجُحامُ : بتقديم الجيم المضمومة على الحاء : داء يأخذ الكلب فى رأسه فيكوى منه بين عينيه.

(٣) العقد الفريد : ٢١٥/٦ .

العنز الهزيلة التى أودى بها الدهر أيضا ، فحرموا من لبنها القليل ، وعند ذلك خلت أيديهم من كل شئ يقول [١]:

مَاجَمَعَ النَّاسُ لِدُنْيَا هُمُ ٠ أَنْفَعَ فِى البَيْتِ مِن الخُبْزِ
وَالخُبْز بِاللَّحْمِ إِذَا نِلْتَهُ فَأَنْتَ فِى أَمْنٍ مِنَ التَّرْزِ [٢]
وَالْقَلْزُ مِنْ بَعْدُ عَلَى إِثْرِهِ فَإِنَّمَا اللَّذَاتِ فِى الْقَلْزِ [٣]
وَقَدْ دَنَا الفِطْرُ وَصِبْيَانُنَا لَيْسُوا بِذِى تَمْرٍ وَلَا أَرْزِ
وَذَاكَ أَنَّ الدَّهْرَ عَادَاهُمُ عَدَاوَةَ الشَّاهِينِ لِلْوَزِّ [٤]
كَانَتْ لَهُمْ عَنْزٌ فَأُوْدِى بِهَا وَأَجْدَبُوا مِن لَبَنِ العَنْزِ
فَلَو رَأَوا خُبْزًا عَلَى شَاهِقٍ لَأَسْرَعُوا لِلْخُبْزِ بِالْجَمْزِ
وَلَو أَطَاقُوا القَفْزَ مَا فَاتَهُمْ وَكَيْفَ لِلْجَائِعِ بِالْقَفْزِ

وأغلب الظن أن حال هذا الشاعر الساخر لم تصل إلى هذا الحد من البؤس والحرمان ، فربما كانت شكواه ناتجة عن قناعته الذاتية بأنه من أفراد المجتمع المنبوذين لعدة عوامل اجتماعية ٠ منها ما يتعلق بهجائه المقذع الذى أفقده كثيرا من عطاء السادة ، وعطف الناس ٠ ثم أنه قد أخمل ذكره النابهون من

---

(١) طبقات ابن المعتز : ١٢٧ ٠

(٢) التَّرْزُ : الموت ٠

(٣) القَلْزُ : ضرب من الشرب ٠

(٤) الشَّاهِينُ : ليس بعربى وجمعه شواهين ، وشياهين ، والكلمة فارسية وقد تكلمت به العرب ،والشاهين طائر معروف ٠

- المعرب / لأبى منصور الجواليقى ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، طبعة دار الكتب المصرية ١٣٦١ هـ ص : ٢٠٨ ٠

شعراء عصره ، إضافة إلى قبح خلقته ،وحدة مزاجه ، وضيق صدره ، وقلة حيلته ، وبذاءة منطقة مما جعل الممدوحين يعرضون عنه ، فاتجه إلى الشكوى الساخرة من حالته البائسة ، وسوء حظه فى الحياة .

وقد انتشر فى العصر العباسى أدب التظرف ، والمزح ، واهتم به أفراد المجتمع على اختلاف مستوياتهم ، وليس بدعا أن يكون أبو الشمقمق ، وأبو دلامة الأسدى (١)، وغيرهما من هؤلاء الظرفاء إذ أن أكثر أقوالهم ملاحة ، وقبولا فى النفس تلك التى يحكمون فيها حالتهم الخاصة من فقر ، أو مأساة ، أو تشاؤم وسخرية ، وكلها نتاج فقرهم ، وقلة ذات يدهم ، وولعهم بإضحاك الناس عليهم ، وعلى أبنائهم ، فكان من الطبيعى أن يحدث فى العصر العباسى مثل هذا النوع من الأدب نتيجة ماوصل إليه الناس من تطور اجتماعى صاحبه عادة ظهور السخرية ، والمزح عند كثير من الشعراء . وليس من المغالاة إذا قلنا أنها لاتكاد تخلو أغراض الشعر العربى من هذا الفن فى هذه الفترة . ومن أجل هذا قدر لشعر أبى الشمقمق قيمة فنية ، إذ كانت الطبقات الدنيا البائسة الفقيرة تحفظه ، وتحرص عليه ، وتتغنى به ، فهو يجسد أوجاعها ، ومظالمها ، ويشخص أمانيها ، وآمالها ، ومن هنا كانت شهرة هذا الشاعر البائس الذى حفظ لنا القدماء كثيرا من أخباره ، وأشعاره . مع أنه ليس وحده الفقير المعدم فى هذه الفترة ، فربما كان غيره أشد فقرا منه لكنه لم يقدر لشعره الذيوع والانتشار مثلما قدر لشعر أبى الشمقمق .

---

(١) ديوان أبى دلامة الأسدى ، اعداد الدكتور رشدى على حسن مؤسسة الرسالة ط (١) ١٤٠٦ هـ الصفحات : ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٦١ ، ٦٢ وغيرها .

وبقدر ما اشتكى أبو الشمقمق من الفقر ، وبالغ فى تصوير حاله ، وحال أبنائه ، فإننا نجد شاعرا ساخرا آخر هو أبو فرعون الساسى[1] يشكو مر الشكوى مما حل به من الفقر ، والعوز، فيقول فى معرض مديحه للحسن ابن سهل [2] :

إِلَيْكَ أَشْكُو صِبْيَةً وَأُمَّهُمْ ... لَايَشْبَعُونَ وَأَبُوهُمْ مِثْلُهُمْ
قَدْ أَكَلُوا اللَّحْمَ وَلَمْ يُشْبِعْهُمْ ... وَشَرِبُوا الْمَاءَ فَطَالَ شُرْبُهُمْ
وَامْتَذَقُوا الْمَذْقَ فَمَا أَغْنَاهُمُ ... وَالْمَضْغُ إِنْ نَالُوهُ فَهُوَ عُرْسُهُمْ
لَايَعْرِفُونَ الْخُبْزَ إِلَّا بِاسْمِهِ ... وَالتَّمْر هَيْهَاتَ فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ
وَمَا رَأَوا فَاكِهَةً فِى سُوقِهَا ... وَمَا رَأَوهَا وَهْىَ تَنْحُو نَحْوَهُمْ
زُغْرُ الرُّؤُوسِ قَرِعَتْ هَامَاتُهُمْ ... مِنَ الْبَلَا وَاشْتَكَّ مِنْهُم سَمْعُهُمْ
كَأَنَّهُمْ جَنَابَ أَرْضٍ مُجْدِبٌ ... مَحْلٌ فَلَو يُعْطَونَ أَوْجَى سَهْمُهُمْ
بَلْ لَو تَرَاهُمْ لَعَلِمْتَ أَنَّهُمْ ... قَوْمٌ قَلِيل رِيُّهُمْ وَشِبْعُهُمْ
وَجَحْشُهُمْ أَجْرَبُ مَنْقُور الْقَرَى ... وَمِثْل أَعْوَاد الشُّكَاعَى كَلْبُهُمْ [3]
كَأَنَّهُمْ كَانُوا وَإِنْ وَلَّيتُهُمْ ... طُرًّا مَوَالِىَّ وَكُنْتُ عَبْدَهُمْ
مُجْتَهِدًا بِالنُّصْحِ لَا آلُوهُمُ ... أَدْعُو لَهُمْ يَارَبِّ سَلِّمْ أُمَّهُمْ

---

(١) هو أبو فرعون شويس الساسي التيمى العدوى الأعرابى سكن البصرة، وكان أغلب شعره رجزا توفى فى أوائل القرن الثالث الهجرى .
- الورقة / لابن الجراح . تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام ، وعبد الستار أحمد فراج طبعة دار المعارف ط (٢) ص : ٥٦ - ٥٨ .

(٢) طبقات ابن المعتز : ٣٧٧ - ٣٧٨ .

(٣) الشُّكَاعَى : نبات دقيق العيدان ضعيف الورق .

وتدور شكوى هذا الشاعر حول بؤس أولاده ، فهو يصف حالهم فى صور ناطقة لهؤلاء الأولاد الجياع العراة ، والسود ، وقد داهمهم الشتاء القارس ، فلم يجدوا مايقيهم لفح البرد الشديد إلا صدر أبيهم ، وظهره، فالتفوا حوله يلتصقون به التماسا للدفء ، وهم يتضورون جوعا ، ويرتعدون بردا، فيعللهم بطلوع الفجر يقول (١) :

وَصِبْيَةٍ مِثلِ صِغَارِ الذَّرِ ... سُودِ الوُجُوهِ كَسَوَادِ القِدْرِ
جَاءَ الشِّتَاءُ وَهمُ بِشَرِّ ... بِغَيرِ قُمْصٍ وَبِغَيرِ أُزْرِ
تَرَاهُمُ بَعْدَ صَلَاةِ العَصْرِ ... وَبَعْضهم ملتصق بصدرى
وبعضهم ملتصق بظهرى ... وَبَعْضُهُمْ مُنْجَحِر بِحِجْرى
إِذَا بَكَوا عَلَّلْتُهم بِالفَجْرِ ... حَتَّى إِذَا لَاحَ عَمُودُ الفَجْرِ
وَلَاحَتِ الشَّمْسُ خَرَجْتُ أَسْرِى ... عَنْهُم وَحلوا بِأُصُولِ الجَذْرِ
كَأَنَّهُمْ خَنَافِسٌ فِى جُحْرِ ... هَذَا جَمِيعُ قِصَّتِى وَأَمْرِى
فَارْحَم عِيَالِى وَتَوَلَّ أَمْرِى ... فَأَنْتَ أَنْتَ ثِقَتِى وَذُخْرِى
كَنَّيتُ نَفْسِى كُنْيَةً فِى شِعْرِى ... أَنَا أَبُو الفَقْرِ وَأُمّ الفَقْرِ

وقد صور خلوبيته من كل أسباب الرزق أبلغ تصوير فى أسلوب ساخر حينما قال(٢) :

---

(١) المحاسن والمساوى : ٤١٨/٢ .
- طبقات ابن المعتز : ٣٧٦ .
- شعراء بغداد من تأسيسها حتى اليوم / على الخاقانى ، مطبعة أسعد بغداد ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢م : ٤٣١/١ .

(٢) طبقات ابن المعتز : ٣٧٦ .
والمحاسن والمساوى : ٤٥١/١ .

لَيْسَ إغْلاقِى لِبَابِى أنَّ لِى   فِيهِ مَا أخْشَى عَلَيهِ السَّرَقَا
إنَّمَا أُغْلِقُهُ كِى لاَيَرَى   سُوءَ حَالِى مَنْ يَجُوبُ الطُّرُقَا
مَنْزِلٌ أوْطَنَهُ الفَقْرُ فَلَو   دَخَلَ السَّارِقُ فِيهِ سُرِقَا
لاَ تَرَانِى كَاذِبًا فِى وَصْفِهِ   لَوْ تَرَاهُ قُلْتَ لِى قَدْ صَدَقَا

ونجد من الشعراء الفقراء الذين تميز شعرهم الشاكى بالسخرية ، وعدم التفاؤل بالمستقبل فى القرنين الثانى والثالث من يئس تماما من تحسن حاله الذى يعانى منه . ومنهم على سبيل المثال :

عمرو بن الهدير (١) فقد ارتحل فى طلب الرزق ، وسعى فى مناكب الارض علّه يجد قوته لكنه عاد خائبا ، وظل يلاحقه شبح الفقر أينما حل أو ارتحل ، فلقد أطبقت عليه الكوارث من كل جانب ،وحار به الدهر بشروره وبلاياه ، فاستسلم فى النهاية للنتيجة المؤلمة،يقول فى معرض شكواه (٢) :

وَقَفْتُ فَلاَ أدْرِى إلَى أيْنَ أذْهَبُ   وَأىَّ أُمُورِى بِالعَزِيمَةِ أرْكَبُ
عَجِبْتُ لِأقْدَارٍ عَلَىَّ تَتَابَعَتْ   بِنَحْسٍ فَأفْنَى طُولَ عُمْرِى التَّعَجُّبُ
وَلَمَّا التَمَسْتُ الرِّزْقَ فَانْجَدَّ حَبْلُهُ   وَلَمْ يَصْفُ لِى مِنْ بَحْرِهِ العَذْبِ مَشْرَبُ
خَطَبْتُ إلَى الأعْدَامِ إحْدَى بَنَاتِهِ   لِدَفْعِ الغِنَى إيَّاىَ إذْ جِئْتُ أخْطُبُ

---

(١) لم أقف على شئ من أخباره غير هذه القصيدة الشاكية ، ويبدو أنه كان معاصرا لأبى الشمقمق ، وأبى فرعون الساسى .

(٢) العقد الفريد : ٢١٦/٦ .

فَزَوَّجتيها ثُمَّ جاءَ جِهازُها ... وفيه من الحِرْمان تَخْتٌ ومِشْجَبُ (١)

فَأَوْلَدتُها الحَرْفَ النَّقِىَّ فَمالَهُ ... عَلى الأَرْضِ غَيْرِى وَالدُّحَيين يُنْسَبُ

فَلو تِهْتُ فى البَيْداءِ وَاللَّيلُ مُسْبلٌ ... عَلَىَّ جَناحيهِ لَما لاحَ كَوْكَبُ

وَلو خِفْتُ شَرًّا فَاسْتَتَرْتُ بِظُلْمَةٍ ... لَأَقْبَلَ ضَوءُ الشَّمْسِ مِنْ حَيْثُ تَغْرُبُ

وَلو جادَ إِنْسانٌ عَلَىَّ بِدِرْهَمٍ ... لَرُحْتُ إلى رَحْلِى وَفِى الْكَفِّ عَقْرَبُ

وَلو يُمْطِرُ النَّاسُ الدَّنانِيرَ لَمْ يَكُنْ ... بِشَىءٍ سُوَى الحَصْباءِ رَأْسِى يُحْصَبُ

وَلو لَمَسَتْ كَفَّاىَ عِقْداً مُنَظَّما ... مِنَ الدُّرِّ أَضْحَى وَهو وَدْعٌ مُثَقَّبُ (٢)

وَإِنْ يَقْتَرِفْ ذَنْبًا بِبُرْقَةَ مُذْنِبٌ ... فَإِنَّ بِرَأْسِى ذَلِكَ الذَّنْبَ يُعْصَبُ

وَإِنْ أَرَى خَيْرًا فِى المَنامِ فَنازِحٌ ... وَإِنْ أَرَى شَرًّا فَهْوَ مِنِّى مُقَرَّبُ

وَإِنْ أَغْدُ فِى أَمْرٍ أُرِيدُ نَجاحَهُ ... فَقابَلَنِى إِلَّاغُرابٌ وَأَرْنَبُ

أَمامِى مِنَ الحِرْمانِ جَيْشٌ عَرَمْرَمٌ ... وَمِنْهُ وَرائِى جَحْفَلٌ حِينَ أَرْكَبُ

ولم يكن هؤلاء الشعراء الساخرون وحدهم الذين اشتكوا من الفقر ، والحرمان ، فهناك شعراء فقراء عاشوا حياة الفاقة ، وارتكاس القيم الاجتماعية ، فساءت أحوالهم بعد أن ضاقت بهم مصادر الرزق ، وترددوا فى وهدة البطالة ، ويظهر أن الشعراء الكتاب كانوا من أشد الناس فقرا بعد أن تركوا مهنة الكتابة أو أخرجوا من الديوان وعند ذلك رأوا أن من العارعليهم أن يمارسوا حرفة أخرى

---

(١) التَّخْتُ : وعاء تصان فيه الثيات . فارسى ، وقد تكلمت به العرب .
والمِشْجَبُ : خشبات موثقة منصوبة توضع عليها الثياب ، وتنشر .
اللسان : (تخت ، شجب) .

(٢) الوَدْعُ ، والوَدَعُ ، والوَدَعات : مناقيف صغار تخرج من البحر تزين بها العثاكيل وهى خَرَزٌ بِيضٌ جُوفٌ ، فى بطونها شق كشق النواة تتفاوت فى الصغر والكبر . اللسان (ودع) .

يرتزقون منها بعد أن كانوا كتابا حتى لايقل شأنهم فى أعين الناس ، وقد أورد الجاحظ فى رسالته المعروفة (بذم الكتاب) قوله :

(... ثم مع استحواذكم على صناعتكم ، وقلة ملابسة الصناعات لها معكم، لم أر صناعة من الصناعات إلا وقد يجمع أهلها غيرها إليها فيعانونها جميعا ، وينزلون لضرب من التجارات معا إلا صناعتكم هذه فان المتعاطى لها منكم ، والمتسمى بها من نظرائكم لايليق به ملابسة سواها ، ولا ينساغ له التشاغل بغيرها) (1) .

فليس من السهل على هؤلاء الشعراء الكتاب ابتذال ماء الوجه بغية الإيسار ، سواء بمزاولة حرفة أخرى غير الكتابة، أم بسؤال الناس حتى بعد أن تركوا الكتابة. لما فى هذا من العار فى نظرهم وقد وضح هذا الموقف أبو على البصير (ت ٢٥٨ هـ) عندما رام أهله أن يميرهم بماء وجهه، فقال شاكيا ومؤنبا لهم (2) :

قلتُ لِأَهْلِى ورامــوا أَنْ أَميرَهُمُ ... بِمَاءِ وَجْهِى فَلَمْ أفعلْ ولَمْ أَكَدِ
لا تَجْمَعُوا أَنْ تهينُونِى وَأكْرِمَكُمْ ... وَلَا تَمدّوا إِلَى نَيْلِ اللّئامِ يَدِى
تبلغُوا وَادْفَعُوا الحَاجَاتِ مَا اندفعتْ ... وَلا يَكُنْ همكم فِى يَوْمِكُمْ لِغَدِ

---

(1) رسائل الجاحظ : ٢٠١/٢ .

(2) أشعار أبى على البصير / مجلة المورد م ١ ع ٣ - ٤ ، ١٩٧٢ م ص : ٥٧ ، قطعة ١٤ .

وقد نجد الشكوى من الفقر فى شعر الفئة العاطلة من هؤلاء الشعراء الكتاب تتوارى خلف الأنفة الذاتية عند بعضهم ، والتى قصرت بأغلبهم عن اللحاق برفاق عمره الذين حصلوا على أعلى المراتب كما أشار إلى هذا سعيد بن وهب (ت ٢٠٨ هـ) حيث رأى بعض أقرانه الذين نشأوا معه وقد أصبحوا فى أحوال جميلة إذ أتيح لهم المكان الرفيع بينما بقى هو فى حال يائس فأخذ يشكو ويقول (١) :

مَنْ كَانَ فِى الدُّنْيَا لَهُ شَارَه ... فَنَحْنُ مِنْ نَظَّارة الدُّنْيَا
نَرْمُقهَا عَنْ كَثَبٍ حَسْرَةً ... كَأَنَّنَا لَفْظٌ بِلَا مَعْنَى
يَعْلُو بِهَا النَّاسُ وَأَيَّامنَا ... تَذْهَبُ فِى الأَرْذَلِ وَالأَدْنَى

ولقد أشار الحمدونى (ت ٢٧٠ هـ) فى معرض شكواه من الفقر إلى الكتابة وعزا إليها منعه من أن ينال مايريد ، وعندئذ وجدناه يصرح دونما حرج بأن الحرمان نصيب المحترفين للكتابة فيقول (٢) :

ثِنْتَانِ مِنْ أَدَوَاتِ العِلْمِ قَدْ ثَنَتَا ... عنَانَ شَأْوِى عَمَّا رُمْتُ مِنْ هِمَمِى
أَمَّا الدَّوَاة فَأَوْدَى حَمْلُهَا جَسَدِى ... وَقَلَّمَ المَالَ مِنِّى حِرْفَةُ القَلَمِ
وَحَبرتْ لِى صُحُفُ الحَرْفِ مِحْبَرَةً ... تَذُودُ عَنِّى سَوَام المَالِ وَالنِّعَمِ
وَالعِلْمُ يَعْلَمُ أَنِّى حِينَ آخُذهُ ... لِعِصْمَتِى نَافِر خِلْو مِن العِصَمِ

---

(١) الأغانى : ٣٣٧/٢٠ .

(٢) شعراء بصريون من القرن الثالث الهجرى / محمد جبار المعيبد، مطبعة الارشاد - بغداد ١٩٧٧م ص : ١٦٢ - ١٦٣ .

وهؤلاء الشعراء حينما يشكون من الفقر ، فلأنه يضعهم موضع المقصر عن أداء مايجب عليهم من الحقوق كما يصور ذلك سهل بن هارون (ت ٢١٥ هـ) :

وَلَكِنَّمَا أَبْكِي بِعَيْنٍ سَخِينَةٍ ... عَلَى حَدَثٍ تَبْكِي لَهُ عَيْنُ أَمْثَالِي (١)
فِرَاقُ خَلِيلٍ لَا يَقُومُ بِهِ الأَسَى ... وَخَلَّةُ حُرٍّ لَايَقُومُ لَهَا مَالِي
فَوَاحَسْرَتَا حَتَّى مَتَى القَلْبُ مُوجَعٌ ... لِفَقْدِ خَلِيلٍ أَوْ تَعَذُّرِ أَفْضَالِ

ونجد العتابى (ت ٢٠٨ هـ) يشكو من الفقر الذى وقف دون تنفيذ مايريد، فهدم مآثرته ، وعطله عن أداء واجباته يقول (٢) :

إِنِّي امْرُؤٌ هَدَمَ الإِقْتَارُ مَأْثَرَتِي ... وَاجْتَاحَ مَابَنَتِ الأَيَّامُ مِنْ خَطَرِي
أَيَّامُ عَمْرِو بْنِ كُلْثُومٍ يُسَوِّدُهُ ... حَيَّا رَبِيعَةَ وَالأَفْنَاءُ مِنْ مُضَرِ
أُرُومَةٌ عَطَّلَتْنِي عَنْ مَكَارِمِهَا ... كَالقَوْسِ عَطَّلَهَا الرَّامِي مِنَ الوَتَرِ

أما العطوى (ت ٢٥٠ هـ) فإنه من أشد الشعراء الكتاب فى القرن الثالث شكوى من الفقر حيث يبدى تضجره وبؤسه لما حل به من الفقر والاقتار ، مما ينم عن نفس مشحونة بالحرمان ، وشدة اليأس من تحسن حاله ، فيوضح كل ذلك فى صور كئيبة معبرة عن اختلال وضعه ، وهو فى أشد مراحله فقرا مصورا ماحل به من

---

(١) زهر الآداب / للقيروانى ، تحقيق على محمد البجاوى ، طبعة الحلبى ط (٢) : ٥٧٧/١ - ٥٧٨ .

(٢) العتابى حياته وماتبقى من شعره : ٣٥ - ٣٦ قطعة ٤٠ .

العوز ، وقد تعاورته قسوة الاملاق وعنت الطبيعة التى يتعامل معها فى غدوه وممساه . يقول[1] :

مَنْ رَمَاه الإِلَهُ بِالإِقْتَارِ وطِلَابِ الغِنَى مِنَ الأَسْفَارِ
هُوَ فِى حَيْرَةٍ وَضَنْكٍ وَإِفْلَا سٍ وَبُؤْسٍ وَمِحْنَةٍ وصغَارِ
هَجَمَ البَرْدُ مُسْرِعًا وَيَدِى صِفْر وَجِسْمِى عَارٍ بِغَيْرِ دثَارِ
فَتَسَتَّرْتُ مِنْهُ طِيْلَةَ التَّشَارِينِ إِلَى أَنْ تَهَتَّكَتْ أَسْتَارِى[2]
وَنَسَجْتُ الأَطْمَارَ بِالإِبْرَةِ حَتَّى عريتُ مِنْ أَطْمَارِى
وَسَعَى القَمْلُ مِنْ درزِ قَمِيصِى مِن صِغَارٍ مَابَيْنهمْ وَكِبَارِ
يَتَسَاعونَ فِى ثِيَابِى إِلَى رَأْسِى قِطَارًا تَجولُ بَعْد قِطَارِ
لَوْ تَأَمَّلْتَ صُورَتِى وَرجُوعِى حِينَ أُمْسِى إِلَى ربُوعٍ قِفَارِ
أَنَا وَحْدِى فِيهِ وَهَلْ فِيهِ فَضْل لِجلُوسِ الأَنِيسِ وَالزُّوَّارِ

وتختلط فى هذه المقطوعة كما نرى الشكوى من الفقر والزمان معا ، فقد ضجر الشاعر من زمانه الذى رماه بهذه الحالة المتردية ، فخلت يده من كل شىء .

وتطالعنا فى شكوى الفقر عند هؤلاء الشعراء الذين احترفوا مهنة الكتابة نماذج من الشعر يعبرون بها عن مطامحهم ، وقد دفعتهم حياتهم القاسية

---

(١) شعراء بصريون من القرن الثالث الهجرى : ٣٢ - ٣٤ .

(٢) التَّشَارِين : جمع تشرين .

إلى يأس شديد أسلمهم إلى القناعة التامة بأن وضعهم الاجتماعى لن يصبح بأحسن مما هم عليه ، فقد يئسوا من تحسن حالهم كما فى قول أبى العيناء (ت ٢٨٢ هـ) (١) :

الحَمْدُ للّهِ لَيْسَ لِى فَرَسٌ ... وَلَا عَلَى بَابِ مَنْزِلِى حَرَسُ
وَلَا غُلَامٌ إِذَا هَتَفْتُ بِهِ ... بَادَرَ نَحْوِى كَأَنَّهُ قَبَسُ
ابْنِى غُلَامِى وَزَوْجَتِى أَمَتِى ... مُلَّكْنِيهَا المِلَاكُ وَالعُرُسُ
غنيتُ بِاليَأْسِ وَاعْتَصَمْتُ بِهِ ... عَنْ كُلِّ فَرْدٍ بِوَجْهِهِ عَبَسُ
فَمَا يَرَانِى بِبَابِهِ أَبَدًا ... طَلْقُ المُحَيَّا سَمْحٌ وَلَا شَرِسُ

وحينما افترضنا الكتابة سببا من أسباب افتقار هؤلاء الشعراء ، فإن هذا الفرض جاء نتيجة لدراسة حياتهم ، حيث اتضح أنهم جميعا اشتغلوا بالكتابة لبعض الخلفاء ، والقواد . فربطنا ذلك بما قاله الجاحظ عن هؤلاء الشعراء الكتاب ، فاتضح أن الكتابة فعلا كانت سببا من الأسباب التى من أجلها افتقروا.

وأغلب الظن أن هذه الحالة التى وصلوا إليها إنما كانت بعد أن عزلوا عن منصب الكتابة ، فخلت أيديهم من المال ، وأنفوا السؤال ، والاستجداء حفاظا على مكانتهم السابقة فى المجتمع .

إنَّ البحث فى الشكوى من الفقر عند شعراء القرنين الثانى والثالث الهجريين يعكس لنا وضع المجتمع الاقتصادى ، وما آلت إليه حال الناس من البؤس

---

(١) معجم الأدباء : ١٨/٣٠٤ .

والضنك فى بعض الأحيان ، تبعا لقوة الخلافة وضعفها ، وما يصاحب الضعف عادة من تدخل بعض العناصر الأجنبية ذات الأهواء السياسية فى شؤون الحكم ، كما حدث من الأتراك الذين استبدوا ، والذين وصل بهم الأمر فى أحيان عدة إلى قتل الخلفاء ، ومصادرة كثير من الأموال الخاصة والعامة (١) .

ومن خلال دراستنا للشكوى من الفقر عند هؤلاء الشعراء نجدهم قد استغرقوا قسطا كبيرا من أشعارهم فى وصف أحوالهم السيئة ومايعانونه من فقر ، وإملاق ، وتعاسة ، وبؤس ، وما يترتب على ذلك من الحرمان الدائم ، والعجز عن توفير بلغ العيش لهم ولأولادهم ، عند ذلك أخذوا يسخرون فى شكواهم من وضعهم المؤلم حتى غدت السخرية من خصائص الشعر الشاكى عندهم لا يتورعون أن يجعلوا من أنفسهم وأولادهم مثار ضحك وتندر ، الأمر الذى لم نألفه عند شعراء العصر الجاهلى الذين اشتكوا من الفقر .

ولقد كان من أشهر ماوصفوه من جوانب فقرهم ، وأحوالهم السيئة عرى أبنائهم وجوعهم ، واصفرار ألوانهم ، وهزال أبدانهم ، ولم يكن الآباء أحسن حالا من هؤلاء الأبناء ، فقد سحقهم الفقر فعصرهم الجوع عصرا ، ولفحهم البرد لفحا ، وأحرقتهم الشمس ، وانتشرت فى أجسامهم ، ورؤوسهم الدواب كالقمل ، ولم تكن بيوتهم تحوى قليلا ولا كثيرا من متع الحياة ، بل إن بعضهم يرى بيته العراء ليس له سواه ، واشتكوا من سوء حظهم وما لازمهم من التشاؤم ، وعودتهم خائبين من أية جهة يولونها فاذا هم ضائعون ، وإذا حظهم لم يكن بأحسن من ذى قبل .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢٢٧/٩ ، ٣٦٢ - ٣٦٣ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

ولقد كان للاختلال الاقتصادى ، والتناقض الاجتماعى ، وما صاحب ذلك فى القرنين الثانى والثالث الهجرى من الفتن ، والثورات أثر لانتشار الفقر وتردى وضع الناس فى المجتمع . إضافة إلى ماشاع عن بعض الخلفاء من المجون مما يؤدى الى تردى الوضع السياسى ، وسيطرة مجموعة من أصحاب المنفعة الخاصة على الأمور ، فينعكس هذا على الوضع الاجتماعى ، والسياسى ، وهذا يقود إلى انتشار البطالة فى المجتمع ، وانتشار الفقر ، وتعدد الطبقات .

ورغم هذا كله فان العصر العباسى وبخاصة فى عهده الأول كان من أزهى العصور التاريخية استقرارا فى جميع شؤون الحياة ، وإن حدثت بعض الثغرات فإنما هى أمور قد تحدث فى أى عصر وفى أى مكان .

وإننا إذ نأتى إلى نهاية هذا المبحث فى شعر الشكوى من الفقر فى هذه الفترة ، فلا يعنى أننا استوفينا كل ماله علاقة بالشكوى من الفقر وسوء الحال ، وحسبنا أننا حاولنا الاتيان على الجديد تاركين الكثير من النصوص لتشابهها فى المعنى مع ماعرضناه من وجوه الشكوى سابقا ، ومن هنا كان لابد من انتقاء بعض النصوص التى توضح مانحن بصدده ، ولذلك جاءت دراستنا للشكوى عند الشعراء الساخرين وغيرهم من الشعراء الكتاب ممن عرضنا لهم ، وكذلك أولئك الشعراء الذين كانت لهم شكوى من الفقر لأسباب سياسية ودينية كما مر معنا فى هذا المبحث .

الباب الثالث

الشكوى السياسية

ويشتمل على الفصول التالية :

الفصل الأول : ملامح الشكوى السياسية فى العصر الجاهلى .

الفصل الثانى : الشكوى السياسية فى عصر صدر الإسلام .

الفصل الثالث : الشكوى السياسية فى ظل سياسة بنى أمية

الفصل الرابع : هموم الشعراء من خلال الاتجاهات السياسية والمذهبية فى العصر العباسى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى .

الفصل الأول

ملامح الشكوى السياسية في العصر الجاهلي

إذا كانت الحالة السياسية لأى شعب من الشعوب إنما تبنى على العلاقات بين الأمم فى إطار المصالح المشتركة التى ترعاها الحكومات ، ومصادر السلطة التى تملك حق القرار المطلق فى تنظيم هذه العلاقات من سلم أو حرب ، فإن العرب فى جاهليتهم كانوا من أبعد الأمم عن السياسة ، وفنونها ، إذ لم يكن لهم حكومة عليا تنظم شؤونهم ، وتلم شتاتهم فى صحرائهم الشاسعة ، وتؤلف منهم دولة واحدة وإن حدثت بعض التجمعات أو الأنظمة البدائية ، فإنما هى أحلاف قبلية تفرضها مصلحة القبيلة أو الفرد فى إطار ضيق لايمكن للباحث المنصف أن يطلق عليها مسمى التنظيم السياسى ، إذ أن هذه الأحلاف لا تعدو كونها اتفاقات بين شخص ، وقبيلة ، أو بين قبيلة وأخرى ، أو حتى بين أفراد القبيلة الواحدة أنفسهم ، ولكن هذه الأحلاف لم تكن تأخذ صفة القرار الصادر من سلطات عليا تنفيذية ، وإنما مرد ذلك إلى الأعراف القبلية السائدة آنذاك(١) .

وغاية ماهنالك أن القبيلة فى العصر الجاهلى هى صاحبة الشأن ، وهى الحكم ، والفيصل فى كل شؤون الحياة ، إذا استثنينا تلك الامارات التى استطاع العرب تكوينها فى فترات من حياتهم فى أطراف الجزيرة العربية كالمناذرة ،

---

(١) المنمق فى أخبار قريش / لابن حبيب البغدادى ، تصحيح خورشيد أحمد فاروق عالم الكتب ط (١) ١٤٠٥ هـ ص : ٢٦ ، ٨٩ ، ٥٢ ، ١٨٩ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

وتاريخ الطبرى : ٦١٠/١ - ٦١١ .

والأغانى : ٢٠٩/١٣ .

والشعر وأيام العرب : ٥١ - ٥٢ .

والغساسنة ، وكندة[1]، حيث تسمى زعماء هذه الامارات بالملوك ، وقد نلحق بهذه الامارات ماحدث فى اليمن من قيام بعض الممالك التى اقتصر حكم ملوكها كل على عشيرته الدنيا لايتعداها إلى غيرها ، إذ لم تكن هناك دولة بالمفهوم الحقيقى لهذا المصطلح .

وقد ذكر الطبرى هؤلاء الملوك وتحدث عن ضعف سلطتهم فقال[2] : (أنه لم يكن لملكهم نظام ، وأن الرئيس منهم إنما كان ملكا على مخلافه ، ومحجره، لايجاوز ذلك، فإن نزع منهم نازع ، أو نبغ منهم نابغ، فتجاوز ذلك ، وإن بعدت مسافة سيره من مخلافه ، فإنما ذلك عن غير ملك له موطد ، ولا لآبائه ، ولا لأبنائه ، ولكن ، كالذى يكون من بعض من يشرد من المتلصصة ، فيغير على الناحية باستغفاله أهلها ، فإذا قصده الطلب لم يكن له ثبات فكذلك كان أمر ملوك اليمن كان الواحد منهم بعد الواحد يخرج عن مخلافه ، ومحجره أحيانا فيصيب مما يمر به ثم يتشمر عند خوف الطلب راجعا إلى موضعه ومخلافه من غير أن يدين له أحد من أهل مخلافه[3] بالطاعة أو يؤدى إليه خرجا) .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦٠٩/١ ومابعدها .
ومروج الذهب : ١٠٦/٢ - ١١٠ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٦٢٧/١ .

(٣) مخلاف البلد : سلطانه ، والمخلاف الكورة يقدم عليها الانسان ، وهى عند أهل اليمن واحد المخاليف ، وهى كورها ، ولكل مخلاف منها اسم يعرف به ، وهى كالرستاق ، والمخاليف لأهل اليمن كالأجناد لأهل الشام ، والكور لأهل العراق ، والرساتيق لأهل الجبال ، والطساسيج لأهل الأهواز . اللسان (خلف) .

وكذلك مكة ، والمدينة ، إذا تجاوزنا ، وقلنا إنه كان لسكانها شبه نظام سياسى نظرا لسيادة مكة على الكعبة ، وسقاية الحاج ، كما أن الأوس والخزرج فى المدينة كانوا يجاورون اليهود ، ويحاولون إقامة علاقات أحلاف معهم .

باستثناء ماتقدم تبين لنا أن العرب فى جاهليتهم لم تكن لهم دولة منظمة ، ولم يكن فى مقدور هذه الدولة أن تنشأ ، لأن القبائل العربية ذات عصبية لايمكن اخضاعها لسلطان معين ، علاوة على عدم استقرار كثير منهم لتميز قبائلهم فى الغالب بصفة الظعن ، والرحلة المستمرة ، سعيا وراء الماء والكلأ .

ويبدو أن أغلب الباحثين الذين درسوا النواحى السياسية للعرب فى العصر الجاهلى ، قد تجاوزوا كثيرا فى اطلاق هذا المسمى على بعض النظم القبلية فى ذلك العصر ، وحاولوا اضفاء الصبغة السياسية على نظام القبيلة أو بعض الأحلاف الأخرى السائدة حينذاك ، مع أن السياسة بالمفهوم الحقيقى المرتبط بالدولة لم يعرفه العرب فى جاهليتهم ، إذ أنهم أصلا لم يعرفوا الدولة ولا نظام الحكم . وقد عقد ابن خلدون فصلا فى مقدمته بين فيه أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك فقال :

(والسبب فى ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الأمم ، وأبعد مجالا فى القفر ، وأغنى عن حاجات التلول ، وحبوبها لاعتيادهم الشظف ، وخشونة العيش ، فاستغنوا عن غيرهم ، فصعب انقياد بعضهم لبعض لإيلافهم ذلك ، وللتوحش ، ورئيسهم محتاج إليهم غالبا للعصبية التى بها المدافعة ، فكان مضطرا إلى إحسان ملكتهم ،

وترك مراغمتهم، لئلا يختل عليه شأن عصبيته، فيكون فيها هلاكه ، وهلاكهم[1]) .

ورغم هذا فإنه يمكن للباحث أن يلمس بعض الملامح السياسية البسيطة التى يتبينها من نصوص الشعر العربى ، وتؤيدها الحوادث التاريخية . ولعل من ذلك ماكان من أمر جذيمة الأبرش وابن اخته عمرو بن عدى مع الزباء ، وأبيها عمرو بن الظرب حيث لعبت السياسة دورا فى القضاء على جذيمة بعد أن قتل عمرو ابن الظرب ، وطوح بملكه فى مشارف بلاد الشام فآل الملك إلى ابنته الزباء التى استطاعت أن تدبر مكيدة تم من خلالها قتل جذيمة ثم شربت بنفس الكأس فكانت نهايتها على يد عمرو بن عدى بتدبير، وتخطيط من قصير بن سعد بن عمرو[2].

وقد صور عدى بن زيد العبادى هذا الصراع الذى قام بين هذين النظامين السياسيين فقال[3] :

أَلاَ أَيُّهَا المُثْرِى المُرَجَّى ... أَلَمْ تَسْمَعْ بِخَطْبِ الأَوَّلِينَا
دَعَا بِالبَقَّةِ[4] الأُمَرَاءَ يَوْمًا ... جَذِيمَةُ عَصْرَ يَنْجُوهُمْ ثُبِينَا
فَلَمْ يَرَ غَيْرَ مَا ائْتَمَرُوا سَوَاهُ ... وَشَدَّ لِرَحْلِهِ السَّفَرَ الوَضِينَا
فَطَاوَعَ أَمْرَهُمْ وَعَصَى قَصِيرًا ... وَكَانَ يَقُولُ لَوْ تَبِعَ اليَقِينَا

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ٥١٦/٢ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٦١٧/١ - ٦٢٦ .
والكامل فى التاريخ : ٢٦٢/١ .

(٣) ديوان عدى بن زيد العبادى : ١٨١ - ١٨٤ .

(٤) بَقَّةُ : بالفتح وتشديد القاف اسم موضع قريب من الحيرة ، وقيل حصن كان على فرسخين من هيت كان ينزله جذيمة الأبرش ملك الحيرة .
معجم البلدان (بقة) .

لِخِطْبَتِهِ الَّتِى غَدَرَتْ وَخَانَتْ — وَهُنَّ ذَوَاتُ غَائِلَةٍ لُحِينَا
وَدَسَّتْ فِى صَحِيفَتِهَا إِلَيْهِ — لِيَمْلِكَ بُضْعَهَا وَلأَنْ تَدِينَا
فَأَرْدَتْهُ وَرَغْبُ النَّفْسِ يُرْدِى — وَيُبْدِى لِلْفَتَى الحَيْنَ المُبِينَا
أَطَفَّ لأَنْفِهِ المُوسَى قَصِيرٌ — لِيَجْدَعَهُ ، وَكَانَ بِهِ ضَنِينَا
أَتَتْهَا العِيسُ تَحْمِلُ مَادَهَاهَا — وَقَنَّعَ فِى المُسُوحِ الدَّارِعِيْنَا
وَدَسَّ لَهَا عَلَى الأَنْقَاءِ (١) عَمْرًا — بِشِكَّتِهِ وَمَا خَشِيَتْ كَمِيْنَا
فَجَلَّلَهَا قَدِيمَ الأَثْرِ عَضْبًا (٢) — يَصِلُّ بِهِ الحَوَاجِبَ وَالجَبِيْنَا
فَأَضْحَتْ مِنْ خَزَائِنِهَا كَأَنْ لَمْ — تَكُنْ زَبَّاءُ حَامِلَةً جَنِيْنَا

فهذه القصيدة تصور خيوط ذلك الصراع السياسى ، كما تبين الخطط التى اتخذت للقضاء على الخصوم من الطرفين . أوردناها كوثيقة تاريخية على قيام بعض الأنظمة السياسية عند الجاهليين فى تلك الأماكن التى استطاع المناذرة والغساسنة تكوين شبه ممالك لهم فيها .

وتظهر هذه الملامح السياسية واضحة عندما كان يصطدم العرب بغيرهم من الأجناس الأخرى كما حدث لهم مع اليهود فى المدينة ، وكذلك الأحباش عندما هموا بغزو مكة ، وهدم الكعبة (٣) ، والفرس فى معركة ذى قار (٤)، حيث ظهر شبه اتحاد عربى ان لم يكن حقيقيا فهو معنوى .

---

(١) الأَنْقَاءُ : جمع نقا ، الكثيب من الرمل ، وهو مايريده الشاعر هنا . اللسان : (نقا) .
(٢) العَضْبُ : السيف القاطع .
(٣) تاريخ الطبرى : ١٥٤/٢ والكامل فى التاريخ : ٣٤٢/١ .
(٤) تاريخ الطبرى : ١٩٣/٢ والكامل فى التاريخ : ٣٧٤/١ .

ولنأخذ حادثة أصحاب الفيل مثلا ، فعندما هم أبرهة بهدم الكعبة ، وسمعت العرب بذلك شق عليهم هذا الأمر ، ورأوا جهاده واجبا لما للكعبة في نفوسهم من التبجيل (١) .

وأول ما يصادفنا من الشكوى السياسية المرتبطة بهذه الحادثة التي كان العرب فيها طرفا في مقابلة جيش صليبي مارواه ابن حبيب من أن أبرهة ذكر أنه متى هدم الكعبة ، وقضى قضاءه من تهامه ، سار إلى أهل نجد ، وأغار عليهم، وقد صادف قوله هذا طرفة بن العبد وكان بنجران ، فأقلقه ذلك ، فقال أبياتا شاكية بعث بها الى قتادة بن مسلمة الحنفي(٢) :

أَلا أَبْلِغَا قَتَادَةَ الخَيرِ آيَةً ... فإِنَّ الحَذر لَابدّ مِنهُ مُنجِيكَا

بِنَجْرَان مَاقَضَّى المُلُوكُ قَضَاءُهُم ... فَلَيْتَ غُرَابًا فِي السَّمَاءِ يُنَادِيكَا

فَرِيقَانِ آتٍ كَعْبَةَ اللّهِ مِنهُمُ ... وَآخَرإِنْ لَمْ تَقْطَع البَحْرَ آتِيكَا

وكان أبرهة قد أخذ كلثوم بن عميس من بني عامر بن عبد مناة بن كنانة وسجنه (٣) ، فقال وهو في سجنه يشكو فداحة الخطب ، وعدم تمكنه من ابلاغ

---

(١) الكامل في التاريخ : ٣٤٢/١ .

(٢) ديوان طرفة بن العبد : ١٨٢ مع اختلاف في الأبيات . والمنمق : ٧٠ - ٧١ .

(٣) كان أبرهة قد أخذ كل زعماء القبائل الذين اعترضوه في طريقه الى مكة ، حيث رأوا في عمله امتهانا للعرب ، وللكعبة ، وكان من هؤلاء الزعماء كلثوم بن عميس ، وذو نفر من أشراف اليمن ، ونفيل بن حبيب الخثعمي ، وغيرهم كما هو مذكور .

المنمق : ٧١ وتاريخ الطبري : ١٣٢/٢ والكامل في التاريخ : ٣٤٢/١ - ٣٤٥ .

قريش أمر أبرهة ، وعزمه على المسير إلى مكة (١) .

أَلَا لَيْتَ أَنَّ اللَّهَ أَسْمَعَ دَعْوَةً ... وَأَرْسَلَ بَيْنَ الأَخْشَبَيْنِ مُنَادِيَا
أَتَتْكُمْ جُمُوعُ الأَشْرَمِ الفِيلِ فِيهِمُ ... وَسُودُ رِجَالٍ يَرْكَبُونَ السَّعَالِيَا (٢)
وَرَجْلٌ جِسَامٌ لَايُكَتُّ عَدِيدُهُمْ ... يَهُزُّونَ وَالَّلاتِ الحِرَابَ الصَّوَادِيَا (٣)
أَتَوكُمْ أَتَوكُم تَبْشَعُ الأَرْضُ مِنهُمُ ... كَمَا سَالَ شُؤْبُوبٌ فَأَبْشَعَ وَادِيَا (٤)

وإذا أردنا أن نستجلى هذه الملامح السياسية ، فإنها تبدو فى الشعر العربى الذى قيل فى يوم ذى قار ، وما تلاه من حوادث واضحة ، حيث التقى العرب لأول مرة فى معركة حامية مع الجيش الفارسى المنظم ، وكانت التوقعات أن ينهزم العرب ويتفرقوا فى الصحراء بين قتيل ، وجريح ، وهارب ، لكنهم خرجوا منتصرين لأول مرة على العجم رغم كثرتهم عددا ، وعدة . وقد صور لنا الشعر الذى قيل فى هذا اليوم وضع العرب ، واجتماع كلمتهم ، ضد عدوهم المشترك ، فكان هذا الموقف جديرا بأن يسجل لهم على أنه اتجاه سياسى فرضته عليهم الظروف الحرجة التى وقعوا فيها .

---

(١) المنمق : ٧١ .

(٢) السَّعَالِى : بفتح السين واللام ، جمع السعلاء ، أو السعلاة ،وهى الغول .

(٣) لَايُكَتُّ : أى لايحصى ، والصَّوَادِى : العطاش ،والرَّجْلُ : جمع راجل .

(٤) تَبْشَعُ الأَرْضُ مِنْهُمُ : تضايقت منهم ، وغصت بهم ، وتبشع من باب سمع .

وكان لقيط بن يعمر الايادى(١) من أبرز دعاة الوحدة العربية آنذاك ، وقد آلمه أمر الفرس ،واستعدادهم للقضاء على العرب ، فأرسل إلى قومه إياد يخبرهم بأمر هذا الجيش الكثيف المجهز بزعامة (كسرى) كما ساءه تفرق قومه ، فأخذ يستحثهم ويدعوهم إلى الوحدة وعدم التفرق ، ويخبرهم بمسير هذا الجيش ، وعدده ، وأنه سيبيد العرب جميعهم إن هم تخاذلوا يقول (٢) :

سَلَامٌ فِى الصَّحِيفَةِ مِنْ لَقِيطٍ ... إِلَى مَنْ بِالْجَزِيرَةِ مِنْ إِيَادِ
بِأَنَّ اللَّيْثَ كِسرَى قَدْ أَتَاكُمْ ... فَلَا يَشْغَلْكُمُ سَوْقُ النِّقَادِ (٣)
أَتَاكُمْ مِنْهُمُ سِتُّونَ أَلْفاً ... يَزُجُّونَ الكَتَائِبَ كَالْجَرَادِ
عَلَى حَنَقٍ أَتَيْنَاكُمْ فَهَذَا ... أَوَانُ هَلَاكِكُمْ كَهَلَاكِ عَادِ

وكما تذكر المصادر ، فإن هذا الشاعر كان أثيرا عند (كسرى) ولكنه قد حس بالخطر الذى يهدد أبناء جنسه وقومه ، فتحرك فيه داعى الانتماء مضحيا بمكانته ، لاخبار العرب بهذا الخطر(٤) .

(١) هو لقيط بن يعمر وقيل بن معبد بن خارجه الايادى ، شاعر جاهلى فحل من أهل الحيرة كان يحسن الفارسية ، وكان من كتاب (كسرى سابور ذى الاكتاف) والمطلعين على أسرار دولته . له ديوان مطبوع . يشتمل على هذه القصيدة ، وأربعة أبيات أخرى على قافية الدال .
- الأغانى : ٢٣/٢٠ ، ومختارات ابن الشجرى : ٢ ، والاعلام : ٢٤٤/٥ .

(٢) ديوان لقيط بن يعمر / تحقيق الدكتور عبد المعيد خان ،مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م ص : ٣٥ - ٣٦ .

(٣) النِّقَدَةُ : الصغيرة من الغنم يستوى فيه الذكر والأنثى على السواء .
والجمع : نقد ونقاد ونقادة .
اللسان (نقد) .

(٤) مختارات شعراء العرب / لابن الشجرى : ٢ .

وقد تحركت قبائل بكر بن وائل ، وبنو عجل ، وبنو يشكر ، وبنو شيبان ، (١) فاتحدت ، ووقفت فى وجه (كسرى) وجيوشه ، وألحقت به ومن والاه من العرب هزيمة مؤثرة كان لها مابعدها فى تاريخ العرب فى العصر الجاهلى .

وكانت قبيلة إياد فى جانب (كسرى) وجيشه ، ويبدو أن قصيدة لقيط قد أذكت فيهم الروح العربية ، أو لعلهم من تلقاء أنفسهم أخذوا جانب العرب ، فمالوا إلى أبناء عمومتهم ، حيث عقد بينهم ، وبين بكر وحلفائها اتفاق سرى، تبقى فيه إياد على ولائها للفرس ثم تفر ، وتنهزم عند التقاء المتحاربين ، والتحام العرب بالعجم ، فكان لهذه الخطة دور كبير فى شل حركة الجيش الفارسى، وإرباكه (٢) .

وتعد قصيدة لقيط " العينية " خير مثال للدعوة السياسية التى تؤكد على ضرورة تجمع العرب تحت قيادة واحدة ذات حزم ، وحكمه بدلا من التفرق والضعف ، وهذه القصيدة كما يرى محقق الديوان تتفق مع الأوضاع التى كانت سائدة قبل المعركة (٣) من تفكك العرب ، وخوفهم الشديد من عدوهم ، لكنهم فى آخر الأمر اتفقوا على القتال ، والثبات مهما كان الثمن .

---

(١) ديوانه : ١٩ .

(٢) أيام العرب فى الجاهلية / جمع محمد أبو الفضل ابراهيم وآخرين طبعة الحلبى ط (٢) ص : ٦ - ٣٩ .

(٣) مقدمة ديوانه : ٢٠ .

ومن الوهلة الأولى يظهر أن الشاعر قد وجه قصيدته إلى قبائل إياد التى كانت تقطن الجزيرة حيث وقعت معركة ذى قار ، وقد بين استعداد جيش الفرس ، برسم صورة واضحة لعدده ، وعدته ، وأنهم جعلوا هدفهم القضاء على العرب ، وإنهاء وجودهم . بينما يبكى تفرق قومه ، وتشاغلهم بأمور الحرث ، ورعى الإبل ، ليس لهم رأى ، ولا كلمة . فكأنهم نيام لايهمهم أمر بل هم غارقون فى أمورهم البسيطة . وهو يحرضهم على القتال ، وأن يشفوا غليله من عدوه ، وعدوهم جميعا ، ويحثهم على صيانة جيادهم ، وتدريبها على القتال ، وإعداد أسلحتهم ، وتثقيفها ، ثم يركز على أن خوفه الشديد يكمن فى مايعرفه من نوايا الفرس الذين يريدون اجتثاث العرب من أصلهم . يقول (١) :

بَلْ أَيُّهَا الرَّاكِبُ المُزْجِى عَلَى عَجَلٍ نَحْوَ الجَزِيرَةِ مُرْتَادًا وَمُنْتَجِعَا
أَبْلِغْ إِيَادًا وَخَلِّلْ فِى سَرَاتِهِمُ إِنِّى أَرَى الرَّأىَ إِنْ لَم أُعْصَ قَدْ نَصَعَا
يَالَهْفَ نَفْسِىَ إِنْ كَانَتْ أُمُورُكُمُ شَتَّى وَأُحْكِمَ أَمْرُ النَّاسِ فَاجْتَمَعَا
أَلَا تَخَافُونَ قَوْمًا لَا أَبَا لَكُمُ أَمْسَوا إِلَيْكُمْ كَأَمْثَالِ الدَّبَا سُرُعَا (٢)
أَبْنَاءُ قَوْمٍ تَأَوَّوكُمْ عَلَى حَنَقٍ لَايَشْعُرُونَ أَضَرَّ اللهُ أَمْ نَفَعَا (٣)
أَحْرَارُ فَارِسَ أَبْنَاءُ المُلُوكِ لَهُمْ مِنَ الجُمُوعِ جُمُوعٌ تَزْدَهِى القَلَعَا (٤)

---

(١) ديوان : ٣٨ – ٤٢ .

(٢) الدَّبَا : صغار الجراد ، والواحدة دباة شبههم بها فى سرعتهم .

(٣) تأووكم : من أويت الى الرجل أى آووا اليكم . على حنق : على غيظ وغضب .

(٤) تَزْدَهِى : تستخف . والقَلَعُ : الصخور العظام ، وقيل السحاب .

فَهُمْ سراع إِلَيْكُمْ بَيْنَ مُلْتَقِطٍ ... شَوْكًا وَآخر يَجْنِى الصَّابَ وَالسَّلعَا (١)
لَوْ أَنَّ جَمْعَهُمُ رَامُوا بِهَدَّتِهِ ... شُمَّ الشَّمَارِيخِ مِنْ ثَهْلَانَ لانْصَدَعَا
فِى كُلِّ يَوْمٍ يَسُنُّونَ الحِرَابَ لَكُمْ ... لَا يَهْجَعُونَ إِذَا مَا غَافِلٌ هَجَعَا (٢)
لَا الحَرْثُ يَشْغَلُهُمْ بَلْ لَا يَرَونَ لَهُمْ ... مِنْ دُونِ بَيْضَتِكُمْ رِيًا وَلَا شِبَعَا (٣)
وَأَنْتُمُ تَحْرُثُونَ الأَرْضَ عَنْ سَفَهٍ ... فِى كُلِّ مُعْتَمَلٍ تَبْغُونَ مُزْدَرَعَا (٤)
وَتُلْقِحُونَ حِيَالَ الشَّوْلِ آونَةً ... وَتُنْتِجُونَ بِدَارِ القُلْعَةِ الرُّبَعَا (٥)
أَنْتُمْ فَرِيقَانِ هَذَا لَا يَقُومُ لَهُ ... هَصْرُ اللُّيُوثِ وَهَذَا هَالِكٌ صَقَعَا (٦)
وَقَدْ أَظَلَّكُمُ مِنْ شَطْرِ ثَغْرِكُمُ ... هَوْلٌ لَهُ ظُلَمٌ تَغْشَاكُمُ قِطَعَا
مَالِى أَرَاكُمْ نِيَامًا فِى بُلَهْنِيَةٍ ... وَقَدْ تَرَونَ شِهَابَ الْحَرْبِ قَدْ سَطَعَا (٧)
فَاشْفُوا غَلِيلِى بِرَأْىٍ مِنْكُمُ حَسَنٍ ... يُضْحِى فُؤَادِى لَهُ رَيَّانَ قَدْ نَقَعَا
وَلَا تَكُونُوا كَمَنْ قَدْ بَاتَ مُكْتَنِعًا ... إِذَا يُقَالُ لَهُ افْرُجْ غُمَّةً كَنَعَا (٨)

---

(١) شَوْكًا : يريد سلاحا حديدا . والصَّابُ : لبن العشر وهو سم . والسَّلَعُ : نبت بالحجاز خبيث الطعم لايرعى . وَيَجْتَنِى الصَّابَ : يعد لكم الشر فضر به مثلا لشدة آثرهم .

(٢) يَسُنُّونَ : يحددون ، الحِرَابَ : جمع حربة ، لَا يَهْجَعُونَ : أى لا ينامون .

(٣) الحَرْثُ : الازدراع ، بَيْضَتُكُمْ : أى أصلكم .

(٤) عَنْ سَفَهٍ : أى عن غفلة منكم عن أمرهم .

(٥) الشَّوْلُ : اناث الابل . قد شولت البانها . أى جفت وذهبت ، وحيالها : ما مال منها فلم تحمل .

(٦) صَقَعًا : أى فزعا وذهاب عقل ، وهو مأخوذ من الصعق الذى تصيبه الصاعقة فتذهب بعقله .

(٧) بُلَهْنِيَةٌ : رخاء ورفاهية ، وغفلة فى العيش .

(٨) مُكْتَنِعٌ : أى مختشع ذليل ، وكنع خشع وانقبض .

صُونُوا جِيَادَكُمُ ، وَاجْلُوا سُيُوفَكُمُ ... وَجَدِّدُوا لِلْقِسِيِّ النَّبْلَ وَالشِّرَعَا (١)
وَاشْرُوا تِلَادَكُمُ فِى حِرْزِ أَنْفُسِكُمْ ... وَحِرْزِ نِسْوَتِكُمْ لَا تَهْلِكُوا هَلَعَا
وَلَا يَدَعْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا لِنَائِبَةٍ ... كَمَا تَرَكْتُمْ بِأَعْلَى بِيشَةَ النَّخَعَا
أَذْكُوا الْعُيُونَ وَرَاءَ السَّرْجِ وَاحْتَرِسُوا ... حَتَّى تُرَى الْخَيْلُ مِنْ تَعْدَائِهَا رُجُعَا
فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ دُنْيَا وَلَا طَمَعٌ ... لَنْ تَنْعَشُوا بِزِمَاعٍ ذَلِكَ الطَّمَعَا
يَاقَوْمِ بَيْضَتُكُمْ لَا تُفْجَعُنَّ بِهَا ... إِنِّى أَخَافُ عَلَيْهَا الْأَزْلَمَ الْجَذَعَا (٢)
يَاقَوْمِ لَاتَأْمَنُوا إِنْ كُنْتُمُ غُيُرًا ... عَلَى نِسَائِكُمُ كِسْرَى وَمَا جَمَعَا
هُوَ الْجَلَاءُ الَّذِى يَجْتَثُّ أَصْلَكُمُ ... فَمَنْ رَأَى مِثْلَ ذَا رَأْيًا وَمَنْ سَمِعَا

ثم يرسم لهم فى مقطع آخر من هذه القصيدة صور القائد الفذ الذى ينبغى أن يقلدوه أمرهم فيقول (٣) :

فَقَلِّدُوا أَمْرَكُمْ لِلَّهِ دَرُّكُمُ ... رَحْبَ الذِّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلِعَا
لَا مُشْرِفًا إِنْ رَخَاءُ الْعَيْشِ سَاعَدَهُ ... وَلَا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَعَا
مُسَهَّدَ النَّوْمِ تَعْنِيهِ ثُغُورُكُمُ ... يَرُومُ مِنْهَا إِلَى الْأَعْدَاءِ مُطَّلَعَا
مَا انْفَكَّ يَحْلُبُ دَرَّ الدَّهْرِ أَشْطُرَهُ ... يَكُونُ مُتَّبِعًا طَوْرًا وَمُتَّبَعَا
وَلَيْسَ يَشْغَلُهُ مَالٌ يُثَمِّرُهُ ... عَنْكُمْ وَلَا وَلَدٌ يَبْغِى لَهُ الرِّفَعَا

---

(١) الشِّرَعَا : الأوتار الدقاق والواحدة شرعة .
(٢) بَيْضَتُكُمْ : أى أصلكم . الأَزْلَمُ الجَذَعُ : الدهر لانه لايهرم أبدا فهو جذع .
(٣) ديوانه : ٤٧ – ٥١ .

حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَزْرٍ مَرِيرَتُـــهُ مُسْتَحْكِمَ السِّنِ لَا قَحِماً وَلَا ضَرَعَا (١)

هَذَا كِتَابِى إِلَيْكُمْ وَالنَّذِيرُ لَكُمْ لِمَنْ رَأَى رَأْيَهُ مِنْكُمْ وَمَنْ سَمِعَا

وباستعراضنا لهذه القصيدة نجد الشاعر وقد أحس بالخطر الذى ينذر باستئصال شأفة العرب من قبل العجم ، يتألم أشد الألم ، ويشكو من تفرق قومه ، وتشتت أمورهم ، واختلاف آرائهم فى حين أحكم أمر الناس من حولهم ، ويحذرهم كذلك من النية السيئة التى بيتها لهم العجم ، مصورا جمعهم المخيف الذى يتأهب للقتال . ويرسم لقومه خطة حربية تتلخص فى نبذ الخلافات والاستعداد للحرب بالتأهب الكامل مبينا لهم شخصية القائد الذى ينبغى أن يقلدوه أمرهم ، ويسلموا له أمر القيادة .

ويبدو أن الشاعر قد تأثر بالنواحى التنظيمية التى رآها عند العجم ، فيما يتعلق بتنظيم الجيش ، وتوحيد قيادته ، واختيار الكفء بغض النظر عن مكانته وعمره ، ومن هنا يمكننا أن نلمس الملامح السياسية ، واضحة بجلاء فى هذه القصيدة التى تحدد موقف الشاعر السياسى ، وانتمائه العربى .

---

(١) القَحْمُ : الكبير المسن ، وقيل القحم : فوق المسن ، والأنثى : قحمة ، والقَحْمَةُ : المسنة من الغنم وغيرها .

وقيل القحم : الكبير من الابل ولو شبه به الرجل كان جائزا .

والضَّرَعُ ، بالتحريك ، والضارع : الصغير من كل شئ ، وقيل : الصغير السن الضعيف الضاوى النحيف .

اللسان : (قحم ، ضرع) .

وفى نفس الحدث نجد قيس بن مسعود الشيبانى[١]، الأثير عند (كسرى) يزج به فى السجن ، حينما تبين ميله إلى جانب قومه العرب خصوصا ، وأنه زعيم بنى شيبان ، فأخذ قيس يبث شكواه من سجنه فى قصيدة دعا فيها قومه إلى الاتحاد، والتناصر ، والاعتصام بالصحراء ليستدرجوا عدوهم إليها بعيدا عن موارد المياه والامداد قائلا [٢] :

أَلاَ لَيْتَنِى أَرْشُو سِلَاحِى وَبَغْلَتِى ... فَيخْبَرَ قَومِى اليَوم مَا أَنَا قَائِلُ[٣]
فَأُوصِيهمو اللَّهَ وَالصُّلْحَ بَيْنَهُمْ ... لِيَنْطَاءَ مَعْرُوفٌ وَيُزْجَرَ جَاهِلُ[٤]
وصَاةَ امْرِئٍ لَوْ كَانَ فِيكُمْ أَعَانَكُم ... عَلَى الدَّهْرِ وَالأَيَّام فِيهَا الغَوَائِلُ
فَإِنَّا ثَوَيْنَا فِى شعُوبٍ وَإِنَّهُمْ ... غَزَتْهُمْ جُنُودٌ جَمَّةٌ وَقَبَائِلُ
وَإِنَّ جُنُودَ العُجْمُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ... فَمَا فَلَجِى يَاقَوم إِنْ لَمْ تُقَاتِلُوا[٥]

---

(١) هو قيس بن مسعود بن قيس بن خالد بن عبد الله ذى الجدين من بنى ذهل ابن شيبا ، جاهلى له شعر جيد ، وكان عاملا لكسرى هرمز بن أبرويز على طف العراقين ، والأبلة ، ثم ساءت العلاقة بينه وبين كسرى فحبسه بساباط وقيل بحلوان بالعراق ، فقال قصيدته المتقدمة فى السجن ينذر قومه كما رأينا .

- معجم الشعراء : ٣٢٤ - ٣٢٥ والأعلام : ٥/٢٠٨ .

(٢) الأغانى ٢٠/١٣٤ (الساسى) .

(٣) أَرْشُو سِلَاحِى وَبَغْلَتِى : أى أخرجهما وأعدهما للقتال .

(٤) الأَنْطَاءُ : العطيات والأنطاء : لغة فى الاعطاء ، وقيل الانطاء : بلغة أهل اليمن .

(٥) الفَلَجُ : الظفر والفوز .

فَإِيَّاكُمُ وَالطَّفَ لاتَقْرَبُنَّهُ ... وَلَا البَحْرَ إِنَّ المَاءَ لِلْقَوْدِ وَاصِلُ
وَلَا أَحْسَبَنْكُمْ عَنْ بغَا الخَيرِ إنَّنِي ... سَقَطتُ عَلَى ضرغَامَةٍ وَهوَ آكِلُ

وكان (كسرى) قد أوقع قبل ذى قار ببنى تميم فى يوم الصفقة [(١)] ، مما جعل العرب تخشاه ، وينتابهم شىء من الوجل ، فلما علمت هند بنت النعمان ، وكانت فى بنى سنان بمسير جموع العجم قالت تنذر العرب وتشكو من عجزها عن مناصرتهم ودفع خطر الفرس [(٢)] :

أَلَا أَبْلِغْ بَنِى بَكرٍ رَسُولاً ... فَقَدْ جَدَّ النَّفِيرُ بِعَنْقَفِيرِ [(٣)]
فَلَيْتَ الجَيْشَ كُلَّهُمُ فِدَاكُمْ ... وَنَفْسِى وَالسَّرِيرِ وَذَا السَّرِيرِ
كَأَنِّى حِينَ جَدَّ بِهِمْ إِلَيْكُمْ ... مُعَلَّقَةُ الذَّوَائِبِ بِالعبُورِ [(٤)]
فَلَو أَنِّى أَطَقْتُ لِذَاكَ دَفْعًا ... إِذًا لَدَفَعْتُهُ بِدَمِى وَزِيرِى [(٥)]

ونحن إذ نأتى إلى نهاية هذا الفصل فيما يتعلق بالشكوى السياسية فى العصر الجاهلى نود أن نؤكد أن الوعى السياسى كان عند عرب الجاهلية ضعيفا

---

(١) أخبار هذا اليوم فى العقد الفريد : ٢٢٤/٥. والكامل فى التاريخ : ٣٦٢/١ – ٣٦٣ ، وغيرها من المصادر .

(٢) أيام العرب فى الجاهلية : ٢٧ – ٢٨ ، وأعلام النساء / تأليف عمر رضا كحالة ، مؤسسة الرسالة ١٩٧٣م : ٢٥٩/٥ – ٢٦٥ .

(٣) العَنْقَفِيرُ : الداهية .

(٤) العَبُورُ : نجم فى السماء يلى الجوزاء .

(٥) الزِّيرُ : ما استحكم فتله من الأوتار .

ضيقا محدودا ، لايتجاوز حدود القبيلة أو حدود القبائل المنتمية إلى جد واحد ، ولذلك فإن الباحث فى الشكوى السياسية فى العصر الجاهلى لايمكن أن يفصلها عن الشعر الذى ارتبط عند العرب بحوادث تاريخية معينة كحادثة الفيل ، ويوم ذى قار ، لأن الصورة السياسية لم تكن واضحة عندهم ، وإنما هى ملامح سياسية تمليها الظروف الزمانية والمكانية • وإن كان بعض الباحثين المحدثين يرى أن الشعر الجاهلى الذى يتصل بالأيام ، والأحلاف ، وما فى حكم ذلك شعر سياسى ، ينطلق فيه الشعراء من وقائع سياسية معينة سجلها الشعر ، ورصد نتائجها (١).

لكننا نبحث فيما هو أكثر تخصصا ، وهو شعر الشكوى السياسية فى العصر الجاهلى ، حيث لم يكن هذا النمط من الشعر واضحا كما رأينا •

---

(١) تاريخ الشعر السياسى / أحمد الشايب ، دار القلم بيروت ط (٥) ١٩٧٦ م ص : ٢٩ - ٩٢ •

الفَصْلُ الثانِى

الشكوى السّياسيّة فى
عصر صدر الإسلام

تبين لنا فيما تقدم أن العرب فى العصر الجاهلى كانوا من أبعد الأمم عن السياسة ، وذلك لبداوتهم ، واعتيادهم شظف العيش ، وعدم خضوعهم لحكومة منظمة تلم قبائلهم المتناثرة فى الصحراء ، وترعى شؤونهم (١) ، بل ظل حكم القبيلة بعفويته مسيطرا عليهم حتى بعث الله نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - رحمة للعالمين ، فأشرقت له الدنيا بأسرها ، وجد فى تهذيب الأسس التى قامت عليها الوحدة القبلية لتتمشى مع وحدة الاسلام الكبرى ، فنقل العرب من حيز الوحدات ، والتجمعات القبلية البدائية القائمة على نظام العصبية إلى حيز الوحدة السياسية القائمة على نظام الدولة المنظمة ذات الكيان الواسع (٢) .

وليس التفصيل فى الحديث عن نشأة الدولة ، وتأسيسها فى عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وخلفائه الراشدين من شأننا هنا بقدر مانبحث عن الجوانب السياسية التى لها صلة وثيقة بدراسة موضوع الشكوى السياسية فى هذه الفترة . على أننا سنكتفى بهذه الإشارات التاريخية العابرة لنصل بإذن الله إلى الغاية الأساسية التى نرمى إليها من هذه الدراسة ، فيما يختص بعلاقات المسلمين السياسية فى المدينة مع غيرهم داخل الجزيرة ، وخارجها ، حيث ترتب على هذه العلاقات كثير من المعاهدات (٣) ، بل والصدامات المسلحة أحيانا ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ٥١٦/٢ - ٥١٧ .

(٢) تاريخ الشعر السياسى : ٩٦ - ٩٧ .

(٣) مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة / جمع وتوثيق محمد حميد الله ، دار النفائس - بيروت ط (٥) ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م ص : ١٧٥ - ١٧٦ .
وفتوح البلدان : ٧٦/١ .

متى اقتضى الأمر ذلك ، ورأى المسلمون وجوب الجهاد فى سبيل الله لنشر الاسلام ، أو للدفاع عن النفس .

لقد كانت للظروف الجديدة التى عاشها العرب المسلمون فى ذلك الوقت فى ظل الصراع السياسى بين المسلمين والمشركين ، ثم فى ظل الظروف الجديدة التى نشأت فى خلافة عثمان وعلى - رضى الله عنهما - نتائج هامة بعد أن انتهى هذا الصراع إلى لقاءات مستمرة تحت ظلال السيوف ، وسنابك الخيل كما حدث فى (بدر ، وأحد ، والخندق ، وفتح مكة ، وحملة مؤتة ، وحروب الردة ، ووقعتى الجمل ، وصفين) ، وقبلها المواجهة مع اليهود فى المدينة وغيرها من حوادث التاريخ . حيث سلت سيوف ، وسقطت هامات ، وجرت دماء ، وانهمرت دموع ، فانبرى الشعراء يصورون الموقف بين منتشٍ طرب ، وآخر مكلوم يشكو مما حل بقومه ، أو قرابته ، وسنحصر دراستنا للشكوى هنا فى جانبها السياسى الذى تمثله هذه الغزوات ، واللقاءات ، والمتغيرات السياسية للفريقين .

ولعل أول لقاء حقيقى ظهر فيه المسلمون قوة عظيمة يحسب لهم ألف حساب داخل الجزيرة العربية ، وخارجها معركة بدر المجيدة فى السنة الثانية من الهجرة (١) فقد انهزمت قريش هزيمة لم تشهدها فى تاريخها ، وأصيبت فى فرسانها ، وفلذات أكبادها ، عندما سقط أعظم رجال الشرك صرعى ، فكان

---

(١) تاريخ الطبرى ٤٢١/٢ - ٤٧٩ ، والكامل فى التاريخ : ١٤/٢ - ٣٤ ، والسيرة النبوية لابن هشام : ٢٩/٣ .

وقع هذه الهزيمة شديدا عنيفا فى نفوس شعرائهم، وقد أدرك طالب بن أبى طالب ماحل بقريش ، حيث تفرق أبناء العمومة ، واشتعلت بينهم أوار الحرب ، وعندئذ حصر همومه فى تفرق قومه بعد ماكان بينهم من الصفاء والود ، لكن الحرب والخلاف فرق جمعهم ، فأخذ يلح بالشكوى طالبا منهم أن يتجنبوها ، فهى دمار للفريقين ، وأخذ يربط ذلك بحرب داحس ، وجيش أبرهة فى محاولة منه لاستدرار عاطفتهم نحو بعضهم مبررا مافعله بنو هاشم ، وأنهم بحمايتهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يجنوا جناية يستحق بسببها أن تقوم هذه الحرب التى ذهبت بدؤابتهم ، ويطلب الانتقام من الأنصار إذ هم فى نظره السبب فى تفرق قومه وانقسامهم ، وواقع الأمر أن المشركين هم السبب فى كل ماحدث بإعراضهم عن الحق والهدى ، فالاسلام جاء ليجمع الأمة لاليفرقها ، ولكن المشركين لا يعلمون .

يقول هذا الشاعر (١) :

أَلَا إِنَّ عَيْنِي أَنْفَدَتْ دَمْعَهَا سَكْبَا ... تبكى عَلَى كَعْبٍ وَمَا أَنْ تَرَى كَعْبَا
أَلَا إِنَّ كَعْبًا فِى الحُرُوبِ تَخاذَلُوا ... وَأَرْدَاهُمُ ذَا الدَّهْرِ وَاجْتَرَحُوا ذَنْبَا
وَعَامِرُ تَبْكِى لِلْمُلِمَّاتِ غُدْوَةً ... فَيَالَيْتَ شِعْرِى هَلْ أَرَى لَهُمَا قُرْبَا
هُمَا أَخَوَايَا لَنْ يُعَدَّا لِغَيَّةٍ ... تُعَدُّ وَلَن يُسْتَامَ جَارُهُمَا غَصْبَا
فَيَا أَخَوَيْنَا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوفَلاَ ... فِدًى لَكُمَا لَا تَبْعَثُوا بَيْنَنَا حَرْبَا
وَلَا تُصْبِحُوا مِنْ بَعْدِ وُدٍّ وَأُلْفَةٍ ... أَحَادِيثَ فِيهَا كُلُّكُمْ يَشْتَكِى النَّكْبَا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ٣/١١٦ - ١١٧ .

أَلَمْ تَعلَمُوا مَاكَانَ مِنْ حَرْبِ دَاحِسٍ ... وَجَيْشِ أَبِى يَكْسُوم إذْ مَلَئُوا الشِّعْبَا
فَمَا إنَّ جَنَيْنَا فِى قُرَيْشٍ عَظِيمَةٍ ... سُوَى أَنْ حَمَيْنَا خَيْرَ مَنْ وَطِىءَ التُّرْبَا
فَوَاللَّه لاَ تَنْفَكُّ نَفْسِى حَزِينَةً ... تُمَلْمَلُ حَتَّى تَصْدُقُوا الخَزْرَجَ الضَّرْبَا

لقد أصبح الوضع السياسى لقريش حرجا بعد وقعة بدر ، حيث اختل كيانها ، وأصيبت فى أغلى رجالها ، وكان اليهود فى المدينة قبل المعركة يراقبون الموقف بحذر ، ويهمهم انتصار قريش على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه . وعندما علموا بهزيمة قريش ساءهم ذلك . لكنهم رأوا فى هذه الهزيمة فرصة مواتية يمكنهم استغلالها ، لتأليب قريش ضد المسلمين . شأنهم فى هذا شأنهم فى الجاهلية من استغلال الخلاف بين الأوس والخزرج لاشعال الفتنة ، وتفريق الكلمة (١) ، فاستغلوا هزيمة قريش فى بدر ، وتحالف يهود بنى النضير مع المنافقين ، والمشركين ، ووفد كعب ابن الأشرف (ت ٣ هـ) إلى مكة يحرض قريشا على الحرب ، ويرثى قتلاهم رثاء يقوم على استدرار الدموع ، وإثارة العصبية القبلية داعيا إلى الثأر فيقول (٢) :

طَحَنَتْ رحَى بَدْرٍ لِمَهْلِكِ أَهْلِهِ ... وَلِمِثْلِ بَدْرٍ تَسْتَهِلُّ وَتَدْمَعُ
قُتِلَتْ سَرَاةُ النَّاسِ حَوْلَ حِيَاضِهِمْ ... لاَتَبْعَدُوا إنَّ المُلُوكَ تُصَرَّعُ
كَمْ قَدْ أُصِيبَ بِهِ مِنَ ابْيَضَ مَاجِدٍ ... ذِى بَهْجَةٍ يَأْوِى إلَيْهِ الضُّيَّعُ

---

(١) الكامل فى التاريخ : ٥٣٦/١ - ٥٤٠ .
(٢) ابن هشام : ١٣٩/٣ .

ويلح فى استثارة عاطفة الحزن ، والانتقام لدى المشركين ، ويحضهم على ذلك قائلا :

نُبِّئْتُ أَنَّ بَنِي العَشِيرَةِ كُلِّهِمْ ... خَشَعُوا لِقَتْلِ أَبِي الحكيمِ وَجَدَّعُوا

وَابْنَا رَبِيْعَةَ عِنْدَهُ وَمُنَبِّهٍ ... مَانَالَ مِثْلَ المُهْلَكِينَ وَتُبَّعُ

نُبِّئْتُ أَنَّ الحَارِث بن هِشَامِهِمْ ... فِي النَّاسِ يَبْنِي الصَّالِحَاتِ وَيَجْمَعُ

لِيَزُورَ يَثْرِبَ بِالْجُمُوعِ وَإِنَّمَا ... يَحْمِي عَلَى الحَسَبِ الكَرِيمِ الأَرْوَعِ

وهذا الشعر كما نرى يجمع بين الشكوى ، والرثاء ، والتأبين ،والدعوة إلى الحرب ، ومن جانب آخر، فهو يشكل الموقف السياسى الواضح لليهود الذى ينم عن غدر ، وخيانة ، شأنهم فى كل زمان ومكان ، فلم يكن بكاء هذا اليهودى ، وشكواه من فقد بعض رجال قريش المشركين صادرا عن عاطفة صادقة بقدر ماهو محاولة لاستدرار عاطفتهم ، وتحريضهم على الأخذ بالثأر من المسلمين(١). وهذا يتفق مع الخط السياسى لليهود ، إذ أن من مصلحتهم القضاء على الدولة الاسلامية فى المدينة لما يعلمون من شأن هذه الدولة ، وما يسببه ، وجود المسلمين ، وتعاظمهم من قلق لهؤلاء اليهود الخبثاء .

وبعد بدر أخذت قريش تلملم جراحها ، فأجمع قادتها على الحرب ، واعادة الكرة ، ورصدوا الأموال ، وأعدوا السلاح ، واستعانوا بمن أطاعهم من

---

(١) دور الشعر فى معركة الدعوة الاسلامية أيام الرسول - صلى الله عليه وسلم - / عبد الرحمن خليل ابراهيم ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر ١٩٧١م ص : ٢٧٩ .

قبائل كنانة ، وأهل تهامة[1] ، واتجهوا صوب المدينة وكان اللقاء فى معركة أحد ، حيث دارت الحرب بين المسلمين ، والمشركين وقد صور هبيرة بن أبى وهب المخزومى الموقف فى قصيدة تجمع الشكوى والفخر فقال[2] :

مَا بَالُ هَمٍّ عَمِيدٍ بَاتَ يَطْرُقُنِي ... بِالوِدِّ مِنْ هِنْدَ إِذْ تَعْدُوا عَوَادِيهَا

بَاتَتْ تُعَاتِبُنِي هِنْدٌ وَتَعْذُلُنِي ... وَالحَرْبُ قَدْ شَغَلَتْ عَنِّي مَوَالِيهَا

مَهْلاً فَلاَ تَعْذِلِينِي إِنَّ مِنْ خُلُقِي ... مَاقَدْ عَلِمْتِ وَمَا إِنْ لَسْتُ أُخْفِيهَا

مُسَاعِفٌ لِبَنِي كَعْبٍ بِمَا كَلِفُوا ... حَمَّالُ عِبْءٍ وَأَثْقَالٍ أُعَانِيهَا

وَقَدْ حَمَلْتُ سِلَاحِي فَوْقَ مُشْتَرِفٍ ... سَاطٍ سَبُوحٍ إِذَا تَجْرِي يُبَارِيهَا[3]

سُقْنَا كِنَانَةَ مِنْ أَطْرَافِ ذِي يَمَنٍ ... عَرْضَ البِلَادِ عَلَى مَاكَانَ يُزْجِيهَا

قَالَتْ كِنَانَةُ أَنَّى تَذْهَبُونَ بِنَا ... قُلْنَا النَّخِيلَ فَأَمُّوهَا وَمَنْ فِيهَا

نَحْنُ الفَوَارِسُ يَومَ الجَرِ مِنْ أُحُدٍ ... هَابَتْ مَعَدٌّ فَقُلْنَا نَحْنُ نَأْتِيهَا

قَدْ نَبْذُلُ المَالَ سَحًّا لَا حِسَابَ لَهُ ... وَنَطْعَنُ الخَيْلَ شَزْرًا فِى مَآقِيهَا

وهذه القصيدة تجمع الشكوى من هزيمة بدر ، والفخر بيوم أحد ، فهو يذكر همومه التى باتت تمنعه من لذة الحياة ، وما علمت عاذلته أن الذى

---

(١) ابن هشام : ١٤٨/٣ ٠

(٢) المصدر نفسه : ١٩٨/٣ ٠

(٣) سَاط سَبُوح : ساط دابته يسوطه اذا ضربه بالسوط ٠ والسبوح : أن يسبح بيديه فى سيره ، والسَّوابح : الخيل لأنها تسبح ، ويقال : فرس سابح اذا كان حسن مد اليدين فى الجرى ٠
اللسان (سوط ، سبح) ٠

شغله عن ودها ماهو فيه من أمر الحرب ، والاعداد لها ، فالموقف فى نظره أكبر من انشغاله بالعواطف المشبوبة ، حيث نجده يستفرغ قسطا كبيرا من هذه القصيدة فى بيان الاستعداد للحرب ، وكيف استطاع المشركون أن يجندوا كنانة كلها فى هذه المعركة ، ويذكر بذلهم السخى للأموال فى سبيل هذه الحرب ، فقد خاضوها ، وأعادت فى أنفسهم الثقة .

وفى حملة مؤتة فى السنة الثامنة من الهجرة خرجت طلائع المسلمين من المدينة لملاقاة الروم خارج الجزيرة العربية لأول مرة فى تاريخ العرب المسلمين فكانت هذه الحملة بداية موفقة لانزال الرعب ، والقلق فى قلوب الأعداء ، وقد استشهد فى هذه المعركة مجموعة من الصحابة - رض الله عنهم - فأظهر شعراء المسلمين جزعهم وشكوا من ذلك ، فقال كعب بن مالك - رض الله عنه - يشكو فقد شهداء مؤتة (١) :

نَامَ العُيونُ وَدَمْعُ عَيْنِكَ يَهْمُلُ ... سَحًّا كَمَا وَكَفَ الطِّبَابُ المُخْضَلُ (٢)

فِى لَيْلَةٍ وَرَدَتْ علَىَّ هُمُومُهَا ... طَوْرًا أَحِنُّ وَتَارَةً أَتمَلْمَلُ

وَاعْتَادَنِى حُزْنٌ فَبِتُّ كَأَنَّنِى ... بِبَنَاتِ نَعْشٍ وَالسِّمَاكِ مُوكَّلُ (٣)

---

(١) ديوانه / دراسة وتحقيق سامى مكى العانى ، مكتبة النهضة - بغداد ط (١) ١٣٨٦ هـ ص : ٢٦٠ - ٢٦١ .

(٢) سَحًّا : سيلانا من فوق ، وَوَكَفَ : قطر ، والطِّبَابُ : جمع طبابة وهو السير بين خرزتى المزادة ، المخضل : الرطب والمراد هنا المبتل .

(٣) بَنَاتُ نَعْشٍ : سبعة كواكب مشهورات . والسِّمَاكُ : كوكب نير وهو من منازل القمر .

وَكَأَنَّمَا بَيْنَ الجَوَانِحِ وَالْحَشَى مِمَّا تَأَوَّبَنِى شِهَابٌ مُدْخَلُ

وَجْداً عَلَى النَّفَرِ الذِينَ تَتَابَعُوا يَوْمًا بِمُؤتَةَ أُسْنِدُوا لَمْ يَنقُلُوا

صَلَّى الإِلَهُ عَلَيْهِمُ مِنْ فِتْيَةٍ وَسَقَى عِظَامَهُمُ الغَمَامُ المُسْبِلُ

ورغم أن هذه المقطوعة تأخذ جانب الرثاء لكننا نجدها تقطر شكوى ولوعة لشهداء مسلمين وقفوا صرعى فى معركة تفوق فيها المسلمون - رغم قلة عددهم - بايمانهم ، وصمودهم الفذ فى وجه جموع الشرك .

ولقد كان فتح مكة فى نفس العام (السنة الثامنة من الهجرة) حدثا عظيما فى تاريخ المسلمين ، ونصرا كبيرا من الله للأمة المسلمة تتويجا للسياسة الحكيمة التى يتبعها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه انطلاقا من تعاليم السماء الخالدة ، وكان هذا الفتح المبين أمل المسلمين المرتجى حيث سقطت عاصمة المعارضة الكبرى فى الجزيرة العربية ، فأتى الناس بعد ذلك يدخلون فى دين الله أفواجا حتى أطلق على السنة التاسعة من الهجرة سنة الوفود التى جاءت إلى المدينة تعلن اسلامها (1) .

وقد ظهرت فى فتح مكة قوة المسلمين ، كما ظهرت عدالتهم ، وحسن معاملتهم ، واحترامهم لعهودهم ومواثيقهم . ذلك أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لازال متمسكا بشروط صلح الحديبية ، ومنفذا للمعاهدة التى تنص على

---

(1) البداية والنهاية / لابن الأثير ، دار الفكر ١٣٩٨ هـ : ٤٠/٥ - ٩٨ .

إيقاف الحرب بين قريش ، والمسلمين لمدة عشر سنوات (١) ، غير أن قريشا نقضت هذا الميثاق حينما اعتدت قبيلة بكر على خزاعة ، وعاضدتها قريش . ولذلك أصبح المسلمون فى حل من شروط صلح الحديبية ، عندئذ صمموا على فتح مكة ، وإنهاء قاعدة الشرك فيها . وبخاصة بعد أن قدم عمرو بن سالم الخزاعى فى أربعين رجلا من قومه الى المدينة ، وشكا الى الرسول - صلى الله عليه وسلم - مما حل بقبيلته خزاعة ويطلب النصرة حينما قال (٢) :

يَـارَبِّ إِنِّى نَاشِدٌ مُحَمَّدَا ... حِلْفَ أَبِينَا وَأَبِيهِ الأَتْلَدَا
قَدْ كُنْتُمُ ولدًا وَكُنَّا وَالِدَا ... ثَمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزَعْ يَدَا
فَانْصُرْ هَدَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَعْتَدَا ... وَادْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدَا
فِيهِم رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا ... إِنْ سِيمَ خَسْفًا وَجْهُهُ تَرَبَّدَا (٣)
فِى فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِى مزْبِدَا ... إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ المَوْعِدَا
وَنَقَضُوا مِيْثَاقَكَ المُوكَّدَا ... وَجَعَلُوا لى فى كَدَاءٍ رَصَدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُو أَحَدَا ... وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقَلُّ عَدَدَا
هُمْ بَيَّتُونَا بِالْوَتِيرِ هجدا ... وَقَتَلُونَا رُكَّعًا وَسُجَّدَا

---

(١) الدولة فى عهد الرسول / الدكتور صالح احمد العلى ، مطبعة المجمع العلمى العراقى ١٤٠٩ هـ : ٢٥٤/١ .

(٢) المنمق : ٨٩ - ٩٠ وابن هشام : ٨٦/٤ .

(٣) الخَسْفُ : المراد به هنا الذل والهوان يقال : سامه خسفا . أى أولاه ذلا .

وهذه الأبيات تشكل فى جانب كبير منها شكوى صارخة من جراء هذا الاعتداء الغادر على قوم دخلوا بموجب صلح الحديبية فى دين الاسلام . كما أنها تصور نقض العهد من قبل قريش ، وحلفائها ، وعدم احترامهم لمواثيقهم .

وتظهر الناحية السياسية عندما ربط شكواه ، ومناشدته للرسول - صلى الله عليه وسلم - بحلف خزاعة لعبد المطلب فى العصر الجاهلى(١) ، وكما تذكر المصادر ، فقد كان لهذه الشكوى أثرها البالغ فى نفس الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكانت من أهم الأسباب التى أدت الى فتح مكة ،وتحلل المسلمين من شروط صلح الحديبية(٢) حيث تم الفتح فى السنة الثامنة من الهجرة .

وفى نفس العام ، وبعيد فتح مكة كانت غزوة حنين ، إذ هزمت هوازن وتفرق جمعهم ، فأخذ بعض شعرائهم يشكو من تلك الهزيمة المؤلمة لهم . يقول أبو ثواب زيد بن صحار أحد بنى سعد بن بكر(٣) :

أَلاَ هَلْ أَتَاكَ أَنْ غَلَبَتْ قُرَيْشٌ ... هَوَازِنَ وَالْخُطُوبُ لَهَا شُرُوطُ
وَكُنَّا يَاقُرَيْش إِذَا غَضِبْنَا ... يَجِىءُ مِنَ الغِضَابِ دَمٌ عَبِيطُ(٤)
وَكُنَّا يَاقُرَيْش إِذَا غَضِبْنَا ... كَأَنَّ أُنُوفَنَا فِيهَا سُعُوطُ(٥)

---

(١) المنمق : ٨٦ .

(٢) ابن هشام : ٨٦/٤ ، وأنساب الأشراف : ٣٥٣/١ - ٣٥٤ .

(٣) ابن هشام : ١٣٧/٤ - ١٣٨ .

(٤) دَمٌ عَبِيطٌ : أى شديد لا يتوقف .

(٥) سعُوطٌ : اسم لدواء يصب فى الأنف .

فَأَصْبَحْنَا تسوقُنَا قُرَيْشٌ سِيَاقَ العِيرِ يَحْدُوهَا النَّبِيطُ (١)
فَلَا أَنَا إِنْ سئلْت الخَسْف آب وَلَا أَنَا إِنْ أَلِينُ لَهُمْ نَشِيطُ

فهو يشكو كما نرى من مآلهم السئ بعد هذه الهزيمة، مظهرا النعرة الجاهلية ، إذ كبر عليه تغلب قريش ، وما علم أن الذى غلب هو الاسلام وحده ممثلا فى جنود الله بقيادة رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

وعندما لحق الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالرفيق الأعلى فى السنة الحادية عشرة من الهجرة ارتدت قبائل العرب ماخلا أهل المسجدين مكة والمدينة (٢) فتصدى أبو بكر - رضى الله عنه - لهؤلاء المرتدين ، وقمع فتنهم ، وأعاد الناس إلى حظيرة الاسلام . وكان أهل البحرين قد ارتدوا ، وملكوا عليهم الغرور بن المنذر بن النعمان ابن المنذر (٣)، ولكن أهل جواثا ما زالوا على اسلامهم ، فلاقوا عنتا كبيرا من المرتدين ، حيث حوصروا ، وضيق عليهم حتى منعوا من الأقوات ، وجاعوا جوعا شديدا ، فقال رجل منهم يقال له : عبد الله بن حذف من بنى بكر بن كلاب يشكو من هذا الحصار :

أَلَا أَبْلِغْ أَبَا بَكْرٍ رَسُولًا وَفِتْيَانَ المَدِينَةِ أَجْمَعِينَا (٤)

---

(١) النَّبِيطُ والنَّبْطُ : جيل ينزلون سواد العراق وهم من الأنباط والنسب اليهم نبطى . وقيل الماء الذى ينبط من قعر البئر اذا حفرت .
اللسان : (نبط) .
(٢) البداية والنهاية : ٣١٢/٦ .
(٣) المصدر نفسه : ٣٢٧/٦ .
(٤) المصدر نفسه : ٣٢٧/٦ ، وفتوح البلدان : ١٠١/١ - ١٠٢ .

فَهَلْ لكُم إلَى قَوْمٍ كِرَامٍ قُعُودٍ فِى جُوَاثَا (١) محصرينَا
كأن دِمَاءَهُم فِى كُلِّ فَجٍّ شِعَاعُ الشَّمْسِ يَغْشَى النَّاظِرِيْنَا
تَوَكَّلْنَا عَلَى الرَّحْمَنِ إنَّا وَجَدْنَا الصَّبْرَ لِلْمُتَوكِّلِيْنَا

وتصور هذه الشكوى - كما نرى - الموقف الصعب الذى يعانيه هؤلاء المسلمون من أعدائهم المرتدين ، كما أنها تتضمن الاستغاثة ليهب أبو بكر وأهل المدينة لنصرتهم ، وهى تذكرنا بشكوى عمرو بن سالم للرسول - صلى الله عليه وسلم - عندما اعتدت قريش ، وبكر على خزاعة قبل الفتح ، ويظهر فى هذه الشكوى الجانب الايمانى ، فقد فوضوا أمرهم إلى الله سبحانه وتوكلوا عليه .

ولم يغب الشعر عن مراقبة السياسة الداخلية للأمة المسلمة ، وتوجيه هذه السياسة إلى مايخدم المصلحة العامة ، والدعوة إلى الانصاف ، ورفع الحيف ، والمطالبة بالمساواة بين الناس فى المعاملة ، ونحن نعرف أن السياسة التى انتهجها خلفاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - كانت منسجمة تماما مع الكتاب ، والسنة ، لكن بعض الشعراء قد يخطىء فى تقديره لبعض المواقف ، فيرى فيها انحرافا فى الخط السياسى لولى الأمر ، أو من ينيبه ، وعندئذ نجده يصرخ بالشكوى من هذه السياسة ، كما حدث من حسان بن ثابت الأنصارى (ت ٥٤ هـ) -

---

(١) جُوَاثَا بالضم . حصن لعبد القيس بالبحرين فتحه العلاء بن الحضرمى فى أيام أبى بكر سنة ١٢ هـ ، وجواثا أول موضع جمعت فيه الجمعة بعد المدينة ، وقد ارتد العرب كلهم بعد النبى - صلى الله عليه وسلم - الا أهل جواثا .
معجم البلدان : (جواثاء) .

رضى الله عنه - فقد كتب الى أبى بكر الصديق يشكو من أن خالد بن الوليد لما فتح اليمامة تزوج ابنة مجاعة بن مرارة الحنفى وتنكر للانصار فقال(١):

مَنْ مُبلِغُ الصِّدِّيقِ قَوْلاً كَأَنَّهُ ... إِذَا قُصَّ بَيْنَ المُسْلِمِينَ المَبَارِدُ
أَتَرْضَى بِأَنَّا لَمْ تَجِفَّ دِمَاؤُنَا ... وَهَذَا عَرُوسٌ بِالْيَمَامَةِ خَالِدُ
يَبِيتُ يُنَاغِى عُرْسَهُ وَيَضُمُّهَا ... وَهَامٌ لَنَا مَطْرُوحَةٌ وَسَوَاعِدُ
إِذَا نَحْنُ جِئْنَا صَدَّعَنَّا بِوَجْهِهِ ... وَيُلْقِى لِأَعْمَامِ العَرُوسِ الوَسَائِدُ
وَمَا كَانَ فِى صِهْرِ اليَمَامِىِّ رَغْبَةٌ ... وَلَو لَمْ تُصَبْ إِلاَّ مِنَ النَّاسِ وَاحِدُ
فَكَيْفَ بِأَلْفٍ قَدْ أُصِيبُوا كَأَنَّمَا ... دِمَاؤُهُمُ بَيْنَ السُّيُوفِ المَجَاسِدُ
فَإِنْ تَرْضَ هَذَا فَالرِّضَى مَا رَضِيتَهُ ... وَإِلاَّ فَغَيِّر إِنَّ أَمْرَكَ رَاشِدُ (٢)

وعندما انتصر المسلمون فى القادسية كان عمرو بن معد يكرب الزبيدى (ت ٢١ هـ) قد أبلى مع الجيش المسلم بلاء حسنا ، لكن الخليفة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - رأى أن توزع الزيادة من الغنائم على حفظة القرآن ، ولم

---

(١) ديوان حسان بن ثابت / تحقيق الدكتور سيد حنفى حسنين ، دار المعارف ١٩٨٣م ص : ٣٨١ - ٣٨٢ .

(٢) هذه الشكوى يتطرق اليها الشك فى أنها لحسان - رضى الله عنه - لعدة أسباب ، لعل منها أنه ما كان يشارك فى المعارك بسيفه لعاهة فى يده . فربما كانت هذه الابيات الشاكية لاحد الشعراء الانصار الذين شاركوا فى حروب الردة ، على أن الذى يهمنا هو الجانب الشاكى الذى تصوره هذه القصيدة .
مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة ٣٥١ - ٣٥٢ .

يكن عمرو بن معد يكرب من الحفاظ ، فحرم من الزيادة ، ففسر الموقف تفسيرا سياسيا ، ولم يفهم مايرمى إليه الخليفة حيث رأى فيه انحيازا لقريش ،وتفضيلهم على عامة المسلمين المشاركين فى الفتح ، لكن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أعطاه حتى رضى ، لئلا يفسر عمله على خلاف مايريد . يقول عمرو[(١)] :

إِذَا قُتِلْنَا وَلاَ يَبْكِى لَنَا أَحَدٌ ... قَالَتْ قُرَيْشٌ أَلاَ تِلْكَ المَقَادِيرُ

وَنَحْنُ بِالصَّفِّ إِذْ تُدْمَى حَوَاجِبُنَا ... نُعْطَى السَّوِيَّةَ مِمَّا يُخْلِصُ الكِيَرُ

نُعْطَى السَّوِيَّةَ مِنْ طَعْنٍ لَهُ نَفَدٌ ... وَلاَ سَوِيَّةَ فِى قَسْمِ الدَّنَانِيرُ

ونحن نجد النابغة الجعدى (ت ٥٠ هـ) يشكو من سياسة أمراء الأقاليم ، ويوازن بين عدل الخلفاء الراشدين ، وحسن سياستهم ، وبينما يجده المسلمون من أمرائهم فى الأمصار ، كما يظهر فى قوله لأبى موسى الأشعرى موضحا ضجر الناس من هؤلاء الأمراء ، وشاكيا من سياستهم[(٢)] :

فَإِنْ يَكُنِ ابن عَفَّانٍ أَمِيْنًا ... فَلَمْ يَبْعَثْ بِكَ البَرّ الأَمِيْنَا

فَيَا قَبْرَ النَّبِىِّ وَصَاحِبَيْهِ ... أَلاَ يَاغَوثَنَا لَوْ تَسْمَعُونَا

أَلاَ صَلَّى إِلَهُكُم عَلَيْكُمْ ... وَلاَ صَلَّى عَلَى الأُمَرَاءِ فِيْنَا

---

(١) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدى / طبعة دمشق : ١٠٢ .

(٢) شعر النابغة الجعدى / منشورات المكتب الاسلامى ، بدمشق ط (١)١٣٨٤ هـ ص : ٢١٠ .

ولما كانت خلافة عثمان - رضى الله عنه - أمتحن المسلمون فى أواخرها، ونزل بهم من البلايا ، والرزايا نازلات مفجعة ، إذ نقم عليه الخارجون ،وادعوا أنه حابى بعض أقاربه ، وأنه أعطى مروان بن الحكم خمس افريقية ، ورأوا فى هذا التصرف ظلما ، وانحرافا فى الخط السياسى للخليفة • وقد انبرى عبد الرحمن ابن حنبل الجمحى يشكو قائلا (١) :

فَأَحْلِفُ بِاللَّهِ رَبِّ الأَنَـــــا ... مِ مَاكَتَبَ اللَّهُ شَيْئًا سُــدَى
وَلَكِنْ خُلِقْتَ لَنَا فِتْنَــةً ... لِكَى نَبْتَلِى بِكَ أَوْ تُبْتَلَى
فَإِنَّ الأَمِيْنَيْنِ قَدْ بَيَّنَــا ... مَنَارًا لِحَقٍّ عَلَيْهِ الهُــدَى
فَمَا أَخَذَا دِرْهَمًا غِيلَــةً ... وَمَا تَرَكَا دِرْهَمًا فِى هَــوَى
وَأَعْطَيْتَ مَرْوَان خُمْس العِبَـا ... د هَيْهَات شَأْوكَ مِمَّن شَأَى

---

(١) الاصابة وبهامشه الاستيعاب : ٢٧٢/٦ •
والعقد الفريد : ٢٨٣/٤ - ٣٨٤ •
وقد وردت هذه الشكوى فى أنساب الأشراف : ٣٨/٥ مع اختلاف فى الرواية منسوبة الى أسلم بن أوس بن بجرة الساعدى ، من الخزرج ، وهو الذى منع أن يدفن عثمان فى البقيع ، على أنه ينبغى الوقوف أمام هذه الشكوى، فان كان قائلها عبد الرحمن بن حنبل الجمحى ، فانه كان مولى شاعرا هجاءا ، وقد نهاه عثمان - رضى الله عنه - عن الهجاء ، وسجنه ، ومن هنا تجرأ على الطعن فى عدالة الخليفة الثالث ، اضافة الى أنه لم يثبت أنه أعطى مروان الخمس ، وان صح هذا ، فان مالكا وجماعة من أهل العلم ذهبوا الى أن الامام يرى رأيه فى الخمس ، وينفذ فيه ما أراه اليه اجتهاده• العواصم من القواصم فى تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبى - صلى الله عليه وسلم - / للقاضى أبى بكر بن العربى ، تحقيق محب الدين الخطيب ، الطبعة الخامسة : ١٣٩٩ هـ ، ص : ١٠٠ - ١٠١ •

فهو يعرض فى هذه الشكوى للمحنة التى أدت اليها سياسة عثمان - رضى الله عنه - على الناس حسب رأيه (١)، وقد جرت هذه الفتنة إلى قتله - رضى الله عنه - على يد نفر من الخارجين على الجماعة المسلمة (٢)، فكان ذلك شرخا كبيرا فى صفوف المسلمين اختلفت به كلمتهم ، وانقسموا إلى طائفتين تدعى كل منهما الحق فى رأيها ، حتى نشأ بينهم صدام مسلح . وقد ألهبت هذه الحادثة المؤلمة مشاعر المسلمين ، ودعتهم آلامها إلى البوح بالشكوى ، والبكاء من هذا المصير المؤلم حيث يقول حبيب بن عوف العبدى ، يشكو من أمر هذه الفتنة (٣) :

أَرَى عَيْنِى تَأَوَّبَهَا قَذَاهَا ... فَمَا تَغْفِى فَيَنْفَعُهَا كَرَاهَا
لَقَدْ كَرِهتْ قِتَالَ الشَّيْخِ أَنِّى ... أَرَى حَرْبًا سَيَنْدَمُ مَنْ جَنَاهَا
أَتَى الرَّحْمَنُ أُمَّتَنَا بِأَمْرٍ ... وَأَقْشَعَ عَنْ جَمَاعَتِهَا دُجَاهَا
وَأَصْلَحَ بَيْنَهَا حَتَّى نَرَاهَا ... تُقَارِعُ أُمَّةً أُخْرَى سُوَاهَا

---

(١) أنساب الأشراف : ٢٥/٥ - ٥٧ ، وهو يورد أخبارا كثيرة عن تولية عثمان لأقاربه مما كان سببا فى الثورة عليه - ان صحت هذه الأخبار - ومتى كان الوالى عادلا فى ولايته فلا تضير قرابته لولى الأمر ، اذ المقياس الحقيقى هو الخوف من الله ، وحب العدل ،والورع ،والتقوى ،ولذلك فلا يحق لأى شخص أن يقدح فى عدالة عثمان رضى الله عنه ، فهو صحابى جليل من السابقين الى الاسلام ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وثالث الخلفاء الراشدين - رضى الله عنهم أجمعين .

(٢) الطبرى : ٣٦٥/٤ - ٣٩٦ ، والامامة والسياسة / لابن قتيبة ، تحقيق الدكتور طه محمد الزينى . طبعة الحلبى :٢٤/١ - ٤٥ .
والكامل فى التاريخ : ٥٨/٣ .

(٣) أنساب الأشراف : ١٠٤/٥ - ١٠٥ .

وتعد وقعتا الجمل وصفين(١)، وما تخللهما من لقاءات بين المسلمين ، حوادث مؤلمة ، سلت فيها سيوف المسلمين ضد بعضهم ، فقتل كثير من الصحابة والتابعين ، فى صراع لم تجن منه الأمة المسلمة إلا الانقسام ، وتفرق الكلمة ، حيث انقسم العالم الاسلامى إلى اقليمين متصارعين ، أحدهما تحت امرة معاوية بن أبى سفيان ، ويضم مصر ، والشام ، وما فتح من بلاد افريقية ، والآخر تحت خلافة على - رضى الله عنه - ويضم جزيرة العرب ، والعراق ، وما فتح من بلاد فارس (٢) .

وليس من شأننا أن نخوض فى تفاصيل هذه الفتن من الناحية التاريخية أو أن نتعقب هذه الحوادث بالدراسة ، والتحليل ، لكن الذى يعنينا هنا ، هو الجانب الشاكى من الشعر الذى قيل فى هذه الفترة التاريخية بملابساتها السياسية . ولعل أول مايصادفنا فى هذا السبيل ماكان من أمر السيدة عائشة - رضى الله عنها - حيث تورطت فى نزاعات سياسية ، وخرجت من بيتها إلى ميدان القتال غير ملزمة بذلك رغم نصيحة بعض المسلمين لها ، وقد عبر عن هذا الموقف المحزن جارية بن قدامة السعدى (٣) بقوله :

---

(١) تاريخ الطبرى : ٥٠٦/٤ - ٥٤٢ ، ٥/٥ - ٣٧ .

(٢) فى الشعر السياسى / عباس الجرارى ، طبعة دار الثقافة ، المغرب ط (٢) ١٤٠٢ هـ ص : ٣٥ .

(٣) هو جارية بن قدامة بن زهير بن الحصين ، أحد بنى سعد بن زيد مناة بن تميم ، روى عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أحاديث ووجهه على - رضى الله عنه - الى ابن الحضرمى ، فحاصره جارية فى دار سنبيل ، وأضرم الدار عليه وأصحابه .
المحبر / لابن حبيب : ٢٩٠ .

صُنْتُمْ حَلائِلَكُمْ وَقُدْتُمْ أُمَّكُمْ   هَذَا لَعَمْرُكَ قِلَّةُ الإِنْصَافِ (١)

أُمِرَتْ بِجَرِّ ذيُولِهَا فِى بَيْتِهَا   فَهَوَتْ تَشُقُّ البِيْدَ بِالإِيْجَافِ

غَرَضًا يُقَاتِلُ دُونَهَا أَبْنَاؤُهَا   بِالنَّبْلِ وَالْخَطِّىِّ وَالأَسْيَافِ

هُتِكَتْ بِطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ سُتُورُهَا   هَذَا المُخَبِّرُ عَنْهُمُ وَالْكَافِى

وهذه الشكوى تجمع بين الشعور الدينى ، والهوى السياسى ، حيث ساءه خروج أم المؤمنين من بيتها ، فاستغلت بذلك استغلالا سياسيا (٢) . ولعل هذا شعور عامة المسلمين ، فهو يلوم طلحة ، والزبير على موافقتهما على هذا العمل، وكان الأولى بهما أن خلاف ذلك ، احتراما لزوج الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحفاظا على حرمتها .

وقد حزن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - بعد انتهاء وقعة الجمل حينما رأى القتلى من المسلمين فأخذ يرتجز شاكيا (٣) :

إِلَيْكَ أَشْكُو عُجَرِى وَبُجَرِى   وَمَعْشَرًا غَشَّوا عَلَىَّ بَصَرِى

قَتَلْتُ مِنْهُمْ مُضَرًا بِمُضَرِى   شَفَيْتُ نَفْسِى وَقَتَلْتُ مَعْشَرِى

---

(١) تاريخ الطبرى ٤/٤٦٥ .

(٢) تاريخ الشعر السياسى / لأحمد الشايب : ١٧٠ .

(٣) تاريخ الطبرى : ٤/٥٢٧ ، ونهاية الأرب : ٢٠/٨ .

وقبيل وقعة صفين بعث الوليد بن أبى معيط (١) بقصيدة إلى معاوية جمع فيها بين الشكوى السياسية ، والتحريض على القتال مطالبا معاوية بالاسراع ، والأخذ بثأر عثمان – رض الله عنه – قائلا فى ذلك (٢) :

أَلَا أَبْلِغْ مُعَاوِيَةَ بنَ حَرْبٍ ... فَإِنَّكَ مِنْ أَخِى ثِقَةٍ مُلِيمُ
قَطَعْتَ الدَّهْرَ كَالسَّدِمِ المُعَنَّى ... تُهَدِّرُ فِى دِمَشْقَ فَمَا تَرِيمُ (٣)
وَإِنَّكَ وَالكِتَابَ إِلَى عَلِىٍّ ... كَدَابِغَةٍ وَقَدْ حَلِمَ الأَدِيمُ (٤)
يُمَنِّيكَ الإِمَارَةَ كُلُّ رَكْبٍ ... لِأَنْقَاضِ العِرَاقِ بِهَا رَسِيمُ
وَلَيْسَ أَخُو التِّرَاتِ بِمَنْ تَوَانَى ... وَلَكِنْ طَالِبُ التِّرَةِ الغَشُومُ
وَلَوْ كُنْتَ القَتِيلَ وَكَانَ حَيًّا ... لَجَرَّدَ لَا أَلَفُّ وَلَا سَئُومُ
وَلَا نَكِلٌ عَنِ الأَوْتَارِ حَتَّى ... يُبِىءَ بِهَا وَلَابَرِمٌ جَثُومُ
وَقَوْمُكَ بِالْمَدِينَةِ قَدْ أُبِيرُوا ... فَهُم صَرْعَى كَأَنَّهُمُ الهَشِيمُ

---

(١) هو الوليد بن عقبة بن أبى معيط ، أبو وهب الأموى القرشى ، من قبائل قريش ، وشعرائها ، وأجوادهم ، وهو أخو عثمان بن عفان لأمه ، أسلم يوم الفتح ، وتوفى سنة ٦١ هـ . الأعلام : ١٢٢/٨ .

(٢) الطبرى : ٥٦٤/٤ .

(٣) السَّدِمُ : الذى يرغب عن فحلته فيحال بينه وبين آلافه ، ويقيد اذا هاج، فيرعى حول الدار ، وان صال جعل له حجام يمنعه عن فتح فمه .

(٤) الحَلَمَةُ : دودة تقع فى الجلد فاذا دبغ وهى موضع الأكل فيبقى رقيقا . اللسان (سدم ، حلم) .

وفى كل ماتقدم من النصوص فى هذا الفصل نجد أن الشكوى غير مستقلة فقد جاءت ضمن شعر الرثاء ، أو التحريض ، والحرب . ولذلك فهى مزيج من المشاعر الانسانية التى أثارتها الأحداث السياسية كما رأينا .

إن الشكوى السياسية فى الشعر العربى ابان عصر صدر الاسلام تبدو قليلة إذا ما قيست بتلك الحوادث التاريخية ، والسياسية ، التى زامنت نشوء الدولة الاسلامية على يد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحتى مقتل على - رض الله عنه - .

ولعل السبب فى ذلك أن المسلمين يؤمنون ايمانا مطلقا بحسن الجزاء ، فهم يستعذبون كل ماينالهم فى سبيل الله لايمانهم بالقضاء والقدر ، وما أعده الله للشهداء ، إذ أصبحت الشهادة أمنية غالية لهم ، فإذا فقد أحدهم تذكروا عظيم منزلة الشهيد ، فكفوا عن الشكوى ، وكذلك لو حدث أن هزموا تحت أى ظرف من الظروف ، فإنما ذلك مرحلة مؤقتة ، فيعيدوا حسابهم على هدى من وحى السماء ، والخوف من الله سبحانه ، ثم أنهم أيضا لايريدون أن يظهروا جزعا وضعفا أمام أعدائهم ، لما فى الشكوى من ذلك . ولكنهم دائما يفوضون أمرهم إلى الله ويبثونه شكواهم ، وهمومهم كما فى قول حسان بن ثابت ، أثر غزوة الأحزاب (١) :

وَاشْكِ الهُمومَ إلَى الإلَهِ وَمَا تَرَى ... مِنْ مَعْشَرٍ مُتَأَلِّبِينَ غِضَابِ
أَمُّوا بِغَزْوِهِمُ الرَّسُولَ وَأَلَّبُوا ... أَهْلَ القُرَى وَبَوَادِى الأَعْرَابِ

(١) ديوان حسان : ١١٩ - ١٢٠ .

وَعَــدَوا عَلَيْنَــا قَــادِرِيــنَ بِـأَيْدِهِــمْ ۝ رُدُّوا بِغَيْظِهِـمُ عَلَــى الأَعْقَـــابِ

وكذلك شكوى خبيب بن عدى ، حينما أسره المشركون يوم الرجيع ، فتوجه بشكواه إلى الله وحده بعد أن جمع الأعداء جيوشهم ، واحتشدوا من كل جانب ،ومكان، وهم لا يألون جهدا فى ابداء العداوة له فى كل منظر ومظهر يقول (١) :

لَقَد جَمَّعَ الأَحْزَابُ حَوْلِـى وَأَلَّبُوا ۝ قَبَائِلَهُمْ وَاسْتَجْمَعُـوا كُلَّ مَجْمَـعِ

وَقَدْ جَمَعُـوا أَبْنَاءَهُـمْ وَنِسَاءَهُــمْ ۝ وَقُرِّبْتُ مِـنْ جِذْعٍ طَوِيـلٍ مُمَنَّـعِ

إِلَـى اللَّـهِ أَشْكُـو غُرْبَتِـى ثُمَّ كُرْبَتِـى ۝ وَمَـا أَرْصَدَ الأَحْزَابُ لِى عِنْدَ مَصْرَعِـى

ولهذا وجدنا صيحات الشكوى فى الغالب تظهر أقوى عند الجانب المشرك كما مر معنا فى حوادث بدر ، وأحد ، والخندق ، وهوازن . وإن كنا لاننكر أن المسلمين قد بكوا قتلاهم فى الغزوات ، واللقاءات فى رثائهم المؤثر ، وكذلك ماحدث عندما فجع المسلمون بموت الصديق ، واستشهاد عمر ، وعثمان ، وعلى - رضى الله عنهم أجمعين - وقبل ذلك موت الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقد أنطقتهم هذه الحوادث بأشعار باكية لكنها تدخل فى باب الرثاء ، والتأبين ، حتى إذا كانت حروب الردة وجدنا تلك الصيحة الشاكية من أهل جواثا ، وهم

---

(١) ابن هشام : ٣/٢٢٧ .

وشعر العقيدة فى عصر صدر الاسلام حتى سنة ٢٣ هجرية / أيهم عباس حمودى القيسى - مكتبة النهضة العربية ط (١) ١٤٠٦ هـ ص : ٢١٤ والحنين الى الوطن فى الأدب العربى حتى نهاية العصر الأموى : ١٣٩ .

يستصرخون أبا بكر ، وأهل المدينة ، ومع ذلك ، فقد رصد البحث بعض القصائد الشاكية التى تصور مواقف سياسية معينة تجلت أكثر فى مسألة الخلاف بين المسلمين ، بعد مقتل عثمان - رض الله عنه - ولعلنا فى الفصل اللاحق نتبين أبعاد هذه الشكوى السياسية فى ظل سياسة بنى أمية ، وما ترتب عليها من متغيرات سياسية .

الفصل الثالث

بيومى

الشكوى السّياسية فى ظل سياسة بنى أميّة

إن البحث فى الشكوى السياسية إبان حكم الأمويين يفضى بنا إلى ايضاح تلك السياسة ، لما بين الأدب والتاريخ من صلة وثيقة تؤدى إلى خضوع الشعر العربى فى مختلف عصوره لتطور حياة الأمة السياسية ، والاجتماعية والثقافية • ومن هنا كان على دارس الأدب العربى ، والشعر منه بخاصة فى أى عصر من العصور أن يتصدى للتطورات الهامة التى وجدت فى حياة العرب فى ذلك العصر •

لقد كان العصر الأموى - أو لنقل القرن الأول الهجرى - من أهم ، وأخطر مراحل عصور الشعر العربى،ففى بدايته نشأت الدولة الاسلامية ، وأصبحت ذات كيان وسلطان ، وفيه انتقل المسلمون نقلة هائلة فيما يتعلق بالخلافة ، إذ تحولت من مبدأ الشورى الذى ألفه المسلمون ، وصارت ملكا وراثيا ، وفى هذه الفترة كذلك نشأت الأحزاب السياسية ، فغدت ذات مذاهب ، واتجاهات ، وفى هذا العصر نشطت العصبية القبلية ، واتسع نطاقها ، وكان للدولة دور فى إذكائها، وبعثها من مرقدها ، فقد اتسم حكم بنى أمية بالعصبية فى جوانب شتى ، كان على رأسها عصبية العرب ضد الموالى [١] ، ثم عصبية لليمنية على القيسية [٢] ، وعصبية لبنى أمية على بنى هاشم [٣] ، ثم عصبيتهم للقبائل الموالية لهم ضد المناوئة كعصبيتهم لكلب وتغلب على قيس [٤] وهكذا •

---

(١) البيان والتبيين ٣٦٦/٣ •

(٢) أدب السياسة فى العصر الأموى / الدكتور أحمد الحوفى ، دار القلم بيروت ١٣٨٤ هـ ص : ٤٥٦ - ٤٥٧ •

(٣) المرجع السابق : ٢٥ •
وتاريخ الشعر السياسى / للشايب : ١٦٦ •

(٤) العصبية القبلية وأثرها فى الشعر الأموى / الدكتور احسان النص ، دار الفكر ط (٢) ١٩٧٣م ص ٢٩٩ - ٣٠٠ وأدب السياسة فى العصر الأموى : ٢٥ •

و محصلة طبيعية لكل هذه المتغيرات ، فقد طرأ تحول كبير فى الدولة الاسلامية فيما يتعلق بأوجه الحياة بشكل عام خلال حكم الأمويين عما كان عليه فى عصر النبوة والراشدين ، لتعدد أوجه الخلاف بين هاتين الفترتين المتقاربتين ، وتوافر دواعى هذا الخلاف فى السياسة والفكر ، والثقافة ، والحضارة ، ونظم الاجتماع (١) .

إن السياسة من وجهة النظر الاسلامية تعنى تدبير شؤون الأمة المسلمة ، ومن كان تحت حكمهم من الأمم بمقتضى تعاليم الاسلام التى تتناول الجوانب الدينية والدنيوية معا ، وعلى هذا الأساس فهم المسلمون الأولون ارتباط الدين بالسياسة ، فكان الاسلام والسياسة متلازمين ، وقد نهج الرعيل الأول من المسلمين فى عصر صدر الاسلام نهجا صحيحا فيما يتعلق بأمر الخلافة ، حيث أخذت الأمور مسارها الصحيح ، لكنه مالبث أن اشتد الخلاف حول هذه المسألة أثر مقتل عثمان - رضى الله عنه - فقد تشعبت آراء المسلمين ، وتكونت بسببها الفرق الاسلامية ذات الاتجاهات السياسية فى العصر الأموى (٢) .

لقد ظهر الأمويون على المسرح السياسى منذ أمد طويل قبل الاسلام ، واشرأبت أعناقهم الى السلطة ، فكانوا ينازعون بنى هاشم الشرف ، والسيادة ، فى الجاهلية (٣) ،

---

(١) اتجاهات الشعر العربى فى العصر الأموى : ٨ .

(٢) كالخوارج ، والشيعة ، وبنى أمية ، والزبيريين ، وكل فرقة ترى رأيها فى الخلافة كما هو معروف .

فى الشعر السياسى / عباس الجرارى : ١٢ - ٣٨ .

(٣) أدب السياسة فى العصر الأموى : ١٦ .

وفيض الخاطر / لأحمد أمين الطبعة الثانية ١٩٥٨م : ٢٩١/٨ .

حتى إذا بعث النبى - صلى الله عليه وسلم - لم يكن بنو أمية من السابقين إلى الدخول فى الاسلام ، بل كانوا من مسلمة الفتح ، ولقد أدرك الرسول - صلى الله عليه وسلم - يوم فتح مكة ذلك ، فجعل دار أبى سفيان دار أمان لمن دخلها [١]، معالجا الموقف علاجا نفسيا له أثره الكبير فى نفوسهم ، وظل بنو أمية بمعزل عن السياسة حتى كانت ولاية معاوية على الشام ، فظهرت بذلك نزعتهم السياسية ، وحبهم للسيادة ، واتضحت هذه النزعة فى خلافة عثمان - رضى الله عنه - وما صاحبها من أحداث ، فقد انتهزها الأمويون ، وأخذوا يحيون نفوذهم القديم [٢]. وعندما حدث الصدع المؤلم فى صفوف المسلمين عند مقتل عثمان - رضى الله عنه - وبدأت بوادر الفرقة ، والانشقاق تظهر فى وحدة الأمة الاسلامية استغل بنو أمية الموقف استغلالا سياسيا ، معتمدين على إثارة مشاعر الناس تجاه هذا الحادث الشنيع ، وقد عبر معاوية عن ألمه الشديد عندما نعى اليه عثمان فقال [٣] :

أَتَانِى أَمْرٌ فِيهِ لِلنَّاسِ غُمَّةٌ ... وَفِيهِ بُكَاءٌ لِلْعُيونِ طَوِيلُ
مصَابُ أَمِيرِ المُؤمِنِينَ وَهَذِهِ ... تَكَادُ لَهَا صُمّ الجِبَالِ تَزُولُ
تَدَاعَتْ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ عُصْبَةٌ ... فَرِيقَانِ مِنْهُم قَاتِلٌ وَخَذُولُ
سَألقحها حَرْبًا عَوَانًا ملحة ... وَإنّى بِهَا مِنْ عَامِنَا لَكَفِيلُ

---

(١) ابن هشام : ٩١/٤ .

(٢) تاريخ الشعر السياسى / للشايب : ١٦٦ .

(٣) الأخبار الطوال / للدينورى ، مطبعة السعادة القاهرة ١٣٣٠ ص : ١٥٧.

وبدأ معاوية يطالب بدم عثمان ، ووقف ندا لعلى ، يعد للحرب ، واللقاء ثم أعلن سياسته صريحة فى هذه القصيدة الشاكية التى يرد فيها على على - رضى الله عنه - عندما بعث اليه جرير بن عبد الله البجلي(١) ليأخذ له البيعة ، فقال على مسمع منه (٢) :

تَطَاوَلَ لَيْلِى وَاعْتَرَتْنِى وَسَاوِسٌ ... لِآتٍ أَتَى بِالتُّرَّهَاتِ البَسَابِسِ

أَتَانِى جَرِيرٌ وَالْحَوَادِثُ جَمَّةٌ ... بِتِلْكَ الَّتِى فِيهَا اجْتِدَاعُ المَعَاطِسِ

أُكَابِدُهُ وَالسَّيْفُ بَيْنِى وَبَيْنَهُ ... وَلَسْتُ لِأَثْوَابِ الدَّنِىِّ بِلَابِسِ

إِنِ الشَّأْمُ أَعْطَتْ طَاعَةً يَمَنِيَّةً ... تَوَاصَفَهَا أَشْيَاخُهَا فِى المَجَالِسِ

فَإِنْ يَفْعَلُوا أَصْدِمْ عَلَيًّا بِجَبْهَةٍ ... تَفُتُّ عَلَيْهِ كُلَّ رَطْبٍ وَيَابِسِ

وَإِنِّى لَأَرْجُو خَيْرَ مَا نَالَ نَائِلٌ ... وَمَا أَنَا مِنْ مُلْكِ العِرَاقِ بِيَائِسِ

وقد ظل الأمر سجالا بينهما حتى كانت وقعة صفين ، حيث انتهت بتوقف القتال ، وانقسام أنصار على ، وانتهى الأمر بقيام الدولة الأموية سنة ٤١ هـ ،فوجد المسلمون أنفسهم أمام حكم يختلف تماما عما ألفوه فى حكم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وخلفائه الراشدين - رضى الله عنهم - كما يصوره الجاحظ بقوله (٣) :

---

(١) هو جرير بن عبد الله بن جابر بن مالك بن نصر بن ثعلبة بن جشم بن عوف الامير النبيل ، من أعيان الصحابة ، توفى سنة ٥١ هـ ، وقيل سنة ٥٤ هـ .
سير أعلام النبلاء ٥٣٠/٢ - ٥٣٧ .

(٢) الكامل فى اللغة والأدب : ٤٢٣/١ .

(٣) رسائل الجاحظ : ١٠/١ - ١١ .

(فَعِندهَا استَوى معَاوية على الملكِ ، واستبدَّ على بقيةِ الشّورَى ، وعَلَى جَمَاعةِ المسلِمين من الأَنصَارِ ، والمُهاجِرين فِي العَامِ الذِي سموه عَام الجَمَاعة ، وَمَا كَان عَام جَمَاعة بَل كَان عام فُرقَة ، وَقهر ، وجَبرية ، وَغلبة ، والعَام الذِي تحولت فِيه الإمامةُ ملكًا كسرويًا ، والخلافةُ غَصبًا قَيصريًا) .

وليس مجالنا هنا تفصيل القول فى أحداث وملابسات قيام هذه الدولة وما صاحب ذلك من حروب ، وفتن ، لأن هذا مبسوط فى مصادر التاريخ الاسلامى التى تعالج هذه الفترة من حياة الأمة الاسلامية ، ولكن الذى يعنينا من أمر الأمويين فى هذه الدراسة منهجهم السياسى ، لتعلق ذلك بموضوع بحثنا للشكوى فى ظل الظروف السياسية التى نشأت فى الدولة الأموية . وهذا يفضى بنا إلى تلمس صورة هذه الشكوى عند المناوئين لهم إذ لم تمض سنوات قليلة من حكم بنى أمية حتى اجتمع فى الحجاز ، والعراق أحزاب ثلاثة تعارضهم وهم (الخوارج ، والشيعة ، والزبيريون) وهذه الأحزاب كان لها خطرها فى الحياة السياسية فى العصر الأموى .

إن أول باعث من بواعث الشكوى فى ظل سياسة بنى أمية قضية الخلافة وتوريثها(١) ، فقد أحس كبار رجال الأمة وبخاصة فى الحجاز مهد الدولة الأول بالسخط

(١) الحقيقة أن تحويل الخلافة الى هذا النمط من التوريث لايقدح فى بنى أمية ، لأن الأمر يتطلب ذلك ، اذ أن اتساع رقعة الاسلام ، وتباعد أقاليم الدولة الاسلامية وما تتطلبه الفتوح الاسلامية من توحيد الأمة ، واعداد الجيوش المسلمة يجعل من مصلحة الأمة تعيين ولى الأمر الخلف حتى لاتقع الفرقة والخلاف مرة أخرى عند موت الخليفة اضافة الى صعوبة اجتماع المسلمين لاختيار خليفة ،فكان توريث الخلافة فى نظرى يخدم بالدرجة الأولى الاسلام والمسلمين،ولا ينبغى أخذه مغمزا فى سياسة بنى أمية ،والطعن فيهم .

الشديد على هذا الاتجاه ، لاسيما وأن شخصية يزيد بن معاوية لم تكن مرضيا عنها بوجه عام ، إذ كان متهما بضعف الدين ، وشرب الخمر ، والاقبال على اللهو ، ومجالس الغناء ، ومنادمة الفساق ، وكان يطلق عليه الخليع[1]، على أن الباحث المنصف لايمكنه أخذ هذه الروايات على اطلاقها ، لما فيها من المغالطات والتزيد . إلا أن امتناع نفر من أبناء الصحابة عن البيعة له يعطينا دلالة على أن السواد الأعظم من المسلمين لم يكونوا راضين عن مسألة توريث الخلافة لأن ذلك يلغى مبدأ الشورى فى نظرهم ، ويحول الإمامة إلى ملك . ولذلك انبرى الشعراء يشكون من هذا الأمر ويعارضونه كما فى قول عبد الله بن همام السلولى: الذى نجد فيه نبرة شكوى ، وان كان الهجاء والمعارضة هو الجانب الأقوى[2] :

فَإِنْ تَأْتُوا بِرَمْلَةَ أَوْ بِهِنْدٍ ... نُبَايِعهَا أَمِيرَةَ مُؤْمِنِينَا
إِذَا مَا مَاتَ كِسْرَى قَامَ كِسْرَى ... نَعُدُّ ثَلَاثَةً مُتَنَاسِقِينَا
فَيَالهفَا لَوَ انَّ لَنَا أُنوفًا ... وَلَكِن لَانَعُودُ كَمَا عُنِينَا
إِذًا لَضُرِبْتُمُ حَتَّى تَعُودُوا ... بِمَكَّةَ تَلعَقُونَ بِهَا السَّخِينَا
خَشِينَا الغَيْظَ حَتَّى لَوْ شَرِبْنَا ... دِمَاءَ بَنِى أُمَيَّةَ مَارَوِينَا

وقد خرج الشاعر كما نلاحظ عن موضوع الشكوى إلى الهجاء ، واظهار كراهية بنى أمية ، والوعيد لهم لو كان فى يده ، وأعوانه من الأمر شئ .

ونجد نفس الشكوى عند الكميت شاعر الشيعة المتعصب حيث يحتج فى احدى هاشمياته استئثار بنى أمية بالخلافة ، وجعلها وراثية فيهم مع أنها فى رأيه

---

(١) رسائل الجاحظ : ١١/٢ وأمالى الزجاجى : ٦٩ - ٧٠ . ومروج الذهب: ٧٧/٣ .

(٢) مروج الذهب : ٣٧/٣ .

حق لآل البيت ، كما هو رأى الشيعة فى هذه المسألة[١] يقول[٢] :

بِخَاتِمِكُم غَصْبًا تَجُوزُ أُمُورُهُمْ ... فَلَمْ أَرَ غَصْبًا مِثْلَهُ يَتَغَصَّبُ
بِحَقِّكُمُ أَمْسَتْ قُرَيْشٌ تَقُودُنَا ... وَبِالْفَذِّ مِنْهَا وَالرَّدِيفَيْنِ نُرْكَبُ
إِذَا اتَّضَعُونَا كَارِهِينَ لِبَيْعَةٍ ... أَنَاخُوا لِأُخْرَى وَالْأَزِمَّةُ تُجْذَبُ[٣]
رُدَافَى عَلَيْنَا لَمْ يُسِيمُوا رَعِيَّةً ... وَهَمُّهُمُ أَنْ يَمْتَرُوهَا فَيَحْلُبُوا
وَقَالُوا وَرِثْنَاهَا أَبَانَا وَأُمَّنَا ... وَمَا وَرَّثَتْهُمْ ذاك أُمٌّ وَلَا أَبُ
يَرَوْنَ لَهُمْ فَضْلًا عَلَى النَّاسِ وَاجِبًا ... سَفَاهًا وَحَقُّ الْهَاشِمِيِّينَ أَوْجَبُ
فَإِنْ هِيَ لَمْ تَصْلُحْ لِحَيٍّ سِوَاهُمُ ... فَإِنَّ ذَوِي الْقُرْبَى أَحَقُّ وَأَقْرَبُ

إن قيام الدولة الأموية كان إيذانا بتغير النهج السياسى لولاة المسلمين عما كان عليه زمن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وخلفائه الراشدين ، فإنه استنادا إلى بعض المصادر التاريخية نجد بنى أمية ربما اشتطوا فى حكمهم وسلكوا فى سبيل ذلك مسالك شتى من القوة ، والحزم.لتثبيت سيادتهم على العالم الاسلامى . وقد زامن تأسيس الدولة الأموية كما أشرنا من قبل وجود ثلاثة أحزاب سياسية ، كان من أقواها حزب الخوارج الذى يعد من أخطر الفرق الاسلامية التى كانت تستمد أصول مقولتها من أفكار دينية سرعان ما اصطبغت بنزعات سياسية آمنوا بها ، واتخذوها

---

(١) الحور العين : ١٥٤ .

(٢) هاشميات الكميت / تحقيق الدكتور داود سلوم والدكتور نورى القيسى، عالم الكتاب ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م ص : ٥٥ - ٦٦ .

(٣) اتَّضَعُونَا : أى ركبونا قهرا ونحن كارهون له ،والاتضاع الأخذ برأس البعير ، فيمد عنقه ، ويضرب بجرانه الأرض ، ثم يركبه على عنقه .

جزءا من عقيدتهم ، وخاضوا حروبا كثيرة اتصفوا فيها بالشجاعة المفرطة ، وبخاصة مع الأمويين الذين تشددوا فى تعقب الخوارج ، والقضاء عليهم ، وكان هذا المبدأ من سياستهم فى القضاء على الخصوم (١) .

وقد شكا شعراء الخوارج كثيرا من هذه السياسة ، ورأوا فيها جورا وظلما لهم ، الأمر الذى جعل أحدهم يصرح بأنه من شدة مايلقاه من بنى أمية وعمالهم اضطر إلى ترك مجالسة اخوانه ، وألف أقواما آخرين لايريدهم ، ولاتطمئن نفسه إلى مجالستهم يقول (٢) :

مَازَالَ بِى صَرْفُ الزَّمَانِ وَرَيْبُهُ ... حَتَّى رَفَضْتُ مَجَالِسَ الفِتْيَانِ
وَأَلِفْتُ أَقْوَامًا لِغَيْرِ مَوَدَّةٍ ... وَهَجَرْتُ غَيْرَ مفَارِقٍ إِخْوَانِى
وَأَفَضْتُ فِى لَهْوِ الحَدِيثِ وَهَجْرِهِ ... بَعْدَ اعْتِيَادِ تِلَاوَةِ القُرْآنِ

ولقد اشتعلت الحروب بين الأمويين ، والخوارج ، ووقف كل فريق من صاحبه موقفا لارحمة فيه ولا هوادة ، وزاد من ضراوة تلك الحروب نظرة الخوارج لبنى أمية ،

---

(١) سنكتفى بدراسة الشكوى عند الخوارج ، والشيعة من الناحية السياسية دون أن نتعرض لدراسة فرقهم ، لأن هذا لايهم البحث ، ولمن أراد التفصيل التاريخى فيراجع المصادر التالية :
الملل والنحل / للشهرستانى ١/١١٤ - ١٣٧ ، ١٤٦ - ١٩١ .
الفرق بين الفرق : ٢٩ - ٦٥ ، ٧٢ - ١١٣ .
الحور العين : ١٧٠ ، ضحى الاسلام : ٣/٣٣٠ - ٣٤٧ .

(٢) شعر الخوارج : ٤٨ .

حيث نظروا إليهم نظرة المسلمين للمشركين ، فى الوقت الذى يرى فيه الأمويون أن القضاء على الخوارج أمر يدعو إليه الدين[1] ، وكان من سياسة الأمويين أن أطلقوا لولاتهم الحرية التامة فى القضاء على الفتن التى تثيرها الأحزاب السياسة ، وكان الخوارج من أشد هذه الأحزاب لتحمسهم ، وإيمانهم بمذهبهم ، ونظرتهم ، واقدامهم على الموت فى جرأة نادرة ، إذ كان كل منهم يقبل على الموت ، حريصا على الاستشهاد اقبال غيرهم على الحياة ، وفى ضوء هذا سنتناول الشكوى عند الخوارج فى ظل سياسة الدولة الأموية ، ثم نأتى على ذلك عند الشيعة ، والزبيريين باذن الله .

لقد اتخذ الصدام بين الأمويين والخوارج طابعا سياسيا قويا ، لعل دراستنا للشكوى السياسية فى هذه الفترة تكشف لنا كثيرا من تلك الجوانب الهامة فى ذلك الصراع الذى خاضه كل فريق ضد خصمه .

إن الشكوى السياسية عند شعراء الخوارج تكون عادة ممزوجة بالشعور الدينى ، مما يؤكد ارتباط مذهبهم السياسى بمعتقدهم الذى يعبر عنه شعرهم ، فهم يرون أنفسهم أهل الحق ، وغيرهم أهل البغي والجور ، ويرون أن بنى أمية قد أظهرهم جورهم ، وتمادوا فى ظلم الخوارج أهل الحق ، فقد وجدنا أبا بلال مرداس بن أدية (ت ٦١ هـ) يقول شاكيا من هذا الوضع[2] :

---

(١) أدب الشيعة الى نهاية القرن الثانى الهجرى / الدكتور عبد الحسيب طه حميدة ، مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الثانية ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م : ٧٥ - ٧٦ .

(٢) شعر الخوارج : ٥١ .

وَقَدْ أَظْهَرَ الجَوْرَ الوُلاةُ وَأَجْمَعُوا ... عَلَى ظُلْمِ أَهْلِ الحَقِّ بِالغَدْرِ وَالكُفْرِ
وَفِيكَ إِلَهِى إِنْ أَرَدْتَ مُغَيِّرٌ ... لِكُلِّ الَّذِى يَأْتِى إِلَيْنَا بَنُو صَخْرِ
فَقَدْ ضَيَّقُوا الدُّنْيَا عَلَيْنَا بِرَحْبِهَا ... وَقَدْ تَرَكُونَا لَا نَقَرُّ مِنَ الذُّعْرِ
فَيَارَبِّ لَا تُسْلِمْ وَلَا تَكُ لِلرَّدَى ... وَأَيِّدْهُمُ يَارَبِّ بِالنَّصْرِ وَالصَّبْرِ
وَبَشِّرْ لَنَا خَيْرًا وَلَا تَحْرِمَنَّنَا ... لِقَاءَ ذَوِى الإِلْحَادِ فِى عَدَدٍ دَثْرِ

وتوضح هذه الأبيات غلو الخوارج فى نظرتهم إلى خصومهم ، عندما يصف بنى أمية وعمالهم بأنهم ذوو الحاد وجور وظلم ، وأن الخوارج أهل الحق والعدل، ويتفق معه فى هذه النظرة شاعر آخر من شعراء الخوارج هو عمران بن حطان (ت ٨٤ هـ) الذى يشكو من فقدان العدل قائلا [1] :

حَتَّى مَتَى لَا نَرَى عَدْلًا نَعِيشُ بِهِ ... وَلَا نَرَى لِدُعَاةِ الحَقِّ أَعْوَانَا

والمتأمل فى شعر الخوارج السياسى الذى يتناولون فيه غيرهم ، يجد أنهم مفرطون فى خروجهم على عامة المسلمين ممن بأيديهم زمام الأمور ، فبقدر غلوهم فى نظرتهم إلى غيرهم ، وتكفير كثير من المسلمين[2]، فهم ينطلقون فى هذه النظرة من منطلق سياسى ، يتعلق بالخلافة بحيث يتم اختيار الخليفة بإرادة المسلمين ، فلا يلزم أن يكون علويا ، ولا قرشيا ، ولا عربيا ، وقد خالفوا بذلك جمهور الشيعة القائلين بحصر الخلافة فى آل البيت ، والزبيريين الذين يشترطون

---

(١) شعر الخوارج : ١٤٧ .

(٢) رسائل الجاحظ : ٧/٢ والفرق بين الفرق : ٧٣ - ٧٤ .

قرشية الخليفة (١) .

وتأخذ الشكوى السياسية عند الخوارج جانبا آخر يمثله استمرارهم في الحروب مع الدولة الأموية ، وتعرضهم للحصار المستمر من قبل قادة بنى أمية حتى أجهدت جيادهم ، وبدا هزالها ، وضعفها يقول عبيدة بن هلال اليشكرى (٢) :

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مَا تَرَى بِجِيَادِنَا ... تَسَاوُكَ هَزْلَى مُخُّهُنَّ قَلِيلُ (٣)

تَعَاوَرَهَا الْقُذَّافُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ... بِقُومَسَ حَتَّى صَعْبُهُنَّ ذَلُولُ (٤)

إن أغلب المعارك التى خاضها الخوارج كانت فى جملتها ضد جيوش الأمويين، ولذلك تعرضنا للشكوى السياسية عندهم ، فقد ارتبطت بمذهبهم السياسى ومعتقدهم الدينى ، فى ظل صراعهم مع بنى أمية وكان أخص مايميز هذا الصراع استعذاب الخوارج للموت حيث أضفى هذا الأمر على الشعر الخارجى وخاصة الشاكى منه نغما شجيا ، ووشحه بظلال كئيبة ، إلا أنها مدته بطعم مميز من الإيمان والإخلاص العميقين، فلم يخضع الخوارج فى شعرهم إلى مبررات اليأس ، ودواعى التردد ، لأن الموت عندهم فى ساح الوغى يمثل نوعا من الأمل ، والوعد والخلاص ، وإنما اعتبرنا شكوى الخوارج من تأخر الموت فى المعركة شكوى سياسية لما اتسم به عموم شعرهم من صفة الثورة على السلطة ، واعتبارها غير شرعية ، فغدا شعرهم من هذا المفهوم

---

(١) الملل والنحل /للشهرستانى : ١٦٦/١ والفرق بين الفرق : ١٥ .

(٢) شعر الخوارج : ١٠٠ .

(٣) التَّسَاوُك : الاضطراب فى المشي من الضعف والتعب .

(٤) تَعَاوَرَهَا : تداولها . القُذَّافُ : رماة السهام .

شعر ثوار ترافقهم السيوف فى حلهم وترحالهم ، مستعذبين الموت فى هذا السبيل (١) .

ولاشك أن فى رفضهم الحياة وتعلقهم بالموت بهذه الصورة غلوا كبيرا ، أدى بهم إلى تمزيق شمل الجماعة الاسلامية لعدم إيمانهم بغير مذهبهم ، وهذا غلو وتطرف ، ومجانبة لروح الاعتدال والقصد .

والذى نود بيانه ، أن الخوارج ، وإن تستروا بالدين ، وأقاموا جماعتهم باسمه ، فإن ذلك لايعدو أن يكون غطاء تتوارى خلفه نظرة سياسية آمنوا بها ، واستماتوا دونها ، وجاهدوا فى سبيلها ، ورفضوا الانضواء تحت سلطة الأمويين من أجلها ، وقبل ذلك خرجوا على الامام على - رضى الله عنه - لأمور تتعلق بها .

والمتتبع للوضع السياسى الذى قامت عليه الفرق الاسلامية فى العصر الأموى يجد أن كلا من الخوارج ، والشيعة ، والزبيريين يبغض بنى أمية ويرون أنهم اغتصبوا حقا ليس لهم ، فهو حق المسلمين عند الخوارج ، وحق الهاشميين عند الشيعة ، وحق عامة قريش عند الزبيريين ، فكانت هذه الأحزاب تشكل جبهة المعارضة السياسية لبنى أمية ، وإن لم يتفق الزبيريون مع الخوارج والشيعة ، فقد دارت بينهم ، وبخاصة مع الخوارج معارك ولقاءات (٢) .

---

(١) الفرق الاسلامية فى الشعر الأموى / الدكتور النعمان القاضى . دار المعارف بمصر ١٩٧٠م ص : ٤٣٥ - ٤٣٦ .

(٢) الكامل فى التاريخ : ٧٤/٤ ومابعدها .

ولعلنا نأتى على الشكوى السياسية عند الشيعة ، كما أتينا عليها عند الخوارج ، باعتبار الشيعة من الأحزاب القوية بفرقهم المتعددة ، وهم يتفقون جميعا فى عدائهم لبنى أمية ، وغيرهم من الفرق الأخرى ، ويدعون الحب لآل البيت [(١)] .

إن الشكوى السياسية عند شعراء الشيعة تأخذ طابعا حزينا ثائرا يستدر الدموع ، ويستنهض الهمم ، ليس لاستبطاء الموت كما هو الحال عند الخوارج ، ولكن لما يرونه من أن أئمتهم قد سلبوا حقوقهم فيما يتعلق بأمر الخلافة ، فهم يسعون دائما لاستردادها ، لكن بنى أمية ومن جاء بعدهم لم يتهاودوا مع الشيعة ، بل رصدوهم سرا وعلانية ، ونكلوا بهم أشد تنكيل [(٢)] .

وإذا كنا لانجد للشيعة شجاعة الخوارج ، واقدامهم على الموت فى المعارك، فإن ذلك فى نظرى يعود إلى ايمانهم بمبدأ التقية ، وأخذهم بها [(٣)]، إذ يسكتون

---

(١) الملل والنحل /للشهرستانى : ١٤٦/١ - ١٩١ .
والفرق بين الفرق : ٢١ - ٢٨ .
والحور العين : ١٥٤ ومابعدها .

(٢) أدب الشيعة : ٢٨٢ . وتاريخ الشعر السياسى / للشايب : ٢٢٩ .

(٣) التقية : وهى المداراة ، والكتمان ، واظهار غير مافى الحقيقة ، فهم يظهرون الصلح، والاتفاق ، وباطنهم بخلاف ذلك ، وأكثر الشيعة يأخذ بها ، بل ان منهم من قال يجب اظهار الكفر لأدنى مخافة أو طمع ، وقد حملوا بيعة على - لأبى بكر ، وعمر وعثمان - رضى الله عنهم - على التقية ، وكان كثير منهم يكتمون تشيعهم تقية ويعملون سرا .

اللسان (وقى) .

وفجر الاسلام : ٣٢٧/١ .

على مضض متى رأوا فى عدوهم قوة ، وفيهم ضعفا ، حتى تواتيهم الفرصة ، فينقضوا، إضافة إلى أن شعراء الشيعة قد شغلوا بفنون أخرى ، وغايات نفعية ، فقد مدحوا ، وتغزلوا ، وتكسبوا بالشعر ، مدعين أنهم ماسلكوا هذا إلا تقية (١) . ثم إن شعراء الشيعة ، كما يرى أحمد الشايب (نظريون لم يجاهدوا كشعراء الخوارج الذين عدوا أنفسهم شهداء ، ولم يكونوا فى الورع ، والتقى مثل نظرائهم ، فالشيعة ربما زهدوا فى زعمائهم ، أو أئمتهم اشفاقا عليهم ، ولكنهم طمعوا فى غيرهم من ممدوحيهم ، بخلاف الخوارج الذين احتقروا الدنيا وازدروا المال) (٢) .

والشيعة يبنون سياستهم على حب آل البيت - إن صدقوا فيه - لكنهم اشتطوا فى هذا الحب ، وابتدعوا فى الدين ماليس منه ، وبالغوا فى تصوير ما يلقاهم فى الحياة من عنت ، وعزوا سببه خطأ إلى حبهم لآل الرسول (٣) - صلى الله عليه وسلم - كقول الكميت فى هذه الشكوى (٤) :

أَلَمْ تَرَنِى مِنْ حُبِّ آلِ محمَّدٍ ... أَرُوحُ وَأَغْدُو خَائِفًا أَتَرَقَّبُ
كَأَنِّى جَانٍ مُحْدِثٌ وَكَأَنَّمَا ... بِهِمْ يُتَّقَى مِنْ خَشْيَةِ العُرِّ أَجْرَبُ
عَلَى أَىِّ جُرْمٍ أَمْ بِأَيَّةِ سِيرَةٍ ... أُعَنَّفُ فِى تَقْرِيظِهِمْ وَأُؤَنَّبُ

---

(١) شعر الكميت : ١٣/١ - ١٤ ، والأغانى : ٣٥٤/١٦ .

(٢) تاريخ الشعر السياسى : ٢٣٦ .

(٣) ان الحب الصحيح لآل البيت ، هو فى اتباع ماجاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعدم الابتداع فى الدين ماليس منه، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة .

(٤) الهاشميات : ٧٥ .

ويبدو أن شعراء الشيعة ، والموالين لهم ظلوا هدفا للسلطة العباسية فيما بعد ، إذ لم يكن وضع شعراء العلويين فى العصر العباسى بأحسن منه أيام الأمويين ، كما يبين ذلك يوسف بن لقوة الكوفى[1] فى هذه الشكوى :

صَرْفُ هَذَا الزَّمَانِ ضَعْضَعَ رُكْنِى ... مَا أَرَى لِى مِنَ الزَّمَانِ مجِيرا[2]
لَيْسَ ذَنْبِى إِلَى الزَّمَانِ سُوَى أَنِّى ... أَحْبَبْتُ شُبَّرًا وَشَبِيرا[3]
وَعَلِيًّا أَبَاهُمَا أَفْضَلُ الأُمَّةِ ... (م) بَعْدَ النَّبِى سبْقًا وَخيرا
فَعَلَى حُبِّهِم أَمُوتُ وَأَحْيَا ... وَعَلَى هَدْيِهِمْ أُلاقِى النّشُورا

ومثل هذه النغمة الشاكية ، نجدها عند أبى شميلة الأبار[4] ، من شعراء الشيعة الذى يشكو من تعرض آل البيت للاضطهاد مع أنهم آل النبى - صلى الله عليه وسلم - فيقول[5] :

---

(١) هو يوسف بن لقوة الكاتب الكوفى ، وكان الفضل بن سهل يفضله فى الكتابة ، وهو من الشعراء الكتاب فى القرن الثانى الهجرى كان يسخر من سوء حاله ، وحرفته (ت ٢٠٠ هـ) .

معجم الشعراء : ٥٠٨ - ٥٠٩ ، والشعراء الكتاب فى العراق فى القرن الثالث الهجرى : ٣٠ .

(٢) معجم الشعراء : ٥٠٨ - ٥٠٩ .

(٣) شُبَّرًا : اسم من أسماء الامام الحسن بن على ، وشَبِيرًا : من أسماء الحسين رضى الله عنهما .

(٤) لم أقف له على تعريف فيما لدى من مصادر .

(٥) مقاتل الطالبيين : ١٥١ .

وَالنَّـاسُ قَـدْ أَمِنـوا وَآل محمّـدٍ ... مِنْ بَيْـنِ مَقْتُـولٍ وَبَيْـنِ مُشَـرَّدِ
نُصُبٌ إِذَا أَلْقَـى الظَّـلَامُ سُتُـورَهُ ... رَقَـدَ الحَمَـامُ وَلَيْلُهـم لَم يَرْقُـدِ
يَـالَيـتَ شِعْـرِى وَالخُطُـوبُ كَثِيـرَةٌ ... أَسْبَـابُ مَوْرِدِهَـا وَمَالَـمْ يُـورَدِ
مَـاحُجَّـةُ المُسْتَبْشِرِيـنَ بِقَتْلِـهِ (١) ... بِـالأَمْسِ أَوْ مَـاعُـذْرُ أَهْـلِ المَسْجِـدِ

لقد مضى شعراء الشيعة فى تشيعهم بجرأة صادقة ، معلنين مرة ، ومسرين أخرى ، ويعد الكميت من أقوى الشعراء تشيعا فى القرن الأول الهجرى ، فقد وطأ للشيعة ، وفتح لهم باب الاحتجاج لمذهبهم(٢) ، ولم يسلم بصحة خلافة بنى أمية ، حتى وإن مدحهم ، ونال عطاءهم ، فقد انبرى يعارضهم ، ويؤكد أنهم بعيدون عن مواقع العدل ، وأنهم مغتصبون لحق آل البيت ، وقد ابتدعوا فى الدين مالم يكن ، فلم يتلزموا بما جاء فىالكتاب العزيز(٣) ، وقد أخذ يشكو من سياستهم ، ويظهر التذمر انطلاقا من نزعته الشيعية المتأصلة ، حيث بالغ كثيرا فى نقد هذه السياسة التى اتبعها الأمويون ، وهى مبالغة درج عليها شعراء الشيعة لتهويل ماحل بآل البيت على أيدى الأمويين الذين يعدون فى عرف الشيعة مستبدين ، ومتسلطين ومغتصبين للخلافة يقول(٤) :

---

(١) المراد بالمقتول هنا : زيد بن على بن الحسين .

(٢) تاريخ الشعر السياسى : ٢٣٤ .

(٣) رحلة الشعر من الأموية الى العباسية / للدكتور مصطفى الشكعة عالم الكتب ١٩٧٩م ص : ٨١ - ٨٢ .

(٤) الهاشميات : ١٤٧ - ١٦٤ .

وَعُطِّلَتْ الأَحْكَامُ حَتَّى كَأَنَّنَا ... عَلَى مِلَّةٍ غَيرِ الَّتِي نَتَنَحَّلُ (١)
كَلامُ النَّبِيِّينَ الهُدَاةِ كَلامُنَا ... وَأَفْعَالَ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ نَفْعَلُ
فَتِلْكَ أُمُورُ النَّاسِ أَضْحَتْ كَأَنَّهَا ... أُمُورُ مُضِيعٍ آثَرَ النَّومَ بُهَّلُ
فَيَاسَاسَةً هَاتُوا لَنَا مِنْ جَوَابِكُمْ ... فَفِيكُمْ لَعَمْرِي ذُو أَفَانِينَ مِقْوَلُ (٢)
أَأَهْلُ كِتَابٍ نَحْنُ فِيهِ وَأَنْتُمُ ... عَلَى الحَقِّ نَقْضِي بِالْكِتَابِ وَنَعْدِلُ
فَكَيفَ وَمِنْ أَنَّى وَإِذْ نَحْنُ خِلْفَةٌ ... فَرِيقَانِ شَتَّى تَسْمَنُونَ وَنَهْزِلُ (٣)
بُرِينَا كَبَرْيِ القِدْحِ أَوْهَنَ مَتْنَهُ ... مِنَ القَومِ لا شَارٍ وَلا مُتَنَبِّلُ (٤)
فَتِلْكَ وُلاةُ السُّوءِ قَدْ طَالَ مُلْكُهُمْ ... فَحَتَّامَ حَتَّامَ العَنَاءُ المُطَوَّلُ
رَضُوا بِفِعَالِ السُّوءِ فِي أَهْلِ دِينِهِمْ ... فَقَدْ أَيْتَمُوا طَوْرًا عِدَاءً وَأَثْكَلُوا
وَمَا ضَرَبَ الأَمْثَالَ فِي الجَوْرِ قَبْلَنَا ... لأَجْوَرَ مِنْ حُكَّامِنَا المُتَمَثِّلُ
هُمُ خَوَّفُونَا بِالْعَمَى هُوَّةَ الرَّدَى ... كَمَا شَبَّ نَارُ الحَالِفِينَ المُهَوِّلُ
لَهُمْ كُلَّ عَامٍ بِدْعَةٌ يُحْدِثُونَهَا ... أَزَلُّوا بِهَا أَتْبَاعَهُمْ ثُمَّ أَوْجَلُوا
تَحِلُّ دِمَاءُ المُسْلِمِينَ لَدَيْهِمُ ... وَيَحْرُمُ طَلْعُ النَّخْلَةِ المُتَهَدِّلُ (٥)
وَلَيسَ لَنَا فِي الفَيءِ حَظٌّ لَدَيْهِمُ ... وَلَيسَ لَنَا فِي رِحْلَةِ النَّاسِ أَرْحُلُ
فَيَارَبِّ هَلْ إِلاَّ بِكَ النَّصْرُ نَبْتَغِي ... عَلَيهِمْ وَهَلْ إِلاَّ عَلَيْكَ المُعَوَّلُ

---

(١) المِلَّةُ : الدِّين . والمراد : كأنا على غير ملة الاسلام لما قد بدلت الأحكام والسنن .

(٢) أَفَانِينُ : أى ضروب الكلام . والمِقْوَلُ : اللسان المتكلم البليغ .

(٣) خِلْفَةٌ : المراد بها هنا اننا مختلفون .

(٤) بُرِينَا : قطعنا كما يقطع القدح ويبرى . والمُتَنَبِّلُ : صاحب النبل .

(٥) المُتَهَدِّلُ : المتدلى .

ورغم هذا ، فإن الكميت ربما صانع الأمويين كثيرا ، وإلا فما معنى أن نجده ، وهو قائل هذه القصيدة التى تعرض فيها لبنى أمية كما نرى ، ونددبسياستهم ، يمدح كثيرا من خلفائهم ، وولاتهم ، وينال عطاءهم [١] ، ولكن هذا التصرف فى أغلب الظن من باب الكدية والتقية معا [٢] .

إن شعر الكميت يعد وقودا للثورة ، ومنطلقا للاحتجاج ، والمجادلة ، يسير فى الناس فيبعث فيهم الحمية ، والحماسة ، ويدفعهم لكره بنى أمية ، وقتالهم ، وقد عمد شعراء الشيعة فى شكواهم إلى تصوير بنى أمية قوة مستبدة مسلطة على آل البيت ، فكانوا دائما يبكون مصارع قتلاهم ، ويصورون ما أصابهم من بغى الأمويين ، وغيرهم تصويرا عاطفيا صادق الأداء وان لم يسلم من المبالغة ، والتهويل . يقول أبو دهبل الجمحى (ت ٦٣ هـ) يشكو من التمثيل بالحسين وآله عند مقتلهم - رضى الله عنهم - [٣] :

تَبِيتُ النَّشَاوَى مِنْ أُمَيَّةَ نُوَّمًا … وَبِالطَّفِّ قَتْلَى مَا يَنَامُ حَمِيمُهَا
وَمَا ضَيَّعَ الإِسْلَامَ إِلَّا عِصَابَةٌ … تَأَمَّرَ نَوكَاهَا وَدَامَ نَعِيمُهَا
وَصَارَتْ قَنَاةُ الدِّينِ فِى كَفِّ ظَالِمٍ … إِذَا مَالَ مِنْهَا جَانِبٌ لَا يُقِيمُهَا

---

(١) فقد مدح عبد الملك بن مروان ، وهشام بن عبد الملك ، ويزيد بن عبد الملك ، كما رثا معاوية بن هشام بن عبد الملك ، ومدح يوسف بن عمر ، وخالدا بن عبد الله القسرى ، وقتيبة بن مسلم الباهلى وغيرهم .
شعر الكميت : ١٣/١ - ١٤ .

(٢) المصدر نفسه : ١٣/١ - ١٤ .

(٣) أمالى المرتضى : ١١٨/١. ومعجم البلدان (طف) .

ومع أن أى مسلم لايمكن أن يقر قتل الحسين ، وغيره من آل البيت ، وعامة المسلمين ، بل انه يعد جريمة ، وشرخا فى جسد الأمة المسلمة ، لكن الشاعر كما نرى بالغ كثيرا فى نقد بنى أمية ، ونعتهم بأوصاف غاية فى الخسة ، لايمكن للباحث أن يسلم بها ، فليس من المعقول أن بنى أمية سكارى ، وأنهم عبيد تآمروا على الناس ، فأفسدوا الدين بظلمهم ، ولكن هذه الأوصاف أطلقها الشاعر من قبيل السخط السياسى ، والدينى عليهم ، ولا ينكر أحد أن بنى أمية قد خدموا الاسلام ، وجاهدوا فى سبيل الله وفتحوا كثيرا من البلاد ، وهذه أمور كلها مبسوطة فى كتب التاريخ ، وإن كان الهاشميون قد تعرضوا لنوع من الاضطهاد أدى إلى قتل كثير منهم [1] نتيجة ظروف سياسية ، وانقسامات مذهبية طرأت على الأمة المسلمة .

وتتضح الشكوى السياسية عند شعراء الشيعة كثيرا فى رثائهم لأئمتهم ، حيث يتحول هذا الرثاء فى جانب كبير منه إلى تحريض على الأخذ بالثأر ، وهو تحريض يتحول إلى رغبة شديدة فى سفك الدماء ، ويبدو هذا الاتجاه واضحا فى قول الشاعر سليمان بن قتة [2] يرثى الحسين ، ويشكو مما حل بآل محمد [3] :

---

(١) تحدث عن هذا باسهاب وربما بمبالغة شديدة أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه مقاتل الطالبيين .

(٢) سليمان بن قتة العدوى منسوب الى أمة ، وهو مولى بنى تيم بن مره ، كان فى الدولة الأموية ، وكان محدثا ، ذكر عنه يحيى بن معين أنه ثقة ، ومع روايته للحديث كان شاعرا ، ولكنه من المقلين توفى حوالى ١٢٠هـ . الشعر والشعراء : ٦٢/١ ، والحماسة لأبى تمام / تحقيق عبد الله عسيلان : ٤٧٥/١ ، والطبرى : ١٤١/٧ ، والكامل فى اللغة والأدب : ٢٨٩/١ - ٢٩٠ .

(٣) الحماسة/ لأبى تمام : ٤٧٥/١ - ٤٧٦، ومقاتل الطالبيين/١٢١ - ١٢٢ .

مررت علــى أبيـــاتِ آلِ محمّــدٍ فلــم أرها أمثالها يــوم حلّــتِ
ألــم تــر أنّ الشمس أضحت مريضــةً لفقــدِ حُسيــنٍ والبــلادِ اقشعــرّتِ
وكانوا رجاءً ثمّ صــاروا رزيــّةً لقد عظمت تلك الرّزايــا وجلّــتِ
أتسألنــا قيــسٌ فنعطِي فقيرهــا وتقتلنــا قيــسٌ إذا النّعــل زلّــتِ
وعند غنــيٍّ قطــرةٌ من دمائنــا سنطلبهــا يومــاً بهــا حيثُ حلّــتِ
فلا يُبعِدِ اللّهُ الدّيــارَ وأهلهــا وإنْ أصبحتْ منهم برغمي تخلّــتِ
فــإنّ قتيل الطّفّ من آلِ هاشــمٍ أذلّ رقــابَ المسلمينَ فذلّــتِ

ومثل هذا كذلك قول فضل بن عباس المطلبى (١) فى رثائه لزيد بن علــى ابن الحسين - رضى الله عنهم - (٢) .

ألا يا عيــن لاترقِــى وجــودى بدمعِكِ ليس ذا حيــن الجمــودِ
غــداة ابــن النّبــىّ أبو حسيــنٍ صليب بالكناســةِ فــوق عــودِ
وكيــف تضــنّ بالعبــراتِ عينــى وتطمــعُ بعــد زيــدٍ فى الهجــودِ

ثم يتحول هذا الرثاء إلى شكوى يحرض من خلالها على الأخذ بالثــأر فيقول :

---

(١) فضل بن العباس بن عبد الرحمن بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب . قتل يوم الحرة .
جمهرة أنساب العرب / لابن حزم الاندلسى . تحقيق عبد السلام هارون دار المعارف ط (٤) ص : ٧٠ - ٧١ .

(٢) مقاتل الطالبيين : ١٤٩ - ١٥٠ .

وَكَيْفَ لَهَا الرُّقَادُ وَلَمْ تُرَائِي ... جِيَادَ الخَيْلِ تَعْدُو بِالأُسُودِ
تَجَمَّعَ لِلْقَبَائِلِ مِنْ مَعَدٍّ ... وَمِنْ قَحْطَانَ فِى حَلَقِ الحَدِيدِ
بِأَيْدِيهِمْ صَفَائِحُ مُرْهَفَاتٍ ... صَوَارِمُ أَخْلَصَتْ مِنْ عَهْدِ هُودِ
بِهَا نَسْقِى النُّفُوسَ إِذَا الْتَقَيْنَا ... وَنَقْتُلُ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدِ
وَنَحْكُمُ فِى بَنِى الحَكَمِ العَوَالِى ... وَنَجْعَلُهُمْ بِهَا مِثْلَ الحَصِيدِ
وَنُنْزِلُ بِالْمُعَيْطِيِّينَ حَرْبًا ... عُمَارَةَ مِنْهُمُ وَأَبُو الوَلِيدِ
وَإِنْ تُمْكِنْ صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنْكُمْ ... وَمَا يَأْتِى مِنَ الأَمْرِ الجَدِيدِ
نُجَازِيكُمْ بِمَا أَوْلَيْتُمُونَا ... قِصَاصًا أَوْ نَزِيدُ عَلَى المَزِيدِ
وَنَتْرُكُكُمْ بِأَرْضِ الشَّامِ صَرْعَى ... وَشَتَّى مِنْ قَتِيلٍ أَوْ طَرِيدِ

وكما نرى ، فقد تحول هذا الرثاء الى تحريض ، وتهديد بالانتقام ،والأخذ بالثأر ، وهى ميزة درج عليها شعراء الشيعة فى رثاء قتلى آل البيت (١) .

لقد ذهب شعراء الشيعة فى عدة أغراض تستغرقها منازع حب آل البيت حبا ينزع بهم إلى الثورة على بنى أمية ، والأخذ بالثأر منهم ، فوجدنا شعراءهم يبكون شهداءهم بكاء حارا ، ربما استغرق جل شعرهم ممزوجا باللوعة والحزن ، والتحريض ضد خصومهم ، مستخدمين كثيرا من النعوت التى قد تخرج هؤلاء الخصوم عن دائرة الايمان (٢) . وهم يجنحون فى شعرهم إلى الجدل العقلى ، والعاطفى ، وإنما

---

(١) العصر الاسلامى / الدكتور شوقى ضيف . دار المعارف بمصر . ط(١) ص: ٣١٥ - ٣١٦.

(٢) هاشميات الكميت : ٥٥ - ٦٥ ، ١٤٧ - ١٦٤ .
وأدب السياسة فى العصر الأموى / للحوفى : ٣١١ .
وقد استمر هذا النوع من الاحتجاج عند شعراء الشيعة فى العصر العباسى .
ويعد من أبرز زعمائه دعبل الخزاعى . ومروان بن أبى حفصة وغيرهما .

اعتبرنا شعر الرثاء عند شعراء الشيعة فى جانب كبير منه شكوى سياسية ، لما طغى عليه كما قلنا من صفة البكاء ، والدعوة إلى الثورة ، والأخذ بالثأر ٠

إن الشيعة بقدر عدائهم للأمويين ، فإنهم لم يكونوا على وفاق مع غيرهم من الأحزاب الأخرى التى وجدت فى العصر الأموى ، فهم يرون أن الزبيريين ليسوا أهلا لما يدعونه من ولاية المسلمين ، وأن الخوارج فى نظرهم قد فرقوا شيعة على - رضى الله عنه - وتسببوا فى خذلانه ثم قتلوه ، ولكنهم رغم هذا لم يصلوا فى عدائهم لهذه الفرق إلى ماوصلوا إليه فى عدائهم لبنى أمية الذين كانوا على رأس السلطة ، وبأيديهم مقاليد الأمور ، بخلاف الخوارج والزبيريين ، إذ لم يكن لهم من الأمر شئ ٠ ومن هنا لم يكن عداء الشيعة لهم موازيا لعدائهم لبنى أمية (١) ٠

وشعر الشيعة سواء أكان فى مواجهة بنى أمية أم الزبيريين وغيرهم ، يصدر فى عمومه عن حب آل البيت ، لفضلهم ، وبرهم ، ولأنهم عصمة الدين ، وأهل الفضل على المسلمين ، وليس ابن الزبير ، ولا الأمويون ، والخوارج فى مقامهم ٠

ومع أن هذا لاينكره مسلم إلا أن الشيعة عموما ، وإن بكوا كثيرا لمصارع آل البيت ، وشكوا من هول ذلك ، فإنهم من الأسباب التى أدت إلى قتلهم ، فقد خذلوهم ، واستدرجوهم حتى أوردوهم موارد الهلاك ، فرحم الله آل البيت ، ورضى عنهم ، وعن عامة المسلمين ، وتجاوز عن ولاة المسلمين زللهم ، وما أساءوا فيه ٠

---

(١) الفرق الاسلامية فى الشعر الأموى : ٣٦٥ ٠

ولعلنا بعد هذا الاستعراض للشكوى السياسية عند الخوارج ، والشيعة في هذه الفترة نأتي عليها عند الزبيريين باعتبارهم ثالث الأحزاب السياسية الهامة التي ظهرت في العصر الأموي ، فقد عارضوا سياسة بني أمية لاستئثارهم بالخلافة مع أنها في نظرهم حق لقريش وحدها كما أعلن ذلك أبو بكر - رضي الله عنه - يوم السقيفة ، فلابد إذا من قصرها على الأكفاء منهم (١) .

وانطلاقا من هذه النظرة أخذ الزبيريون يعارضون قصرها على بني أمية ، غير أن عبد الله بن الزبير قد صانع معاوية بن أبي سفيان ، ودخل في بيعته ، وشارك معه في الفتوح ، وأعلن معارضته لمبدأ ولاية العهد ، ثم رضخ أخيرا ، لكنه سرعان ما انتقض بعد موت معاوية لأنه يرى نفسه أكفأ قريش لهذا الأمر لأسباب قد يطول ذكرها (٢) ، فبدأ يدعو لنفسه منذ (سنة ٦١ هـ) ، ولن نقف عند هذه التطورات التاريخية في خلافه ابن الزبير ، وإنما نبحث في الشكوى السياسية الناتجة عن الصراع السياسي الذي نشأ حول الخلافة ، إذ هي نقطة الخلاف بين الأحزاب السياسية التي نشأت في القرن الأول .

ورغم قصر الفترة التي ظهر فيها الزبيريون على المسرح السياسي ، فإنه كان لهم دور في ذلك الصراع ، وإن كان لايمكن للباحث التاريخي أن يؤصل نظرة الزبيريين السياسية لقصر فترتهم ، ولقلة شعرائهم ، فقد انتهوا حيث انتهى زعيمهم (سنة ٧٣ هـ) .

---

(١) أدب السياسة في العصر الأموي : ١١٦ .

(٢) المرجع نفسه : ١١٦ - ١١٧ .

ولعل أول مانجد من الشكوى السياسية عند الزبيريين ، والموالين لهم ما كان من أمر زفر بن الحارث الكلابى(١) أثر هزيمة جيش ابن الزبير فى مرج راهط (سنة ٦٤ هـ)(٢) ، حيث كان زفر وقومه من القيسية فى جيش ابن الزبير ، وكانت كلب بزعامة حسان بن مالك الكلبى(٣) فى جيش مروان ، فقال زفر يشكو من أمر هذه الهزيمة(٤) :

أَرِيْنِى سِلَاحِى لَا أَبَالَكِ إِنَّنِى ... أَرَى الحَرْبَ لَا تَزْدَادُ إِلَّا تَمَادِيَا
أَتَانِى عَنْ مَرْوَان بِالْغَيْبِ أَنَّهُ ... مُقِيدٌ دَمِى أَوْ قَاطِعٌ مِنْ لِسَانِيَا
فَلَا تَحْسبُونِى إِنْ تَغَيَّبْتُ غَافِلًا ... وَلَا تَفْرَحُوا إِنْ جِئْتُكُمْ بِلِقَائِيَا
أَتَذْهَبُ كَلْبٌ لَمْ تَنَلْهَا رِمَاحُنَا ... وَتُتْرَكُ قَتْلَى رَاهِطٍ هِىَ مَاهِيَا

(١) زفر بن الحارث بن عبد عمرو بن معاذ الكلابى أبو الهذيل ، أمير من التابعين من أهل الجزيرة ، كان كبير قيس فى زمانه . شهد صفين مع معاوية وشهد وقعة مرج راهط مع الضحاك بن قيس الفهرى ، حيث قتل الضحاك ، فهرب زفر الى قرقيسيا ، ولم يزل بها حتى مات ، وكانت وفاته فى خلافه عبد الملك بن مروان (سنة ٧٥ هـ) .
خزانة الأدب : ٣٧٢/٢ - ٣٧٣ . والأعلام : ٤٤/٣ - ٤٥ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٥٤٠/٥ - ٥٤١ .

(٣) حسان بن مالك بن بحدل بن أنيف أبو سليمان الكلبى ، أمير بادية الشام ، كان من القادة فى جيش معاوية يوم صفين ، ثم آزر مروان بن الحكم فى حربه مع الضحاك بن قيس ، كان له قصر فى دمشق يعرف بقصر البحادلة توفى نحو (سنة ٦٥ هـ) .
سير أعلام النبلاء : ٥٣٧/٣ ، وتهذيب ابن عساكر : ١٤٥/٤ ، طبعة دمشق ١٣٢٩ - ١٣٥١ هـ .

(٤) تاريخ الطبرى : ٥٤١/٥ - ٥٤٢ .

لَعَمْرِى لَقَدْ أَبْقَتْ وقيعَةُ رَاهِطٍ ... لِحَسَّانَ صَدْعاً بَيِّناً مُتَنَائِيَا
أَبعدَ ابْن عَمْرٍو وَابْن مَعْنٍ تَتَابعَا ... وَمَقْتَلِ هَمَّامٍ أُمَنِّى الأَمَانِيَا
فَلَمْ تُرَ مِنِّى نَبْوَةٌ قَبْلَ هَذِهِ ... فِرَارِى وَتَرْكِى صَاحِبَىَّ وَرَائِيَا
أَيَذْهَبُ يَومٌ وَاحِدٌ إِنْ أَسَأْتُهُ ... بِصَالِحِ أَيَّامِى وَحُسْنِ بَلاَئِيَا
فَلاَ صُلْحَ حَتَّى تَنْحِطَ الخَيْلُ بِالْقَنَا ... وَتثأر مِنْ نِسْوَانِ كَلْبٍ نِسَائِيَا

على أن من أكثر الشعراء وفاء لآل الزبير ، عبيد الله بن قيس الرقيات (ت ٨٥ هـ)(١) ، فقد كان لسان هذا الحزب الناطق ، ويبدو أنه فارس الكلمة عندهم ، فقد ارتضاهم دون غيرهم ، مع ماعرف به ابن الزبير فى مكة من عدم اغداقه على الشعراء ، مما أدى إلى انصرافهم عنه ، وكان الأجدر به أن يحسن اليهم ، ويصطنعهم ، ولكن ابن الرقيات رغم ذلك الشح الزبيرى ظل وفيا لهم حتى انتهوا ، وعندها يمم وجهه شطر الأمويين يمدحهم ، وينال رفدهم .

وقد ساءه تفرق قومه من قريش ، فأخذ يشكو ما أصاب وحدتها من ضعف ،وتمزق على أيدى الأمويين معددا ما أثاروه من حروب أهلية يقول(٢) :

حَبَّذَا العَيْشُ حِينَ قَومِى جَمِيعٌ ... لَمْ تُفَرِّقْ أُمُورَهَا الأَهْوَاءُ
قَبْلَ أَنْ تَطْمَعَ القَبَائِلُ فِى مُلْـ ... ـكِ قُرَيْشٍ وَتَشْمَتُ الأَعْدَاءُ

---

(١) العصبية القبلية وأثرها فى الشعر الأموى : ٤١٢ .

(٢) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات / تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م ص : ٨٨ .

أَيُّهَا المُشْتَهِى فَنَاءَ قُرَيْشٍ بِيَدِ اللَّهِ عُمْرُهَا وَالفَنَاءُ
إنْ تُوَدِّعْ مِنَ البِلَادِ قُرَيْشٌ لَايَكُنْ بَعْدَهُم لِحَىٍّ بَقَاءُ

وهو يشكو فى نفس القصيدة من تغلب الأمويين ، ويدعو إلى الثورة عليهم ، ويندد بسياستهم ، وما جلبته من خطر على مستقبل قريش أو ملكها كما يحلو له أن يسميه (١) :

عَيْنِ فَابْكِى عَلَى قُرَيْشٍ وَهَلْ يُرْ جِعُ مَافَاتَ إنْ بَكَيْتِ البُكَاءُ
مَعْشَرٌ حَتْفُهُمْ سُيُوفُ بَنِى العَلَّاتِ يَخْشَوْنَ أَنْ يَضِيعَ اللِّوَاءُ (٢)
تَرَكَ الرَّأْسَ كَالثَّغَامَةِ مِنِّى نَكَبَاتٌ تَسْرِى بِهَا الأَنْبَاءُ (٣)
مِثْلُ وَقْعِ القَدُومِ حَلَّ بِنَا فَالنَّاسُ مِمَّا أَصَابَنَا أَخْلَاءُ (٤)

ويندد بجرأة بنى أمية حينما أرسلوا جيوشهم التى أحرقت البيت ، واستباحت حرمته فيقول (٥) :

لَيْسَ لِلَّهِ حُرْمَةٌ مِثْلَ بَيْتٍ نَحْنُ حُجَّابُهُ عَلَيْهِ المَلَاءُ
حَرَّقَتْهُ رِجَالُ لَخْمٍ وَعَكٍّ وَجُذَامٌ وحِمْيَرٌ وَصُدَاءُ
فَبَنَيْنَاهُ مِنْ بَعْدِ مَا حَرَّ قُوهُ فَاسْتَوَى السَّمْكُ وَاسْتَقَلَّ البِنَاءُ

---

(١) نفس المصدر : ٩٤ - ٩٥ .
(٢) يريد ببنى العلات : لخم ، وعك ، وجذام .
(٣) الثَّغَامَةُ : واحدة الثغام وهو نبت يبيض عندما ييبس يشبه به الشيب .
(٤) أَخْلَاءُ : أى أخلياء من الهموم .
(٥) ديوانه : ٩٥ - ٩٦ .

ثم يهدد ، ويتوعد بنى أمية ، وأنه لايمكن أن يستطيب النوم قبل أن يدك حصون دمشق بخيول قريش كى ينتقم منهم بعد أن فجعوه فى موقعة الحرة بقتل اخوته وأحبابه فيقول :

كَيْفَ نَوْمِى عَلَى الفِرَاشِ وَلَمَّا ... يَشْمَلُ الشَّامَ غَارَةٌ شَعْوَاءُ
تُذْهِلُ الشَّيْخَ عَنْ بَنِيهِ وَتُبْدِى ... عَنْ بُرَاهَا العَقِيلَةُ العَذْرَاءُ
أَنَا عَنْكُم بَنِى أُمَيَّةَ مُزْوَرٌّ ... وَأَنْتُمْ فِى نَفْسِى الأَعْدَاءُ

وهذه القصيدة تظهر لنا اتجاه ابن قيس الرقيات السياسى ، فهو يشير إلى قومه قريش ، وكيف أنه ضاع ملكهم ، ولعل ذلك نابع من نظرة زعيم الحزب الزبيرى ، إذ أنهم يرون أن الخلافة يجب أن تكون لقريش يتولاها أكفؤهم .

وهناك أحزاب أخرى نشأت فى العصر الأموى كالمرجئة ، والمعتزلة ، وكان لها دور ، ورأى فى الحياة السياسية ، وفكرة خاصة فى سياسة الحكم (١) ، لكنها لم تكن فى القوة ، والخطورة كالخوارج ، والشيعة ، الزبيريين بحيث يلزمنا دراسة الشكوى السياسية عندهم . ولذلك أهملناهم .

---

(١) الملل والنحل / للشهرستانى : ٤٣/١ - ٩٠ .

(٢) والفرق بين الفرق : ٢٤ ، ٢٥ .
والحور العين : ٢٠٣ ، ٢٠٤ - ٢١١ .
وضحى الاسلام : ٢١/٣ - ١٩٨ ، ٣١٦ ، ٣٢٩ .

ومن خلال قراءتنا للنصوص الشعرية فى العصر الأموى ، تبين لنا أن بنى أمية عندما خلص لهم الحكم بعد التطاحن المرير الذى جابههم به خصومهم من الأحزاب الأخرى ، أدركوا أن استقراره يحتاج إلى دهاء سياسى ، فقربوا إليهم كثيرا من أصحاب الجبروت ، وقد اتخذوا فى سبيل هذا الأمر وسائل عدة من الترغيب والترهيب[1] ، وتشددوا فى معاملة الناس تارة ، وتساهلوا أخرى ، مما دعا أحد الشعراء إلى الشكوى ، والتنديد بسياسة معاوية قائلا[2] :

مُعَاوِىَ إِنَّنَا بَشَرٌ فَأَسْجِحْ ... فَلَسْنَا بِالْجِبَالِ وَلَا الْحَدِيدِ[3]
أَكَلْتُمْ أَرْضَنَا فَجَرَدْتُمُوهَا ... فَهَلْ مِنْ قَائِمٍ أَوْ مِنْ حَصِيدِ
فَهَبْنَا أُمَّةً هَلَكَتْ ضَيَاعًا ... يَزِيدُ أَمِيرُهَا وَأَبُو يَزِيدِ
أَتَطْمَعُ فِى الْخُلُودِ إِذَا هَلَكْنَا ... وَلَيْسَ لَنَا وَلَا لَكَ مِنْ خُلُودِ
ذَرُوا خَوْلَ الْخِلَافَةِ وَاسْتَقِيمُوا ... وَتَأْمِيرَ الْأَرَاذِلِ وَالْعَبِيدِ
وَأَعْطُونَا السَّوِيَّةَ لَا تَزُرْكُمْ ... جُنُودٌ مُرْدَفَاتٌ بِالْجُنُودِ

---

(١) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى : ٣٠ - ٣١ .

(٢) نسب هذا الشعر فى كتاب سيبويه : ٦٧/١ ، وفى العقد الفريد: ٣٢٠/٥ ، وخزانة الأدب : ٢٦٠/٢ للشاعر عقيبة بن هبيرة الأسدى ، وهو شاعر جاهلى اسلامى توفى حوالى ٥٠ هـ .
سمط اللآلىء : ١٤٩/١/ طبعة دار الحديث للطباعة والنشر ، ط (٢) ١٤٠٤هـ ، وقد نسبت هذه المقطوعة الى عبدالله بن الزبير الأسدى ضمن الشعر المنسوب له ولغيره من الشعراء فى ديوانه : ١٤٨ .

(٣) أَسْجِح : ارفق وسهل .

وهذه الشكوى تأخذ طابعا سياسيا كما نرى ، فهى تدور حول نهج بنى أمية فى معاملة الناس ، واختيار ولاتهم ، والشاعر يطالب بالمساواة وعدم تكليفهم ما لايطيقون ، فهو يشكو ، ويهدد ، ربما لأن حلم معاوية - رض الله عنه - جعله يطمئن من بطشه ، فأخذ يتطاول بهذه الأبيات التى تأخذ الى جانب الشكوى طابع الوعيد ، والتهديد .

لقد أعطى بنو أمية ولاتهم الحرية أن يفعلوا ما أرادوا فى رقاب الناس ، فلا يكاد يذكر تاريخ الأمويين إلا ويقفز إلى الأذهان بطش آل زياد ، والحجاج ، وغيرهم من الولاة الذين أعملوا السيف فى رقاب الرعية بذنب ، وبدون ذنب ، وقد يحاول الباحث أن يجد لذلك مبررا ، لكنه يعجز إذا سلم بصحة ماكتب عن عمال بنى أمية ، بل وعن الخلفاء الأمويين أنفسهم ، وربط ذلك بالظروف السياسية التى صاحبت قيام الدولة الأموية ، وتثبيت أركانها خاصة فى العراق مركز الشيعة ، والخوارج ، والحجاز حيث كان ابن الزبير ، ولذلك فإن صيحات الشكوى التى فاض بها الشعراء لم تصدر من فراغ فربما تهاون العمال فى حقوق الرعية ، وتشددوا فى أمور الدولة .

ولعل تلك القصيدة التى بعث بها أبو العيال الهذلي (١) إلى معاوية يشكو فيها ما يعانيه ، وأصحابه من حصار بأرض الروم ، وتأخر قائدهم فى صرف عطاياهم

---

(١) أبو العيال الهذلي ، أحد بنى خفاجة بن سعد بن هذيل ، كان شاعرا فصيحا مقدما من شعراء هذيل ، أدرك الجاهلية ، والاسلام ، وأسلم فيمن أسلم من هذيل ، وعاش حتى أدرك معاوية .

الشعر والشعراء: ٦٦٩/٢ . والأغانى : ١٦٧/٢٠ (بولاق) .

تبين شيئا من تلك السياسات التى كان يتبعها العمال وتشددهم فى أمور الدولة حتى لو أدى الأمر إلى التأخير فى صرف أعطيات الجند المرابطين فى الأقاليم البعيدة ، وقد قرئت القصيدة فيما تذكر المصادر على الناس فى دمشق ، وكان لها كبير الأثر فى نفس الخليفة يقول (١) :

مِنْ أَبِى العِيَالِ أَخِي هُذَيْلٍ فَاسْمَعُوا ... قَولِى وَلَا تَتَجَمْجَمُوا مَا أُرْسِلُ (٢)
أَبْلِغْ مُعَاوِيَةَ بْنَ صَخْرٍ آيَةً ... يَهْوِى إِلَيْهِ بِهَا البَرِيدُ الأَعْجَلُ
وَالْمَرْءَ عَمْرًا فَأْتِهِ بِصَحِيفَةٍ ... مِنِّى يَلُوحُ بِهَا كِتَابٌ مُنْمَلُ (٣)
وَإِلَى ابْنِ سَعْدٍ إِنْ أُؤَخِّرُهُ فَقَدْ ... أَزْرَى بِنَا فِى قَسْمِهِ إِذْ يَعْدِلُ
أَنَّا لَقِينَا بَعْدَكُمْ بِدِيَارِنَا ... مِنْ جَانِبِ الأَمْرَاجِ يَوْمًا يُسْأَلُ (٤)
أَمْرًا تَضِيقُ بِهِ الصُّدُورُ وَدُونَهُ ... مُهَجُ النُّفُوسِ وَلَيْسَ عَنْهُ مَعْدِلُ
فِى كُلِّ مُعْتَرَكٍ تَرَى مِنَّا فَتًى ... يَهْوِى كَعَزْلَاءِ المَزَادَةِ تُزْغِلُ (٥) .

وإننا لنجد الفرزدق الشاعر التميمى ، الذى عرف باعتداده بنفسه ،

---

(١) شرح أشعار الهذليين : ٤٣٣/١ - ٤٣٤ .

(٢) الجَمْجَمَةُ : أن يردد الشىء فى نفسه ولا يفهمه .

(٣) مُنْمَلُ : متقارب الخط .

(٤) يُسْأَلُ : أى يسأل عنه لشدته .

(٥) العَزْلَاءُ : فم المزادة . تُزْغِلُ : أى تدفع بالدم ، والزغلة : الدفعة .

ونسبه ، يكاد يطير فرقا من زياد بن أبى سفيان فيقول (١) :

أَتَانِى وَعِيدٌ مِنْ زِيَادٍ فَلَمْ أَنَمْ ... وَسَيْلُ اللَّوَى دُونِى وَهَضْبُ التَّهَايِمِ

فَبِتُّ كَأَنِّى مُشْعَرٌ خَيْبَرِيَّةً ... سَرَتْ فِى عِظَامِى أَوْ دِمَاءُ الأَرَاقِمِ (٢)

زِيَادَ بن حَرْبٍ لَوْ أَظُنُّكَ تَارِكِى ... وَذَا الضِّغْنِ قَدْ خَشَّمْتَهُ غَيْرَ ظَالِمِ

لَقَدْ كَافَحَتْ مِنِّى العِرَاقَ قَصِيدَةٌ ... رَجُومٌ مَعَ المَاضِى رُؤُوسَ المَخَارِمِ

رَأَيْتُكَ مَنْ تَغْضَبْ عَلَيْهِ مِن امْرِىءٍ ... وَلَوْ كَانَ ذَا رَهْطٍ يَبِتْ غَيْرَ نَائِمِ

ويقول كذلك مصورا خوفه الشديد (٣) :

إِذَا ذَكَرَتْ نَفْسِى زِيَادًا تَكَمَّشَتْ ... مِنَ الْخَوفِ أَحْشَائِى وَشَابَتْ مَفَارِقِى

ونجده يصور فرقه الشديد من الحجاج فى أسلوب غاية فى البراعة والدقة ، حيث يشكو من هذا الوالى الذى ملأت رهبته العراق كله يقول (٤) :

وَقَدْ خِفْتُ حَتَّى لَوْ أَرَى المَوتَ مُقْبِلاً ... لِيَأْخُذَنِى وَالْمَوتُ يُكْرَهُ زَائِرُهْ

لَكَانَ مِنَ الْحَجَّاجِ أَهْوَنَ رَوْعَةً ... إِذَا هُوَ أَغْضَى وَهوَ سَامٍ نَوَاظِرُهْ

وَمَا خَافَ شَىْءٌ لَمْ يَمُتْ مِنْ مَخَافَةٍ ... كَمَا قَدْ أَسَرَّتْ فِى فُؤَادِى ضَمَائِرُهْ

أَخَافُ مِنَ الْحَجَّاجِ سَوْرَةَ مُخْدِرٍ ... ضَوَارِبَ بِالأَعْنَاقِ مِنْهُ خَوَادِرُهْ

---

(١) ديوانه : ٢١٥/٢ - ٢١٦ .

(٢) مُشْعَرٌ خَيْبَرِيَّةً : أى مصاب بحمى خيبرية ، وخيبر كانت مشهورة بحماها .

(٣) نفس المصدر : ٤٠/٢ .

(٤) نفسه : ٢٥١/١ .

وإذا تأملنا هذه الشكوى ، وجدنا فيها تصويرا يملأ النفس رعبا من الحجاج، فقد وصفه عند إغضائه بالموت فكيف به ناظرا متأملا يقظا ، ولكنه نزهه عن الاغضاء فقال : (وَهْوَ سَامٍ نَوَاظِرُهْ) .

وقد سبق لنا الحديث عن ظلم الولاة ، وقسرهم الناس على الصعب من الأمور ، وتكليفهم فوق مايحتملون بما لايدع هنا مجالا للتعرض لهذا الجانب (١) .

لقد امتازت سياسة بنى أمية بإعطاء ولاتهم مطلق الحرية فى حكم الناس ، ففتحوا لهم الباب على مصراعيه ليعملوا مابدالهم فى أقاليمهم ، فكان الوالى يعين من يشاء ، ويعزل من يشاء بناء على مايراه ، أو ماتدفعه اليه عصبيته (٢) ، وكان من ذلك ماحدث فى سنة احدى وخمسين من الهجرة ، عندما توفى الحكم بن عمرو الغفارى (٣) عامل خراسان لزياد بن أبى سفيان أمير العراق ، وكان قد استخلف قبل وفاته أنس بن أبى أناس ، وكتب بذلك الى زياد فلم يقره ،بل عزله وولى خليد بن عبد الله الحنفى (٤) ، فغضب أنس وهتف بهذه الأبيات الشاكية (٥) ،

---

(١) الفصل الثانى من الباب الثانى فى هذه الدراسة .

(٢) العصبية القبلية وأثرها فى الشعر الأموى : ٢٥٧ - ٢٦٥ .

(٣) هو الحكم بن عمرو بن مجدع الغفارى ، صحابى له رواية ،وحديثه فى البخارى وغيره ، صحب النبى - صلى الله عليه وسلم - الى أن مات ، وانتقل الى البصرة فى أيام معاوية حيث تولى خراسان وبقى فيها حتى مات ، كان صالحا ،فاضلا، مقداما ، غازيا وتوفى سنة ٥٠ هـ .
الاصابة وبهامشه الاستيعاب : ٢٧٣/٢ . والأعلام : ٢٦٦/٢ .

(٤) تولى خراسان لزياد بن أبى سفيان ،ولم يبق فى الولاية الا شهرا، ثم عزل ، لم أقف له على تعريف فيما وقع تحت يدى من مصادر .

(٥) الطبرى : ٢٨٥/٥ - ٢٨٦ .
المصدر نفسه : ٢٨٥/٥ .

مصورا سخطه على سياسة زياد ، ورأيه فى بنى حنيفة ، وأنهم ليسوا أهلا للولاية ، والحكومة ، وإنما هم للحرث ، والزرع[(١)] .

أَلا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّى زِيَادًا ... مُغَلْغَلَةً يَخُبُّ بِهَا البَرِيدُ
أَتَعْزِلُنِى وَتُطْعِمُهَا خُلَيْدًا ... لَقَدْ لاقَتْ حَنِيفَةُ مَاتُرِيدُ
عَلَيْكُمْ بِالْيَمَامَةِ فَاحْرُثُوهَا ... فَأَوَّلُكُمْ وَآخِرُكُمْ عَبِيدُ

ويبدو أن بعض الشعراء قد يظن أن سياسة الخليفة تجاه قبيلته ثابتة لاتتغير ، بناء على مواقف سابقة ، فإذا ماحدث أن صرف الخليفة اهتمامه أو جزءا منه عنهم كبر عليهم الأمر ، ولج شعراؤهم بالشكوى من هذه السياسة .

وقد حدث أن تحركت فى معاوية عصبيته المضرية ، ففرض فيما ذكروا لأربعة آلاف رجل من قيس دفعة واحدة ، وكان قبل ذلك منحازا فى سياسته للقبائل اليمانية ، ثم جعل يرسل اليمانية للغزو بحرا ، ويرسل قيسا برا رعاية لها . وهذا التحول المفاجئ فى سياسة معاوية قد أسخط عليه اليمانية ، فأخذ أحد شعرائهم يشكو من هذا التصرف قائلا[(٢)] :

أَتُتْرَكُ قَيْسًا آمِنِينَ بِدَارِهِمْ ... وَنَرْكَبُ ظَهْرَ البَحْرِ وَالبَحْرُ زَاخِرُ

---

(١) نفسه : ٢٨٦/٥ .

(٢) العصبية القبلية وأثرها فى الشعر الأموى : ٢٥٨ .

ومن عجيب الأمر أن الدولة الأموية كانت تحتاج فى الأوقات الصعبة إلى الاستعانة بالقبائل المضرية ، تطلب نصرتهم على الخوارج ، وتناشدهم القرابة ، حتى إذا زالت الشدة عادت الدولة إلى تجاهلهم ، وغمط حقوقهم ، وقد عبر مالك ابن الريب التميمى (ت ٦٠ هـ) عن سخطهم من هذه السياسة فقال [(١)]:

نَحْنُ الَّذِينَ إِذَا خِفْتُم مُجَلَّلَةً ... قُلْتُمْ لَنَا إِنَّنَا مِنْكُم لِتَعْتَصِمُوا
حَتَّى إِذَا انْفَرَجَتْ عَنْكُم دُجِنَّتُهَا ... صِرْتُم كَجِرْمٍ فَلَا آل وَلَا رَحِمُ

ومما قاله فى نقد سياسة الدولة الأموية ومظالمها ، وتبرير فتكه وخروجه :

أَحَقًّا عَلَى السلطَانِ أَمَّا الَّذِى لَهُ ... فَيُعْطَى وَأَمَّا مَا عَلَيهِ فَيُمْنَعُ [(٢)]
إِذَا مَا جَعَلْتُ الرَّمْلَ بَيْنِى وَبَيْنَهُ ... وَأَعْرَضَ سَهْبٌ بَيْنَ يَبْرِينَ بَلْقَعُ
فَشَأنَكُمُوا يَا آلَ مَرْوَانَ فَاطْلُبُوا ... سَقَاطِى فَمَا فِيْهِ لِبَاغِيهِ مَطْمَعُ [(٣)]

ومن هذا ماقاله جواس بن القعطل الكلبى [(٤)] ، فقد لج فى الشكوى واللوم ،

---

(١) شاعر يرثى نفسه / للدكتور محمد عبد المنعم عبد الكريم ، مطبعة الأمانة ط (١) ١٤٠٨هـ ص : ١٨ - ١٩ .

(٢) نفس المرجع : ١٧ .

(٣) السقط والسقاط : العثرة والزلة . اللسان (سقط) .

(٤) جواس بن القعطل بن سويد بن الحارث بن حصن بن عدى بن جناب الكلبى ، شاعر اسلامى محسن ، كان موجودا فى صدر دولة بنى أمية ، ومعاصرا لزفر ابن الحارث الكلابى ، حيث تبادلا الشعر .

حماسة أبى تمام : ١٩٨/٢.

والتقريع عندما لاحظ على عبد الملك بن مروان خلوده إلى الراحة ، وعدم اهتمامه بقبيلته كلب ، فأخذ يعنف ، ويمتن عليه فى هذه الشكوى[١] :

أَعَبْدَ المَلِيكِ مَاشَكَرْتَ بَلاَءَنَا ... فَكُلْ فِى رَخَاءِ الأَمْنِ مَا أَنْتَ آكِلُ

بِجَابِيَةِ الجُولاَنِ لَولاَ ابْنُ بَحْدَلٍ ... هَلَكْتَ وَلَمْ يَنْطِقْ لِقَومِكَ قَائِلُ[٢]

فَلَمَّا عَلَوتَ الشَّامَ فِى رَأْسِ بَاذِخٍ ... مِنَ العِزِّ لاَ يَسْطِيعُهُ المُتَنَاوِلُ

نَفَحْتَ لَنَا سَجْلَ العَدَاوَةِ مُعْرِضًا ... كَأَنَّكَ مِمَّا يُحْدِثُ الدَّهْرُ جَاهِلُ[٣]

وَكُنْتَ إِذَا أَشْرَفْتَ فِى رَأْسِ رَامَةٍ ... تَضَاءَلْتَ إِنَّ الخَائِفَ المُتَضَائِلُ

فَلَوْ طاوَعُونِى يَوْمَ بَطْنَانَ أُسْلِمَتْ ... لِقَيْسٍ فُرُوجٌ مِنْكُمُ وَمَقَاتِلُ[٤]

ويشكو فى موضع آخر استئثار بنى أمية بنعيم الدنيا وتنكرهم لقبيلته بعدما كان لها من المواقف الإيجابية معهم فيقول[٥] :

صَبَغَتْ أُمَيَّةُ بِالدِّمَاءِ رِمَاحَنَا ... وَطَوَتْ أُمَيَّةُ دُونَنَا دُنْيَاهَا

أَأُمَىَّ رُبَّ كَتِيبَةٍ مَجْهُولَةٍ ... صِيدِ الكُمَاةِ عَلَيكُمُ دَعْوَاهَا[٦]

---

(١) نفس المصدر : ١٩٨/٢ .

(٢) الجُولاَنُ : موضع معروف بالشام ، وابن بحدل : هو حميد بن بحدل الذى قتل ابن الزبير .

(٣) النَّفْحُ : الاصابة اليسيرة من ضربة السيف أو غيره . والسَّجْلُ : الدلو .

(٤) بَطْنَانُ : موضع بالشام .

(٥) حماسة أبى تمام : ١٩٩/٢ .

(٦) دَعْوَاهَا : أى تهديدها

الدعوى : الانتساب .

كُنَّا وُلاةَ طِعَانِهَا وَضِرَابِهَا ... حَتَّى تَجَلَّتْ عَنْكُمُ غُمَّاهَا
فَاللَّهُ يَجْزِى لاَ أُمَيَّةُ سَعْيَنَا ... وَعُلاً شَدَدْنَا بِالرِّمَاحِ عُرَاهَا

لقد تعالت صيحات الشكوى فى الأمصار البعيدة ، والثغور ، تبين للخلفاء سوء الموقف العسكرى للمسلمين فى بعض الأحيان ، فقد خسر المسلمون المعركة مع الترك يوم الشعب (١) فى عهد هشام بن عبد الملك ، وكان قائدهم الجنيد بن عبد الرحمن (٢) ، فانطلق ابن السجف المجاشعى(٣) ، يشكو ماحل بهم ، ويطلب من الخليفة المدد حيث يقول(٤) :

أذكُرْ يَتَامَى بِأَرْضِ التُّرْكِ ضَائِعَةً ... هَزْلَى كَأَنَّهُمُ فِى الحَائِطِ الحَجَلُ
وَارْحَمْ وَإِلاَّ فَهَبْهَا أُمَّةً دَمِرَتْ ... لاَ أَنْفُسٌ بَقِيَتْ فِيهَا وَلاَ ثَقَلُ
لاَ تَأْمَلَنَّ بَقَاءَ الدَّهْرِ بَعْدَهُمُ ... وَالمَرْءُ مَاعَاشَ مَمْدُودٌ لَهُ الأَمَلُ
لاَقَوْا كَتَائِبَ مِنْ خَاقَانَ مُعْلِمَةً ... عَنْهُمْ يَضِيقُ فَضَاءُ السَّهْلِ وَالْجَبَلُ

---

(١) الكامل فى التاريخ : ٣٩٥/٤ ، ونهاية الأرب : ٤١٢/٢١ - ٤٢٠ .

(٢) هو الجنيد بن عبد الرحمن بن عمر بن الحارث المرى الدمشقى أمير خراسان ، وأحد الشجعان ، ولاه هشام بن عبد الملك (سنة ١١١ هـ) ، فثبت فى الولاية حتى مات فى خراسان (سنة ١١٥ هـ) .
دول الاسلام / للذهبى ، تحقيق ، فهيم شلتوت ، ومحمد مصطفى ابراهيم ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب : ٨٠/١ .
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب / لابن العماد الحنبلى ، دار الآفاق الجديدة ١٥٠/١ .

(٣) ابن السجف المجاشعى التميمى من شعراء الدولة الأموية المقلين ، كان ينزل خراسان ، لم أجد من عرف به غير الطبرى ، ولم يحدد وفاته .
تاريخ الطبرى : ١٢٤/٧ .

(٤) نفس المصدر : ٧/ ٨١ .

لَمَّا رَأَوْهُمْ قَلِيلاً لاَ صَرِيخَ لَهُمْ … مَدُّوا بِأَيْدِيهِمُ لِلَّهِ وَابْتَهَلُوا
وَبَايَعُوا رَبَّ مُوسَى بَيْعَةً صَدَقَتْ … مَافِى قُلُوبِهِمُ شَكٌّ وَلاَ دَغَلُ (١)

ويبدو أن وقع هذه الهزيمة فى نفوس المسلمين كان صعبا للغاية ، فأنحوا باللائمة على قائدهم ، واتهموه بالذلة ، وحملوه مسئولية ماحل بهم من أمر هذه الهزيمة ، كما فى قول الشرعبى الطائى (٢) :

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو نَبْوَةً فِى قُلُوبِهَا … وَرُعْبًا مَلاَ أَجْوَافَهَا يَتَوَسَّعُ
فَمَنْ مُبْلِغٌ عَنِّى أَلُوكًا صَحِيفَةً … إِلَى خَالِدٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَتَوَزَّعُ
بِأَنَّ بَقَايَانَا وَأَنَّ أَمِيرَنَا … إِذَا مَاعَدَدْنَاهُ الذَّلِيلُ المُوَقَّعُ (٣)
هُمُ أَطْمَعُوا خَاقَانَ فِينَا وَجُنْدَهُ … أَلاَ لَيْتَنَا كُنَّا هَشِيمًا يُزَعْزَعُ

ولم يستطع المسلمون تقبل هذه الهزيمة فاستمروا فى شكواهم ،

---

(١) الدَّغَلُ : الفساد ٠

(٢) لم أعثر له على ترجمة فيما لدى من مصادر، لكن القصيدة تؤكد أنه اشترك مع الجنيد فى قتال الترك بالشعب (سنة ١١٢ هـ) ٠
تاريخ الطبرى : ٨٥/٧ ٠
وشعر طىء وأخبارها فى الجاهلية والاسلام : ٦٠٧/٢ - ٦٠٨ ٠

(٣) التَّوقِيعُ : سحج فى ظهر الدابة ٠ وقيل : فى أطراف عظام الدابة من الركوب ٠

وتأنيب قائدها كما يقول ابن عرس (١) :

فَالْعَيْنُ تُجْرِى دَمْعَهَا مُسْبَلاً ... مَا لِدُمُوعِ العَيْنِ مِنْ ذَائِدِ (٢)

كُنَّا قَدِيماً يُتَّقَى بَأْسُنَا ... وَنَدْرَأُ الصَّادِرَ بِالْوَارِدِ

فَتَقْتَ مَالَمْ يَلْتَئِمْ صَدْعُهُ ... بِالْجَحْفَلِ المُحْتَشِدِ الزَّائِدِ (٣)

تَرَكْتَنَا أَجْزَاءَ مَعْبُوطَةٍ ... يَقْسِمُهَا الجَازِرُ لِلنَّاهِدِ (٤)

أَضْحَتْ سَمَرْقَنْدُ وَأَشْيَاعُهَا ... أُحْدُوثَةَ الغَائِبِ وَالشَّاهِدِ

جُنَيْدُ مَاعِيصُكَ مَنْسُوبُهُ ... نَبْعاً وَلاَ جَدُّكَ بِالصَّاعِدِ (٥)

خَمْسُونَ أَلفاً قُتِلُوا ضَيْعَةً ... وَأَنْتَ مِنْهُم دَعْوَةَ النَّاشِدِ (٦)

---

(١) هو خالد بن المعارك العبدى ، ويعرف بابن عرس • من بنى غنم بن وديعة بن لكيز بن أفصى ، قيل انه ابن أمه ، وأن أخاه تميم بن معارك باعه من عمرو بن لقيط أحد بنى عامر بن الحارث ، فاعتقه عمرو لما حضرته الوفاة ووهبه مالا كثيرا ، ويبدو أنه حضر المعركة مع الجنيد ضد الترك ، ولم تحدد وفاته •

تاريخ الطبرى : ٨٦/٧ •

(٢) المصدر السابق : ٨٦/٧ - ٨٧ •

(٣) الجَحْفَلُ : الجيش الكثير ، والمُحْتَشِدُ : المجتمع •

(٤) مَعْبُوطَة : مذبوحة ، والجَازِرُ : الذابح ، والنَّاهِدُ : الصامد للعدو والشارع فى قتاله •

(٥) العِيصُ : الأصل ، وَمَنْسُوبَهُ : بدل اشتمال مما قبله ، والجَدُّ : الحظ ، والنَّبْعُ : شجر تتخذ منه القسى •

(٦) الدَّعْوَة : القرابة والاخاء •

ونكاد نجزم بأن العصبيات القبلية فى العصر الأموى كانت جزءا من سياسة الدولة ، باستثناء حكم عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - ، فقد احتدمت النزاعات بين القبائل العربية ، وتسببت فى وجود شئ من البغضاء التى تمثلت فى تصرف بعض الولاة ، كما حدث عندما تولى عبيدة بن عبد الرحمن السلمى (١) افريقية لهشام بن عبد الملك ، فأضر بمن هناك من قبائل كلب ، وتعصب عليهم ، فقال أبو الخطار الحسام بن ضرار (٢) يشكو للخليفة ، ويذكره بموقف قبيلته يوم مرج راهط (٣) :

أَفَادَتْ بَنُو مَرْوَان قَيْسًا دِمَاءَنَا ... وَفِي اللَّهِ إِنْ لَمْ تَعْدِلُوا حَكم عَـدْلُ

كَأَنكُم لَمْ تَشْهَدُوا مُـرْجَ رَاهِطٍ ... وَلَمْ تَعْلَمُوا مَنْ كَانَ ثَمّ لَـهُ الفَضْلُ

وَقَيْنَاكُمُ وَرْدَ القَنَا بِنُحُورِنَـا ... وَلَيْسَ لَكُمْ خَيْلٌ سوَانَا وَلاَ رَجْلُ

---

(١) عبيدة بن عبد الرحمن أبى الأغر من بنى ثعلبة بن بهثة بن سليم ، والى افريقية ، والأندلس لهشام بن عبد الملك ، حيث استمر فى الولاية أربع سنين ، وستة أشهر ، ثم عزل ، وقيل ان هذه القصيدة كانت السبب فى عزله توفى (سنة ١١٤ هـ) .

النجوم الزاهرة / لابن تغرى بردى ، طبعة دار الكتب ١٣٧٥هـ : ٢٤٥/١ .

(٢) هو حسام بن ضرار بن سلامان بن خيثم بن ربيعة الكلبى ، ثم الربعى ، كان حازما ، شجاعا ، فصيحا شاعرا ، أفرط فى التعصب لقومه من اليمانية ، وتحامل على المضرية عندما كان واليا على الأندلس (١٢٥ هـ) فأسخط قيسا ، وثار عليه بعضهم ، وقتل (سنة ١٣٠ هـ) .

جمهرة الأنساب / لابن حزم ، طبعة دار المعارف : ٤٥٧ ، والأعلام : ١٥٧/٢ .

(٣) أنساب الأشراف : ١٤٢/٥ .

ونهاية الأرب : ٥٧/٢٤ - ٥٨ .

فَلَمَّا بَلَغْتُمْ نَيْلَ مَاقَدْ أَرَدْتُمُ ... وَطَابَ لَكُم فِينَا المَشَارِبُ وَالأَكْلُ
تَغَافَلْتُمُ عَنَّا كَأَنْ لَمْ نَكُنْ لَكُمْ ... صَدِيقًا وَأَنْتُم مَا عَلِمْتُمْ لَنَا وَصْلُ

وأغلب الظن أن بنى أمية قد أخذوا جانب بعض القبائل العربية ، وأولوها ثقتهم ، بينما أهملوا البعض الأخر ، كما حدث لقبيلة بكر التى كانت تشارك فى الغزوات الخارجية ، وتعين فى الأحداث الداخلية دون أن يثق بها الأمويون ،أو يعترفوا بفضلها . بل إن الخليفة هشام بن عبد الملك كان يقول :

(إِنَّ رَبِيعَةَ لَا تُسَدّ بِهَا الثُّغُور)[1] ومن الطبيعى أن يشمئز شعراء بكر من هذه السياسة ، ويرون فيها اهمالا لهم ، وغمطا لحقوقهم ، وقد شكا خلف بن خليفة البكرى[2] من هذه السياسة ، وشرح للخليفة فضل قبيلته بكر[3] ، ودعاه إلى تغيير سياسته تجاههم يقول[4] :

حَفِظْنَا أُمَيَّةَ فِى مُلْكِهَا ... وَنَخْطِرُ مِنْ دُونِهَا أَنْ تُرَاعَى
نُدَافِعُ عَنْهَا وَعَنْ مُلْكِهَا ... إِذَا لَمْ نَجِد بِيَدَيْهَا امْتِنَاعَا

---

(١) تاريخ الطبرى : ١٥٦/٧ .

(٢) شاعر أموى مطبوع ، راوية كان لسنا بذيئا من الظرفاء، له أخبار مع يزيد ابن هبيرة ، والفرزدق وآخرين ، توفى حوالى (سنة ١٢٥ هـ) .
الشعر والشعراء : ٧١٤/٢ - ٧١٥ . والأعلام : ٣١٠/٢ .

(٣) الشعر العربى فى خراسان فى العصر الأموى / الدكتور حسين عطوان ، مكتبة المحتسب - عمان ط (١) ص : ١٢٧ .

(٤) تاريخ الطبرى : ١٠٢/٧ - ١٠٣ .

أَبَى شَعْبُ مَا بَيْنَنَا فِى الْقَدِيمِ ... وَبَيْنَ أُمَيَّةَ إِلاَّ انْصِدَاعَا
أَلَمْ نَخْتَطِفْ هَامَةَ ابْنِ الزُّبَيْرِ ... وَنَنْتَزِعُ الْمُلْكَ مِنْهُ انْتِزَاعَا
جَعَلْنَا الْخِلَافَةَ فِى أَهْلِهَا ... إِذَا اصْطَرَعَ النَّاسُ فِيهَا اصْطِرَاعَا
نَصَرْنَا أُمَيَّةَ بِالْمَشْرَفِيِّ ... إِذَا انْخَلَعَ الْمُلْكُ عَنْهَا انْخِلَاعَا
فَقُلْ لِأُمَيَّةَ تَرْعَى لَنَا ... أَيَادِىَ لَمْ نُجْزَهَا وَاصْطِنَاعَا
أَتُلْهِينَ عَنْ قَتْلِ سَادَاتِنَا ... وَنَأْبَى لِحَقِّكَ إِلاَّ اتِّبَاعَا
كَفَيْنَا أُمَيَّةَ مَخْتُومَةً ... أَطَاعَ بِهَا عَاصِمٌ مَنْ أَطَاعَا (١)
فَأَيْنَ الْوَفَاءُ لِأَهْلِ الْوَفَاءِ ... وَالشُّكْرُ أَحْسَنُ مِنْ أَنْ يُضَاعَا
وَأَيْنَ ادِّخَارُ بَنِى وَائِلٍ ... إِذَا الذُّخْرُ فِى النَّاسِ كَانَ ارْتِجَاعَا

وكان هشام بن عبد الملك قد ولى خالد بن عبد الله القسرى العراق ،فاشتط فى معاملة قبائل مضر ، وعند ذلك انبرى الفرزدق يشكو انحراف هذا الوالى وتعصبه لليمانية حيث يقول (٢) :

فَإِنْ نَبْكِ لَا نَبْكِ الْمُصِيبَاتِ إِذْ أَتَى ... بِهَا الدَّهْرُ وَالْأَيَّامُ جَمٌّ خِصَامُهَا
وَلَكِنَّنَا نَبْكِى تَنَهُّكَ خَالِدٍ ... مَحَارِمَ مِنَّا لَا يَحِلُّ حَرَامُهَا (٣)

---

(١) عاصم : هو عاصم بن عبد الملك الهلالى وكان أميرا على خراسان (سنة ١١٦هـ)

(٢) ديوانه : ٢/٢٤٠ - ٢٤١ .

(٣) يشير الى ما فعله خالد بن عبد الله القسرى لما ولى العراق ، والى تعصبه على من كان من مضر .

فَقُلْ لِبَنِى مَرْوَانَ : مَا بَالُ ذِمَّةٍ وَحُرْمَةِ حِلٍّ لَيْسَ يُرْعَى ذِمَامُهَا
أَلاَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ سَفْكُ دِمَائِنَا بِلاَ جُرْمَةٍ مِنَّا يَبِينُ اجْتِرَامُهَا
أَرَى مُضَرَ الْمِصْرَيْنِ قَدْ ذَلَّ نَصْرُهَا وَلَكِنَّ قَيْسًا لاَ يُذَلُّ شَآمُهَا
فَمَنْ مُبْلِغٌ بِالشَّامِ قَيْسًا وَخِنْدِفًا أَحَادِيثَ مَا يُشْفَى بِبُرْءٍ سِقَامُهَا
دَمُ ابْنِ يَزِيدٍ كَانَ حِلاًّ لِخَالِدٍ أَلَهْفِى لِنَفْسٍ لَيْسَ يُشْفَى هُيَامُهَا
فَغَيِّرْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّهَا يَمَانِيَةٌ حَمْقَاءُ أَنْتَ هِشَامُهَا
أَيَا ابْنِ يَزِيدٍ وَابْنِ زَحْرٍ تَحَلَّلَتْ دِمَاءُ تَمِيمٍ وَاسْتُبِيحَ سَوَامُهَا (١)
أَنُقْتَلُ فِيكُمْ إِذْ قَتَلْنَا عَدُوَّكُمْ عَلَى دِينِكُمْ وَالْحَرْبُ بَادٍ قَتَامُهَا
غَضِبْنَا لَكُمْ يَا آلَ مَرْوَانَ فَاغْضَبُوا عَسَى أَنَّ أَرْوَاحًا يَسُوغُ طَعَامُهَا

إن الفرزدق فى هذه الشكوى يستمد معانيه من أحداث تاريخية لها صلة وثيقة بالعصبيات القبلية ، والتحركات السياسية . ذلك أن يزيد بن المهلب الذى يشير إليه الشاعر فى هذه القصيدة قد ولى خراسان (سنة ٨٣ هـ) ثم عزله عبد الملك ابن مروان برأى الحجاج ، ولما أفضت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك ولاه العراق ثم خراسان ، وعندما تولى عمر بن عبد العزيز عزله ، وحبسه (٢) ، لكنه خرج من السجن بعد موت عمر حانقا على بنى أمية ، وناجزهم الخلافة ، وغلب على البصرة (سنة ١٠١ هـ) ثم قتل بعد حروب كثيرة مشهورة . وهنا يربط الفرزدق فى هذه الشكوى بين انتماء خالد القسرى ، ويزيد بن المهلب اليمنى ليوغر بذلك صدر الخليفة .

---

(١) ابنُ يَزِيد ، وجهم بن زحر من الخوارج وقد قتلهما بنو تميم .

(٢) الكامل فى التاريخ : ٢٠٧/٤ - ٢٠٨ ، ٢٥٦ ، ٣٠١ ، ٣١٩ ، ٣٢٥ .

والشاعر هنا ينطلق من منطلق سياسى ، يتعلق بالعصبية التى أصبحت فى عرف كثير من الدارسين سمة من سمات ذلك العصر . حيث كانت العصبية القبلية تستمد روافدها من شتى القبائل ، والبطون ، ولكنها فى آخر الأمر إنما تحتدم بين العدنانية ، والقحطانية ، ولذلك فإن الشعراء قد اشتكوا من مظاهر هذه العصبية التى جرتها فى كثير من الأحيان سياسة أغلب الولاة ، وإن كنا نجد بعض القبائل التى تنحدر من جد واحد(1) تلتهب بينها العصبية ،كما يصور القطامى (ت ١٠١ هـ) هذا الموقف تصويرا دقيقا حيث آلمه وقوع الخلاف بين حيى نزار، ربيعة ومضر ، فأخذ يشكو من هذا الوضع محاولا اطفاء نار العداوة بينهما ، وأن يحكما العقل ، لئلا تشمت بهم القبائل الأخرى (2) :

أَلَمْ يَحْزُنْكَ أَنَّ حِبَالَ قَيْسٍ ... وَتَغْلِبَ قَدْ تَبَايَنَتِ انْقِطَاعَا
يُطِيعُونَ الغُوَاةَ وَكَانَ شَرًّا ... لِمُؤْتَمِرِ الغُوَايَةِ أَنْ يُطَاعَا
أَلَمْ يَحْزُنْكَ أَنَّ ابْنَى نِزَارٍ ... أَسَالا مِنْ دِمَائِهِمَا التِّلاعَا
وَصَارَا مَا تَغِبُّهِمَا أُمُورٌ ... تَزِيدُ سَنَى حَرِيقِهِمَا ارْتِفَاعَا
كَمَا العَظْمُ الكَسِيرِ يُهَاضُ حَتَّى ... يَبَتُّ وَإِنَّمَا بَدَأَ انْصِدَاعَا
فَأَصْبَحَ سَيْلُ ذَلِكَ قَدْ تَرَقَّى ... إِلَى مَنْ كَانَ مَنْزِلُهُ يَفَاعَا
وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ لِذَاكَ يَوْمًا ... يَبُزُّ عَنِ المُخَبَّأَةِ القِنَاعَا
فَلَا تُبْعِدْ دِمَاءُ بَنِى نِزَارٍ ... وَلَا تَقْرُرْ عُيُونُكَ يَاقُضَاعَا

---

(1) العصبية القبلية وأثرها فى الشعر الأموى : ٣٨٧ .

(2) ديوان القطامى / تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائى ، وأحمد مطلوب دار الثقافة بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٦٠م ص ٣٢ .

ومن خلال دراستنا للشكوى فى ظل سياسة الأمويين اتضح أن هذا الاتجاه الشعرى قد نما ، لارتباطه بالشعر السياسى الذى شكل بابا واسعا من أبواب الشعر العربى فى العصر الأموى ، فقد شهدت هذه الفترة تغيرات سياسية كانت منطلقا للشعراء حسب انتماءاتهم السياسية ، فارتبط الشعر السياسى حينئذ بقضية الصراع بين على - رضى الله عنه - ومعاوية ، واحتد حول مسألة الخلافة اثر مقتل عثمان - رضى الله عنه - حيث اتخذ منه الأمويون متكأ لتحقيق أهداف سياسية لها علاقة وثيقة بذلك التنافس القديم بين البيتين الأموى ، والهاشمى منذ الجاهلية ، كما زاد من اتساع هذا النوع من الشعر مسألة توريث الخلافة ، هذا الاتجاه الذى لم يتقبله المسلمون فى بداية الأمر ، فالعرب وهم حديثو عهد بزمن النبوة ، والخلافة الراشدة ، قد هالهم هذا الصراع الدامى الذى نتج عنه بعد وقعة صفين ظهور أحزاب ثلاثة تنافس بنى أمية ، وكانت منطلقا لاتجاهات مذهبية ، ظهرت بوادرها فى العصر الأموى ، وقويت فى العصر العباسى . وقد سجل لنا الشعر تلك الأحداث السياسية الهامة ، ورصد نتائجها ، ونمت فى هذه الفترة العصبية القبلية لوجود أسبابها التى أذكتها ، إذ لم يتشدد بنو أمية فى الحد منها ، فتجردت من القيود التى فرضت عليها أيام النبوة ، والخلفاء الراشدين ، واتسع نطاق هذه العصبية ابتداء بالدولة ذاتها ، وانتهاء بالقبائل الصغيرة ، ولذلك نشطت الحركة الشعرية فى هذا الاتجاه ، وكان الأمويون يبنون سياستهم أحيانا على تنشيط هذه العصبية فى اختيار الولاة ، والعمال ، ورجال الدولة ، وانحيازهم إلى جانب العرب بوجه عام ، ثم أخذهم جانب اليمنية فى بداية عهدهم ، وتحول هذا الاتجاه عند بعض الخلفاء بعد عبد الملك بن مروان .

وقد تبينا سياسة الخوارج فى هذا العصر من خلال شعرهم الشاكى ، وسياسة

الشيعة من نظرتهم الحزينة لضياع حق الهاشميين فى الخلافة ، وكذلك مطالبة الزبيريين بقصر هذا الأمر على قريش يتولاه أكفؤهم .

ومن هنا اتسعت الشكوى السياسية ، فهى جزء من الشعر السياسى ، وسجل الشعراء مواقف قبائلهم فى كل مايتصل بهذه العصبية ، فيما يتعلق بسياسة العمال ، والولاة ، والدولة نفسها ، فغدا للشعر السياسى المجال خصبا ، عبر عن اتساع الشكوى السياسية التى أدى اليها الوضع السياسى القائم فى ذلك الوقت ، والتى ربما قلت فى العصر العباسى كما سنرى فى الفصل التالى إن شاء الله .

الفصل الرابع

هموم الشعراء من خلال الاتجاهات السياسية والمذهبية فى العصر العباسى حتى نهاية القرن الثالث

أخذ الفرس في نهاية الدولة الأموية يوسعون من نفوذهم ، ويعملون على إحياء دياناتهم القديمة في محاولة لنشرها ، وتعميمها ، فبدأت تكتلاتهم حينئذ في خراسان ، ولم يكن نصر بن سيار والي بني أمية هناك غافلا عن تلك المؤامرة الدنيئة التي يحيك خيوطها الفرس ، فقد علم مقصدهم ، وسر تجمعهم ، وعند ذلك أخذ ينبه بني أمية والعرب عامة إلى هذا الخطر الذي بات يهددهم من الشرق ، ولكن صراع العرب فيما بينهم ، وإغراقهم في وحل العصبيات القبلية التي نمت في العصر الأموي - كما رأينا - حال دون وصول صيحات الشكوى والتحذير، واشارات الاستغاثة التي أرسلها إلى بني أمية ، وقد أعلن أن هذه العناصر الفارسية التي باتت تهدد الدولة تلتقي عند هدف واحد يعد من صميم دينهم المجوس ، وهو قتل العرب فقال (١) :

أَبْلِغْ رَبِيعَةَ فِي مَرْوٍ وَإِخْوَتَهَا ... أَنْ يَغْضَبُوا قَبْلَ أَلَّا يَنْفَعَ الغَضَبُ

وَلْيَنْصِبُوا الحَرْبَ أَنَّ القَوْمَ قَدْ نَصَبُوا ... حَرْبًا يُحَرِّقُ فِي حَافَاتِهَا الحَطَبُ

مَا بَالُكُمْ تُلْقِحُونَ الحَرْبَ بَيْنَكُمُ ... كَأَنَّ أَهْلَ الحِجَا عَنْ فِعْلِكُم غَيَبُ

وَتَتْرُكُونَ عَدُوًّا قَدْ أَظَلَّكُمُ ... مِمَّا تَأَشَّبَ لَا دِينٌ وَلَا حَسَبُ

لَيْسُوا إِلَى عَرَبٍ مِنَّا فَنَعْرِفَهُمْ ... وَلَا صَمِيمُ المَوَالِي إِنْ هُمُ نُسِبُوا

قَوْمًا يَدِينُونَ دِينًا مَا سَمِعْتُ بِهِ ... عَنِ الرَّسُولِ وَلَا جَاءَتْ بِهِ الكُتُبُ

فَمَنْ يَكُنْ سَائِلًا عَنْ أَصْلِ دِينِهِمُ ... فَإِنَّ دِينَهُمُ أَنْ تُقْتَلَ العَرَبُ

---

(١) الأخبار الطوال : ٣٤٣ ، والعقد الفريد : ٤٧٨/٤ - ٤٧٩ ، ونهاية الأرب : ٢٧/٢٢ - ٢٨ .

وكان قيام الدولة العباسية إيذانا بتغيرات سياسية كبرى ، وظهور عناصر جديدة فى الحياة السياسية ، حيث انبثقت الدعوة العباسية من خراسان مركز الموالى الحاقدين على بنى أمية ، بعد أن تمكنوا من نقل تنظيمهم ، وتجمعهم إليها لوجود الوضع السياسى الملائم لنجاح الثورة العباسية (١) ، وتأكد هذا النجاح بعد معركة الزاب الفاصلة (سنة ١٣٢ هـ) التى قضى فيها على نفوذ الخليفة الأموى مروان بن محمد (٢) ، ومن ذلك الوقت لاحت فى الأفق بوادر انتصار الفرس على العرب ، لما أعطاه العباسيون لهم من الحرية ، والتقريب ، فبدأوا يحسون بشئ من الزهو والدالة على بنى العباس ، واعتبروهم مدينين لهم بعروشهم ، فبدأت عند ذلك النزعات القديمة عند هذه الفئات تأخذ طريقها فى الظهور ، ونما الجدل الفكرى ، والاتجاه المذهبى الذى كانت تحركه أغراض سياسية ، ونزعات قومية • ولم يتصف بنو العباس فى بداية الأمر بالحزم ضد هؤلاء الأعاجم بل كافأوهم بتقريب كثير منهم ، وأسندوا إليهم منذ عهد مبكر ولاية الأعمال ، فظهرت أسماء كان لها خطرها فى سير الأحداث السياسية ، ومكانتها فى الدولة ، ومنهم على سبيل المثال أبو مسلم الخراسانى ، قائد الثورة العباسية فى خراسان ، كما كان منهم خالد البرمكى زعيم الأسرة البرمكية الذين أصبحوا فى العقد الأول من حكم العباسيين مركز السلطة ، وموئل الرجاء ، حتى استفحل أمرهم ، وظهرت ميولهم السياسية والمذهبية ، فنكبهم الرشيد (٣) ، وقد بقيت هذه الفرق السياسية والمذهبية مصدرا لكثير من القلاقل التى أجهدت الدولة العباسية فى أحيان كثيرة •

---

(١) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى : ٤٦ •

(٢) الكامل فى التاريخ : ٦٩/٥ - ٧٧ •
ودول الاسلام / للذهبى : ٩١/١ •

(٣) مقدمة ابن خلدون : ٣٠٠/١ - ٣٠٥ •

وكان لغلبة الأعاجم فى العصر العباسى أثره الواضح فى مناحى الحياة السياسية والاجتماعية ، وكل مايتعلق بأمور الدولة ، فقد رأى الموالى فى أبى مسلم الخراسانى مثلهم الأعلى ، وأملهم المرتجى فى إعادة مجدهم القديم ، ولذلك ثارت ثائرتهم عندما قتله المنصور ، واتخذوا منه مرتكزا لنشر عقائدهم ، ونزعاتهم القديمة ، فعمد أتباعه إلى نشر الفكرة السبئية القائلة بتناسخ الأرواح ، وعندئذ نشأت فرقة الراوندية (١) ، متأثرة بالمزدكية ، والمانوية ثم كانت هناك فيما بعد فرقة الخرمية ، وهم أتباع بابك الخرمى (٢) ، بالإضافة إلى حركة الزنج التى أقلقت الدولة ، حينما عاثوا فى البصرة فسادا (٣) ، وغير ذلك من الثورات ، والحركات المناوئة للعباسيين ، المنتمية إلى مذاهب فكرية تحركها نزعات سياسية قومية ، صاحب الكثير منها نوع من الفوضى السياسية ، والاجتماعية كما أشار إلى ذلك الطبرى (٤) .

ورغم كثرة هذه الحركات السياسية ، والمذهبية فى الدولة العباسية ، فإن الخلفاء فى هذا الطور من حياة دولتهم استطاعوا اخماد كل هذه الحركات على اختلاف مآربها حيث اتسم القرن الأول من العصر العباسى الذى يبدأ فى عرف كثير من الباحثين من سنة (١٣٢ هـ - ٢٣٢ هـ) بقوة الخلافة ، وعظمة الخلفاء ، ومجد الدولة فلم تخرج السلطة حينئذ من أيد الخلفاء ، وإن كان نفوذ الفرس قد نما وعظم .

---

(١) الملل والنحل / للشهرستانى : ١٥٤/١ .

(٢) الفرق بين الفرق : ٢٦٦ - ٢٦٩ .
والزندقة والزنادقة : ١٢٩ - ١٣٦ .

(٣) دول الاسلام : ١٥٣/١ .

(٤) تاريخ الطبرى : ٥٥١/٨ ومابعدها .

أما العصر الثانى الذى يبدأ من (٢٣٢ هـ ـ ٣٣٤ هـ) ، فقد تميز بضعف الخلافة ، وضياع هيبة الخلفاء ، وفساد شؤون الدولة[١] .

وثمة ملاحظة أخرى يمكن للباحث التاريخى استنتاجها ، وتكمن فى الصراع الذى بدأ يدور بين أبناء البيت العباسى حول الخلافة منذ وفاة الرشيد سنة ١٩٣هـ ، حيث كان هذا الصراع عاملا مباشرا فى ضعف الدولة العباسية ، وقوة العناصر الدخيلة من الفرس ، والترك .

وليس التفصيل فى هذه الحركات من شأننا ، لئلا يتشعب الموضوع ويخرج عن مفهوم الدراسة الأدبية ، ولكنها المامة بسيطة تلقى الضوء على الحالة السياسية فى العصر العباسى ، بعد أن أصبح الصراع ينحصر بين العرب والعجم ، وان خفيت بواعثه وأسبابه ، على أننا لن نتعرض للشعر السياسى والمذهبى من جميع جوانبه ، وانما تنصب دراستنا على جانب واحد فقط ، وهو جانب الشكوى السياسية التى تتجلى فى هموم الشعراء من خلال الاتجاهات السياسية والمذهبية فى العصر العباسى الذى شهد قيام ظواهر دينية فى الحقل الشعرى[٢] ، لها صلة بنزعات سياسية مذهبية عندما أخذ أصحاب هذه المذاهب ينتصرون لها ، فأصبح الشعر المذهبى وليد السياسة ، وبدأت الفرق المذهبية تحل محل الأحزاب السياسية التى وجدت فى العصر الأموى[٣] :

---

(١) ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان / الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ص : ٩٠ .

(٢) دراسات فى الأدب العربى / جوستاف فون جرنباوم ، نشر مكتبة الحياة بيروت ١٩٥٩م ترجمة مجموعة : ١٤٨ .

(٣) أدب الشيعة : ١٧٢ .

إن الظاهرة الملفتة للنظر فى هذه الفترة ، إنما تكمن فى خفوت الشعر السياسى بوجه عام ، ولعل من الأسباب التى أدت إلى ذلك ، أن هذا النوع من الشعر ارتبط من قبل بالأحزاب السياسية التى كانت تصطرع على مسألة الخلافة ، حيث قل شأنها فى العصر العباسى عندما ضعف العلويون ، فاقتصر شعرهم على الاحتجاج والشكاة ، وقد اندثر الأمويون فى المشرق فلم يجدوا من يدافع عنهم فى الغالب ، ولم يستطيعوا تكوين معارضة لخصومهم ، ولم تنجح الحركات المذهبية التى كانت تظهر بين الحين والآخر ، فسرعان مايقضى عليها دون أن يكون لها شعراء صمدوا للدفاع من مذهبهم (١) ٠

ومن هنا تحول أغلب الشعراء إلى غايات نفعية ، سخروا من خلالها أشعارهم للتكسب (٢) ، فأصبح الشعراء أشبه بالمداحين منهم بالمحامين (٣) ٠

ويغلب على الظن أن النثر الذى ازدهر فى القرنين الثانى والثالث قد زاحم الشعر ، فكان لابد للتقدم الذى أصابته الحياة السياسية والعقلية من أدب للتعبير أطوع ، وأوسع حرية من الشعر ، عندئذ أصبحت رسائل الكتاب البلغاء تقوم مقام الشعر فى كثير من الأحيان ٠

كما أن بنى العباس حينما تم لهم الأمر أخذوا فى تعقب خصومهم بالقتل والتشريد ، وقد أسرفوا فى ذلك (٤) ، وكان لهم تحفظات على الشعراء ، بل لقد

---

(١) الشعر فى بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجرى : ١١٤ ٠

(٢) الحياة الأدبية فى البصرة : ٤٠٧ ٠

(٣) المقارنة بين الشعر الأموى والعباسى : ٢١٣ ٠

(٤) الكامل فى التاريخ : ٧٨/٥ ، ونهاية الأرب : ٤٩/٢٢ - ٥٠ ، والدولة العباسية قيامها وسقوطها : ٣٤ - ٣٧ ٠

اقتضت ظروف دولتهم السياسية أن يحدوا من حرية الكلمة ، وأن يخرصوا شعراء المعارضة السياسية ، الأمر الذى لم يكن موجودا فى العصر الأموى ، عندما كان الشعراء يدخلون على معاوية بن أبى سفيان ، وعبد الملك ابن مروان ، وغيرهما من الخلفاء الأمويين ، وقادتهم ، يرفعون شكواهم ، ويشرحون مظالم الناس ، وينتقدون أوجه التقصير من جانب السلطة بحرية تامة ، فلما جاء العباسيون أصبح ذلك من ضرب المستحيل إلا ماندر ، فلم يستطيع أحد أن يشكو ، أو أن ينتقد وبخاصة فى بداية الحكم العباسى حيث فترة التأسيس ، وما تتطلبه من حزم ، وصرامة .

ومن هنا فإن الشكوى السياسية ربما انتابها خفوت فى هذه الفترة ، فهى جزء من الشعر السياسى . ولم يكن هذا الاحتمال من باب الظن . إذ أن الشكوى السياسية فى الشعر العربى إبان العصر العباسى حتى نهاية القرن الثالث ، وفى ظل الظروف والمستجدات الجديدة تكاد تكون معدومة ، فهى لاتمثل فى حقيقة الأمر تلك الهزة السياسية العنيفة ، وما صاحبها ، ونتج عنها من أفكار مذهبية حدثت للعالم الاسلامى بنشوء الدولة العباسية . إذ أن هذه الشكوى لم تستقم كالشكوى الذاتية ، والاجتماعية .

ولعل الشعراء فى هذه الفترة لم يستطيعوا أن يكونوا صرحاء فى مواجهة الدولة ، فقد اتسم العباسيون بالشدة فى بداية أمرهم ، وخوفا من غضبة السلطة وبطشها تجاهل الشعراء مصدر الفساد السياسى الحقيقى ، وكنوا عنه فى شكواهم

بالزمان ، أو الدهر ، أو الدنيا ، ونحو ذلك من العبارات ، يؤيد هذا أن القاسم بن يوسف وهو يرثى أخاه الذى يقال أن المأمون كان وراء وفاته (١) لم يمتلك الجرأة التامة ليشكو فعلته ، بل عزا الأمر إلى الدهر متذرعا بالصبر الجميل فقال (٢) :

رَمَاكَ الدَّهْرُ بِالخَطْبِ الجَلِيلِ ... فَعَزِّ النَّفْسَ بِالصَّبْرِ الجَمِيلِ
فَإِنَّ الدَّهْرَ بِالحدثَانِ رَهْنٌ ... وَكُلّ سَالِك قَصْدِ السَّبِيلِ
وَإِنَّ الدَّهْرَ طَلَّاب دَروك ... وَسَبَّاقٌ بِأَوْتَارِ الذُّحُولِ (٣)
وَإِنَّ الدَّهْرَ لَايُبْقِى عَزِيزًا ... وَلَا تَنْبُو يَدَاهُ عَن الذَّلِيلِ
فَإِنَّ الدَّهْرَ لَا عَتَبِى عَلَيْهِ ... وَلَيْسَ يقِيلُ عَثْرَةَ مُسْتَقِيلِ

وقد انتقض أمر المعتزلة بخلافة المتوكل سنة ٢٣٢ هـ (٤) ، فعاش الجاحظ تلك التجربة بمرارتها القاسية على نفسه ، لكنه لم يستطع التصريح بشئ من ذلك ، فلجأ إلى الدهر ليكنى به عن السبب الذى أدى الى وضع المعتزلة السياسى المتدهور ، يقول (٥) :

---

(١) كتاب الأوراق - قسم أخبار الشعراء : ٢٣٥ - ٢٣٦ .
(٢) المصدر السابق : ١٨٥ - ١٨٦ .
(٣) الذُّحُولُ : جمع مفردها الذحل ، وهو الحقد والعداوة .
(٤) أدب المعتزلة : ٣٧٤ .
(٥) شعراء بصريون من القرن الثالث الهجرى : ٩٢ - ٩٣ .

لَئِنْ قَدَّمَتْ قَبْلِي رِجَالاً فَطَالَمَا ... مَشَيْتُ عَلَى رِسْلِي فَكُنْتُ الْمُقَدَّمَا

وَلَكِنَّ هَذَا الدَّهْرَ تَأْتِي صُرُوفُهُ ... فَتُبْرِمُ مَنْقُوضًا وَتَنْقُضُ مُبْرَمَا

وبعد أن بدأ نجم الأسرة الطاهرية بالأفول فى خلافة المعتضد (ت ٢٨٩ هـ) (١) أصبح عبيد الله بن طاهر (٢) طريح بطالة فاجعة ، وهو من هو فى الأدب ، والتصرف فى فنونه، ورواية الشعر ، وعلمه باللغة ، وأيام الناس ، وعلوم الأوائل من الفلاسفة فى الموسيقى ، والهندسة، وغير ذلك مما يجل عن الوصف (٣) ، وعندئذ لم يجد بدا من أن يعزو اختلال حاله هذه إلى الدهر لكن هذا لايعدو أن يكون امتحانا بما تجرى به أمور الخلافة من مكاره عليه وأهل بيته . فقال (٤) :

يَامِحْنَةَ الدَّهْرِ كُفِّي ... إِنْ لَمْ تَكُفِّي فَخِفِّي

مَا آنَ أَنْ تَرْحَمِينَا ... مِنْ طُولِ هَذَا التَّشَفِّي

فَلَا عُلُومِي تُجَدِّي ... وَلَا صِنَاعَةُ كَفِّي

ثَوْرٌ يَنَالُ الثُّرَيَّا ... وَعَالِمٌ مُتَخَفِّي

ذَهَبْتُ أَطْلُبُ بَخْتِي ... فَقِيلَ لِي قَدْ تُوُفِّي

---

(١) الشعراء الكتاب من العراق فى القرن الثالث الهجرى : ١١٩ - ١٢٠.

(٢) عبيد الله بن عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعى ، أبو أحمد ، أمير من الأدباء الشعراء ، انتهت اليه رياسة أسرته ، ولى شرطة بغداد ، كان مهيبا رفيع المنزلة عند المعتضد العباسى ، ثم مالبث أن ساءت علاقته به له تصانيف منها الاشارة ، والبراعة ، والفصاحة ، ومراسلات مع ابن المعتز. توفى سنة ٣٠٠ هـ .

سير أعلام النبلاء ٦٢/١٤ ، والأعلام : ١٩٥/٤ .

(٣) الأغانى : ٤٠/٩ ط / دار الثقافة .

(٤) معاهد التنصيص : ٥٤/١ .

ويستمر فى شكواه من الوضع السياسى المتدهور له ولأسرته لكنه لايستطيع التصريح بذلك فيقول (١) :

كَفَاكَ عَن الدّنْيَا الدَّنِيَّة مُخْبِرًا ... غِنَى بَاخِلِيْهَا وَافْتِقَار كِرَامِهَا
وَأَنَّ رِجَالَ النَّفْعِ تَحْتَ مَدَاسِهَا ... وَأَنَّ رِجَالَ الضُّرِّ فَوق سَنَامِهَا

لكن ابن بسام استطاع أن يهتف بجرأة تامة فقال يشكو من الدولة ويتمنى زوالها (٢) :

أَلَا يَادَوْلَة السِّفْلِ ... أَطَلْتِ الْمُكْث فَانْتَقِلِي
وَيَارَيْبَ الزَّمَانِ أَفِقْ ... نَقَضْتَ الشَّرْط فِي الدُّوَلِ

ورغم ضحالة الشكوى السياسية الصريحة فى هذه الفترة ، فإن الباحث قد يعثر على شئ من ذلك إذا تتبع ماقيل من الشعر فى بعض الحوادث التاريخية سواء ما ارتبط منها بالجانب السياسى أو المذهبى ٠

ولعل أول مايصادفنا من هذا النوع تلك الأبيات التى تنضح بالألم، حيث قالها ابراهيم بن عبد الله بن الحسن (ت ١٤٥ هـ) عندما أسرف المنصور فى معاملة العلويين بعد خروج أخيه النفس الزكية (ت ١٤٥ هـ) بالمدينة حيث قتل ، ثم نقل

---

(١) الديارات / تحقيق كوركيس عواد ط (٢) مكتبة المثنى بغداد ١٣٨٦ هـ ص :١٢١٠

(٢) محاضرات الأدباء : ١٧٦/١ ٠

من بقى منهم إلى بغداد ووثقت قيودهم ودفع بهم إلى السجن فقال (١) :

إنِّى اعْتَرَتْنِى الهُمُومُ فَاحْتَضَرَ الْـ ... ـهَمُّ وِسَادِى فَالْقَلْبُ مُنْشَعِبُ
وَاسْتُخْرِجَ النَّاسُ لِلشَّقَاءِ وَخُلِّفْـ ... ـتُ لِدَهْرٍ بِظَهْرِهِ حَدَبُ
كَيْفَ اعْتِذَارِى إلَى الإلَـٰهِ وَلَمْ ... يُشْهَرن فِيكَ المَأْثُورَةُ القُضُبُ
وَلَمْ أَقُدْ غَارَةً مُلَمْلَمَةً ... فِيهَا بَنَاتُ الصَّرِيحِ تَنْتَحِبُ
وَالسَّابِقَاتُ الجِيَادُ وَالأَسَلُ الذُّ ... بَّلُ فِيهَا أَسِنَّةٌ ذُربُ
حَتَّى نُوَفِّى بَنِى نُتَيْلَةَ بِالْقِسْـ ... ـطِ بِكَيْلِ الصَّاعِ الَّذِى احْتَلَبُوا
بِالْقَتْلِ قَتْلاً وَبِالأَسِيرِ الَّذِى ... فِى القِدِّ أَسْرَى مَصْفُودَة سلبُ
أَصْبَحَ آلُ الرَّسُولِ أَحْمَدَ فِى النَّـ ... ـاس كَذِى عُرَّةٍ بِهِ جَرَبُ

وفى المجال المذهبى كان الزنادقة من أخطر الفرق الفكرية ، التى ينطوى مذهبها على أحقاد سياسية ضد الاسلام ، بما ينشرونه من تعاليم المانوية ، والمزدكية ، وما يبيحونه من المحرمات (٢) . وقد جرد الخلفاء العباسيون السيف لهذه الفرقة ، فتعقبوهم فى عهد المهدى ، والهادى وأنزلوا بهم أقسى العقوبات . فكانوا يقتلون كل من تحوم حوله شبهة الزندقة ، وقد تشدد الخليفة الهادى فى طلب الزنادقة بعد أن اتضحت أفكارهم المنحرفة ، وظهر استخفافهم بالمسلمين فى شعائر دينهم عندما وصل الأمر بأحدهم إلى أن يشبه المسلمين فى طوافهم حول الكعبة المشرفة ببقر تدوس فى البيدر . ولذلك تألم المسلمون ، وثارت فيهم

---

(١) تاريخ الطبرى : ٧/٥٤٥ - ٥٤٦ .

(٢) الشعوبية حركة مضادة للاسلام والأمة العربية : ٧٥ - ٩٢ .

حمية الدين والغيرة على شعائر الله ، فقال العلاء بن الحداد الأعمى أبياتا رفعها إلى الخليفة الهادى يشكو فيها تطاول هذا الزنديق على المسلمين أثناء تأدية شعائر دينهم [(١)] :

أَيَا أَمِينَ اللَّهِ فِى خَلْقِهِ ... وَوَارِثَ الْكَعْبَةِ وَالْمِنْبَرْ
مَاذَا تَرَى فِى رَجُلٍ كَافِرٍ ... يُشَبِّهُ الْكَعْبَةَ بِالْبَيْدَرْ
وَيَجْعَلُ النَّاسَ إِذَا مَا سَعَوا ... حُمُرًا تَدُوسُ الْبُرَّ وَالدُّوسَرْ

وقد استجاب الخليفة لهذه الشكوى ، فقتل ذلك الزنديق ، وجرد السيف فى تعقب فرقهم الضالة .

وفى خلافة الامين بدأت بوادر الفتنة تدب بينه وبين أخيه المأمون ، فظهرت النزعة السياسية ، والمذهبية لدى الفرس واضحة ، فقد أخذوا جانب المأمون لأن أمه فارسية ، ولأنه شيعى المذهب ، فكانت وقفتهم تلك لاعتبارات أبعد يمكن تفسيرها بأنها سلسلة من حلقات الصراع السياسى ، والمذهبى المرير بينهم وبين العرب منذ أمد ، حيث عملوا فى ضوء هذه الفتنة على خلخلة الدولة وتوسيع هوة الخلاف بين الأخوين [(٢)] ، مما أدى إلى قتل الأمين سنة ١٩٨ هـ على يد العجم من جند طاهر بن الحسين قائد المأمون الذين عاثوا فى بغداد ، وأراقوا دماء المسلمين ، مستغلين هذه الفتنة الخبيثة ، فكانت نتيجة ذلك دماء مهدرة ، ونفوس أزهقها الغدر والطيش وسوء الظن ، وعندئذ رأينا الشعراء يخرجون عن صمتهم ، فيكشفون بوضوح ما خلفته تلك الفتنة من آثار مؤلمة من خلال تصوير الوضع السياسى

---

(١) تاريخ الطبرى : ١٩٠/٨ .
(٢) الوزراء والكتاب : ١٩٢ ومابعدها .

والاجتماعي المتردي ، كما في هذه القصيدة التي نسبت إلى علي بن أمية حيث يقول (١) :

لِأَمْرِ المَنَايَا عَلَيْنَا طَرِيقُ ... وَلِلدَّهْرِ فِيهِ اتِّسَاعٌ وَضِيقُ
فَأَيَّامُنَا عِبَرٌ لِلأَنَامِ ... فَمِنْهَا البُكُورُ وَمِنْهَا الطُّرُوقُ
وَمِنْهَا هَنَاتٌ تُشِيبُ الوَلِيدَ ... وَيَخْذُلُ فِيهَا الصَّدِيقَ الصَّدِيقُ
قِتَالٌ مُبِيدٌ وَسَيْفٌ عَتِيدٌ ... وَخَوْفٌ شَدِيدٌ وَحِصْنٌ وَثِيقُ
وَطُولُ صِيَاحٍ لِدَاعِي الصَّبَاحِ الـ ... سِّلَاحَ السِّلَاحَ فَمَا يَسْتَفِيقُ
فَهَذَا قَتِيلٌ وَهَذَا جَرِيحٌ ... وَهَذَا حَرِيقٌ وَهَذَا غَرِيقُ
هُنَاكَ اغْتِصَابٌ وَثَمَّ انْتِهَابٌ ... وَدُورٌ خَرابٌ وَكَانَتْ تَرُوقُ
إِذَا مَا سَمَوْنَا إِلَى مَسْلَكٍ ... وَجَدْنَاهُ قَدْ سُدَّ عَنَّا الطَّرِيقُ
فَبِاللَّهِ نَبْلُغُ مَا نَرْتَجِيهِ ... وَبِاللَّهِ نَدْفَعُ مَالَا نُطِيقُ

وفي هذه الأبيات كما نلاحظ وصف دقيق للحالة السياسية المتوترة ، وما خلفته هذه الفتنة من دمار ، وما زرعته في نفوس الناس من انقسامات وآلام ، كل هذا يصوره الشاعر في أسلوب هادئ حزين ، يعبر من خلاله عما يعتصر قلبه من ألم عميق .

إن الباحث ليجد في هذه الحادثة وغيرها أصابع الموالي في كل مؤامرة يقصد بها زعزعة الأمن ، وإضعاف الخلافة لاعادة المجد المجوسي القديم الذي

---

(١) تاريخ الطبري : ٣١٦/٩ ، والكامل في التاريخ : ١٧٢/٦ - ١٧٣ .

قضى عليه المسلمون العرب .

ولقد أدرك الخليفة المعتصم (ت ٢٢٧ هـ) خطر الفرس ، ونمو سلطانهم في الدولة ، فأراد أن يزاحمهم بالأتراك عندما قربهم ، وجعل منهم جيشا عتيدا ، فكانت زلة لا يغفرها التاريخ له أدت الى عكس مرماه ، إذ استبد الأتراك بأمر الخلافة ، فأصبحت جسدا بلا روح ، وسقطت هيبة الخلفاء ، ولم يكن الأتراك بأرحم من غيرهم ، كما أنهم لا يقلون فى حقدهم على الاسلام ممثلا فى العرب عن الفرس ، فما لبثوا أن قويت شوكتهم ، وزاد خطرهم ، وأهانوا أهل بغداد ، وسيطروا على كثير من أوجه الحياة السياسية والاجتماعية ، وظهرت ميولهم المشبوهة ، اثر خيانة الافشين قائد المعتصم ، ثم وصل بهم الأمر بعد ذلك إلى الوثوب على الخلفاء وقتلهم ، وخلعهم ، وتجريدهم من سلطاتهم ، وقد تحدث بعض الشعراء عن الوضع السياسى اثر تدخل الترك فى شؤون الدولة مشيرا إلى ظاهرة خلع الخلفاء وقتلهم قائلا(١):

خُلِعَ الخَلِيفَةُ أحمد بن محمَّد ... وَسَيُقْتَل التَّالى لَهُ أَوْ يُخْلَعُ
وَيَزُول مُلْكُ بَنِى أَبِيهِ وَلاَ نَرَى ... أَحَدًا بِمُلْكٍ مِنْهُم يَتَمَتَّعُ

لقد شهد القرن الثالث الهجرى ضعف الخلافة العباسية ، وسقوط هيبتها ، وتضعضع أركانها ، وإن اتسم عهد المأمون ، والمعتصم ، والواثق ، بالقوة ، والسيطرة على الأمور بحزم متين ، فإن الضعف بدأ يدب إلى الدولة منذ عهد المتوكل،

---

(١) الكامل فى التاريخ : ١٨٢/٦ .

إذ لم يستطع - رغم يقظته - أن يسير مجرى الأحداث كما يريد حيث تغلبت عليه العناصر التركية فى الجيش حتى انتهى الأمر بقتله ، وكان هذا الحادث فاتحة عهد مظلم للخلفاء العباسيين من بعده . أصبحوا فيه بلا حول ولا طول ، وتحولت السياسة الى أمراء الجيش (١) .

وفى هذا الذل السياسى ، والقهر خرج الخليفة المنتصر (ت ٢٤٨ هـ) ليشكو من وضعه المؤلم ، ويوضح ماكان يعانيه الخلفاء العباسيون فى هذه الفترة ، من ضعف ، واندحار إذ انحسر ظلهم وزال سلطانهم الفعلى فقال (٢) :

الـذّل يَأْبَاهُ الفَتَى الحُرُّ ... مَا لِلْكَرِيمِ مَعَهُ صَبْرُ
لَوْ يَعْلَمِ النَّاسُ الَّذِى نَالَنِى ... فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَهُم عُذْرُ
كَانَ إِلَىَّ الأَمْرُ فِى ظَاهِرٍ ... وَلَيْسَ لِى فِى بَاطِنٍ أَمْرُ

وتزداد الأمور تعقيدا وسوءا ، فلم يكن التالى بأسعد حال من الأول حتى أن الخليفة المعتمد (ت ٢٧٩ هـ) قد جرد من صلاحياته ، فأخذ يشكو مصورا تلك الحالة السياسية المتدهورة . المتمثلة فى ضعف إرادته وعجزه التام عن تصريف الأمور بنفسه . واتخاذ قراراته بتجرد يقول (٣) :

---

(١) اتجاهات الهجاء فى القرن الثالث الهجرى : ١٣٤ - ١٣٥ .

(٢) معجم الشعراء : ٤٤٦ .

(٣) الكامل فى التاريخ : ٦/٣٧٠ .

أَلَيْسَ مِنَ العَجَائِبِ أَنَّ مِثْلِي ... يَرَى مَاقَلَّ مُمْتَنِعًا عَلَيْهِ
وَتُؤخَذُ بِاسْمِهِ الدُّنْيَا جَمِيعًا ... وَمَا مِنْ ذَاكَ شَىْءٌ فِى يَدَيْهِ
إِلَيْهِ تُحْمَلُ الأَمْوَالُ طُرًّا ... وَيُمْنَعُ بَعْضَ مَايُجْبَى إِلَيْهِ

ونتيجة لهذه التدخلات فى شؤون الدولة واستخفاف الأتراك بأمر خلافة المسلمين ، تجرأوا على قتل الخلفاء ، فوثبوا على المتوكل سنة ٢٤٧ هـ وقتلوه ثم قتلوا المستعين سنة ٢٥٢ هـ ، وخلعوا المعتز سنة ٢٥٢ هـ ثم قتلوه (١) .

وكان لهذا آثاره البعيدة فى نفوس العرب ليقفوا فى وجه هذا التسلط والاستبداد ، وعند ذلك رفعوا أصوات النقمة ، والثورة ضد الأتراك بعد أن بانت خيانتهم وتآمرهم ، فساءت العلاقات السياسية ، والاجتماعية بين العرب ، والموالى انطلاقا من وقع الخطر الذى يهدد كيان العرب المسلمين ، وينذر بانهاء الخلافة الاسلامية ، فقال يزيد بن محمد المهلبى (٢)، يشكو ما آل إليه أمر الخليفة المتوكل (٣) :

لَمَّا اعْتَقَدْتُم أُنَاسًا لاَ حُلُومَ لَهُمْ ... ضِعْتُم وَضَيَّعْتُمُ مَنْ كَانَ يُعْتَقَدُ
وَلَوْ جَعَلْتُم عَلَى الأَحْرَارِ نِعْمَتَكُم ... حَمَتْكُم الذَّادَةُ المَنْسُوبَةُ الحُشُدُ

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢٢٧:٩ ، ٣٦٢ - ٣٦٣ ، ٣٨٩ - ٣٩٠ .

(٢) يزيد بن محمد بن المهلب بن المغيرة من بنى المهلب بن أبى صفرة ، شاعر محسن راجز ، كان فيه اعتزاز وترفع ، اتصل بالمتوكل العباسى ، ونادمه ومدحه ، ورثاه . توفى ببغداد سنة ٢٥٩ هـ .
سمط اللآلىء : ٨٣٩/٢ - ٨٤٠ ، والأعلام : ١٨٧/٨ .

(٣) زهر الآداب : ٢١٨/١ . والثقافات الأجنبية فى العصر العباسى وصداها فى الأدب / للدكتور صالح آدم بيلو ط(١) ١٤٠٩ هـ ص : ٣٤٩ .

قَوم هُمُ الأَصْل وَالأَنْسَابُ تَجْمَعكم ... وَالمجد وَالدِّينُ وَالأَرْحَامُ وَالْبَلَدُ
إذا قُرَيْش أَرَادوا شَدَّ مُلكهُمُ ... بغَيرِ قحْطَان لَمْ يَبْرَحْ بِهِ أَوَدُ
أَضْحَى شَهيدُ بَنِي العَبَّاس مَوعظَةً ... لِكُلّ ذِي عِزَّةٍ فِي رَأْسِهِ صَيَدُ
خَلِيفَةٌ لَمْ يَنَلْ مَا نَالَهُ أَحَدٌ ... وَلَمْ يُضَعْ مِثلَهُ رُوح وَلاَ جَسَدُ

ولقد بلغ من سيطرة هؤلاء الموالى ، سواء من الفرس أم الأتراك على أمور الدولة ، وتمكنهم من السلطة ، أن شغلوا مناصب الوزارة ، والكتابة ، وقادة الجيوش ، والحجاب ، حتى أنهم ليتولوا تعذيب وسجن من تحوم حوله سعاية من العرب المخلصين ، كما حدث لأبى سعيد الثغرى الطائى (١) الذى كان من قادة الجيوش فى عهد المعتصم ، والواثق ، فلما جاء المتوكل بدأت عقارب السعاية تدب ، فسجنه ودفع به إلى أحد الكتاب النصارى ليتولى تعذيبه ، وأخذ الاموال منه ، فقال البحترى يشكو من هذا الوضع ومن تسلط الموالى ، وتحكمهم فى رقاب الناس (٢) :

يَاضَيعَةَ الدُّنْيَا وَضيعَةَ أَهْلِهَا ... وَالمُسْلِمِينَ وَضَيْعَةَ الإسْلاَم
طُلِبَتْ ذُحُولُ الشِّرْكِ فِي أَرْضِ الهُدَى ... بَيْنَ المِدَادِ وَأَلْسُنِ الأَقْلاَمِ
هَذَا ابنُ يُوسُفَ فِي يَدَىْ أَعْدَائِهِ ... يُجْزَى عَلَى الأَيَّامِ بِالأَيَّامِ
نَامَتْ بَنُو العَبَّاسِ عَنْهُ وَلَمْ تَكُنْ ... عَنْهُ أُمَيَّةُ لَوْ رَعَتْ بِنِيَامِ

---

(١) هو محمد بن يوسف بن عبد الرحمن الثغرى ، طائى من أهل مرو ، كان من قواد حميد الطوسى فى حربه مع بابك الخرمى ، ثم صار من قادة الجيش عند المعتصم ، توفى فجأة فى عهد المتوكل سنة ٢٣٦ هـ .
الطبرى : ١٨٥/٩ ، ديوان البحترى : ٥/١ .

(٢) ديوانه : ٢٠٣١/٣ – ٢٠٣٢ .

ولايشك أحد فى أن الأتراك قد سيطروا على قصور الخلافة العباسية فى القرن الثالث الهجرى ، وتدخلوا فى شؤون الدولة العباسية ، حتى قضوا فى نهاية الأمر على الخلافة العباسية . وقد رفع محمد بن عبد الملك الزيات قصيدة يشكو فيها للخليفة الواثق من غلبة الأتراك على الأمور ممثلين فى كتابه ، وولاته منهم فى مشرق الدولة ، وغربها ، واستحواذهم على السلطة داخل بلاط الخلفاء فحجبوا الناس ، وأصحاب الحاجات عن الوصول إلى الخليفة ، وملأوا السجون بالمظلومين من ضحايا الأهواء السياسية والمذهبية . فقال (١) :

يَا ابنَ الخَلائِفِ وَالأَمْلاكِ إِن نُسِبُوا ... حُزْتَ الخِلافَةَ عَنْ آبائِكَ الأُوَلِ

أَجُرْتَ أَمْ رَقَدَتْ عَيْنَاكَ عَنْ عَجَبٍ ... فِيهِ البَرِيَّةُ مِن خَوفٍ وَمِن وَهَلِ

وَلَّيْتَ أَرْبَعَةً أَمْرَ العِبَادِ مَعًا ... وَكُلُّهم حَاطِبٌ فِى حَبْلِ مُحْتَبِلِ (٢)

هَذَا سُلَيمَانُ قَدْ مَلَّكْتَ رَاحَتَهُ ... مَشَارِقَ الأَرضِ من سَهْلٍ وَمِنْ جَبَلِ

وَأَحمدُ بْنُ الخَصِيبِ فِى إِمَارَتِهِ ... كَالْقَاسِمِ بْنِ الرَّشِيدِ الجَامِعِ السُّبُلِ

أَصْبَحْتَ لَا نَاصِحٌ يَأْتِيكَ مُسْتَتِرًا ... وَلَا عَلانِيَةً خَوفَ مِنَ الحِيَلِ

سَلْ بَيْتَ مَالِكَ أَيْنَ المَالُ تَعْرِفُهُ ... وَسَلْ خَرَاجَكَ عَنْ أَمْوَالِكَ الجُمَلِ

كَمْ فِى حُبُوسِكَ مِمَّن لَا ذُنُوبَ لَهُمْ ... أَسْرَى التَّكَذُّبِ فِى الأَقْيَادِ وَالكُبَلِ

سُمِّيتَ بِاسْمِ الرَّشِيدِ المُرْتَضَى فَبِهِ ... قِسِ الأُمُورَ الَّتِى تُنْجِى مِنَ الزَّلَلِ

عُثْ فِيهِمُ مِثْلَ مَا عَاثَتْ يَدَاهُ مَعًا ... عَلَى البَرَامِكِ بِالتَّهدِيمِ لِلْقُلَلِ

---

(١) الأغانى : ٥١٩/٢٣ – ٥٢١ (دار الثقافة) .

(٢) يقصد بالأربعة : ايتاخ وكاتبه سليمان بن وهب ، وأشناس وكاتبه أحمد ابن الخطيب .

الشعراء الكتاب فى العراق فى القرن الثالث الهجرى : ٩٩ .

ومع أن هذه الشكوى تأخذ جانب السعاية بهؤلاء المسؤولين ، لكنها تبين للخليفة الوضع السياسى الناتج عن سيطرة هؤلاء النفعيين على مقدرات الأمور. ولعل لهذه الشكوى مايؤيدها من قول دعبل الخزاعى (١) :

لَقَدْ ضَاعَ أَمْرُ النَّاسِ إِذْ سَاسَ مُلْكَهُمْ ... وَصِيفٌ وَأَشْنَاسٌ وَقَدْ عَظُمَ الكَرْبُ

ويبدو أن الفرس قد نقموا على الترك مكانتهم المرموقة فى الدولة وسيطرتهم على الأمور ، فاستغلوا ذلك لكى يخرجوا على السلطة ، فكانت ثورة الزنج رد فعل لما يتمتع به الأتراك دونهم ، كما كانت هذه الحركة فى حقيتها كذلك تنطلق من منطلق مذهبى ، حيث أباحوا كثيرا من المحرمات ، واستباحوا الحرمات ، وسفكوا الدماء ، وقد تقنع زعيمهم بقناع سياسى مذهبى ظاهره قرابته من بنى العباس ، وباطنه الثورة على الاسلام ، وقتل المسلمين ، فأخذ يشكو ويتذمر ، ويتوعد ، ويهدد ، أن يوقع بهؤلاء الأتراك أشد العذاب فقال (٢) :

بَنِى عَمِّنَا إِنَّا وَأَنْتُم أَنَامِلٌ ... تَضُمنُهَا مِنْ رَاحَتَيْهَا الأَصَابِعُ
بَنِى عَمِّنَا وَلَّيْتُم التّركَ أَمْرَنَا ... وَنَحْن قَدِيمًا أَصْلُهَا وَعَمُودُهَا
فَمَا بَالُ عُجْم التُّرْكِ تَقْسِمُ فَيْئَنَا ... وَنَحْنُ لَدَيهَا فِى البِلَادِ شُهُودُهَا
فَأُقْسِم لاذُقْتُ القَرَاحَ وَإِنْ أَذُقْ ... فَبُلْغَةُ عَيْشٍ أَوْ يُبَادُ عَمِيدُهَا

---

(١) ديوانه : ٥٠ .

(٢) زهر الآداب : ١/٢٨٨ .

وحقيقة الأمر أن ثورة الزنج لم تكن نابعة من حرصهم على مصلحة الخلفاء المسلمين ، وإنما هي حركة ذات أبعاد سياسية ومذهبية ، فهي من جهة منافسة للترك المستبدين بأمور الدولة ، وهي من جهة ثانية حرب ضد الاسلام حيث استباحوا البصرة قتلا وسبيا ، ونشروا الفوضى في أرجائها ولم يكونوا بأرحم من الترك ، ولا من جند طاهر بن الحسين عندما دخلوا بغداد . وإنما عاثوا في الأرض فسادا، وقتلوا أعدادا كثيرة من الناس (١) .

وقد كان ابن الرومي من أقدر الشعراء على تصوير ما أصاب البصرة من دمار ، وما حل بأهلها الآمنين من قتل، وهتك للأعراض على أيدي هؤلاء المارقين فنجده يقول في قصيدة طويلة يشكو فيها هذه المصيبة ، وما انطوت عليه من قتل ، واستباحة حرمات (٢) :

ذَادَ عَنْ مُقْلَتِي لَذِيذَ المَنَامِ ... شُغْلُهَا عَنْهُ بِالدُّمُوعِ السِّجَامِ
أَيَّ نَومٍ من بعد ما حل بِالبَصْـ ... ـرَةِ مَاحَلَّ مِنْ هَنَاتٍ عِظَامِ
أَيَّ نَومٍ من بعد ما انتهك الزِّنْـ ... ـجُ جِهَارًا مَحَارِمَ الإِسْلَامِ
أَيْنَ تِلْكَ القُصُورُ وَالدُّورُ فِيهَا ... أَيْنَ ذَاكَ البُنْيَانِ وَالإِحْكَامِ
بُدِّلَتْ تِلْكُمُ القُصُورُ تِلَالًا ... مِنْ رَمَادٍ وَمِنْ تُرَابٍ رُكَامِ
غَيْرَ أَيْدٍ وَأَرْجُلٍ بَائِنَاتٍ ... نُبِذَتْ بَيْنَهُنَّ أَفْلَاقُ هَامِ

---

(١) الكامل في التاريخ : ٢٠٦/٦ .
ودول الاسلام / للذهبي : ١٥٣/١ .

(٢) ديوانه : ٢٣٧٧/٦ .

ويتحول الشاعر إلى أولئك القاعدين ، فيشكو احجامهم عن قتال الزنج ، ويرميهم باللؤم والتخذلان فيقول (١) :

أَخَذَلْتُمْ إِخْوَانَكُمْ وَقَعَدْتُمْ ... عَنهُمْ وَيحَكُم قُعُودَ اللِّئَامِ

كَيْفَ لَمْ تَعْطِفُوا عَلَى أَخَوَاتٍ ... فِى حِبَالِ العَبِيدِ مِنْ آلِ حَامِ

كَيْفَ تَرْضَى الحَوْرَاءُ بِالمَرْءِ بَعْلاً ... وَهُو مِنْ دُونِ حُرْمَةٍ لاَيُحَامِى

انْفُرُوا أَيُّهَا الكِرَامُ خِفَافاً ... وَثِقَالاً إِلَى العَبِيدِ الطَّغَامِ

أَبْرَمُوا أَمْرَهُم وَأَنْتُم نِيَامٌ ... سَوْأَةً سَوْأَةً لِنَومِ النِّيَامِ

ولعلنا فى نهاية هذا الفصل قد تبينا خفوت الشكوى السياسية ، فهى جزء من الشعر السياسى الذى لم يكن فى حقيقة الأمر مصورا للأحداث الكبيرة التى جدت على حياة الأمة فى القرنين الثانى والثالث ، فلم تكن فى حجمها مساوية للشكوى الاجتماعية التى اتسعت اتساعا كبيرا وشملت جميع مظاهر الحياة ، واستطاع الشعراء من خلالها النقد والشكوى مما يوجد فى المجتمع من بعض الأمور الاجتماعية المنحرفة ، لكنهم لم يجرءوا فى هذه الفترة على البوح بالشكوى من تلك الاتجاهات السياسية العنيفة ، حيث عجزوا تماما عن معالجة قضايا أمتهم ونقدها نقدا سياسيا إلا فى حدود ضيقة جدا ، وعند ذلك عمدوا إلى أسلوب الرمز فى شكواهم ليخرجوا من طائلة العقاب والمساءلة .

كما أننا من خلال دراستنا لهموم الشعراء فى ظل الصراعات السياسية والمذهبية لم نفرق بين هاتين الناحيتين ، إذ ارتبطت السياسة بالنواحى

---

(١) ديوانه : ٢٣٨١/٦ .

المذهبية التى نتجت عن اجتهادات دينية كلها تدور حول مسألة الخلافة ، فكانت نشأة الأحزاب السياسية بوجه عام من نتائج الخلاف الكبير الذى حدث بعد مقتل عثمان - رضى الله عنه - وتطور أثناء الصراع المؤلم بين على ومعاوية - رضى الله عنهما - فقد انشق الخوارج على الامام على لأنه رضى بالتحكيم ، بينما أخذ الشيعة فى مناصرته فى ظاهر الأمر ، ثم تفرع من هذين الحزبين كثير من الفرق المذهبية الأخرى ، وظهرت كذلك فرق المعتزلة ، والمرجئة ، والجبرية (١) ، وإن كانت تظهر عند هؤلاء النواحى المذهبية اكثر من الاتجاهات السياسية - لكن عموم هذه الفرق تنطلق من منطلقات سياسية مذهبية معينة ، حيث أصبح لكل منها خط سياسى يتمشى مع ما تؤمن به وتتبعه .

أما مايتعلق بأمر الزندقة وأصولها وما تفرع عنها من أفكار منحرفة ، فانها ذات نشأة سياسية قومية لها أصول قديمة حاول الفرس حينئذ نشر عقائدهم الضالة ، واعادة مجدهم القديم بعد أن هد العرب المسلمون عروشهم .

ومن هنا نجد أن هذه الفرق المذهبية وما تفرع عنها من اتجاهات كانت فى نشأتها ترجع الى قضية الخلافة أو العداء الشعوبى للعرب ، فكانت فى حقيقتها نشأة سياسية مذهبية قومية .

وبهذا فقد لانوافق الدكتور مصطفى هدارة فى تفريقه بين النواحى السياسية والمذهبية (٢) إلا إذا كان يريد أن يخضع منهجه لمقتضيات الدراسة ،

---

(١) الفرق بين الفرق : ٢٩ - ٢٠٥ .
الملل والنحل / للشهرستانى : ١/٤٣ - ١٦١ .

(٢) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى : ٣٤٥ - ٣٨٠ .

وإلا فان التفريق هنا فى نظرى يبدو بعيدا جدا ٠ وذلك أن هذه المذاهب فى نظر أصحابها عقيدة آمنوا بها ، وشعر العقيدة فى الأدب العربى يرتبط ارتباطا وثيقا بالشعر السياسى لأنهما ينبعان من منبع واحد ، ويسيران فى مسار واحد أحداثهما متشابهة ودوافعهما متقاربة ، وقد استطاعت هذه الأحداث والدوافع أن تؤثر فى الاتجاه الشعرى تأثيرا بارزا[1] ، وقد رأينا ارتباط النواحى المذهبية بالسياسة كثيرا حتى أن الباحث لايكاد يجد فرقا بين الاتجاهين ، فكل منهما غطاء للآخر وجزء منه ٠

(١) الأديب والالتزام ، الدكتور نورى القيسى ـ درا الحرية بغداد ١٩٧٩ م ص : ٧٦ ٠

الباب الرابع

البناء الفني لشعر الشكوى

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : في اللغة والأسلوب .

الفصل الثاني : في الصّور الشعريّة .

الفصل الثالث : في الموسيقى الشعرية .

الفَصْلُ الأُوَلُ

فِي اللغَةِ وَالأُسْلُوب

أولا - اللغة الشعرية :

إن اللغة لاتقتصر وظيفتها على التعبير عن الفكر فحسب ، ولكن لها إلى جانب هذه الوظيفة خصائص جمالية تعكس قيمتها الفنية ، وترتفع بها لتكون مظهرا من مظاهر الجمال كبقية الفنون ٠

وإذا كانت الوظيفة الأولية للغة تكمن فى التعبير عن الحقائق ، والقضايا الموضوعية ، فإن لها إلى جانب ذلك وظيفة أخرى ذات أهمية كبرى ، وتتجلى هذه الوظيفة فى التعبير عن العواطف ، والانفعالات ، وإثارة المشاعر ، والتأثير فى السلوك الانسانى ٠

ومن هنا أدرك نقادنا القدامى سر جمال العربية ، حينما قرروا أنها لغة غنية بأسباب الجمال الذى يمنحها بعدها ، والذى من أجله فاقت كل لغة وأربت على كل لسان(1). وواكبت الحياة العربية فى شتى عهودها ، ففتحت ذراعيها لقبول الجديد الطارئ ، ولم تجد بأسا من تطور بعض ألفاظها فى دلالاتها ومعانيها٠

واللغة الشعرية ذات خصوصية تباين بها لغة النثر(2)، فهى انعكاس لخبرات الشاعر الابداعية فى ميادين القول ، وهى وعاء لاستقباله أحداث الحياة وبثه لها ، كما أنها تكشف من خلال الألفاظ ، والتراكيب عن أعمق حالاته الوجدانية

---

(١) البيان والتبيين : ٣٤٧/٣ ٠

(٢) نظرية اللغة فى النقد العربى / الدكتور عبد الحكيم راضى ٠
مكتبة الخانجى ١٩٨٠م ص : ٢٩٥ ٠

تفردا وخصوصية ، فهى الأداة التى يصل المعنى بواسطتها إلى ذهن السامع مهما تعددت طرق الأداء التعبيرى ، وخرجت عن الاستخدام الحقيقى للألفاظ (١) .

وقد اتضح لنا من خلال دراستنا لشعر الشكوى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى أن لغة الشعراء فى هذا الجانب جاءت نابضة بالبساطة ، والوضوح ، وشدة الإيحاء فى أغلب الحالات .

فالشكوى تعنى التوجع من شئ تنوء به النفس ويثقلها بكثير من الهموم والمعاناة ، ولذلك فإن ألفاظ الشعراء فى هذا المجال تقطر لوعة وألما ، كما أنها جاءت متوائمة مع الحالات الشعورية حيث عكست حقيقة الشاعر الانسانية ، وكشفت عن المقدرة الفنية لدى الشعراء إذا نحن استثنينا الشكوى الساخرة التى ظهرت عند بعض الشعراء فى القرنين الثانى والثالث ، إذ التأثير العاطفى فيها لايرقى من حيث القوة الفنية إلى شعر الشكوى من الموت والفراق والغربة ، ذلك أن طابع السخرية ، غير طابع الحنين الصادق ، غير البكاء على الحبيب أو منه ، ناهيك عن الشكوى من الظلم والطغيان ، والشيخوخة وفراق الأقارب ، والفقر ، والزمان ، وكل مايتصل بذات الانسان من أحداث الحياة المؤلمة ، فإن لها تأثيرا عاطفيا يهز المشاعر ، ويرهف الحس ، فكانت ألفاظ الشعراء ، وعباراتهم فى هذه الأنماط التى تعبر عن المواجع والآلام نابعة من ذاتية الموضوع ، وما يوحى به ، فقد منحوا تلك الألفاظ التى صوروا بها مشاعرهم من واقع مااستكن فى

---

(١) نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندى حتى ابن رشد / الدكتورة ألفت محمد كمال - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤ م ص: ١٧٠ .

سويداء قلوبهم ، الأمر الذى جعل ألفاظهم متشابهة تجعل الباحث يجيز لنفسه القول بأن لشعراء الشكوى معجما شعريا خاصا بهم يتفق مع كل وجه من وجوه الشكوى التى مرت بنا ، رغم أنه يندر فى المفهوم النقدى وجود مثل هذا المعجم المشترك لعدد من الشعراء إلا أن موضوع الشكوى بتفريعاته التى عرضنا لها يجعلنا نؤمن بأن لكل نمط من تلك الأنماط ألفاظا إن لم تكن مشتركة فهى متقاربة إلى حد كبير ، كثر الدوران حول معانيها فى شعر الشكوى . وهذا لايعنى الاتفاق فى الصيغ إذ أن مثل هذا الاتفاق يبدو بعيدا جدا فى هذا المجال وغيره من مجالات الشعر العربى .

ولعلنا نرصد بعض الظواهر اللغوية فى شعر الشكوى الذى درسناه فى الأبواب السابقة . فقد تبين لنا أن الباعث الأول لشعر الشكوى هو الحزن الممض ، والألم المبرح ، ومن هنا كانت قوة التأثير فى النفس التى تنشأ عادة من قوة العاطفة المتوهجة بالحزن والأسى(١). وقد رأينا هذا عند شعراء الشكوى ، حيث وضح احساسهم بالمعاناة ، فقويت عواطفهم حتى فى تلك الشكوى الساخرة ، أو فى الشكوى من بعض الاتجاهات السياسية والمذهبية ، وما كان من ظلم بعض العمال ، فإننا لانكاد نفتقد ذلك التوهج العاطفى ، والتأثير النفسى الذى يحمل طابع التهديد والثورة ،أو السخرية والمزاح والتظرف .

وقد تبين لنا أن مستوى التعبير اللغوى عند شعراء الشكوى قد يختلف باختلاف الفترة الزمنية ، بيد أن هناك مستويات معينة ترتبط ببعض الألفاظ قد لاتختلف باختلاف الزمن فهى ألفاظ مشتركة فى مختلف العصور التى درسناها ، حيث

---

(١) أسس النقد الأدبى عند العرب / الدكتور أحمد أحمد بدوى ، دار نهضة مصر للطبع والنشر (د . ت) ص : ٥٠٥ - ٥٠٦ .

ترددت طائفة كبيرة من الألفاظ المحملة بالدلالات الشعورية فى عبارات شعر الشكوى لتعبر عن الواقع المحسوس الذى يعيشه الشاعر .

ففى شعر الشكوى من الموت مثلا نجد حشدا كبيرا من الألفاظ التى توحى بالحزن ، وشدة اليأس ، والفناء مثل كلمات : الموت ، المنون ، الحمام ، البكاء ، البلى ، الأرق ، الحسرة ، الدموع ، الرزء ، الزفير ، السقم ، السهر ، الشجو ، الشكوى ، الصرم ، الفجيعة ، الفراق ، الفقدان ، المكابدة ، المنايا ، المنية ، النوح ، الهياج ، الردى .

بينما نجد الشعراء فى الشكوى من الشيخوخة يرددون بعض الألفاظ والعبارات التى توحى بالانكسار ، والحسرة ، والندم على الزمن الغارب كترديدهم للزمان ، الدهر ، ذكر الشباب الغارب ، مجد الشباب ، عز الشباب ، سقم المشيب وأمراضه ، تغير لون شعر الرأس ، ضعف البصر ، والسمع ، وصف المشية ، التوكأ على العصا ، عزوف الغوانى واعراضهن ، نشوز الزوجات ، سأم الأهل والعشيرة من الكبير ، ملاعبة الكبار للأطفال ، وانحدارهم إلى الطفولة مرة أخرى .

وفى شكوى الشعراء من فراق الحبيبة ، وصدها ، واعراضها ، وهجرها ، ومماطلتها فى المواعيد فإنهم يتمثلون بالألفاظ التى تشى بصور حسية وذهنية نحو : الأرق ، الأشواق ، البين ، التعلق ، الجزع ، الجوى ، الحنين ، الصدع ، الصرم ، العناء ، الهجران ، الهم ، الواشون ، الوجد ، العويل ، الكرب ، الكمد ، لجوج ، اللوم ، النأى ، النزوح ، وغير ذلك من الألفاظ التى تنثال فى لغة سهلة تنساب انسياب الماء الزلال إلى المتلقى ، كما أنها لغة

جميلة تعبر عن المعنى تعبيرا نراه يتسلسل إلى مشاعر المتلقى ، فيثير فيه مختلف العواطف .

وقد يطول بنا الحديث إذا أفردنا الألفاظ الخاصة بكل اتجاه من اتجاهات الشكوى التى عرضنا لها من قبل ، ولكننا سنجتزء منها مايوحى ، ونكتفى بما يدل من خلال بحثنا فى بعض الصيغ اللغوية التى استخدمها الشعراء ، وكان لها الأثر المناسب فى بسط المعنى المراد الذى يرتبط بذات الشاعر، وما يعتلج فى نفسه .

ونلاحظ لأول وهلة أن شعراء الشكوى قد أكثروا من استعمال بعض الصيغ اللغوية كاستخدامهم " ألا " الاستفتاحية ، والاستفهام ، والتعجب ، والتوجع ، والنداء ، والشرط ، والنفى .. وقد جسد الشعراء باستخدامهم هذه الصيغ معاناتهم ، وأبانوا عن تردى أحوالهم فى خضم أحداث الحياة ومآسيها ، وما يتعرضون له مما يدعوهم الى الشكوى والأنين ، مهما كانت درجات القوة والضعف فى أسباب شكواهم ، وفى تصويرهم لمعاناتهم تلك التى نشأت نتيجة أوضاع ذاتية ، واجتماعية وسياسية معينة .

ونحاول هنا رصد بعض الصيغ اللغوية التى لاحظناها فى ثنايا البحث ، حيث كثر ورودها فى شعر الشكوى . وكان منها " ألا " وهى حرف استفتاح وتنبيه (١)

---

(١) الكتاب : ٢٣٥/٤ ومغنى اللبيب : ٦٨/١ .
وكتاب الأزهية فى علم الحروف / على بن محمد النحوى الهروى .
تحقيق عبد المعين الملوحى - مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق ١٤٠٢ هـ
ص : ١٦٥ .

وردت فى شعر الشكوى أكثر من غيره بالنسبة لأغراض الشعر العربى الأخرى ٠

وفى ظنى أن السبب فى ذلك يرجع إلى طبيعة هذا الشعر الذى يتحدث عن قضية مهما كان نوعها ، فيريد الشاعر فى شكواه أن يحمل المتلقى على مشاركته انفعالاته ، وأن يتفهم قضيته ، فكانت صيغة الاستفتاح هذه تناسب بداية الشكوى ، فهى تلفت الانتباه إلى الشاكى ، وتشكل فى نسقها الشعرى هذا مظهرا حزينا يدعو السامع إلى الاصغاء والاستجابة ٠

ففى الشكوى من الشيخوخة مثلا نجد الشاعر الجاهلى زهير بن جناب بن هبل ينبه " بألا " على قضية أقلقته نتجت عن قضية أخرى كلها ترتبط بالحالة الذاتية والاجتماعية للشاعر حينما عاملته زوجته - التى يفترض أن تكون أرحم الناس به - معاملة قاسية بسبب شيخوخته وعجزه ، وما كانت لتحدث هذه المعاملة ، ويتجرع مرارتها لو كان له حول وطول ولولا ماهو فيه من ترد من الناحيتين الجسمية ، والنفسية معا ، فنجده يقول (١) :

أَلاَ يَالقَومِى لاَ أَرَى النَّجْمَ طَالِعًا وَلاَ الشَّمْسَ إلاَّ حَاجَتِى بِيَمِينِى

بينما نجد الأسود بن يعفر النهشلى يتخذ من " ألا " منطلقا ليؤكد على قضية اعتقاد الجاهليين بأن الدهر أصل لشقائهم فيقول (٢) :

أَلاَ هَلْ لِهَذَا الدَّهْرِ مِنْ متعلّلٍ سوَى النَّاسِ مَهمَا شَاءَ بِالنَّاسِ يَفْعَل

---

(١) أمالى المرتضى : ١/٢٤٠ ٠

(٢) ديوانه : ٢٥ ٠

ويستخدم أبو خراش الهذلى هذه الصيغة فى شكواه من فراق ابنه خراش ليبين عن عاطفة حزينة ، وشوق شديد لهذا الابن الغائب ، وقد وجد الشاعر فى ذلك متنفسا ليظهر مافى نفسه من ألم وحسرة فيقول [1] :

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّى خِرَاشًا ... وَقَدْ يَأْتِيكَ بِالنَّبَأِ الْبَعِيدُ
أَلَا فَأَعْلَمْ خِرَاشُ بِأَنَّ خَيْرَ الْـ ... ـمُهَاجِرِ بَعْدَ هِجْرَتِهِ زَهِيدُ

وعند شعراء الغزل العذرى نجدهم فى شكواهم من هجر الحبيب وصده، يعتمدون هذه الصيغة كثيرا ، فيطلقون لخواطرهم المشحونة بالألم عنان الشكوى ليبوحوا بما فى نفوسهم تجاه محبيهم مخاطبين ماتقع عليه أبصارهم من الكائنات الحية كما فى قول مجنون ليلى [2] :

أَلَا يَاحَمَامَ الأَيْكِ أَجْرَيْتَ مَدْمَعِى ... وَقَدْ سَاحَ فَوقَ الوَجْنَتَينِ غَزِيرُهَا

ولاشك أن استخدامه هذه الصيغة وسبكها فى هذا النسق الشعرى يدل على بؤسه ، وحزنه بعد أن هيجه سجع الحمام ، فأثار شجونه ، وأسبل دموعه باكيا من شدة الوجد ، وفرط الصبابة ، فافتتح هذه الشكوى وهذه المناجاة " بألا " التى تفيد فى هذا السياق بالاضافة الى معناها اللغوى اللهفة ، وشدة الوجد .

وفى الشكوى من السجن تظهر هذه الصيغة عند الشاعر هدبة بن الخشرم فى قوله [3] :

---

(١) شرح أشعار الهذليين : ١٢٤٢/٣ .

(٢) ديوانه : ٢٤٧.

(٣) شعر هدبة بن الخشرم : ٥٩ .

أَلَا لَيتَ الرِّيَاحَ مُسَخَّرَاتٌ بِحَاجَتِنَا تُبَاكِرُ أَوْ تَؤُوبُ

وقوله كذلك (١) :

أَلَا عَلِّلَانِي قَبْلَ نَوحِ النَّوَائِحُ وَقَبْلَ اطِّلَاعِ النَفْسِ بَيْنَ الجَوَانِحِ

وإتيانه بهذه الصيغة ، إنما يريد من خلالها أن يطلق خواطره الحزينة في صور شجية،فيها المعاناة لفراق الحياة بعد أن أصبح وحيدا في سجنه بعيدا عن أهله وأحبابه .

وبمثل هذه العاطفة المضطربة نجد السمهري بن بشر العكلي يقول وهو في سجنه وقد تخلت عنه قبيلته (٢) :

أَلَا لَيْتَنِي مِنْ غَيْرِ عُكْلٍ قَبِيلَتِي وَلَمْ أَدْرِ مَا شُبَّانُ عُكْلٍ وَشِيْبُهَا

لينبه على خيبة أمله في هذه القبيلة التي تخلت عنه ، وأسلمته فلم تنصره ، ونجد هذه الصيغة في الشكوى من ظلم الولاة في قول عبد الله بن همام السلولي (٣) :

أَلَا أَبْلِغْ مُعَاوِيَةَ بْنَ صَخْرٍ فَقَدْ خَرِبَ السَّوَادُ فَلَا سَوَادَا

ولا نعدم هذه الصيغة في الشكوى السياسية ، كقول أنس بن أبي أناس في شكواه لزياد بن أبي سفيان (٤) :

---

(١) نفس المصدر : ٨٩ .
(٢) الأغاني : ٢١/ ٥٤ .
(٣) الادارة الاسلامية : ٦٩ .
(٤) تاريخ الطبري ٢٨٦/٥ .

أَلاَ مَــنْ مُبلِــغٌ عَنّــى زِيَـــادًا مُغلْــغَلَــةً يَخُبُّ بِهَــا البَرِيـــدُ

وقول الفرزدق يشكو لهشام بن عبد الملك (١) :

أَلاَ فِــى سَبِيــلِ اللَّــهِ سَفْــك دِمَائِنَــا بِــلاَ جُرْمَــةٍ مِنَّــا يَبِيــنُ اجْتِرَامُهَــا

ولو أردنا أن نتتبع هذه الظاهرة اللغوية فى شعر الشكوى لاتسع المجال ، ولطفت على غيرها من الصيغ اللغوية الأخرى فى محاور الشكوى ، غير أنه لابد من الاشارة هنا إلى أن وجود هذه الظاهرة اللغوية يبدو فى غرض الشكوى أكثر من غيره ، كما اتضح لنا هذا من واقع مراجعتنا لأغراض الشعر العربى الأخرى ، فقد تظهر هذه الصيغة قليلة إذا ماقورنت بوجودها فى غرض الشكوى ، مثل مانجد فى افتتاحية معلقة عمرو بن كلثوم فى قوله (٢) :

أَلاَ هُبِّى بِصَحْنِــكِ فَاصْبَحِينَــا وَلاَ تُبْقِى خُمُــورَ الأَندَرِينَــا

ومن الصيغ اللغوية التى نجدها فى شعر الشكوى بصفة كثيرة بعض أدوات الشرط ، ومنها " لو " وهى حرف لما كان سيقع لوقوع غيره (٣) ، وكذلك " لولا " للدلالة على الامتناع أو التحضيض (٤) ، وذلك للتعبير عن أحاسيس ، ومشاعر معينة تلف الشعراء فى خضم حياتهم المشحونة بمختلف العواطف من خوف ، ورغبة ،وكراهية ، وأسى ٠

---

(١) ديوانه : ٢/٢٤٠ ٠

(٢) شرح القصائد العشر / للخطيب التبريزى ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مكتبة صبيح القاهرة ط (٢) ١٣٨٤هـ ص : ٣٨٠ ٠

(٣) الكتاب : ٤/٢٢٤ ٠

(٤) ضياء السالك : ٤/٧٣ - ٧٤ ٠

ولا ننكر أن هذه الأدوات لا يرتبط استخدامها بغرض واحد ، ولا بموضوع معين ، فهى تستعمل فى حالة الاعتداد بالنفس ، والعزم على اقتحام الشدائد ، كما أنها تستعمل للرضى بالقليل ، والرضوخ للصعاب وورودها فى غرض الشكوى يدل على حالة نفسية غير مستقرة ، تحددها الصياغة التى ترد فيها أداة الشرط .

فامروء القيس مثلا يرى أن استمراره فى السعى للثأر رغم عجزه مشروط بعدم قدرته على تقبل الهزيمة ، وتوطين نفسه على الاستسلام والرضى بالقليل لأنه من أصحاب الهمم العالية ، فلا يمكن أن يقنع بما يقنع به أصحاب النفوس الضعيفة ، والهمم البسيطة ، وقد أدى أسلوب الشرط هنا المعنى كما يريد . يظهر هذا فى قوله (١) :

فَلَو أَنَّمَا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ ... كَفَانِى وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلٌ مِنَ المَالِ

وَلَكِنَّمَا أَسْعَى لِمَجْدٍ مُؤَثَّلٍ ... وَقَدْ يُدْرِكُ المَجْدَ المُؤَثَّلَ أَمْثَالِى

ثم نجده فى شكواه يعتمد على هذه الأداة للدلالة على أنه وقد وصل إلى حالة نفسية متعبة ، لم يكن أمامه إلا الرضوخ لحقيقة مايعانيه فى غربته ، وقد تقطعت به السبل ، ودنا منه الموت بأرض بعيدة ، فهو غريب فى تلك الديار ، فما كان له أن يتقبل هذا الوافد إلا بين قومه وعلى تراب دياره يقول(٢) :

فَلَو أَنِّى هَلَكْتُ بِدَارِ قَوْمِى ... لَقُلْتُ المَوْتُ حَقٌّ لا خُلُودًا

وَلَكِنِّى هَلَكْتُ بِأَرْضِ قَوْمٍ ... بَعِيدًا عَنْ دِيَارِكُمُ بَعِيدَا

---

(١) ديوانه : ٣٦ ، ومجمع الأمثال ٣٤٨/١ .

(٢) ديوانه : ٢١٣ .

أما المتلمس الضبعى ، فهو يصور لنا تعقله وعدم انتقامه من قومه الذين أرادوا انتقاصه ، فيستخدم أداة الشرط " لو " ليدلل على موقفه منهم ، وأنه ماصبر وتحمل إلا لأنهم قومه وأولو رحمه يقول (١) :

وَلَو غيرُ أَخْوَالِى أَرَادوا نَقِيصَتِى جَعَلْتُ لهُمْ فَوقَ العَرَانِين مِيسَمَا

ويشكو عمرو بن قميئة ، مما يعرض له من حوادث السنين ، وعدم قدرته الوقوف أمامها ، لأن مصائبها تأتيه دون علمه أو مشاهدته لقدومها ، فيستخدم أداة الشرط " لو " للتعبير عن عجزه التام عن التصدى لما هو فى علم الغيب ، وما يأتى دون موعد ، وليس شاهدا يقول (٢) :

فَلَو أَنَّهَا نَبْل إذًا لاتَّقَيْتهَا وَلَكِنَّنِى أُرْمَى بِغَيْرِ سِهَامِ

أما طرفة بن العبد ، فإنه فى شكواه من فقره ، وعدم وجود الولد ، وتجاهل قومه له ، يربط ذلك بعدم توفيقه فى الحياة ، وأن الله لم يرد له ذلك ، فنجده يقول (٣) :

وَلَو شَاءَ رَبِّى كُنْتُ قَيْس بن خَالِدٍ وَلَو شَاءَ رَبِّى كنتُ عَمْرو بن مَرْثَدِ

وكثيرا ما استخدم الشرط فى شعر الشكوى بعامة كقول أنس ابن زنيم يشكو من ظلم العمال (٤) :

---

(١) ديوانه : ٢٩ .

(٢) ديوانه : ٤٤ .

(٣) ديوانه :

(٤) النقائض : ١٠٨٩/٢ .

لَوْ لِأَبِي حَفْصٍ أَقُصُّ مَقالَتِي   وأَبُثُّ ما أَبْثَثْتُكُمْ لَارْتاعَا

ويقول الفرزدق يشكو من ظلم العمال كذلك (١) :

فَلَو سَمِعَ الخَلِيفَةُ صَوْتَ داعٍ   يُنَادِي اللَّهَ هَلْ لِي مِنْ مُجِيرِ
وَأَصْواتَ النِّسَاءِ مُقَرَّنَاتٍ   وَصِبْيَانٍ لَهُنَّ عَلَى الحُجُورِ
إِذًا لَأَجَابَهُنَّ لِسَانُ دَاعٍ   لِدِينِ اللَّهِ مِغْضَابٍ نَصُورِ

ويتخذ أبو الشمقمق من صيغة الشرط وسيلة للتعبير عن فقره وسوء حظه في الحياة فيقول (٢) :

لَوْ رَكِبْتُ البِحَارَ صَارَتْ فِجَاجًا   لا تَرَى فِي مُتُونِهَا أَمْوَاجَا
فَلَو أَنِّي وَضَعْتُ يَاقُوتَةً حَمْـ   ـرَاءَ فِي رَاحَتِي لَصَارَتْ زُجَاجَا
وَلَو أَنِّي وَرَدتُ عَذْبًا فُرَاتًا   عَادَ لَاشَكَّ فِيهِ مِلْحًا أُجَاجَا

ونجد ذلك في شكوى يزيد بن مفرغ الحميري وهو في سجنه حيث يقول (٣) :

لَوْلَا الدَّعِيّ وَلَوْلَا مَاتَعَرَّضَ لِي   مِنَ الحَوَادِثِ مَا فَارَقْتُهَا أَبَدًا

وقد وجدنا بعض الشعراء العبيد يستخدم أداة الشرط " لولا " ليبين أن عدم دفاعه عن نفسه أمام ظلم سيده وضربه له كان بسبب عبوديته ، فيقول في شكواه (٤) :

---

(١) ديوانه : ٢٨٥/١ - ٢٨٦ ٠

(٢) العقد الفريد : ٢١٦/٦ ٠

(٣) ديوانه : ٩٦ ٠

(٤) الحماسة البصرية : ١٨٩/١ ٠

وَلَوْلا عَرِيقٌ فِيَّ مِنْ حَبَشِيَّةٍ   يَرُدُّ إباقِى بَعْدَ حَوْلٍ مُجَرَّمِ
عَلِمْتَ بِأَنِّى خَيْرُ عَبْدٍ لِنَفْسِهِ   وَأَنَّكَ عِنْدِى مَغْنَمٌ أَىُّ مَغْنَمِ

وفى الشكوى السياسية ، نجد يزيد بن محمد المهلبى ، وهو يحترق ألما من مصير الخليفة المتوكل المحزن على أيدى الاتراك فيقول (١) :

وَلَوْ جَعَلْتُم عَلَى الأَحْرَارِ نِعْمَتَكُم   حَمَتْكُمُ الذَّادَةُ المَنْسُوبَةُ الحُشُدُ

ويكاد استخدام هذه الادوات فى شعر الشكوى يطغى على غيره من الاغراض الاخرى • وهى ظاهرة لافتة للنظر ، ويغلب على الظن أن وجودها بهذه الكثرة راجع الى طبيعة شعر الشكوى ذاته ، حيث أن الشكوى مهما كان باعثها مشروطة بسبب ان لم يكن ظاهرا فهو خفى ، لكنه استفز الشاعر فشكا ، ومن هنا جاءت اداة الشرط لتؤكد على أن هناك حالة نفسية معينة لولاها ماضعف الشخص حتى أسلم نفسه للشكوى والانين ، وترد هذه الادوات فى شعر الشكوى وغيره من أغراض الشعر(٢)، ولكننا لحظنا ورودها هنا بكثرة فى شعر الشكوى لارتباطها بحالة الشعراء وتأديتها للمعنى المراد ، وقد جاءت أداتا الشرط (لو ولولا) فى شعر الشكوى أكثر من غيرهما من الادوات الشرطية الاخرى • وهذه الاستخدامات تنجز فعلا مهما فى عملية التشكيل الشعرى ، وفى فاعلية النظام النحوى التى

---

(١) زهر الاداب : ٢١٨/١ •

(٢) أنظر أسلوب الشرط بين النحويين والبلاغيين / للدكتور فتحى بيومى حمودة ـ دار البيان العربى ـ جدة ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٥م •
وفى التركيب اللغوى للشعر العراقى المعاصر / للدكتور مالك المطلبى دار الرشيد للنشر ـ بغداد ١٩٨١م ص: ٧٣ ـ ٧٧ ، ٩٥ ـ ١٠١ ، ١٢٣ ـ ١٢٩
والبلاغة والاسلوبية / للدكتور محمد عبدالمطلب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م ص: ٤٤ ـ ٥٦ •

تعد جزءا أساسيا فى حيوية اللغة ، وقدرتها على أداء كثير من وظائفها .

وتظهر صيغة النداء فى شعر الشكوى باستمرار ، وذلك لتوجيه الدعوة الى المخاطب ، وتنبيهه للاصغاء ، وسماع مايريده الشاعر . فالنداء يشبه الصراخ وطلب النجدة ، والخلاص مما يعانى الشاعر ، وكأن الشعراء فى استخدامهم صيغ النداء فى شكواهم يريدون أن يسمعوا صوتهم لمن حولهم ليشاركهم معاناتهم .

فهذا أبوكبير الهذلى فى شكواه من الشيخوخة يوجه الخطاب لابنته مستخدما أسلوب النداء ليلفت نظرها اليه ، فلعلها أقرب الناس إلى تفهم معاناته ، ومشاطرته همومه يقول(١) :

أَزُهَيْرُ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِن مَقْصَرِ ... أَوْ لاَسَبِيلَ إِلَى الشَّبَابِ المُدْبِرِ
أَزُهَيْرُ وَيْحَكِ مَا لِرَأْسِى كلَّمَا ... فَقَدَ الشَّبَابُ أَتَى بِلَوْنٍ مُنْكَرِ
يَا لَهْفَ نَفْسِى كَانَ جِدَّةُ خَالِدٍ ... وَبَيَاضُ وَجْهِكَ لِلتُّرَابِ الأَعْفَرِ

وأما الشاعر الجاهلى عباد بن شداد ، فإنه يندب شبابه الراحل ويشمئز من وضعه بعد أن أقعدته الشيخوخة ، فيصرخ فى لحظة يأس وألم مستخدما اسلوب النداء الذى كان له وقع خاص فى هذا السياق ، فيقول وكأنه يريد أن يسمع صوته من حوله (٢) :

يَا بُؤْسُ لِلشَّيْخِ عَبَّادِ بن شَدَّادِ ... أَضْحَى رَهِينَةَ بَيْتٍ بَيْنَ أَعْوَادِ

---

(١) ديوان الهذليين / القسم الثانى ص : ١٠٠ - ١٠١ .

(٢) شعراء تميم فى العصر الجاهلى : ٣٤٣/١ .

ويتضح معنى النداء أكثر فى شكوى عمرو بن سالم الخزاعى بين يدى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حينما قال[1] :

يَارب إنِّى نَاشِد محمَّدا ... حِلْف أَبِينَا وَأَبِيه الأَتْلَدَا

فقد توجه بالنداء مباشرة إلى الله عز وجل ، وذلك لعلمه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، وأنه بذلك يزيد المعنى قوة وتأثيرا . وقد حدث بالفعل ما أراد ، فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قرر بعد ذلك فتح مكة .

ويقول أمية بن الأسكر[2] :

يَا أُمَّ هَيْثَم مَاذَا قُلْتُ أَبْلاَنِى ... رَيْبُ المَنُونِ وَهَذَان الجَدِيدَانِ
يَا ابْنَى أُمَيَّة إنِّى عَنْكُمَا غَانِى ... وَمَا الغِنَى غيرَ أَنِّى مُرْعِشٌ فَانِى
يَا ابْنَى أُمَيَّة إنْ لاَتَشْهَدَا كِبَرِى ... فَإنَّ نَأْيكُمَا وَالثُّكْل مِثْلاَنِ

فهو فى استخدامه أسلوب النداء هنا إنما يريد أن يسمع صوته أبناءه الذين هاجروا مع الجيش المسلم الفاتح وتركوه . وهو فى أمس الحاجة إلى الرعاية ، علهم يرجعون فيقوموا بواجبه ، ويؤدوا حق الأبوة .

ونجد صيغة النداء فى الشكوى من ظلم الولاة ، وقد أدت المعنى بمزيد من التأثير حينما يخاطب الشاعر الخليفة أو الوالى ، فيعمد إلى النداء كقول

---

(١) المنمق : ٨٩ - ٩٠ .

(٢) ذيل الأمالى : ١٠٨ .

عبد الله بن همام السلولى (١) :

يَا ابْنَ الزُّبَيْرِ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ أَلَمْ ... يَبْلُغْكَ مَا فَعَلَ العُمَّالُ بِالعَمَلِ

وقول عمر بن أحمد الباهلى (٢) :

يَا يَحْيَى يَا ابْنَ إِمَامِ النَّاسِ أَهْلَكَنَا ... ضَرْبُ الجُلُودِ وَعُسْرُ المَالِ وَالْحَسَرِ

والنداء هنا إنما جاء به الشعراء ليجعلوا من المعنى قوة مؤثرة فى النفس ، فكأن هذا الوالى أو الخليفة بعيد كل البعد عن الرعية ، ولذلك استخدموا أداة النداء " يا " وكما نلاحظ فى بيت عمرو بن أحمر ، فقد أتى بهذه الأداة مرتين متقاربتين الأولى تحمل المعنى الذى تحدثنا عنه ، وكأن الوالى فى تجاوزه عن تصرفات عمال الزكاة قد ابتعد عن أمور الرعية وقضاء حوائجهم ، والثانية فى هذا السياق تدل على بعد نسبه وعلوه .

والنداء من الصيغ التى وجدناها ترد فى شعر الشكوى بصورة طغت على غيره من الأغراض الأخرى .

وقد رأينا فى شعر الشكوى خلال القرون الثلاثة الأولى شيوع الألفاظ والعبارات الاسلامية ، حيث يبدو الشعراء وقد تأثروا بالدين وصفت له نفوسهم . وإذا كان الانسان يلجأ فى حالة الضر الى الله كما يحدثنا القرآن الكريم بذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ ﴾ (٣) .

---

(١) أنساب الأشراف : ١٩١/٥ .

(٢) شعر عمرو بن أحمر الباهلى : ٩٥ .

(٣) سورة يونس آية : ١٢ .

حيث تسقط الأقنعة ، وينكشف كل شئ ، فإن الشاعر المسلم قد أكد هذه الحالة النفسية الصادقة عندما ينفجر بالشكوى من همومه وما يعترضه من المصائب فى هذه الحياة ، فنرى صدى الاسلام يتردد فى نفسه ، ويظهر فى شعره عندما يتوجه بشكواه إلى الله فى مناجاة صادقة بعيدة عن أدران الشرك ، لعلمه بقدره الله على كشف الضر والبلوى ، فيخفف حينئذ من وطأة آلامه وهمومه عن طريق هذه المناجاة التى يظهر فيها الشاعر مستجيبا للقضاء والقدر ، ولذلك كثرت عبارات (.. أشكو إلى الله ..) حتى فى أشعار اللصوص التائبين ، قد نرى بعضهم يعصره الألم ويحن لأيام الصعلكة حينما تمر به قافلة ما كانت لتنجو منه لولا توبته واسلامه حيث أحاطه الدين بسياج يمنعه من الوقوع فى الرذيلة ، كما فى قول الأحيمر السعدى :

أَشْكُو إِلَى اللَّهِ صَبْرِى عَنْ زَوَامِلِهِمْ ... وَمَا أُلاَقِى إِذَا مَرَّتْ مِنَ التَّعَبِ (١)

وفى الشكوى من ظلم الولاة والسعاة والعمال فى العصر الأموى وجدنا ألفاظا دينية استخدمها الشعراء لم تعرف إلا فى الاسلام (كأمير المؤمنين خليفة الرحمن ، ولى أمر الله ..) .

فالراعى النميرى فى شكواه لعبد الملك بن مروان من ظلم العمال وقسوتهم على قومه يبين أنهم مؤمنون بالله ، يسجدون بكرة وأصيلا ، ويقرون بالزكاة ، ويعلمون أنها الركن الثالث من أركان الاسلام الخمسة ، ثم يؤكد أنهم على الاسلام ، وأنهم يعطون الصدقة ولم يمنعوها فيقول (٢) :

---

(١) أشعار اللصوص وأخبارهم : ١٠٥ .

(٢) ديوانه : ٢٢٦ - ٢٣٠ .

أَولَىٰ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّا مَعْشَرٌ حُنَفَاءُ نَسْجُدُ بُكْرَةً وَأَصِيلَا
عَرَبٌ نَرَى لِلَّهِ فِى أَمْوَالِنَا حَقَّ الزَّكَاةِ مُنَزَّلًا تَنْزِيلَا
قَوْمٌ عَلَى الإِسْلَامِ لَمَّا يَمْنَعُوا مَاعُونَهُمْ وَيُضَيِّعُوا التَّهْلِيلَا

وقول أنس بن زنيم الليثى يشكو لابن الزبير (١) :

أَبْلِغْ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ رِسَالَةً مِنْ نَاصِحٍ لَكَ لَا يُرِيدُ خِدَاعَا

وقول عمرو بن أحمر الباهلي فى شكواه ليحى بن الحكم بن أبى العاص والى المدينة لعبد الملك بن مروان (٢) :

يَا يَحْيَى يَا ابْنَ إِمَامَ النَّاسِ أَهْلَكَنَا ضَرْبُ الجُلُودِ وَعُسْرُ المَالِ وَالْحَسَرِ

والفرزدق وهو يشكو للخليفة الوليد بن عبد الملك يقول (٣) :

أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ وَأَنْتَ تَشْفِى بِعَدْلِ يَدَيْكَ أَدْوَاءَ الصُّدُورِ
فَلَوْ سَمِعَ الخَلِيفَةُ صَوتَ دَاعٍ يُنَادِى اللَّهَ هَل لِى مِنْ مُجِيرِ
أَمِينِ اللَّهِ يَصْدَعُ حِينَ يَقْضِى بِدِينِ مُحَمَّدٍ وَبِهِ أُمُورِ

وقد وجدنا الشعراء فى شكواهم يقتبسون من القرآن الكريم كثيرا ويظهر هذا فى قول أبى صخر الهذلى (٤) :

---

(١) المعارف لابن قتيبة : ٢٣٣ ٠

(٢) شعر عمرو بن أحمر الباهلى : ٩٥ ٠

(٣) ديوانه : ٢٨٥/١ - ٢٨٦ ٠

(٤) شرح أشعار الهذليين : ٩٥٧/٢ والكشاف : ٣٥/١ ٠

أَمَا وَالَّذِى أَبْكَى وَأَضْحَكَ وَالَّذِى ... أَمَاتَ وَأَحْيَا وَالَّذِى أَمْرُهُ الأَمْرُ

فقد تأثر بالآيتين الكريمتين : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ، وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ (١) .

ويقول ابن رهيمة (٢) فى شكواه من الشيب (٣) :

وَعَلَا الْمَفْرِقَ شَيْبٌ شَامِلٌ ... وَاضِحٌ فِى الرَّأْسِ مِنِّى وَاشْتَعَلْ

فقد تأثر كما نرى بقوله تعالى (٤) :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ... ﴾ .

ودائما نجد الشاعر المسلم فى شكواه يعود إلى الله ، فيناجيه مناجاة المتضرع الضعيف الذى وكل إليه أمره فى كل حال ، كما يظهر لنا من قول أمية ابن أبى عائذ (٥) :

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو الَّذِى نَابَنِى ... لَهُ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ فِى كُلِّ حَالِ
هُوَ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا أَتَى ... مِنَ النَّائِبَاتِ بِعَانٍ وَعَالِ

وتظهر فى شعر الشكوى ملامح الرقة فى الألفاظ ، وسهولة العبارة ، كما أننا نلمس دقة المعنى ، وقوة تأثيره فى النفس ، فكانت ألفاظ

---

(١) سورة النجم الآيات : ٤٣ ، ٤٤ .
(٢) ابن رهيمة المدنى وهو من شعراء الدولة الأموية ، وكان من شعراء الغزل . الأغانى : ٤٠٥/٤ .
(٣) المرجع السابق : ٤٠١/٤ .
(٤) سورة مريم الآية : ٤ .
(٥) شرح أشعار الهذليين : ٤٩٥/٢ - ٤٩٦ .

الشكوى بعمومها سهلة ، قل أن نجد كلمة ينبو عنها الذوق أو تتسم بالابتذال. وهذه الرقة والسهولة ليست من قبيل الضعف ، ولكنها مقابل الجزالة ، فقد واكب الشعراء العصر واستوعبوا كل معطيات الثقافة الجديدة ، وتأثروا بأهم التحولات الاجتماعية والسياسية ، ورغم ذلك فقد بقيت لغة شعر الشكوى سهلة واضحة ، وقد اتضح لنا هذا الاتجاه من دراستنا للشكوى فى العصر الجاهلى ، والقرن الأول بمحاورها الثلاثة ، وكذلك الشكوى من أثر الموالى فى الحياة الاجتماعية فى القرنين الثانى والثالث ، والشكوى السياسية فى العصر العباسى حتى نهاية القرن الثالث . بينما وجدنا لغة الشكوى تميل إلى الشعبية عند شعراء الشكوى من الفقر وسوء الحال فى القرنين الثانى والثالث حيث أصبحت اللغة الشعرية عندهم قريبة من لغة الحياة اليومية فى أكثر الأحيان ، وكان من زعماء هذا الاتجاه أبو الشمقمق ، وأبو دلامة ، وبشار ، وعمرو بن الهدير ، وأبو فرعون الساسى ، فقد هجروا الألفاظ الغربية فى شكواهم ، واتجهوا إلى ما يتلاءم وحياة الناس الجديدة .

ثانيا : الأسلوب :

لقد تنبه النقاد العرب القدامى للأسلوب ، ولم يغفلوه فى دراساتهم، فابن طباطبا العلوى (ت ٣٢٢ هـ) يرى أن للمعانى ألفاظا تشاكلها فتحسن فيها وتقبح فى غيرها ، فهى لها كالمعرض للجارية الحسناء التى تزداد حسنا فى بعض المعارض دون بعض (١) .

بينما يرى الامام عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١ هـ) أن لكل نوع من المعنى نوعا من اللفظ هو به أخص وأولى ، وضربا من العبارة هو بتأديته أقوى وهو فيه أجلى (٢) .

وأحسب أنه يريد باللفظ هنا الأسلوب والتركيب وليس اللفظ المفرد فقط ، ويرى كذلك أن الأسلوب هو الضرب من النظم والطريقة فيه (٣) .

وقد تعددت الدراسات الحديثة حول مفهوم الأسلوب ، وكثرت التعريفات الفنية لهذا المصطلح ، فيرى بعضهم أن الأسلوب هو اطار الفكرة ، وهو القالب الذى يصب فيه الكاتب فكره وعاطفته . وهو المنهاج الذى ينهجه فى الافصاح عما فى نفسه . وهو الطابع الذى تطبع به كتابته ويتسم به انتاجه (٤) .

---

(١) عيار الشعر : ٤٦ .

(٢) الرسالة الشافية : (ضمن كتاب دلائل الاعجاز ، تحقيق محمود شاكر: ٥٧٥).

(٣) دلائل الاعجاز ، تحقيق محمود شاكر : ٤٦٨ - ٤٦٩ .

(٤) الأصول الفنية للأدب / عبد الحميد حسن - مطبعة العلوم ١٩٤٩م ص : ١٨٣ . واتجاهات النقد الأدبى فى القرن الخامس الهجرى ، الدكتور منصور عبد الرحمن ، مكتبة الانجلو المصرية ١٣٩٧هـ : ١٠٠ - ١٠١ .

ويرى آخرون أن الأسلوب هو الصورة اللفظية التى يعبر بها عن المعانى ، أو نظم الكلام وتأليفه لأداء الأفكار وعرض الخيال [(١)] .

ومن هنا يتضح أن الأسلوب يراد به الطريقة الخاصة التى يصوغ فيها الكاتب والشاعر أفكاره ، ويبين بها عما يجيش فى نفسه من العواطف والأحاسيس .

ولقد استثمر الشعراء فى شكواهم كل الأساليب الممكنة للتعبير عن قضاياهم التى أقلقتهم ، فأنوا وشكوا ، وقد تتفاوت هذه الأساليب من حيث الصياغة فى محاور الشكوى،فتكثر فى بعضها وتقل فى بعض ، وهى تخضع لطبيعة الباعث ، وما تدور حوله الشكوى ، فقد نجد صيغة الأمر ترد كثيرا فى الشكوى من ظلم الولاة فى العصر الأموى للتعبير عن حالة المجتمع ، وما يعانيه الناس من ظلم ، بينما تقل ويندر وجودها فى محاور الشكوى الأخرى ، وهذه الأساليب التى تمثلها هذه الصيغ مشتقة من أسلوب التبليغ ، وكأن هؤلاء الشعراء يبررون اذاعة الخبر أو يطلبون من السامع أن يبلغه للناس .

ولاشك أن فى مخاطبة الشاعر للخليفة أو الوالى بصيغة الأمر مضامين معنوية تنأى بالأسلوب عن الرتابة ، والقارىء أو السامع عن السأم ، ويخرج الأمر عن معناه الحقيقى إلى معان ذات دلالات فنية ، تفيد بأن الشاعر وهو يعبر عن شعور الناس فى مجتمعه قد نفذ صبره حينما يرى مايرسف فيه هذا المجتمع من مظاهر الظلم والانحراف ، فلا مندوحة إذا من الطلب بصيغة الأمر ، وتوجيه ذلك إلى من بيده السلطة ، وهو قادر على تغيير هذا الوضع أو ذاك .

---

(١) الأسلوب / أحمد الشايب : ٤٦ .

ففى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - نجد الشاعر أبا المختار يزيد بن الصعق يصرخ بشكواه ، ويطالب الخليفة بصيغة الأمر أن يقاسم العمال أموالهم لأنه يشك فى مصدرها يقول (١) :

أَبْلِغْ أَمِيرَ المُؤمِنِينَ رِسَالَةً ... فَأَنْتَ أَمِينُ اللّهِ فِى النَّهْىِ وَالأَمْرِ
فَلاَ تَدَعَنْ أَهلَ الرَّسَاتِيقِ وَالْقُرَى ... يُسِيغُونَ مَالَ اللّهِ فِى الأُدْمِ وَالوَفْرِ
فَأَرسِلْ إِلَى الحَجَّاجِ فَاعْرِفْ حِسَابَهُ ... وَأَرسِلْ إِلَى جَزْءٍ وَأَرسِلْ إِلَى بِشْرِ
فَقَاسِمْهُمُ نَفسِى فِدَاؤُكَ إِنَّهُمْ ... سَيَرْضَونَ إِنْ قَاسَمتَهُم مِنكَ بِالشَّطْرِ

ونلاحظ أن الشاعر قد حشد فى هذه الشكوى كثيرا من صيغ الأمر (أبلغ ، فأرسل ، فاعرف ، قاسمهم) مما يدل على أنه قد انفجر غضبا من وضع هؤلاء العمال . وأنه قد أمن العقوبة من الخليفة له .

وفى شكوى أنس بن زنيم الليثى لعبد الله بن الزبير من ظلم عماله يستخدم أسلوب الأمر فيقول (٢) :

أَبلِغْ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ رِسَالَةً ... مِن نَاصِحٍ لَكَ لاَ يُرِيدُ خِدَاعَا

وتظهر هذه الصيغة الأسلوبية كثيرا عند الراعى النميرى فى شكواه من عمال عبد الملك بن مروان ، فيخاطب الخليفة بصيغة الأمر قائلا (٣) :

---

(١) الاصابة وبهامشه الاستيعاب : ٣٨٧/١٠ - ٣٨٨ .

(٢) النقائض : ١٠٨٩/٢ .

(٣) ديوانه : ٢٢٦ - ٢٣٠ .

أَبلغ أَميرَ المُؤمنينَ رِسَالَةً ... شَكْوَى إِلَيكَ مطلَّةً وَعَويلا
فَادْفَعْ مَظَالِمْ عَيلَتْ أَبْنَاءَنَا ... عَنَّا وَأَنْقِذْ شلونَا المَأْكُولا

ويقول عمرو بن أحمر الباهلى فى شكواه من ظلم السعاة (١) :

أَدرِكْ نِسَاءً وَشِيبًا لَا قَرارَ لَهمْ ... إِنْ لَم يَكُن لَكَ فِيمَا قد لقُوا غِيَرُ
إِنَّ العِيَابَ الَّتى يخفُونَ مُشْرَجَةٌ ... فِيهَا البَيَانُ وَيلْوَى دُونَكَ الخَبَرُ
فَابعَثْ إِلَيهِمْ فَحَاسِبْهم مُحَاسَبَةً ... لَاتَخْفَ عينٌ عَلَى عَينٍ وَلَا أَثَرُ
سَائِلهُمُ حَيثُ يُبْدِي اللّهُ عَورَتَهُمْ ... هَلْ فِى صُدُورِهُمُ مِن ظُلْمِنَا وَحَرُ

وورود صيغ الأمر فى الشكوى من ظلم الولاة كثيرة جدا (٢) حيث أن الشاعر يريد أن ينبه الخليفة بصيغة الأمر إلى ضرورة النظر فى هذا الوضع ، وتفهم ما تعنيه الشكوى من ظلم هذا الوالى أو الساعى حتى يتبين أن الشاعر صادق فى شكواه ، وأن مصدر تلك الشكوى كان نابعا من ظلم قاس وقع عليه وعلى قومه، كما اتضح لنا من النصوص التى أوردناها فى هذا البحث .

ومن الأساليب التى وجدنا الشعراء يستخدمونها كثيرا لتوضيح الاطار العام للشكوى ، وزيادة التأثير فى نفس المتلقى ، ما كان من تضمين أشعارهم لبعض الأمثال العربية وقبل أن نعرض لنماذج الشكوى التى استخدمت هذا الأسلوب يجمل بنا أن نتعرف على أسلوب المثل العربى ،ومدى تأثيره فى تصوير مايريد الشاعر عند الاستعانة به ، وتعد هذه الامثال سجلا من سجلات اللغة (٣) التى اهتم العلماء

(١) شعر عمرو بن الأحمر الباهلى : ٩٥ - ١٠٨ .

(٢) ديوان أبى الأسود الدؤلى : ١٠٨ - ١٠٩ .

أنساب الأشراف : ١٩١/٥ - ١٩٤ .

(٣) المكونات الأولى للثقافة العربية / الدكتور عز الدين اسماعيل : ٨٦ .

بجمعها ، وتدوينها منذ القدم ، فكانت العرب تعارض بها كلامها لتصل إلى ماترغب من حاجتها بأقصر الطرق وأقواها منطقا (١) .

ولأن الأمثال كما يقول أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) " حكمة العرب فى الجاهلية والاسلام ، وبها كانت تعارض كلامها ، فتبلغ بها ماحاولت من حاجاتها فى المنطق بكناية غير تصريح ، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال إيجاز فى اللفظ وإصابة فى المعنى وحسن التشبيه " (٢) .

وقد تحدث الزمخشرى عن أثر ضرب الأمثال عند العرب فى المعانى فقال : " ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفى فى إبراز خبيئات المعانى ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل فى صورة المحقق والمتوهم فى معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد وفيه تبكيت للخصم الألد وقمع لسورة الجامح الأبى " (٣) .

وتكمن قوة تأثير المثل فى أنه يقص قصة وقعت ، وتجربة سلفت نبع منها هذا المثل ، وورده فى قصيدة معينة كأنما يوجز القصة كلها وينقل التجربة فى بيت واحد . وعندئذ تزداد قوة التأثير على المخاطب ، وأحسبهم ينطلقون فى هذا من درايتهم بأن المثل يجتمع فيه مالايجتمع فى غيره من سمات البلاغة كالايجاز فى اللفظ ، والاصابة فى المعنى وحسن التشبيه ، وجودة الكناية (٤) ، والأمثال

---

(١) الأمثال العربية القديمة /رودلف زلهايم ترجمة الدكتوررمضان عبد التواب ص:٢٣ .

(٢) كتاب الأمثال : ٣٤ .
والأمثال العربية فى العصر الجاهلى دراسة تحليلية / الدكتور محمد توفيق أبو على دار النفائس : ٣٦ .

(٣) الكشاف : ١٩٥/١ .

(٤) مجمع الأمثال : ٧/١ - ٨ .

مخزونة فى شعور الناس فأشربوا بها وما تضمنه من قصص ، وحين ترد فى الشعر تبعث كل هذا المخزون فى الذاكرة واللاوعى فيتأثر المخاطب والمتلقى ، فلا تراه إلا يطرب لهذا الذى يحرك وجدانه ويعيد له التجارب السابقة فى أبلغ صورة وأوجز كلام .

وكثيرا ما استخدم الشعراء العرب والرائيون الغربيون المثل والأساطير فى شعرهم وقصصهم لما تحمله من تجارب ، ففيها خيال خصب وتجربة غنية ،ومن هنا جاء دور المثل فى شعر الشكوى ليزيده جمالا وتأثيرا وعمقا فى المعنى يسعى الشاعر الى تجسيده أمام عينى المتلقى .

وقد استثمر الشعراء الأمثال فى غرض الشكوى ، فكان ذلك من مميزات الأسلوب فى أغلب الأحيان ، وربما جاء ورود هذه الأمثال فى شعر الشكوى أكثر من غيره للدلالة على حالة نفسية قلقة يحاول الشعراء الافصاح عنها لبيان ما ينتابهم من هموم ومكابدة .

ولما كانت الشكوى إظهار مافى النفس الانسانية،وبث مايعانيه ذو الشكوى إلى الآخرين لمشاركته همومه وحل قضيته ، ناسب أن يضمن الشعراء الأمثال شكواهم لأن هذه الأمثال ميدانها الحياة العامة فجاء استخدامهم لها دليلا على عنايتهم بهذا الأسلوب لما يمثله من قيمة فنية ، ولعلنا نتبين ذلك أكثر من خلال النماذج التى سنوردها هنا ومنها قول البريق الخناعى(١) يشكو من قومه بنى لحيان حيث

---

(١) هو عياض بن خويلد الهذلى ، ويلقب بالبريق ، حجازى مخضرم كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أمر بقطع لسانه لما شكاه قوم من بنى لحيان لهجائه لهم ، ثم شفع فيه قوم من قريش فعفا عنه .
معجم الشعراء : ٢٦٨ .

كان جزاؤهم له فى حقن دمائهم (كَجَزَاء سِنِمَّار)(1) يقول(2) :

رَفَعتُ بَنِى حَوَّاء إِذْ مَالَ عَرشُهُم ... وَذَلِكَ مَنٌّ فِى صُرَيمٍ مُقَلَّلُ(3)

جَزَتْنِى بَنُو لِحْيَانَ حَقْنَ دِمَائِهِمْ ... جَزَاءَ سِنِمَّارٍ بِمَا كَانَ يَفْعَلُ

وقول بعضهم يشكو من ذهاب ماله(4) :

أَيَذْهَبُ مَاجَمَعْتُ صَرِيمَ سَحْرٍ ... طَلِيفًا إِنَّ ذَا لَهُو العَجَبُ

فقد ضمن هذه الشكوى المثل القائل : جاء صريم سحر(5) .

وفى شكوى الجاهليين من الزمان وريبه نجدهم يضمنون تلك الشكوى بعض الأمثال العربية لبيان القلق الذى يلفهم ، وخوفهم الشديد من الدهر كما يظهر من قول لبيد بن ربيعة العامرى (ت ٤١ هـ)(6) :

---

(١) سِنِمَّارٌ: رجل رومي بنى الخورنق الذى بظهر الكوفة للنعمان بن امرئ القيس ، فلما فرغ منه ألقاه من أعلاه فخر ميتا . وانما فعل ذلك لئلا يبنى مثله لغيره ، فضربت العرب به المثل لمن يجزى بالاحسان الاساءة .

مجمع الأمثال : ٢٨٣/١ .

(٢) شرح أشعار الهذليين : ٧٤٦/٢ .

(٣) صُرَيْمٌ : رجل وقيل قبيلة .

(٤) مجمع الأمثال : ٣١٣/١ واللسان (صرم) وقد ورد البيت فى المصدرين بدون عزو .

(٥) يضرب هذا المثل لمن جاء آيسا خائبا .

والصَّرِيْمُ : بمعنى المصروم ، والسحر : الرئة . والطليف بالطاء والظاء المجان . يقال ذهب فلان بغلامى طليفا أى بلا ثمن .

(٦) ديوان لبيد : ٢٧٤ .

وَلَقَد جَرَى لُبَدٌ فَأَدْرَكَ رَكْضَهُ ... رَيْبُ الزَّمَانِ وَكَانَ غَيرَ مُثَقَّلِ
لَمَّا رَأَى لُبَدُ النُّسُورَ تَطَايَرَتْ ... رَفَعَ القَوَادِمَ كَالفَقِيرِ الأَعْزَلِ

فقد ضمن هذه الأبيات المثل القائل : أَخْنَى عَلَيهَا الَّذِى أَخْنَى عَلَى لُبَدٍ (١) .

ويشكو النابغة الجعدى (ت ٥٠ هـ) من همومه ، فيعمد إلى المثل الذى يقول : اخْلُ إِلَيْكَ (٢) . وذلك لتهويل ماحل به من هموم يقول (٣) :

سَمَالَكَ هَمٌّ وَلَمْ تَطْرَبِ ... وَبِتَّ بِبَثٍّ وَلَمْ تَنْصَبِ
وَقَالَتْ سُلَيْمَى أَرَى رَأْسَهُ ... كَنَاصِيَةِ الفَرَسِ الأَشْهَبِ
وَذَلِكَ مِنْ وَقَعَاتِ المَنُونِ ... فَأَخْلِى إِلَيكِ وَلَا تَعْجَبِى

ويتخذ طرفة بن العبد من المثل القائل : (أروغ من ثعالة) (٤) منطلقا يؤكد فيه خيبة أمله فى اخلائه الذين أسلموه للمحنة فيقول (٥) :

كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ خَالَلْتُهُ ... لَاتَرَكَ اللَّهُ لَهُ وَاضِحَةْ
كُلُّهُم أَرْوَغُ مِنْ ثَعْلَبِ ... مَا أَشْبَهَ اللَّيلَةَ بِالبَارِحَةْ

وقريب من هذا الأسلوب قول حميد بن ثور الهلالى يشكو من فساد مابينه وبين بعض أقاربه مضمنا هذه الشكوى المثل القائل :

---

(١) مجمع الأمثال : ٤٢٩/١ ، وَأَخْنَى : أى هلك ، وَلُبَدٌ : آخر نسور لقمان .
(٢) نفس المصدر : ٤٣٢/١ يقال للرجل : أَخْلُ إِلَيْكَ : أى الزم شأنك .
(٣) شعر النابغة الجعدى : ١٢ - ١٣ .
(٤) مجمع الأمثال : ٧٨/٢ .
(٥) ديوانه : ٧٨/٢ .

(أَذَلُّ مِمَّنْ بَالَتْ عَلَيهِ الثَّعَالِبُ)(١) فيقول :(٢)

أَلَمْ تَرَ مَابَيْنِى وَبَيْنَ ابْنِ عَامِرٍ مِنَ الوُدِّ قَدْ بَالَتْ عَلَيهِ الثَّعَالِبُ
وَأَصْبَحَ بَاقِى الوُدِّ بَيْنِى وَبَيْنَهُ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ وَالدَّهْرُ فِيهِ عَجَائِبُ

وفى شكوى امرىء القيس من خيبة أمله فى الحياة لا يجد بدا من التعبير بالمثل القائل : (رَضِيتُ مِنَ الغَنِيمَةِ بِالسَّلامَةِ)(٣) وذلك ليبين شدة اليأس والقنوط الذى وصل اليه فى تطوافه من أجل ملك آبائه وأجداده المسلوب(٤) :

وَقَدْ طَوَّفْتُ فِى الآفَاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الغَنِيمَةِ بِالإِيَابِ

ولقد رفع أبو نواس قصيدة إلى الخليفة الأمين العباسى يشكو فيها سجنه ويتوسل إليه أن يطلقه ، وقد ضمن شكواه المثل القائل : (رَفَعَ بِهِ رَأْساً)(٥) فقال(٦) :

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ إِنَّنِى حَتَّى أَرَاكَ بِكُلِّ بَاسِ
مَنْ ذَا يَكُونُ أَبَا نُوَاسِكَ إِذْ حَبَسْتَ أَبَا نُوَاسِ

---

(١) مجمع الأمثال : ١٩/٢ - ٢٠ • وهذا المثل يضرب للشىء يستذل ويقال فى الشر يقع بين القوم وقد كانوا على صلح " بَالَ بَيْنَهم الثَّعَالِبُ " •

(٢) مجمع الأمثال : ٢٠/٢ ولم أجد هذين البيتين فى ديوانه تحقيق عبد العزيز الميمنى •

(٣) كتاب الأمثال : لأبى عبيد بن سلام : ٢٤٩ •
وهذا المثل يضرب للرجل يسعى فى طلب حاجته فيشرف منها على الهلكة حتى يرضى بأن يفلت سالما •

(٤) ديوانه : ٢٢٥ •

(٥) معنى المثل : أنه رضى بما سمع وأصاخ له • مجمع الأمثال : ٦٢/٢ •

(٦) ديوانه : ٤٢٤ •

أَقْصَيْتَــــهُ وَنَسِيْتَــــهُ ... وَلِعَهْــدِهِ بِـكَ غَيـرُ نَــاسِ
قَــدْ كُنْــتَ آمُــلُ غَيْــرَ ذا ... لَوْ كُنْــتَ تُنْصِـفُ فِـى القِيَــاسِ
إِنْ أَنْــتَ لَــمْ تَرْفَــعْ لَــهُ ... رَأْسًــا فُدِيــتَ فَنِصْــفَ رَأْسِ

وقد استخدم الشعراء فى شكواهم مافى معنى المثل كقول لبيد بن ربيعة يشكو من سوء عشرة الناس (١) :

ذَهَــبَ الَّذِيــنَ يُعَــاشُ فِــى أَكْنَافِهِــمْ ... وَبَقِيــتُ فِــى خَلْــفٍ كَجِلْــدِ الأَجْــرَبِ (٢)
يَتَأَكَّلُــونَ مَذَمَّــةً وَخِيَانَـــــةً ... وَيُعَــابُ قَائِلُهُــمْ وَإِنْ لَــمْ يَشْغَــبِ

وهذا فى معنى المثل القائل : (اخْبُرْ تَقْلِهْ (٣)) وكقول الأعرابية التى تشكو من عقوق ابنها لها (٤) :

أَنْشَــا يُمَــزِّقُ أَثْوَابِى يُؤَدِّبُنِــى ... أَبَعْــدَ خَمْسِيــنَ عِنْدِى تَبْتَغِى الأَدَبَــا

---

(١) ديوانه : ١٥٣ ٠

(٢) الخَلْفُ : روى خلف : وهو البدل ، والخلف النسل ، وقالوا الخلف : البقية ٠

(٣) اخْبُرْ : لفظه لفظ الأمر ، ومعناه الخبر ، يقول : اذا خبرتهم قليتهم ، والمثل لأبى الدرداء فيما زعم بعضهم ٠ والقِلَى : البغض وفى القرآن الكريم ﴿ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِنَ الْقَالِينَ ﴾ سورة الشعراء الآية : ١٦٨ ٠

كتاب الأمثال : ٢٧٦ وجمهرة الأمثال : ١/١٠٥ ٠

(٤) الكامل فى اللغة : ١/٣١٢ ٠

وهو فى معنى المثل القائل :(عَوْدٌ يُعَلَّمُ الْعَنَجَ)(١) يضرب مثلا للمسن يؤدب •

وفى شكوى بشار بن برد من هجر محبوبته نجده يستعمل المثل القائل (أَحمَق من هَبَنَّقة)(٢) وذلك للتدليل على ماوصلت إليه حاله من جراء ذلك ، وأنه قد أصبح من هواها يعاب كما يعاب (هَبَنَّقة) المشهور بالغباء والحمق فيقول(٣) :

لَقَدْ تَرَكَتْنِى مِنْ هَوَاهَا كَأَنَّنِى " هَبَنَّقَةُ " القَيْسِى ذُو الودعَاتِ

وبقدر ما استخدم الشعراء من الأمثال أو مافى معناها خلال شكواهم ، وما كان لذلك من دلالات ، فإنهم قد أتوا ببعض الصيغ الصرفية التى تدل على المبالغة ، وتهويل الأمر ، والملاحظ أن صيغ المبالغة بأوزانها الخمسة(٤) يكثر استخدامها فى غرض الشكوى لما تشكله هذه الأوزان الصرفية فى النطاق الشعرى من معان عميقة تناسب المقام الذى قيلت فيه(٥) •

---

(١) جمهرة الأمثال:٣٩/٢ - ٤٠ والعَنَجُ من قولهم : عنجت البعير أعنجه عنجا : اذا رددت رأسه اليك بالزمام لتعطفه •
والعود : الناقة المسنة •

(٢) هو ذو الوَدَعَات ، واسمه يزيد بن ثروان أحد بنى قيس بن ثعلبة اشتهر بالغباء والحمق حيث بلغ من حمقه أنه ضل له بعير فجعل ينادى من وجد بعيرى فهو له فقيل له : فلم تنشده ؟ قال : فأين حلاوة الوجدان • وله قصص كثيرة تدل على شدة حمقه •
مجمع الأمثال : ٣٨٦/١ - ٣٨٧ •

(٣) ديوانه : ٤٣/٢ •

(٤) وهى : (فِعَال ، مِفْعَال ، فَعِيل ، فَعُول ، فَعِل) •
النحو الوافى : ٢٥٨/٣ - ٢٧٠ •

(٥) ديوانه : ٩٨ •

فامروء القيس فى معرض شكواه من مآله الخاسر بعد أن طوف فى الآفاق وعاد خائبا لا يجد بدا من المبالغة فى هزال مطيته ليدلل بذلك على طول السفر ومواصلة السير بكل فلاة حتى يعذره الناس ان هو أخفق فى تطوافه يقول (١) :

أَلَم أُنْضِ المَطِيَّ بِكُلِّ خَرْقٍ أَمَقِّ الطُّولِ لَمَّاعِ السَّرَابِ

أما ذو الأصبع العدوانى فإنه يعيش لحظة ذكرى لماضيه المشرق حينما كان يسارع إلى أفعال الخير ، وكانت له مواقف مشرفة فى كثير من القضايا الاجتماعية ، أما الآن فقد داهمته الشيخوخة وسلبته كل معانى الجدة ، فيؤكد هذه الأمور بصيغة المبالغة (فعال) فليس له إلا أن يعيش على الذكرى (٢) :

قَدْ كُنْتُ فَرَّاجَ أَبْوَابٍ مُغَلَّقَةٍ ذَبَّ الرِّيَادِ إِذَا مَاخُولِسَ النَّظَرُ

والمخبل السعدى فى شكواه من فراق ابنه شيبان يتخذ أسلوب المبالغة (فعال) طريقا لتهويل ألم الفراق وتصوير حاله بعد رحيل هذا الابن الذى يفترض أن يكون بجانب أبيه الشيخ ، يرعاه ويقدم له البر والطاعة يقول (٣) :

أَشَيْبَانُ مَا أَدراك أَنْ كُلَّ لَيْلَةٍ غَبَقْتُكَ فِيهَا وَالغَبُوق حَبِيبُ
غَبَقْتُكَ عُظْمَاهَا سَنَامًا أَو انْبَرَى بِرِزْقِكَ بَرَّاقُ المُتُونِ أَرِيبُ

وفى شكوى أبى الأسود الدؤلى من بعض عمال ابن الزبير نجده يبالغ فى وصف مايتحلى به هذا الوالى من خلق لم يكن يرضى عنه عامة الناس فيقول (٤) :

(١) ديوانه : ٩٨ .
(٢) ديوانه : ٣٣ .
(٣) الأغانى : ١٣/١٩٠ .
(٤) ديوانه : ١٠٨ .

عَلَى أَنَّ الفَتَى نَكِحٌ أَكُولٌ　　وَمِسْهَابٌ مَذَاهِبُهُ كَثِيرَه

فقد عمد إلى صيغ المبالغة (فعل ، فعول ، مفعال) لزيادة التوضيح وتصوير الجانب الاجتماعي لحياة هذا الوالي .

وهذا الفرزدق يشكو للخليفة الوليد بن عبد الملك ماحل بالمجتمع العراقي من الظلم ، وما يعانيه الناس من ضيق الحال ، فيؤكد غيرة الخليفة على حماية المجتمع من تجاوزات بعض العمال . وقد ركز على الناحية الدينية لإثارة الخليفة فقال (١) :

فَلَوْ سَمِعَ الخَلِيفَةُ صَوْتَ دَاعٍ　　يُنَادِي اللَّهَ هَلْ لِي مِنْ مُجِيرِ
وَأَصْوَاتَ النِّسَاءِ مُقَرَّنَاتٍ　　وَصِبْيَانٍ لَهُنَّ عَلَى الحُجُورِ
إِذًا لأَجَابَهُنَّ لِسَانُ دَاعٍ　　لِدِينِ اللَّهِ مِغْضَابٍ نَصُورِ

---

(١) ديوانه : ٢٨٦/١ .

وفى دراستنا لشعر الشكوى أمكننا أن نلاحظ بعض الخصائص الأسلوبية ، فقد بان لنا أن بواعث الشكوى لاتخرج عن كونها ذاتية أو اجتماعية أو سياسية. ومن هنا كان للأسلوب خصائص معينة تنبع من نوع الشكوى ذاتها . فالشاعر فى شكواه الذاتية يعبر عن نفسه فقط ، ويشكو ماحل به ، ولم نجد للجماعة دورا فى هذه الشكوى ، فكانت السمة الطاغية والصوت الواضح فى هذا الجانب هو صوت (الأنا) إذ أن الموقف يغمر الشاعر ، كما أن المؤثرات الذاتية تستبد بكل عواطفه ، وانفعالاته فيذكر هواجسه ، ويبث همومه فى مناجاة نفسية حيث تظهر هذه الناحية الأسلوبية واضحة فى الشكوى من الشيخوخة ومن طول الليل ، والسجن ، والعجز ، والمرض ، والدَّين ، وكل ما يتصل بذات الشاعر وكوامنه النفسية .

أما فى الشكوى الاجتماعية والسياسية فإنه يخفت صوت (الأنا) ويعلو صوت الجماعة . حيث يذوب الشعور الفردى ، ويتلاشى أمام مصلحة الجماعة ، والتعبير عن قضاياها الاجتماعية والسياسية . وقد رأينا هذا بجلاء فى الشكوى من ظلم الولاة فى الحياة الاجتماعية فى القرن الأول الهجرى ، والشكوى من أثر الموالى فى الحياة الاجتماعية فى القرنين الثانى والثالث . كما تجلت هذه الظاهرة الأسلوبية فى شعر الشكوى السياسية فى عصر بنى أمية ، والعصر العباسى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى .

إن شعر الشكوى وليد التجربة الشعورية المحضة ، فهو يصدر عن معاناة إنسانية كانت صدى لمؤثرات ذاتية واجتماعية وسياسية - كما رأينا - فمنح قدرته الدائمة على التأثير فى النفس ، لأنه ينفذ بنا إلى أعماق المأساة ، فنعيش مع صاحبها ، ونشاطره همومه فى كل موجة من موجات الألم . وهذا ذروة الصدق الذى يعد من أهم خصائص الأسلوب فى هذا الغرض .

ولعل استجابة ابن الزبير لشكوى أبى قطيفة [(١)] وتأثره بها خير شاهد على مدى التأثير فى النفس ، فقد نفى مع بنى أمية إلى الشام فى خلافة ابن الزبير على الحجاز ، فأخذ يحن الى ديار قومه ويشكو غربته قائلا [(٢)] :

أَقْرِ مِنِّى السَّلَامَ إِنْ جِئْتَ قَوْمِى ... وَقَلِيلٌ لَهُمْ لَدَىَّ السَّلَامُ
أَقْطَعُ اللَّيْلَ كُلَّهُ بِاكْتِئَابٍ ... وَزَفِيرٍ فَمَا أَكَادُ أَنَامُ
نَحْوَ قَوْمِى إِذْ فَرَّقَتْ بَيْنَنَا الدَّا ... رُ وَحَادَتْ عَنْ قَصْدِهَا الْأَحْلَامُ
خَشْيَةً أَنْ يُصِيبَهُمْ عَنَتُ الدَّهْـ ... رِ وَحَرْبٌ يَشِيبُ مِنْهَا الْغُلَامُ
فَلَقَدْ حَانَ أَنْ يَكُونَ لِهَذَا الدَّ ... هْرِ عَنَّا تَبَاعُدٌ وَانْصِرَامُ

فقد روى صاحب الأغانى أن ابن الزبير لما سمع هذا الشعر رق قلبه ، وتأثر به ثم قال : حن والله أبو قطيفة ، وعليه السلام ورحمة الله ٠ من لقيه فليخبره أنه آمن فليرجع [(٣)] ٠

وقد رأينا كيف استجاب عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لشكوى أمية ابن الأسكر من فراق ابنيه [(٤)] كما تأثر بشكوى أبى المختار يزيد بن الصعق من شراء بعض العمال [(٥)] ٠

---

(١) الأغانى : ١/ ١٢ ٠

(٢) نفس المصدر : ١/ ٢٨ - ٢٩ ٠

(٣) نفس المصدر : ٢٩/١ ٠

(٤) نفس المصدر : ٢٢٧/٢١ ٠
وخزانة الأدب : ٢١/٦ ٠

(٥) الاصابة وبهامشه الاستيعاب : ٣٨٧/١٠ - ٣٨٨ ٠

ولاشك أن غيرة عمر على الدين ، وحرصه على حفظ حقوق العباد ، وخوفه الشديد من الله كان وراء ذلك بالاضافة إلى صدق الشعراء فى شكواهم له ، وشدة تأثيرها فى نفسه .

وقد تبين لنا أن الشعراء فى شكواهم من الدهر كان يلفهم شعور يائس لا تتخلله نغمة أمل ، وكل الشعراء الذين اشتكوا من الزمان قد أضفوا عليه صفات تتلخص فى الترصد والحقد ، ومحاولة الايقاع بالبشر ، وعمل الشعراء بكل جهدهم على اقتناص لحظات السعادة قبل أن يدركهم المشيب ويمضى بهم الزمان إلى الموت ، وقد تكررت ظاهرة الشكوى من الزمان على مر العصور بتفاوت ملحوظ فى أساليب الشعراء .

وغرض الشكوى يكشف لنا بوضوح أن الشعراء لم يعتمدوا التوعر فى أساليبهم ، فحينما نقرأ شعر الشكوى فى العصر الجاهلى لانجد صعوبة تلجؤنا إلى الرجوع للمعاجم اللغوية شأن الأغراض الجاهلية الأخرى التى تفرض على القارئ اللجوء إلى المعاجم للوقوف على معانيها ، أما غرض الشكوى فقد حفل بالسهولة والعذوبة فى مختلف العصور .

والحق أن الحكم بالسهولة على هذا الشعر ، أو ذاك نسبى يختلف من شاعر إلى آخر ، وبين قصيدة وأخرى حتى للشاعر الواحد ، لكن السهولة فى غرض الشكوى على امتداد هذه العصور يظل دائما بالقياس إلى الأغراض الأخرى حكما صادقا إلى حد بعيد جدا ، وفى تقديرى أن مرد هذه السهولة والوضوح يعود إلى طبيعة هذا الشعر فهو صدى لايقاع نفسى تختلج به خفقات قلوبهم ، فشعراء الشكوى يرسلون شعرهم ارسالا طبيعيا فى غير تكلف أو مراجعة .

وحين ننظر إلى الخصائص الأسلوبية لغرض الشكوى نجد أنه يتسم بالصدق فى التعبير ، والميل إلى الألفاظ والعبارات الموحية، حيث لم يعرف الشعراء فى شكواهم تزييف العواطف ، والتكلف فيها ، فقد كان الشعراء صادقين مع أنفسهم ، لأنهم يعبرون عن معاناة حقيقية فرضت عليهم أن يكون أسلوبهم مباشرا بسيطا لاتكلف فيه ولا صنعة ، فجاءت معانيهم بعيدة عن التأنق والزخرفة فى لغة سهلة ميسرة يندر أن نعثر فيها على لفظ غريب أو عبارة معقدة .

وشعراء الشكوى عبيد لعواطفهم ، وما تقذف به هذه العواطف على ألسنتهم من تعبيرات تتواءم معها ، فلا يعودون إليها فى محاولة لتحكيكها وتثقيفها .

ومن سمات الأسلوب فى شعر الشكوى مايبدو فى بعض المحاور من الاطناب ، فالشكوى من الشيخوخة مثلا تستغرق عند الشعراء قسطا كبيرا من الألفاظ والمعانى والصياغات حيث يعمد الشعراء فى هذا النوع من الشكوى إلى تعداد ضروب لهوهم ، وهم يرفلون فى حلل الشباب النضرة ، وحين ارتدوا أثواب المشيب البالية أطالوا الحديث عن ماضيهم مصورين ماكان لهم من لهو ومفاخر ، وقد حفلوا بتصوير أحوالهم التى وصلوا إليها من ضعف البدن ، وكلال الحواس ، وعلل الشيخوخة كضعف البصر ، وتقوس الظهر ، وقيد الخطو ، وتساقط الأسنان إلى غير ذلك من مظاهر الضعف والعجز(١) ، كما أننا نجد الشعراء فى الشكوى من السجن يرسلون خواطرهم ارسالا ، فيحنون إلى أيام الحرية ، ويتشوقون إلى مرابع الأهل والديار، ويكثر الاطناب عند شعراء الغزل العذرى حينما يصورون أحوالهم بعد أن هجرهم

---

(١) الشباب والشيب فى الشعر العربى حتى نهاية العصر العباس : ٧٨٠/٢ - ٧٨١ .

محبوهم ، وصدوا عنهم ، فتركوهم يخاطبون الجماد من الجبال والشجر ، والأحياء من الطير والحيوان في أسلوب ينم عن الضعف والتهالك وراء هذه المحبوبة المجافية. ومثل ذلك شعراء الغربة فى شكواهم وحنينهم لأوطانهم .

ومن مميزات أسلوب شعر الشكوى كذلك عدم ميل الشعراء إلى المحسنات البديعية ، وذلك أن شعر الشكوى فى جملته واضح جلي بعيد عن التعمل والافتناء حيث لم نجد أى شاعر من شعراء الشكوى يتكلف اللجوء إلى تزيين أسلوبه بالصنعة البديعية ، وما وجدناه من ذلك فهو بعيد عن التصنع فى تركيب الأساليب الذى أملته ثقافة العصر فى القرنين الثانى والثالث إذ عمت الصنعة البديعية عند كثير من الشعراء ، ووضحت فى كثير من أغراض الشعر العربى . لكن وجودها الضئيل فى غرض الشكوى إنما هو من أجل تحسين الكلام وتجميله ، وتوشيحه بظلال من الدعابة والمرح فيما يتعلق بالشكوى الساخرة عند شعراء الفقر وسوء الحال فى القرنين الثانى والثالث . ورغم ذلك فإن لجوء الشعراء فى شكواهم إلى المحسنات البديعية يكاد يكون محدودا جدا ، بل ونادرا إذا ماقيس بالأغراض الشعرية الأخرى . وقد أدى هذا إلى التوافق بين الألفاظ والمعانى ، وهو أمر قد دعا إليه النقاد ، فجاء فى غرض الشكوى كأوضح مايكون حيث تجلت لنا دقة الشعراء فى سوق الألفاظ متفقة مع معانيها فى توازن دقيق ، ولذلك فإنه يندر فى تصورى أن نجد للغو القول أو نافلته فى شعر الشكوى أثرا إلا فى حدود ضيقة جدا . الأمر الذى أدى إلى رواء الأسلوب ورونقه وائتلاف الألفاظ ، وتجانسها ، وتآنسها فى السياق الشعرى ، وقوة الجرس الذى تصدره الكلمات ، ولعل هذا يتضح لنا بصورة أكثر فى دراسة الموسيقى الشعرية .

وقد زاد من سهولة أسلوب شعر الشكوى وضوح المعانى وقربها ، فالأساليب تشف عما تحتها من معان يقع عليها المتلقى فى سهولة ويسر ، تنأى عن الغموض والتعقيد بما يمكن المتلقى لهذا الشعر من فهم معانيه بطريقة تخلو تماما عن الاغراق فى التفكير ، لأن الشعراء يعالجون قضاياهم بلغة سهلة رقيقة بعيدة عن الزخرفة والتزويق ، فجاء الأسلوب كذلك سهلا مبسطا .

وفى تصورى أن هذه السهولة والوضوح تعود إلى طبيعة الموضوع نفسه ، فهو تعبير عن مشاعر مجروحة مثقلة بالهموم والأحزان حتى فى الشكوى الساخرة لانكاد نفتقد تلك العاطفة الدافقة ، ودورها فى تشكيل المعنى وتحسين الأسلوب ، فظهرت قدرة أولئك الشعراء من أمثال أبى الشمقمق ، والساسى ، وأبى دلامة وبشار وأبى على البصير وغيرهم على الحكاية والقصة فى نتاجهم مما أضفى على أسلوبهم صفة السهولة والوضوح ، وعلى شكواهم ملاحة وقبولا ، فراجت أشعارهم ورواها الناس فى المجتمع بمختلف طبقاته ، ورأينا أن الشعراء قد يتحولون فى شكواهم أحيانا إلى أسلوب الهجاء ، فيستعملون ألفاظا ثقيلة غير مستساغة ، وقد ظهر هذا كما رأينا فى الشكوى من أثر الموالى فى الحياة الاجتماعية والسياسية ، وعند شعراء بعض الأحزاب التى نشأت فى العصر الأموى (١) .

---

(١) الوافى بالوفيات : ٦٢/٣ ، وحماسة الظرفاء : ١١٨/١ ، والورقة لابن الجراح : ١٣١ ، وربيع الأبرار : ٧٩/١ .

الفَصْلُ الثَّانِي

فِي الصّورالشعريّة

لقد تنبه النقاد العرب القدامى إلى أهمية الصورة الشعرية وأثرها في البناء الفني للشعر العربي ، والجاحظ وهو مؤسس علم البيان بلا منازع ، وله هذه التسمية ، وبها سمى كتابه (البيان والتبيين) [1] يرى أن فضيلة الشعر مقصورة على العرب ، فلا يترجم ولا يجوز عليه النقل لاستحالة نقل المعاني التي تحملها الألفاظ بعد نظمها وتأليفها [2] ، وهذا يعني أنه قد لاحظ النكات البلاغية التي تحدث بسبب النظم ، وأنها من خصائص اللغة العربية ، وهو يعلن رأيه في قضية اللفظ والمعنى فيقول :

(والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني ، وإنما الشأن في اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير) [3] .

فهو يرى أن الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير ، إذ المعنى الأصلي الذي يعبر عنه الشاعر كالمادة في يد الفنان ملك لجميع الناس ، وإنما المدار على تناول هذا المعنى والتعبير عنه تعبيرا تاما دقيقا بألفاظ فصيحة مختارة وموضوعة في أماكنها .

---

(١) تاريخ نشأة علوم البلاغة وأطوارها / الدكتور عبد العزيز عرفة ، دار الطباعة المحمدية القاهرة ط (١) ١٩٧٨م ص : ٦٨ .

(٢) الحيوان : ٧٤/١ - ٧٥ .

(٣) المصدر السابق : ١٣١/٣ - ١٣٢ .

وبهذا نفى الجاحظ أن تكون البلاغة أو الميزة البلاغية فى المعنى الأصلى بل المدار عنده على الصورة والتركيب وليس اللفظ المفرد ، ويرى ابن قتيبة أن : (أشعر الناس من أنت فى شعره حتى تفرغ منه)(١) .

وقد دار كل من ابن طباطبا (ت ٣٢٢ هـ) وقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) ، وأبى هلال العسكرى (ت ٣٩٥ هـ) وابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ) وغيرهم من النقاد القدامى حول مفهوم الصورة الشعرية ، فاهتموا بأشكالها البلاغية من تشبيه ، واستعارة ومجاز ، وكناية ، وبحوثها على أنها وسائل شعرية وجدت فى الشعر(٢) الجاهلى الذى وصل إليهم ، ومن هنا اكتسبت قيمتها عندهم ولقيت نصيبا وافرا من الاهتمام(٣) .

وقد أشار عبد القاهر الجرجانى الى الصورة بقوله : " وأعلم أن قولنا الصورة انما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذى نراه بأبصارنا .. الى أن يقول : وليس العبارة عن ذلك بالصورة شيئا نحن ابتدأناه فينكره منكر بل هو مستعمل مشهور فى كلام العلماء ، ويكفيك قول الجاحظ " وانما الشعر صياغة وضرب من التصوير "(٤) .

وهو يقارن الصورة الشعرية بصورة الرسام فيقول : (فكما أن تلك تعجب وتخلب وتروق وتؤنق ... كذلك حكم الشعر فيما يضعه من الصور ويوقعه فى النفوس من المعانى التى يتوهم بها الجماد الصامت فى صورة الحى الناطق والموات الأخرس

---

(١) الشعر والشعراء : ٨٢/١ .

(٢) عيار شعر : ٤٤ - ٤٦ ، ونقد الشعر : ١٩ ، والعمدة : ٢٩٤/٢ .

(٣) الصورة الفنية فى النقد الشعرى / الدكتور عبد القادر الرباعى : ٤٢ .

(٤) الدلائل : ٥٠٨ .

فى قضية الفصيح المعرب والمعدوم المفقود فى حكم الموجود المشاهد (١)

أما حازم القرطاجني (ت ٦٨٤ هـ) فإنه يضع الشعر العربى فى درجة يقصر دونها كل شعر فى الأمم الأخرى فيقول : (ولو وجد هذا الحكيم أرسطو فى شعر اليونانيين مايوجد فى شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال والاستدلالات واختلاف ضروب الابداع فى فنون الكلام لفظا ومعنى وتبحرهم فى أصناف المعانى وحسن تصرفهم فى وضعها ووضع الألفاظ بازائها ... وتلاعبهم بالأقاويل المخيلة كيف شاءوا لزاد على ماوضع من القوانين الشعرية) (٢) .

وقد جاء بعد ذلك التهانوى (ت حوالى ١١٥٨ هـ) فجعل للصورة معانى عدة لكنها لاتخرج عن المعانى اللغوية والفلسفية لها (٣) .

أما فى دراسات المحدثين المتخصصة فى موضوع الصور الشعرية فقد بلغت من الكثرة حدا كبيرا حيث تناول هذا الموضوع كثير من الدارسين المستشرقين والنقاد العرب (٤) ، وفصلوا القول فى مناحى الصورة . ولعل من أشهر هذه الدراسات

---

(١) المصدر السابق : ١٦٦ .

(٢) منهاج البلغاء : ٦٩ .

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون : ٢٢٨/٤ - ٢٣٠ .

(٤) من هذه الدراسات على سبيل المثال :
- الصورة الأدبية / الدكتور مصطفى ناصف .
- الصورة الفنية فى الشعر العربى حتى آخر القرن الثانى الهجرى / الدكتور على البطل .
- الصورة الفنية فى شعر بشار بن برد / الدكتور عبد الفتاح صالح .
- الصورة الفنية فى الشعر الجاهلى فى ضوء النقد الحديث / الدكتور نصرت عبد الرحمن .
- الصورة الفنية فى شعر الشريف الرضي / الدكتور عبد الاله الصايغ .
- الصورة الفنية فى شعر أبى تمام / الدكتور عبد القادر الرباعى .
- الصورة الشعرية /سى دي لويس/ ترجمة الدكتورأحمد نصيف الجنابى وآخرين.
- الصورة والبناء الشعرى / الدكتور محمد حسن عبد الله .

وأشملها ، دراسة الدكتور كامل حسن البصير عن (بناء الصورة الفنية فى البيان العربى موازنة وتطبيق) فقد وازن بين الدراسات البلاغية والنقدية العربية ، والنقد الأوربى بشأن مسألة الصورة فرأى أنها :

" ما يتماثل بواسطة الكلام للمتلقى من مدركات حسا ، ومعقولات فهما ومتخيلات تصورا وموهومات تخمينا وأحاسيس وجدانا .. " (١) .

ويرى الدكتور على البطل أن الصورة الشعرية تشكيل لغوى جمالى مستمد من طرائق الحس والشعور ، يبدعها خيال الشاعر أو الكاتب حينما يربط بين الأشياء ، فتثير فى الآخرين مختلف العواطف من خوف ورغبة وكراهية وأسى (٢) .

وتستعمل كلمة الصورة للدلالة على ماله صلة بالتعبير الحسى ، وتطلق أحيانا مرادفة للاستعمال الاستعارى للكلمات (٣) ، وهى لاتعكس الموضوع الذى يرغب الشاعر فى طرقه فحسب ، ولكنها تعطيه الحياة والشكل لأن فى مقدور الصورة أن تجعل المعنوى محسوسا (٤) .

وفى ضوء ماسبق يمكن ملاحظة الصورة من خلال عناصر عدة تقر بها إلينا التشبيهات ، والاستعارات ، والمجازات ، والكنايات التى ينتظمها علم البيان فى

---

(١) بناء الصورة الفنية فى البيان العربى موازنة وتطبيق / الدكتور كامل حسن البصير ـ مطبعة المجمع العلمى العراقى ١٩٨٧م ، ص : ٢٦٧ .

(٢) الصورة فى الشعر العربى حتى آخر القرن الثانى الهجرى : ٣٠ .

(٣) الصورة الأدبية / مصطفى ناصف : ٣ .

(٤) الصورة الشعرية / سى دى لويس ترجمة الدكتور أحمد نصيف : ٩١ .

البلاغة العربية ، حيث تأخذ الصورة من هذه الكيفيات مادتها ، وتستمد تأثيرها إذ يصبح الشعر بدونها كما جامدا ، لأن الصورة المجازية جزء ضرورى من الطاقة التى تمد الشعر بالحياة وتمنحه صفة التأثير فى النفس . وسنحاول رصد هذه الصورة الفنية أو بعضها داخل النصوص الشعرية التى عرضنا لها فيما تقدم ، فالشعر العربى ليس كلاما ينظمه الوزن وتعقده القافية ، وإنما هو تعبير له قوة دلالية تثير فينا الرغبة فى الاستماع والاستمتاع فى آن واحد متى استطاع الشاعر نقل فكرته إلينا بلغة خاصة ترتبط بالمعانى اللغوية للألفاظ ، وبجرسها الموسيقى ومعانيها المجازية وحسن تأليفها معا[(١)] .

وستدور دراستنا للصورة على محورين من الصور تنتظمان الشعر العربى بوجه عام ، وشعر الشكوى منه بوجه خاص وهما :

* الصورة التقريرية[(٢)] ، أو مايسمى التصوير المباشر باللفظ المعبر ، وهى التى تقرر هيئاتها لدى المتلقى بواسطة مدلول الكلمات التى نهضت برسم هذا النوع من الصور من غير اللجوء إلى أساليب البيان التى تقربها إلى الآخرين وتجريها فى أذهانهم مثيرة ما استقر فى هذه الأذهان من ذكريات خاصة وتجارب شخصية[(٣)] .

* مايعرف بالصور الفنية ، ويمتاز هذا الضرب بالمهارة فى البناء والدقة فى الصياغة عن وعى متيقظ وإرادة هادفة[(٤)] ، وذلك أن الصورة المجازية

---

(١) أصول النقد الأدبى / أحمد الشايب : ٢٤٤ .
(٢) فن الرجز فى العصر العباسى : ٢٤٤ .
(٣) بناء الصورة فى البيان العربى : ٢٦٨ - ٢٦٩ .
(٤) نفس المرجع : ٢٧١ .

جزء ضرورى من الطاقة التى تمد الشعربالحياة ، فيشع منه ذلك التوهج الفنى الناتج عن حسن استغلال الشاعر للغة وتمكنه من الإفادة من صور المجاز .

وفى ضوء هذا التقسيم ستكون دراستنا للصور فى شعر الشكوى من خلال محاورها الذاتية والاجتماعية والسياسية ، وما يمكن أن يتفرع عن هذه المحاور ، الأمر الذى قد تتفاوت معه الصور الفنية حسب أهمية تلك المحاور وعمق تأثير بواعثها فى نفس القائل .

إن الصور التقريرية قد شكلت جزءا كبيرا من البناء الفنى لشعر الشكوى حيث يعمد الشاعر فى شكواه إلى تقرير حقيقة أو عدة حقائق ، فيلجأ حينئذ إلى التعبير المجرد دون توجيه الاهتمام إلى الصورة الفنية والخيال المبدع (١) . ولعل هذا مما تقتضيه طبيعة الموضوع ، فالشكوى تبدو فى وجه من وجوهها كالمقالة أو كالرسالة التى يوجهها صاحب الشكوى إلى من هو معنى بالأمر مهما كانت منزلته الذاتية والاجتماعية والسياسية ، فيحرص الشاعر عندئذ على ذكر الوقائع ، وتحديد المشكلة مما يجعل مجال الخيال والتصوير فى هذا الغرض الشعرى قليلا إذا ماقيس بغيره من أغراض الشعر العربى الأخرى ، فهو شعر مباشر ليس للتهذيب والتنقيح دور كبير فيه ، وإنما يكتسب تأثيره من قوة المعاناة ، ومن هنا اتضح لنا من دراسة شعر الشكوى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى كثرة الصور التقريرية المباشرة ، وإن كان وجود هذه الصور لايعد أثرا أو تقليدا للتقريرية فى الشعر القديم ، فإن التخييل والتصوير يكاد يشكل السمة الظاهرة فى شعر المحدثين منذ

---

(١) الصورة الأدبية / مصطفى ناصف : ١٩٠ .

مسلم بن الوليد إلى أبى تمام ، إذ لم نجد هذه التقريرية بهذا الكم إلا فى غرض الشكوى للأسباب التى ذكرناها .

وقد ثبت لنا أن الشعر فى كل حقبة يتأثر بالبيئة الثقافية التى تحيط به ، ورأينا ظهور التجديد فى الشعر العربى بعد القرن الأول متمثلا فيما استحدثه الشعراء فى العصر العباسى من تجديد فى اللغة الشعرية ، وفى المعانى والأخيلة والصور والموسيقى ، وما أنشأوه من موضوعات جديدة ، واصطناعهم المحسنات البديعية كثيرا[1] .

ورغم هذا فقد بقى غرض الشكوى إلى حد بعيد يتسم بالسهولة ، والوضوح ، وعدم الاغراق فى هذه المحسنات ، عندما أخذ الشعراء ينفثون مافى أنفسهم من هموم ومكابدة ، فكان ذلك يتطلب تقرير حقيقة باعث الشكوى ، وحينئذ تنشأ الصورة التقريرية فى كثير من الحالات ، وبخاصة فى الشكوى السياسية وجوانب أخرى من الشكوى الاجتماعية ، كالشكوى من ظلم الولاة فى القرن الأول الهجرى ، والشكوى من أثر الموالى فى الحياة الاجتماعية ، ومن الفقر وسوء الحال فى القرنين الثانى والثالث ، ولسنا والحالة هذه ننفى وجود الصور الفنية بكثرة فى شعر الشكوى بل ان هذه الصور تبدو فى مناح عدة من محاور الشكوى ، وربما فاقت قرينتها التقريرية فى بابها ، ولعل البحث يكشف لنا ذلك .

---

(١) الشعراء المحدثون فى العصر العباسى / الدكتور العربى حسن درويش ، الهيئة المصرية العامة للكتاب : ١٢ .

إن الصور التقريرية تظهر واضحة فى مثل قول الراعى النميرى يشكو للخليفة عبد الملك ظلم العمال (١) :

أَزرى بِأَمْوالِنَا قَومٌ أَمَرتَهُمُ بالعَدْلِ فِينَا فَمَا أَبقَوا وَمَا قَصَدُوا
نُعْطِي الزَّكَاةَ فَمَا يَرضَى خَطِيبُهُمُ حَتَّى تُضَاعِفَ أضْعَافًا لَهَا عُدَدُ
أَمَّا الفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ حَلُوبَتُهُ وَفْقَ العِيَالِ فَلَمْ يُتْرَكْ لَهُ سَبَدُ
وَاخْتَلَّ ذُو المَالِ وَالمُثْرُونَ قَدْ بَقِيَتْ عَلَى التَّلَاتِلِ مِن أَمْوالِهِم عُقَدُ

فهو يرسم للخليفة صورة لسيرة هؤلاء السعاة ، وما يقومون به فى عملهم من تعنيف لأهل البادية ، وتكليفهم فوق طاقتهم ، ومحاباة الأغنياء على حساب الفقراء ومتوسطى الحال ، كل هذا فى أسلوب تقريرى يعمد فيه الشاعر الى إظهار المعنى المراد فى صورة جافة ليس فيها إلا غرابة بعض الألفاظ ، لكنها تعطى المعنى الذى يريده الشاعر كأقوى مايكون التعبير دون أن يغرق فى الخيال .

وفى الشكوى من الفقر وسوء الحال عند شعراء القرنين الثانى والثالث نجد أبا فرعون الساسى يرسم صورة لأولاده وزوجته وهم يرزحون تحت وطأة الفقر والحاجة فيقول (٢) :

إِلَيكَ أَشْكُو صِبْيَةً وَأُمَّهُم لَا يَشْبَعُونَ وَأَبُوهُم مِثلُهُمْ
قَد أَكَلُوا اللَّحْمَ وَلَم يُشبِعْهُمُ وَشَرِبُوا المَاءَ فَطَالَ شُربُهُمْ

---

(١) ديوانه : ٦٤ .

(٢) طبقات ابن المعتز : ٣٧٧ - ٣٧٨ .

وَامتَذَقُوا المَذْقَ فَمَا أغنَاهُمُ ... وَالمَضْغُ إنْ نَالوهُ فَهوَ عُرْسُهُمْ
لايَعرفُونَ الخُبْزَ إلاّ بِاسْمِهِ ... وَالتَّمْرُ هَيهَاتَ فَلَيسَ عِندهُمْ
وَمَا رَأوا فَاكِهَةً فِي سُوقِهَا ... وَمَا رَأوهَا وَهي تَنْحُو نَحوهُمْ

وهذا شعرضعيف يكاد يكون نثرا تنعدم فيه لغة الشعر بأى معنى أخذناه ، وتلك أدنى درجات التقريرية .

ولا نريد أن نكثر من الشواهد على هذا النوع من الصور - رغم كثرتها فى شعر الشكوى - إذ هى صور صماء قوامها هذه الألفاظ اللغوية المتسقة فى بناء شعرى يصل أحيانا إلى أدنى درجات الضعف ، فيقترب كثيرا من النثر أو النظم التعليمى الذى يخلو تماما من مقاييس الجمال الفنى بأى شكل أخذناه . حيث يعمد الشاعر هنا وخاصة فى شعر الشكوى الذى يحمل هذا الطابع أو يقترب منه إلى تقرير حقيقة مايشكو منه دون عناء ومن غير أن يغوص فى أعماق اللغة أو يغرق كثيرا فى صور المجاز ، فالصور التقريرية أحيانا ذات سمة واحدة سواء أكانت فى شعر الشكوى أم غيره ، إذ الغرض نقل معاناة الشاعر ومايشعر به إلى الآخرين دون محاولة التأنق ، والتخييل ، وإن كانت هذه الصور تتسم بالواقعية لكنها جافة أكبر هم أصحابها أن يوصلوا المعنى إلى المتلقى دون أن يعتمد على أية إضافة خيالية (١) ، فجاءت مباشرة ، وصريحة فى مشاهدها ، وألفاظها ، وصياغة تراكيبها .

---

(١) الصورة فى شعر بشار بن برد : ٥٩ .

أما الصور الفنية ، فإنها تشكل فى شعر الشكوى جزءا مهما ، وقد اعتمدها الشعراء فى بسط المعنى واعطاء المتلقى مزيدا من الحرية فى التمعن والتدقيق فى مناحى الصور الشعرية وخباياها الفنية لما لها من دلالات عميقة ومثيرة ، وقد سلك الشعراء فى صورهم كل أساليب البيان الممكنة وجسموا المعنوى وجعلوه محسوسا ، وأضفوا على صورهم بعض ملامح الانسان أو صفاته وأفعاله من خلال التشخيص الذى سلكوه فى كثير من الصور الفنية .

ففى الشكوى من الدهر نجدهم قد أعطوه كل صفات الانسان من جانبها المعتم ، فهو فى رأيهم ذو غير ، وهو يبلى كل جديد ، وهو يرمى ماتطيش سهامه ، بينما يفنى الرجال والنساء ، والدهر ذو صولة لابد من التنبه لها والحذر منها ، وقد استأثر بالأحباب والأصحاب والأهل والعشيرة (١) .

أما المنايا ، فهى حتوف كما أنها تغادى الناس وتطرقهم صباح مساء ، فتحزهم حزا ، وحبالها قد رغت للفتى كل مرصد ، من أخطأته اليوم علقته من غد وهكذا .

وقد جعلت الخنساء من المنايا شيئا محسوسا يراه الناس كل صباح فى صورة مخيفة ارتبطت فى ذهنها بالغدر والفجيعة ، فهى تطرقهم طرقا ، وكأنهم من جراء ذلك يقطعون بالفئوس كقولها تشكو (٢) :

---

(١) تكثر مثل هذه الصورة للدهر عند كثير من الشعراء منذ الجاهلية من أضراب الخنساء والأعشى والحارث بن حلزة اليشكرى وزهير بن أبى سلمى وغيرهم .

(٢) ديوان الخنساء : ١٤٨ .

مَا لِلْمَنَايَا تغَادِينَا وَتطرُقُنَا ... كَأَنَّنَا أَبَدًا نُحْتَزّ بِالْفَاسِ

والصورة هنا بصرية استمدت من الاستعارة والتشبيه جزئياتها الدقيقة مما خلع عليها صفة التأثير والقبول .

وبنفس التجسيم للمعنوى وجعله محسوسا فى صورة شعرية معبرة ، نجد ابن براق الهذلى يصور لنا كثرة همومه ، وعدم استقرار حياته بركوبه البحر الذى تتلاطم أمواجه فى تقاذفها الشديد ، وكأنها قطع نعاج تسعى إلى قطيع آخر من النعاج ، وقد استطاع من خلال هذا التجسيم أن يصور تحول الموج بقوة اندفاع المياه وتلاحمها من قوة متلاشية إلى جسد مادى هو قطيع النعاج يقول (١) :

أَلاَ هَلْ لِلْهُمُومِ مِنَ انْفِرَاجِ ... وَهَلْ أَنَا مِنْ رُكُوبِ الْبَحْرِ نَاجِى

أَكُلَّ عَشِيَّةٍ زَوْرَاءُ تَهْوِى ... بِنَا فِى مُظْلِمِ الغَمَرَاتِ دَاجِى

يَشُقُّ المَاءَ كَلْكَلُهَا مُلِحًّا ... عَلَى ثَبَجٍ مِنَ المِلْحِ الأُجَاجِ

كَأَنَّ قَوَاذِفَ التَّيَّارِ مِنْهُ ... نِعَاجٌ يَرْتَعِيْنَ إِلَى نِعَاجِ

وقد استمدت الصورة هنا قوتها من التشبيه الذى صور من خلاله السفينه وهى تمخر عباب الماء ، فشبهها بالزوراءوهى الناقة ، ثم أمعن فى التشبيه ليستكمل جزئيات الصورة ، فشبه دفعات الموج الذى يقذف به التيار فى تتابع مستمر بنعاج ترتعى إلى نعاج أخرى ، ولعله فى هذا التصوير يريد أن يجسد آلامه ،

---

(١) شرح أشعار الهذليين : ٨٧٨/٢ .

وما ينتابه من هموم ومعاناة ، على أن الصورة الشعرية لاتستلزم أن تكون كلماتها دائما مجازية أو صورا بيانية حيث نجد من هذا القبيل فى شعر الشكوى قول المتلمس الضبعى يشكو من الفراق ويحن إلى عشيرته (١) :

تَفَرَّقَ أَهْلِى مِنْ مُقِيمٍ وَظَاعِنٍ ... فَلِلَّهِ دَرِّى أَىَّ أَهْلِىَ أَتْبَعُ
أَقَامَ الَّذِينَ لَا أُبَالِى فِرَاقَهُمْ ... وَشَطَّ الَّذِينَ بَيْنَهُمْ أَتَوَقَّعُ
عَلَى كُلِّهِمْ آسَى وَلِلْأَصْلِ زُلْفَةٌ ... فَزَحْزِحْ عَنِ الْأَدْنَيْنِ أَنْ يَتَصَدَّعُوا
أَلِكْنِى إِلَى قَوْمِى ضُبَيْعَةَ أَنَّهُمْ ... أُنَاسٌ فَلُومُوا بَعْدَ ذَلِكَ أَوْ دَعُوا

فالصورة هنا تقدم مشهدا لإنسان حائر قلق يقف بين المقيمين والظاعنين، تنتابه حالة من التردد ، فهو ينقل الينا هذه المشاعر فى صورة مؤثرة تعتمد على المقابلات الطريفة بين مقيم وظاعن ، أقام وشط ، فلوموا أو دعوا .

وبهذا النسق الشعرى الجميل أبان عن حالته النفسية المتعبة ، فجعلنا من خلال هذه الصورة التى لم يعتمد فيها تشبيها أو استعارة نتصور وضع قبيلته ضبيعة التى عبر عنها بالأهل ، وقد تفرقوا وبقى معه من لايهمه فراقهم ، بينما أخذ يبكى على الجميع ، وينعى على نفسه وقوفه متذبذبا فى مفترق الطرق مسلوب الارادة .

وفى هذا التصوير مايوحى بالحركة وعدم الاستقرار ، وهو أمر قد نألفه كثيرا عند عرب الجاهلية الذين اتسمت حياتهم بالرحلة والظعن فى أغلب الحالات .

---

(١) ديوان المتلمس الضبعى : ١٥٤ - ١٦٠ .

وفى شعر الشكوى من السجن فى القرن الأول الهجرى نجد مثل هذه الصورة التى تعطى المراد فى صورة شعرية موفقة ، وإن لم يكن للاستعارة أو التشبيه كبير أثر فى ذلك ، وهذا ما يمثله قول السمهرى بن بشر العكلى (١) :

لَقَدْ جَمَعَ الحَدَّادُ بَيْنَ عِصَابَةٍ ... تَسَاءَلُ تَحْتَ اللَّيْلِ مَاذَا ذُنُوبُهَا

مُقَرَّنَةُ الأَقْدَامِ فِى السِّجْنِ تَشْتَكِى ... ظَنَابِيبَ قَدْ أَمْسَتْ مَتِيناً عُلُوبُهَا

إِذَا حَرَسِىٌّ قَعْقَعَ البَابَ أُرْعِشَتْ ... فَرَائِصُ أَقْوَامٍ وَطَارَتْ قُلُوبُهَا

فهو يصور حالة من الذعر والهلع الذى يلف المسجونين ، وهم يتساءلون فى خوف ووجل عن الذنب الذى أوصلهم إلى هذا المكان الموحش ، وتستكمل الصورة جمالها الفنى حينما جسد هذه المعاناة من تلك القيود الثقيلة التى تركتهم نهبا للشكوى والأنين ، ويمعن فى تصوير حالهم عندما يسمعون حارسا على الباب ، فتكاد قلوبهم تطير فرقا من هذا القادم بعد أن ترتعد فرائصهم من الخوف الشديد .

والصورة هنا تعكس بوضوحها معانى النقمة ، فالألم الممض والخوف الشديد والحقد الشامت والهوان المخزى ، كلها معان ذات دلالات مؤثرة ترسم لنا أبعاد المأساة التى يعيشها الشاعر فى سجنه ، ومما زاد الصورة تأثيرا جرس اللفظ (قعقع) فى قوله :

إِذَا حَرَسِىّ قَعْقَعَ البَابَ أُرْعِشَتْ ... فَرَائِصُ أَقْوَامٍ وَطَارَتْ قُلُوبُهَا

---

(١) الأشباه والنظائر / للخالدين : ١٣٢/٢ - ١٣٣ .

كما أننا نحس عمق الصورة فى عبارة (وطارت قلوبها) •

وفى الشكوى من الشيخوخة نجد تداخلا عجيبا فى الصور الشعرية يدل على خيال واسع ويرتبط بالحالة النفسية والجسمية للشاعر الذى أنهكته الشيخوخة ، فحطمته السنين ، وأبلت منه كل جديد ، وكثيرة هى الصور التى تصاحب الشخص فى شيخوخته ، ولعل منها انحناء الظهر ، وقصر الخطو ، كما يصور ذلك أبو الطمحان القينى (١) بقوله :

حَنَتْنِى حَانِيَاتُ الدَّهْرِ حَتَّى ... كَأَنِّى خَاتِلٌ يَدْنُو لِصَيْدِ
قَصِيرَ الخَطْوِ يحْسَبُ مَنْ رَآنِى ... وَلَسْتُ مُقَيَّدًا أَمْشِى بِقَيْدِ

فالشاعر بعد أن عاش حقبة طويلة تقلب خلالها بين الضعف والقوة ، ثم عاد الى مرحلة الضعف مرة أخرى ، يرسم لنا صورة دقيقة له فى هذه المرحلة ، فالصياد حينما يرى الصيد يقترب منه رويدا رويدا بعد أن يحنى ظهره حتى لايراه هذا الصيد ، فكأنه مقيد الخطو زيادة فى الحرص على أن لا يراه أويسمعه أثناء اقترابه ، وكذلك هذا الشاعر الذى حنته السنون ، فأبلت قوته ، فهو منحنى الظهر ، لكن ليس بارادته كالصياد ، وإنما نتيجة لشيخوخته حتى

---

(١) اسمه حنظلة بن الشرقى من بنى كنانة بن القين بن جسر بن شيع الله بن وبرة بن تغلب ، من الشعراء اللصوص عاش فى الجاهلية والاسلام وعمر طويلا، وأكثر مؤرخى الأدب يتفقون على أنه كان خبيث الدين جيد الشعر •
الاغانى : ٣/١٣ - ١٤ (دار الكتب) ، المعمرون والوصايا : ٥٧ ، أمالى المرتضى : ٢٥٧/١ ، الشعر والشعراء : ٣٨٨/١ ، ٣٨٩ •

ليخيل إلى من يراه أنه يمشى بقيد لايسمح له بمد الخطو .

ونجد فى بعض الأحيان صورا متتالية تستمد قوتها من الاساليب البيانية كالتشبيه والاستعارة والكناية كما هو الحال فى قول عوف بن سبيع فى شكواه من الشيخوخة (١) :

وَمَازَالَتِ الأَيَّامُ تَرْمِى صِفَاتَهُ ... وَتَغْتَالُهُ حَتَّى تَضَعْضَعَ وَانْحَنَى
وَصَارَ كَفَرْخِ الطَّيْرِ يَهْتَزُّ جِيدُهُ ... يَرَى دُونَ شَخْصِ المَرْءِ شَخْصًا إِذَا رَأَى
وَبُدِّلَ مِنْ طَرْفٍ جَوَادٍ حَشِيَّةً ... وَمِنْ قَوسِهِ وَالرُّمحِ وَالصَّارِمِ العَصَا

فالصورة المجازية فى البيت الأول تمنحه قوة فنية بليغة ، حيث ذكر الأيام ، فمنحها بعض صفات الانسان العدو الذى صوب إليه سهامه ، فاغتال فيه كل صفات القوة حتى تركه متضعضعا فى حركته منحنيا فى جسمه ، ولعل التعبير بلفظى (تضعضع وانحنى) يؤكد هذه الصورة لدلالتهما على الضعف المتناهى .

أما البيت الثانى ، فإننا نجد الصورة تأخذ بعدها الفنى من التشبيه فى صدر البيت والكناية فى عجزه ، وتزداد هذه الصورة عمقا فى البيت الثالث حيث يصور حاله من منطلق معاناة شخصية ليست قضيته وحده ، وإنما هى قضية كل إنسان يصل إلى ماوصل إليه ، عندما كان حديد الطرف شجاعا يحمل السيف والرمح بقوة نادرة ، فأصبح على الفراش عاجزا قد استبدل بأدوات القوة العصا ، يتوكأ عليها وهى تدل على الضعف .

---

(١) المعمرون والوصايا : ١٧ .

ولقد أجاد هؤلاء الشعراء الفرسان فى بناء صورهم الفنية ، وهم يشكون من عجزهم نتيجة شيخوختهم ، بل إننا نجد الصور تتزاحم لديهم ، فيبدعونها فى زفرات من لهيب الأسى ، يصورون من خلال ذلك ما وصلوا إليه من ضعف ووهن .

ولنأخذ مثلا دريد بن الصمة ، سيد بنى جشم وفارسهم ، وقائدهم ، كان مظفرا ميمون النقيبة ، غزا نحو مائة غزوة لم يخفق فى واحدة منها[1] ، وعندما أدركته الشيخوخة أهمله قومه ونبذوه لا يشركونه فى رأى أو مشورة ، فأخذ يصور حاله بهذه الأبيات الشاكية التى تتزاحم فيها الصور الشعرية المعبرة يقول[2] :

أَصْبَحْتُ أَقْذِفُ أَهْدَافَ المَنُونِ كَمَا ... يَرْمِى الدَّرِيئَةَ أَدْنَى فَوْقَهُ الوَتَرِ
فِى مَنْصِفٍ مِنْ مَدَى تِسْعِينَ مِنْ مِئَةٍ ... كَرَمْيَةِ الْكَاعِبِ الْعَذْرَاءِ بِالْحَجَرِ
فِى مَنْزِلٍ نَازِحٍ م الْحَىِّ مُنْتَبَذٍ ... كَمَرْبَطِ الْعَيرِ لاَ أُدْعَى إِلَى خَبَرِ
كَأَنَّنِى خَرَبٌ جُزَّتْ قَوَادِمُهُ ... أَوْ جُثَّةٌ مِنْ بُغَاثٍ فِى يَدَى هَصِرِ

فالصورة فى البيت الأول تجسد مايعانيه من جراء ضعفه الذى أصبح معه لا يبرح مكانه ، فهو كالدريئة التى تنصب وتصوب إليها النبال ، وفى هذا تصوير بليغ لشخص هرم يأتيه الموت من كل جانب كما تأتى النبال الدريئة من كل

---

(١) مختار الأغانى فى الأخبار والتهانى / لابن منظور محمد بن مكرم تحقيق عبد العليم الطحاوى – الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م : ٣ / ٤٧٨ .

(٢) ديوانه : ٦٦ .

جانب ، وفى هذا استعارة للأمراض التى تنهال عليه نتيجة ضعفه وكبره وهذه الأمراض بلاشك هى أدوات المنون ، ويضيف صورة أخرى له وهو محصور منبوذ كما تنبذ العير يتجافاه الأهل ويتجنبه الناس ، ثم ينتقل إلى صورة أخرى تزيد ضعفه ضعفا ، فهو كالخرب الذى قصت قوادمه لا يستطيع حراكا فلا يطير ، ثم ينتهى إلى جثة هامدة يعبث بها هذا الأسد الهصور .

والصورة فى هذه الأبيات كما نرى متدرجة فى مبناها ، فهو منصوب كالهدف وهو ضعيف قد أصابته تلك النبال ، ثم بعد ذلك أخذ إلى مكان قص لا يربط فيه إلا العير ، ثم هو جثة هامدة ملقاة للسباع .

ولقد وجدنا الشعراء الجاهليين فى شيخوختهم يصورون ذواتهم تصويرا مؤثرا بعد أن بلغ بهم الضعف مبلغه ، فيعمدون إلى مماثلتهم بأشياء توجد فى بيئتهم قد تكون قليلة القيمة والفائدة ، وتظهر هذه الصورة واضحة فى قول زهير بن جناب بن هبل (١) :

فَلَلْمَـوْتُ خَيْـرٌ مِنْ حِـدَاجٍ (٢) مُوَطَّـأٍ   مَعَ الظَّعْنِ لاَ يَأْتِي المَحَلَّ لِحِينِ

حيث شبه جسمه وقد أنهكته الشيخوخة فأقعدته فى البيت (بالحدج) يكون موضوعا مهملا لا يلتفت إليه إلا ساعة الظعن لأنه من سقط المتاع ، وفى هذا

---

(١) أمالى المرتضى : ٢٤٠/١ .

(٢) الحِدْجُ : بكسر الحاء مركب من مراكب النساء نحو الهودج والمحفة . اللسان (حدج) .

دليل على مايشعر به هؤلاء المعمرون من الضعف الجسمى والمعنوى ، وهم يتجرعون ويلات الشيخوخة وأسقامها .

إن الصورة التشبيهية تستأثر بجانب كبير من شعر الشكوى من الشيخوخة عند الشعراء المعمرين الذين طال بهم العمر حتى خرفوا ، فسئموا الحياة وأصبحوا كلا على ذويهم وتلاشت مكانتهم الاجتماعية .

وقد لاحظنا من خلال دراسة الصورة أن بعض الشعراء يعمدون فى صورهم إلى تجسيد الشباب والمشيب ، فيخلعون عليهما صورا محسوسة يعمدون فيها إلى تشبيه الشباب بالبرود الموشاة الجميلة والأفراس الجوامح التى تصعب على رواضها ، كما يشبهون الشيب بالملاءة البالية التى تطوى وتثنى كما فى قول أبى الشيص (١) :

عُوِّضْتُ عَنْ بَرْدِ الشَّبَابِ مُلَاءَةً … خَلَقًا وَبِئْسَ مَعُوضَةِ الْمُعْتَاضِ
أَيَّام أَفْرَاسُ الشَّبَابِ جَوَامِحٌ … تَأْبَى أَعِنَّتَهَا عَلَى الرُّوَّاضِ

فقد شبه الشباب بالبرد الموشى الجميل الذى يغطى الجسم ، فيكسبه نضرة وبهاء ، فكذلك الشباب لكنه تولى وقدمت الشيخوخة ، فكانت كالملاءة البالية التى لاتغطى إلا جزءا من الجسم ، فهو يقابل هنا بين برد الشباب وملاءة الشيخوخة فى صورة تنبىء عن مافى الشباب من لذة واختيال ، وما يصاحب الشيخوخة من سأم وتعب ، والشباب كالأفراس الجوامح التى يصعب ترويضها ، فكذلك الشباب

---

(١) ديوان أبى الشيص : ٧٧ .

دائما يكون منطلقا وراء متع الحياة وفيه من القوة والعنف ما لهذه الأفراس القوية التى تأبى أعنتها أن تنثنى وتروض .

وتارة يصورون الشباب المدبر الذى تولى بضيف ليس له اقامة سرعان ما يرحل حين ينزل ، كما فى قول الأخطل ينعى شبابه الغارب (١) :

قَدْ لَبِسْتُ لِهَذَا الدَّهْرِ أَعْصُرَهُ ... حَتَّى تَجَلَّلَ رَأْسِي الشَّيْبُ وَاشْتَعَلَا

فَبَانَ مِنِّي شَبَابِي بَعْدَ لَذَّتِهِ ... كَأَنَّمَا كَانَ ضَيفًا نَازِلًا رَحَلَا

ولم يبتعد عدى بن الرقاع العاملى عن الأخطل فى هذه الصورة ، وهو يشكو رحيل شبابه فيقول (٢) :

وَسَارَ غَرْبُ شَبَابِي بَعْدَ جِدَّتِهِ ... كَأَنَّمَا كَانَ ضَيفًا خَفَّ فَارْتَحَلَا

والصورة عند عدى أقوى لقوة معانيها وعمقها ، إذ أن قوله (بعد جدته) أبلغ من قول الأخطل (بعد لذته) فعبارة عدى تفيد رحيل الشباب عنه وهو فى ريعان الصبا ، كما أن فى قوله (خف) مايوحى بقلة مكث الشباب ، أما عبارة الأخطل فانها لم تفد شيئا من هذا ، لكن الاستعارة عنده فى قوله :(حتى تجلل رأسى الشيب واشتعلا) أقوى أثرا وأعمق معنى .

---

(١) شعر الأخطل / تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة ، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت - ط (٢) ١٩٧٩م : ١٥٥/١ .

(٢) ديوان شعر عدى بن الرقاع العاملى /تحقيق الدكتور نورى حمودى القيسى والدكتور حاتم صالح الضامن - مطبوعات المجمع العلمى العراقى ١٤٠٧ هـ ص : ٧٣ .

ونجد أبا العيناء (ت ٢٨٣ هـ) يصور يده وقد خلت تماما من الشباب الذى رحل ولم يخلف وراءه الا الأسى والصبابة مجسدا هذا الشباب فى صورة محسوسة تلمس باليد ، ثم شبهه بضيف جاء ولم يقم أو يقف ، فهو كزائر مل الزيارة فانصرف إلى غير رجعة (١) :

مَافِى يَدِى مِنَ الصِبَا ... إلاَّ الصَّبَابَةَ وَالأَسَفْ
جَاءَ الشَّبَابُ فَمَا أَقَا ... مَ وَلاَ أَلَمَّ وَلا وَقَفْ
كَانَ الشَّبَابُ كَزَائِرٍ ... مَلَّ الزِّيَارَةَ فَانْصَرَفْ

وتظهر الصورة عند العرجى (ت ١٢٠ هـ) غاية فى الدقة والاجادة حيث يقول فى معرض شكواه من رحيل شبابه (٢) :

وَكَانَ الشَّبَابُ الغَضُّ كَالغَيمِ خِيلَتْ ... سَمَاءٌ بِهِ إِذْ هَبَّتِ الرِّيحُ فَانْجَلَى

وإذا أمعنا النظر فى هذه الصورة وجدنا أن الشباب عند الشاعر يمثل الأمل فى الحياة ، كما يمثل اللذة والامتاع ، ومن هنا شبهه بالغيم الواعد يحمل الماء ، فإذا نزل الغيث إخضرت الأرض وسعد من عليها من الأحياء ، وكذلك الشباب بالنسبة للانسان إذ هو مرحلة عبقة الشذى بل هو الحياة بنعيمها ، أما الشيب فهو كريح لعلع هبت على الغيم الذى يبشر بالسقيا

---

(١) أمالى القالى : ١٠٥/٢ .

(٢) ديوان العرجى / تحقيق خضر الطائى ورشيد العبيدى - بغداد ١٩٥٦ م ص : ٧٤ .

(الشباب) فذهبت بقيمته المرجوة عندئذ ذهب معها الأمل الكبير ودنا شبح الأجل وقرب المنية .

وهذه الصورة تجسد تلك الآمال العراض التى كانت تخامره أيام استظلاله بظلال الشباب الوارفة ، لكنها سرعان ماتبددت ، وعندئذ خابت آماله حين انقشع هذا الشباب وولى كما ينقشع الغيم ويتبدد من جراء الريح الشديدة .

إن الصور الفنية تظهر بوضوح وعمق فى الشكوى من الشيخوخة أكثر من ظهورها فى أى نمط آخر من أنماط الشكوى بمحاورها الثلاثة الذاتية والاجتماعية والسياسية . ولقد وجدنا فى الشكوى من عقوق الأبناء تصويرا ينم عن حسرة هؤلاء الآباء من جراء عقوق أبنائهم لهم حيث تزداد المعاناة عندما يكون هؤلاء الآباء والأمهات شيوخا ، يتجرعون مرارة الشيخوخة والعقوق ، فتخيب آمالهم فى أبنائهم الذين تجاهلوا حقوق والديهم ، وما أروع هذه الصورة التى تقدمها لنا أم موتورة هزها عقوق ابنها ، وهى التى رعته ، وتعهدته منذ أن كان جنينا فى بطنها كما يتعهد مؤبر النخل نخله بالتشذيب والعناية ، تقول هذه الأم وهى من بنى هزان [1] :

رَبَّيْتُهُ وَهْوَ مِثْلُ الفَرْخِ أَعْظَمُهُ ... أُمُّ الطَّعَامِ تَرَى فِى جِلْدِهِ زَغَبَا
حَتَّى إِذَا آضَ كَالفُحَّالِ شَذَّبَهُ ... أَبَّارُهُ وَنَفَى عَنْ مَتْنِهِ الكَرَبَا
أَنْشَا يُمَزِّقُ أَثْوَابِى يُؤَدِّبُنِى ... أَبَعْدَ شَيْبِى عِنْدِى تَبْتَغِى الأَدَبَا

---

(١) الكامل فى اللغة والأدب : ٣١٢/١ ، ولم أجد لها تعريفا فيما وقع تحت يدى من مصادر .

ولنا أن نتأمل جزئيات هذه الصورة ، طفل رضيع كالفرخ الضعيف تعطيه أمه الطعام وتحنو عليه حتى استوى عوده كما يشتد عود النخل بعد التأبير ، وعندئذ أخذ يقسو على هذه الأم ويتنكر لها ، فقد حشدت فى هذه الأبيات مايمكن من الأساليب الفنية دون تكلف ، حيث التقطت صورها من البيئة المحيطة بها ثم دعمت هذه الصور بالكناية اللطيفة فى البيت الأخير عندما كنت عن عقوقه لها بتمزيق أثوابها .

ولو تتبعنا الصور الفنية عند الشعراء فى شكواهم من الشيخوخة لوجدنا دقة وعمقا يدلان على معاناة انسانية تظل مع الانسان فى كل عصر ، يترجم من خلالها عن خواطر نفسية صادقة حينما يفقد قوته الجسمية ، ويخبو وهج الشباب الذى كان يتمتع به ، ويسرح به فى كل لذة ، فلا يبقى له إلا لسانه ومخزونه اللغوى ، عندما يبدع فى تصوير حاله مجسدا تلك المعاناة التى تمثل مشاعر الانسان فى فترة من فترات حياته قد تكون أصعب مامر عليه ، وأشدها قسوة .

ومن هنا ظهرت الصور الفنية المعبرة فى الشكوى من الشيخوخة أكثر من غيرها من محاور الشكوى الأخرى .

لقد تبين لنا من خلال ماعرضنا له من شعر الشكوى أن الصورة الحسية تستأثر بنصيب كبير فى هذا المجال ، وقد ظهر لنا أن الصورة البصرية تكاد تكون هى السمة المميزة ، فهى تحظى بنصيب كبير فى هذا الغرض ، بل إن الشعر العربى بعمومه يميل بوجه عام إلى رسم الصور البصرية فى شتى أغراضه ، وإذا كان لذلك أسباب عامة، فلعلها فى غرض الشكوى ترجع إلى طبيعة هذا الشعر المرتبط

دائما بالهموم والالام ، وهو ما يخالف به أغراض الشعر العربى الأخرى ، فالهموم مدعاة لاستثارة الدموع ، كما أن فى الشكوى من الشيخوخة إشارة إلى العيون عندما ينتابها الضعف ، فيكل البصر ، ولهذا وجدنا الشعراء فى شكواهم وفى أغراضهم الأخرى يعبرون بالصورة البصرية كثيرا مهما اختلفت المناسبة ، فيعبرون بها عند الفراق ، لاسيما إذا كان أبديا وحينئذ يكون الشاعر دائم البكاء كأن فى عينيه قذى أو كأنها سملت بشوك ، قارن قول أبى ذؤيب (١) :

فَالعَيْنُ بَعْدَهُمُ كَأَنَّ حِدَاقَهَا ... سُمِلَتْ بِشَوْكٍ فَهي عُورٌ تَدْمَعُ

وهذه الصورة تكشف عما أصابه من جراء هذا الفراق لأبنائه ، فهو يبكى بكاء متواصلا ، وهى صورة بليغة مؤثرة ، فإن العين من أرق الأعضاء فى جسم الانسان تتأثر بما يعرض لها من أبسط الأشياء حتى الضوء ، فكيف بها إذا سملت بشوك ، وقد لجأ الشاعر الى هذه الصورة التى تدل على جريان دمعة دون توقف (٢) .

وقريبا من هذا قول الخنساء :

إِنّى أَرِقْتُ فَبِتُّ اللَّيلَ سَاهِرَةً ... كَأَنَّمَا كُحِلَتْ عَيْنِى بِعُوَّارِ
أَرْعَى النُّجُومَ وَمَا كُلِّفْتُ رِعْيَتَهَا ... وَتَارَةً أَتَغَشَّى فَضْلَ أَطْمَارِى

إن مبعث هموم الخنساء هنا لاتبتعد عن مبعث هموم أبى ذؤيب ، فهى مفجوعة فى أخيها الذى بكته بأغلى الدموع ، لكن صورة أبى ذؤيب أبلغ دلالة ،

---

(١) شرح أشعار الهذليين : ٩/١ .
(٢) ديوان الخنساء : ٢١٢ .

إذ أن هناك فرقا واسعا بين أن تسمل العين بشوك وبين أن يكون فيها مجرد قذى .

وفى الشكوى من الفتنة الهوجاء التى حدثت فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وأدت إلى مقتله نجد حبيب بن عوف العبدى يعبر عن حزنه العميق مما جعل عينه تأبى أن تغمض ، فلم تعرف النوم ، وكأن فيها قذى لفرط بكائه (١) :

أَرَى عَيْنِى تَأَوَّبَهَا قَذَاهَا ... فَمَا تَغْفِى فَيَنْفَعَهَا كَرَاهَا

وفى الشكوى السياسية يبدو للصورة البصرية دور ملحوظ فى تجسيد المعنى ، كما فى قول الفرزدق حينما يشكو من بطش الحجاج (٢) :

لَقَدْ خِفْتُ حَتَّى لَوْ أَرَى المَوتَ مُقْبِلاً ... لِيَأْخُذَنِى وَالمَوتُ يُكْرَهُ زَائِرُه
لَكَانَ مِنَ الحَجَّاجِ أَهْوَن رَوْعَةً ... إِذَا هُو أَغْضَى وَهْوَ سَامٍ نَوَاظِرُه

فهو يبالغ فى خوفه الشديد من بطش الحجاج حتى لقد تمثل الموت فى صورة رجل والحجاج رجل وكلاهما يقبلان عليه ، وهو يخشى الصورتين ، ولكن صورة الحجاج أقبح وأشد قسوة من صورة الموت .

---

(١) أنساب الأشراف : ١٠٤/٥ .

(٢) ديوانه : ٢٥١/١ .

والصورة تأخذ قوتها من تمثلنا الحجاج هذا الرجل المخيف وهو مغض هادىء من الغضب ثم صورة ـ الموت وهو سامى النواظر فى حالة غضب وتحفز ليفتك بفريسته ، ومع هذا فهى أهون من صورة الحجاج فى حالة هدوئه فكيف به غاضبا ثائرا .

وفى الشكوى من الشيخوخة يعمد الشعراء الى تصوير ضعف البصر لديهم ، واختلال الرؤية عندهم ، كما فى شكوى ذو الأصبع العدوانى(١) :

أَصْبَحْتُ شَيْخًا أَرَى الشَّخْصَيْنِ أَرْبَعَةً وَالشَّخْصَ شَخْصَيْنِ لَمَّا مَسَّنِي الكِبَرُ

والصورة هنا تنم عن اختلال القوى الجسمية فى الانسان حينما يبلغ من الكبر عتيا ، فقد أعطى صورة فنية لم يعتمد فيها على المجاز لكنه استطاع أن يحمل عباراته من شعوره المتألم ما جعل هذه الصورة فى تلك القوة ، فهو مضطرب البصر تتمثل له المرئيات أضعافا مضاعفة ، ومثل هذه الصورة لايمكن أن تكون تزييفا للواقع أو ابتعادا عنه ، ولكنها تعميق لاحساسه وتألمه لما هو فيه من ويلات الشيخوخة ، وقريب من هذا قول حميد بن ثور الهلالى (٢) :

لَا أُبْصِرُ الشَّخْصَ إِلَّا أَنْ أُقَارِبَهُ مَغْشُوشِيًا بَصَرِى مِن بَعْدِ إِبْصَارِ

وهذه الصورة قريبة من صورة ذى الأصبع العدوانى بل تشترك معها فى ضعف البصر ، لكن الشاعر هنا لاتتعدد لديه المرئيات وإنما تختفى عن بعد فلا يكد يبصر الشخص حتى يقترب منه ويدقق فى ملامحه ، كأنه يتأمله لمزيد خصوصية لكن

---

(١) ديوانه : ٣٣ .

(٢) ديوانه : ٩٥ .

ذلك ناتج عن ضعف بصره ٠

أما أبو الشيص فانه يخلع على بصره صفات متعددة ، فعينه دليله وقائده ، ويده ، ونور وجهه ، وسائس بدنه فكيف به عند فقدها (١) :

يَا نَفْسُ بَكِّى بِأَدْمُعٍ هُتُنِ ... وَوَاكِفٍ كَالْجُمَانِ فِى سَنَنِ
عَلَى دَلِيلِى وَقَائِدِى وَيَدِى ... وَنُورِ وَجْهِى وَسَائِسِ الْبَدَنِ

وفى الشكوى من الحب نجد جميل بثينة قد خانته عينه فلم يستطع التحكم فيها حيث تنهمر بالدموع بمجرد ذكره بثينة يقول (٢) :

إِذَا خَطَرَتْ مِنْ ذِكْرِ بَثْنَةَ خَطْرَةٌ ... عَصَتْنِى شُؤُونُ الْعَيْنِ فَانْهَلَّ مَاؤُهَا

وقد يجد الباحث صعوبة فى رد نوع من الصور إلى حاسة واحدة لأنها قابلة لأن تدرك بأكثر من حاسة لكن النوع الغالب هو النوع البصرى لأن العين أكثر الحواس استقبالا للصور ، ومن هنا طغت الصورة البصرية حتى عند العميان قد نجد لديهم من الصور البصرية مايعجز عنه المبصرون ، مما يدل على قوة الخيال عندهم وتمثلهم للأشياء كما يتمثلها غيرهم من صحيحى البصر ، وإن كان العميان يعتمدون فى صورهم البصرية على الذاكرة وما حفظوا من وصف لهذه الصور ، لكنهم مع هذا يبدعون كثيرا فى تصويرهم - فلله فى خلقه شؤون - ٠

---

(١) ديوانه : ١١١ ٠

(٢) ديوانه : ٢١ ٠

وتأخذ الصورة الذوقية والشمية نصيبها فى شعر الشكوى حيث تتداخل فى المشهد الواحد ، وتبدو أوضح ماتكون عند شعراء الغزل العذرى فى شكواهم من الحب عندما يصفون بعض الأشياء التى تتصل بالحبيبة ، فيعمدون أحيانا إلى الصورة الذوقية والشمية معا ليعظموا من أمر محبيهم ، وهذا التداخل ينتج عن صدق العواطف ، وحرارة الشكوى لدى الشاعر كما هو الحال عند عبد الله بن مسلم الهذلى الذى يقرر أن شفاءه من آلام الحب ومساعدته على طول الليل موكل بريق الحبيبة أو ريح ثوبها يقول (١) :

فَقُولاَ لَهَا قَولاً رَفِيقاً لَعَلَّهَا ... سَتَرْحَمُنِى مِنْ زَفْرَةٍ وَعَوِيلِ
بِرِيقَتِهَا أَوْ رِيحِ ثَوبٍ أَشُمُّهُ ... فَيَعْرِفُ رُوحِى رِيحَ رُوحِ خَلِيلِ

وقد لاحظنا أن الصورة السمعية فى شعرالشكوى تظهر فى أشكال مختلفة ، ولعل من ذلك قول ذى الأصبع العدوانى فى شكواه من الشيخوخة (٢) :

لاَ أَسْمَعُ الصَّوتَ حَتَّى أَسْتَدِيرَ لَهُ ... لَيلاً طَوِيلاً يُنَاغِينِى لَهُ القَمَرُ

حيث يبدو وقد فقد كل سمعه إلا القليل ، فهو يعجز عن سماع الصوت من أى جهة أتى حتى يستدير له ويهىء أذنيه ، وهو يحدد فترة الليل لأن الصوت فى الليل يكون أوضح والهدوء يخيم على الوجود ، فينساب الصوت يتهادى صداه عبر الجبال فى صورة واضحة يسمعه من بعد ، لكن الشاعر هنا حتى فى هذه

---

(١) شرح أشعار الهذليين : ٢/٩٠٩ .

(٢) ديوانه : ٣٤ .

الفترة لايكاد يسمع شيئا إلا أن يتأهب ويتهيأ له .

ومن قبيل التصوير السمعى جزع الشاعر وهو يسمع نداء الأحبة وهم يتهيأون للرحيل ، قال مليح بن الحكم (١) :

وَمَا خِفْتُ ذَاكَ الْبَيْنَ حَتَّى سَمِعْتُهُم ... تَنَادَوا بِتَبْكِيرٍ وَرَدِّ الجَمَائِلِ (٢)
ضُحَيًّا فَطَوَّيْنَ السُّتُورَ وَقَرَّبُوا ... لَهُمْ كُلَّ مَحْبُوكِ القَرَا غَيْرِ نَاحِلِ

ونستوحى الصورة هنا من لفظى (سمعتهم وتنادوا) حيث هيجتا خوف الشاعر الذى كان كامنا فى داخل نفسه من البين ، وقد تأكد خوف الشاعر وأيقن أن ماسمع كان واقعا عندما رآهم يطوون بيوتهم من الخيام ويقربون الجمال لحمل هذه البيوت عليها إلى المكان الجديد الذى يستقرون فيه .

ومثل هذه الصورة نجدها عند الشاعر قيس بن الحدادية من سماعه أصوات رحيل الأحبة فيقول (٣) :

وَمَا رَاعَنِى إِلَّا المُنَادِى أَلَا اظْعَنُوا ... وَإِلَّا الرَّوَاغِى غُدْوَةً وَالْقَعَاقِعُ

فقد دوى صوت النداء للرحيل فى أذنه ثم تأكد له هذا الرحيل عند سماعه رغاء الإبل وكثرة الأصوات والحركة فى الحى ، وهذه صورة سمعية استطاع الشاعر أن يحقق من خلالها تأثيرا واعيا فى نفس المتلقى عندما أوضح بالتصوير

---

(١) هو مليح بن الحكم بن صخر بن أقيصر بن عمير بن زيد .. من شعراء هذيل وهو شاعر اسلامى . معجم الشعراء : ٤٧٧ .

(٢) شرح أشعار الهذليين : ١٠٢٠/٣ - ١٠٢١ .

(٣) الأغانى : ١٥٦/١٤ .

الحسى ما انتابه من الأسى وشدة الألم لهذا الرحيل فبكى وذرفت دموعه .

وقد تمثل الشعراء فى شكواهم الصور السمعية المعبرة عن حالات الحزن التى تخيم عليهم بسبب فقدان من يحبون وذلك من خلال استخدام بعض الصيغ التى تمتلك دلالات سمعية تنبىء عن معاناة داخلية أثارها سماع الشاعر لنوح الحمام ، وتتمثل هذه الصورة المحزنة عند الشاعر الهذلى صخرا لغى ، فقد سكنت آلامه بعد موت ولده لكن هذه الآلام سرعان ما انتقضت كأقوى مايمكن حينما سمع نوح حمامة على ولدها فأخذ يبكى ويشكو يقول (١) :

أَرِقْتُ فَبِتُّ لَمْ أَذُقِ المَنَامَا ... وَلَيْلِى لاَ أُحِسُّ لَهُ انْصِرَامَا

وَذَكَّرَنِى بُكَاىَ عَلَى تَلِيدٍ ... حَمَامَةُ مَرَّ جَاوَبَتِ الْحَمَامَا (٢)

تُرَجِّعُ مَنْطِقًا عَجَبًا وَأَوْفَتْ ... كَنَائِحَةٍ أَتَتْ نَوْحًا قِيَامَا

تُنَادِى سَاقَ حُرٍّ وَظِلْتُ أَدْعُو ... تَلِيدًا لاَ تُبِينُ بِهِ الكَلاَمَا (٣)

فإن هذه الأبيات الشاكية تحمل من العبارات مايوحى بالأسى والحسرة والآلام النفسية الثائرة ، ولعلنا نلمح هذا فى عبارات (أرقت ، ترجع منطقا ، نائحة ، نوح ، تنادى ، أدعو ، الكلاما ...) ففى هذه الألفاظ دلالات سمعية تنبىء بحزن الشاعر ، ورغبته فى عودة من لاعودة له . وهى صورة تفضى إلى صورة أخرى لاتقل عنها أهمية وتأثيرا ، فالحمامة تنوح لأمر قد يخفى

---

(١) شرح أشعار الهذليين : ٢٨٧/١ ، ٢٩٢ .

(٢) مر : هو مر الظهران .

(٣) تنادى ساق حر : أى ولدها .

علينا وعلى الشاعر بطبيعة الحال ، ولكن نوحها لابد له من سبب ونواحها ذاك آثار عند هذا الشاعر كوامن خفية من الهموم وجروحا ماكادت تندمل حتى نزفت مرة أخرى من جراء هذا النواح الذى هيجها ٠

ولم تكن الصورة اللمسية غائبة فى شعر الشكوى لكنها ربما تبدو أقل من غيرها ، ولعل من هذا القبيل قول أبى الشمقمق يشكو من الفقر وسوء الحال ، ويسخر من تعثر حظه فى الحياة (١) ٠

فَلَو أَنَّى وَضَعْتُ يَاقُوتَةً حَمْـ ... ـرَاءَ فِى رَاحَتِى لَعَادَتْ زجَاجَا

فقد وصل به سوء الحظ وملازمة الفقر له إلى حد مبالغ فيه ، لكن الصورة مقبولة فى بابها للتعبير عن وضع مترد ، وهى صورة لمسية تدل حقا على حالة من الفقر والتشاؤم ٠

ومثل هذا قول عمرو بن الهدير ، وهو يشكو من الفقر ورداءة الحظ فنجده يقول (٢) :

فَلَو جَادَ إِنْسَانٌ عَلَىَّ بِدِرْهَمٍ ... لَرُحْتُ إِلَى رَحْلِى وَفِى الْكَفِّ عَقْرَبُ
وَلَو لَمَسَتْ كَفَّاى عِقْدًا مُنَظَّمًا ... مِنَ الدُّرِّ أَضْحَى وَهْوَ وَدْعٌ مُثَقَّبُ

على أن من ألمع الصور اللمسية فى شعر الشكوى قول حميد بن ثور الهلالى وهو يشكو من الشيخوخة (٣) :

---

(١) العقد الفريد : ٢١٦/٦٠

(٢) المرجع نفسه : ٢١٦/٦ ٠

(٣) ديوانه : ٩٤ ٠

لَقَدْ رَكِبْتُ العَصَا حَتَّى قَدَ أوْجَعَنِــــى مِمَّا رَكِبْتُ العَصَا ظَهْرِى وَأظْفَـــارِى

والصورة تعتمد على حسن الاستعارة عندما شبه العصا بدابة تركب ، لكن ركوبه هذه العصا ألزمه أن ينحنى ممسكا بها ، فأجعه ظهره وأظفاره من ملازمته لها ، ولا تكون هذه الملازمة إلا عندما تصل به الشيخوخة إلى مرحلة من الضعف يصعب معها بل يتعذر ترك الاعتماد على هذه العصا ٠

أما عند ساعدة بن جؤية فإن الصورة مختلفة عنها عند حميد بن ثـــور ، فرغم أنه يعتمد على العصا دائما فى قيامه وسيره لكن كفيه ترتعدان لضعفهما ورقتهما كما أن قدمه تطيش فلا تقصد مكانها من الضعف الشديد يقول (١) ٠

فَقَـــامَ تَرْعُـــدُ كَفَّـــاهُ بِمِحْجَنَـــةٍ (٢) قَدْ عَادَ رَهْبًا (٣) رَذِيًّا (٤) طَائِشَ القَدَمِ

وبعد هذا الاستعراض للصورة الشعرية فى غرض الشكوى اتضح لنا أن تلك الصورة كانت تفصح عن تطلعات الشعراء إلى تغيير الحال التى يشكون منها حتى ولو كان مثل هذا التغيير متعذرا ، ولذلك غلب على هذه الصور الوضوح والصراحة لأنها نابعة من نفوس عانت أعمق الآلام، فنطقت بأنبل العواطف الانسانية، وأشدها تأثيرا ، فكانت تلك الصور حافلة بالبراعة والابداع ، وقد تداخلت الصور الفنية فى هذا الغرض - رغم كثرة الصور التقريرية - تداخلا أضفى عليها

---

(١) شرح أشعار الهذليين : ١١٢٤/٣ ٠

(٢) محجنة : الذى يتوكأ عليه ٠

(٣) الرهب : الرقيق الضعيف ٠

(٤) رذيا : أى معى مطروح ٠

مزيد خصوصية فنية ، ومن هنا فانها قد مثلت فى بابها جوهر الشعر الشاكى الذى عرضنا له حيث أحالت المجردات إلى أشياء عينية، أو سمعية، أو ذوقية، أو شمية، أو لمسية، وعن طريق هذه الحواس يخاطب العقل وتصدر الانفعالات ، وقد شكلت هذه الصور الحسية التى عرضنا لها البناء الفنى من أوسع أبوابه للشعر لكونها عنصرا أصيلا فى هذا البناء الشعرى ، بل هى أبرز الوسائل الفنية لنقل التجربة الشعرية ، فاليها يرجع جزء كبير من قيمة الشعر الجمالية .

الفَصْلُ الثّالِث

الموسيقى الشعريّة

تشكل الموسيقى الشعرية عنصرا هاما إلى جانب اللغة والأسلوب والصورة ، حيث يتكون البناء الفنى للشعر العربى من هذه العناصر مجتمعة ، لكن الموسيقى الشعرية تنفرد بأهمية خاصة ، ذلك أن الشعر العربى ضرب من الموسيقى تمتزج نغماته بالدلالة اللغوية (١) ، فتمكنه من إيصال معانيه إلينا حسب مستويات معينة من الأداء الشعرى ، وما يترتب عليه من قوة التأثير (٢) .

ويمكننا بحث الموسيقى فى شعر الشكوى من جوانب عدة لكل منها دور هام فى البناء الفنى للبيت أو القصيدة ، وتؤلف فى نهاية الأمر الموسيقى الخارجية ، والداخلية للشعر العربى ، فتكسبه صفة التأثير ، ومغايرة الكلام المنثور .

إن إيقاع الشعر الخارجى يمكن أن نتلمسه فى الوزن والقافية ، وهو الجانب الظاهر فى الموسيقى الشعرية الذى تضبطه قواعد علم العروض والقافية (٣) ، وهما عنصران أساسيان للبناء الشعرى لايمكن أن يطلق على الكلام مسمى الشعر مالم يكن موزونا مقفى ، إذ بدونهما يصبح نثرا مجردا من خاصية الشعر وطرائقه الفنية فى مفهوم العرب للشعر .

فالوزن من أعظم أركان القصيدة العربية ، بل هو عنصر هام من عناصر البناء الفنى للشعر ، لما للنغم العروض من أثر فى تحديد شاعرية

---

(١) النقد الأدبى الحديث / الدكتور محمد غنيمى هلال : ٤٦٣ .

(٢) قضية الشعر الجديد / الدكتور محمد النويهى ، دار الفكر ط (٢) ص : ٢٠ .

(٣) فى محيط النقد الأدبى / الدكتور ابراهيم أبو الخشب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ص : ١٤٤ .

الكلام [1] ، وإجرائه على الأذن سهلا رقيقا عذبا ، يهز النفس ، ويحرك المشاعر ، ويطرب العقل ، ولعل هذا ماحدا بابن رشيق أن يقول : " الوزن أعظم أركان الشعر وأولاها خصوصية " [2] .

وقديما رأى (أرسطو طاليس) أن الإنسان يتلذذ بطبعه بالوزن الذى هو سبب فى وجود الصناعات الشعرية [3] ، وبذلك فإن الوزن إطار عام للموسيقى التى تتشكل وفقها القصيدة العربية .

ولقد تعددت الأوزان الشعرية واختلفت طولا وقصرا ، وفخامة ولينا ، وقوة وخفة ، ونظم الشعراء أغراضهم المختلفة على بحور متنوعة ، ولم يكن هناك مسوغ للقول بأن هذا الوزن أو ذاك يصلح للرثاء والآخر للمديح أو الهجاء ، ولكن هذا لايمنع من القول : أنه ربما كان هناك صلة بين الوزن والعاطفة لدى الشعراء ، حيث أن لكل قصيدة وزنها ونغمتها الخاصة بها ، تلائم حالة الشاعر النفسية ، وليس من المغالاة إذا قلنا أن حازم القرطاجى من أقدم الباحثين القدماء الذين حاولوا دراسة العلاقة بين الوزن العروض ، والغرض الشعرى ،

---

(١) نظرية الأدب / ترجمة محى الدين صبحى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٧م ص : ١٧٣ - ١٧٤ .
ومفهوم الشعر دراسة فى التراث النقدى / الدكتور جابر عصفور ،دار الاصلاح للطباعة والنشر - الدمام ص : ٣٦٧ ومابعدها .

(٢) العمدة : ٨٨/١ .

(٣) تلخيص كتاب أرسطو طاليس فى الشعر لابن رشد (ت ٥٩٥ هـ) تحقيق محمد سليم سالم - طبعة المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٣٩١هـ ص : ٧٠ - ٧١ ، ونظرية الشعر فى النقد العربى القديم : ٢٣٢ - ٢٤٥ .

فقد رأى أن هذه المسألة كانت قائمة عند اليونانيين ، وأن شعراءهم قد فطنوا إليها يقول (١) :

(ولما كانت أغراض الشعر شتى ، وكان فيها مايقصد به الجد والرصانة ، وما يقصد به الصغار والتحقير وجب أن تحاكى تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان ، وقد كان شعراء اليونان يلتزمون لكل غرض وزنا يليق به ، فالطويل تجد فيه بهاء وقوة ، وتجد للكامل جزالة وحسن اطراد ، وللخفيف جزالة ورشاقة وللمتقارب بساطة وسهولة • وللمديد رقة ولينا ، وللرمل لينا وسهولة) •

ومع أن حازما لم يصل إلى نتائج محددة ، فإن الذى انتهى إليه يمثل بداية رائدة فى هذا المجال ، فقد مهد الطريق أمام الآخرين للبحث فى هذه المسألة • ومع ذلك ، فقد بقيت هذه القضية مجال بحث ودراسة • خاصة وأن الشعراء القدماء أنفسهم لم يتخذوا لأى موضوع شعرى وزنا خاصا به من بين أوزان الشعر العربى ، ولم يكن قولهم الشعر قائما على تخير وزن دون آخر ، فان استعراض القصائد القديمة فى جميع الأغراض لايكاد يشعرنا بمثل هذا التخير، أو الربط بين موضوع الشعر ووزنه (٢) ، فالشاعر فى لحظة انفعاله الشعرى ، ليس لديه مجال لاختيار نغم معين دون غيره ، وإنما يندفع بفطرته إلى أى وزن يقوده إليه طبعه ، مادام يحقق اللذة العقلية وينقل الاحساس إلى السامع

---

(١) منهاج البلغاء : ٢٢٨ •

(٢) موسيقى الشعر / ابراهيم أنيس ، طبعة لجنة البيان العربى ١٩٦٥ م ص : ١٧٧ •

أو القارئ[1] ، وبطبيعة الحال ، فليس الشعراء علماء فى العروض ، فقد يكون أغلبهم جاهلا بقواعد هذا العلم ، لكنه من فحول الشعراء ٠

ولقد تناول كثير من الباحثين المعاصرين مسألة الربط بين الغرض الشعرى والوزن ، غير أنهم لم يصلوا إلى رأى متفق عليه ، أو نتيجة حاسمة فى هذا الموضوع إذ لم تكد اجتهاداتهم تخرج عما جاء به القرطاجنى[2] ٠

وفى تقديرى أن مسألة الربط بين الوزن والغرض الشعرى لايمكن اخضاعها لمعايير محددة ، فليس هناك وزن معين يصلح لغرض دون غيره ، وإنما المعول عليه فى هذه المسألة تجربة الشاعر الفنية التى تقوده تلقائيا إلى هذا الوزن أو ذاك مهما كان الغرض ، فالوزن وليد القصيدة وليست القصيدة وليدة الوزن ، وإن بدا من الملاحظ أن أوزان الطويل ، والبسيط ، والكامل ، والوافر، والخفيف والمديد ، والرجز أهم البحور الطاغية فى الاستعمال فى فخم الشعر ورقيقة مهما كان الغرض الشعرى ٠

ولا نرى لزاما علينا التوسع فى هذه القضية ، فقد قيل فيها الكثير دون الوصول إلى رأى فصل ، إذ المسألة اجتهادية يظل بابها مفتوحا للدراسة والبحث ، وإنما ذكرنا هذه العجالة لنخلص إلى معالجة هذه المسألة فى غرض الشكوى ، باعتبار الوزن يمثل جانبا هاما من جوانب الموسيقى الشعرية ، فلقد

---

(١) أسس النقد الأدبى عند العرب : ٣٢٩ ٠

(٢) اتجاهات الغزل فى القرن الثانى الهجرى : ٣٦٨ ومابعدها ٠

اتضح لنا أن الأوزان الآنفة الذكر كانت أوسع من غيرها استعمالا لدى شعراء الشكوى ، وبخاصة فى العصر الجاهلى ، والقرن الأول الهجرى ، وقد بان لنا من خلال دراستنا لشعر الشكوى أن هذا الغرض قد جاء فى الكثير الغالب متلاحما مع الموضوعات الأخرى التى تمثل تطلعات الشاعر إلى الواقع ، فلم يكن لقصيدة الشكوى بناء واحد مطرد ، فهى اما جزء من قصيدة ، وإما مقطوعة شعرية، شكا فيها الشاعر من الزمن أو الموت أو الحبيبة ، أو العجز أمام قوة الدهر على حسب تعبيراتهم ، وكذلك بعض المقطعات فى الشكوى من الفراق ، والعجزوالمرض والطبيعة ، والفقر وسوء الحال ، والشيخوخة ، والسجن ، والظلم ، والشكوى من أثر الموإلى فى الحياة الاجتماعية فى القرنين الثانى والثالث ، وفى بعض محاور الشكوى السياسية فى مختلف العصور التى عرضنا لها ٠

كما أننا قد وجدنا قصائد خصصت بكاملها لبث الشكوى ، والتذمر ، وقد رأينا ذلك فى الشكوى من ظلم العمال فى القرن الأول الهجرى ، وظهر ذلك بصورة أوضح فى حكم بنى أمية ، كقصيدة عبد الله بن همام السلولى (اللامية)(١) فى شكواه لابن الزبير من ظلم عماله للرعية ، وقصيدة عمرو بن أحمر الباهلى (الرائية) فى الشكوى من جور السعاة فى عهد عبد الملك بن مروان ،(٢) وقصيدة الراعى النميرى (الدالية) فى نفس الأمر وغير ذلك ،(٣) فقد جاءت هذه القصائد على وزن البسيط ، وهو من بحور الشعر التى أولع بها الشعراء منذ

---

(١) أنساب الأشراف : ١٩١/٥ - ١٩٤ ٠

(٢) شعر عمرو بن أحمر : ٩٥ - ١٠٨ ٠

(٣) ديوانه : ٦٤ ٠

الجاهلية ، لاتساع أفقه ، وامتداد رقعته وجمال إيقاعه (١) .

كما جاءت قصيدة الراعى النميرى (اللامية) (٢) فى شكواه لعبد الملك بن مروان من جور السعاة وظلمهم على وزن الكامل ، وهو ذو استمرارية متدفقة يمكن كتابة الرسائل بتفاعيله ، والشكوى فى ذاتها بمثابة الرسالة الموجهة حينئذ (٣) للمسئول للقيام باصلاح مافسد .

أما قصيدة الفرزدق (الرائية) (٤) فى شكواه للوليد بن عبد الملك التى يبين فيها ماحل بأهل العراق من الظلم ، وكذلك قصيدة نصر بن سيار (الميمية) (٥) الموجهة لآخر خلفاء بنى أمية ، والتى يشكو فيها تهاونهم فى حسم بوادر الثورة العباسية فى خراسان ، فقد جاءتا على وزن الوافر ، وهو من بحور الشعر الجميلة ذات الايقاع الغنائى الذى ينساب فى الأسماع ، وتألفه الأذواق (٦) .

وفى الشكوى من الفقر وسوء الحال نجد قصيدة عمرو بن الهدير (البائية) (٧) قد جاءت على وزن الطويل ، وهو من البحور التى كثر النظم عليها منذ العصر

---

(١) العروض تهذيبه واعادة تدوينه : ١٦٤ .

(٢) ديوانه : ٢٢٦ - ٢٣٠ .

(٣) العروض تهذيبه واعادة تدوينه : ٤١٧ .

(٤) ديوانه : ١/٢٨٥ - ٢٨٦ .

(٥) الأغانى : ٥٦/٧ (دار الكتب) .

(٦) العروض تهذيبه واعادة تدوينه : ٤٢٨ .

(٧) العقد الفريد : ٢١٦/٦ .

الجاهلى ، وكانوا يسمونه الركوب لكثرة ماكانوا يركبونه فى أشعارهم (١) .

وفى الشكوى من فراق الأبناء فى القرن الأول الهجرى لم يخرج الشعراء عن أوزان البسيط ، والطويل ، والوافر .

ولابد من الاشارة إلى أنها قد وردت بعض الأوزان المجزوءة ، أو أوزان المجتث والخفيف ، والمتقارب ، والرمل . نتيجة انفعال النفس لداع مفاجئ يهزها ، فيكون للايقاع حينئذ خاصية حزينة تناسب طبيعة الحدث الذى دفع الشاعر إلى هذه المناجاة الشاكية ، كما فى شكوى الخنساء عندما فقدت أخاها ، وبعض رجال قومها ، فألقت باللائمة على الدهر وتبرمت منه كثيرا ، وكذلك شكوى السلكة أم السليك عندما فقدت ابنها (٢) .

وفى القرن الثانى والثالث وجدنا الشعراء يميلون إلى وزن الرجز فى شكواهم كثيرا ، فقد هيأت ظروف المجتمع الجديد شعراء نظموا على هذا الوزن ، وهو مايتمشى مع تعقد الحياة ، وحاجة الناس إلى السرعة والسهولة معا ، وقد اتضح لنا هذا فى شكوى بشار ، والعمانى ، وأبى الشمقمق والساس وغيرهم .

ولما كانت الشكوى فى عمومها تعبيرا عما يلف النفس الانسانية من هموم وأحزان ، وبث ذلك للناس ، كانت البحور الغالبة فى هذا الغرض الطويلة

---

(١) العروض تهذيبه واعادة تدوينه : ١٤٣ .

(٢) ديوان الخنساء : ١٩٤ ، وحماسة أبى تمام : ٤٤٧/١ .

ذات التفاعيل الكثيرة التى تناسب حالات الحزن والانفعال ، لاتساع مقاطعها ، وكلماتها لأنات الشاعر وشكواه [(١)] ، وملاءمة موسيقاها لمحاور الشكوى ، وما فيها من جدية وصدق فى أغلب الحالات .

ومن هنا كانت الأوزان الأكثر دورانا فى غرض الشكوى الطويل ، والبسيط والوافر ، والكامل كما رأينا .

أما القافية ، فانها ضرب من الموسيقى الخارجية ، وهى بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع ترديدها ، ويستمتع بذلك [(٢)] ، والقافية عنصر أساسى لبناء الشعر ، فلو جرد منها سقط درجة عالية ، وفقد أهم مقوماته الفنية وعندئذ يقترب من النثر ، وهى ذات قيمة جمالية تعطى الشعر صفة التأثير فى طرائق الحس البشرى ، وتجعل له ميزة فنية تمنحه قبولا فى النفس ، كما أنها ذات سلطان يفوق ما لنظائرها فى اللغات الأخرى ، وقد تحدث عنها القدماء ، ورأوا أنها من خصائص الشعر العربى وحده [(٣)] ، وأن تكرارها يزيد فى وحدة النغم ، كما أنه يدل على ثراء اللغة العربية ، واتساع مفرداتها ، واستيعابها لمقتضيات العصر ومتطلبات الحياة [(٤)] .

---

(١) النقد الأدبى الحديث : ٤٦٩ .

(٢) نظرية الشعر فى النقد العربى القديم : ٢٤٦ .

(٣) الزينة / لأبى حاتم الرازى ، تحقيق حسين فيض الله ، دار الكتاب العربى القاهرة ١٩٥٧ م ص : ١٢٣.
والموسيقى الكبير / للفارابى ، تحقيق عطاس بن عبد الملك خشبة - دار الكتاب العربى ١٩٦٧م ص : ١٩١ .

(٤) النقد الأدبى الحديث : ٤٦٩ - ٤٧٠ .

والقافية ذات معان متصلة بموضوع القصيدة بحيث يشعر القارئ أو السامع أنها مجلوبة من أجل البيت وليس العكس ، فلا ينبغى أن يؤتى بها لتتمة البيت بل لابد أن يكون معناه مبنيا عليها ، ولا يمكن الاستغناء عنها فيه . إذ هى نهاية طبيعية لأبيات القصيدة لايسد غيرها مسدها (١) .

كما أنها وسيلة لإبراز الإيقاع ، وقفل الوزن وختامه ، فهى تفصيل بين البيت والبيت ، وتحدد انتهاء البيت كوحدة موسيقية مستقلة (٢) .

وقد اتضح لنا من دراستنا لغرض الشكوى أن قوافى الشعراء نائية عن التكلف ، ومتلائمة مع عواطفهم ، الخاصة ، ولعل فى بساطة هذا الشعر وسهولته مايقود الى بساطة القوافى وسهولتها ، فقد بان لنا أن الشعراء فى شكواهم عموما قد طرقوا معظم القوافى ، مقيدة ومطلقة ، ولكنهم كانوا أكثر ميولا إلى القوافى السهلة وبخاصة فى القصائد التى أفردت لغرض الشكوى ، فكانت حروف الباء ، والتاء والحاء ، والدال ، والراء ، والسين ، والعين ، والقاف ، واللام ، والميم ، والنون ، والياء من أكثر الحروف رويا لدى الشعراء فى تلك القصائد ، وفى شعر الشكوى عموما ، بينما قل نظمهم على القوافى الأخرى ، بل يندر أن نجد لهم نظما على الغين ، والظاء ، والشين ، والذال ، والثاء ، والجيم ، والفاء .

وقد لاحظنا ظاهرة التصريع فى غرض الشكوى كثيرا ، مما يعطى الشعر ميزة موسيقية تدل على مقدرة الشعراء الفنية ، لما للروى المزدوج فى الأبيات

---

(١) المرجع نفسه : ٤٧٠ .
(٢) قضايا النقد الأدبى بين النظرية والتطبيق : ٣٤٣ .

المصرعة من مظاهر النغم التى تفوق طاقة الوزن الشعرى ، فلا يكاد الانسان ينتهى من مقطع صغير يقف فيه على حرف فى آخر ضرب البيت حتى ينتهى إلى عروضه بنفس الروى والنغمة ، ويتضح هذا التأثير فى وزن الرجز الذى شاع عند شعراء الشكوى من الفقر وسوء الحال فى القرنين الثانى والثالث . والتصريع فى غرض الشكوى ظاهرة جديرة بالدراسة لاسيما إذا كان الشطر الأول من البيت يتلاءم مع الشطر الثانى من الناحيتين اللغوية والنفسية كما هو واضح من قول امرىء القيس (١) :

مَنْ هُنَا لِى مِنْ صَدِيقٍ فَلْيَعُدْ ... لِيَعُدْنِى إِنَّنِى اليَوْمَ كَمِدْ

وقول عدى بن زيد العبادى فى شكواه من طول الليل (٢) :

طَالَ ذَا اللَّيلُ عَلَينَا وَاعْتَكَرْ ... وَكَأَنِّى نَاذِرُ الصُّبْحِ سَمَرْ

وفى شكوى الأسود بن يعفر النهشلى من الهموم نجده يعمد إلى التصريع فيقول (٣) :

نَامَ الخَلِىُّ وَمَا أُحِسُّ رُقَادِى ... وَالهَمُّ مُحْتَضِرٌ لَدَىَّ وِسَادِى

ويكثر التصريع فى شكوى النابغة الذبيانى كقوله (٤) :

---

(١) ديوانه : ٢١٦ .

(٢) ديوانه : ٥٩ .

(٣) ديوانه : ٢٥ .

(٤) ديوانه : ٦٧ .

كتمتُك ليلاً بالجمومين ساهراً وهمين همّاً مستكنّاً وظاهراً

وقوله (١) :

ذريني لهمٍّ يا أميمة ناصبِ وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكبِ

وقول الأعشى يشكو من الأرق (٢) :

أرقتُ وما هذا السهاد المؤرِّقُ وما بي من سُقْمٍ وما بي معشقُ

والخنساء فى شكواها من الدهر تعمد الى التصريع فتقول (٣) :

تعرّقني الدهرُ نهساً وحزّا وأوجعني الدهرُ قرعاً وغمزا

وهذه القصيدة قد نظمتها على وزن المتقارب ، وهو من البحور القريبة فى أوزانها إلى النثر ، وأحسب أن فى طبيعة شعر الشكوى المباشرة ماجعل الخنساء تأتى بهذا الوزن ، ولكن القافية هنا جاءت على حرف الزاء وهو من القوافى الصعبة لايطرقها الا فحول الشعراء .

والبحترى فى شكواه من الزمان يكثر فى مطالع قصائده التصريع فى مثل قوله (٤) :

مَنْ قائلٌ للزمانِ ما أربُهْ فى خُلُقٍ منهُ قد خلا عجبُهْ

---

(١) نفس المصدر : ٤٠ .

(٢) ديوانه : ٢٦٧ .

(٣) ديوان الخنساء : ١٩٤.

(٤)

وقولـــه (١) :

أَتُـرَى الزَّمَـانُ يُعِيدُ لِـي أَيَّامِـي بَيْـنَ تِلْـكَ الْقُصُـورِ وَالآطَـامِ

وقول أبى نواس يشكو من المرض (٢) :

شَاعَ فِيَّ الفَنَـاءُ سُفْـلاً وَعُلْـوَا وَأَرَانِـي أَمُـوتُ عُضْـوًا فَعُضْـوَا

ويطول بنا المجال لو تتبعنا هذه الظاهرة فى شعر الشكوى بعمومـه ، وإنما يكفينا هنا المثال .

ولم تخل قوافى الشعراء فى غرض الشكوى مما عده النقاد من عيوب القافية كالاقواء(٣) ، والسناد (٤) ، ولزوم ما لا يلزم (٥) ، ولكنها تبدو قليلـة أو نادرة إذا قيست بغزارة شعر الشكوى . كما أن هذه العيوب ليست صوتية تخـل بالنغم الشعرى ، وإنما هى عيوب نحوية شكلية لاتخل فى نظرنا متى وجدت فـى البيت بالموسيقى الشعرية (٦) .

---

(١) نفس المصدر : ٢٠١٥/٣ .

(٢) المصون فى الأدب : ١٧٢ .

(٣) الاقواء : هو اختلاف القوافى فى اعرابها كأن تكون مرفوعة فى بيـت ومكسورة فى الذى يليه من نفس القصيدة .

(٤) السّنَاد : هو اختلاف تصريف القافيتين .

(٥) لزوم مالا يلزم : وهو التزام الشاعر بقافيتين وهو قيد ثقيل للغايـة قل أن تتيسر معه الاجادة .
المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها : ٣٥/١ - ٤٢ .

(٦) ظاهرة الشكوى فى شعر هذيل : ٩٨ .

وخلاصة القول : أن قوافى الشعراء فى غرض الشكوى سهلة ميسرة ، فلم يجنحوا إلى استخدام القوافى النفر ، الأمر الذى زاد هذا الشعر سهولة ، وأضفى عليه عذوبة موسيقية يلمسها القارئ ، وتتفاعل معها نفسه وتطرب .

إنَّ الوزن والقافية مع أهميتهما فى تحديد شاعرية الكلام إلا أنهما لايظهران الجانب الفنى للشعر العربى فى قالبه المؤثر ، ذلك أن للجانب الداخلى من الموسيقى الشعرية تأثيرا عميقا فى تحديد موسيقى الشعر تحديدا فنيا لايمكن أن يضبطه علم العروض والقافية ، فهى تنبع من اختيار الشاعر لكلماته ، وما بينها من تلاؤم فى الحروف والحركات ، وائتلاف الألفاظ بعضها مع بعض فى صور صوتية معينة ، تكون أثرا مباشرا للعاطفة واهتزاز النفس فى حالة انفعالها ، وكأن للشاعر أذنا خفية وراء أذنه الظاهرة تسمع كل حركة بوضوح تام (١) .

وبهذه الموسيقى يتفاضل الشعراء فى نتاجهم الشعرى حيث تمنح الشعر ظلالا فنية مؤثرة تنبعث من تركيب الألفاظ ، وبنائها الفنى بما يحملها فوق معانيها اللغوية بايحاءات موسيقية تجعل السامع يتلقى المعنى من مصدرين هامين . أحدهما المدلول الوضعى للكلمة ، والثانى دلالتها الموسيقية على المعنى .

---

(١) النقد الأدبى بين النظرية والتطبيق : ٣٣٩ .
وفى محيط النقد الأدبى : ١٤٤ .

وفى شعر الشكوى نحس أثر الموسيقى الداخلية فيما يشيعه المعنى الشعرى من جو خاص يناسب الحالة النفسية التى يعبر عنها الشاعر ، فهى تنبع من الاختيار المناسب للألفاظ ، والتأليف بينها فى نسق صوتى ، يمثل فى مجموعة حالة الحزن وشدة الانفعال التى يكون عليها ذو الشكوى ، فتكون احساسات الشاعر ومعانيه بمنزلة الموسيقى المصاحبة التى تفتح وجدان المتلقى بمزيد من التقبل والارتياح أمام تلك الاحساسات والمعانى (١) فما نخال السامع أوالقارىء إلا وهو يشارك الشاكى ألمه ويحس معاناته .

وهذه الموسيقى هى التى تتمثل فيها روح الشاعر وفنه ، لأنها أثر لكل العناصر الفنية مجتمعة ، ولعلنا نحاول ادراك سرها فى بعض التراكيب ذات الدلالات الصوتية والمعنوية فى شعر الشكوى ، كتكرار بعض الصيغ سواء كان هذا التكرار للعبارة بعينها أو باختلاف فى تركيبها الحرفى والمعنوى ، فيكون لهذا التكرار مزية سمعية ترجع إلى موسيقى الكلمة ومعناها وقد أشار الجاحظ إلى أهمية القيمة السمعية ومزيتها الموسيقية فقال (٢) :

" الصوت هو آلة اللفظ ، والجوهر الذى يقوم به التقطيع ، وبه يوجد التأليف ولن تكون حركات الا بظهور الصوت ، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف " .

---

(١) النقد الأدبى بين النظرية والتطبيق : ٣٤١ .

(٢) البيان والتبيين : ٧٧/٣ .

والتكرار يمثل نمطا من التتابع الصوتى والمعنوى ، ولكل أسلوب إيقاعه الخاص به سواء كان هذا الايقاع ظاهرا أم خفيا حسيا أم معنويا ، وهو يمثل ضربا من ضروب الموسيقى الشعرية (١) ، ويبدو واضحا فى شعر الشكوى حيث يكون للحروف أو الحركات أو يكون تكرارا للألفاظ حروفا أو أسماء ، أو أفعالا، أو صيغا بعينها ٠

فمن تكرار الحرف الذى يوحى بإيقاع موسيقى لافت للنظر قول القاسم بن يوسف فى شكواه من الطبيعة فى القرن الثالث (٢) :

قَدْ مُنِيْنَا بِهَنَاتٍ ... هُنَّ مِنْ شَرِّ الْهَنَاتْ
نَافِرَاتٍ آمِرَاتٍ ... قَلِقَاتٍ مُقْلِقَاتْ
سَافِكَاتٍ لِدِمَاءِ النَّا ... سِ مِنْهَا شَارِبَاتْ
مَعَنَا فِى الْفُرْشِ وَفِى الْقُمْـ ... ـصِ عَلَيْنَا وَاثِبَاتْ
بَيْنَ مُحْتَكٍّ وَفَالٍ ... ثَوْبُهُ فِى الْغَالِيَاتْ
وَجَوَارٍ مُحْرِكَاتٍ ... لِمَتَاعٍ نَافِضَاتْ
بَاسِطَاتٍ بَاحِثَاتٍ ... صَائِدَاتٍ قَاتِلَاتْ
تَخْضُبُ الْأُصْبُعَ وَالثَّوْ ... بَ دِمَاءُ دَامِيَاتْ
ثُمَّ لَا يُخْرِجُهُ الْغَسْـ ... ـلُ بِمَاءِ الرَّاحِضَاتْ

---

(١) موسيقى الشعر العربى / الدكتور حسنى يوسف : ١٦٧/١ ٠ والتكرير بين المثير والتأثير / الدكتور عز الدين السيد ـ دار الطباعة المحمدية ـ القاهرة ط (١) ١٩٧٨م ص : ٨٠ ٠

(٢) الأوراق : ١٧١ ٠

فقد تكرر حرف التاء كما نرى بصورة منتظمة ، وقد أدى هذا التكرار للحرف إلى تماثل الإيقاع الموسيقى للألفاظ من خلال هذا التماثل الصوتى الذى يحدثه مثل هذا التكرار ، وقد وفق الشاعر هنا ، فنحن نكاد نحس معاناتهم الشديدة فى كل بيت من أبيات هذه المقطوعة بصياغتها التى جمع فيها بين مجزوء الرمل ذى التفعيلة المتحركة ، وروى التاء المردوف بالألف اللينة ، وكثرة الكلمات المماثلة للكلمات التى وقع فيها روى المقطوعة ، فمنح أبياتها نبض الحركة التى تكاد تتساوق وحركة البراغيث ، والمحتك الفالى ، والباحث القانص من رجال وجوار . وتبدو الموسيقى الداخلية فى شعر الشكوى من تركيب بعض الألفاظ الثنائى حيث يكرر الحرف الواحد مرتين فى لفظ واحد ، فيوحى بعمق المعنى من خلال موسيقى اللفظ القوية كما فى قول عدى بن زيد العبادى يشكو من الدهر (١) :

فَاسْأَلِ النَّاسَ أَيْنَ آلُ قُبَيْسٍ ... طَحْطَحَ الدَّهْرُ قَبْلَهُمْ سَابُورَا

وقول المتلمس الضبعى فى شكواه من فراق قومه (٢) :

عَلَى كُلِّهِمْ آسَى وَلِلأَصْلِ زُلْفَةٌ ... فَزَحْزِحْ عَنِ الأَدْنَيْنِ أَنْ يَتَصَدَّعُوا

ومثل هذا شكوى أبى ذؤيب من فقد أولاده (٣) :

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهُمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ

---

(١) ديوانه : ٦٤ .

(٢) ديوانه : ١٥٤ .

(٣) شرح أشعار الهذليين : ١٠/١ .

ومثل هذا التكرار كثير فى شعر الشكوى ، حيث نجد الثنائية مسيطرة على وجدان الشعراء كما هو الحال هنا (طحطح ـ فزحزح ـ اتضعضع) . وقد انعكس هذا التكرار على التشكيل اللغوى والموسيقى الشعرية بما يوحى بشدة الحزن ، واضطراب الحالة النفسية للشاعر ، فكان لهذه الألفاظ دور فى تعميق المعنى ، والتأثير المباشر فى السامع .

وقد يعمد الى تكرار الاسم ، فيكون لذلك ميزة صوتية تزيد فى وحدة النغمة الايقاعية للمقطع الواحد ، فتؤثر فى النفس وتكسب المعنى قوة ، وإيحاء ، وهذا يبدو كثيرا فى غرض الشكوى . نأتى على سبيل المثال بقول المتلمس الضبعى (١) :

وَمَاكُنْتُ إلاَّ مِثْلَ قَاطِعِ كَفِّهِ ... بِكَفٍّ لَهُ أُخْرَى فَأَصْبَحَ أَجْذَمَا
فَلَمَّا اسْتَقَادَ الكَفَّ بِالكَفِّ لَمْ يَجِدْ ... لَهُ دَرَكاً فِى أَنْ تَبِيْنَا فَأَحْجَمَا

فقد كرر لفظ الكف أربع مرات فى هذين البيتين ، فأعطى هذا التكرار بالاضافة إلى موسيقاه بعدا معنويا يؤكد حيرة الشاعر فى هذا المضمار .

ومن قبيل هذا قول عدى بن زيد العبادى فى شكواه من الموت (٢) :

لَا أَرَى المَوتَ يَسبِقُ المَوتَ شَىٌ ... نَغَّصَ المَوتُ ذَا الغِنَى وَالفَقِيرَا

---

(١) ديوانه : ٢٩ .

(٢) ديوانه : ٦٥ .

فان لفظ الموت بما يوحى به من خوف ووجل قد كرره الشاعر هنا ثلاث مرات ، فوشح اللفظة بايقاع حزين خائف .

وفى الشكوى من هجر الحبيبة وإعراضها وإخلافها مواعيدها نجد مجنون ليلى يعمد إلى ضمير المخاطبة ، واسم الموصول ، والفعل الماضى ، فيكرر هذه الصيغ أربع مرات فى صدر أربعة أبيات متتالية ، فيعطى بذلك نغما صوتيا متتابعا يوحى بضعف الشاعر أمام جفاء حبيبته ، وتهالك نفسه ويزيد المعنى قوة تجعل السامع يعيش مع الشاعر قضيته فيقول (١) :

وَأَنْتِ الَّتِي كَلَّفْتِنِي دَلَجَ السُّرَى ... وَجُونُ القَطَا بِالْجَلْهَتَيِن جُثُومُ
وَأَنْتِ الَّتِي قَطَّعْتِ قَلْبِى حَزَازَةً ... وَرَقْرَقْتِ دَمْعَ العَينِ فَهْىَ سَجُومُ
وَأَنْتِ الَّتِي أَغْضَبْتُ قَومِى فَكُلُّهُمْ ... بَعِيدُ الرِّضَى دَانِى الصدُود كَظِيمُ
وَأَنْتِ الَّتِي أَخْلَفْتِنِى مَاوَعَدْتِنِى ... وَأَشْمَتِّ بِى مَنْ كَانَ فِيكِ يَلُومُ

أما قيس بن الحدادية ، فانه يكرر كنية محبوبته ، " نعم " ثلاث مرات فى عروض ثلاثة أبيات متتابعة ، ومثل هذا التكرار يحدث موسيقى لفظية ، كما يوحى بما يسمى عند بعض النقاد المحدثين بالقوافى الداخلية (٢) ، وهذا يعطى الشعر خاصية ايقاعية معينة كقوله (٣) :

---

(١) ديوانه : ١٩٢ .

(٢) موسيقى الشعر العربى / الدكتور حسنى يوسف : ١٥٦/١ .

(٣) الأغانى : ١٥٨/١٤ - ١٥٩ .

وَبُدِّلْتُ مِنْ جَدْوَاكِ يَا أُمَّ مَالِكٍ طَوَارِقُ هَمٍّ يَحْتَضِرْنَ وِسَادِيَا
فَلاَ مُدْرِكًا حَظًّا لَدَى أُمِّ مَالِكٍ وَلاَ مُسْتَرِيحًا فِي الحَيَاةِ فَقَاضِيَا
وَإِنَّ الَّذِى أَمَّلْتُ مِنْ أُمِّ مَالِكٍ أَشَابَ قَذَالِى وَاسْتَهَامَ فُؤَادِيَا

وقد يكون التكرار للفعل لمزيد خصوصية ، فيعطى هذا التكرار بالإضافة إلى عمق المعنى تأثيرا موسيقيا من خلال ذلك التكرار ، ومن هذا قول عروة بن الورد يشكو من معاملة قومه له (١) :

هُم عَيَّرونِى أَنَّ أُمِّى غَرِيبَةٌ وَهَل فِى كَرِيمٍ مَاجِدٍ مَايُعَيَّرُ
وَقَدْ عَيَّرونِى المَالَ حِينَ جَمَعْتُهُ وَقَدْ عَيَّرونِى الفَقْرَ إِذْ أَنَا مُقْتِرُ
وَعَيَّرَنِى قَومِى شَبَابِى وَلِمَّتِى مَتَى مَا يَشَا رَهْطُ امْرِئٍ يَتَعَيَّرُ

وهنا أعطى تكرار الفعل " عير " بصيغة الماضى والمضارع مزية صوتية تدل على حالة نفسية مضطربة لم تعد تثق فى ود الناس ٠

وقد يجتمع فى البيت أو الأبيات مجموعة من الحروف والأسماء والأفعال المكررة مما له أثر كبير فى تشكيل الموسيقى الشعرية ، كما فى شكوى الأغلب العجلى (ت ١٦ هـ) من الشيخوخة حيث يقول (٢) :

---

(١) ديوانه : ٧٨ - ٧٩ ٠

(٢) المعمرون والوصايا : ١٠٨ ٠

إنَّ اللَّيالي أَسْرَعَتْ في نَقْضي ... أَخَذْنَ بعضي وَتَرَكْنَ بَعْضي

حَنَيْنَ طُولي وَحَنَيْنَ عَرْضي ... أَقْعَدْنَني مِنْ بَعْدِ طُولِ نَهْضي

فمن تكرار الحرف نجد حرف الضاد يتكرر خمس مرات فى ألفاظ ذات رنين خاص (نقضى - بعضى - عرضى - نهض) بينما يتكرر الفعل حنين مرتين فى صدر البيت الثانى ، وهكذا فان لمثل هذا التكرار مزية صوتية يحسها القارىء تستخفه طربا ، وهى مزية تنسجم مع حالة الشاعر النفسية ، وهو ينطق بهذه الشكوى .

ولم يكن التكرار وحده من مظاهر الموسيقى الشعرية فى غرض الشكوى ، فقد تنتج هذه الموسيقى من اعتماد الشعراء بعض صور البديع ، كالجناس بأى وجه من وجوهه ومنه قول الحارث بن حلزة اليشكرى فى شكواه من اخوانه الأراقم (١) :

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ بِلَيْلٍ فَلَمَّا ... أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ

فإن الجناس فى لفظ أصبح قد انفرد بخاصية صوتية تؤثر كأحسن مايكون التأثير .

وقول حميد بن ثور الهلالى فى الشكوى من الشيخوخة (٢) :

---

(١) ديوانه : ١٠ .

(٢) ديوانه : ٩٤ .

لَقَدْ رَكِبْتُ العَصَا حَتَّى قَد اوْجَعَنِي مِمَّا رَكِبْتُ العَصَا ظَهْرِى وَأَظْفَارِى
لَا أُبْصِرُ الشَّخْصَ حَتَّى أَسْتَدِير لَهُ مُعْشَوشِيًا بَصَرِى مِنْ بَعْدِ ابْصَارِى

ففى تكرار حرف الظاء (ظهرى - أظفارى) والصاد (بصرى - أبصارى) على سبيل الجناس مايوحى بنغم موسيقى ، زاد من قوة جرسه فى الأذن قافية الراء المطلقة ، حيث أن استطالة الصوت بالقافية حتى ينشأ حرف المد يوحى بعمق المعاناة التى يعانيها الشاعر ، كما أنه يساعد فى انشاد الشعر والتلذذ بذلك .

وقد نلمس هذه الموسيقى فى شعر الشكوى من خلال تشابه الأطراف ، حيث يعمد الشاعر إلى اعادة اللفظة التى وردت فى القافية فى أول البيت الذى يلى البيت الذى وردت فيه كما فى قول قيس لبنى (١) :

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو فَقْدَ لُبْنَى كَمَا شَكَا إِلَى اللَّهِ فَقْدَ الوَالِدَين يَتِيمُ
يَتِيمٌ جَفَاهُ الأَقْرَبُون فَجِسْمُهُ نَحِيلٌ وَعَهْدُ الوَالِدِين قَدِيمُ

أو أن يعيد بعض أجزاء الشطر الثانى من البيت الأول فى الشطر الاول من البيت الثانى كقول هدبة بن الخشرم (٢) :

وَقَبْلَ غَدٍ يَا لَهْفَ نَفْسِى عَلَى غَدٍ إِذَا رَاحَ أَصْحَابِى وَلَسْتُ بِرَائِحِ
إِذَا رَاحَ أَصْحَابِى بِفَيْضِ دُمُوعِهِمْ وَغُودِرْتُ فِى لَحْدٍ عَلَىَّ صَفَائِحِى

---

(١) ديوانه / تحقيق حسين نصار ، القاهرة ١٩٦٠م ص : ١٤٤ - ١٤٥ .
(٢) ديوانه : ٨٩ .

ومثل هذا التكرار انما هو نمط من التجنيس الصوتى له أثره فى الموسيقى الشعرية كما له الأثر القوى فى تركيب المعنى ٠

وبقدر ما للجناس من خاصية موسيقية ، فإن المقابلات كذلك تعطى للايقاع الشعرى خاصية فنية فى الأذن ، كما تعطى للمعنى قوة وتأثيرا من خلال التقابل بين الصور الشعرية ، ويظهر هذا الأمر فى شكوى الحارث بن وعلة الذهلى من عدوان قومه (١) :

فَلَئِنْ عَفَوتُ لأَعفُوَنْ جَلَلاً ... وَلَئِنْ سَطَوتُ لأُوهِنَنْ عظمِى

وقول معن بن أوس المزنى يشكو من ذى رحمه (٢) :

يَوَدُّ لَو انِّى مُعْدِمٌ ذُو خَصَاصَةٍ ... وَأَكْرَهُ جَهْدِى أَنْ يُخَالِطَهُ العُدْمُ

ونجد للطباق دورا فى الموسيقى الشعرية ، حيث أن المطابقة بين كثير من الألفاظ قد يكون لها دلالة صوتية معينة ، كما يتضح لنا من شكوى كثير عزة من هجر محبوبته (٣) :

وَوَاللّهِ مَاقَارَبْتُ إلاَّ تَبَاعَدَتْ ... بِصَرْمٍ وَلَا أَكْثَرْتُ إلاَّ أقلَّتِ
وَكُنَّا سَلَكْنَا فِى صَعُودٍ مِنَ الْهَوَى ... فَلَمَّا تَوَافَيْنَا ثَبَتُّ وزلَّتِ
وَكُنَّا عَقَدْنَا عُقْدَةَ الوَصْلِ بَيْنَنَا ... فَلَمَّا تَوَاثَقْنَا شَدَدتُ وحَلَّتِ

---

(١) حماسة أبى تمام : ١١٨/١ ٠

(٢) أمالى القالى : ١٠٢/٢ ٠

(٣) ديوانه : ٩٧ - ١٠٠ ٠

فان المطابقة بين (قَارَبْتُ - تَبَاعَدْتُ - أَكْثَرْتُ - أقلتِ - ثَبَتَّ - زَلَّتِ - شَدَدْتُ - حَلَّتِ) تعطى للألفاظ موسيقى عذبة تدل حقا على حالة هذا الشاعر المتعبة ٠

إنَّ الموسيقى الداخلية رغم ماقدمنا من الحديث عن بعض الجوانب التى قد يكون لها أثر فى تشكيل هذه الموسيقى ، فإنها شئ وراء ذلك كله ، فهى روح القصيدة نفسها بكل مافيها من عناصر فنية ، ومن هنا فإن الشعر يعتمد على هذه الموسيقى اعتمادا كبيرا لاتصالها بالحالة النفسية لدى الشاعر ، وقد اتضح فى شعر الشكوى عمق هذه الموسيقى لارتباطها بدواخل الشعراء النفسية حيث تختلف حالة الشاعر تلك عند انشاده شاكيا عن حاله فى أى غرض آخر من أغراض الشعر العربى الأخرى ٠ عندما يتحرر الشاعر فى شكواه من آسلوب المديح والمناسبات ، والفخر والهجاء والوصف والحكمة والعتاب والاعتذار ، ويعيش قضيته الذاتية أو الاجتماعية أو السياسية بكل مالديه من براعة القول وجميل المعنى ٠ فيكون لموسيقاه حينئذ خاصية فنية راقية مؤثرة ، وهذا مانلمسه فى شعر الشكوى بعمومه سواء أكان ملتحما بغيره من الأغراض الأخرى ، أم كان مقطوعة ، أو قصيدة مستقلة بذاتها ٠

الخاتمة

الخاتمـــــــة

تلقى الشكوى ظلالها على ملامح القصيدة ، فتكسب الشعر طابعا حزينـــا ثائرا ، يتميز بجماله الفنى الذى يؤثر فى النفس البشرية ، فالشاعر المبـــدع ساع الى الغاء المسافة بين الواقع المؤلم الذى قد يعيشه وتطلعاته الـــى المثال المشرق ٠ ويرنو الى تحقيق ذاته فى الحياة ، والخروج من دائـــرة المشكلات المعقدة التى تتطلب حلولا عادلة ترضى طموحه ، وتحقق أهداف الجماعة ٠

وقد ظل الشاعر دائم الشكوى من الواقع المتناقض الذى يحيا فيه ، وهـو يرى الصراع المروع على أديم الأرض بين الخير والشر ، ولعل هذه الرؤية قـــد اتضحت لنا فى دراستنا لهذا البحث ، الشكوى فى الشعر العربى حتى نهايـــة القرن الثالث الهجرى ، فقد حاولنا من خلالـــه أن نلقى مزيدا مـــن الضوء على محاور الشكوى الذاتية والاجتماعية والسياسية ، حيث اقتضت طبيعـة هذه الدراسة تقسيم الموضوع الى أربعة أبواب تسبقها مقدمة وتمهيـــد ، تحدثت فى المقدمة عن دوافع اختيار الموضوع ، وبينت منهجى فى البحـــث موضحا أهم المصادر والمراجع التى اعتمدت عليها ، كما عرضت بايجاز لأبـــرز الصعوبات التى واجهتنى ، كما تكلمت فى التمهيد عن تعريف الشكوى اللغـــوى معتمدا فى ذلك على تحديد هذا المصطلح عند أصحاب المعاجم اللغوية ، وحاولت أن أضع لمصطلح الشكوى تعريفا فنيا عندما لم أجد من عنى بهذا الجانب موضحـا أن الشكوى تعبير ذاتى عن هموم الانسان ، فقد اتسعت كلما تقدم فى ميـــدان الثقافة والتحضير ، لكونها غرض قديم يستجيب لنزعات الشاعر ، وتطـــوره ، وان

كان قد أغفل نقادنا القدامى وكثير من دارسينا المحدثين غرض الشكوى ، وخلصت الى أن بواعث الشكوى ذاتية ، واجتماعية ، وسياسية ، وعلى هذا أقمت أبواب الرسالة .

فخصصت الباب الأول لدراسة الشكوى الذاتية باعتبار الشكوى فى جانب كبير حاجة نفسية ملحة ، وقد اشتمل هذا الباب على ثلاثة فصول ، بدأتها بحديث عن الشكوى الذاتية وبواعثها فى العصر الجاهلى ، وقد رأيت أنها لم تكن ذات محاور كثيرة بل تكاد تنحصر فى دائرة الشكوى من الشيخوخة ، وهجر الحبيبة والغربة ، وتغير الحال ، وان كانت قد تبدو واضحة فى الشكوى من الدهر . ثم عرضت فى الفصل الثانى للشكوى الذاتية فى القرن الأول الهجرى ، وفى الفصل الثالث بينت ماطرأ على الشكوى الذاتية من اتساع فى بواعثها فى القرنين الثانى والثالث .

وفى الباب الثانى درست الشكوى الاجتماعية حيث قسمته الى ثلاثة فصول ، تناولت فى الفصل الأول الشكوى الاجتماعية فى العصر الجاهلى ، فأدرته فى مدخل وثلاثة مباحث .

بينت فى المدخل بايجاز أهم مقومات الحياة الاجتماعية فى العصر الجاهلى وما بنيت عليه تلك الحياة من مظاهر متباينة فى بعض جوانبها ، ثم تحدثت فى المبحث الأول عن الشكوى من الظلم ، حيث ساد المجتمع الجاهلى نوع من علاقات القطيعة والجفاء والسعى لاستلاب الحقوق حتى وصل الأمر ببعضهم الى الفخر بالظلم والتغنى به .

وفى المبحث الثانى عرضت للشكوى من الشيخوخة عند الشاعر الجاهلى فربطت تلك الصرخات الشاكية بطبيعة المجتمع آنذاك ، حيث يبدى شيئا من السأم ، والملالة المؤلمة للشخص الهرم الذى خانته قواه ، ووهن عظمه ، واشتعل رأسه شيبا ، فأصبح منبوذا من الأهل والعشيرة ، وقد كان لهذا الموقف الاجتماعى أثر مباشر على الشخص ، فأخذ فى تصوير حسراته ، وبكى كثيرا من وضعه المؤلم الذى آل اليه فى شيخوخته ، وهو يصارع الأمراض ، ويجترع الأسقام فى بيئة لاتعرف للرحمة سبيلا الا فى القليل النادر ٠

أما المبحث الثالث ، فقد تكلمت فيه عن الشكوى من الفقر وسوء الحال ، وربطت ذلك بطبيعة البيئة الصحراوية القاسية ، وقلة مواردها الاقتصادية وبينت كثيرا من آلام الشعراء الذين افتقروا وشكوا من ذلك ٠ وركزت على الشكوى عند طائفة الصعاليك الذين نبذهم مجتمعهم ، فخرجوا عليه فى ثورة عارمة تكتسح الأعراف ، وتقتل الأنفس ، وتستبيح الأموال ٠

وخصصت الفصل الثانى بالحديث عن الشكوى الاجتماعية فى القرن الأول الهجرى فجعلته فى مدخل وثلاثة مباحث ٠ تناولت فى المدخل أهم مظاهر الاختلاف بين وضع الجاهليين الاجتماعى ، وما طرأ من تغيير بعد ظهور الاسلام ، اذ تغيرت الأحوال الاجتماعية بعد أن اتسعت رقعة المجتمع المسلم ، وأخذ العرب يختلطون بغيرهم من الأجناس الأخرى فى البلاد المفتوحة ، وهو ما انعكس آثره بالسلب والايجاب على حياة الناس بين مستفيد وآخر متضرر ٠

وفى المبحث الأول من هذا الفصل رصدت الشكوى من فراق الأبناء والأقارب ، وهو ما كان صدى لتلك الفتوحات الاسلامية المباركة ، وما بنى عليها

من قيم اجتماعية جديدة ، فقد خرج الجيش المسلم من الجزيرة يفتح الآفاق ، وينشر الاسلام فى ربوع الدنيا ، الأمر الذى ترتب عليه تفرق بعض الأسر ، وغيبة كثير من الأبناء والأقارب الذين شاركوا فى الفتوح ، وهنا اشتكى آباؤهم وأقاربهم العجزة من هذا الفراق وبكوا كثيرا ، وكانوا فى شوق اليهم ٠

أما المبحث الثانى ، فتناولت فيه الشكوى من ظلم الولاة فى العصر الأموى حتى نهاية القرن الأول ، وهو جانب ظهر حينئذ قويا ، حين سادت حمية العصبيات القبلية ، وبدأت تأخذ طابعا متميزا ، بعد أن أعطى بنوا أمية لولاتهم حرية كبيرة فى معاملة الناس ، وبعد أن بدأ سلطان الدين يضعف لدى هؤلاء الولاة ، فقد قسوا على الرعية ، وكلفوهم فوق مايحتملون ، وشددوا عليهم فى جباية الزكاة وأرهقوهم بالضرائب الاضافية التى عجزوا عن دفعها ، فاشتكوا وبينوا للخلفاء مايعانيه المجتمع من الظلم الذى صبه عليهم العمال مراعاة لمصالحهم الشخصية بعيدا عن سمع الخليفة وبصره ٠

وفى المبحث الثالث تحدثت عن الشكوى من السجن عندما كثر السجناء فى القرن الأول الهجرى ، وبخاصة فى النصف الثانى منه ، حينما اتسعت الدولة ، وكانت جرائم هؤلاء السجناء فى أغلبها تعود الى خروجهم على بعض النظم الاجتماعية ، والآداب العامة ، ومن هنا اعتبرت الشكوى من السجن شكوى اجتماعية فى جانب كبير منها لهذا السبب ، كما أننى ركزت كثيرا على الشكوى عند الشعراء الصعاليك ولم أوجه شعرهم هنا وجهة سياسية خالصة ، حين لم أجد لأى منهم فكرة سياسية يقول بها فى الأمويين أو يدعو بها الى نفسه ، ولكنهم كانوا فى خروجهم على السلطة يطلبون العدل الاجتماعى ، فهم ينقمون على

المجتمع لا على نظام الدولة ، ولم يطالبوا باقرار وضع سياسى معين ، أو الخروج عليه ٠

أما الفصل الثالث فى هذا الباب ، وهو الشكوى الاجتماعية فى القرنين الثانى والثالث الهجريين ، فقد بنيته على مبحثين ، تناولت فى الأول الشكوى من أثر الموالى فى الحياة الاجتماعية ، اذ أصبحت الحياة فى هذه الفترة زاخرة بكثير من المستجدات التى طرأت على بنية المجتمع عندما تبوأ هؤلاء الموالى وضعهم فيه ، وكان لهم حينئذ أثر كبير فى الاحوال الاجتماعية ، وفى النتاج الحضارى الذى وافق العصر ، وصار فى أيديهم كثير من مقاليد الأمور ، وقد وقف الشعراء العرب فى حالة انزعاج شديد أمام تغلب الموالى على كثير من مناحى الحياة الاجتماعية والسياسية ، فانبروا يشكون من ذلك ، ولا يخفون قلقهم من هؤلاء الموالى الذين أفسدوا كثيرا من أمور الحياة ، وأدخلوا العديد من التقاليد التى قد لاتتفق مع الحياة العربية ٠

ودرست فى المبحث الثانى الشكوى من الفقر وسوء الحال عند بعض الشعراء الذين عرفوا بسوء حظهم فى القرنين الثانى والثالث ، حيث تعقدت وسائل العيش لطائفة من الناس ، فعاش الشعراء الذين نالهم ذلك حياة بائسة شديدة المرارة والحرمان ، وأنشأوا أدبا يتسم بالسخرية واتضح ذلك فى شكواهم ، وتشاؤمهم من وضعهم فى المجتمع ، وسوء حظهم ، كما أن أولئك الشعراء رغم فقرهم ، وقلة ذات يدهم ، فانهم لم يشكلوا عصابات تقطع الطرق ، وتسلب الأموال ، كما فعل صعاليك العصر الجاهلى ، والقرن الأول الهجرى ٠ ولكنهم اكتفوا بالشكوى والسخرية ، وصوروا أنفسهم وأبناءهم فى شئ من

السخرية والتندر ، وهو ماعرف فى العصر العباسى بأدب التظرف والمزح .

أما الباب الثالث وهو الشكوى السياسية ، فقد كان فى أربعة فصول ، تحدثت فى الفصل الأول عن ملامح الشكوى السياسية فى العصر الجاهلى ، اذ يمكن للباحث أن يلمس هذه الملامح البسيطة التى تبينها النصوص الشعرية ، وبعض الوقائع التاريخية حيث تبرز حينذاك سياسة القبيلة لاسياسة الدولة .

وعرضت فى الفصل الثانى للشكوى السياسية فى عصر صدر الاسلام حيث أصبح للمسلمين دولة تحكم شرع الله ، يقوم على رأسها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الطبيعى أن يحدث صراح مسلح - خاصة بعد الهجرة النبوية - بين المسلمين والمشركين فى مكة ، ومن جاورهم من اليهود فى المدينة ، ولم يغب الشعراء عن تلك الأحداث ، فقد سجلوا مرثياتهم السياسية منذ البعثة حتى قيام الدولة الأموية سنة ٤١ هـ .

وقد اتسعت الشكوى السياسية فى ظل سياسة بنى أمية ، وهذا مابينته فى الفصل الثالث . فعصر بنى أمية من أهم وأخطر عصور الشعر العربى اذ انتقل المسلمون نقلة هائلة فيما يتعلق بأمر الخلافة ، ونشأت الأحزاب السياسية كما نشطت العصبية القبلية ، واتسع نطاقها ، والأهم من ذلك اتساع الدولة الاسلامية ، وتطور النواحى السياسية فى هذه الفترة ، وقد اتسعت الشكوى السياسية لارتباطها بالشعر السياسى الذى ازدهر ونما فى هذه الحقبة الزمنية .

وفى الفصل الرابع من هذا الباب تكلمت عن هموم الشعراء من خلال الاتجاهات السياسية والمذهبية فى العصر العباسى حتى نهاية القرن الثالث

الهجرى ، وقد اتضح أن الشكوى السياسية فى هذه الفترة لم تكن موازية فى حجمها للشكوى السياسية فى عصر بنى أمية لأسباب كثيرة فى مقدمتها :

ضعف الأحزاب السياسية التى كانت ذات شأن فى العصر الأموى ، وانتهاء بعضها الآخر ، وكذلك مزاحمة النثر فى القرنين الثانى والثالث للشعر ، حيث كان لابد للتقدم الذى أصابته الحياة السياسية والعقلية من أدب للتعبير أطوع ، وأوسع حرية من الشعر ، عندئذ أصبحت رسائل الكتاب البلغاء تقوم مقام الشعر فى كثير من الأحيان ، وتحول أغلب الشعراء الى غايات نفعية سخروا من خلالها أشعارهم للتكسب .

وخصصت الباب الرابع لدراسة البناء الفنى لشعر الشكوى من حيث الخصائص الفنية والشكلية ، وقد اشتمل على ثلاثة فصول عرضت فى الأول منها الى دراسة اللغة والأسلوب ، وفى الثانى تناولت الصور الشعرية ، ثم تحدثت فى الثالث عن الموسيقى الشعرية .

وبعد ذلك ختمت هذا البحث بتلخيص موجز لأهم النتائج التى توصلت اليها ، والتى كان من أهمها :

اننا رأينا من ثنايا البحث اصرار النقاد العرب القدامى على أن ينأوا بدراساتهم عن شعر الشكوى باعتباره شعر الفئة المعطلة التى تنقم على الآخرين ما أصابوه من غنى ، وتحسدهم على ماهم عليه من يسر وسعة ، كما أنه فى جانب آخر يمثل شعر الهموم اليومية الفردية والجماعية . هكذا يخيل لهم ، كما يخيل لهم كذلك أن هذا الشعر قد يأتى ملتحما بغيره من الأغراض كالرثاء ،

أو ماكان من مذاهب الشعراء فى شكواهم من خلو المكان ورحيل الأحبة ، وبكاء الديار ، فعدوه من هذا الجانب داخلا فى غرض النسيب والغزل ، ولذا فان الدارس لشعر الشكوى يجد صمتا يكاد يكون متعمدا من قبل نقادنا القدامى عن هذا الغرض الشعرى .

وقد أفضت هذه النتيجة الى نتيجة أخرى ترتبط بها ، وهى أنهم قد رأوا بناء على نظرتهم السابقة أن شعر الشكوى لم يأت على شكل قصائد مستقلة فى الشعر العربى ، بل جاء مبثوثا فى القصائد التى تمثل الموضوعات الشعرية الأخرى ، فيما عدا بعض المقطعات القصيرة التى لاتؤلف غرضا مستقلا محدد السمات الفنية ، يستقيم مع الأغراض الشعرية المتفق عليها ، وقد أثبتت هذه الدراسة أن رؤيتهم تلك لم تكن فيصلا فى القضية ، حيث كان ينقصها الاستقراء التام لشعر الشكوى ، وتتبع ذلك فى دواوين الشعراء ، والمجاميع الشعرية ، وغيرها من مصادر الأدب ، وكتب التاريخ والسير ، مع التركيز على أشعار الطبقات الدنيا اذ أن الشعراء المغمورين ، بل والفقراء منهم ، وأصحاب الحظوظ العاثرة هم أقدر من غيرهم على تصوير واقعهم المتردى ، وما قد يطرأ على المجتمع من الاختلال الاقتصادى ، والظلم الاجتماعى ، والسياسى ، وهو ما تبينه أشعار الطبقة المتردية فى وهدة البطالة ، وأدران الحاجة ، لا أولئك الذين اشتهروا بأنهم أعلام الشعر العربى الكبار ، فحظوا بالتقريب والتنعم فى الحياة ، وقد أظهر البحث أن هناك قصائد كثيرة مستقلة بذاتها خصصت لهذا الغرض لاتقل فى جودتها من حيث المعنى والصور الفنية ، والتفنن فى الأساليب ، واستعمال أدوات اللغة ، وطول نفس الشعراء ، عن أى غرض آخر ، بل ربما فاق ذلك قصائد كثيرة قيلت فى فنون شتى ، ومن هنا ينتفى الرأى

القائل بأن شعر الشكوى فى عمومه مبثوث فى أغراض الشعر العربى ، فالشكوى قد تستقل أحيانا بالغرض الشعرى منذ القدم ، ثم أخذت تتسع كلما تقدم الانسان فى ميدان الثقافة والتحضر ، حيث كثرت مسئولياته ، واتسعت حاجاته ، وتعددت مشكلاته العامة والخاصة تبعا لذلك .

وقد تميز هذا الغرض فى جانبه الفنى بالصدق ، واتسمت معانيه بقوة التأثير بعيدا عن التزويق والمجاملات ، فهو شعر يمس شغاف القلوب ، ويعالج أمورا انسانية تتصل بالفرد والجماعة ، بما يكشفه من الخلل الاجتماعى والسياسى فى محاولة لوضع الحلول المناسبة لمشكلات الانسان والتغلب عليها ، ولهذا اكتسب مزية قربه من النفوس لما فيه من عواطف صادقة ، وما يعرضه من قضايا انسانية تشمل الجميع ، مما جعله أقرب الى الصدق ، والتأثير فى النفس من الاتجاهات الأخرى .

ولم يعمد الشعراء فى شكواهم الى التوعر فى الأساليب ، بل جنحوا الى الألفاظ السهلة المعبرة التى تصل المعنى الى ذهن السامع أو القارئ دون اللجوء الى المعاجم اللغوية ، شأن الأغراض الأخرى التى تفرض على القارئ الوقوف على معانيها بعد اعمال الفكر وكد الذهن ، وهذه البساطة لم تخل بقوة المعنى فى شعر الشكوى .

وشعر الشكوى كما اتضح فى هذه الدراسة شعر مباشر فى كثير من جوانبه ، فقصيدة الشكوى وليدة اللحظة ، بل هى نتيجة لحادث معين ، فليس فيها مجال للتنقيح والتهذيب ، لكن المعاناة الانسانية التى ولدت هذه القصيدة ألقت

بظلالها على الشاعر ، ففاضت نفسه بشعر يقطر أسى ولوعة ، ولذلك جاءت الصور الشعرية فى كثير من محاور الشكوى تقريرية مباشرة ، لكنها لم تكن تطغى على الصور الفنية التى كان وجودها ملحوظا ، مع تفنن الشعراء فى ذلك ، حيث وظفوا جميع الحواس فى بناء تلك الصور الفنية التى اتضحت بصورة أكيدة ومؤثرة فى الشكوى الذاتية أكثر من الشكوى الاجتماعية والسياسية .

ان غرض الشكوى يمتاز عن غيره من أغراض الشعر العربى بأنه يعالج قضايا كثيرة ، ويلمس موضوعات متنوعة ، ورغم أنه شعرذاتى فى جانب كبير منه ، فانه يحتوى مشاهد اجتماعية وسياسية ، ويشتمل على عناصر عقلية ، ومعان انسانية ، وهذا الشعر يعالج قضايا الناس الخاصة والعامة من زوايا نفسية وحسية بعيدا عن المجاملات أو تجاوز الحقيقة .

وقد ترتب على تعدد موضوعات غرض الشكوى اختلاف نماذجه من الناحية الفنية قوة وضعفا ، ولعل أبرز مافيه السهولة فى اللغة ، والبعد عن التكلف فى الصنعة ، ذلك أنه صادر عن عاطفة متألمة فى أغلب الأحيان .

وكثيرة هى الجوانب الموضوعية التى عالجها شعر الشكوى ، وقد أثبتها البحث هنا ، فمن شكوى الهموم الذاتية التى تحيل نهار الشاعر الى ليل حالك ، لما قد يعرض له فى حياته من مظاهر القلق نتيجة لغدر الزمان ، وفساد الاخوان، وتغير الناس فى طباعهم ومعاملاتهم ، الى شكوى الحبيبة المجافية التى تعد ثم لاتنجز وعدها ، الى الشكوى من الفراق ، والصدود الدائمين ، ومواجهة الشاعر بأسى شديد جفاء المكان الذى غدا غب رحيل الأحبة عنه بلا حياة ، فكان

عليه أن يبثه الحياة من خلال وصفه للحيوانات التى احتلته ، وذكره للأثافى والنؤى والدمن ، بوصفها بقايا من أزمان الأحبة تهددها الرياح التى تمحو معالم المكان ، فتجتاح الشاعر رغبة بتشبيه الأطلال بالوشم والكتابة ، ليطامن من مخاوفه ، ويطمئن الى بقاء الآثار كما الوشم أو الكتابة ، كما قاسى الشاعر من الفقر والحرمان ، ومن الناس المتلونين ، ومن الأسرة الجاحدة ، وما وقع له من ظلم الأقارب وغيرهم ، وقد تطلع الى عالم أكثر حبا وعطاء ، وتألم بشدة من الشيخوخة والموت والدهر الذى كان يعتقد بأنه السبب فى كل ما حل به من شر وبلاء ، وتغنى مقابل ذلك بالشباب والحياة ، واقتنص كل مايدخل المسرات الى قلبه ، واشتكى من السجن والدين والعجز والمرض والفراق والوداع ، وحن الشاعر كثيرا الى وطنه ، فاشتكى من الغربة ، ولم يغب عن المظاهر الاجتماعية ونقدها ، والشكوى من أى مظهر اجتماعى يخالف العرف حيث وجه الشعراء فى شكواهم اللوم الى كثير من المظاهر الاجتماعية المستحدثة ،وأصحابها كما حدث فى الشكوى من أثر الموالى فى الحياة الاجتماعية فى القرنين الثانى والثالث ، ناهيك عن الشكوى السياسية التى ظهر فيها الشاعر الصوت المباشر الذى يدعو الى الوحدة ، واستنهاض الهمم ، كما اشتكى من تفرق قومه ، ووقوفه عاجزا عن لم شملهم فى وجه الأعداء ، كما هو الحال فى الشكوى السياسية ، وبعض محاور الشكوى الذاتية والاجتماعية .

وقد تبين لنا فى مجال الشكوى السياسية فى العصر العباسى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى أنها لم تكن فى حجم الشكوى السياسية فى عصر بنى أمية ، فهى جزء من الشعر السياسى الذى ربما اعتراه خفوت فى هذه الفترة اذ لم يكن

موازيا للشعر السياسى فى العصر الأموى ولا قريبا منه . لأسباب أشرنا اليها فى موضعها .

وقد ظهر لنا كذلك مدى الارتباط التاريخى بين النواحى السياسية والمذهبية فى العصر العباسى ، مما يجعل الفصل بين هذين الأمرين يبدو بعيدا ، فالاتجاهات المذهبية فى حقيقتها انما نتجت من منطلقات سياسية ، ولذا كان الفصل بين هاتين الناحيتين - فى رأينا - غير وارد .

وقد أثبتت هذه الدراسة أن الشعراء فى شكواهم قد استخدموا الأوزان ذات التفاعيل الطويلة التى تناسب نبرات الحزن والبكاء ، وبخاصة فى العصر الجاهلى والقرن الأول ، وقد مالوا الى بعض الأوزان القصيرة التفاعيل التى تتلاءم مع متطلبات الحياة العامة فى القرنين الثانى والثالث ، كما رأينا ذلك فى الشكوى من الفقر وسوء الحال فى هذه الفترة .

أما القوافى التى نظم عليها الشعراء فى شكواهم ، فقد كانت بعيدة الى حد كبير عن القوافى النفر الصعبة ، حيث غلبت السهلة منها على شعر الشكوى بجميع محاوره، وكان اختيارهم لأنواع القوافى يجسد حالاتهم النفسية الحزينة .

تلك هى أبرز النتائج التى توصل اليها البحث الى جانب بعض النتائج الأخرى التى تتعلق ببعض الجزئيات وهى كثيرة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

المصادر والمراجع

((المصادر والمراجع))

- القرآن الكريم ٠

- ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان / الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى دار العهد الجديد للطباعة - الطبعة الثانية ١٩٥٨م ٠

- أبو العتاهية أشعاره وأخباره /تحقيق الدكتورشكرى فيصل - مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٥م ٠

- أبو العتاهية حياته وشعره / للدكتورمحمود الدش- دار الكتاب العربى - القاهرة ١٣٨٨ هـ ٠

- أبو العتاهية شاعر الزهد والحكمة / الدكتور محمود فرج العقدة - دار العلوم - الرياض الطبعة الأولى ١٩٨٥م ٠

- اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى / الدكتور محمد مصطفى هداره ، المكتب الاسلامى الطبعة الأولى ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م ٠

- اتجاهات الشعر فى العصر الأموى / الدكتور صلاح الدين الهادى ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ٠

- اتجاهات النقد الأدبى فى القرن الخامس الهجرى / للدكتور منصور عبد الرحمن ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٣٩٧ هـ ٠

- اتجاهات الهجاء فى القرن الثالث الهجرى/قحطان رشيد التميمى - دار المسيرة - بيروت الطبعة الأولى ٠

- أحسن ماسمعت / للثعالبى عبد الملك بن محمد أبو منصور (ت ٤٢٩ هـ) مطبعة الجمهور - الطبعة الأولى ١٣٢٤ هـ .

- أحكام السجن ومعاملة السجناء فى الاسلام للدكتور / حسن أبو غدة - مكتبة المنار - الكويت الطبعة الاولى .

- الاخبار الطوال / للدينورى ، مطبعة السعادة القاهرة ١٣٣٠هـ .

- الادارة الاسلامية / محمد كرد على مطبعة مصر - الطبعة الاولى .

- أدب السياسة فى العصر الأموى / الدكتور أحمد الحوفى - دار القلم - بيروت ١٣٨٤هـ .

- أدب الشيعة الى نهاية القرن الثانى الهجرى/الدكتور عبد الحسيب طه حميده - مطبعة السعادة بمصر - الطبعة الثانية ١٩٦٨م .

- الأدب فى ظل بنى بويه / للدكتور محمود الزهيرى ، مطبعة الأمانة بمصر ١٩٤٩م .

- أدب المعتزلة حتى نهاية القرن الرابع الهجرى/للدكتور عبد الحكيم بلبع - دار نهضة مصر، الطبعة الثالثة ١٩٧٩م .

- أدب اليمن فى القرنين الاول والثانى / الدكتور أحمد السومحى ، المطبعة العربية جدة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م .

- الأديب والالتزام / الدكتور نورى القيسى دار الحرية - بغداد ١٩٧٩ م .

- أسد الغابة فى معرفة الصحابة / لابن الأثير / تحقيق محمد ابراهيم البنا وآخرين - طبعة دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .

- الأسر والسجن فى شعر العرب تاريخ ودراسة / للدكتور أحمد مختار البزرة- مؤسسة علوم القرآن ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ .

- أسس النقد الأدبى عند العرب / الدكتور أحمد بدوى - دار نهضة مصر للطبع والنشر الطبعة الأولى .

- الأسلوب / أحمد الشايب - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة السابعة ١٩٧٦م .

- أسلوب الشرط بين النحويين والبلاغيين / الدكتور فتحى بيومى حمودة - دار البيان العربى - جدة ١٤٠٦ هـ .

- الأشباه والنظائر / للخالديين،تحقيق الدكتور السيد محمد يوسف مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٦٥م .

- الاشتقاق / لابن دريد - تحقيق عبد السلام هارون - مكتبة الخانجى ، القاهرة ١٣٧٨ هـ .

- أشعار أبى على البصير / جمع وتحقيق يونس أحمد السامرائى ، مجلة المورد م ١ ، ع ٣ - ٤ : بغداد ١٣٩٢ هـ ، ١٩٧٢ م .

- أشعار الامير عبد الله بن المعتز / تحقيق الدكتور محمد بديع شريف - دار المعارف بمصر ١٩٧٨ م .

- أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق / لأبى بكر الصولى ، بعناية هيورث دن ، دار المسيرة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٩ م .

- أشعار اللصوص وأخبارهم ، جمع وتحقيق عبد المعين الملوحى - منشورات دار أسامة دمشق الطبعة الأولى .

- أشعار النساء / للمرزباني ، تحقيق الدكتور سامي مكي العاني وهلال ناجي ، دار الرسالة للطباعة ، بغداد ١٩٧٦م .

- الاصابة في تمييز الصحابة / لابن حجر العسقلاني وبهامشه الاستيعاب / لابن عبد البر ، تحقيق الدكتور طه محمد الزيني - مكتبة الكليات الأزهرية الطبعة الاولى ١٩٧٠ م .

- الاصمعيات / تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون - طبعة دار المعارف - الطبعة الخامسة .

- الأصول الفنية للأدب / عبد الحميد حسن، مطبعة العلوم ١٩٤٩ م . القاهرة .

- أصول النقد الادبي / لأحمد الشايب ، طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٣ م .

- الأعلام / لخير الدين الزركلي - دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الخامسة ١٩٨٠ م .

- أعلام النساء / عمر رضا كحالة - مؤسسة الرسالة ١٩٧٣م .

- الأغاني / لأبي الفرج الاصفهاني طبعة دار الكتب المصرية ، والأجزاء ١٣ ، ٢٠ (طبعة بولاق) والأجزاء ٩ ، ٢٣ (طبعة دار الثقافة) .

- الاكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير / لأبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني - طبعة دار الحرية - بغداد ١٩٧٧ م .

- الأمالي / لأبي علي القالي البغدادي - دار الكتاب العربي بيروت - مصور عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م .

- أمالى الزجاجى / لأبى القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجى - تحقيق عبد السلام هارون - المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر ، القاهرة ط (١) ١٣٨٢ هـ ٠

- الأمالى الشجرية / لهبة الله على بن حمزة المعروف بابن الشجرى ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ١٣٤٩ هـ ٠

- أمالى المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) للشريف المرتضى على بن الحسين ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم - طبعة الحلبى الأولى ١٣٧٣ هـ ٠

- أمالى اليزيدى / لأبى عبد الله محمد بن العباس اليزيدى - تحقيق الحبيب عبد الله بن احمد العلوى ، مكتبة المتنبى القاهرة ١٣٦٩ هـ ٠

- الامامة والسياسة / المنسوب لابن قتيبة ، تحقيق الدكتور طه محمد الزينى - طبعة الحلبى ١٩٦٧م ٠

- الأمثال العربية فى العصر الجاهلى - دراسة تحليلية / للدكتور محمد توفيق ، دار النفائس - بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٨٨م ٠

- الأمثال العربية القديمة / رودلف زلهايم ، ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب ، دار الأمانة ، بيروت ، ط (١) ١٩٧١ م ٠

- أنساب الأشراف / لأحمد بن يحى البلاذرى مكتبة المثنى بغداد - مصور عن طبعة القدس ١٩٣٨ م ٠

- الانسان والزمان فى الشعر الجاهلى / الدكتور حسنى عبد الجليل يوسف ، مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الأولى ١٩٨٨ م ٠

- الأوائل / لأبى هلال العسكرى ، تحقيق وليد قصاب ، دار العلوم - الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ ٠

- الأوراق / لأبى بكر الصولى - تحقيق هيورث دن - قسم أخبار الشعراء نسخة مصورة عن طبعة القاهرة - مطبعة الصاوى ١٩٣٤ م .

- أيام العرب فى الجاهلية / محمد أبو الفضل ابراهيم طبعة الحلبى - الطبعة الثالثة ١٩٤٢م .

- البداية والنهاية / لابن كثير - دار الفكر ١٣٩٨ هـ .

- البلاغة والأسلوبية / الدكتور محمد عبد المطلب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م .

- بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب / أبو المعالى محمود الألوسى (ت١٣٤٢هـ) عنى بشرحه محمد بهجة الأثرى ، مطبعة الرحمانية بمصر، الطبعة الثانية ١٩٢٤ م.

- بناء الصورة الفنية فى البيان العربى / الدكتور كامل حسن البصير مطبعة المجمع العلمى العراقى ١٩٨٧ م .

- بهجة المجالس وأنس المجالس / لابن عبد البر القرطبى - تحقيق محمد مرسى الخولى - دار الكتب العلمية ، بيروت - الطبعة الثانية ١٩٨٢ م .

- البيان والتبيين / للجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون - مكتبة الخانجى - القاهرة الطبعة الخامسة ١٩٨٥م .

- تاج العروس / للامام اللغوى السيد محمد مرتضى الزبيدى ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، طبعة الكويت ، ١٩٦٥ م . جزء (٦) .

- تاريخ ابن خلدون - دار الكتاب اللبنانى بيروت ١٩٨١ م .

- تاريخ الأدب العربى / كارل بروكلمان ـ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة . (جزء ١) .
- تاريخ بغداد / للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى ، مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٩٣١ م .
- تاريخ التمدن الاسلامى / تأليف جورجى زيدان ، دار الهلال (د . ت) .
- تاريخ الخلفاء / للسيوطى ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار نهضة مصر ١٩٧٥ م .
- تاريخ الرسل والملوك / لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة .
- تاريخ الشعر السياسى / أحمد الشايب دار القلم ـ بيروت ـ الطبعة الخامسة ١٩٧٦ م .
- تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى / نجيب البهبيتى ، دار الثقافة المغرب ، الدار البيضاء (د . ت) .
- تاريخ الدولة العربية / فلهوزن ـ ترجمة الدكتور محمد أبو ريدة ، لجنة التأليف والترجمة ـ القاهرة ١٩٦٨ م .
- تاريخ العرب مطول / فيليب حتى ـ دار الكشاف للنشر ـ بيروت ١٩٥٠م .
- تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم / للتنوخى ـ تحقيق الدكتور عبد الفتاح الحلو ـ طبعة جامعة الامام ١٤٠١ هـ .
- تاريخ نشأة علوم البلاغة العربية وأطوارها / الدكتور عبد العزيز عرفة ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة الطبعة الأولى ١٩٧٨م .

- تاريخ النقائض في الشعر العربي / أحمد الشايب مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثالثة ١٩٦٦ م .
- التراتيب الادارية / عبد الحي الكتاني - طبعة بيروت (د . ت) .
- التكرير بين المثير والتأثير / للدكتور عز الدين السيد ، دار الطباعة المحمدية القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٧٨ م .
- تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر / لابن رشد ، تحقيق محمد سليم سالم طبعة المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ١٣٩١ هـ .
- التمثيل والمحاضرة / للثعالبي - تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو - مطبعة الحلبي القاهرة ١٩٦١ م .
- التنبيه والاشراف / للمسعودي - طبعة دار التراث ، بيروت ١٩٦٨ م .
- تهذيب تاريخ ابن عساكر / لعبد القادر بدران ، طبعة دمشق ١٣٥١ هـ .
- تهذيب اللغة / لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ، بعناية مجموعة من المحققين ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٤ م .
- الثقافات الأجنبية في العصر العباسي وصداها في الأدب / الدكتور صالح آدم بيلو ، طبعة مكة الأولى ١٩٨٨ م .
- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب / لأبي منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - دار المعارف ١٣٨٤ هـ .
- الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي / الدكتور زهدي صبري الخواجا - دار الناصر للنشر والتوزيع الرياض - الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ .

- جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والاسلام / لأبى زيد القرشى - تحقيق الدكتور محمد على الهاشمى - طبعة جامعة الامام ١٩٨١ م ٠

- جمهرة أنساب العرب / لابن حزم ، تحقيق عبد السلام هارون - دار المعارف بمصر الطبعة الرابعة ٠

- جمهرة خطب العرب / جمع أحمد زكى صفوت مطبعة الحلبى ، الطبعة الثانية ١٩٦٢ م ٠

- جمهرة اللغة / لابن دريد أبى بكر محمد بن الحسن الأزدى البصرى ، مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع ، القاهرة ٠

- جوامع السيرة / لابن حزم - تحقيق الدكتور احسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسد دار المعارف بمصر (د ٠ ت) ٠

- الحالة الاجتماعية فىالعراق (رسالة ماجستير) اعداد مليحة رحمة الله - مركز البحث العلمى بجامعة أم القرى رقم ٨٨ رسائل ٠

- الحضارة الاسلامية / فون كريمر - ترجمة مصطفى بدر - مطبعة دار الفكر العربى ١٩٤٧ م ٠

- حضارة العرب / غوستاف لوبون،ترجمة عادل زعيتر ، مطبعة الحلبى مصر ط (٣) ١٩٥٦ م ٠

- الحضارة العربية الاسلامية / للدكتور على الخربوطلى ، مكتبة الخانجى ١٩٧٥ م ٠

- حماسة أبى تمام / تحقيق الدكتور عبد الله عسيلان ، طبعة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ١٤٠١ هـ .

- حماسة البحترى / بعناية لويس شيخو ، دار الكتاب العربى ، الطبعة الثانية ١٩٦٧م .

- الحماسة البصرية / للبصرى ، طبعة الهند ١٩٦٤ م والجزء الأول تحقيق الدكتور عادل جمال سليمان - طبعة المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، بمصر ١٩٧٨ م .

- حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء / لأبى محمد بن عبد الله ابن محمد الزوزنى ، تحقيق محمد جبار المعيبد - دار الحرية بغداد ١٩٧٨ م .

- الحنين الى الوطن فى الأدب العربى حتى نهاية العصر الأموى / محمد ابراهيم حور ، دار نهضة مصر (د . ت) .

- الحيوان / لأبى عمرو الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، طبعة الحلبى الثانية .

- الحور العين / لأبى سعيد نشوان الحميرى ، تحقيق كمال مصطفى ، مكتبة الخانجى ، القاهرة الطبعة الاولى ١٩٤٧ م .

- الحياة الأدبية فى البصرة الى نهاية القرن الثانى الهجرى / الدكتور أحمد كمال زكى دار المعارف ١٩٧١ م .

- حياة الحيوان الكبرى / لكمال الدين محمد بن موسى الدميرى - مطبعة مصطفى الحلبى بمصر ، الطبعة الخامسة ١٩٧٨ م .

- حياة الشعر فى الكوفة الى نهاية القرن الثانى للهجرة / الدكتور يوسف خليف دار الكتاب العربى - القاهرة ١٩٨٨م ٠

- الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية / الدكتور محمد غنيمى هلال ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الطبعة الثانية ٠

- الحياة العربية من الشعر الجاهلى / الدكتور أحمد الحوفى دار نهضة مصر للطبع والنشر - الطبعة الخامسة ١٩٧٢ م ٠

- الحياة والموت فى الشعر الجاهلى / الدكتور مصطفى عبد اللطيف جيا ووك دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٩٧٧ م سلسلة دراسات (١٢٣) ٠

- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب/لعبد القاهربن عمرالبغدادى، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط (٢) ١٩٧٩م٠

- دراسات فى الادب العربى / جوستاف فون جرنباوم - ترجمةاحسان عباس وآخرين - مكتبة الحياة بيروت ١٩٥٩م ٠

- دراسات فى الأدب العربى والتاريخ / محمد عبد الغنى حسن ، الدار القومية للطباعة والنشر بغداد (د ٠ ت) ٠

- دراسات فى حضارة الاسلام / تأليف هاملتون جب ، ترجمة الدكتور احسان عباس - دار العلم للملايين ، الطبعة الثانية ١٩٧٤م ٠

- دور الشعر فى معركة الدعوة الاسلامية أيام الرسول - صلى الله عليه وسلم - عبد الرحمن خليل ابراهيم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر ١٩٧١ م ٠

- دول الاسلام / للذهبى - تحقيق فهيم شلتوت ومحمد مصطفى ابراهيم - طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ م . (١ - ٢)

- الدولة الأموية فى الشرق بين عوامل البناء ومعاول الفناء / للدكتور محمد الطيب النجار دار العلوم للطباعة - القاهرة الطبعة الثانية ١٣٩٧ هـ .

- دولة بنى العباس / شاكر مصطفى ، وكالة المطبوعات - الكويت الطبعة الاولى ١٩٧٣ م .

- الدولة العباسية قيامها وسقوطها ، حسن خليفة ، المكتبة الحديثة القاهرة الطبعة الاولى ١٩٣١ م .

- الدولة فى عهد الرسول / الدكتور صالح أحمد العلى ، مطبعة المجمع العلمى العراقى ١٤٠٩ هـ .

- الديارات / لأبى الحسن على بن محمد الشابشتى ، تحقيق كوركيس عواد - دار الرائد العربى بيروت - الطبعة الثانية ١٩٨٦ م .

- ديوان ابراهيم الصولى / اعداد عبد العزيز الميمنى دار الكتب العلمية بيروت (ضمن كتاب الطرائف الادبية).

- ديوان ابن الرومى ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب .تحقيق د.حسين نصار.

- ديوان أبى الاسود الدؤلى - تحقيق الشيخ حسن آل ياسين - مطبعة المعارف بغداد الطبعة الثانية ١٣٨٤ هـ .

- ديوان أبى دلامة الأسدى ، اعداد الدكتور رشدى على حسن - مؤسسة الرسالة - الطبعة الاولى ١٤٠٦ هـ .

- ديوان أبى الشيص وأخباره / أعده عبد الله الجبورى ، المكتب الاسلامى الطبعة الاولى ١٤٠٤ هـ ٠

- ديوان أبى العتاهية / طبعة دار صادر ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م ٠

- ديوان أبى نواس / تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى، طبعة القاهرة ١٩٥٣م٠

- ديوان أحيحة بن الجلاح ، تحقيق الدكتور حسن باجودة - طبعة نادى الطائف الادبى ١٣٩٩ هـ ٠

- ديوان الأعشى الكبير / تحقيق الدكتور محمد محمد حسين / مؤسسة الرسالة ، الطبعة السابعة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م ٠

- ديوان امرئ القيس / تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف الطبعة الرابعة ٠

- ديوان أمية بن أبى الصلت / جمع وتحقيق عبد الحفيظ السطلى ، طبعة دمشق ١٩٧٤ م ٠

- ديوان أوس بن حجر ، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ، دار صادر بيروت - الطبعة الثالثة ١٩٧٩ م ٠

- ديوان الباهلى (محمد بن حازم) أعده محمد خير البقاعى ، دار قتيبة للطباعة والنشر ، دمشق ١٤٠١ هـ ٠

- ديوان البحترى / تحقيق حسن كامل الصيرفى دار المعارف ، بمصر الطبعة الثانية ٠

- ديوان بشار / تحقيق محمد الطاهر بن عاشور ، الشركة التونسية ، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٧٦م ٠

- ديوان تأبط شرا وأخباره / جمع وتحقيق على ذو الفقار شاكر - دار الغرب الاسلامى الطبعة الاولى ١٩٨٤ م ٠

- ديوان جرير / تحقيق الدكتور نعمان طه، طبعة دار المعارف بمصر - الطبعة الاولى ١٩٦٩ م ٠

- ديوان جميل / جمع وتحقيق الدكتور حسين نصار دار مصر للطباعة (د ٠ ت)٠

- ديوان الحارث بن حلزة اليشكرى / تحقيق هاشم الطعان ، مطبعة الارشاد بغداد ١٩٦٩ م ٠

- ديوان حسان بن ثابت الانصارى / تحقيق الدكتور سيد حنفى حسنين ،دار المعارف ١٩٨٣ م ٠

- ديوان الحسين بن مطير الأسدى / جمع وتحقيق الدكتور محسن غياض ، جامعة بغداد ، دار الحرية للطباعة ١٣٩١ هـ ٠

- ديوان الحطيئة / تحقيق الدكتور نعمان طه، مكتبة الخانجى - الطبعة الاولى ١٤٠٧ هـ ٠

- ديوان حميد بن ثور الهلالى / تحقيق عبد العزيز الميمنى - مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧١ هـ ٠

- ديوان الخريمى / تحقيق على جواد الطاهر ومحمد المعيبد ،دار الكتاب الجديد بيروت الطبعة الاولى ١٩٧١ م ٠

- ديوان الخنساء / دراسة وتحقيق الدكتور ابراهيم عوضين ، مطبعة السعادة الطبعة الاولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م ٠

- ديوان الخوارج / جمع وتحقيق الدكتور نايف معروف ، دار المسيرة بيروت الطبعة الاولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م ٠

- ديوان دريد بن الصمة الجشمى / تحقيق محمد خير البقاعى ،دار قتيبة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ٠

- ديوان ديك الجن / تحقيق أحمد مطلوب وعبد الله الجبورى، دار الثقافة بيروت ١٩٨١ م ٠

- ديوان ذى الأصبع العدوانى / تحقيق عبد الوهاب العدوانى ، ومحمد الديلمى ، الموصل ١٩٧٣ م ٠

- ديوان ذى الرمة ، طبعة المكتب الاسلامى الطبعة الثانية ١٣٨٤ هـ ٠

- ديوان الراعى النميرى - جمع وتحقيق داينهرت فايبرت - دار النشر فرانتس - بيروت ١٤٠١ هـ ٠

- ديوان سحيم عبد بنى الحسحاس - تحقيق عبد العزيز الميمنى - طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م ٠

- ديوان سلامة بن جندل - تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة - المكتبة العربية حلب الطبعة الاولى ١٩٦٨ م ٠

- ديوان شعر الامام أبى بكر بن دريد الأزدى / اعتنى بجمعه وتحقيقه محمد بدر الدين العلوى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٦٥ هـ ١٩٤٦ م ٠

- ديوان شعر عدى بن الرقاع العاملى / تحقيق الدكتور نورى حمودى القيس ، والدكتور حاتم الضامن ، مطبوعات المجمع العلمى العراقى ١٤٠٧ هـ ٠

- ديوان شعر الموالى فى العصر الأموى / جمع وتحقيق محمود المقداد (رسالة ماجستير مخطوط) برقم ٦٢٥ قسم المخطوطات المكتبة المركزية جامعة أم القرى .
- ديوان الشماخ بن ضرار الذبيانى / تحقيق صلاح الدين الهادى ، دار المعارف ١٩٧٧ م .
- ديوان طرفة بن العبد - تحقيق لطفى الصقال ودرية الخطيب - طبعة مجمع اللغة العربية دمشق ١٩٧٥ م .
- ديوان الطرماح / تحقيق الدكتور عزة حسن - مطبوعات مديرية احياء التراث القديم - دمشق ١٩٦٨ م .
- ديوان العباس بن الاحنف / تحقيق الدكتورة / عاتكة الخزرجي ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ١٩٥٤ م .
- ديوان عبد الله بن الزبير الاسدى / جمع وتحقيق الدكتور يحى الجبورى - طبعة وزارة الاعلام - العراق ١٩٧٤ م .
- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات / تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم - دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٨٠ م .
- ديوان عبيد بن الابرص / تحقيق الدكتور حسين نصار - مطبعة الحلبى القاهرة الطبعة الاولى ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م .
- ديوان عدى بن زيد العبادى / تحقيق محمد جبار المعيبد ، وزارة الثقافة والارشاد بغداد ١٩٦٥ م .
- ديوان العرجى / تحقيق خضر الطائى ورشيد العبيدى - طبعة بغداد ١٩٥٦م .

- ديوان عروة بن الورد / تحقيق عبد المعين الملوحى ، وزارة الثقافة والارشاد القومى ـ دمشق ١٩٦٦ م .

- ديوان علقمة الفحل ـ تحقيق لطفى الصقال ودرية الخطيب ـ دار الكتاب العربى حلب الطبعة الاولى ١٩٦٩ م .

- ديوان عمرو بن قميئة / تحقيق حسن كامل الصيرفى،معهد المخطوطات العربية ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م .

- ديوان عنترة / تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى،مكتبة القاهرة ـ الطبعة الاولى ١٩٦٩ م .

- ديوان الفرزدق / دار صادر بيروت ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م .

- ديوان القتال الكلابى / تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار الثقافة بيروت ١٩٨٩ م .

- ديوان القطامى ـ تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائى وأحمد مطلوب ـ دار الثقافة بيروت ـ الطبعة الاولى ١٩٦٠ م .

- ديوان كثير عزة / تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار الثقافة بيروت ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م .

- ديوان كعب بن مالك الانصارى / دراسة وتحقيق سامى مكى العانى ـ مكتبة النهضة بغداد الطبعة الاولى ١٣٨٦ هـ .

- ديوان لقيط بن يعمر / تحقيق الدكتور عبد المعيد خان ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٧ م .

- ديوان مجنون ليلى / جمع وتحقيق عبد الستار فراج ، مكتبة مصر(د ٠ت) ٠
- ديوان مسكين الدارمى / جمع وتحقيق خليل ابراهيم العطية ، وعبد الله الجبورى دار البصرى بغداد (د ٠ ت) ٠
- ديوان المفضليات بشرح ابن الانبارى / تحقيق كارلوس لايل – مطبعة الآباء اليسوعيين ١٩٢٠ م ٠
- ديوان منصور النمرى / جمع وتحقيق الطيب العشاش ، مجمع اللغة العربية دمشق ١٤٠١ هـ ٠
- ديوان النابغة الذبيانى / تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ،دار المعارف الطبعة الرابعة ٠
- ديوان الهذليين / الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٥ م ٠
- ديوان يزيد بن مفرغ الحميرى / جمع وتحقيق الدكتور عبد القدوس ابو صالح ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م ٠
- ذيل الامالى والنوادر / للقالى،دار الكتاب العربى – بيروت (طبعة مصورة عن دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م) ٠
- ربيع الأبرار ونصوص الاخيار / للامام محمود بن عمر الزمخشرى / مطبعة العانى بغداد (د ٠ ت) ٠ تحقيق د٠ سليم النعيمى ٠
- رحلة الشعر من الاموية الى العباسية / الدكتور مصطفى الشكعة ، عالم الكتب – بيروت الطبعة الثالثة ١٩٧٩ م ٠
- رسائل الجاحظ / تحقيق عبد السلام هارون،مكتبة الخانجى – القاهرة الطبعة الاولى ١٣٩٩ هـ ٠

- الرسالة الشافية فى الاعجاز / لعبد القاهر الجرجانى ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجى الطبعة الثانية ١٩٨٩ م .

- الزمان والمكان وأثرهما فى حياة الشاعر الجاهلى وشعره / للدكتور صلاح عبد الحافظ - دار المعارف ١٩٨٢ م .

- الزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام/للدكتور عبد الاله الصائغ - وزارة الثقافة والاعلام - العراق ١٩٨٢ م .

- الزندقة والزنادقة / عاطف شكرى أبو عوض، دار الفكر - عمان الأردن - الطبعة الاولى .

- زهر الاداب وثمر الألباب/لأبى اسحاق ابراهيم الحصرى القيروانى - تحقيق على محمد البجاوى ، طبعة الحلبى - الطبعة الثانية ١٩٦٩م .

- الزينة فى المصطلحات الاسلامية العربية / لأبى حاتم احمد بن حمدان الرازى - تحقيق حسين بن فيض الله الهمدانى ، مطبعة الرسالة . القاهرة ١٩٥٦ م .

- سمط اللآلى / لأبى عبيد البكرى الأونبى ، تحقيق عبد العزيز الميمنى ، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ .

- سنن الحافظ أبى عبد الله محمد بن ماجه ، تحقيق فؤاد محمد عبد الباقى .

- سنن الترمذى / تحقيق وشرح احمد محمد شاكر ، طبعة الحلبى ، الطبعة الثانية ١٩٧٨ م .

- سير أعلام النبلاء / للذهبى - تحقيق شعيب الأرنؤوط وغيره - مؤسسة الرسالة - الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ .

- السيرة النبوية/لابن هشام وبهامشه الروض الأنف/للسهيلى،تقديم طه عبد الرؤوف سعد،مكتبة شقرون القاهرة ١٣٩١ هـ .

- شاعرات العرب / جمع وتحقيق عبد البديع صقر، المكتب الاسلامى - الطبعة الاولى ١٩٨٧ م .

- شاعر يرثى نفسه / الدكتور محمد عبد المنعم عبد الكريم مطبعة الأمانة - الطبعة الاولى ١٤٠٨ هـ . القاهرة .

- الشباب والشيب فى الشعر العربى حتى نهاية العصر العباسى / الدكتور عبد الرحمن محمد هيبه،الهيئة المصرية العامة للكتاب - فرع الاسكندرية . (د . ت) .

- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب / لابن العماد الحنبلى ، دار الآفاق الجديدة - بيروت (د . ت) .

- شرح أبيات مغنى اللبيب / للبغدادى،تحقيق عبد العزيز رباح وأحمد يوسف دقاق،دار المأمون للتراث دمشق ١٩٧٣ م .

- شرح أشعار الهذليين / تحقيق عبد الستار فراج ومحمود شاكر ، مطبعة المدنى القاهرة (د . ت) .

- شرح ديوان امرىء القيس ، تحقيق الشيخ ابن أبى شنب - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر ١٣٩٤ هـ .

- شرح القصائد العشر / للخطيب التبريزى،تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد - مكتبة صبيح القاهرة - الطبعة الثانية ١٣٨٤ هـ .

- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، لابن الانبارى ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف الطبعة الرابعة ١٤٠٠ هـ .

- شرح المفضليات/للتبريزى،تحقيق على محمد البجاوى - دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧٧ م .

- شعراء بصريون من القرن الثالث الهجرى ، محمد جبار المعيبد - مطبعة الارشاد - بغداد ١٩٧٧ م .

- شعراء بغداد من تأسيسها حتى اليوم / على الخاقانى - مطبعة أسعد - بغداد ١٩٦٢ م .

- شعراء بنى قشير فى الجاهلية والاسلام حتى آخر العصر الأموى / جمع وتحقيق ودراسة الدكتور عبد العزيز الفيصل - طبعة الحلبى ١٣٩٨ هـ .

- الشعراء السود وخصائصهم فى الشعر العربى/للدكتور عبده بدوى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨ م .

- شعراء صدر الاسلام وتمثلهم للقيم الاجتماعية/للدكتورة وفاء فهمى السنديونى - دار العلوم الرياض الطبعة الاولى ١٩٨٣ م .

- الشعراء الصعاليك فى العصر الأموى / للدكتور حسين عطوان ،دار المعارف بمصر ١٩٧٠ م .

- الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى/الدكتور يوسف خليف - دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة ١٩٧٨ م .

- شعراء عباسيون / غوستاف فون غرنباوم/ترجمة الدكتور محمد يوسف نجم، منشورات مكتبة الحياة بيروت ١٩٥٩ م .

- الشعراء الكتاب فى العراق فى القرن الثالث الهجرى / حسين صبيح العلاق - مكتبة التربية - بغداد الطبعة الاولى ١٩٧٥ م .

- الشعراء المحدثون فى العصر العباسى / الدكتور العربى حسن درويش، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ م .

- شعراء مقلون / الدكتور حاتم صالح الضامن،مكتبة النهضة المصرية الطبعة الاولى ١٤٠٧ هـ .

- شعر الأحوص الأنصارى / جمع وتحقيق عادل سليمان جمال - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٠ هـ .

- شعر الاخطل / تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة ، دار الآفاق الجديدة بيروت ط (٢) ١٩٧٩ م .

- الشعر الأموى فى خراسان والبلاد الايرانية/للدكتور الهادى حمودة الغزى - الدار التونسية للنشر ١٩٧٦ م .

- شعر بنى تميم فى العصر الجاهلى - جمع وتحقيق الدكتور عبد الحميد محمود المعينى - منشورات نادى القصيم الادبى ١٩٨٢ م .

- الشعر الجاهلى / بطرس البستانى - دار المعلم بطرس البستانى ، ١٩٦٥ م .

- شعر الحارث بن خالد المخزومى / تحقيق الدكتور يحى الجبورى - مطبعة النعمان النجف - الطبعة الاولى ١٩٧٢ م .

- شعر الخوارج / جمع وتقديم الدكتور احسان عباس - دار الثقافة - بيروت الطبعة الثانية .

- شعر دعبل بن على الخزاعى / جمع عبد الكريم الأشتر - طبعة دمشق الثانية ١٤٠٣ هـ .

- شعر زهير بن أبى سلمى/تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة - دار الآفاق الجديدة بيروت - الطبعة الثالثة ١٤٠٠ هـ .

- شعر الصراع السياسى فى القرن الثانى الهجرى / الدكتور ابراهيم الخواجة الكويت الطبعة الاولى ١٩٨٤ م .

- شعر الصعاليك منهجه وخصائصه / الدكتور عبد الحليم حفنى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ م .

- شعر طى وأخبارها فى الجاهلية والاسلام/جمع وتحقيق الدكتورة وفاء فهمى السنديونى،دار العلوم - الرياض الطبعة الاولى ١٤٠٣ هـ .

- الشعر العربى فى خراسان فى العصر الأموى/الدكتور حسين عطوان - مكتبة المحتسب عمان الطبعة الاولى .

- الشعر العربى فى العراق وبلاد العجم فى العصر السلجوقى / للدكتور على جواد الطاهر - دار الرائد العربى - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٨٥ م .

- شعر العقيدة فى عصر صدر الاسلام حتى سنة ٢٣هـ / أيهم عباس حمودى القيسى - مكتبة النهضة العربية الطبعة الاولى ١٤٠٦ هـ .

- شعر عمرو بن أحمر الباهلى / جمع وتحقيق الدكتور حسين عطوان - مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق (د . ت) .

- شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدى / تحقيق مطاع الطرابيشى - طبعة دمشق ١٩٧٤ م ٠

- الشعر فى بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجرى / للدكتور أحمد عبد الستار الجوارى - طبعة وزارة المعارف العراقية ١٩٥٦ م ٠

- الشعر فى ظلال المناذرة والغساسنة/للدكتور عمر شرف الدين - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧ م ٠

- شعر الكميت بن زيد الأسدى / جمع وتقديم الدكتور داود سلوم - مكتبة الاندلس بغداد ٦٩٦٩ م ٠

- الشعر فى الكوفة فى القرن الثالث الهجرى (رسالة ماجستير) مقدمة الى جامعة بغداد ١٩٧٣ م اعداد حسين الأعرجى ٠

- شعر النابغة الجعدى - طبع المكتب الاسلامى - بدمشق - الطبعة الاولى ١٣٨٤ هـ ٠

- شعر النمر بن تولب / جمع الدكتور نورى القيسى - مطبعة المعارف بغداد ١٩٦٩ م ٠

- شعر هدبة بن الخشرم العذرى / تحقيق الدكتور يحى الجبورى ٠ دارالقلم ، الكويت الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ ٠

- شعر همدان وأخبارها فى الجاهلية والاسلام/جمع وتحقيق الدكتور حسن عيسى أبو ياسين،دار العلوم - الرياض الطبعة الاولى ١٩٨٣ م ٠

- الشعر وأيام العرب فى العصر الجاهلى/للدكتور عفيف عبد الرحمن - دار الاندلس بيروت الطبعة الاولى ٠

- الشعر والشعراء لابن قتيبة - تحقيق احمد محمد شاكر - دار المعارف بمصر (د . ت) .
- الشعروالشعراء فى البصرة حتى نهاية القرن الثالث الهجرى (رسالة ماجستير) مقدمة الى جامعة بغداد ١٩٧٢ م اعداد أحمد جاسم النجدى .
- الشعوبية حركة مضادة للاسلام والأمة العربية / الدكتور عبد الله سلوم السامرائى طبعة بغداد ١٩٨٤ م .
- الشعوبية وأثرها الاجتماعى والسياسى فى الحياة الاسلامية فى العصر العباسى الأول / الدكتورة زاهية قدورة - دار الكتاب اللبنانى بيروت الطبعة الاولى ١٩٧٢ م .
- الصاحبى / لأبى الحسن بن فارس- تحقيق السيد احمد صقر - طبعة الحلبى ١٩٧٧ م .
- صبح الأعشى فى صناعة الانشاء / للقلقشندى،طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر والترجمة - الطبعة الاولى .
- الصحاح / للجوهرى ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، طبعة القاهرة الطبعة الثانية ١٩٨٢ م .
- الصداقة والصديق / لأبى حيان التوحيدى،شرح على متولى صلاح - المطبعة النموذجية بمصر (د . ت) .
- الصراع بين الموالى والعرب / الدكتور محمد بديع شريف - نشر دارالكتاب العربى بمصر ١٩٥٤ م .

- صلات بين العرب والفرس والترك / الدكتور حسين مجيب المصرى - مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٧١ م .

- الصورة الأدبية / للدكتور مصطفى ناصف، دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٩٨٣ م .

- الصورة الشعرية / سى دى لويس، ترجمة الدكتور أحمد نصيف الجنابى وآخرين، منشورات وزارة الثقافة والاعلام بغداد ١٩٨٠م .

- الصورة الفنية فى شعر أبى تمام / للدكتور عبد القادر الرباعى ، جامعة اليرموك ، الدراسات الأدبية واللغوية ١٩٨٠ م .

- الصورة الفنية فى شعر الأعشى الكبير / الدكتور عبد الاله الصائغ رسالة دكتوراه (كلية الآداب) جامعة بغداد ١٩٨٤ م .

- الصورة الفنية فى الشعر الجاهلى فى ضوء النقد الحديث / للدكتور نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الاقصى ، عمان ، الطبعة الثانية ١٩٨٢ م .

- الصورة الفنية فى شعر الشريف الرضى / الدكتور عبد الاله الصايغ دار الآفاق العربية ١٩٨٥ م .

- الصورة الفنية فى الشعر العربى حتى آخر القرن الثانى الهجرى / للدكتور على البطل ، دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الاولى ١٩٨٠ م .

- الصورة الفنية فى النقد الشعرى / للدكتور عبد القادر الرباعى ، دار العلوم للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى ١٩٨٤ م .

- الصورة فى شعر بشار بن برد / للدكتور عبد الفتاح صالح نافع ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ١٩٨٣ م ٠

- الصورة والبناء الشعرى / للدكتور محمد حسن عبد الله ، دار المعارف مصر ١٩٨١ م ٠

- ضحى الاسلام / أحمد أمين ، مطبعة الاعتماد - القاهرة ، الطبعة الاولى ١٣٥١ هـ ٠

- ضياء السالك الى أوضح المسالك / محمد عبد العزيز النجار - مطبعة السعادة القاهرة - الطبعة الرابعة ١٩٧٣ م ٠

- طبقات ابن المعتز / تحقيق عبد الستار احمد فراج - دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة ٠

- طبقات فحول الشعراء / لابن سلام - تحقيق محمود شاكر - مطبعة المدنى ، القاهرة الطبعة الثانية ٠

- الطبقات الكبرى / لابن سعد ، طبعة ليدن ١٩٠٩ م ٠

- الطرائف الأدبية / تصحيح عبد العزيز الميمنى ، دار الكتب العلمية ، بيروت (د ٠ ت) ٠

- ظاهرة الشكوى فى شعر هذيل ، اعداد بتول حمدى البستانى(رسالة ماجستير مخطوط) مقدمة الى كلية الآداب ، جامعة الموصل العراق سنة ١٩٨٧ م ٠

- العامل السياسى فى أدب العصر العباسى الاول / احمد الشايب - مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٥٠ م ٠

- العتابى حياته وما تبقى من شعره / الدكتور ناصر حلاوى - دار الطباعة الحديثة البصرة (د . ت) .

- عدى بن زيد الشاعر المبتكر - محمد على الهاشمى، المكتبة العربية بحلب - الطبعة الاولى ١٩٦٧ م .

- العربية دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب / يوهانفك - ترجمة رمضان عبد التواب - مكتبة الخانجى القاهرة ١٩٨٠ م .

- العروض تهذيبه واعادة تدوينه / للشيخ جلال الحنفى ، مطبعة العانى ، بغداد ١٩٧٨ م .

- العصبية القبلية وأثرها فى الشعر الاموى / الدكتور احسان النص - دار الفكر - الطبعة الثانية ١٩٧٣ م -

- العصر الاسلامى / الدكتور شوقى ضيف دار المعارف بمصر ١٩٦٣ م .

- العصر الجاهلى / الدكتور شوقى ضيف دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة .

- العصر العباسى الاول / عبد العزيز الدورى، نشر دار المعلمين العالية - بغداد ١٩٤٥ م .

- العقد الفريد / لابن عبد ربه الاندلسى ، شرح أحمد أمين وآخرين ، دار الكتاب العربى ، بيروت ١٩٨٢ م .

- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده / لابن رشيق القيروانى - تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، دار الجيل - بيروت الطبعة الخامسة ١٤٠١ هـ .

- عناصر الابداع الفنى فى شعر الأعشى / عباس بيومى عجلان - مؤسسة شباب الجامعة - الاسكندرية ١٩٨٥ م ٠

- العواصم من القواصم / للقاضى أبى بكر بن العربى - تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية - الطبعة الخامسة ١٣٩٩ هـ ٠

- عيار الشعر / لابن طباطبا العلوى - تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام، مطبعة التقدم - الاسكندرية - الطبعة الثالثة ٠

- عيون الاخبار / لابن قتيبة / دار الكتاب العربى - طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م ٠

- الغربة فى الشعر الجاهلى / عبد الرزاق الخشروم ، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ١٩٨٢ م ٠

- الغربة المكانية فى الشعر العربى / بحث مقدم من الدكتور عبده بدوى ، ونشر فى مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس عشر العدد الاول ٠

- الفاضل / للمبرد ٠ تحقيق عبد العزيز الميمنى، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٥ م ٠

- فتوح البلدان / للبلاذرى / بعناية الدكتور صلاح الدين المنجد - مكتبة النهضة المصرية (د ٠ ت) ٠

- الفرزدق / دراسة للدكتور شاكر الفحام، دار الفكر - الطبعة الاولى ١٩٧٧ م ٠

- الفرق الاسلامية فى الشعر الاموى / الدكتور النعمان القاضى - دار المعارف ١٩٧٠ م ٠

- الفرق بين الفرق / لعبد القاهر البغدادى، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد - مكتبة صبيح بمصر - الطبعة الاولى .

- الفصول والغايات / لأبى العلاء المعرى ، تحقيق محمود حسن زناتى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ م .

- فن الرجز فى العصر العباسى / الدكتورة رجاء السيد - منشأة المعارف، الاسكندرية الطبعة الاولى .

- الفهرست / لابن النديم - دار المعرفة - بيروت ١٣٩٨ هـ .

- فى تاريخ الادب الجاهلى / للدكتور على الجندى، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٨٥ م .

- فى التركيب اللغوى للشعر العراقى المعاصر / الدكتور مالك المطلبى - دار الرشيد للنشر بغداد ١٩٨١ م .

- فى الشعر السياسى / عباس الجرارى، طبعة دار الثقافة - المغرب - الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ .

- فى الشعر العباسى الرؤية والفن / الدكتور عز الدين اسماعيل - دار المعارف ١٩٨٠ م .

- فى محيط النقد الادبى / الدكتور ابراهيم ابو الخشب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ م .

- فيض الخاطر / أحمد أمين - الطبعة الثانية ١٩٥٨ م .

- قضايا النقد الادبى بين النظرية والتطبيق / الدكتور طه عبد الرحيم عبد البر، دار التأليف ، القاهرة ، الطبعة الاولى ١٩٨٣ م .

- قضية الزمن فى الشعر العربى ، الشباب والمشيب / الدكتورة فاطمة محجوب ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ م .

- قضية الشعر الجديد / الدكتور محمد النويهى ، دار الفكر ، الطبعة الثانية .

- الكامل فى التاريخ / لابن الاثير / تحقيق الدكتور محمد يوسف الدقاق - دار الكتب العلمية بيروت - الطبعة الاولى ١٩٨٧ م .

- الكامل / لأبى العباس المبرد - تحقيق محمد احمد الدالى - مؤسسة الرسالة - الطبعة الاولى ١٩٨٦ م .

- كتاب الازهية فى علم الحروف / على بن محمد النحوى الهروى ، تحقيق عبد المعين الملوحى ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٠٢ هـ .

- كتاب الامثال / لابى عبيد القاسم بن سلام ، تحقيق الدكتور عبد المجيد قطامش طبعة ، مركز البحث العلمى واحياء التراث الاسلامى - جامعة الملك عبد العزيز الطبعة الاولى ١٩٨٠ م .

- كتاب جمهرة الامثال / لابى هلال العسكرى ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، وعبد المجيد قطامش ، المؤسسة العربية الحديثة القاهرة ، الطبعة الاولى ١٩٦٤ م .

- كتاب سيبويه / تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجى - الطبعة الثانية ١٩٧٧ م .

- كشاف اصطلاحات الفنون / للتهانوى ، تحقيق الدكتور لطفى عبد البديع ، وزارة الثقافة والارشاد القومى ، مصر ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م .

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل فى وجوه التأويل - تأليف أبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى، طبعة الحلبى الاخيرة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .

- اللطائف والظرائف / لأبى نصر المقدسى - المطبعة الميمنية بمصر ١٣٢٤ هـ .

- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر / لضياء الدين بن الاثير ، تقديم الدكتور احمد الحوفى والدكتور بدوى طبانة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الطبعة الثانية .

- مجلة كلية الآداب جامعة بغداد العدد السادس ١٩٦٣ م .

- مجمع الامثال / للميدانى - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - مطبعة الحلبى القاهرة - ١٩٧٨ م .

- مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة / جمع وتوثيق محمد حميد الله، دار النفائس - بيروت - الطبعة الخامسة ١٩٨٥ م .

- المحاسن والمساوئ / للبيهقى ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، مكتبة نهضة مصر (د . ت) .

- محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء / للراغب الاصفهانى - مطبعة دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٦١ م .

- المحبّر / لابن حبيب أبو جعفر محمد بن حبيب، بعناية الدكتورة ايلزة ليختن شتيتر منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت (د . ت) .

- مختار الأغانى فى الاخبار والتهانى / لابن منظور محمد بن مكرم ، تحقيق مجموعة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ م ٠

- مختارات شعراء العرب / لابن الشجرى - تحقيق على محمد البجاوى ، دار نهضة مصر ١٩٧٥ م ٠

- المخصص / لابن سيده ، طبعة بولاق ١٣١٨ هـ ٠

- المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها / عبد الله الطيب ، دار الفكر الطبعة الثانية ١٩٧٠ م ٠

- مروان بن أبى حفصة وشعره / قحطان رشيد التميمى - مطبعة النعمان النجف - العراق الطبعة الاولى ١٩٦٦ م ٠

- مروج الذهب ومعادن الجوهر / للمسعودى،شرح محمد محى الدين عبد الحميد، دار المعرفة بيروت ١٩٨٢ م ٠

- مسند الامام أحمد بن حنبل ، وبهامشه منتخب كنز العمال فى سنن الاقوال والافعال - المكتب الاسلامى ط (٢) ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م ٠

- مصارع العشاق / لابى محمد جعفر بن أحمد القارئ - طبعة دار صادر - بيروت (د ٠ ت) ٠

- المصون فى الادب / لابى احمد الحسن عبد الله العسكرى - تحقيق عبد السلام هارون مكتبة الخانجى - القاهرة الطبعة الثانية ١٩٨٢ م ٠

- مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية / الدكتور عبد الحليم حفنى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧ م ٠

- المعارف / لابن قتيبة - تحقيق الدكتور ثروت عكاشة - دار المعارف - الطبعة الزابعة .

- معالم الشعر وأعلامه فى العصر العباسى الاول / الدكتور نبيه حجاب - دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية ١٩٧٣ م .

- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص / للشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسى ، المطبعة المصرية ١٣١٦ هـ .

- معجم الادباء / لياقوت الحموى - مطبوعات دار المأمون - الطبعة الاخيرة ١٣٥٥ هـ .

- معجم البلدان / ياقوت الحموى - دار احياء التراث العربى ، بيروت ١٩٧٩ م .

- معجم الشعراء / للمرزبانى ، مكتبة القدسى الطبعة الاولى .

- معجم المصطلحات الادبية المعاصرة / للدكتور سعيد علوش - دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ط (١) ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م .

- المعرب من الكلام الاعجمى على حروف المعجم / لابى منصور الجواليقى ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، طبعة دار الكتب المصرية - ط (١) ١٣٦١ هـ .

- المعمرون والوصايا / لابى حاتم السجستانى، تحقيق عبد المنعم عامر - طبعة الحلبى ١٩٦١ م .

- المفضليات / تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر الطبعة السادسة .

- مفهوم الشعر دراسة فى التراث النقدى / الدكتور جابر عصفور ، دار الاصلاح للطباعة والنشر ، الدمام ١٩٧٧ م ٠

- المقارنة بين الشعر الاموى والعباسى فى العصر الاول / الدكتور عزيز فهمى - تقديم وتحقيق محمد قنديل البقلى - دار المعارف ١٩٧٩ م ٠

- مقدمة ابن خلدون / تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى،دار نهضة مصر للطبع والنشر ط (٢) ٠

- المكونات الاولى للثقافة العربية / الدكتور عز الدين اسماعيل،مطبعة الاديب - بغداد ١٩٧٢ م ٠

- الملل والنحل / لأبى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى ، تحقيق محمد سيد كيلانى طبعة الحلبى ١٩٧٦ م ٠

- المنتحل / لأبى منصور الثعالبى - المطبعة التجارية - الاسكندرية ١٣١٩ هـ ٠

- من الضائع من معجم الشعراء / للمرزبانى ،تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائى - مؤسسة الرسالة - الطبعة الاولى ١٩٨٤م ٠

- المنمق فى أخبار قريش / لابن حبيب البغدادى،تحقيق خورشيد أحمد فاروق عالم الكتب الطبعة الاولى ١٤٠٥ هـ ٠

- موسيقى الشعر / ابراهيم أنيس،طبعة لجنة البيان العربى ١٩٦٥ م ٠

- موسيقى الشعر العربى دراسة فنية وعروضية / للدكتور حسنى عبد الجليل يوسف ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ م ٠

- الموسيقى الكبير / للفارابى ، تحقيق عطاس عبد الملك خشبة - دار الكتاب الغربى ١٩٦٧ م .

- موقف الشعر من الفن والحياة فى العصر العباسى / للدكتور محمد زكى العشماوى، دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨١ م .

- النابغة الذبيانى / للدكتور محمد زكى العشماوى، دار المعارف - الطبعة الثانية ١٩٦٨ م .

- نثر الدر / لأبى سعيد الآبى - تحقيق محمد على قرنة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ م .

- نظرية الادب / رينيه ويليك ، و أوستن وارين ، ترجمة محى الدين صبحى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٧ م .

- نظرية الشعر فى النقد العربى القديم / للدكتور عبد الفتاح عثمان - مكتبة الشباب (د . ت) .

- نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندى حتى ابن رشد/ الدكتورة ألفت محمد كمال - الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٤ م .

- نظرية اللغة فى النقد العربى ، الدكتور عبد الحكيم راضى - مكتبة الخانجى - القاهرة ١٩٨٠ م .

- نقائض جرير والفرزدق / لأبى عبيدة، دار الكتاب العربى - بيروت لبنان (د . ت) .

- نهاية الأرب فى فنون الأدب / للنويرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ م .

- نوادر المخطوطات - تحقيق عبد السلام هارون، طبعة الحلبى - الطبعة الثانية ١٩٧٣ م .

- هاشميات الكميت / تحقيق الدكتور داود سلوم والدكتور نورى القيسى، عالم الكتب - بيروت - الطبعة الاولى ١٩٨٤ م .

- الوافى بالوفيات / لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ، نشرة ريتر - استنبول - ١٩٣١ م .

- وحدة الموضوع فى القصيدة الجاهلية / الدكتور نورى حمودى القيسى - مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر ١٩٧٤ م .

- الورقة / لابن الجراح - تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج، طبعة دار المعارف - الطبعة الثانية .

- الوزراء والكتاب / لابى محمد الجهشيارى ، تحقيق مصطفى السقا - مطبعة الحلبى - الطبعة الثانية ١٩٨٠ م .

- وفيات الاعيان / لابن خلكان تحقيق الدكتور احسان عباس - دار صادر بيروت ١٩٧٧ م .

- يزيد مفرغ الحميرى - حياته - شعره / جمع وتقديم الدكتور داود سلوم - مطبعة الايمان بغداد ١٩٦٨ م .

- يزيد بن مفرغ الحميرى - حياته وشعره / الدكتور عبد القدوس أبو صالح - مؤسسة الرسالة ١٣٩٥ هـ .

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
شكر وتقدير	-
مقدمة البحث	أ - ح
التمهيد	١ - ١٠
تعريف الشكوى اللغوى ثم مفهومها عند الباحث	١ - ٤
الشكوى تعبير ذاتى عن هموم الانسان	٥
بساطة الشكوى عند الشاعر الجاهلى	٦
الشكوى غرض قديم فى الشعر العربى	٦
اتساع الشكوى كلما تقدم الانسان فى ميدان الثقافة والتحضر	٦ - ٧
اغفال النقاد القدامى لغرض الشكوى فى دراساتهم	٧ - ٨
بواعث الشكوى ـ ذاتية ـ اجتماعية ـ سياسية	٨ - ١٠
الباب الأول	
الشكوى الذاتية	١١ - ٩٩
الفصل الأول :	
الشكوى الذاتية بواعثها فىالعصر الجاهلى	١٢ - ٤١
الفصل الثانى :	
الشكوى الذاتية فى القرن الأول الهجرى	٤٢ - ٧١
الفصل الثالث :	
اتساع الشكوى الذاتية فىالقرنين الثانى والثالث ...... الهجرى .	٧٢ - ٩٩

الموضـــــوع	رقـم الصفحـــة
البـــاب الثـانـى	
الشكـوى الاجتماعية	١٠٠ - ٢٩٦
الفصل الأول :	
الشكوى الاجتماعية فى العصر الجاهلى	١٠١ - ١٦٧
مدخل فى دراسة الحياة الاجتماعية	١٠٢ - ١٠٩
المبحث الاول : الشكوى من الظلم	١١٠ - ١٣٠
المبحث الثانى : الشكوى من الشيخوخة	١٣١ - ١٥٠
المبحث الثالث : الشكوى من الفقر وسوء الحال	١٥١ - ١٦٧
الفصل الثانى :	
الشكوى الاجتماعية فى القرن الأول الهجرى	١٦٨ - ٢٤٤
مدخل فى دراسة الحياة الاجتماعية	١٦٩ - ١٧٩
المبحث الاول : الشكوى من فراق الابناء والاقارب	١٨٠ - ١٨٧
المبحث الثانى : الشكوى من ظلم الولاة	١٨٨ - ٢١٩
المبحث الثالث : الشكوى من السجن	٢٢٠ - ٢٤٤
الفصل الثالث :	
الشكوى الاجتماعية فىالقرنين الثانى والثالث .... الهجرى .	٢٤٥ - ٢٩٦
المبحث الاول : الشكوى من أثر الموالى فى الحياة الاجتماعية ...	٢٤٦ - ٢٦٧
المبحث الثانى : الشكوى من الفقر وسوء الحال	٢٦٨ - ٢٩٦

الموضـــوع	رقم الصفحة
الباب الثالث	
الشكوى السياسية	٢٩٧ - ٤٠٦
الفصل الأول :	
ملامح الشكوى السياسية فى العصر الجاهلى	٢٩٨ - ٣١٤
الفصل الثانى :	
الشكوى السياسية فى عصر صدر الاسلام	٣١٥ - ٣٣٧
الفصل الثالث :	
الشكوى السياسية فى ظل سياسة بنى أمية	٣٣٨ - ٣٨٣
الفصل الرابع :	
هموم الشعراء من خلال الاتجاهات السياسية والمذهبية .. فى العصر العباسى حتى نهاية القرن الثالث	٣٨٤ - ٤٠٦
الباب الرابع	
البناء الفنى لشعر الشكوى	٤٠٧ -٥٠٣
الفصل الاول :	
فى اللغة والاسلوب	٤٠٨ - ٤٤٦
الفصل الثانى :	
فى الصور الشعرية	٤٤٧ - ٤٧٩
الفصل الثالث :	
فى الموسيقى الشعرية	٤٨٠ - ٥٠٣

الموضوع	رقم الصفحة
خاتمة البحث ونتائجه	٥٠٤ - ٥٥٤
المصادر والمراجع	٥١٧ - ٥٥٤
فهرس الموضوعات	٥٥٥ - ٥٥٩